الحرب والسلم



ليو تولستوي

المجلد الأول

الفارابي

ليُو تولستوي

الحرب والسلم

ألياذة العصور الحديثة

المجلد الأول

ترجمة: فارس غصوب

دار الفارابي

الكتاب: الحرب والسلم ـ المجلد الأول
المؤلف: ليُو تولستوي
المترجم: فارس غصوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-237-6

تباع النسخة الكترونيًا عبر موقع الدار.

الجزء الأول

الفصل الأول

ذات صباح من شهر حزيران ١٨٠٥، بعثت أنا پاڤلوڤنا شيرر، وصيفة الأمبراطورة ماري فيودوروڤنا المحظية، أحد الخدم الذي كان يلبس بزة رسمية ذات لون أحمر وبيده بطاقات دعوة إلى جميع معارفها، وتتضمن ما يلي: «إن كنت ترغب في تمضية سهرة لا ترعبك في منزل مريضة تعيسة وليس لديك ما تقوم به أفضل من ذلك، فسأكون سعيدة جداً، سيدي الكونت أو أميري، أن ألتقيك بين الساعة السابعة والساعة العاشرة»

آنيت شيرر

منذ بضعة أيام، تعرضت آنّا پاڤلوڤنا إلى نوبة سعال أطلقت عليها اسم «كريب» وذلك لكي تضيف مفردة جديدة لم تستخدم حتى الآن وليست شائعة... فكانت هذه النوبة حجة التنويه بالمرض في بطاقات الدعوة.

كان أول من حضر حفلتها الأمير بازيل، وهو شخصية معروفة راقية.

وكان يلبس ثياب البلاط الرسمية المزدانة بالأوسمة وجوارب من الحرير، تظهر ساقيه من خفين رشيقين، وقد أشرق وجهه ذو القسمات الخادعة.

رحّبت به آنّا پاڤلوڤنا بما يلي:

«إن جنوا ولوك، يا أميري هما الآن إقطاعيتان تابعتان لملكية عائلة بوناپرت. أبلغك أنك إن لم تعلمني أننا سنعلن الحرب أو استمررت في

تلطيف الأعمال الفاحشة لهذا الدجال فسوف أتنكر لك ـ وإني لأنفذ ما أقول. وبعد ذلك لن تكون صديقي ولا خادمي المطيع كما تقول. أجل، مرحى مرحى، هل أرعبتك؟ تفضل بالجلوس وهات ما عندك من أخبار».

أجاب الأمير غير مكترث لهذا الاستقبال.

ـ يا له من كلام لاذع!

هذه، كانت آراؤه، وهو يفكر في تلك اللهجة الفرنسية التي يستخدمها رجال البلاط المرموقون، مضيفاً إليها نبرة متعالية، ومخارج ممطوطة يستعملها الذين قضوا حياتهم في المجتمعات المخملية، وكانوا ذوي حظوة في البلاط.

خفض رأسه المعطر وقبّل يد آنّا پاڤلوڤنا، ثم جلس برشاقة على الكنبة.

وأردف قائلاً بلهجته تلك وبصوت فيه عدم اكتراث، وهو أقرب إلى التهكم خلف ستار من اللياقة والأدب:

ـ فليطمئن صديقك أولاً، ثم كيف حالك يا صديقتي الغالية.

فأجابته پاڤلوڤنا:

ـ وهل تطيب نفس الإنسان إن كان يتعذب معنوياً؟ وهل يستطيع الإنسان الاحتفاظ بهدوئه في هذه الأيام إذا كان من أصحاب القلوب الطيبة؟ أظن أنك ستبقى عندي في هذه السهرة؟

ـ وسهرة المفوضية الإنكليزية؟

نحن في يوم الأربعاء يجب أن أكون هناك أيضاً ستجيء ابنتي لترافقني.

ـ أعتقد أن الحفلة أُجّلت اليوم. أصارحك بأن كل هذه المظاهر والسهرات أصبحت مصطنعة وتافهة.

أكد الأمير الذي كان مثل الساعة دقة يقدم اقتراحات كالمعتاد، وهو الدعي ينزعج جداً إذا اتخذت بشكل جدي.

ـ لو عرفوا أنك ترغبين في ذلك لغيّروا موعدها بالتأكيد.

ـ لا تقلقني! قل لي ماذا قرروا بصدد رسالة نوڤوسيلتسوف أنت على علم بكل شيء.

قال لها الأمير بأسلوب بارد:

ـ ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد اتخذوا قراراً بإضرام النار في السفن لأن بوناپرت أحرق سفنه، ومن المحتمل أن نحذو نحن نحذوه.

يتحدث الأمير بازيل دائماً بلهجة ممطوطة كأنه يمثل دوراً حضّره بدقة مراراً وتكراراً سلفاً. وكانت آنّا پاڤلوڤنا على عكسه مندفعة جداً وملؤها الحماسة رغم بلوغها الأربعين من العمر.

وصارت الحماسة عندها ميزة معروفة، وقد كانت تظهر حماستها رغماً عنها كرمى لأصدقائها. فالابتسامة الرقيقة تظهر باستمرار مشرقة على وجهها، رغم التنافر بينها وبين تقاسيم وجهها، شأن الأطفال ـ توحي بأنها تعترف بخطأها الذي لا يمكنها أن تتراجع عنه ولا أن تصححه.

وأثناء حديثها، غضبت آنّا پاڤلوڤنا على السياسة وصاحت بقوة وسخط:

ـ لا تخبرني شيئاً عن النمسا، أنا لست مطّلعة على الحقيقة، لكن النمسا لا ترغب في الحرب أبداً ولا تريدها. فهي خائنة لنا. على روسيا فقط تتوقف مهمة خلاص أوروبا.

إن سيدنا المحسن على علم بالمهمة الكبيرة التي عليه أن ينجزها وسوف يكون مخلصاً لهذه المهمة. هذا هو الشيء الوحيد الذي اعتقده صحيحاً. إن أمبراطورنا العظيم عليه أن يقوم بأهمّ دور في العالم. إنه رجل كبير النفس شهم لا يتخلى الله عنه إطلاقاً. سيقوم بمهمته على أكمل وجه ويخنق الثورة التي هي اليوم أشد خطراً ورعباً بعد أن جسّدها هذا السفاح الدجال. يجب علينا الآن وعلينا وحدنا أن نقيم العدالة. على من يمكننا الاعتماد؟ على إنكلترا بعقليتها

التجارية إنها لا تفهم عظمة وجلالة الأمبراطور ألكسندر. فهي لم تتخلّ عن مالطة. إنها تحتج باستمرار وتتهمنا بإخفاء النيات السيئة. هل تعرف ماذا قالوا لنوڤوسيلتسوف؟ لا شيء! لم ولن يدركوا نزاهة أمبراطورنا وأنه لايبغي كسباً ذاتياً بل يريد للعالم بأسره كل ما هو جيد. ماذا كان وعدهم؟ لا شيء! لن يبرّوا بوعودهم ولو قطعوها على أنفسهم! صرّحت بروسيا أن بوناپرت لا يقهر. فإذا صدَّقنا هذا القول يعني أن أوروبا برمتها لن تصمد أمام جيوشه.

أنا لا أفهم أيّ كلمة من هلوسات هاردنبرغ أو هوغويتز. إن بروسيا على الحياد يعني شركاً مؤكداً. أنا أؤمن بالرب وحده بالمهمة السامية التي يقوم بها أمبراطورنا الكبير، فهو منقذ أوروبا!

أنهت كلامها فجأة وابتسمت لحماستها. فقال الأمير مبتسماً: لو أنك أرسلت غير وينتزنجيرود المحبب لكنت حظيت بموافقة ملك بروسيا... يا لبلاغتك المدهشة! هل تقدمين لي قدحاً من الشاي؟

ـ حالاً.

وأردفت تقول وقد هدأت:

ـ عندي بهذه المناسبة شخصيتان بارزتان في هذا اليوم. هما الڤيكونت مورتمارت المؤيد لأسرة مونتمورانسي عن طريق عائلة روهان، وهو اسم بارز في فرنسا ومن أفضل المهاجرين، ثم الكاهن موريو. هلّا تعرفت إلى هذا العبقري؟ هل تعرفت إليه. إن الأمبراطور بذاته قد رحّب به؟

ـ سأكون سعيداً بمعرفته!

وأردف برشاقة كمن تذكر شيئاً أساسياً هو الدافع لزيارته:

بالمناسبة، صحيح أن الأمبراطورة الأم تؤيد بقوة ترشيح البارون دو فونك للسكرتارية الأولى في ڤيينا؟ إنه مفلس هذا البارون، على ما يظهر.

كان الأمير بازيل يودّ أن تكون هذه الوظيفة لابنه، بينما استغل بعضهم وساطة الأمبراطورة ماري فيودوروڤنا، لفرض البارون فيها.

قالت ببرودة:

ـ لقد أوصي بالبارون دو فونك إلى الأمبراطورة الأم عن طريق شقيقتها.

عندما تحدثت آنّا پاڤلوڤنا باسم الأمبراطورة بدت على وجهها علامات احترام وتفخيم مخلصين لا يوجد فيهما أي شك، وقد اتخذت مثل هذا الطابع التفخيمي مراراً عندما تتحدث عن تلك الشخصية المرموقة التي ترعاها.

وتابعت تقول وقد اسودت مجدداً نظرتها:

تكرمت جلالتها وأغدقت على البارون تكريماً بالغاً.

سكت الأمير سكوتاً مطبقاً، لأن آنّا پاڤلوڤا وهي ذات حسّ مرهف وطباع عريقة في أمور البلاط، أرادت أن تفهم الأمير بأنه تخطى حدود الاحترام في حديثه عن امرئ هو بحماية الأمبراطورة، باللهجة عينها التي استخدمها وأرادت في الوقت نفسه أن تشعره بالخيبة التي أصابته، فقالت:

ـ أما فيما يتعلق بعائلتك، فإن ابنتك قد أصبحت راشدة وهي لافتة للأنظار، هل تعرف ذلك؟ إنها كضوء النهار.

وللتدليل على شكره، انحنى الأمير قليلاً.

وبعد برهة من السكوت، اقتربت آنّا پاڤلوڤنا من الأمير مبتسمة بلطف وكأنها تقول له إن المسائل الاجتماعية والسياسية تمهد السبل للمناجاة الودية الحميمة.

ثم تابعت:

ـ غالباً ما أفكر أن الحياة مجحفة في توفير السعادة.

وأردفت وهي مقطبة حاجبيها بلهجة صارمة:

ـ لماذا وفر لك القدر ولدين فاتنين عدا أناتول الصغير الذي لا يروقني أبداً ـ هما على هذا القدر من الجمال؟ وأنت غير مكترث لهما ولا تستأهلهما.

فأجابها الأمير:

ـ ما حيلتي؟ ربما يقول لافاتر[1] إنني أفتقر إلى الحنوّ الأبوي.

فأجاب الأمير:

ـ كفى سخرية. أريد التحدث إليك بجدية هلّا عرفت أنني غاضبة من ابنك الصغير؟

وغطت وجهها سحابة من الهمّ وتابعت.

ـ دار الحديث عنه في حضور صاحبة الجلالة الأمبراطورة ـ وهذا الكلام بيننا ـ لقد أخذتهم الشفقة عليك.

لم يجب الأمير فحدجته بنظرة قاسية، فقطّب حاجبيه وقال:

ـ ماذا أستطيع أن أفعل برأيك؟ لقد وفرت لتثقيفهما كل ما يمكنني. فهما أحمقان. هيپوليت أحمق هادئ أما أناتول فهو أحمق عربيد.

وابتسم متبرماً كعادته، وبرزت على شفتيه علامات الغضب، وقال:

ـ هذا هو الفرق بينهما.

فأجابت وهي تنظر إليه بعينين ناعستين:

ـ لماذا ينجب الناس أمثالك أولاداً؟ لو لم تكن أباً لما وجدت ما آخذه عليك.

ـ أنا خادمك الوفي. أبوح لك وحدك بأن أولادي هم قيود وجودي ومصدر عذابي. هكذا أرى الأمور. ماذا تطلبين مني بعد؟

سكت وأشار بيديه متابعاً حديثه، مستسلماً لمصيره المشؤوم بينما غاصت آنّا پاڤلوڤنا في التفكير:

ـ ألم تراودك فكرة تزويج «أناتولك»، هذا الابن الضال؟ يقال إن العانسات لديهن هوس بالزواج. أنا لم أشعر بمثل هذا الضعف. لكنني أعرف

---

(١) لافاتر، فيلسوف وشاعر سويسري ولد في زيوريخ وهو مبتدع علم الفراسة. (المترجم).

فتاة حوّل والدها حياتها إلى جحيم: إنها إحدى أميرات ﭙولكونسكي، وهي قريبة لنا.

كان جواب الأمير إشارة من رأسه برهن بها ببداهة الإنسان الراقي عن استيعابه الهدف والعرض. ثم تابع آراءه المحزنة يقول:

ـ هل تعرفين أن «أناتول» هذا، يكلفني أربعين ألف روبل سنوياً؟

سكت برهة ثم تابع يقول:

ـ ماذا لو استمرّ الوضع خمس سنوات على هذا النحو؟ هذا ما يناله المرء عندما يكون أباً. هل أميرتك شابة ثرية؟

ـ والدها ثري بقدر ما هو بخيل. يسكن في الريف، إنه الأمير ﭙولكونسكي، الذي ترك الخدمة منذ عهد الأمبراطور المرحوم الملقّب بملك بروسيا. إنه متقد الذكاء لكنه سيئ المعشر. وابنته المسكينة تعيسة جداً ولها شقيق تزوج حديثاً بليزمينن، وهو مرافق كوتوزف. أنا بانتظاره هذا المساء.

وفجأة، أمسك الأمير بيد محدثته، وأدناها فكادت تلامس الأرض، وقال:

ـ إسمعي، عزيزتي أنيت، اهتمي بهذه المسألة وسأكون خادمك المطيع إلى الأبد. (أ. ب.د) كما يكتب وكيلي في تقاريره. إنها ثرية ومن عائلة مرموقة، وهذا ما أتمناه.

وانحنى بحركاته الأنيقة التي يتميز بها على يد وصيفة الشرف ليقبلها. وأخذ يهزها وهو جالس على كنبته يتأملها.

قالت أنّا ﭙاڤلوڤنا واجمة:

مهلاً، هذا المساء سأتحدث إلى ليز زوجة ﭙولكونسكي الشاب. ربما تمكنت من النجاح في هذه المسألة، وسيكون ذلك بمثابة تدريبي الأول كعانس، في إقامة أول زواج لفرد من عائلتك.

الفصل الثاني

ازدحمت قاعة استقبال منزل آنّا پاڤلوڤنا بالمدعوين. فتلاقت فيها نخبة الطبقة الأرستقراطية في بيترسبوغ من كل الأعمار والمشارب شخصيات تربط بينها صلة الحسب، رغم الفرق في الوظائف واختلاف الآراء. وصلت هيلين الفاتنة، ابنة الأمير بازيل لترافق والدها إلى حفلة السفارة الإنكليزية، ترفل في ثيابها الخاصة بالحفلات التي تنمّ عن الثراء المترف الذي تتمتع به. ودخلت الأميرة الشابة الصغيرة پولكونسكي التي ذاعت شهرتها كأجمل امرأة بين نساء پيترسبورغ وأوفرهن فتنة، وقد تزوجت في الشتاء الفائت، وهي الآن تنتظر مولوداً، مما جعلها تستنكف من حضور الحفلات العامة والظهور فقط في الحفلات العائلية الحميمة. ثم وصل الأمير هيپوليت، نجل الأمير بازيل برفقة مورتمارت، وقدّمه للحضور. ثم دخل الأب موريو يتقدم لفيفاً من وجهاء القوم ونخبة أهل الثراء.

وكلما وصل مدعوّ تسأله آنّا پاڤلوڤنا: «هل رأيت خالتي؟» و«هل تعرفت إلى خالتي؟». ثم تتنقل وعلى وجهها علامات الرزانة والجدية وتذهب إلى عجوز، قصيرة القامة، مزينة بشرائط ضخمة، خرجت، عند وصول المدعوين، من غرفة مجاورة، فتقدّمهم إليها وهي تجيل ببصرها بينهم وبين «الماتانت» وبعدها تنسحب على الفور.

ويتقدّم كل مدعوّ بتهانيه التقليدية، وبكلام لائق بالمقام، بصدد عمتها تلك غير المعروفة، ولا أحد يشعر بحاجة إلى التعرف إليها، فتعلن آنّا پاڤلوڤنا

بشكلها المتطير موافقتها على الإطراء. وكانت «الماتانت»[1] تبدأ حديثها مع المقدّمين إليها، بكلمة تقليدية عن صحتهم، وصحتها وصحة جلالة الأمبراطورة التي هي اليوم أفضل حالاً، والشكر لله، وبدأ كل مدعو ينسحب مستأذناً دون أن يظهر تلهفاً من باب المجاملة والآداب، ويتنهد كمن تخلص من عبء عسير، فلا يعود يراها طوال السهرة.

وفي كيس صغير، مدبَّج بالذهب، حملت الأميرة ﭘولكونسكي أشغالها، وكان طيف من الزغب يظلل شفتها العليا الفاتنة، وهي قصيرة قليلاً لكنها تنفرج بعذوبة وتشكل بانضمامها إلى السفلى تشذراً أكثر فتنة. وتلك العيوب البسيطة، الشفة القصيرة والفم المنفرج، تزيدها جاذبية كما هي الحال لدى النساء الجميلات. وكل من يتأمل تلك الأم المنتظرة، المفعمة بالحيوية، وهي تحمل أعباءها بنشاط، يشعر بالفرح يغمر قلبه. فدقائق معدودة بصحبتها كافية ليشعر الشباب والكهول المتضجرون أنهم أصبحوا مثلها نشاطاً. وكل من رأى وهو يتحدث إليها، وعاين أسنانها البيضاء، يعتقد أنه في تلك السهرة، أكثر رقة من أي وقت مضى. وهكذا كان يعتقد سائر المدعوين.

وراحت الأميرة الصغيرة تدور حول الطاولة بخطى واثقة وفي يدها كيس أشغالها ثم جلست على مقربة من السماور الفضي ترتب ثوبها بتأن، كأن الأمر يتعلق بحفلة سمر ستتذوقها مثل كل المحيطين بها، ثم فتحت حقيبة اليد وكأنها توجه كلامها إلى كل شخص من حولها:

ـ لقد جئت حاملة معي أشغالي.

ثم وجهت حديثها إلى ربة البيت قائلة:

ـ إياك يا آنّيت أن تدبري لي حيلة ماكرة، كتبت لي تقولين إنها سهرة صغيرة، فانظري إلى تبرجي المتواضع.

---

(١) «خالتي» بالفرنسية، لغة الطبقة الأرستقراطية في روسيا. (المترجم).

ومدت ذراعيها لتريها ثوبها الأشهب الموشى بالخرز، والذي يحيط به شريط عريض يمتد حتى أسفل الصدر.

فأجابت آنّا پاڤلوڤنا:

ـ بلا مجاملة يا ليز، أنت أجمل من يحضر دائماً.

وأردفت ليز موجهة كلامها إلى أحد الجنرالات بلهجتها الرقيقة:

ـ هل عرفت أن زوجي قد هجرني مؤثراً عليّ الموت.

ثم توجهت إلى الأمير بازيل:

ـ لماذا هذه الحرب؟ قل لي؟

ودون أن تنتظر جواباً، اتجهت نحو هيلين الفاتنة ابنة الأمير بازيل.

فهمهم هذا في أذن آنّا پاڤلوڤنا يقول:

ـ يا لها من شخصية جذابة، هذه الأميرة الصغيرة!

وبعد برهة من وصول الأميرة، دخل شاب متين البنية، ذو جثة ضخمة، حليق الرأس، يضع نظارتين، وسراويل فاتحة اللون من أحدث طراز، وفراكاً بلون القرفة وصدارة عالية. وهذا الشاب الضخم هو الابن غير الشرعي للكونت بيزوخوف الشخصية الشهيرة على عهد كاترين الثانية والذي قضى آخر أيامه في موسكو. لقد نشأ الشاب خارج البلاد ورجع منذ حين إلى روسيا ولم ينخرط في الجيش. كانت تلك السهرة أول عهده بالظهور في المجتمع الراقي.

استقبلته ربة المنزل بالتحية التي استقبلت بها أقل الناس شأناً من المدعوين. وأشفعت آنّا پاڤلوڤنا استقبالها له ببعض التبرّم الذي يظهرعلى وجه المرء عندما يصادف أمراً مزعجاً مع ما يحيط به. وهذا الشاب الضخم يجمع بين البساطة والذكاء، وهذه الميزة التي يتمتع بها هي سبب النفور الذي استقبل به. بالإضافة إلى ذلك، شكله العام الذي أثّر كثيراً في نفوس الرجال الموجودين.

قالت آنّا پاڤلوڤنا بعد أن تبادلت نظرة قلقة مع «الماتانت»، وعرّفتها إلى الزائر الجديد.

ـ جميل منك يا سيد پيار أن تزور مريضة مسكينة.

غمغم پيار ببعض الكلمات غير المفهومة بينما كانت نظراته تحدج وجوه المجتمعين بوقاحة. حيّا الأميرة الصغيرة بابتسامة لطيفة كما يحيي المرء أحد أصدقائه المقربين. ثم اقترب من العمة. ولم يكن قلق آنّا پاڤلوڤنا بدون مبرر، إذ إن السيد پيار ترك العجوز اللطيفة قبل أن تنهي حديثها عن جلالة الأمبراطورة.

استوقفته آنّا پاڤلوڤنا خائفة وقالت:

ـ هل تعرفت إلى الأب موريو؟ إنه شخصية مرموقة.

ـ أجل، سمعت عن تصميمه على السلم الدائم، إنه مشروع يثير الفضول، لكنه ليس عملياً.

قالت آنّا پاڤلوڤنا، وهي ترغب في الكلام:

ـ هل تعتقد ذلك؟

وأرادت أن تعود إلى واجباتها كربة منزل. لكن پيار ارتكب خطأً يتناقض مع خطأه الأول تماماً. ففي المرة الأولى، غادر محدثته قبل أن تنهي حديثها، والآن يستوقف محدثة ثانية رغم إرادتها. ثم وقف أمام آنّا پاڤلوڤنا، مطأطئ الرأس، مباعداً ما بين ساقيه الضخمتين، يعرض عليها الأسباب التي تجعل تصميم الأب موريو خيالياً تماماً.

قالت آنّا پاڤلوڤنا مبتسمة:

ـ سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

وتركت الشاب الذي لا يعرف كيف يتصرف، وعادت تقوم بواجباتها كمضيفة، وكلها عيون وآذان صاغية، حاضرة لكي تتدخل في أي حديث إذا وجدت أن حدّته قد خمدت. مثل معلم النسيج، يروح ويجيء مشرفاً على

أنواله وماكناته، فإذا سمع صريراً أو ظهر خلل ما، أسرع إلى مكان العطب يصلحه، فيوقف هذا ويحرك الآخر. هكذا كانت أنّا پاڤلوڤنا تجول في قاعة الاستقبال تقترب من الحلقات الصامتة فتثيرها، ومن الجماعات الصاخبة تهدئ من حدّتها. فتلقي كلمة هنا، أو تنقل شخصاً إلى هناك؛ لكن تلك العناية الفائقة وذلك النشاط لم ينجحا في إزالة الكآبة التي أحدثها حضور پيار. تابعته بنظرة قلقة، فرأت أنه يتجه إلى الحلقة التي تحيط بمورتمارت ثم ينتقل إلى حيث يتحدث الأب موريو بإسهاب. وكانت حفلة أنّا پاڤلوڤنا الأولى التي يحضرها پيار الذي درس خارج روسيا. وهو يعرف أن «أضواء» پيترسبورغ على موعد للتلاقي فيها. كان شبيهاً بالغلام في دكان بائع الدمى، ينظر إلى كل شيء بإعجاب. كان يخشى أن تفوته بعض البحوث الرصينة التي يمكن أن يستفيد منها، فلما وجد بعض الشخصيات المعروفة تتحلّق حول الأب موريو، انضمّ إلى المجتمعين، يصغي إلى روائع فكرية، وكانت المناقشة مستعرة، متحيناً الفرصة للإدلاء بوجهة نظره.

الفصل الثالث

سارت الأمور على أفضل حال في سهرة آنّا پاڤلوڤنا. سارت الدرارات بانتظام ودقة في كل أرجاء المصنع، باستثناء «الماتانت» التي لم يبق أحد تتحدث إليه إلا سيدة مسنّة ذات وجه نحيل جرّحته الدموع غير مرتاحة إلى الوسط اللامع الذي هي فيه. انقسم المدعوون إلى ثلاث جماعات: الأولى، أغلبيتها من الرجال يتزعمها الأب موريو. الثانية ضمت الشباب وسطعت فيها الأميرة الفاتنة هيلين إلى جانب الأميرة الجميلة پولكونسكي، وقد تورّد وجهها. والثالثة، ضمت آنّا پاڤلوڤنا ومورتمارت.

ومن دون أي شك كان الڤيكونت الشاب أنيق المظهر دقيق القسمات والأساليب اللطيفة، ويعتقد أنه شخصية مرموقة، لهذا السبب لم يترفع عن إرضاء فضولية مجموعة النبلاء الذين يلتفون حوله بتهذيب وتصرفات لائقة. كما أن آنّا پاڤلوڤنا قدمته إلى المدعوين بما يليق به من اعتبار. وكما أن الطاهي البارع يقدّم للزبائن طبقاً يعتبره من أشهى الطعام لو قدّم في مطعم قذر لأثار الاشمئزاز، على هذا النحو، قدّمت آنّا پاڤلوڤنا للمدعوين الڤيكونت الشاب أولاً ثم الأب موريو كما تقدم أطباقاً من الطعام انتقتها بعناية فائقة وتدقيق.

جرى الحديث، بادئ ذي بدء، عند جماعة مورتمارت عن إعدام الدوق دانجين[1].

---

(١) الدوق دانجين ابن لويس هنري جوزيف، وقد اختطف من الأراضي الألمانية تنفيذاً لأمر بوناپرت وأعدم رمياً بالرصاص ١٨٠٤

وقال الڤيكونت مؤكداً أن الدوق ذهب ضحيَّة قلبه الطيب، وفي إعدامه موجبات تتعلق بحقد بوناپرت.

وحدِّثنا بذلك يا ڤيكونت.

وأنّا پاڤلوڤنا هي التي هتفت بتلك الجملة، وقد راقها أن في: «حدِّثنا بذلك يا فيكونت» على بساطتها، وقعاً يحمل بين طياته، أسلوب التحدث على طريقة الملك لويس الخامس عشر.

انحنى الڤيكونت احتراماً للمتكلمة، وقد بدت على ثغره ابتسامة شفافة. فبادرت آنّا پاڤلوڤنا فوراً إلى تشكيل حلقة حول الڤيكونت الشاب، ودعت الموجودين إلى الاستماع إلى حديثه.

قال لأحدهم:

كان الڤيكونت معروفاً بصورة خاصة من قبل سمو الدوق...

وإلى آخر.

ـ إن الڤيكونت محدث لبق...

وإلى ثالث تحضه بقولها:

ـ سرعان ما يعرف المرء الرجل الممتع الصحبة...

وهكذا قدمت الڤيكونت سلواناً لمجتمعها الراقي، على أبهى مظهر، كما يقدم طبق من اللحم المشوي، وقد ذر عليه البهار والمشهيات.

وابتسم الڤيكونت ابتسامته الرقيقة، واستعد للبدء بحديثه.

هتفت آنّا پاڤلوڤنا بالأميرة الجميلة التي كانت على مقربة منها، وسط فريق من المعجبين:

تعالي هنا يا عزيزتي هيلين.

نهضت الأميرة هيلين، وعلى ثغرها ابتسامة مشعة، ابتسامة المرأة الجميلة المكتملة الأنوثة، التي كانت تشرق على وجهها منذ أن دخلت قاعة

الاستقبال. مشت وسط الرجال الذين راحوا يفسحون لها في الطريق وهي تجر وراءها ثوبها الموشى بالزهور، فيحدث حفيفاً خافقاً، واختالت مزهوة بكتفيها البضتين، وشعرها المتموج، وجواهرها المتلألئة، شامخة الرأس، لا أحداً بنظرتها، وابتسامتها تغمر الموجودين. وبدت كأنها تراعي أن يتأمل كل منهم قامتها الفارعة، وكتفيها المنسجمتين، وجيدها وظهرها العاريين، البارزين من خلال فتحة الثوب، حسب مبتكرات ذلك العصر. اقتربت من آنّا پاڤلوڤنا وكأنها تجر وراءها كل روعة الحفلة. كانت هيلين على قسط كبير من الجمال، بعيدة عن أسباب التبرج، تبدو مشفقة من سلطان جمالها المفرط وكأنها تبحث عبثاً عن وسيلة تخفف من طغيانه.

كان كل من يراها لا يتمالك نفسه عن القول.

ـ يا للجمال!

وعندما جلست أمام مورتمارت، وطلعت عليه بابتسامتها، أجفل الڤيكونت وكأن الدهشة عقلت لسانه. وأطرق مبتسماً.

قال وهو ينحني:

ـ سيدتي، إنني مشفق على وسائلي في حضرة الجمال الطاغي.

لم ترد الأميرة على إطرائه، وأسندت ذراعها إلى نضد صغير، وانتظرت مبتسمة. بقيت طوال المدة التي استغرقتها وقائع القصة، منتصبة الجسد، ترتب ثنيات ثوبها، أو تتأمل ذراعها المستديرة البديعة، التي كان ثقلها على النضد يخفق في تشويه شكلها الشهي، وعنقها الفتان، الذي كانت تعانقه قلادة ألماسية. وفي المواقع المثيرة من القصة. كانت عيناها تشخصان إلى وجه آنّا پاڤلوڤنا مستفهمتين، فتنقل هذه انطباعاتها بإخلاص. لكن تقاطيع وجهها سرعان ما تنبسط بابتسامة ملائكية.

تركت الأميرة الصغيرة مائدة الشاي على أعقاب هيلين، وهي تصيح:

ـ انتظريني ريثما آخذ أشغالي.

ثم توجهت إلى الأمير هيپوليت:

ـ فيمَ تفكر؟ جئني بحقيبتي اليدوية!

أحدث تأهب الأميرة للانتقال من مكانها، وما أشفعته بحديث وبضحكات وزعتها على الذين حولها، لغطاً في جماعة مورتمارت، فلما جلست بين أفراد الجماعة الجديدة، ورتبت زينتها، قالت وهي تستعيد أشغالها:

ـ هكذا. لقد أخذت مكاني. يمكنك أن تبدأ قصتك.

وتبعها الأمير هيپوليت، حامل الحقيبة، في حلها الجديد، وجلس على مقعد على مقربة منها.

كان بين «هيپوليت الجذاب» وشقيقته هيلين الفاتنة شبه واضح، لم يمنع أن يكون الشقيق بشعاً جداً، رغم تشابه القسمات: كانت قسمات هيلين مشعة دائماً بتلك الابتسامة الفتية، التي تشع حبوراً، وتنمّ عن استمتاع ببهجة الحياة. على عكس شقيقها الذي كانت قسماته مظلمة، وقد انسدل عليها حجاب من الغباوة، فأصبحت تدل على زهو متجهم، ثابت، وكان تكوين هيلين الكامل الذي أبدع الفنان في صياغته وتركيبه، يتناقض مع جسم هيپوليت النحيل. فكان وجهه متقلصاً دائماً تحيط بأنفه وفمه وعينيه خطوط تدل على شراسة طبعه. أما ذراعاه وساقاه، فكانت تتخذ على الدوام وضعيات منفرة.

لم يكد يجلس في مقعده، حتى بادر إلى تثبيت نظارتيه، وهي الحركة الملازمة التي بدونها لا يستطيع البدء بالحديث.

قال مستفهماً:

ـ هل هي قصة أشباح؟

فأجاب المحاضر حائراً وهو يهز كتفيه:

ـ لا يا عزيزي.

قال الأمير معللاً سؤاله:

ـ لأنني أكره قصص الأشباح.

كانت لهجة الأمير تدل على أنه لا يتوخى الدقة في كلامه وأنه يعرف معاني أقواله بعد أن يصرفها. وكان يتحدث بتأكيد، حتى أن المستمع يحار في اتخاذ عباراته على محمل الرشد. كان يرتدي جوارب حريرية، وينتعل خفين، ويرتدي «فراكاً» أخضر قاتماً، وتحته سراويل اصطلح على تسميتها: فخذ جنية مروعة.

تمكن الڤيكونت أخيراً أن يقص الحكاية بحماسة تتناسب وخطورتها. ولم تكن القصة جديدة أو غريبة. وخلاصتها أن الدوق دانجين الذي قدم سراً إلى پاريس، لزيارة الدوموازيل جورج، وجد عندها بوناپرت الذي كان حائزاً عطف الممثلة الشهيرة. فانتاب بوناپرت إغماء، جعله تحت رحمة خصمه، الذي رفض الإفادة من الفرصة. وسبب نبله ذاك مقتله بعدئذ، لأنه بإغضائه عن قتل بوناپرت في إحدى النوبات التي كان فريسة لها، ترك لبوناپرت إمكانية رسم الخطة للانتقام من الدوق بإعدامه.

كانت القصة مثيرة، وبخاصة في الجزء الذي يصف لقاء الخصمين المفاجئ. وقد أحدثت هذه الناحية تأثيراً في السيدات. فصاحت آنّا پاڤلوڤنا وهي تستفسر الأميرة الشابة بنظرة من عينيها:

ـ جميل جداً، أليس كذلك؟

فغرزت إبرتها في أشغالها، دلالة على أن تلك القصة الممتعة لا تسمح بالاستمرار في عملها، وقالت موافقة:

ـ رائع.

ابتسم الڤيكونت للأميرة شاكراً إياها على إطرائها الذي قدّره جيداً، وأراد استعادة الحديث؛ عندما لاحظت آنّا پاڤلوڤنا أن الشاب الذي خشيت

سوء تصرفه واقتراف حماقة ما، هو الآن في نقاش صاخب مع الأب موريو، أسرعت فوراً إلى الجبهة المهددة.

والحق يقال إن السيّد پيار كان حينئذ يتباحث مع الأب موريو حول التوازن الأوروبي وشرع يعرض على الشاب مشروعه عن السلم الدائم، وقد أخذ بحماسة الشاب الساذج.

كان الأب موريو يقول:

ـ لا يوجد علاج إلا التوازن الأوروبي وحقوق الأفراد. فإذا تزعمت دولة عظمى كروسيا، الموصوفة بالبربرية، حلفاً هدفه إيجاد التوازن في أوروبا فيمكنها أن تنقذ العالم.

ـ وكيف ترى هذا التوازن؟

أراد پيار أن يتابع حديثه، لكن التفاتة حازمة من آنّا پاڤلوڤنا أرغمته على السكوت.

وسألت الأب موريو:

ـ كيف تجد المناخ هنا؟ هل تستطيع أن تتحمله؟

فانطبع وجهه بطابع اللطف الذي يتميز به بحضور السيدات، وقال:

ـ إن جمال هذا المجتمع الذي أسعدني الحظ أن أكون فيه، وقد أذهلتني ميزاته ورقيه، حتى أنني لم أفكر قطّ في المناخ.

وتحاشت آنّا پاڤلوڤنا أن تترك پيار والأب موريو معاً فجذبتهما إلى حلقتها لتتمكن من وضعهما تحت رقابتها الحازمة.

الفصل الرابع

في هذه الأثناء، وصل إلى غرفة الاستقبال، ضيف جديد هو الأمير الشاب أندريه پولكونسكي، زوج الأميرة الشابة. إنه بهيّ الطلعة، متوسط القامة، ذو قسمات جامدة. وكلّ ما فيه، حتى نظرته القاتمة، واتزان مشيته، يدل على أنه نقيض عنيف لحيوية زوجته الرشيقة. وكان يعرف بدون شك زبائن أنّا پاڤلوڤنا وأحاديثهم ولم يكن يميل إلى أحد من أولئك الأشخاص المملين، بمن فيهم زوجته التي ما إن لمحها حتى أشاح بوجهه عنها فوراً.

وبعد أن قبّل يد أنّا پاڤلوڤنا، أخذ يتأمل وجوه المدعوين بعينين نصف مغمضتين.

سألته أنّا پاڤلوڤنا:

ـ هل انضممت إلى صفوف المقاتلين يا أميري؟

فأجاب پولكونسكي بالفرنسية محاولاً تقليد أبناء «السين».

ـ اختارني الجنرال كوتوزوف مرافقاً له...

ـ زوجتك ليز؟

ـ ستبقى في الريف.

ـ ألا تخجل لحرماننا زوجتك الفاتنة؟

صاحت الأميرة تنادي زوجها، بلهجتها اللعوب.

ـ أندريه لو سمعت القصة الرائعة التي رواها الڤيكونت لنا الآن عن بوناپرت الدموازيل جورج. ليتك سمعتها.

قطب الأمير حاجبيه وأشاح بوجهه عنها. وفي تلك اللحظة اقترب منه پيار، الذي كان يتابعه منذ دخوله بنظرة ودية، وأمسك بذراعه. فلم يستدر پولكونسكي، ولكن وجهه اتخذ طابع الاشمئزاز من ذلك المتطفل. لكنه ما كاد يشاهد وجه پيار المبتهج، حتى ابتسم بدوره مرحباً:

قال:

ـ كيف!... هل بدأت تتأقلم مع الأوساط المخملية أنت أيضاً!

فأجاب پيار:

ـ كنت أنتظر رؤيتك. هل يمكنني أن أدعو نفسي إلى تناول العشاء عندك؟

ـ قال هذه الجملة الأخيرة بصوت منخفض لكي لا يشوش على الڤيكونت الذي يجتر قصته العتيدة.

فأجابه الأمير أندريه مقهقهاً:

ـ لا، مستحيل.

بينما كانت يده التي تضغط على يد پيار، تشعره بأن الدعوة للعشاء طبيعية لا تستوجب توكيداً.

أراد أن يضيف بضع كلمات، غير أن الأمير بازيل وابنته نهضا في تلك اللحظة، فاضطر الشابان إلى إخلاء الطريق لهما.

قال الأمير بازيل مخاطباً مورتمارت، وهو يشد على ذراعه بحركة ودية ليمنعه من النهوض لوداعه:

ـ اعذرني يا عزيزي الڤيكونت. لقد أفسدت حفلة السفارة الإنكليزية المزعجة وأفسدت عليّ سروري، فأُجبرت على مقاطعتك.

ثم نظر إلى آنّا بافلوفلنا قائلاً:

ـ إنني متأسف جداً إذ اضطر إلى مغادرة سهرتك الرائعة.

شقت هيلين طريقها بين صفي المقاعد، وهي على أحسن حال من

الإشراق. فلما وصلت إلى حيث يقف پيار، راح هذا يتأمل جمالها بعينين بدا فيهما إعجاب شبيه بالهلع.

قال پولنسكي:

ـ إنها فائقة الجمال.

فغمغم پيار مؤكداً.

ـ نعم إنها رائعة الجمال.

أمسك الأمير بازيل بذراع پيار والتفت إلى آنّا پاڤلوڤنا قائلاً:

ـ أتمنى أن تدجني لي هذا الدب. إنه يسكن عندي منذ شهر، مع ذلك فأنا أراه للمرة الأولى في المجتمع. إن رفقة النساء الذكيات لا يضاهيها مثيل في تهذيب نفوس الشباب.

وعدت آنّا پاڤلوڤنا مبتسمة بأن تهتم بپيار، الذي كانت تعرف صلة القربى التي تربط أباه بالأمير بازيل.

أسرعت السيدة العجوز التي كانت في رفقة «الماتانت» لتلحق الأمير بازيل الذي اختفى عند الردهة من وجهها الذي قعرته الدموع، كالوقار الذي يتطلبه ذلك الوسط، وحل محله القلق.

قالت وهي تركض وراء الأمير:

ألا يوجد لديك ما تقوله لي بشأن بوريس يا أميري، أنا لا أستطيع البقاء في پيترسبورغ أكثر مما مكثت.

وعلى الرغم من أن الأمير كان يستمع إليها بشكل خال من التهذيب، يدل على نفاد صبر، كانت السيدة المسنّة تبتسم له بلطف لكي يصغي إلى كلماتها، حتى أنها في إلحاحها أمسكت بذراعه.

وقالت ضارعة:

ـ لن يكلفك التحدث عن ابني كثيراً. إن حكمة منك، ويدخل ابني بعدها في فرقة الحرس.

أجابها الأمير بازيل:

ـ سأبذل جهدي، يا أميرة، صدقيني. لكنه من الصعب بالنسبة إلي أن أتحدث إلى الأمبراطور. إنني أوصيك أن تتصلي بروميانتسيف، عن طريق الأمير جولستين سيكون ذلك أقرب إلى النجاح.

كانت تلك السيدة العجوز، وهي واحدة من أميرات دروبتسكوي تحمل أكبر الأسماء في روسيا. لكن الفقر اضطرها إلى اعتزال المجتمعات، ففقدت علاقاتها السالفة. وجاءت إلى بيترسبورغ على أمل الوصول إلى وعد بنقل ابنها الوحيد إلى ملاك الحرس. وقد حضرت إلى تلك الحفلة دون أن تدعى إليها، بغية لقاء الأمير بازيل هناك. وكانت هذه الغاية وحدها هي التي جعلتها تصغي بصبر نافد إلى قصة الفيكونت. وقد أرعبها جواب الأميرة في بادئ الأمر، إذ أفصح وجهها الذي ظل محتفظاً ببقايا جمالها الغابر، عن انفعال يشوبه الذعر. وسرعان ما استعادت ابتسامتها وازداد ضغطها على ذراع محدثها بعصبية مكتومة.

قالت:

إصغ إلي يا أميري. أنا لم أسألك قطّ معروفاً، ولن أسألك منّة.

أنا لم أذكرك قطّ بالصداقة التي كان أبي يكنها لك. لكنني أستحلفك الله أن تتوسط الآن من أجل ابني...

ثم تابعت بكلمات متلاحقة قائلة:

ـ إنني أعتبرك المحسن الكريم الذي غمرني بمعروفه. لا تغضب، اعطني وعداً فقط. لقد قابلت جوليستين فرفض...

واستطردت مبتهلة محاولة الابتسام رغم الدموع التي تغمر مآقيها!

ـ كن ذلك الفتى الطيب الذي كنته من قبل.

صاحت الأميرة هيلين التي كانت تنتظر أمام الباب، وقد أدارت رأسها الجميل فوق كتفيها الرشيقتين:

ـ أبتاه، سوف نتأخر عن الموعد.

كان النفوذ في «العالم» الراقي ذخيرة يجدر الاحتفاظ بها، وإلا، فسرعان ما تتبخر فيفقر صاحبها. لذلك كان الأمير بازيل شديد الشح على ذخيرته تلك، قلما يمد يده إليها، وهو على ثقة أنه لو حاول صرفها في التوسط لمصلحة كل من يلتمسون منه وساطة ما، وجد نفسه عاجزاً عن سؤال أي شيء لمصلحته الشخصية. مع ذلك، فإن نداء الأميرة دروپتسكوي الملح، خلق في نفسه شيئاً من التبكيت والتعنيف الخفي. لقد تفوَّهت الأميرة العجوز بالصواب: إن أباها كان صاحب الفضل، فهو الذي قاد خطوات بازيل الأولى في طريق الرفعة التي بلغها. أضف إلى ذلك أنه لاحظ من تصرفات تلك السيدة أنها من النسوة أو الأمهات اللواتي يتابعن السير وراء غايتهن، ويعملن المستحيل في سبيل تحقيقها، حتى إذا تعثرن بقصبة أو تصدى لهن كائن، أشبعنه لوماً وتعنيفاً في كل لحظة، فكان هذا الاستنتاج الواضح سبباً في حسم الموضوع.

وتابع بلهجة مرحة كان معروفاً بها، تخللتها سحابة من التعب:

ـ عزيزتي آنّا ميخائيلوڤنا، يستحيل عليّ تقريباً إرضاؤك. مع ذلك سأبذل المستحيل لأثبت لك ودي وتمجيدي لذكرى المرحوم والدك واحترامي له. أعدك بأن ينقل ابنك إلى سلك الحرس. فهل يرضيك ذلك؟

ـ يا صديقي الطيب، إنك محسن وصاحب الفضل علينا! لم أكن أنتظر منك غير ذلك. كنت أعرف أنك طيب.

انحنى الأمير يحاول الانسحاب؛ فقالت الأميرة العجوز:

هناك كلمة أخرى، أرجوك.

ترددت برهة ثم أردفت:

ـ عندما ينتظم في سلك الحرس، أرجو أن تتفضل بالسؤال من ميخائيل ايلاريونوڤوتيسن كوتوزوف ـ هو صديق لك ـ أن يدخله في عداد مساعديه. وعندئذ سأقر عيناً ولن أسألك...

ابتسم الأمير بازيل لهذا المشروع الجديد.

ـ لا يمكنني أن أقطع لك وعداً. لو أنك تدركين مدى المضايقات التي يتعرض لها كوتوزوف منذ أن عيّن «جنرالاً أعلى» لعذرتني. لقد قال لي هو بالذات إن كل نسائنا الفاضلات في موسكو، تآمرن عليه ليدخل أبناءهن في عداد مساعديه.

ـ لا، لا، يا صديقي الطيب، يا صاحب الفضل، لن أتركك قبل أن تعطيني وعداً...

كررت هيلين الجميلة بنفاد صبر:

أبتاه، سوف نصل متأخرين.

فأجاب الأمير:

ـ إلى اللقاء، أترين أنني على عجلة من أمري.

ـ اتفقنا إذن. ستتحدث إلى الأمبراطور.

ـ بدون شك. أما كوتوزوف، فإنني لا أعد شيئاً بصدده.

فألحت الأميرة بابتسامة فتاة لعوب، ابتسامة متنافرة مع تقاطيع وجهها التالف بقدر ما كانت أليفة مع ذلك الوجه من قبل:

ـ بلى، بلى. يا بازيل.

من الواضح أنها تناست كلياً سنها المتقدمة وأنها لجأت كعادتها، إلى كل مواردها الأنثوية السابقة. لكن ما إن خرج الأمير، حتى استعاد وجهها طابع البرودة التي كان موسوماً بها. عادت تلتحق بالمدعوين المتحلقين حول الڤيكونت الذي كان يتابع خطابته، وتصنعت الإصغاء إلى أقواله، متحينة لحظة الانصراف، وقد أصبحت تتوق إليها، بعد أن أنجزت مهمتها.

الفصل الخامس

استقصت آنّا پاڤلوڤنا قائلة:

ـ ما قولك إذن في أضحوكة التنصيب الأخيرة في ميلان؟ ومهزلة سكان جينس ولوك الجديدة، اللذين جاءا يرفعان ولاءهما إلى السيد بوناپرت المتربع على عرش، معلنين عواطف الأمم وتمنياتها! مدهش! أليس كذلك؟ بل يكاد يثير الجنون! حتى ليظن أن العالم أجمع قد فقد عقله.

طافت ابتسامة على وجه الأمير أندريه وحدق إلى وجه آنّا پاڤلوڤنا بنظر ثاقب. قال مردداً كلمات بوناپرت:

ـ نعم «لقد أعطانيها الله والويل لمن يلمسها» Dieu me la donne; gare à qui la touche فاتناً وهو يردد هذه الكلمات.

وعاد يكرر هذه الجملة بالإيطالية Dio mila do. Na, gue a chi la tocca

وتابعت آنّا پاڤلوڤنا تقول:

ـ آمل أن تكون هذه العملية هي النقطة التي يطفح بها الكيل. أصبح الأمراء لا يطيقون احتمال هذا الرجل الذي يهدد كل شيء.

فقال الڤيكونت بلهجة هادئة.

ـ الأمراء... إنني لا أتحدث عن روسيا بالطبع. الأمراء يا سيدتي! ماذا فعل الأمراء للويس السادس عشر، للملكة، أو لمدام اليزابيت؟

تابع بحماسة وانفعال.

ـ لا شيء! صدقيني، إنهم الآن يلاقون عقابهم على خيانتهم لمسألة آل بوربون الأمراء؟ إنهم يوفدون رسلاً يحملون تهانيهم للمغتصب:

ندت عن صدره زفرة حقد عميقة، واعتدل في مجلسه مجدداً ثم التفت الأمير هيپوليت، وكان حتى الآن محتمياً وراء نظارتيه ليتاح له تأمل الڤيكونت على هواه، إلى الأميرة الصغيرة فجأة، وطلب إليها إبرة راح يرسم بها على الطاولة شعار أسرة كوندة، ثم أخذ يفسر لها رموزها باندفاع وكأنها سألته ذلك، بينما كانت الأميرة تصغي إليه والابتسامة مشرقة على وجهها.

وتابع الڤيكونت بحماسة متزايدة، شأن الرجل الذي لا يأبه للإصغاء إلى الآخرين ويتبع ما عدا ذلك، سياق آرائه وحده، في المسألة التي يلم بها جيداً ويتفهمها أكثر من سواه.

إذا لبث بوناپرت على العرش عاماً آخر، فإن الأمور لن تتوقف عند هذا الحد. فالدسائس والقسوة والنفي والتنكيل، كل ذلك سيدمر المجتمع الفرنسي، وأقصد المجتمع الراقي، تدميراً لا رجعة بعده، وعندئذ...

وهز كتفيه دلالة على اليأس، وأنهى حديثه تلك النهاية الصامتة. وهمَّ پيار، الذي أثار ذلك الحديث اهتمامه، أن يدلي بدلوه فيه. غير أن أنّا پاڤلوڤنا التي كانت تراقبه بشدة، لم تترك له مجالاً للحديث.

شرعت تقول بذلك الطابع الخطير، الذي كانت تضفيه على وجهها كلما تحدثت عن الأسرة الأمبراطورية:

ـ أعلن الأمبراطور ألكسندر أنه سيترك للفرنسيين حرية انتقاء نوع الحكم. إنني واثقة أنه إن يطح بالمنتصب، وينقذ الأمة منه، فسيلقي الشعب بنفسه بين ذراعي حاكمه الشرعي.

قالت أنّا پاڤلوڤنا هذه الجملة الأخيرة إرضاء لشعور المهاجر النبيل.

قال الأمير أندره:

ـ لا أظهر ذلك. لقد سارت الأمور شوطاً بعيداً، كما يؤيدني في قولي سيدي الڤيكونت، حتى أصبح متعذراً إحياء الماضي من طيات النسيان.

فتدخل پيار قائلاً وقد قفزت الدماء إلى وجنتيه:

ـ أريد أن أقول إن الطبقة النبيلة كلها، قد انضمت إلى بوناپرت.

فأجاب الڤيكونت دون أن يرفع ناظريه إلى پيار:

ـ إن هذه آراء بوناپرتية. من الصعب على المراقب الآن، استنباط عقلية البلاد الحقيقية، وهي على حالة البلبلة الحاضرة.

قال الأمير أندره، بابتسامة هازئة:

ـ لقد قال الأمير بوناپرت: «لقد دللتهم على طريق المجد، فلم يسلكوه، فلما فتحت لهم ردهاتي، أسرعوا إليها زرافات زرافات»... ولست أدري إلى أي مدى حق له أن يقول مثل هذا القول.

كان الأمير أندره لا يشعر بميل إلى الڤيكونت الشاب، لذلك كان يهدف إلى إيلامه بإيراد أقوال بوناپرت وتأييدها، ولو كان يتظاهر بعدم التحدث إليه.

أجاب الڤيكونت معقباً على أقوال الأمير:

ـ ليس له أي حق في التلفظ بتلك الأقوال. منذ إعدام الدوق، كف المعجبون به، أتفهم، عن التطلع إليه بتلك النظرة التي يمجد الإنسان بها أحد أبطاله.

وأردف موجهاً حديثه إلى آنّا پاڤلوڤنا بصورة خاصة:

ـ حتى ولو أنه كان بطلاً في نظر البعض، فإنه منذ إعدام الدوق، ازداد عدد الشهداء في السماء واحداً كما نقص عدد الأبطال، فخسرت كذلك بطلاً.

قابلت آنّا پاڤلوڤنا وصحبها تلك الكلمات بابتسامة مؤيدة، استطاع پيار في إثرها أن يحشر نفسه في الحديث، دون أن تستطيع آنّا پاڤلوڤنا التصدي له لمنعه من إثارة المواضيع غير اللائقة التي كانت تخشاها.

قال السيد پيار:

ـ إن إعدام الدوق دانجين كان ضرورة حكومية. وفي رأيي إن «ناپليون» يتحمل وحده مسؤولية هذا العمل، قد أوردت دليلاً واضحاً على سمو نفسه وعظمتها.

غمغمت آنّا پاڤلوڤنا مروعة:

ـ رحماك يا رب، رحماك!

وقالت الأميرة الصغيرة وهي مبتسمة دائماً، وقد ازدادت تعلقاً بأشغالها:

ـ كيف ترى يا سيد پيار أن القتل دلالة على عظمة النفس.

وانطلقت آيات الدهشة، من مختلف الحناجر والأفواه.

بينما صاح الأمير هيپوليت وهو يضرب على فخذه، متحدثاً بالإنكليزية:

ـ إنها نظرية قاضية!

أما الڤيكونت، فقد اكتفى بهز كتفيه مستعيضاً بتلك الحركة عن كل جواب تنازل بالرد به على أقوال پيار.

سرح پيار نظره بين السامعين من خلال نظارتيه ومن فوقهما، فكانت نظرة جواب منتصرة.

تابع يقول مغامراً بكل شيء مندفعاً بلا مبالاة وراء فكرته:

ـ سأشرح الأمر. لقد فر آل بوربون أمام الثورة وسلموا البلاد للفوضى. أما ناپليون، فإنه على العكس، استطاع أن يفهم الثورة وأن يسيطر عليها. فما كان يستطيع والحالة هذه، أن يضع حياة فرد واحد في الكفة المقابلة لكفة المصلحة العامة.

قالت آنّا پاڤلوڤنا محاولة تسوية الأمر:

ـ لو أنك انتقلت يا سيد پيار إلى الطاولة الثانية...

لكن پيار كان كالعاصفة التي أفلتت من عقالها، لا يسمع ولا يصغي.

استطرد معقباً:

ـ أجل. إن «ناپليون» عظيم لأنه استطاع السيطرة على الثورة. لقد خنق سيئات الثورة وأبقى على جوهرها الطيب: مساواة المواطنين وحرية القول والصحافة. ولهذه الأسباب وحدها، استولى على السلطة العليا.

فقال الڤيكونت مناقشاً:

ـ بدون أي شك لو أعاد السلطة، بعد الحصول عليها، إلى أصحابها الشرعيين بدلاً من أن ينتهز فرصة وصولها إلى يديه لارتكاب جريمة قتل، لأسميته رجلاً عظيماً.

ـ إن ذلك مستحيل أصلاً. إن الأمة لم تعهد إليه بمقاليدها إلا لينقذها من آل بوربون. ولأنها رأت فيه رجلاً عظيماً... لقد كانت الثورة خطوة جبارة...

كان پيار بإصراره على إبداء رأيه يعبر عن رغبته العميقة في إبداء الرأي النزيه بعيداً عن الاعتبارات الأخرى، مدفوعاً بحماسة الشباب.

كررت أنّا پاڤلوڤنا غاضبة:

ـ الثورة خطوة جبارة؟ إعدام الملك والتجاوز على سلطته؟ هلّا انتقلت إلى الطاولة الأخرى بعد كل هذا...

ألمح الڤيكونت مع ابتسامة لطيفة:

ـ العقد الاجتماعي!

بينما انطلق پيار يدافع عن نفسه!

ـ أنا لم أخص إعدام الملك بالقول... إنني أتحدث عن الأفكار...

فقاطعه الڤيكونت بابتسامة هزء وصوت ساخر:

ـ نعم، أفكار السلب والقتل وقتل الملوك...

ـ إن هذه الحوادث، ولا أفكر أبداً في إنكار وقوعها، لا تشكل كل الثورة

وأهدافها. إن روح تلك الثورة هي حقوق الإنسان، وإلغاء التقاليد البالية والمساواة بين المواطنين. لقد أقام ناپليون هذه المبادئ بكل معانيها.

قال الڤيكونت بمقت، وقد قرر أخيراً أن يشعر ذلك الغر بكل السخف الذي في تلك الآراء التي يتشدق بها:

ـ إن الحرية والمساواة وكلمات طنانة استغلت بشكل بشع. من الذي لا يحب الحرية والمساواة؟ لقد كانت منذ الأزل من تعاليم سيدنا المخلّص. ولكن هل جعلت الثورة الرجال أكثر سعادة؟ على العكس. إننا نحن أولاء الذين أردنا الحرية وناپليون هو الذي دمرها.

كان الأمير أندره يجيل بنظره باسماً بين پيار والڤيكونت ثم إلى وجه ربة المنزل. كانت هذه، رغم ممارستها تقاليد المجتمعات وإتقانها ضبط أعصابها، قد فقدت بادئ الأمر، كل سيطرتها على أعصابها وكادت تعلن سخطها وتنكبها سبيل المضيفة اللبقة. لكنها عندما وجدت أن الڤيكونت مورتمارت ظل محتفظاً بهدوئه إزاء آراء الشاب الدنسة، تلك الآراء التي فات أوان خنقها، استعادت شجاعتها ولجأت إلى الهجوم.

قالت تنفيذاً لخطتها الجديدة:

ـ ولكن يا سيدي پيار العزيز، كيف تفسر لجوء رجلك العظيم إلى إعدام دوق بل لنقل، رجل عادي، مخلوق إنساني بسيط، دون أن يحاكم الرجل التعيس أو أن يكون مذنباً؟

فعقّب الڤيكونت:

ـ وإنني أيضاً أتوق إلى معرفة التفسير الذي سيقدمه السيد عن حادثة «١٨ بروميز» أليس في ذلك الحادث ما يشبه دور المشعوذ؟ إنها شعوذة لا تشبه إطلاقاً تصرف الرجال العظام.

وأردفت الأميرة الصغيرة التي سرت رعشة ظاهرة في كتفيها:

ـ والسجناء الذين قتلهم في أفريقيا؟ إنه لأمر مريع!

فأيد الأمير هيپوليت قائلاً:

ـ لقد أحسنت القول، إنه دنيء.

حار السيد پيار في من يصغي إليه، لذلك اكتفى بأن راح يتأمل معارضيه مبتسماً. أبدلت ابتسامة پيار سحنته إذ تحول وجهه الذي كان يحتفظ أبداً بتقاطيعه الخطيرة الكئيبة إلى وجه طفل يفيض براءةً، على عكس ما جرت العادة عليه عند ذوي القسمات الوقورة الذين لا تختلف تقاطيع وجوههم إذا ما ابتسموا. كان پيار في ابتسامته تلك، أشبه بالطفل الذي يطلب الصفح.

استنتج الڤيكونت، الذي يرى پيار للمرة الأولى، أن ذلك الثوري المتعصب، تنحصر خطورته في كلماته فحسب. فساد صمت عام.

عندئذ قال الأمير أندره مثيراً الموضوع مجدداً:

ـ كيف تريدون منه أن يجيب عن كل السائلين معاً؟ أنا أعتقد، على العموم، أنه يجب أن تحوي أعمال رئيس دولة ما، طابع الإنسان العادي وطابع قائد الجيش إلى جانب صفات الأمبراطور.

صاح پيار مؤيداً وقد سرّه ذلك الدعم الذي هبط عليه على غير انتظار.

ـ طبعاً، طبعاً.

استطرد الأمير أندره محاولاً التخفيف من عدم خرق پيار:

ـ يجب أن تعترف بأن ناپليون، بوصفه إنساناً، رجل عظيم في موقعة جسر آركول ومستشفى يافا حيث مد يده إلى الموبوئين ولكن... ولكن تصرفات أخرى صدرت عنه، يصعب ولا شك تبريرها.

أشار الأمير أندره بعد ذلك إلى زوجته ونهض مستأذناً. لكن الأمير هيپوليت نهض فجأة وانتصب بقامته الفارعة، داعياً بحركات من يده، أن يجلسوا جميعاً للإصغاء إلى ما سيقول:

بدأ يقول:

ـ لقد قصَّ عليّ بعضهم اليوم، حكاية موسكوفية رائعة، أرى ألّا أحرمكم الاستمتاع بها. أرجو أن تعذرني يافيكونت إذ ينبغي أن أقص الحكاية باللغة الروسية وإلا فقدت روح النكتة.

وبدأ الأمير يتكلم الروسية بلغة سقيمة، حتى ليخيل إلى من يستمع إليه، أنه فرنسي لما يمض عامه الأول في روسيا بعد. مع ذلك، فقد أصغى إليه استجابة للرغبة التي أعرب عنها بكل شخصيته.

ـ ثمة سيدة في موسكو، شديدة الخجل، شاءت أن تستخدم خادمين ليقفا على الحاجز الخلفي من عربتها. وألحت أن يكونا طويلي القامة، وتلك كانت رغبتها. والمسألة تتعلق بالذوق، وكانت لديها وصيفة طويلة القامة أيضاً. قالت...

وهنا توقف الأمير هيپوليت وراح يبحث عن الجمل التي ستساعده على التعبير وإتمام القصة، وتابع:

ـ قالت... نعم قالت للوصيفة: «يا ابنتي، البسي ثوب الخادم الأحمر الرسمي، وتعالي معي وراء العربة، لنقوم بالزيارات».

وانفجر الأمير هيپوليت ضاحكاً قبل أن يشعر المستمعون برغبة في الضحك. فكانت ضحكته المسبقة ذات أثر سيئ على عكس ما كان يتوقع بينما تنازل بعض الأشخاص، ومن بينهم آنّا پاڤلوڤنا والسيدة العجوز. بإبداء ابتسامة...

ثم تابع:

ـ فمضت. وهبت ريح عاتية فأطارت قبعة الوصيفة. فتهدل شعرها الطويل على كتفيها...

وانتابته موجة ضحك عنيف استطاع خلالها أن يتمتم: «فعرف كل الناس أن...» دون أن يستطيع إتمام حكايته!

وهكذا انتهت الحكاية الرائعة. وعلى الرغم من أن أحداً لم يفهم لمَ روى تلك «النكتة» ولا لسبب إصراره على سردها باللغة الروسية، فإن أنّا پاڤلوڤنا والآخرين، قدروا للأمير هيپوليت حسن تصرفه، لإزالة الوجوم والامتعاض اللذين أحدثهما حديث السيد پيار الشائك. وتبعثر النقاش والحديث بعد ذلك، واقتصر على شؤون الحفلات الراقصة التي أقيمت والتي ستقام، والمراقص والمناسبات التي يمكن للمجتمعين أن يلتقوا خلالها في الأيام المقبلة.

الفصل السادس

شرع المدعوون بمغادرة المنزل بعد أن قدموا، كل بدوره، احترامهم وتهانيهم لأنّا پاڤلوڤنا على حفلتها الرائعة. غير أن پيار أخفق في مجاراة الآخرين. ـ كان بجسده الضخم وقامته الطويلة وبنيته المتينة ويديه الحمراوين ـ لا يعرف كيف يدخل أحد «الصالونات» بقدر ما كان يجهل كيف ينسحب منه. أي إنه لم يكن يعرف توجيه بعض العبارات اللبقة قبل مغادرته الحفلة البهيجة. وكان إلى جانب ذلك ساهماً بعض الشيء. حتى أنه لما نهض يغادر قاعة الاستقبال تناول بدلاً من قبعته، قبعة مثلثة لأحد الجنرالات وراح يعبث بزينتها حتى رجاه صاحبها أن يعيدها إليه. لكن سذاجته وطيبة قلبه، كانتا ضماناً كافياً لستر جهله وشذوذه في الأوساط الراقية. وهكذا منحته أنّا پاڤلوڤنا المغفرة عن أخطائه وقذفته بإشارة من رأسها.

قالت تودعه:

ـ آمل أن أراك قريباً. وآمل كذلك أن تكون قد أبدلت آراءك يا سيد پيار بانتظار اللقاء التالي.

فاكتفى بالانحناء ومعاودة الابتسام جواباً عن قولها وكأنه يقول: «إن آرائي هي بانتظار ولكن انظري أي شاب شجاع أكون». وبدا على الموجودين، اعتباراً من أنّا پاڤلوڤنا عينها، لقد فسروا ابتسامته على هذا النحو.

راح الأمير أندره في الردهة وهو مستدير الظهر للخادم ليضع له معطفه

على كتفيه، يلقي أذناً صاغية كثرثرة زوجته مع الأمير هيپوليت، الذي كان ينظر إليها بقحة من خلال نظارتيه ويتفرس في تقاطيعها.

قالت الأميرة الصغيرة موجهة حديثها إلى آنّا پاڤلوڤنا:

ـ عودي إلى قاعة الاستقبال يا أنيت. ستصابين بالبرد.

ثم أضافت بصوت خفيض وهي تودعها:

ـ لقد اتفقنا...

كانت آنّا پاڤلوڤنا قد وفقت خلال السهرة، في الإسرار إلى ليز، بأنها تفكر في منح أخت زوجها، خطيباً يضاهيها في المركز، ممثلاً في شخص الأمير أناتول. فعقبت آنّا على قول الأميرة بلهجة مماثلة:

ـ أنا أعتمد عليك يا عزيزتي. أكتبي لي وأخبريني كيف ينظر الأب إلى هذا الموضوع. إلى اللقاء.

وعادت إلى الغرف الداخلية.

انحنى الأمير هيپوليت ليهمس إلى الأميرة بكلمات في أذنها. وكان ثمة خادمان ينتظمان، أحدهما خادم الأميرة وبين يديه (شال) والآخر تابع للأمير يحمل «رودنجوتا» وكانا يرقبانهما وهما يتحدثان بالفرنسية ويتظاهران بفهم تلك الكلمات رغم جهلهما التام باللغة الفرنسية. وكان من عادة الأميرة أن تتكلم وهي تبتسم وتصغي وهي فاغرة الفم تتصنع الدهشة.

قال الأمير هيپوليت:

ـ أنا سعيد لعدم ذهابي إلى حفلة المفوضية. إن المرء يضجر هناك. إن سهرتنا هنا كانت ممتعة جداً أليس كذلك؟

فأجابت الأميرة وابتسامة تطوف على شفتيها:

ـ يقولون إن الحفلة الراقصة ستكون فيها أجمل نساء المجتمع.

فقال الأمير هيپوليت معقباً ضاحكاً:

ـ لن يحضرنها كلهن لأنك لن تكوني موجودة.

وانتزع الدثار من يد خادمها بشيء من العنف، وأخذ يساعد الأميرة على وضعه. فلما انتهى من مهمته، أبقى يديه برهة وكأنه يطوق الأميرة بهما. ولم يكن من السهل التنبؤ بحقيقة الدوافع لتلك الحركة؛ أكانت مبيتة أم من باب الخطأ. لكن الأميرة أفلتت من يديه برشاقة وهي تبتسم، والتفتت إلى زوجها. كان الأمير أندره، يبدو تعباً وعيناه نصف مغمضتين.

سأل زوجته وهو يشملها بنظره:

ـ هل أنت جاهزة.

ارتدى الأمير هيپوليت «رودنغوته» بسرعة، وكان من أحدث طراز ينسدل حتى كعبيه، أسرع يتبع الأميرة وهو منزعج من طول المعطف. فلحق بها أمام الباب الخارجي، يساعدها خادمها على الصعود إلى عربتها.

صاح بصوت أجش لتصرفه في ذلك المساء:

ـ إلى اللقاء أيتها الأميرة!

انزوت الأميرة في ركن العربة المعتم وهي ترتب ثوبها، بينما راح الأمير أندره يحسن وضع سيفه ليجلس إلى جانبها. كان الأمير هيپوليت يزعجه ببشاشته وتصرفه.

قال له الأمير أندره بلهجة جافة ليفسح له في الطريق:

ـ اسمح لي يا سيدي.

وأردف الأمير پولكونسكي بلهجة وديعة مغايرة للهجته الأولى:

ـ إنني أنتظرك يا پيار.

وضرب الحوذي الخيول بسوطه فقفزت تجر العربة بضجة وصخب، بينما لبث الأمير هيپوليت أمام الباب، يضحك تلك الضحكة المتقطعة، بانتظار الڤيكونت الذي كان قد وعده بإعادته إلى مسكنه.

ولما جلس الفيكونت إلى جانب الأمير هيپوليت قال:

ـ إذن يا عزيزي، إن أميرتك الصغيرة رائعة! رائعة جداً.

ثم قبل أطراف أصابعه وتابع:

ـ وفرنسية تماماً...

فانفجر هيپوليت ضاحكاً بينما تابع الفيكونت قائلاً:

ـ إنك، لو علمت، مرعب بطابعك البريء الذي تتصنعه. أنا أشفق على زوجها، ذلك الضابط الصغير، الذي يتظاهر وكأنه ولي عهد!

فقال الأمير هيپوليت وهو يغرق في الضحك مجدداً:

ـ كنت تزعم أن النساء الروسيات لا يساوين النساء الفرنسيات، وفاتك أن الأمر منوط بحسن التصرف في معاشرتهن.

دخل پيار ـ شأن الخبير بمسالك البيت المطلع على عادات أهله مكتب الأمير أندره قبل أن يدخله ذاك، وارتمى على كنبة بحكم عادته، ومد يده إلى أول كتاب وقعت عليه، وكان «تأويل» قيصر، وراح يتصفحه كيفما اتفق، معتمداً بمرفقيه على الكنبة. وعندئذ دخل أندره.

ابتدره هذا وهو يفرك راحتيه الصغيرتين:

ـ لقد أثرت الآنسة شيرر في هذه الليلة حتى أنها ستقع فريسة للمرض بدون شك؟

فاستدار پيار بكل جسمه ليبتسم للأمير بوجهه المنبسط، فندّ عن الكَنبة صرير تحت ثقل وزنه. قال وهو يلوح بيده بلا مبالاة:

ـ أتدري بأن مشروع هذا الـ«موريو» جدير بالتنبية لو لا أنه يخطىء فقط في الوسائل التي ستؤمن تنفيذه... إن السلم الدائم ممكن التحقيق ولكن... لست أدري كيف أعبر عن رأيي... على كل حال، ليس التوازن السياسي هو الوسيلة المنشودة.

كانت تلك البحوث السلبية لا تستلفت اهتمام الأمير أنـدره. قال مستفسراً:

ـ اعلم يا عزيزي أنه لا يمكن للمرء أن يفصح دائماً عن سريرته وحقيقة آرائه. هل قررت أخيراً الانخراط في سلك فرسان الحرس أم في السلك السياسي؟

تربع پيار على الكنبة وأجاب:

ـ لست أدري حقيقة ماذا سيكون من أمري. إنني أرى أن كلاً من هاتين الناحيتين تعبس بوجهي ولا تشجعني.

ـ مع ذلك، يجب أن تسلك اتجاهاً محدداً بأن أباك ينتظر.

كان پيار قد أرسل إلى خارج البلاد منذ أن بلغ العاشرة تحت رعاية مدربه ومرشده وكان من الآباء الروحيين. فلمّا بلغ العشرين من عمره استدعاه أبوه إلى موسكو، وأعفى المرشد من مهمته وقال لابنه:

«إمض الآن إلى پيترسبورغ، وانتق لنفسك المركز الذي يحلو لك، وستراني موافقاً سلفاً على انتقائك. ها هي ذي النقود اللازمة، وإليك رسالة توصية للأمير بازيل. اتصل بي دائماً وأطلعني على كل جديد، وسأساعدك في كل ما يقتضي التدخل والمساعدة». وقد أمضى پيار نيفاً وثلاثة أشهر وهو يفكر في انتقاء المركز الذي يتعشقه؛ لذلك راح أندره يسأله رأيه.

قال پيار وهو يمر بيده على جبينه فجأة، وأفكاره عالقة بالأب موريو:

ـ لا شك أنه ينتمي إلى محفل ماسوني.

فاستوقفه الأمير بإشارة من يده وتابع:

دعك من هذه الترهات ولنتحدث بجدية. هل بحثت مسألة الحرس الراكب؟

ـ كلا. لكنني أهدهد فكرة واتتني في هذه البرهة، أود أن أعرضها عليك.

إننا الآن في حرب مع ناپليون. ولو أن الحرب كانت حرب تحرير، لكنت أول من انخرط في عداد المحاربين. أما وإننا سنكون سائرين على أعقاب بريطانيا والنمسا ضد أقوى رجل وأعظم رجل في العالم... فإن هذا لا يروقني.

اكتفى الأمير بهز كتفيه جواباً عن تلك الآراء الصبيانية. كان يشعره بتلك الحركة، بأن أقواله لا تستحق جواباً أفضل من ذلك الجواب. إذ ماذا كان يستطيع أن يقول جواباً عن مثل تلك الاستنتاجات الساذجة؟ وأخيراً قال:

ـ لو أن كل محارب كان يسير مدفوعاً بمبادئ يؤمن بها، لما وقعت حرب أبداً.

فأجاب پيار معقباً:

ـ ولكان الأمر خيراً وأفضل!...

ابتسم الأمير موافقاً وقال:

ـ لا شك. لكن ذلك لن يحدث أبداً.

ـ إذن، لماذا تذهب إلى الحرب؟

ـ لماذا؟ الحقيقة لست أدري. لأنه يجب أن أذهب. ثم لأنه.

وتردد الأمير برهة ثم تابع:

ـ لأن الحياة التي أعيشها هنا لا تروقني.

الفصل السابع

انتفض الأمير شأن النائم الذي أوقظ في غير رفق عندما تناهى إلى مسمعه حفيف ثوب في الغرفة المجاورة، واتخذت قسمات وجهه الطابع الذي كانت عليه في حفلة آنّا پاڤلوڤنا، بينما أصلح پيار من جلسته، دخلت الأميرة وكانت قد أبدلت ثوبها الرسمي، بآخر منزلي. لكنه لم ينقص شيئاً من رشاقتها. فنهض الأمير وقدم لها مقعداً وهو يرحب بها، فتهالكت جالسة عليه.

قالت باللغة الفرنسية، كعادتها:

ـ أتساءل دائماً كيف لم تتزوج أنيت حتى اليوم. إنكم جميعاً حمقى أيها السادة، لأنكم لم تظفروا بها. اعذروا حديثي، ولكنكم لا تفقهون شيئاً في شؤون النساء... يا لك من مشاكس يا سيد پيار.

أجاب پيار دون أن يفضح ذلك الارتباك الذي يعرو عادة كل شاب عندما يتحدث إلى سيدة شابة:

ـ كنت منذ حين أخاصم زوجك لأنني لا أفهم سبباً لرغبته في الذهاب إلى الحرب.

انتفضت الأميرة، وقد أصيبت في أدق عواطفها. أجابت:

ـ إن هذا ما دأبت أقوله له بدوري! إنني لا أستطيع أن أفهم السبب الذي يجعل الرجال عاجزين عن الاستغناء عن الحرب. ما هو السبب الذي يجعلنا، نحن النساء، لا نشعر بأية رغبة في ذلك؟ هيا، كن محكماً. إني أكرر على مسامعه بأنه هنا مساعد لعمه، وأن مركزه ممتاز وأن كل الناس يقدرونه

لقد سمعت منذ أيام عند آل أبراكسين، سيدة تسأل! «أهذا هو الأمير أندره الشهير؟».

وأردفت تقول ضاحكة:

ـ أقسم لك بشرفي على ذلك! إنه يُستقبل أفضل استقبال أينما ذهب. إن في مقدوره أن يصبح تابعاً للأمبراطور. إنك تعرف أن جلالته وجه إليه الحديث بكل انشراح. لقد كنا نقول، أنيت وأنّا، إن من السهل تدبير الأمر ليصبح تابعاً للأمبراطور. فما رأيك؟

سأل پيار دون أن يجيب عن السؤال، لأنه ألقى نظرة على وجه الأمير فاستنتج أن الحديث لا يعجبه.

ـ متى ستذهب؟

قالت الأميرة بلهجة الطفل الذي أفسده الدلال، تلك اللهجة التي كانت تستعملها في حفلة أنّا پاڤلوڤنا وهي تتحدث مع هيپوليت، والتي كانت لا تتفق مع ذلك الجو العائلي الذي كان پيار يبدو جزءاً منه.

ـ لا تحدثني عن ذلك الرحيل، لا تحدثني عنه! لا أريد أن أسمع كلمة عنه. عندما فكرت منذ حين في أنني سأضطر إلى قطع كل علاقاتي العزيزة... ثم هل تعرف يا أندره؟

وغمزت زوجها ونظرت إليه خلال أهدابها نظرة حافلة بالمعاني وأردفت تغمغم وهي ترتعد:

ـ إنني خائفة، خائفة.

فنظر إليها الأمير بدوره وكأنه أذهل لوجود شخص ثالث في الغرفة معه ومع پيار، وسألها بلباقة:

ـ ممَ تخافين يا ليز؟ لست أفهم.

ـ كذلك هم الرجال: أنانيون! نعم، نعم. إنكم أنانيون... إنه يهجرني لمجرد هوى، والله يعلم السبب، وينفيني وحيدة في الريف.

فقاطعها الأمير أندره بلطف:

ـ مع أبي وأختي! أرجو أن لا تنسي ذلك.

ـ سأظل مع ذلك وحيدة بدون أصدقائي... ورغم هذا فإنه يريدني ألّا أكون خائفة!

ارتفع صوتها وبدت شفتها القصيرة التي كانت تسبغ عليها طابعاً من الوداعة تحمل الآن شبهاً قوياً بالحيوانات القاضمة. سكتت وقد قدرت أنه من غير المستحب أن تلمح أمام پيار إلى أن حالة الأمومة التي تنتظرها، هي السبب الوحيد في انفعالها.

قال الأمير على مهل دون أن يشيح بنظره عنها:

ـ لست أفهم حتى الآن ماذا يخيفك.

احمر وجه ليز فصاحت وهي تلوح بيدها، دلالة على نفاد صبرها:

ـ آه يا أندره، لشد ما تبدلت. لقد تبدلت تبدلاً خطيراً...

ـ لقد منعك طبيبك من السهر، فيحسن بك أن تستريحي.

لم تجب ليز، لكن شفتها القصيرة المظللة ارتعشت فجأة، بينما وقف الأمير وراح يذرع الغرفة بلا مبالاة.

كان پيار يلقي عليهما خلال عدسات نظارتيه نظرات كلها دهشة. تظاهر أنه ينهض لمغادرة المكان، غير أنه أبدل رأيه وعاد إلى مقعده.

قالت الأميرة الصغيرة فجأة وقد شوّه وجهها الجميل تقلص باك:

ـ لا يهمني حضور پيار وإصغاؤه. لقد مرّ عليّ وقت طويل أردت خلاله أن أسألك: لم تبدلت كل هذا التبادل تجاهي يا أندره؟ ماذا جنيت؟ إنك انخرطت في الجيش، وفقدت كل شفقة عليّ، فلماذا؟

صاح الأمير:

ـ ليز!

كانت تلك الكلمة تحمل رجاء وتهديداً في آن وبخاصة، كانت تبرز تأكيداً بأنها ستندم على ما تقول لكنها استرسلت، تتدفق الكلمات من فمها متسارعة:

ـ إنك تعاملني كمريضة، أو كما تعامل طفلاً. أنا أرى ذلك بوضوح. فهل أنت أنت، لم تتبدل عما كنت عليه منذ ستة شهور؟

صرخ الأمير بلهجة حاسمة:

ـ ليز، كفى أرجوك.

نهض پيار الذي كان انفعاله وتأثره يزدادان باطراد، واقترب من الأميرة. كان يبدو على استعداد للبكاء، لشدة ما كان يؤلمه منظر الدموع:

ـ هدئي روعك يا أميرة. إنك تتخيلين أشياء وهمية. إنني أنا الآخر تعرضت لمثل هذا... لأني... كما ترين... آه، اعذراني. إن وجودي غير مرغوب فيه بينكما. اهدئي أرجوك... إلى اللقاء.

أمسك پولكونسكي بذراعه مستوقفاً وقال:

ـ لحظة واحدة يا پيار. أعتقد أن الأميرة من الطيبة بحيث أنها لن تحرمني من سروري برفقتك.

غمغمت الأميرة خلال دموع الغضب التي عجزت عن تبديدها:

ـ بدون شك، لن تحرمك. إنه لا يفكر إلا في نفسه.

كرر الأمير بصوت يوحي بنفاد صبر صاحبه:

ـ ليز!

بدت الأميرة منقلبة الهيئة: تبدد شكل السنجاب الغضوب وحلّت محله أمارات ذعر محزن يستدر الرثاء. وألقت عيناها الجميلتان نظرة مختلفة إلى

الأمير، فيها عبارات الخضوع، بينما انطبع وجهها بطابع الكلب المذعور، الذي جاء يبصبص قرب سيده، محني الرأس.

تنهدت وقالت:

ـ رباه، رباه!

وأمسكت أطراف ثوبها بيدها، واقتربت من زوجها، فقبلت جبهته. فنهض وانحنى على يدها بوقار كما يفعل المرء مع السيدات الغريبات، وقال:

ـ خالتي مساء يا ليز.

الفصل الثامن

سكت الصديقان، فلم يجرؤ أحدهما على البدء بالحديث. كان پيار يرقب الأمير أندره الذي كان يخفي عينيه بيده.

قال هذا أخيراً وهو يتأوه:

ـ هيا بنا نتناول العشاء.

ونهض متجهاً نحو الباب.

دخل الصديقان إلى غرفة طعام أنيقة تنبئ بذوق رفيع. كان كل ما فيها من مفروشات، وفضيات، أوانٍ، وخزف، يحمل طابع الجدة الذي يدل على حداثة إنشاء المنزل. وبينما كانا يتناولان الطعام، توقف أندره فجأة، وأخذ رأسه بين يديه وهو فريسة انفعال لم يشهد پيار صديقه في مثله من قبل. وقال بلهجة الرجل الذي قرر أخيراً أن ينفث ما في صدره.

ـ لا تتزوج أبداً يا صديقي. تلك هي النصيحة التي أقدمها لك. لا تتزوج قبل أن تتأكد أنك لن تستطيع أن تفعل غير ذلك. وقبل أن تنقشع عن عينيك سحابة تعلقك الغريزي بالمرأة التي عشقت، التي تكون قد أعمت بصيرتك وجعلتك لا تراها على حقيقتها. إنك بغير ذلك على خطأ مروع لا يمكنك تلافيه. تزوج متأخراً بقدر ما تستطيع، وليكن عندما تصبح غير صالح لأي شيء.. وإلا فإن كل ما في نفسك من نبل وعظمة وطموح، سيتبدد. سترى نفسك كذلك غائصاً في ترهات وسخافات... نعم، سترى نفسك كذلك! لا تنظر إلي بمثل هذه الدهشة... إذا كانت في نفسك آمال للمستقبل، وتزوجت

قبل تحقيقها، يجدر بك عندئذ أن تستعد للحداد على طموحك. لأنك ستشعر في كل خطوة، بأن الأبواب كلها مغلقة في وجهك، باستثناء أبواب الأبهاء «والصالونات» حيث ستكون معدوداً كأول سخيف، أو كأول خادم في البلاط... نعم، إن الأمر كذلك.

وشفع جملته هذه بإشارة أبلغ من الحديث.

نزع پيار نظارتيه، واتخذت سحنته طابعاً جديداً مضيئاً بالذكاء، وأخذ يتأمل صديقه بذهول.

أردف الأمير أندره:

ـ إن زوجتي مخلوقة رائعة، نادرة بين النساء اللواتي لا يخشى المرء معهن على سعادته. مع ذلك، رباه، كم أعطي وبكم أضحي لأكون غير متزوج بها! إنك أول من أبثه هذه النجوى، والوحيد الذي سيسمعها لأنني أحبك.

وكلما استغرق الأمير في الحديث، ازداد بعداً عما كان عليه في قاعة استقبال آنّا پاڤلوڤنا، حيث كان متهالكاً على مقعده يغمغم ببعض العبارات باللغة الفرنسية، وأمارات التعب واضحة في عينيه نصف المغمضتين. كانت عضلات وجهها العابس كلها، تنتفض بانفعال، وعيناه اللتان كانتا منذ حين خابيتين، تشعان في تلك اللحظة ببريق مضطرم. كانت بلادته في الحالات الطبيعية تتحول في تلك اللحظات من الانفعال المرضي، إلى لون من جنون التيقظ:

تابع يقول:

ـ أيدهشك أن تراني أتحدث بهذا الشكل؟ إنها كما ترى مأساة حياتي. إنك تحدثني عن بوناپرت ومركزه، ولكن بوناپرت كان حراً عندما تابع هدفه حتى حققه. لم يكن يفكر إلا في غايته، وبذلك وصل إليها. إنك إذا ارتبطت بامرأة، كنت أشبه بالمحكوم عليه، المغلول إلى سلسلة. فقل الوداع أيتها

الحرية، والكفاءات والآمال؛ واقبع في ظل وخز الضمير، لأنك ستفقد هذه المزايا بشكل نهائي. إن المنتديات والهذر والحفلات والغرور والبؤر الاجتماعية، هي الدائرة الكريهة الفاسدة، التي لا أعرف كيف أخرج منها. وهذا هو السبب الذي من أجله أذهب إلى الحرب، إلى أعظم حرب، إلى أعظم الحروب، وأنا لا أعرف شيئاً لأنني لا أصلح لشيء. إنني لطيف جداً. ولاذع جداً! وهكذا يصغون إليّ راضين عند آنّا پاڤلوڤنا. آه! من ذلك المجتمع الأحمق الذي لا تستطيع زوجتي عنه ابتعاداً، أولئك النسوة اللواتي... ليتك تعرف مَن من أولئك النسوة الراقيات... وكل النساء! إن أبي على حق. إن المرأة عندما ترى على حقيقتها، لا تزيد عن كونها أنانية، محدودة خرقاء. لكنها في المنتديات تضفي على نفسها لوناً آخر. غير أنّك إذا أمعنت النظر فيها، وجدتها لا شيء، لا شيء، لا شيء!

ثم تابع يقول ناصحاً:

ـ لا تتزوج يا عزيزي، لا، لا تتزوج.

قال پيار:

ـ كيف! أهو أنت الذي تحكم على نفسك بالعجز، وتزعم أن حياتك محطته! لكن هذا لأمر عجيب! يمكنك أن تتطلع إلى كل شيء، وأنت..

لكنه لم يعقب. كان صوته يدل بوضوح على التقدير العميق الذي يكنه لصديقه، وعلى أي مستقبل زاهر يعتقد أنه بالغه.

كان پيار يتساءل: «كيف يستطيع أندره أن يخفض من قيمة نفسه!» كان الأمير أندره بالنسبة إلى پيار مثالاً للكمال. ألم يكن يرى فيه الصفات الممتازة التي كان پيار ـ لا يملك منها شيئاً، والتي كان يعتقد أنها كلها مدينة لفضيلة هامة، وهي سمو النفس؟

كان پيار معجباً بالهدوء الذي يبديه الأمير في علاقاته مع الأشخاص

من مختلف الطبقات، وببداهته، وتنوع معلوماته، وغزارة علمه، وهو الذي قرأ كل شيء، وعرف كل شيء، وألمّ بكل شيء. أضف إلى ذلك قدرته على العمل والإبداع. وإذا كان پيار قد شعر من قبل بدهشة لميل صديقه إلى التحليق الفلسفي، الذي بلغ عنده الذروة، فإنه كان يرى في ذلك الشرود لوناً من السمو، أكثر مما كان يعتبره نقيصة مرذولة.

ولكي تسير العربة سيراً حسناً، يجب الاعتناء بتشحيم عجلاتها، كما أنّ أشد العلاقات صراحة وأعمقها بحاجة إلى رعايتها بالمديح.

قال الأمير أندره:

ـ إنني رجل مقضي عليّ... ولكن ماذا يجدي الحديث عني؟ سكت برهة ثم تابع مبتسماً لفكرة ما أشعرته ببعض العزاء:

ـ لنتحدث عنك أنت.

انبسطت أسارير پيار، عندما طافت تلك الابتسامة على وجه صاحبه. وقال مشرق الوجه، خليّ الفكر:

ـ وبماذا أتحدث عن نفسي؟ من أنا؟ ابن سفاح!

واحمر وجهه إثر تلفظه بتلك الكلمة، وأردف:

ـ رجل لا اسم لي، ولا ثروة... ومع ذلك...

لم يتم جملته، بل غير سياق أفكاره وتابع:

ـ إنني حر راض عن نفسي. وبهذه المناسبة، عندي ما أسألك رأيك فيه جدياً.

نظر الأمير إلى صديقه بعينين حانيتين، غير أن تلك النظرة الودية كانت دليلاً واضحاً على رفعة شأنه. قال:

ـ إنك عزيز عليّ قبل كل شيء. لأنك، بين كل أفراد عالمنا، مخلوق حيّ.

فانتق أي مركز تشاء. ولكن كفّ عن الاختلاط بآل كوراغين. فهل هنا بغيتك، تلك الحياة التي تشبه حياة الصور المتحركة.

قال پيار وهو يهز كتفيه:

ـ ماذا تريد يا عزيزي؟ إن النساء يا عزيزي هن النساء!

ـ النساء الراقيات لا بأس بهن. أما نساء كوراغين، فهن نساء وخمر! في الحقيقة إنني لا أفهمك.

كان پيار، وهو الذي يسكن عند الأمير بازيل، قد راح يرود البؤر التي قاده إليها أناتول هذا، هو الذي يعمل أبوه على تحسين سلوكه، بتزويجه أخت الأمير أندره.

قال پيار كأن فكرة طارئة قد راودته:

هل تعلم بأنني أناقش نفسي منذ مدة بعيدة، وأخرج بمثل هذه النتيجة؟ إن هذا اللون من الحياة يمنعني من التفكير ومن اتخاذ أي قرار. إنني أشعر بآلام في رأسي، وبجفاف في كيس نقودي... لقد دعاني الليلة أناتول. لكنني لن أذهب.

ـ أتقسم بشرفك؟

ـ أقسم بشرفي.

الفصل التاسع

بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة صباحاً، خرج پيار من منزل صديقه. كانت ليلة بيضاء لا مثيل لها إلا في پيترسبورغ في شهر حزيران. استقل پيار عربة وأراد الذهاب إلى مسكنه، لكنه كلما ازداد اقتراباً منه، ازداد شعوره بالعجز عن قضاء ساعات جميلة، تشبه الغسق أو الفجر، أكثر مما تشبه الليل، النوم والراحة. كان البصر يمتد بعيداً في تلك الشوارع المقفرة. تذكر پيار وهو في طريقه أن جماعة المقامرين الذين كانوا سيجتمعون تلك الليلة عند أناتول كوراغين، ينهون سهرتهم عادة بكؤوس من الشراب يليها لون من التسليات التي كان يقدرها.

وأخذ يحدث نفسه: «ماذا لو مررت على منزل كوراغين؟ لكنه تذكر الوعد الذي أعطاه للأمير أندره. وشعر كذلك فجأة، كما يحدث للأشخاص فاقدي الاتزان، برغبة ملحة في تذوق هذا النوع من الحياة الفاسدة. فأعد عدته واتخذ قراره. بدا له أنه مرتبط بموعد مسبق مع أناتول، وأن العهد الذي قطعه للأمير أندره، يفقد قيمته إزاء الوعد المسبق. راح يفكر: إن كل وعود الشرف تلك لا قيمة لها، لأنها أشياء شرطية، تفقد اعتبارها عندما يفكر المرء أنه قد يموت غداً، أو أنه سيجد نفسه في موقف، يفقد فيه حتى الشعور بالشرف وبقلة الشرف. كان ذلك النوع من المناقشة والحكم مألوفاً عند پيار، وبسببه كانت مشاريعه تتبدد. وهكذا ذهب إلى منزل كوراغين؟

وصل أمام البناء الفسيح الملاصق لثكنة فرسان الحرس، حيث كان

يسكن أناتول، فتخطى پيار المدخل المضاء وصعد السلم، فوجد الباب مفتوحاً. لم يصادف أحداً في الردهة التي كانت الزجاجات الفارغة مبعثرة في أرجائها، والمعاطف تتدلى على المشاجب، والأحذية الواقية للأخفاف ملقاة بدون انتظام، كانت رائحة الخمر تفوح في المكان، وأصوات صخب بعيدة تبلغ المسامع. لا شك أن اللعب والعشاء كانا قد انتهيا، غير أن المدعوين ما كانوا قد تفرقوا بعد.

خلع پيار معطفه ودخل الغرفة الأولى، حيث كانت بقايا الطعام لاتزال على الطاولة. وكان هناك خادم يفرغ في جوفه بقايا الأقداح، في منجاة من العيون. وكان ضجيج ضحك وصياح، ووقع أقدام وهمهمة دب، ترتفع بوضوح من الغرفة الثالثة، حيث كان حوالى عشرة شبّان، واقفين أمام نافذة مفتوحة، يصخبون ويهذرون، بينما راح ثلاثة آخرون يعبثون مع دب صغير، فيحمله أحدهم من سلسلة ويوهم الباقين بإلقائه عليهم.

صاح صوت:

ـ إنني أراهن بمائة روبل على ستيڤنس!

ـ دون أن يتمسك بشيء، أليس كذلك؟

ـ وأنا أراهن على دولوخوف! كن شاهداً يا كوراغين.

ـ هيا دعوا الدب جانباً إن في الموضوع رهاناً.

ـ دفعة واحدة، أليس كذلك؟ وبدون ذلك تحدث الخسارة!

صاح صاحب الدعوة، وهو شاب جميل يرتدي قميصاً شفافاً، مفتوح الياقة:

ـ هو لا! إليّ بزجاجة. أياكوف، إليّ بزجاجة!

ولما وقع نظره على پيار، صاح:

ـ لحظة واحدة أيها السادة. هوذا صديق قلبي، ها هو ذا بيتروشا العزيز!

صاح صوت يتناقض باتزانه مع كل الأصوات المخمورة:

ـ تعال إلى هنا، واحكم في الرهان.

كان المتكلم ضابطاً في فيلق سنميونوڤسكي قصير القامة، ذا عينين لونهما أزرق فاتح.. ويشاطر أناتول في مسكنه.

قال پيار وهو يسرح نظرةً لاهية حوله:

ـ ما هو الموضوع الذي تبحثون؟ إنني لا أفهم شيئاً.

ـ انتظروا، إنه ليس ثملاً. هو لا، إلي بزجاجة! اشرب قبل كل شيء.

وبينما راح پيار يعب قدحاً إثر قدح، كانت عيناه ترقبان من زاويتهما، وجوه المدعوين السكارى؛ الذين تجمهروا قرب النافذة، وأذناه تصغيان إلى أقوالهم. كان أناتول يتابع صب الخمرة في القدح وهو يشرح له أن دولوخوف تراهن مع أحد المدعوين: الإنكليزي ستيڤنس؛ وهو ضابط في البحرية؛ على أن يشرب زجاجة من الروم دفعة واحدة؛ وهو جالس على حافة هذه النافذة من الدور الثاني؛ وساقاه متدليتان إلى الخارج.

قال أناتول وهو يقدم لپيار القدح الأخير:

ـ هيا، انزع سدادة الزجاجة! لن أدعك قبل أن تنتهي من شربها!

فأجاب پيار وهو يدفعه جانباً:

ـ كلا إن في ما شربته الكفاية!

واتجه نحو النافذة:

أمسك دولوخوف بذراع الإنكليزي وراح يخاطب المدعوين مخصصاً بينهم أناتول وپيار، شارحاً بدقة شروط الرهان.

كان دولوخوف، شاباً في الرابعة والعشرين، أميل إلى القصر، ذا شعر أجعد وعينين تمتازان بزرقة فاتحة. كان ككل ضباط المدفعية، حليق الشارب، فكان فمه، وهو الجزء الأكثر تعبيراً في وجهه، يبدو مكشوفاً، يظهر خط

الانحناء فيه بدقة رائعة. الشفة العليا تنطبق على الشفة السفلى الغليظة مشكلة زاوية حادة كلها، بينما لبثت الزاويتان تظهران ضحكة مزدوجة ثانية، فكان تكوين ذلك الوجه، المتفق مع تلك النظرة التي لا تخلو من وقاحة معنوية، يستوقف الانتباه. وكان ذلك الشاب محروماً من الثراء والعلاقات السامية. مع ذلك، فقد كان يشارك أناتول في مسكنه، ويلقي بالمال من النوافذ! كان يحسن فرض احترامه على أناتول وكل الآخرين، يشرب وكأنه قربة هائلة، فلا يفقد اتزانه أبداً. وكان كوراغين ودولوخوف أميري الشبيبة اللامعة في پيترسبورغ.

بعد أن أتيا بالزجاجة، راح الخادمان المروعان بثورة الهرج والنصائح التي كانت تلقى إليهما من كل مكان، يحاولان جاهدين إنزال إطار النافذة، ليستطيع دولوخوف الجلوس على حافتها الخارجية، فاقترب أناتول بخطورة الغازي. كان في مظهره ما يدل على رغبته في تحطيم شيء ما.

أبعد الخادمين جانباً وراح يجذب الإطار بقوة. لكن هذا لم يلن تحت الضغط ولو أن جانباً من زجاج النافذة قد تحطم.

قال پيار:

ـ هيا، جرب أنت أيها الرجل القوي.

أمسك پيار بمراقي الإطار وجذبها فكاد يخلع النافذة كلها.

صاحب دولوخوف آمراً:

ـ إخلعها. وإلا فإنهم سيدعون أنني استندت إلى درفة أو إلى جزء منها.

ـ قال أناتول:

ـ إن الإنكليزي ينفخ أوداجه أليس كذلك؟ هل انتهيت من النافذة؟

فأجاب پيار:

ـ لقد انتهيت.

راح يرقب دولوخوف وهو يتقدم من النافذة والزجاجة في يده. فكان يرى منها السماء الصافية حيث يختلط ضياء المساء مع طلائع النهار.

قفز دولوخوف إلى النافذة والزجاجة في يده وصاح آمراً:

ـ اصمتوا.

كان واقفاً على حافة النافذة ووجهه إلى المتفرجين. فسكت الجميع استجابة لرغبته. أردف قائلاً بلغة فرنسية ركيكة ليفهم الإنكليزي:

ـ إنني أراهن بخمسين روبلاً أو بمائة إذا شئت!

فقال الإنكليزي:

ـ بل بخمسين.

ـ ليكن، أراهن بخمسين روبلاً على أنني سأتجرع زجاجة روم دفعة واحدة، وأنا جالس في هذا المكان، وانحنى ليدل على المكان الذي سيجلس فيه، دون أن يستند إلى شيء... هل اتفقنا؟

فقال الإنكليزي:

ـ اتفقنا.

التفت أناتول إلى ستيڤنس، وأمسك بزر «فراكه» ثم هبط بنظرته نحوه، لأن الإنكليزي كان قصير القامة، وراح يكرر عليه بالإنكليزية شروط الرهان. غير أن دولوخوف استنفر مجدداً انتباه الموجودين وهو يقرع بزجاجته على طرف النافذة وصاح:

ـ اصغوا إلي! دقيقة واحدة! اصغ يا كوراغين: إذا قام بعضكم بمثل هذا العمل، فإنني سأدفع له مائة روبل. هل فهمتم؟

أشار الإنكليزي برأسه أن نعم، دون أن يفهم من إشارته أنه يوافق على ذلك الرهان الجديد أم لا. راح يشير بالحركات والإشارات إلى أنه فهم

المراد، غير أن أناتول لم يدعه قبل أن أنهى إليه الترجمة الحرفية للشروط، أقوال دولوخوف كافة. أسرع شاب في مقتبل العمر، نحيل الجسم، جندي بسيط في الحرس، كان قد خسر تلك الليلة في المقامرة، إلى النافذة وأطل إلى الخارج. صرخ وهو يتأمل بلاط الشارع من عل:

ـ هو! هو! هو!..

زمجر دولوخوف وهو يدفع الجندي نحو الغرفة:

ـ استعد!

فقفز الجندي وقد أربكه المهمازان فكاد يسقط على الأرض.

وضع دولوخوف الزجاجة على حافة النافذة لتكون في متناول يده، ثم تسلق النافذة بحذر. اعتمد بيديه على الإطار ودلى ساقيه إلى الخارج، ثم اختار مكاناً مناسباً فجلس وأفلتت يداه الإطار. التفت يميناً ويساراً، وأمسك بالزجاجة. وعلى الرغم من أن خطوط النهار كانت قد وضحت، فإن أناتول جاء بشمعتين أشعلهما، ووضعهما إلى يمين دولوخوف وشماله حتى يستطيع المراقبون رؤية أية حركة تصدر على يديه، فأضاء بذلك قميص المراهن الأبيض، وشعره الأجعد، وجعله هدفاً ميسور المراقبة. واحتشد المتفرجون، والإنكليزي في المقدمة، يتطلعون بلهفة. وكان پيار يضحك دون أن يتفوه بكلمة. وفجأة اندفع أكبر الموجودين سناً وعلى وجهه أمارات الغضب، صاح وهو أكثر الحاضرين اتزاناً:

ـ إنه جنون أيها السادة. سوف تدق عنقه!

وهمَّ بإمساك قميص دولوخوف ليمنعه من القيام بما هو في سبيله، لولا أن أمسك به أناتول وقال:

ـ لا تمسه لأنك ستخيفه... فيسقط من حالق. وعندئذ... هن؟...

أدار دولوخوف رأسه ليصحح من وضعيته اعتماداً على يديه، وقال وهو يدفع الكلمات خلال شفتيه المطبقتين:

ـ إذا شاء أحد أن يتدخل في شؤوني فسأجعله يقفز من هذا الفراغ، لنبدأ الآن!

استدار نهائياً نحو الشارع بعد أن تخلى عن كل سند، وبقي في جلسة على حافة النافذة المنحرفة إلى الخارج، والزجاجة مرفوعة إلى فمه، وذراعاه إلى أعلى ليحافظ بهما على توازنه. كان أحد الخدم منحنياً يجمع حطام الزجاج المتناثر، فبقي في وضعيته المنحنية، وعيناه شاخصتان إلى النافذة تلتهمان ظهر دولوخوف وانتصب أناتول على مدى قامته وراح يحملق بعينيه. أما الإنكليزي، فراح ينظر حوله وهو يعفر وجهه. وراح الشاب الجندي يحتمي في زاوية، وقد تهالك على كنبة وأدار وجهه إلى الجدار؛ بينما غطّى پيار وجهه بيده وقد علت شفتيه ابتسامة منسية، تعبر عن الذعر. وجمد المتفرجون، فرفع پيار يده عن عينيه: كان دولخوف متحفظاً بوضعيته تلك، لكنه كان شديد الانحناء إلى الوراء، حتى أن خصلات شعره كانت تلامس ياقة قميصه. كانت الزجاجة تفرغ من محتوياتها، مرغمة رأس المراهن على الانحناء أكثر فأكثر، رافعة معها اليد التي تقبض عليها، وهي تهتز بحكم المجهود الذي يبذله صاحبها. أخذ پيار يحدث نفسه: «ما أطول هذه الفترة!» خيل إليه أن نصف ساعة قد انقضت منذ أن بدأ دولوخوف شرب الروم. وفجأة، قام دولوخوف بحركة عنيفة إلى الوراء: كانت رعدة عصبية تحرك ذراعه بما يكفي ليفقد الجسد المتمركز على الحافة المنحدرة اتزانه. راح يتأرجح بمجموع جسده: الرأس والذراع المتزايدة الاهتزاز بتأثير المجهود المبذول. وكادت اليد الأخرى تمسك بإطار النافذة. لكنها انكمشت في آخر لحظة. فأغمض پيار

عينيه من جديد، وقرر يفتحهما بعد ذلك. لكنه شعر فجأة بحركة غير اعتيادية حوله، ففتح عينيه متسائلاً. شاهد دولوخوف وقد سحب وجهه وبان السرور عليه، واقفاً على حافة النافذة.

صاح معلناً نجاحه، وهو يلقي بالزجاجة إلى الإنكليزي الذي تناولها قبل أن تسقط على الأرض:

ـ إنها فارغة!

وقفز دولوخوف إلى أرض الغرفة تنبعث من فمه رائحة قوية، طغى فيها الروم على كل الخمور الأخرى التي تناولها من قبل. صاحوا به من كل صوب:

ـ مرحى! يا للرجل المتين! إنه لرهان رائع!

بينما أخرج الإنكليزي كيس نقوده وراح يعد المبلغ. وبقي دولوخوف يرمش بعينيه دون أن ينبس بكلمة واحدة.

وفجأة اندفع پيار نحو النافذة وصاح:

ـ أيها السادة، من يعقد رهاناً معي؟ سأفعل ما فعل دولوخوف. بل إنني لا ألح في صدد الرهان! اعطوني زجاجة روم وسأشربها على حافة النافذة. هيا إلي بزجاجة! زجاجة!

ابتسم دولوخوف وصاح مشجعاً:

ـ هيا، امض في عزمك!

غير أن الاعتراضات انبعثت من جانب. صاح قائل:

ـ ماذا أصابك؟ هل جننت؟ هل تعتقد أننا سندعك تنفذ عزمك؟ أنت الذي تصاب بدوار لمجرد صعودك السلّم!

صرخ پيار وهو يضرب الطاولة بقبضة يده:

ـ كلا، كلا! إلي بزجاجة، زجاجة! سأفرغها!

وتسلق النافذة. فقبضا على ذراعيه، لكن ذلك الجبار سرعان ما تخلص من معارضيه وأبعدهم عنه، فانكمشوا أمام قوته.

قال أناتول:

ـ لا، لن تستطيعوا حمله على العدول. انتظروا؛ سوف أجعله يتراجع، اسمع، إنني أقبل المراهنة معك ولكن غداً. أما الآن، فلنذهب إلى لرس...

فصاح پيار:

ـ حسناً، هيا بنا! ولنأخذ معنا الدب ميشكا.

وحمل الدب وراح يدور به في فراغ الغرفة.

الفصل العاشر

وفى الأمير بازيل بوعده الذي قطعه للأمير درويتسكوي في حفلة آنّا بافلوفنا بشأن ابنها الأوحد بوريس، إذ وافق الأمبراطور الذي تحدثوا إليه عن الفتى أن ينقل استثنائياً إلى ملاك الحرس مكان حامل العلم في فيلق سيميونوفسكي. غير أن آنّا ميخائيلوفنا لم تستطع رغم كل الجهود والمحاولات أن تجعل ابنها يقبل في دائرة أركان حرب كوتوزوف، لا بصفة مساعد ولا كملحق عادي. فانتقلت إلى موسكو، بعد انقضاء فترة قصيرة على الحفلة، التي أنفذت الشطر الأول من خطتها فيها، ونزلت عند أقاربها الأغنياء: آل روستوف، الذين درجت عادتها على الحلول بينهم؛ والذين نشأ عزيزها بوريس في بيتهم منذ طفولته؛ وظل يقطن عندهم، حتى أصبح أخيراً حامل العلم في فيلق الحرس؛ بعد أن كان في الجيش. وكانت فرقة بوريس قد بقيت في موسكو؛ بانتظار أن تلحق بالفيلق الذي غادر بيترسبورغ في العاشر من شهر آب في طريقه إلى رادزيويلو.

وكان آل روستوف يحتفلون ذلك اليوم بعيد القديسة ناتالي؛ التي كانت ربة المنزل وابنتها الصغرى تحملان اسمها. فكان رتل متواصل من العربات الأنيقة، متوقفاً منذ الصباح أمام مسكنهم في شارع بوفارسكايا الشهير في كل موسكو. وفي غرفة الاستقبال؛ كانت الكونتيسة روستوف بصحبة ابنتها البكر، وهي فتاة رائعة الجمال، تستقبل السيل المتدفق من الزوار. كانت الكونتيسة؛ في الخامسة والأربعين من عمرها؛ ذات وجه نحيل يضفي عليها مسحة

شرقية، أرهقتها اثنتا عشرة ولادة متتابعة، وترك طابع الكد على قسماتها. كانت حركاتها التعبة وأسلوبها البطيء في الحديث نتيجة لذلك الإرهاق، تعطيها لوناً من الوقار يفرض الاحترام. كانت الأميرة دروپتسكوي، نظراً للألفة التي بينها وبين أصحاب الدار، تستقبل المدعوين كما لو كانت في بيتها، وتزكي الحديث. أما الشبان من آل المنزل، فكانوا منصرفين عن الجو الرسمي. وكان الكونت يستقبل المدعوين داعياً إياهم إلى تناول العشاء.

كان يقول:

ـ تشرفت جداً يا عزيزتي أو يا عزيزي، وقد درجت عادة الكونت على أن يخاطب الجميع بيا عزيزي أو يا عزيزتي دون استثناء أو تقدير لمركز الشخص الاجتماعي، إنني أشكرك باسمي الشخصي وأشكرك باسم اللتين نقيم الحفلة من أجلهما. لا تتخلف عن العشاء لأنني سأعتبر ذلك إهانة لي يا عزيزي. أرجوك بإخلاص وأدعوك باسم كل العائلة.

كان يوجه هذا القول إلى الجميع بصرف النظر عن كل الاعتبارات، دون أن تتبدل تعابير وجهه المنتفخ البشوش الحليق بتأنق، ويصافح الجميع بتلك اليد القوية وهو يكرر انحناءة إثر أخرى. وكلما شيع زائرة عاد قرب التي أو الذي بقي في قاعة الاستقبال فيدني مقعداً، بيسر الرجل الذي يحب أن يحيا حياة جميلة ويستمسك بهذا الشرط، ويجلس بنشاط متباعد الساقين، ممدداً يديه على ركبتيه. وهو ينتقل ببشاشة ومرح، يبدي تنبؤات عن الطقس، يعطي النصائح حول الصحة تارة بالروسية وأخرى بالفرنسية، فرنسيّته البغيضة المطبوعة بالجرأة. ثم يعود ثانية، رغم تعبه، ڤيرافق الأشخاص، بحرص رب المنزل الذي يضحي بالكثير في سبيل إتمام واجباته، فيودع الزائر وهو يكرر دعوته للعشاء، ويسوي بيده، شعيراته الشهباء المبعثرة على رأسه الأصلع. وكان

أحياناً، عند عودته من الردهة، يقوم بجولة بين بيت النباتات وجناح الخدم، ليدخل إلى قاعة الطعام الكبرى، التي تغطي قطع الرخام جدرانها وأرضها، فيعاين الطاولة المهيأة لثمانين مدعواً، ويلقي نظرة على أعمال الخدم، الذين كانوا يحملون الأطباق والأواني الخزفية والفضية، ويرتبونها على الطاولة، أو يبسطون عليها الأغطية المطرزة؛ فينادي ديمتري ڤاسيلييڤيتش وهو نبيل أخنى عليه الزمن فأصبح يشرف على المؤونة وشؤون مالية الكونت، فيقول له: انتبه ياميتا، وافتح عينيك. اسهر على أن يكون كل شيء على أكمل وجه. ويضيف عندما يتأمل الطاولة الجبارة ذات الأطراف التي تسمح بتبديل طولها وفق رغبة صاحبها وعدد المدعوين، بنظرة ابتهاج: ممتاز! عال! إن المائدة المنسقة تنسيقاً جميلاً، هي الأساس الأهم في حفلات الطعام. هيا، هذا حسن!... ويعود إلى غرفة الاستقبال وهو يتنهد بارتياح.

أعلن تابع الكونتيسة بصوت مدو:

ـ ماري لڤوڤنا كاراغين وابنتها!

فقالت الكونتيسة بعد لحظة تردد، وبعد أن غمست اصبعها في علبة سعوطها المذهبة، التي تحمل صورة زوجها:

ـ ستسقمني الزيارات هذه وتقتلني هيا، لنستقبل هذه المتطرفة، أدخلها.

كانت بتلك اللهجة الآمرة، التي خاطبت بها التابع، كأنها تقول: «خلصني من ذلك، ما دمت موجوداً!».

دخلت سيدة بدينة، مترفعة الحركات، تتبعها ابنتها، بوجهها الممتلئ المشرق، ترفلان في أثوابهما.

قالت أصوات نسائية بحماسة تقاطع بعضها بعضاً، وتمتزج بحفيف من الأثواب وضجيج القواعد:

ـ عزيزتي الكونتيسة، لقد مضى زمن طويل... لقد كانت ملازمة فراشها، طفلتي المسكينة... في حفلة آل رازوموڤسكي... والكونتيسة أبراكسين... لقد كنت سعيدة جداً...

وهكذا بدأت الثرثرة الطبيعية الاعتيادية، التي تطوف بالموجودين للوهلة الأولى ريثما تنهض المضيفة محدثة لجباً وتقول «إنني مفتتنة بزيارتك... صحة الماما... والكونتيسة أبراكسين...» ثم يمر الصخب وحفيف الأثواب حتى يبلغ الردهة، وهناك ترتدي السيدة المشيعة دثارها وترتحل. تبدأ الحديث، فيدور حول الحدث الأول في المجتمع الراقي، وهو مرض العجوز الثري الكونت بيزوخوف، الذي كان من أجمل رجال عهد كاترين الثانية، والذي تصرف ابنه غير الشرعي پيار، بتلك الطريقة المخجلة، في حفلة آنّا پاڤلوڤنا شيرر.

قالت الزائرة الجديدة:

ـ إنني أرثي للكونت المسكين. إنه في حالة المرض التي هو فيها، يتعرض لخطر الموت متأثراً بأفعال ابنه الطائشة.

سألت الكونتيسة متظاهرة بأنها تجهل تلك القصة التي سمعتها أكثر من خمس عشرة مرة:

ـ أية تصرفات طائشة؟

فأردفت الزائرة تقول:

تلك هي قطوف التثقيف في هذا العصر، لقد ترك هذا الفتى لنفسه، عندما كان في الخارج، وها هو الآن في پيترسبورغ يرتكب، كما يقال، حماقات مروعة، حتى أن الشرطة اضطرت إلى إبعاده.

صاحت الكونتيسة بدهشة:

ـ صحيح!

فتدخلت الأميرة دروبنتيسكوي قائلة:

ـ لقد أساء انتقاء أصدقائه، فلم يجد خيراً من ابن الأمير بازيل، وآخر يدعى دولوخوف. لقد ارتكب ثلاثتهم، كما يقال، شتى أنواع الموبقات. ونجم عن ذلك أن عوقب دولوخوف بإنزال رتبته من ضابط إلى جندي. وأن أبعد بيزوخوف الشباب إلى موسكو. أما أناتول كوراغين. فقد اضطر إلى مغادرة پيترسبورغ، ولولا تدخل والده، لانتهت قضيته إلى ذيول خطيرة.

سألت الكونتيسة مستفهمة:

ـ ولكن ماذا فعلوا حتى استحقوا هذا؟

فأجابت الزائرة بلهجة التأكيد:

ـ إنهم أشقياء حقاً، وعلى الخصوص دولوخوف، رغم أنه ابن ماري إيفانوفنا دولوخوف، وهي شخصية محترمة... تصوري أن ثلاثتهم قد حصلوا، والله أعلم بالمكان، على دب، أرادوا حمله معهم في عربة إلى حيث يقطن بعض الممثلين. فلما تدخل رجال الشرطة بغية إعادتهم إلى صوابهم، اصطدموا بضابط القسم، فألقوه أرضاً، وربطوه ظهراً إلى ظهر مع الدب في نهر «المويبكا» فراح الدب يسبح حاملاً ضابط الشرطة على ظهره.

صاح الكونت مقهقهاً:

ـ تصوري موقفه يا عزيزتي.

ـ يا له من أمر مريع! ما الذي تراه مضحكاً في الأمر يا كونت؟

لكن النساء أيضاً لم يستطعن رغم تلك الملاحظة الإبقاء على سيماء الجد في وجوههن.

استطردت مدام كاراغين:

ـ لقد لاقوا مشقة كبيرة في إنقاذ المسكين. تصوروا صانع تلك الفضيحة هو ابن الكونت سيريل ڤلاديميروڤيتش بيزوخوف إنهم يزعمون أنه جمّ

التهذيب والذكاء. هذه هي الحدود التي تقود إليها الثقافات في الخارج. آمل أن لا يستقبله أحد هنا رغم ثرائه. لقد أرادوا أن يقدموه إلي فقلت: كلا، شكراً إن عندي بنات.

سألتها الكونتيسة وهي تنحني عليها:

ثروته! ولكن أين تلك الثروة؟

وتظاهرت الفتيات الشابات بعدم الإصغاء، بينما استطردت الكونتيسة: ليس للكونت سيريل إلا أولاد غير شرعيين كما أعتقد. ولن يُستثنى پيار هذا من ذلك.

قالت مدام كاراغين بلهجة مستهزئة:

ـ أولاد غير شرعيين! أعتقد أن للكونت أقله عشرين واحداً!

واعتقدت الأميرة دروبتيسكوي أن الفرصة مؤاتية لإظهار علاقاتها ومعلوماتها. فقالت بصوت خفيض، وعلى وجهها أمارات توحي بأنها تعرف الأصول والفروع.

ـ إليكم المسألة: إن سمعة الكونت سيريل معروفة، وبدون شك إنه لا يعرف عدد أبنائه، لكن پيار هذا مفضل من بينهم.

ـ أتعرفون أن هذا العجوز الأنيق كان في العام الماضي على أحسن حال، وإنني لم أر قط أجمل منه رجلاً؟

فأجابت الأميرة دروبتيسكوي وهي تعود إلى موضوعها.

ـ أوه، لقد تغير كثيراً. كنت أقول إذن إن پيار مفضل ومقرب إليه. ولقد عُني بتثقيفه، وكتب بشأنه إلى الأمبراطور... فإذا وقعت فاجعة، وهو في أرذل العمر، حتى أنهم استدعوا لوران من پيترسبورغ، فإن ثروته، وتعدادها أربعون ألف نفس وعدد من الملايين، ستؤول حتماً إلى پيار ويسبب ذلك خسارة الأمير بازيل الذي يعتبر وارثاً مباشراً عن طريق زوجته، كما حدثني بنفسه.

إن معلوماتي إذن مستقاة من مصدر ثقة. أضف إلى ذلك أنني، عن طريق أمي، أعتبر حسب العرف المتبع في بريطانيا، حفيدة الكونت سيريل، ويعتبر بوريس ابنه بالمعمودية.

تفوهت بجملتها الأخيرة دون أن يبدو عليها أنها تتعمد أمراً من وراء ذلك.

قالت مدام كاراغين.

ـ إن الأمير بازيل هنا منذ البارحة في جولة تفتيشية كما يقال.

فأجابت الأميرة:

ـ أجل، ولكن التفتيش، والحديث بيننا، ليس إلا حجة. أما سبب سفره الحقيقي، فهو مرض الكونت سيريل الخطير.

صاح الكونت روستوف فجأة:

ـ لقد تحدثت بالصدق يا عزيزتي. إن الحكاية مضحكة.

لكنه عندما رأى الزائرة لا تستمع إليه، مال إلى الفتيات الشابات، وتابع قائلاً:

ـ لا شك أن موقف الضابط المسكين كان مضحكاً.

وشفع قوله بإشارات من يديه، للدلالة على مدى سخط الضابط. وانفجر ضاحكاً ضحكة مدوية، ضحكة رجل أمضى كل عمره بين الطعام الجيد، والشراب الأجود فتجاوب لها جسده السمين المنتفخ.

ثم اختتم حديثه:

ـ لقد اتفقنا إذن. سوف ننتظرك لتناول العشاء معنا.

الفصل الحادي عشر

ساد السكوت لحظة. فلم تتمكن الكونتيسة من إخفاء دلائل الارتياح الذي ستشعر به، إذا ما غادرتها الزائرة، رغم الابتسامة المشجعة التي كانت توقفها عليها.

أخذت الآنسة كاراغين تستفسر أمها بنظراتها، تتهيأ لمغادرة المكان، عندما ارتفع فجأة وقع خطوات متسارعة، آتية من الغرفة المجاورة، ثم ارتطام مقعد منقلب، وفجأة فتح الباب، وظهرت على عتبته فتاة في الثالثة عشرة من عمرها، تخفي وراءها شيئاً في طيات ثوبها القصير، المصنوع من قماش «الموسلين الثمين». توقفت الفتاة في مكانها، وقد أدهشها أن تكون اندفعت في ركضها إلى ذلك المكان. وفي اللحظة نفسها، بدا وراءها طالب ذو ياقة خمرية اللون، وضابط من الحرس، ثم فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وفتى يرتدي سراويل قصيرة، ذو وجنتين ممتلئتين.

قفز الكونت فوراً، وراح يتأرجح في مشيته، ويلف ساقاً على ساق، ويباعد بين ذراعيه، ليقطع الطريق على الفتاة. صرخ وهو يضحك:

آه، ها هي ذي بطلة حفلتنا! يا فتاتي الصغيرة العزيزة!

وتصنعت الكونتيسة الغضب وقالت:

ـ هناك وقت لكل شيء يا عزيزتي.

وأردفت تخاطب زوجها:

ـ إنك تفسدها كثيراً يا إيلي.

قالت مدام كاراغين:

ـ مرحباً يا عزيزتي، أهنئك.

ثم أردفت تخاطب الأم:

ـ يا لها من فتاة لطيفة!

لم تكن الفتاة الصغيرة ذات العينين السوداوين، والفم الكبير، على شيء من الجمال، ولكنها كانت تنفجر حيوية. كان انطلاقها في المشي قد بعثر خصلات شعرها الأسود، المنسدل إلى الوراء، وأبرز كتفيها الناحلتين تحت ثوبها. كانت ذراعاها الدقيقتان عاريتين، وساقاها النحيلتان، تبرزان خلال سراويل من «الدانتيلا» تصل حتى حذاءيها المكشوفين. كانت في تلك السن الباسمة التي لا تكون الفتاة فيها طفلة ولا تكون الطفلة فيها في مصاف الفتيات الشابات، أفلتت من الكونت وأسرعت تخفي وجهها المتورد في ثوب أمها، التي لم تفلح ملاحظتها القاسية في ترويعها. كانت ولا شك تفكر في أمر مضحك مثير، إذ إنها أخرجت من بين طيات ثوبها لعبة وغمغمت قائلة:

ـ ألا ترين؟ لعبتي... ميمي... ألا ترين؟

وعجزت الصبية ناتاشا عن متابعة حديثها، إذ اجتاحتها موجة الضحك التي سرت منها إلى الآخرين، عندما أطلقت ضحكة رنانة، تجاوبت أصداؤها في القاعة، واستجاب لها الموجودون بمن فيهم الزائرة ذات المظاهر المتعالية.

قالت الأم وهي تتصنع الغضب:

ـ اذهبي، اذهبي، واحملي معك هذه السماجة.

ثم خاطبت مدام كاراغين قائلة:

ـ إنها صغرى بناتي.

سألتها هذه متقربة:

ـ قولي لي يا صغيرتي ناتاشا، هي قرابتك مع هذه الميمي؟ إنها بلا ريب ابنتك؟

كانت تعتقد أنها بذلك السؤال تتقرب من الفتاة. لكن دعابتها السمجة لم ترق ناتاشا التي ألقت عليها نظرة قاتمة دون أن تجيب.

وفي تلك الأثناء، احتلت الشبيبة: بوريس، وهو الضابط ابن الأمير دروبتسكوي، ونيكولا، وهو الطالب ذو الياقة الخمرية وابن الكونت البكر، وسونيا ابنة أخت الكونت، وبيتروشا الصغير، وهو أصغر أبنائه، مكانها في القاعة. كانت وجوههم تطفح بالابتسام، رغم أنهم بذلوا جهوداً كبيرة لكبت ضحكاتهم، احتراماً للرسميات التي يقتضيها الموقف.

كان يبدو على وجوههم بوضوح، أنهم كانوا في تلك الغرف البعيدة، غارقين في مشاريع أكثر تسلية، ألف مرة مما عليه الحال في القاعة، من ثرثرات ولغط، وحديث عن الطقس وعن الكونتيسة أبراكسين وآخر الفضائح، كانوا يتبادلون نظرات متآمرة وهم يكتمون ضحكاتهم.

كان الشابان الضابط والطالب، صديقين منذ الطفولة، وكان كلاهما يتمتع بجمال فتّان. لكنهما كانا يختلفان اختلافاً واضحاً. كان بوريس طويل القامة، أشقر، ذا تقاطيع دقيقة متناسقة. أما نيكولا، فكان على العكس، قصير القامة، أجعد الشعر، ذا سحنة مشرقة مطبوعة بحمية شديدة. كانت شفته العليا مظللة بشارب خفيف أسود. احمرَّ وجهه عندما دخل إلى القاعة، وراح يحاول عبثاً تبرير سلوكه. أما بوريس، فكان على العكس. استعاد هدوءه بسرعة وعاد إليه مرحه، فراح يروي القصة بصوت ملؤه المجون. قال إنه عرف تلك «الميمي»، صبية جميلة سليمة الأنف. لكنه ولدهشته وجدها بعد خمس سنوات، قد شاخت بسرعة، حتى أنها حطمت جمجمتها. وبعدئذ ألقى على ناتاشا نظرة لم تستطع هذه احتمالها، فاختلست نظرة إلى وجه أخيها الذي كانت ضحكته مكتومة تهز جسده بعنف، وهو مغمض العينين. وفجأة قفزت هاربة من

القاعة، وقد فقدت السيطرة على نفسها نهائياً. لكن بوريس لم يتحرك. قال يخاطب أمه:

ـ كنت تريدين الخروج للنزهة يا أماه. فهل أجهز لك العربة؟

وابتسم لأمه ابتسامة محببة ردتها له من فورها بأجمل منها. وقالت:

ـ هو ذاك. اذهب واقطر الخيول إليها.

ومضى بوريس بخطوات هادئة يبحث عن ناتاشا. أما الشاب القصير، فإنه جرى على أعقابهما وعلى وجهه آيات التبرم، شأن من أغضبه بعضهم، بإزعاجه في غمرة أعماله الهامة، بتفاهات!

الفصل الثاني عشر

لم يبق في القاعة ممثلاً عن الشبيبة عدا الآنسة كاراغين وابنة الكونتيسة البكر، التي كانت أكبر من شقيقتها بأربع سنوات، وتقلد حركات المسنين، إلا نيكولا وابنة عمه سونيا، تلك السمراء النحيلة، رقيقة العود، التي كانت تحيط رأسها بضفيرة ثقيلة من شعرها دارت حوله دورتين، وجاءت تنعقد أخيراً عند منبت الشعر. كان جلدها زيتوني اللون، على عكس ظهوره الصارخ عند عنقها وذراعيها العاريتين، اللتين أهزلتهما «العصبية» لكنها لم تكن خالية من الجاذبية. كانت خفيفة الظل، لدنة الأعضاء، تعطيها بعض الحركات التي لا تخلو من مكر، مظهر القطة الصغيرة التي لاتزال خشنة بعض الشيء، ولكنها في المقابل، تبشر بمستقبل ينبئ بأنها ستصبح هرة فتانة. تظاهرت بأنها تشعر باهتمام بالحديث العام الدائر في القاعة، لكنها لم تستطع التأثير في أحد، بأن تجعل ابتسامتها التي كانت منطبقة على شفتيها تشعر بذلك الاهتمام، وخصوصاً أن تبادل النظرات بينها وبين ابن عمها، تلك النظرات التي كانت ترمقه بها خلال أهدابها الطويلة، أظهر بوضوح أن القطة الصغيرة لم تمكث هناك، إلا لتمرح مع ابن عمها الذي يتعشق حياة الجيش، حالما يحذوان حذو بوريس وناتاشا، فيخرجان بدورهما من القاعة ليختليا معاً، مضللين الكبار، الذين يتحدثون في قاعة الاستقبال.

كان الكونت العجوز يحدث السيدة كاراغين مشيراً إلى ابنه:

ـ نعم يا عزيزتي. ها هو صديق بوريس. لقد رقي صديقه إلى رتبة ضابط،

فلم يرغب «نيكولاي» في البقاء متخلفاً، لذلك أهمل دراسته وأباه العجوز، والتحق بالخدمة يا عزيزتي. كان ينتظره مركز ممتاز في الإدارة، يبشر بمستقبل باهر. يا لها من صداقة جميلة، أليس كذلك؟

قالت مدام كاراغين:

ـ يزعمون أن الحرب قد أعلنت.

فأجاب الكونت:

ـ إنهم منذ زمن يتشدقون بهذا القول، حتى باتت أعصابنا مرهقة من كثرة التكرار...

وكرر ملمحاً إلى جملته الأولى:

ـ يا للصداقة الجميلة، أليس كذلك؟ لقد دخل في فيلق الخيالة.

لم تستطع مدام كوراغين التخلص من ورطتها إلا بهز رأسها. فابن نيكولا يجيب بدلاً عنها في شيء من الاحتداد، إذ بدا تفسير أبيه لسلوكه على شيء من القسوة. قال:

ـ ولكن، لا علاقة للصداقة بالأمر. إن الجيش يجتذبني. وهذا هو السبب.

وألقى على ابنة عمه وعلى الآنسة كاراغين نظرة، فأيدتاه كلتاهما بابتسامة.

قال الكونت وهو يهز كتفيه:

ـ إن الكولونيل شوبيرت مدعو لتناول العشاء عندنا. إنه قائد فرسان پاڤلوغراد. عندما ينهي عطلته سيأخذ ابني الشقي معه، ماذا أستطيع أن أفعل؟

كان يتكلم بلهجة مازحة، لكنه كان واضح الانشراح للحادث الوشيك.

قال الابن:

ـ أكرر عليك القول يا أبي، إنك إذا كنت لا ترغب في ذهابي، بقيت

إلى جانبك. غير أن الحظيرة العسكرية هي وحدها التي تروقني. إن السياسة والإدارة لا تصلحان لي، لأنني لا أستطيع إخفاء عواطفي.

لم يكف لحظة، خلال هذا القول، عن النظر إلى الفتيات بتظرف الشباب الجريء. وكانت القطة الصغيرة تلتهمه بنظراتها، تكاد ترتمي عليه، وتكشف عن طبيعتها المكبوتة.

قال الكونت العجوز:

ـ لا بأس، ذلك حسن! يجب على كل حال أن يتبع طموحه! إن بوناپرت هو الذي يدير رؤوسهم جميعاً: ملازم أول يصبح أمبراطوراً! هذا هو حلمهم، أليس كذلك؟ ليكن، على مشيئة الله!

أنهى الكونت كلماته دون أن يلاحظ الابتسامة الساخرة التي بدت على شفتَي مدام كاراغين.

وتحول موضوع حديث الكبار إلى بوناپرت وقضاياه، فانتهزت جولي، ابنة مدام كاراغين، هذه الفرصة، والتفتت إلى روستوف الشاب تقول بحنان:

ـ كم كان مؤسفاً أنك لم تحضر الخميس المنصرم إلى حفلة آل أرخاروف! لقد ضجرت كثيراً بدونك!

جلس نيكولا بجانب جولي التي لم تكن تقل عنه ابتساماً. كان حديثها قد أرضى غروره، فجلس إلى جانبها، وعلى شفتيه تلك الابتسامة، ابتسامة الشباب الماجن، وراح يتحدث معها حديثاً خاصاً، لم يلحظ خلاله أن تظرفه المتبذل كان وقع الحسام في قلب سونيا التي كانت تتحرق من الغيرة، وتحاول عبثاً إخفاء ما بها بإظهار الوداعة والانشراح. وفجأة، رفع عينيه إلى وجهها: وعندئذ صعقته سونيا بنظرة تتصارع العاطفة فيها مع الغضب، ثم أمسكت دموعها بجهد بالغ، واستبقت على شفتيها طيف ابتسامة وغادرت القاعة،

فخبت حماسة نيكولا دفعة واحدة. قطع حديثه مع جولي حالما أتيح له ذلك دون أن يخدش شعورها، ومضى وعلى وجهه أمارات القلق يبحث عن سونيا.

قالت أنّا ميخائيلوڤنا مشيرة إلى نيكولا الذي يغادر القاعة:

ـ كم تبدو أسرار الشبيبة مفضوحة! إن قرابة العمومة جوار خطر!

فقالت الكونتيسة، عندما خبا الإشعاع الذي تسلل إلى القاعة مع الشبان الذين غادروه:

ـ نعم.

ثم أجابت عن سؤال لم يكن أحد قد طرحه عليها، بل كانت تشعر بإلحاحه يؤرقها:

ـ كم من مزعجات وقلق احتملنا حتى باتوا اليوم يشيعون في نفوسنا بعض البهجة! ثم إن هذه البهجة يفسدها الخوف. أي إننا نقضي حياتنا كلها في العذاب. لأن في مثل هذه السن، يتعرض الشبان والفتيات لأشد المخاطر.

قالت الزائرة:

ـ يتوقف الأمر على تربيتهم.

أجابت الكونتيسة وهي تتصور أن أولادها لا يخفون عنها سراً شأن كثير من الأمهات:

ـ لا شك! لقد كنت دائماً صديقة أولادي. وهم يثقون بي ثقة عمياء. سأكون أبداً موضع سر فتياتي. أما نيكولا، فإنه بطبيعته الثائرة مرغم على أن يرفه عن نفسه على شكل ما، ككل الشبان. لكنه لا يمكن أن يتجاوز الحدود كأولئك السادة في پيترسبورغ. إنني واثقة بذلك.

وأيدها الكونت بقوله:

ـ نعم، إنهم ذوو طبيعة ممتازة. وكلمة «ممتازة» هذه، كانت تعطي

الكونت حلّاً لكثير من المسائل الشائكة؛ صدقي إنه يريد الالتحاق بقطعات الخيالة! ماذا تريدين مني أن أفعل يا عزيزتي؟

قالت مدام كاراغين:

ـ يا لها من مخلوقة رائعة، ابنتك الصغرى! إنها جياشة كالبارود.

فقال الكونت:

ـ نعم كالبارود. إنها تشبهني. ويا لجمال صوتها، يا عزيزتي! صحيح أنها ابنتي، ولكن الحقيقة هي الحقيقة. ستصبح مغنية حقيقية. سالوموني الثانية. إننا نعطيها دروساً على يد إيطالي.

ـ أليست في سن مبكرة بعد؟ يقال إن دروس الغناء في مثل هذه السن تتلف الصوت.

صاح الكونت:

ـ كيف مبكرة؟ ألم تتزوج أمهاتنا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة؟

وقالت الكونتيسة، وهي تعلن ابتسامة مشرقة لأم بوريس:

ـ وها هي ذي ببوريس! افتحي عينيك قليلاً!

وعادت إلى شاغلها الرئيسي في الموضوع تابعت:

ـ لو أنني شددت المراقبة عليها وضعتها من... لكان الله وحده يعرف ماذا يمكن أن تفعل في الخفاء معه. (كانت تريد أن تقول إنهما كانا سيتعانقان). أما على هذه الحرية التي أطلقها لها، فإنني أعرف كل مشاريعها. إنها تأتيني كل مساء لتقص عليّ كل ما يقع لها في النهار. قد أكون مخطئة في تصرفي الذي قد يفسدها، لكنني لا أكترث. إن هذا خير من النتائج الأخرى على ما يبدو لي. لقد راقبت البكر مراقبة شديدة من قبل.

فقالت البكر، الكونتيسة ڤيرا الجميلة، باسمة:

ـ نعم، لقد نُشّئت على نمط مختلف تماماً.

كانت الابتسامة التي من عادتها أن تجمل الوجوه، تضفي على ڤيرا لوناً عكسياً غير طبيعي، منفّراً تقريباً. كانت ڤيرا جميلة، ذكية، مثقفة وحسنة التربية. وكان لصوتها وقع جميل. مع ذلك، فإن ملاحظتها، رغم ملاءمتها وصحتها، ألقت على السامعين وشاحاً من الفتور. فنظروا إليها جميعاً، ابتداء من الكونتيسة ومدام كاراغين، نظرة مستغربة.

قالت مدام كاراغين:

ـ إن الأمهات يسعين دوماً إلى تنشئة أبكارهن بكل تدقيق وعناية.

قال الكونت:

ـ آه نعم يا عزيزتي. إذ ما فائدة الإنكار؟ لقد تصرفت كونتيستي الصغيرة حيال ڤيرا بعناية فائقة.

ثم تمالك نفسه وأردف، وهو يغمز ابنته بنظرة ودٍ لطيفة:

ـ ثم إن التجربة نجحت نجاحاً باهراً.

نهضت الزائرات ووعدن بالعودة لتناول العشاء.

قالت الكونتيسة، بعد أن شيعتهن حتى الباب:

ـ يا لها من تصرفات سخيفة، هل يسمح للمرء بالبقاء كل هذا الوقت! لو بقين وقتاً آخر لنبتت لهن جذور هنا؟

الفصل الثالث عشر

اختبأت ناتاشا في بيت النباتات ولم تذهب بفرارها الأهوج بعيداً، تنتظر بوريس، وراحت تستمع إلى الضجة المتعالية من القاعة. أدركها الملل فراحت تريح ساقاً وتعتمد على الأخرى، وقد نفد صبرها وكادت تبكي. وفجأة، تناهى إلى سمعها وقع خطوات متزنة، لا بطيئة ولا سريعة، عرفت ناتاشا منها أن فتاها يقترب من مكانها. فاختبأت وراء أصص الزهور.

في منتصف الحديقة الشتوية وقف بوريس، وراح يتفحص أركانها بعينيه وينفض الغبار عن كمه بطرف سبابته، ثم اقترب من المرآة الكبيرة، أخذ يتأمل طلعته البهية فيها. بقي برهة أمام المرآة، ثم ابتسم ومضى إلى الباب الآخر. كادت ناتاشا تناديه. لكنها فكرت برهة وقالت في سرها: «كلا، ليبحث عني!». ولم يكد بوريس يغادر بيت النباتات حتى دخلت سونيا فجأة، محمرَّة الوجه، تتمتم خلال دموعها. همت ناتاشا للوهلة الأولى أن تلقي بنفسها على عنق ابنة عمها، لكنها تمالكت أعصابها من جديد، وراحت من مخبئها، تراقب سير الحوادث بسكون المتآمرين. شعرت بسرور لم تعهد مثله من قبل، وهي تتأمل تتابع الأحداث دون أن يراها أحد. رأت أن سونيا، التي لم تكف عن البكاء، ترقب بلهفة باب القاعة، الذي لم يلبث نيكولا أن بدا على عتبته.

ركض نحوها، وهو يقول:

ـ سونيا، ماذا بك؟ هل يجوز لك أن...

فأجابته، وهي تبكي:

ـ ليس بي شيء! دعني، ليس بي شيء، دعني.

ـ بلى، إنني أعرف ما بك.

ـ أتعرفه؟ حسناً، هذا أفضل!.. إمضِ إلى صديقتك الأخرى!

أمسك نيكولا بيدها، فلم تمانع، وكفت عن البكاء. فقال:

ـ سونيا!... كلمة واحدة فقط. إنك تتخيلين أشياء سخيفة. هل يجوز لنا أن نتعذب من أجل هذه التفاهة؟

بقيت ناتاشا جامدة في زاويتها، ملتمعة العينين، مبهورة الأنفاس، تراقب ذلك المشهد بلهفة.

راحت تتساءل: «ترى، ماذا سيحدث؟».

استطرد نيكولا قائلاً:

ـ سونيا، ماذا يهمنا العالم؟ ألست كل شيء بالنسبة إلي؟ سوف أثبت لك ذلك.

ـ إنني لا أحب أن تتحدث هكذا.

ـ عذراً. لن أعود إلى مثله.

ثم جذبها إلى صدره وقبّلها.

فقالت ناتاشا في مخبئها تحدث نفسها: «آه! كم هذا لذيذ!» فلما غادرت سونيا بيت النباتات بصحبة نيكولا، غادرت مكانها، تبحث عن بوريس.

قالت له بلهجة فيها طابع الجد والمكر:

ـ بوريس، تعال. لدي ما أقوله لك. تعال من هنا. من هنا...

وعادت معه إلى الحديقة الشتوية وجذبته إلى حيث كانت مختبئة وراء أصص الزهور، فتبعها بوريس باسماً. قال:

ـ حسناً، ماذا هناك؟

كانت شديدة الانفعال، متحفزة العواطف، فراحت تفحص ما حولها

بعينيها. ولما وقع نظرها على دميتها التي كانت ملقاة على أحد الصناديق، التقطتها وقالت له:

ـ قبّل ميمي.

لم يجب بوريس، لكنه كان يدقق بمحبة في وجهها المتيقظ.

قالت، وهي تلقي بدميتها بعيداً:

ـ ألا تريد؟ إذن، تعال من هنا.

وتغلغلت بين النباتات، وهمست:

ـ اقترب، ازدد قرباً!

أطبقت بيديها الاثنتين على أشرطة ثوبه، وراح وجهها المحموم يزداد خطورة.

تمتمت، وهي تكاد تبكي من الانفعال:

ـ وأنا، ألا تريد أن تقبلني؟

وشفعت قولها بغمزة مغرية.

فاحمر وجه بوريس، وقال:

ـ كم أنت مضحكة!

انحنى على ناتاشا، فازداد وجهه احمراراً، لكنه لم يجرؤ على تقبيلها.

وفجأة، قفزت فوق أحد الصناديق، واستطاعت أن تنوف عليه. وعندئذ، ألقت بذراعيها العاريتين حول عنقه أسفل رأسه. وأرسلت شعرها إلى الوراء بحركة عنيفة من رأسها، ثم أكبت بوجهها عليه وقبلته في شفتيه.

ونفرت اثر ذلك بين أصص الزهور، وانتظرت عند الطرف الآخر من الغرفة، مطرقة الرأس.

قال بوريس:

ـ ناتاشا، إنك تعرفين أنني أحبك ولكن...

فقاطعته قائلة:

هل تحبني؟

ـ أجل، أنا أحبك. لكنني أرجوك ألَّا نعود إلى مثل ذلك... لننتظر أربع سنوات أخرى، وعندئذ سأطلب يدك.

فكرت ناتاشا برهة، وقالت وهي تعد على أصابعها:

ـ ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر، ستة... ليكن! اتفقنا؟

كان السرور يشرق على وجهها الذي عاد إلى بهائه.

قال بوريس:

ـ اتفقنا!

فقالت الفتاة:

ـ إلى الأبد؟ حتى الموت؟

وأمسكت بذراعه وهي شديدة البهجة، وراحت ترافقه في طريقها إلى مخدعها.

الفصل الرابع عشر

أنهكت تلك الزيارات المملة الكونتيسة روستوف، فأمرت الحاجب بألّا يدخل عليها أحد، على أن يدعو كل الزوار الذين سيتقدمون بتهانيهم، دون تفضيل، إلى تناول العشاء على مائدتهم ذلك المساء. كانت تتلهف على البقاء وحيدة مع صديقة طفولتها، الأميرة دورپتسكوي، التي لم تكن قد تحدثت إليها بحرية منذ أن رجعت من پيترسبورغ. وبقيت أنّا ميخائيلوڤنا تحتفظ بعذوبة تقاطيعها التي لم تخل من طابع الشكوى، وقربت مقعدها من زميلتها. قالت:

ـ سوف أتحدث إليك بكل إخلاص. إننا لانزال صديقتين حميمتين كما كنا من قبل، أليس كذلك؟ إنني أقدر صداقتك من أجل ذلك.

واسترقت نظرة إلى حيث كانت ڤيرا وتوقفت. فضغطت الكونتيسة على يد صديقتها وقالت تحدث ابنتها الكبرى التي لم تكن بدون شك شديدة العطف عليها:

ـ ڤيرا، ألا تستطيعين الفهم؟ ألا تشعرين بأن وجودك بات فائضاً؟ اذهبي إلى حيث شقيقاتك أو...

لم تستعذب ڤيرا الملاحظة، لكنها مع ذلك لم تعترض إلا بابتسامة فيها لامبالاة. قالت وهي تنهض:

ـ لو نوهت لي بذلك من قبل لكنت الآن بعيدة عن هنا، يا أماه.

وبينما كانت تجتاز غرفة الجلوس ذاهبة إلى غرفتها، توقفت عندما رأت

أمام كل نافذة اثنين يتناجيان، فابتسمت بمرارة. كان نيكولا جالساً إلى جانب سونيا، يقرأ عليها باكورة نظمه الذي استلهمه منها. أما بوريس وناتاشا فكانا يتجاذبان أطراف الحديث. سكتوا جميعاً عند ظهور ڤيرا، وراحت الفتاتان العاشقتان تنظران إليها بضيق، دون أن تذهب البشاشة عن وجهيهما. وبدا ذلك المشهد المؤثر متنافياً مع ذوق ڤيرا التي قالت موبخة:

ـ كم مرة رجوتكما ألّا تمسا أشيائي. إن لكما غرفتكما الخاصة.

فأجاب نيكولا متوسلاً، وهو يغمس الريشة في المحبرة التي حاولت رفعها من أمامه:

ـ لحظة واحدة فقط.

قالت ڤيرا:

ـ لا شك أن الذوق يعوزكم. إن دخولكم إلى القاعة مثلاً لم يخجلكم. لقد شعر الجميع بالخجل لتصرفكم.

كانت الملاحظة محقة. رغم ذلك، أو لعله بسبب ذلك، لم يجب الأربعة إلا بتبادل النظرات.

تابعت ڤيرا:

ـ ثم في مثل سنكما، أية أسرار يمكن أن تكون بينكما، أو بين ناتاشا وبوريس؟ إن هذه إلّا سخافات وترهات!

تدخلت ناتاشا في الموضوع وسألتها بلطف وهي مستعدة لمقابلتها باللطف:

ـ ماذا يعنيك كل هذا، يا ڤيرا؟

ـ إن كل هذا سخيف، وإنني لأخجل منك. ما معنى هذه الأسرار؟

أجابت ناتاشا في شيء من الانفعال:

ـ لكل أسراره. إننا لا نتدخل في شؤونك مع بيرج وما تفعلينه معه!

أجابت ڤيرا:

ـ لا ينبغي إلا هذا! وكأن في سلوكي ما يؤخذ عليه! انتظري قليلاً، سوف أقول «لماما» كيف تتصرفين مع بوريس.

قال بوريس:

ـ إن ناتالي ايلينيتشا تتصرف تصرفاً لائقاً معي. إنني غير مستاء من تصرفها.

قالت ناتاشا بصوت متهدج من الانفعال:

ـ اصمت أنت يا بوريس، إنك شديد «الدبلوماسية» وقد بدأ هذا يزعجني!

وكانت كلمة «الدبلوماسية» شائعة ومن أحدث طراز بين الأولاد، الذين كانوا يعطونها معنى خاصاً.

أردفت تهاجم ڤيرا بشدة قائلة:

ـ ماذا تريد مني هذه؟ إنك لا تفمهين شيئاً، إنك لم تحبي أحداً قطّ، إنك محرومة من القلب. إنك لست إلا مدام دوجانليس، وهذا كان اللقب الذي اصطلح نيكولا على إطلاقه على أخته لتجريحها، إن غاية سرورك هي التسبب بالمضايقات والإساءات إلى الآخرين. هيا اذهبي إلى بيرج، وتظرفي ما شئت معه...

ـ إنني، على كل حال، لا أركض وراء شاب أمام المدعوين.

قال نيكولا:

ـ ها قد بلغت غايتك من الكلام. إنك أسففت بحقنا جميعاً، ولقد أفسدت مرحنا... هيا بنا إلى غرفة الأطفال.

ونفر الأربعة وكأنهم رف طير مذعور. فلاحقتهم ڤيرا بقولها:

ـ بل إنكم أنتم الذين وجهتم إلي إسفافاً وحماقات، إنني لم أخاطب أحداً بمثلها.

وتعالت من وراء باب الغرفة المغلق أصوات هازئة تقول:

ـ مدام دوجانليس! مدام دوجانليس!

لكن ڤيرا الجميلة لم تبال بذلك. لقد أرضاها أنها أحنقتهم، فابتسمت وتوقفت أمام المرآة تصلح من غطاء رأسها (إيشارب) وزينتها. ولمّا انعكس بهاء وجهها على صفحة المرآة، ازداد إشراق وجهها وتزايدت برودتها.

خلال ذلك، كانت الصديقتان تتناجيان في القاعة. كانت الكونتيسة تقول جواباً عن حديث الأميرة:

ـ آه، يا عزيزتي. إن في حياتي أيضاً كثيراً من الأشواك. إننا إذا بقينا على ما نحن عليه من إنفاق، لن تلبث ثروتنا حتى تنضب. والخطأ في هذا خطأ النادي وطيبة قلبه. إننا لا نعرف الهدوء حتى في الريف: حفلات وصيد وقنص والله يعرف ماذا أيضاً!... ولكن ما فائدة التحدث عني؟ أنبئيني كيف تتدبرين شأنك؟ أتدرين يا أنيت أنني أعجب بك غالباً؟ امرأة وحيدة وفي مثل سنك، تذهب من مكان إلى آخر، من موسكو إلى پيترسبورغ، فتحدث الوزراء وكل أفراد الطبقة الراقية، وتجد دائماً اللهجة المناسبة.. حقاً إنني معجبة بك. إنني لأرتبك لو وجب علي فعل ذلك.

أجابت الأميرة:

ـ آه، يا عزيزتي! اشكري الله على أنه أراد لك أن تبقي جاهلة. ألم الترمل، وشقاء الوحدة، وعلى ذراعيك ابن تحبينه حتى العبادة.. إن التعاسة مدرسة ممتازة.

وقالت في شيء من الفخار:

ـ إن دعواي قد هذبتني. إنني عندما أضطر إلى مخاطبة شخصية مرموقة أرسل إليه كلمة على بطاقة: «إن الأميرة فلانة، ترغب في رؤية سيدي فلان أو

فلان». ثم أستقل عربة وأذهب إلى حيث أراه، وأعيد الكرة مثنى وثلاثاً، حتى أظفر بما أريد. إن ما يقوله الناس وما يتخرصون به عني لا يهمني أبداً.

ـ ومن التمست من أجل بوريس؟ ها هو ذا ضابط في الحرس، بينما صغيري نيكولا قد انخرط صف ضابط فقط في فيلق الخيالة. إن ابني لا يجد من يدعمه. مع من تحدثت بشأن ابنك؟

قالت أنّا ميخائيلوڤنا بلهجة متباهية:

ـ مع الأمير بازيل. يا له من رجل ظريف! لقد قبل طلبي من فوره وتحدث إلى الأمبراطور...

ـ نسيت الأميرة، وهي تتحدث عن انتصارها، مبلغ التوسل والإهانة التي لحقت بها والتي يرجع إليها الفضل في نجاحها.

سألت الكونتيسة:

ـ الأمير بازيل؟ ألم يهرم بعد؟ إنني لم أره منذ أن كنا نتقابل في حفلاتنا لدى آل روميانتسيف. قد يكون نسيني...

وأردفت بابتسامة من يحيي ذكرياته العذبة:

ـ لقد كان يغازلني!

أجابت أنّا ميخائيلوڤنا:

ـ إنه لا زال كعهدك به، لطيفاً. إن العظمة والمراكز الجليلة لم تبدِّل شيئاً في نفسه. لقد قال لي: «إنني آسف إذا كنت لا أستطيع من أجلك شيئاً كثيراً، ولكن مريني يا أميرتي العزيزة، أمتثل». نعم، إنه رجل ودود وقريب ممتاز... إنك تعرفين يا ناتالي حبي لولدي، وتعرفين أنني لا أتراجع عن شيء في سبيله.

سكتت برهة، ثم أضافت بلهجة حزينة وبصوت خفيض:

ـ ولكن للأسف، أراني في وضعية مريعة. إن دعواي لاتزال حيث هي،

لم تتقدم، وهي تستنفد كل ثروتي. وإنني الآن لا أملك شروى نقير لأدفع لابني بوريس تجهيزاته.

ـ وأخرجت منديلها لتجفف دموعها واستطردت:

ـ إنني في حاجة إلى خمسمائة روبل لهذه الغاية بينما لا أملك إلا خمسة وعشرين روبلاً. تلك هي وضعيتي... إن أملي الوحيد هو عند الكونت سيريل بيزوخوف، فإذا ما شاء أن يساعد ابنه في المعمودية، إنه عرَّاب بوريس إذا كنت لا تعلمين، وإجراء مرتب معين له، فإن كل جهودي تكون قد ذهبت سدى، لأنني لن أستطيع تجهيزه.

راحت الكونتيسة بدورها تشاطرها البكاء. لم تتلفظ بكلمة واحدة ولكنها كانت تفكر!

تابعت آنّا ميخائيلوڤنا تقول:

ـ إنني أحدث نفسي غالباً، ولعله حديث سيئ، فأقول: إن الكونت سيريل يعيش وحيداً في زاويته، وهو وافر الثراء... فلمَ يعيش إذن؟ إن الحياة ليست إلا عبئاً بالنسبة إليه. أما في سن بوريس...

قالت الكونتيسة:

ـ سوف يترك له ولا شك شيئاً.

ـ علم ذلك عند الله، يا صديقتي الحميمة! إن الرجال الأغنياء والسادة الكبار أنانيون بفطرتهم. على كل حال، سأذهب مع بوريس لأتحدث إليه بصراحة. ليتحدثوا عن تصرفي بما يشاؤون، لست مبالية، لأن مستقبل ولدي يتوقف على ذلك.

ونهضت، وتابعت:

ـ إن الساعة الآن الثانية، وحفلتك تبدأ في الرابعة. إن لدي ما يكفي من الوقت.

واستدعت ابنها فوراً شأن السيدة التي عادت تواً من العاصمة وهي تعرف قيمة الوقت وانصرفت تشيعها الكونتيسة حتى الردهة.

وهمست في أذن الكونتيسة محاذرة أن يسمع ابنها:

ـ وداعاً، يا صديقتي الطيبة. تمني لي حظاً سعيداً.

وظهر الكونت في تلك اللحظة، فقال وهو على باب غرفة الطعام:

ـ أتذهبين لزيارة الكونت سيريل، يا عزيزتي؟ إذا كانت صحته أفضل، أرجو أن تدعي السيد پيار باسمي. لقد جاء قبل هذه المرة إلى منزلنا ورقص مع الأولاد. لا تنسي دعوته، يا عزيزتي. لقد وعد «تاراس» أن يتجاوز حدود ما عرفناه عن براعته حتى الآن. سوف نرى. إنه يزعم أنه سيقدم لنا الليلة عشاء يفوق ما كان يمكن أن يقدمه الكونت أورلوف بالذات وأنت تعرفين حفلات الكونت أورلوف، صديق كاترين المفضل الذي ينهي الآن أيامه في أملاكه الشاسعة في «سان سوسي» قرب موسكو.

الفصل الخامس عشر

«عزيزي بوريس» قالت الأميرة لابنها بينما انطلقت عربة الكونتيسة روستوف، التي استقلتها الأميرة دروپتسكوي وابنها، في طريق نُشر عليه التبن، ودخلت إلى حديقة فندق بيزوخوف الذي كان الكونت مقيماً فيه وقالت مردّدة وهي تسحب يدها من ثنية كمها وتضعها على يد ابنها بحركة لطيفة مفعمة بالحنان والخجل. كن رفيقاً وحذراً إنه عرَّابك ويتوقف مستقبلك كله عليه. تذكر ذلك يا ولدي، وكن رفيقاً كما تحسن أن تكون.

فأجابها بوريس ببرودة:

ـ لا يعود هذا الخنوع بشيء من الفائدة... لكنني مع ذلك أعدك أنني سوف أمتثل نزولاً عند رغبتك.

رآهما الخادم يهبطان من عربة تدل على أن أصحابها من السادة المبجلين، وراح يحدق بوقاحة إلى وجه الأم وابنها، اللذين دخلا مباشرة إلى الشرفة دون أن يبلغا عن قدومهما، ووقفا بين صفين من التماثيل الجميلة. وبعد أن نظر إلى ثوب السيدة بإشفاق، سألها الخادم عما تريد وهل ترغب في رؤية الكونت.

وعندما عرف أنها تريد مقابلة الكونت، أبلغها أن سعادته سيئ الصحة لا يستقبل أحداً.

قال بوريس بالفرنسية: فلنذهب إذاً.

ـ يا صديقي!

قالت الأم بلهجة متوسلة وهي تلمس ذراعه ولعلّها بتلك اللمسة كانت تستوحي الهدوء أو شحذ الإرادة.

سكت بوريس؛ وأخذ يستفسر أمه بنظره دون أن يخلع معطفه. فقالت هذه تخاطب الخادم بلهجة لبقة يا صديقي الطيب، أعرف أن الكونت سيريل ڤلاديميروڤيتش مريض جداً... ومن أجل هذا جئت... لن أزعجه... أريد فقط أن أرى الأمير بازيل سيرغيـڤيتش، وأعرف أنه هنا. فتفضل بإبلاغ وصولنا إليه.

فشدّ الخادم حبل الجرس بشراسة، واستدار يقول لخادم آخر ظهر على الباب يرتدي سراويل قصيرة: إن الأميرة ترغب في مقابلة الأمير بازيل.

كان الخادم الثاني يطل من فوق الحاجز استجابة لنداء الجرس. فلما أنهى إليه الخادم الأمر، عاد إلى الداخل. أما الأميرة فراحت تسوي ثوبها وترتبه وهي واقفة أمام إحدى مرايا البندقية الشهيرة، كانت معلقة على الجدار، ثم راحت تصعد السلم، المغطى بقطع السجاد النفيسة، ببسالة رغم حذاءيها الباليين.

قالت لابنها، وهي تضغط على يده مجدداً:

ـ لقد وعدتني، يا عزيزي، فلا تنس.

فتبعها بوريس بهدوء مطأطئ الرأس ودخلا إلى بهو يؤدي إلى غرفة الأمير بازيل.

فلما وصلا إلى وسط القاعة، همّا بالسؤال من خادم عجوز بادر لاستقبالهما. لكن أكرة أحد الأبواب أديرت، وظهر على عتبة الباب الأمير بازيل بملابس المنزل، لا يزين صدره إلا وسام واحد، معلق على سترته المخملية. كان يودع شاباً أسمر، أسود الشعر، هو الطبيب لوران الذي استقدم من پيترسبورغ.

سأله الأمير:

ـ أهو إيجابي؟

فأجاب الطبيب، وهو يلفظ الكلمات اللاتينية على الطريقة الفرنسية:

ـ يا سيدي الأمير، إن الحال خطير ولكن...

ـ حسناً، حسناً...

وعندما رأى أنا ميخائيلوڤنا وابنها، استأذن الطبيب وتقدم منهما بوجه طافح بأمارات الاستفهام. وفجأة امتلأت نظرة الأميرة بكآبة حزن عميق، فلم يخف ذلك التحول المفاجئ على بوريس، الذي وجد صعوبة كبرى في إخفاء ابتسامته.

قالت الأميرة دون أن تبالي بالنظرة الباردة الجارحة التي كان الأمير بازيل يحدجها بها: أية مناسبات سيئة شاءت أن تجمعنا من جديد، يا أميري... كيف حال مريضنا العزيز؟ وانتقلت تلك النظرة إلى بوريس، الذي انحنى بأدب. غير أن الأمير لم يلق بالاً إلى تحيته، واستدار إلى آنّا ميخائيلوڤنا، فأجاب عن سؤالها بغمغمة وهزة رأس لا تبشران بخير عن صحة المريض.

صاحت الأميرة: يا الله! إن هذا مريع، إنه مخيف...

ثم استطردت وهي تشير إلى بوريس:

ـ أقدم إليك ولدي بوريس. لقد ألح في أن يحضر بنفسه لشكرك.

ـ فعاد بوريس إلى الانحناء مجدداً بتأدب واحترام.

استطردت الأميرة تقول: ثق تماماً يا أميري أن قلبي كأم لن ينسى لك أبداً ما فعلته من أجلنا.

وأخيراً قال الأمير، وهو يصلح من وضع ياقة سترته:

ـ إنني سعيد يا آنّا ميخائيلوڤنا الطيبة لأنني استطعت أن أحسن إليك.

قدر أن عليه، هنا في موسكو، أن يعامل محميته بشيء من الترفع لأنه وحيد معها. وقدر أيضاً أن تكون وسائله الآن أكثر جلاءً مما كانت عليه في

بيترسبورغ عندما كانت في حفلة أنيت شيرر. فقال لبوريس بلهجة حازمة:

ـ كن ضابطاً ممتازاً، يجب أن تكون جديراً بـ... إنني سعيد جداً من جهتي... هل أنت في عطلة هنا؟

ضمّن الأمير بازيل جملته الأخيرة أقصى ما في طاقته من مظاهر العظمة. فأجابه بوريس دون أن يبدي تردداً إزاء لهجة الأمير المرتفعة المهينة أو الرغبة في متابعة الحديث:

ـ إنني يا صاحب السعادة أنتظر الأمر لألتحق بمركزي الجديد. كانت لهجته متزنة حتى أن الأمير راح ينظر إليه باهتمام.

ـ هل تسكن عند أمك؟

فأجاب بوريس، دون أن ينسى إضافة كلمة: صاحب السعادة:

ـ إنني أسكن عند الكونتيسة روستوف.

فتدخلت أنا ميخائيلوڤنا قائلة:

ـ أتذكر إنه إيليا روستوف الذي تزوج ناتالي شينشين.

فقال الأمير بصوته وحيد النغمة: أعرف، أعرف. إنني لم أستطع قطّ أن أفهم كيف أن ناتالي وافقت على الزواج بهذا الدب! إنه شخص سخيف ومضحك تماماً، ومقامر، كما يقال.

فأردفت آنّا ميخائيلوڤنا بلهجة وابتسامة دمثتين، وكأنها توافق على حكمه على الرجل، ولكنها تلتمس منه الصفح عن عجوز مسكين:

ـ لكنه رجل باسل جداً، يا أميري. وعادت تسأل بعد لحظة صمت ساعدتها على أن تطبع وجهها بطابع ذعر عميق:

ـ ما رأي كلية الطب؟ وتقصد الطبيب..

فقال الأمير: هناك أمل ضئيل.

ـ وأنا التي كنت مزمعة على شكر «عمي» على كل ما أحاطني وأحاط

بوريس به من عطف وحسن التفات... وأضافت بعد حين، وكأن الخبر سيسر الأمير بازيل معرفته:

ـ بوريس هو ابنه في المعمودية!

فقطب الأمير حاجبيه وراح يفكر ولا شك في أنه سيرى في هذين الدخيلين دعيين آخرين في ميراث الكونت بيزوخوف. وأدركت آنّا ميخائيلوڤنا ما يجول في خاطره، فبادرت تطمئنه بقولها:

ـ إنني إذا كنت هنا، فما ذلك إلا لمحبتي «لعمي» وإخلاصي له. وعادت تضغط على كلمة عمي بتأكيد لبق. إنني أعرف عقليته النبيلة الصريحة. لكنني أعرف أن الأميرات وحدهن إلى جانبه. وهن شابات صغيرات في السن...

واقتربت منه لتهمس في أذنه بصوت خفيض:

ـ هل قام بآخر واجباته، يا أميري؟ كم هي غالية هذه اللحظات الأخيرة! فإذا كانت صحته متدهورة إلى هذا الدرك السيىء، فيجب حتماً إعداده. ولا شيء أخطر من هذا.

وتابعت تقول بعد فترة صمت، وهي تشفع قولها بابتسامة عذبة: إنك تعرف يا أميري أننا، معشر النساء، نعرف كيف نتصرف في ظروف عصيبة كهذه. يجب أن أراه. إنه واجب مؤلم لكنني تعودت الألم.

وفهم الأمير، كما حدث من قبل في حفلة أنيت شيرر، أن من الصعب التخلص من آنّا ميخائيلوڤنا. فقال:

ـ إن مقابلتك له، يا آنّا ميخائيلوڤنا العزيزة، قد تثقل عليه. لننتظر حتى المساء لقد أكد الأطباء أنه ينتظر نوبة...

ـ من المستحيل أن ننتظر، يا أميري! فكر، إن هذا الأمر متعلق بخلاصه... كم هي مؤلمة واجبات المسيحي...

فتح باب الجناح الخاص وخرجت منه واحدة من الأميرات وهي ابنة

أخت الكونت، ذات وجه بارد عابس، تعطي ساقاها القصيرتان اللتان تحملان قامتها الطويلة نوعاً من الغرابة للناظر المتفحص. التفت الأمير بازيل إليها، وقال: حسناً! كيف حاله؟

فقالت ابنة الأخت، وهي تتفرس في وجه أنّا ميخائيلوفْنا وكأنها تنظر إلى سيدة مجهولة: لايزال كما هو. إن هذا الضجيج، كما تعلم... ورمقت الزائرة بنظرها ولم تعقب.

اقتربت هذه منها خفيفة الخطى، وقالت بتودد:

ـ عزيزتي، لم أكن أعرفك. لقد وصلت الآن وإنني في خدمتك لمساعدتك على العناية «بعمّي»...

ثم رفعت عينيها إلى السماء بإشفاق وتابعت: إنني أتخيل مدى ألمك.

لم تتعطف الأميرة بالجواب ولا بمجرد الابتسام، وانسحبت فوراً. فنزعت أنّا ميخائيلوفْنا قفازيها وراحت تجلس على مقعد وثير وكأنها في «أرض محتلة» ودعت الأمير بازيل إلى الجلوس بقربها. ثم قالت تخاطب بوريس وهي تبتسم:

ـ سأرى الكونت عمي، يا بوريس، فامض إلى لقاء پيار خلال هذا الوقت يا صديقي. ولا تنس أن تبلغه الدعوة التي وجهها إليه آل روستوف...

ثم أردفت تحادث الأمير:

ـ إن آل روستوف يدعونه لتناول العشاء لديهم. اعتقد أنه لن يذهب، أليس كذلك؟

فأجاب هذا بلهجة حادة: لم لا يذهب؟ سأكون سعيداً إذا خلصتني من هذا الفتى.. إنه لا يتحرك من هنا رغم أن الكونت لم يطلبه حتى الآن مرة واحدة. ولم يسأل عنه أو يعرب عن رغبته في رؤيته.

وهزّ كتفيه ودقّ الجرس. وجاء خادم يقود بوريس من باب آخر يؤدي إلى سلم جديد، إلى حيث كان پيار كيريلوفْيتش.

الفصل السادس عشر

كان پيار قد عاد من پيترسبورغ، بعد أن أبعد من هناك لاشتراكه في شد وثاق ضابط القسم إلى ظهر الدب.

كانت تصرفات پيار ونمط الحياة التي اندمج فيها في پيترسبورغ قد منعاه من اختيار السبيل الذي يرتضيه للبلوغ إلى مستقبله المنشود. فقد كانت القصة التي رووها عند آل روستوف عن تصرفه، حقيقة لا زيف فيها.

كان واثقاً بأن القصة ستثار في موسكو، فتعطي الأوساط النسائية، التي كان على أسوأ العلاقات معها، مادة غنية للحديث، تساعد على النيل منه وإفساد علاقته بأبيه. مع ذلك، فإنه لم يتردد في المثول فوراً في حضرة أبيه. فوجد الآنسات الثلاث في غرفة الاستقبال، وهو مركز اجتماعهن المفضل. كانت كبرى الأميرات، وهي التي شهدناها منذ حين تتقابل مع أنّا ميخائيلوڤنا فتعاملها تلك المعاملة المهينة، فتاة صارمة، طويلة القامة، تعنى عناية خاصة بملابسها. وكان دأبها القراءة بصوت مرتفع.

كانت الأميرتان الأصغر سناً تشتغلان في أعمال الإبرة على مناسج صغيرة. كانتا لطيفتين، تشبه إحداهما الأخرى حتى أن كثيراً من الناس كانوا يخلطون بينهما، لولا «حسنة» كانت على وجنة إحداهما. حياهن پيار تحية مهذبة. لكنهن استقبلنه وكأنه شبح أو مصاب بالطاعون. توقفت الكبرى عن القراءة وحملقت بعينيها في وجهه بذعر دون أن تتفوه بكلمة. واتخذت الثانية موقف أختها الكبرى، فنقلت التعابير التي كانت مرتسمة على وجهها

بكل أمانة، وأظهرتها على وجهها. أما الثالثة، تلك التي كانت «الحسنة» التي على وجهها تميزها من شقيقتها، فقد انحنت على منسجها لتخفي ابتسامتها، وقد تأكد لها أنها ستشهد موقفاً ممتعاً يتفق مع مزاجها المرح. سحبت خيطها الصوفي وراحت تتظاهر بالاهتمام بنقوشها وترتيبها، وهي تجهد في كبت قهقهة من الضحك.

قال پيار: عمي صباحاً، يا ابنة عمي. ألا تعرفينني؟

ـ بلى، إنني أعرفك جيداً، نعم جيداً جداً.

سأل پيار، دون أن يرتبك رغم أسلوبه الفاشل الطبيعي:

ـ كيف حال الكونت؟ هل أستطيع رؤيته؟

ـ الكونت يتألم جسدياً وعقلياً. وإنني أرى أنك قمت بكل ما يجب لمضاعفة آلامه المعنوية وزيادتها خطورة.

كرّر پيار سؤاله: هل أستطيع رؤية الكونت؟

ـ إذا أردت أن تقتله أو أن تعجل في نهايته، فإنك ولا شك تستطيع أن تراه. ثم أردفت تخاطب شقيقتها لتنوه لپيار بأنهن كن يعملن للتخفيف من الآلام التي كان هو يثيرها وكأنه يتلذذ بزيادة حدتها.

فخرجت أولغا، وبقي پيار ينتظر برهة ثم انحنى للشقيقتين وهو ينظر إليهما وقال:

سأرجع إلى غرفتي، ولكما أن تبلغاني عندما يتيسر لي أن أراه.

وانسحب من القاعة تشيعه ضحكة ذات «الحسنة» المجلجلة التي كانت، رغم قوتها، تعتبر مكتومة مراعاة للظرف الدقيق المحيط بصاحبتها.

وصل الأمير بازيل في اليوم التالي وأقام في منزل الكونت. فاستقدم پيار وقال له:

يا عزيزي پيار، قال له إذا تصرفت هنا تصرفك في پيترسبورغ فإن نهايتك

ستكون سيئة. هذا كل ما أقوله لك. إن الكونت مريض جداً، فلا تحاول أن تراه أو أن تتصل به.

ومنذ ذلك الوقت، لم يعد أحد يهتم بپيار الذي لازم غرفته في الطابق الثاني من الفندق.

عندما دخل بوريس عليه، كان پيار يذرع غرفته بعصبية وانفعال، فيتوقف حيناً في إحدى الزوايا ويحدق من فوق نظارتيه إلى الجدار، أو يقاتل بذراعه عدواً غير منظور، وكأنه يشطره بسيف شطرين، ثم يعود إلى مشيته التي تتخللها حركات عنيفة من الذراعين وهزات من الكتفين وكلمات متفككة لا ارتباط بينها.

ـ لقد عاشت بريطانيا، وحكم على پيتْ[1] بوصفه خائناً للأمة ولحقوق الأشخاص بـ...

كان يقول مشيراً بإصبعه إلى لا شيء، وكأنه يهدد عالماً خفياً، وهو مقطب الحاجبين.

كان يرى نفسه في تلك اللحظة، «ناپليون» بالذات، سيد لندن بعد اجتياز المانش إلى وبريطانيا في تلك المحاولة الخطيرة، والحكم على پيت بعقوبة لم يجد وقتاً لتحديدها، لأنه توقف عندما رأى ضابطاً شاباً، مهيب الطلعة، يدخل إلى غرفته فجأة. لم يعرف بوريس للوهلة الأولى لأنه تركه صبياً في الرابعة عشرة من عمره، فنسيه تماماً. مع ذلك، فقد استقبله مصافحاً ببشاشة ومبتسماً له بمحبة، مدفوعاً بطيبة نفسه الطبيعية.

لم تنسني؟ قال بوريس بلهجته المتزنة، وهو يقابل ابتسامته:

لقد جئت أنا وأمي، لنقدم تمنياتنا للكونت، لكن قيل لنا إنه مريض.

---

(١) ويليام پيت وزير دولة بريطاني، عدو الثورة الفرنسية، أخفق في إنقاذ الاقتصاد الإنكليزي. (المترجم).

فأجاب ﭙيار، وهو يتساءل أين ومتى رأى هذا الشاب من قبل:

ـ نعم، إن صحته ليست على ما يرام. إنهم يزعجونه غالباً.

أدرك بوريس أن ﭙيار لم يعرفه. مع ذلك ظل ينظر إلى عينيه دون ارتباك، ودون أن يقدم نفسه إليه. قال بعد فترة صمت طويلة أزعجت ﭙيار:

ـ يرجوك الكونت روستوف أن تتناول الغداء عنده بعد قليل.

ـ آه، كونت روستوف! صاح ﭙيار مسروراً.

إنك إذن ابنه إيلي، تصور أنني لم أعرفك للوهلة الأولى. هل تذكر نزهاتنا على جبل العصافير مع مدام جاكو... إن ذلك ليس قديم العهد.

فأجابه بوريس بهدوء، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مواسية لا تخلو من السخرية: إنك تخطئ إنني بوريس بن بوريس ابن الأميرة دروبتسكوي. أما الكونت روستوف الشاب فاسمه نيكولا وأما إيلي فهو أبوه. وأنا لم أتعرف إلى مدام جاكو من قبل..

هزّ ﭙيار رأسه وراح يلوح بيديه، وكأنه يطرد نحلاً أو ذباباً.

ـ آه! إنني أخلط بين الأشياء، إن لي عدداً كبيراً من الأقارب في موسكو!.. أنت إذن بوريس. حسناً، اتفقنا... ما رأيك في احتلال ﭙولونيا. إن الإنكليز لن يصمدوا طويلاً إذا اجتاز ناﭙليون بحر المانش؟ أعتقد أن المسألة ممكنة التنفيذ شريطة ألّا يرتكب ڤيللنوف حماقات وأخطاء!

بوريس الذي لا يقرأ الصحف. لم يكن يعرف شيئاً عن احتلال ﭙولونيا ويجهل حتى اسم ڤيللنوف.

إن الحفلات والولائم تشغلنا هنا أكثر مما تشغلنا السياسة. قال بلهجة ساخرة. لذلك لا أستطيع أن أكوّن رأياًبصدد قضية أجهلها. إن موسكو مدينة المهذارين قبل كل شيء. إنهم لا يتحدثون الآن إلا عن الكونت وعنك. إن النميمة طبع متأصل في النفوس.

ابتسم پيار ابتسامته البريئة. كان ينتظر أن يحدثه بوريس بكلمات قاسية يندم على قولها. غير أن بوريس نطق بكلماته بصوت واضح وهو لا يني يحدق إلى عيني پيار بجرأة. تابع يقول:

ـ نعم، إن الثرثرة عمل الموسكوفيين الوحيد. إنهم يتساءلون الآن لمن سيترك الكونت ثروته، رغم أنه قد يعيش حتى بعد أن نموت نحن، وهو الأمر الذي أتمناه من صميم قلبي.

ـ نعم، إن كل هذا مزعج ومؤلم. قال پيار، وهو يزداد خوفاً من أن ينزلق بوريس في منحدر خطر.

احمرّ وجه بوريس دون أن تتبدّل لهجته: يمكنك أن تصدق أن كل الناس يأملون أن يبلغوا نصيباً من ثروته، بل إن عدداً منهم قد أصبحت الفكرة في رأسهم ثابتة.

ها قد وقع المحظور، فكّر پيار في سرّه. بينما تابع بوريس:

ـ أود بهذه المناسبة أن أبلغك، تفادياً لأي سوء تفاهم، أنك تخطئ خطأ فادحاً إذا وضعتنا، أمي وأنا، في عداد هؤلاء الناس الذين حدثتك عنهم. إننا فقراء جداً. لكنني أستطيع أن أؤكد لك ـ أقله باسمي ـ أنني لا أعتبر نفسي قريباً لأبيك لمجرد كونه غنياً. وأننا، لا أمي ولا أنا، لا نتسول ولا نتقبل أبداً شيئاً منه.

بقي پيار فترة قبل أن يفهم؛ وفجأة أمسك بيد بوريس واحمرّ وجهه خجلاً.

هل هذا ممكن؟ صاح... من الذي يفكر في هذا؟..

كان پيار يريد طمأنة بوريس وتهدئته. غير أن هذا الأخير قاطعه ليهدئ من ثائرته بقوله:

ـ إنني مسرور لأنني قلت لك ذلك. فاعذرني إذا أزعجك قولي. آمل ألّا

أكون قد أهنتك. إن مبدئي هو التحدث بصراحة... حسناً، أي جواب أحمله إلى آل روستوف؟ هل تقبل دعوتهم؟

وبعد أن تخلّص بوريس من هذا العبء الثقيل استعاد هدوءه وأحسن تصرفاً في إيضاح اللبس الذي قد يحيط به في بال الآخرين.

ـ أصغ إلي، قال پيار وقد استعاد هدوءه، إنك مدهش، إن ما قلته لي منذ حين جيد جداً. إنك لا تعرفني ولا شك. لقد انقضى زمن طويل لم نر بعضنا خلاله... زمن يعود إلى الطفولة. لذلك فقد كان بمقدورك أن تعتقد أنني..

أنا أفهمك، صحيح أنني لم أكن لأتصرف على هذا النحو لأن الشجاعة كانت تنقصني، لكنني راض عما قلت وسعيد بمعرفتك.. إن ما خمنته بصددي غريب!

سكت برهة، ثم أردف ضاحكاً: هذا لا يهم. سوف نتعرف إلى نفسيتنا فيما بعد بشكل أوضح.

وضغط على يده بشدة وتابع: هل تعرف أنني لم أر الكونت بعد؟ لم يستدعني.. رغم أن حالته الصحية تقلقني كثيراً.. لكن ما العمل؟ سأل بوريس، وهو يضحك: تعتقد إذن أن اجتياز المانش من قبل ناپليون أمر ممكن؟

أدرك پيار أن بوريس يغير الحديث ويوجهه وجهة أخرى.

ولما كان الموضوع الذي تطرق إليه يستأثر بكل اهتمامه وميله، فقد راح پيار يشرح مثالب المحاولة ومحاسنها، شرح الخبير المتعمق. وجاء خادم من قِبل الأميرة يستدعي بوريس، فوعده پيار قبل ذهابه أن يحضر مأدبة روستوف ليتاح له الاختلاط به، وشد على يده مصافحاً وهو ينظر إليه من خلال نظارتيه بتودد. فلما ارتحل بوريس، عاد پيار يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. لكنه بدلاً من أن يحارب خصوماً مجهولين وأن يقاتلهم، كان يبتسم مبتهجاً، لذكرى الشاب البهي، الذي تتساوى بداهته بطلاقة لسانه. وراح پيار يعيد في نفسه، ـ شأن كل

الشباب عندما يناقشون في خلواتهم آراء عرضت لهم ـ رغبته في أن يصبح صديق بوريس، استجابة للشعور الذي شعر به نحوه، والذي كان يلح عليه بالتقرب من الضابط الشاب.

كان الأمير بازيل يشيع الأميرة وهي تجفف دموعها بمنديلها:

ـ إنه أمر مريع، وشوشت، لكنني سأقوم بواجبي مهما كلفني ذلك. سأسهر عليه عندما يقتضي الأمر، إذ لا يمكن أن ندعه يقضي دون أن يعترف. إن اللحظات ثمينة جداً. ماذا تنتظر الأميرات؟ لعلّ الله يلهمني سبيل إعداده لملاقاته. وداعاً. يا أميري، وليساعدك الله!

ـ الوداع، يا عزيزتي، أجاب الأمير بازيل.

وغادرها ورجع عائداً إلى منزله!

وبينما كانت تصعد إلى العربة مع ابنها، راحت تحدثه، قالت:

ـ إنه في حال محزن. لا يستطيع التعرف إلى أحد تقريباً.

سأل بوريس:

ـ أود أن أعرف بدقة النيّات المبيتة نحو پيار، لأنني لا أعرف من الأمر شيئاً. ما هي الترتيبات المنوي اتخاذها بشأنه؟

الوصية ستطلعنا على كل شيء، يا صديقي... إن مصيرنا متوقف عليها.

ـ وما الذي يجعلك تعتقد أنه سيترك لنا شيئاً؟

ـ آه يا صديقي، إننا في فقر مدقع وهو غني جداً!

ـ لكن هذا لا يفسر الأمر، ليس سبباً كافياً، أعترف لك يا أمي!

ـ يا إلهي، يا إلهي إنه مريض! كررت الأميرة.

الفصل السابع عشر

بقيت الكونتيسة روستوف فترة طويلة في القاعة وحدها، بعد ذهاب آنّا پاڤلوڤنا وابنها. ولم تلبث أن حزمت أمرها على شيء فقرعت الجرس.

لكن الوصيفة أبطأت في المثول في حضرتها، مما أسخطها وأثار حفيظتها، فلما أعادت القرع ودخلت الوصيفة، صاحت بها بغضب:

ـ ماذا يعني هذا، يا عزيزتي؟ إذا «شئتم» ألّا «تقوموا بواجبكم» فسأعرف كيف أجد «لكم» مكاناً آخر!

كانت الكونتيسة ثائرة متألمة لحزن صديقتها الأميرة وفقرها المخجل. وكانت دلائل غضبها تتجلى في أسلوب كلامها مع خادمتها ـ لغة الجمع ـ وفي إضفاء لقب «عزيزتي» عليها.

ـ أرجو أن تسامحيني، سيدتي. قالت معتذرة.

ـ أطلبي إلى الكونت أن يتفضل برؤيتي.

وصل الكونت بعد قليل يتمايل في مشيته كعادته، وعلى وجهه أمارات الجد والاهتمام. ابتدرها قائلاً:

ـ آه يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة! يا للطعام الفاخر الذي سنقدمه! لقد تذوقته بنفسي. إنني أحسنت صنعاً بإعطائي ألف روبل لتاراسكا. إنه يستحقها!

جلس قرب زوجته وشعره الأبيض متمرد على رأسه، واعتمد مرفقيه على ركبتيه وقال:

ـ ماذا تريدين، يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة؟

ـ حسناً، إليك ما أريد، وابتسمت وهي تشير بسبابتها إلى صدارة زوجها، وقالت: ما هذه اللطخة التي على صدارتك؟ إنها بدون شك من مرق الطعام! وعاد الحزن يخيّم على وجهها فأردفت: إليك ما أريد: إنني في حاجة إلى المال..

فأخرج الكونت حافظة نقوده، وهو يقول:

ـ حالاً، حالاً... آه، أيتها الكونتيسة الصغيرة...

لكن الكونتيسة الصغيرة قاطعته قائلة:

ـ ذلك أنني في حاجة إلى أكثر من المعتاد، إلى خمسمائة روبل. وراحت تدلك بمنديلها المصنوع من قماش «الباتيست» اللطخة التي على صدارة زوجها. فقال هذا:

ـ فوراً يا عزيزتي... فوراً.

وصاح شأن من تعود أن يسرع الناس تلبية لأول نداء يصدر عنه:

ـ هولا، ليأت أحد! ابعثوا في طلب ميتينكا.

ودخل ميتينكا بخطواته الخفيفة، وكان فتى فقيراً تعهده الكونت وأقامه أميناً على منزله فقال له الكونت:

ـ إسمع يا عزيزي، ائتني بسبعمائة روبل، نعم سبعمائة روبل. واحذر أن تكون أوراقاً قذرة أو ممزقة كما حدث في المرة الأولى. أريدها جديدة، لأنها للكونتيسة.

فعقبت الكونتيسة، وهي تتنهّد: نعم، أرجو ذلك، يا ميتينكا. إعمل على أن تكون جديدة ونظيفة.

سأل ميتينكا:

ـ متى تريدها، يا صاحب السعادة؟

ولما رأى أن الكونت بدأ يتنفس بصعوبة، وهو نذير غضبه، أردف يقول:

لا تنزعج. لقد أسأت الفهم. إنك تريدها فوراً. أليس كذلك؟ نعم، نعم. أحضرها وأعطها للكونتيسة.

فأسرع ميتينكا بخطواته المتلصصة. فقال الكونت بعد خروجه:

ـ يا له من كنز ثمين! إنه يعرف دائماً كيف يتدبر الأمر. إنني أمقت أن يعترضني معترض، لأنني أعتقد أن كل شيء ممكن تنفيذه عندما تتوافر الرغبة الصادقة.

قالت الكونتيسة:

ـ آه من المال، يا كونت! كم يسبب المال آلاماً في هذا العالم! ليتك تعلم مدى حاجتي إلى هذا المبلغ التعس.

فقال الكونت، وهو يقبل يد زوجته قبل أن يعود إلى مكتبه:

ـ نعم يا عزيزتي الكونتيسة الصغيرة، نحن نعرف سخاءك.

ولما عادت أنا ميخائيلوفنا من زيارتها للكونت بيزوخوف، كان المبلغ قد أصبح في حوزة الكونتيسة، وقد وضعته على نضد قريب وغطته بمنديلها. غير أن انفعال الكونتيسة واضطرابها لم يخفيا على عيني أنا ميخائيلوفنا الحاذقة.

ـ ما أخبارك، يا عزيزتي؟ سألت الكونتيسة.

ـ آه من الحال السيئة! إن حالته سيئة للغاية، حتى إنني لم أستطع البقاء إلا دقيقتين ولم أحدثه إلا بكلمتين!

مدت الكونتيسة يدها إلى النضد فجأة، وقالت:

ـ أنيت، بحق السماء لا ترفضي.

احمرّ وجهها بما يتناقض وخطورة قسماتها المهزولة التي عملت بها يد السنين تخريباً وترميماً واضحين.

فهمت أنّا ميخائيلوفنا غاية صديقتها، فانحنت تتحين الوقت المناسب لترتمي على عنقها تقبله. قالت الكونتيسة:

ـ هذا المال أعطه إلى بوريس من جانبي ليعد تجهيزاته.

بكت أنّا ميخائيلوڤنا وهي تعانق الكونتيسة، فشاركتها هذه في البكاء. لماذا بكتا؟ لطيبة قلبيهما وللتفاهم الوثيق الذي يربط بينهما، وبكتا لأن المال، ذلك الشيء الحقير، قد تدخل شخصاً ثالثاً في صداقتهما التي تعود إلى أيام الطفولة؛ وكذلك بكتا أسفاً وهما تفكران في شبابهما الضائع... لكن الدموع كانت غالية عليهما! كانت تفرج عن كربتهما وتواسيهما.

الفصل الثامن عشر

يحيط بالكونتيسة روستوف وبناتها، عدد من المدعوين في القاعة الكبيرة، وكان الكونت قد رافق الرجال إلى مكتبه ووضع تحت تصرفهم مجموعته الثمينة من الغلايين. وكان يخرج من وقت إلى آخر ليستعلم عما إذا كانت «هي» قد وصلت. كان آل روستوف ينتظرون وصول ماري دميترييـڤنا أفروسيموڤ الملقبة بالتنين الرهيب.

وهي امرأة محرومة من الثراء والألقاب، لكنها استطاعت أن تشق لنفسها طريق الشهرة بفضل صراحتها المخيفة وبدانتها. كانت ماري دميترييـڤنا معروفة من العائلة المالكة في موسكو كلها وپيترسبورغ. وكانت تروى عنها أقاصيص في المدينتين تجعل الناس يعجبون بها ويسخرون سراً، ويهابونها دون أن يجدوا جرأة على بهتها بسخريتهم.

كانوا يدخنون في مكتب الكونت ويتحدثون عن الحرب. كانوا يعرفون أن الحرب قد أعلنت رسمياً، غير أن أحداً لم يقرأ بعد الصيغة الرسمية لإعلانها. وكان الكونت جالساً على كنبة شرقية بين اثنين من المدخنين، لا يدخن ولا يتحدث، بل يحني رأسه تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، ويراقب مدعويه بسرور، ويصغي إلى مناقشاتهم بانتباه واهتمام.

كان أحد الاثنين يرتدي اللباس المدني، ذو وجه أجعد، نحيل البنية، أجرد، ذو مظهر أنيق رغم تقدمه في السن. وكان يجلس على الطريقة الشرقية، وفي زاوية فمه مبسم من الكهرمان، يجذب خلاله أنفاساً متلاحقة وهو يغمز

بعينيه. وكان هذا الرجل الناضج واحداً من أبناء عم الكونتيسة، اسمه شينشين، وهو أعزب عجوز يعتبر في أندية موسكو لساناً سليطاً.

ينظر الكونت إليه نظرة توحي بتفوقه على محدثه الآخر، الذي كان ضابطاً في الحرس، مورَّد الوجنتين، شديد التأنق، مهتماً جيداً بهندامه، يمسك بغليونه في منتصف فمه محاذراً تبديل مكانه، وتمتص شفتاه القرمزيتان خلال القصبة نفخات خفيفة من الدخان، يرسلها من فمه على حلقات متلاحقة رقيقة. كان هذا الزائر هو الملازم أول بيرج، من فيلق سيميونوڤسكي، الذي كان عليه أن يلتحق بالجيش مع بوريس، والذي كانت ناتاشا تسميه: «خطيب ڤيرا» إمعاناً منها في إثارة أختها الكبرى وكان الكونت كله آذاناً صاغية وعيوناً متوثبة. وكان أجمل ما يستأثر بانتباهه بعد لعب[1] الورق هو الإصغاء إلى حديث الثرثارين، خصوصاً عندما يكون سبب إثارة اثنين من أبلغ المحدثين.

كيف تتصرف مع كل هذه الأشياء، يا ألفونس كارلوڤيتش الموقر؟ قال شينشين بسخرية. وقد كان يجمع بين الكلمات القروية والعامية في الروسية وبين العبارات المنتقاة باللغة الفرنسية.

ـ كلا يا پيوتر نيكولاييـڤيتش، إنني أزعم فقط أن سلاح المدفعية يعطي فوائد أكثر مما يعطيه سلاح الفرسان. خذ حالتي مثلاً...

كان بيرج يتحدث بلهجة دقيقة هادئة ومهذّبة، لكنه لا يتحدث إلا عن نفسه. فإذا دار الحديث حول مواضيع أخرى لا علاقة له بها، سكت هادئاً، ولا يبدي أو يحدث حوله أي امتعاض، ولو استمر على سكوته ساعات طويلة. أما إذا كانت شخصيته موضوع الكلام والبحث، فعندئذ يستفيض ببلاغة وطلاقة، والسرور بادٍ على محياه.

---

(١) في الأصل تعبير Jeu de boston، ويراد بذلك لعبة «الباصرة» (المترجم).

«هذه هي حالتي، پيار نيكولاييـڤيتش، لو كنت مثلاً في سلاح الفرسان وفي رتبتي الحالية كملازم أول، فإنني ما كنت لأتقاضى أكثر من مائتي روبل كل ثلاثة أشهر، بينما يزيد مرتبي حالياً في سلاح المدفعية على المائتين والثلاثين روبلاً».

وابتسم بيرج وهو ينظر إلى شينشين والكونت، شأن الرجل الذي لا يشك أبداً في أن خصوصياته لا تشكل أقصى رغبات أنداده من البشر.

بعد فترة سكوت تابع حديثه: أضف إلى كل ما قلت أنني، بانضمامي إلى سلاح الحرس، أكون مرموقاً، وتكون المراكز الشاغرة أكثر حدوثاً مما هي عليه في سلاح المدفعية. ثم ألا ترى، يا پيوتر نيكولاييـڤيتش، أنني ما كنت لأستطيع شيئاً بمائتين وثلاثين روبلاً لو كنت في سلاح الفرسان؟ أما في وضعي الحاضر، فإنني أدخر مرتبي بل أرسل منه إلى أبي.

ومجدداً، انبعثت من فمه حلقات من الدخان. وقال وهو ينقل مبسمه إلى زاوية فمه الأخرى: إن المثل يقول: إن الألماني ينسج الخزّ من سوق القمح.

وغمز بعينيه الكونت فانفجر هذا ضاحكاً. وأسرع عدد آخر من المدعوين، اجتذبهم مرح شينشين وحماسته. أما ابيرج فلم يعبأ بالسخرية، بل ازداد انطلاقاً في حديثه، وراح يؤكد أن انتقاله إلى سلاح الحرس أكسبه مرتبة تفوّق بها على أقرانه، وأنه في أوقات الحرب يكون قائد السرية شديد التعرض للخطر، وبذلك تتاح له، هو بيرج، إمكانية الارتقاء إلى رتبة رئيس، بوصفه أقدم ملازم في الفرقة.

هذا إلى جانب الحب الذي يتمتع به من أفراد الفيلق كافة، ورضاء أبيه عن وضعه الحاضر. وكان بيرج، وهو يصرح بكل هذه الأمور، يشعر بمرح حقيقي وسرور، كانا يجعلانه مرتاباً في أن يكون للآخرين أية مصالح غير

مصالحه الشخصية. فقد كانت لهجته المتزنة، بالإضافة إلى أنانيته الساذجة، تخفف من غلواء المستمعين.

ـ حسناً يا عزيزي، هناك شيء واحد أثق به، وهو أنه بمقدورك أن تفتح لنفسك الطريق سواء كنت في المشاة أو في الخيالة.

وأنزل شينشين قدميه على الأرض، وتناهض وهو يقول لبيرج مربتاً كتفه:

ابتسم بيرج، بينما راح الكونت ومدعووه يغادرون المكتب للانتقال إلى القاعة.

كانت الفترة التي تسبق إعلان موعد الغداء، والتي جرت العادة ألّا يثيروا خلالها مناقشات طويلة، بينما يحاولون التظاهر بأن سكوتهم وجمودهم، لا يرجعان إلى لهفتهم على الانتظام حول الطاولة. كان المضيفون ينظرون إلى باب القاعة ويتبادلون النظرات بين الحين والآخر، بينما يحاول المدعوون جاهدين معرفة سبب التأخير، وهل مرده انتظار أصحاب الوليمة وصول قريب رفيع المقام أو تمهلهم ريثما ينضج لون معين من الطعام تأخر الطهاة في إعداده.

دخل پيار وحده وجلس على أول كنبة بتصرفه الأخرق معرقلاً بجلوسه وصول المدعوين إلى القاعة. حاولت الكونتيسة أن تدخل معه في حديث، لكنه أجاب عن كل أسئلتها بكلمات مقتضبة، وهو ينظر من وراء نظارتيه، باحثاً عن شخص معين. فسبّب تصرفه تشويشاً عاماً شعر به كل الحاضرين باستثنائه هو.

كان كل المدعوين يتأملون بفضول ذلك الفتى الوديع، ويتساءلون كيف استطاع متثاقل مثله أن يعتدي على ضابط پوليس.

ـ هل وصلت الآن؟ سألته الكونتيسة.

ـ نعم يا سيدتي. أجابها.

ـ ألم تر زوجي بعد؟

ـ كلا، سيدتي، قال مبتسماً...

كنت في باريس على ما أعتقد؟ إنه لأمر مثير، أليس كذلك؟

ـ مثير جداً.

حَدجت الكونتيسة بنظرها آنّا ميخائيلوڤنا تستنجد بها لتحلّ عقدة لسان هذا الشاب. فاقتربت من پيار وسألته عن أبيه. لكنها لم تظفر منه إلا بأجوبة قصيرة غامضة.

ومن جهتهم، كان المدعوون الآخرون يثرثرون فيما بينهم، فيعلو لغطهم تارة، وينخفض أخرى. ويصغي المرء إلى آل رازوموڤسكي، ... لقد كان ذلك رائعاً... إنك ذات فضل... الكونتيسة أپراكسين تتردد على ألسنة المتحدثين. وفجأة نهضت الكونتيسة، وانتقلت إلى قاعة الاستقبال.

سُمع صوتها وهي تسأل:

ـ ماري دميترييـڤنا؟ أجاب صوت خشن: هي بالذات!

ودخلت ماري دميترييفنا إلى القاعة.

باستثناء العجائز، نهضت كل الشابات والسيدات.

وقفت ماري دميترييـڤنا على عتبة الباب، وراحت تشمل الحشد بنظرة مترفعة، وهي تُسوي أكمامها بتؤدة، وكأنها تريد حسرها عن ذراعيها. كانت ضخمة الجثة، متينة البنية، يشمخ رأسها باعتداد بخصلات الشعر الأصهب التي تكلله.

قالت القادمة بصوت جهير حجب الضجيج المنبعث:

ـ عيداً سعيداً لسيدة المنزل وأولادها. قالت ماري دميترييـڤنا باللغة الروسية دائماً:

ـ وأنت أيها العجوز، إنك لا تجد كلاباً تضنيها بالصيد. لكنك يا صديقي

لن تستطيع إلا تقبل الواقع، لأن عصافيرك الصغيرة تنمو، وأشارت بيدها إلى الفتيات الصغيرات، فإذا شئت أم أبيت، يجب عليك أن تجد لهن أزواجاً.

والتفتت إلى ناتاشا التي كانت تقترب منها بجرأة لتقبل يدها، وقالت:

أهذه أنت، أيتها «القوقازية»؟ وراحت تجري بيدها على شعرها ملاطفة وهي تناديها بكلمة «قوقازية»، التي درجت على إطلاقها عليها، وأردفت: إنك ماجنة يا فتاة، لكن ذلك يرضيني.

وسحبت من حقيبة يد ضخمة قرطين ذهبيين مصنوعين على شكل إجاصة، فأعطتهما للفتاة الصغيرة التي طغى السرور على وجهها، فأشرق واحمرَّ فرحاً. ثم استدارت تخاطب پيار مضفيةً على صوتها نبرة مرحة لا تتفق مع لهجته:

ـ آه، تعال يا عزيزي، تعال، تعال إلى هنا.

ورفعت أكمامها بحماسة وعادت تخاطب پيار، الذي تقدم نحوها وهو ينظر إليها ببراءة خلال نظارتيه:

ـ اقترب، اقترب! لقد كنت الوحيدة التي قالت لأبيك كل حقائقه عندما كان في أوج سلطته، فلا تنتظر مني أن أرتبك في حضرتك.

وصمتت صمتاً لم يجرؤ أحد على قطعه، لأن الموجودين أدركوا من سياق حديثها أن ما فاهت به حتى الآن ليس إلا استهلالاً له ما بعده.

أردفت بسلاطتها تقول:

ـ يا للفتى الوديع! إنه أمر مخجل... إن أباه على فراش الموت، والسيد يلهو ويعبث، ويتسلى بشد وثاق ضباط البوليس إلى ظهور الدببة... إنه مخجل، يا فتاي! مخجل. يستحسن أن تنخرط في الجندية.

وأدارت له ظهرها، وقدمت ذراعها إلى الكونت الذي كان يجد صعوبة في كتم ضحكته.

قالت مستطردة:

ـ حسناً، لقد حان وقت الطعام.

سارت مع الكونت في الطليعة، تتبعها الكونتيسة متأبطة ذراع «زعيم» (كولونيل) في الجيش، وهو شخصية لها خطورتها لأن نيكولا كان سيلتحق بفيلقه تحت إمرته.

وجاءت أنّا ميخائيلوڤنا برفقة شينشين، وبيرج مع ڤيرا، بينما كان نيكولا يرافق جولي كاراغين، التي كانت مشرقة الوجه وتبعتهما أزواج أخرى على طول قاعة الرقص. أما الأولاد ومعلموهم والمربيات، فقد جاؤوا في المؤخرة دون ترتيب. أسرع الخدم وصدحت الموسيقى، بينما أخذ المدعوون أمكنتهم وسط ضجيج المقاعد الذي أعقبه السكون. ولم تلبث أصوات الملاعق والسكاكين ولغط الحديث أن حجب أصوات الموسيقى وطغى على وقع خطوات الخدم، وهم يسرعون في غدوهم ورواحهم. وفي الطرف الأقصى من الطاولة، جلست الكونتيسة وإلى يمينها ماري دميتريـڤنا، بينما جلست أنّا ميخائيلوڤنا وبقية السيدات إلى يسارها. أما في الجانب الآخر، فكان الكونت جالساً إلى يسار «الزعيم» ويمين شينشين والرجال الآخرين. وكان الشبان والفتيان الصغار يشغلون وسط الطاولة، ڤيرا إلى جانب بيرج وپيار إلى جانب بوريس، بينما في الجانب الآخر، احتشد الأطفال مع معلميهم ومربياتهم.

وكان الكونت لا يفتأ يملأ كؤوس جيرانه بالنبيذ، دون أن ينسى نصيبه منها، وهو ينقل نظره بين حين وآخر إلى زوجته وقلنسوتها المرتفعة ذات الأشرطة الزرقاء السماوية، التي تنعكس خلال زجاج الأواني البلورية المرتبة على الطاولة.

وكانت الكونتيسة تلقي نظرات حافلة بمعانٍ شتى على وجه زوجها عبر الطاولة، متخطية ثمار الأناناس، دون أن تنسى واجباتها كمضيفة لبقة. كانت

جمجمة زوجها ووجهه المحمرّان، يبدوان لها متنافرين مع لون شعره الأشهب. وكانت الأصوات في ركن السيدات خافتة، على عكس ركن الرجال، الذي كان النقاش فيه يحتدم أكثر فأكثر يعلو فيه بصورة خاصة صوت «الزعيم» الذي كان يشرب الكؤوس من دون مزج، ويأكل بنهم وشهية اتخذهما الكونت أمثولة طلب إلى مدعويه الاحتذاء بها. وكان بيرج مبتسماً يفسر لـڤيرا طبيعة الحب، تلك العاطفة السماوية التي لا علاقة لها بالأرض. بينما كان بوريس يطلع صديقه الجديد على أسماء المدعوين، ويتبادل النظرات المختلسة مع ناتاشا الجالسة قبالته. وكان پيار يتفحص كل هذه الوجوه الجديدة ويتحدث قليلاً ويأكل كثيراً، حتى إنه لم يستبعد من قائمة الطعام الحافلة، إلا لوناً واحداً فقط، ولم يرفض لوناً من الخمر مما كان رئيس الخدم يقدمه من زجاجته الملفوفة بالمنشفة. فكان يصغي بغموض إلى أسماء أنواع النبيذ المقدمة: «دري مادير، توكاي، نبيذ هنغاري، نبيذ الرين»، إلخ... وكان أمام كل مدعو أربع كؤوس من البلور النقي، تحمل شعار الكونت، وقد أعدت لأربعة أنواع مختلفة من الخمور. فكان پيار يقدم لرئيس الخدم أول كأس تقع عليه يده، فيملأها هذا له، ليفرغها في جوفه بفرح واضح، ويعود إلى تصفح وجوه المدعوين بنظرة تزداد التماعاً. وكانت ناتاشا، وهي تجلس قبالته، تنظر إلى بوريس، كما تنظر الفتيات في سن الثالثة عشرة، إلى الشاب الذي يعتقد أنهن يعشقنه، والذي تبادلن إياه قبلتهن الأولى. فكانت إحدى تلك النظرات تهيم ضائعة لتتوقف على پيار، الذي كان يشعر برغبة في الضحك، دون أن يدري له سبباً، كلما وقع عليه نظر تلك الفتاة المنتعشة اليقظى بوجهها الناطق الضاحك.

وشاءت الظروف أن يكون نيكولا بعيداً عن سونيا، يتحدث مع جولي كاراغين، وعلى وجهه تلك الابتسامة المغتصبة. وعلى الرغم من أن سونيا كانت تتظاهر بالابتسام هي الأخرى فإن الغيرة كانت تنهشها، فكانت تشحب

وتحمر شيئاً فشيئاً، وتحاول التقاط نتف من حديثهما. أما المربية، فكانت تحضن الأطفال بنظرة قلقة، وهي على استعداد للانقضاض على أي منهم، إذا تجرأ على مقاومة رغبتها.

أما المعلم الألماني فقد كان يحاول بمشقة أن يخط في ذاكرته أسماء الخمور وأنواع الطعام، ليتسنى له وصف كل ذلك بأدق تفاصيله في رسالته المقبلة التي سيرسلها إلى ذويه في ألمانيا. فلما مرّ رئيس الخدم وراءه، حاملاً زجاجته الملفوفة بالمنشفة، دون أن يصب في كأسه منها، شعر بجرح في كرامته، لأنه أسيء فهمه فهو لم يكن يريد الخمر لإرواء عطشه، بل يود تذوق كل الأنواع، إرضاء لرغبة الاطلاع في نفسه وزيادة معلوماته!

الفصل التاسع عشر

احتدم الحديث أكثر فأكثر في ناحية الرجال. وكان الكولونيل (الزعيم) يؤكد أن الحرب قد أعلنت رسمياً في پيترسبورغ، وأن نسخة من مرسوم إعلان الحرب قد أرسلت بالبريد إلى حاكم موسكو العسكري، وقد اطلع على تلك النسخة بنفسه.

ما هو السبب الذي يجعلنا نحارب بوناپرت؟ أي شيطان أثيم يدفعنا إلى إعلان الحرب؟ لقد أخمد من قبل ثورة النمسا، وأخشى أن يكون دورنا قد حل.

استاء الزعيم، وهو ألماني طويل القامة، متين البنية، محمرّ الوجه، عسكري ووطني، لمزاعم شينشين، فأجابه بلكنة أجنبية ظاهرة:

ـ لأي سبب، يا سيدي العزيز؟ إن الأمبراطور يعرف السبب. إنه يقول في بيانه: إنه لا يستطيع البقاء متفرجاً على الأخطار التي تهدد روسيا، وإن سلامة الأمبراطورية وكرامتها والارتباطات...

وشدّد على هذه الكلمة وكأنه يشير إلى أنها تحوي مفتاح السر ثم راح، بذاكرة الرجل الرسمي التي لا تخون، يتلو المقطع الأول من البيان: «... ورغبة الأمبراطور المقررة في تحقيق السلم في أوروبا على قواعد متينة، دفعته إلى إرسال جزء من الجيش خارج الحدود الروسية، والارتباط بتعاقد جديد لينفذ رغباته وأهدافه». وأضاف قائلاً:

ـ هذا هو السبب، يا سيدي العزيز... ونظر إلى الكونت منتظراً موافقته على قوله وأفرغ كأسه في فمه بأسى. أجاب شينشين:

ـ هل تعرف المثل القائل: «من الخير أن يعنى المرء «بملفوفه» على أن يصاب بالنوائب والمحن»؟ إن هذا المثل ينطبق علينا انطباقاً كلياً. لقد كان سوڤوروف[1] جباراً قوياً، مع ذلك فقد هزم هزيمة نكراء. فأين نحن الآن من سوڤوروف، وأين مثله بيننا؟ إنني أتساءل وأسألك الجواب.

كان شينشين كعادته يقفز من الفرنسية إلى الروسية وبالعكس. أجابه الكولونيل، وهو يضرب الطاولة بيده:

ـ يجب أن نحارب حتى آخر نقطة من دمائنا، وأن نموت في سبيل أمبراطورنا إذا اقتضى الأمر، وأن نناقش الأمور على أضيق مدى ممكن.

وشدّد على المقطع الأخير، وأردف:

ـ نعم على أضيق مدى ممكن... وعندئذ سيسير كل شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ وراحت عيناه تبحثان من جديد عن موافقة الكونت وتأييده. ثم استرسل قائلاً:

ـ إننا معشر الجنود القدامى نفكر بمثل هذه العقلية فقط؟... فما رأيك أيها الجندي الشاب!...

كان الكلام موجهاً إلى نيكولا الذي ما إن شعر بأنهم يتحدثون عن الحرب حتى أغفل صديقته واندفع، بكل حواسه، مصغياً إلى ما يدور من حديث حول هذا الموضوع. قال مجيباً عن السؤال بحماسة:

ـ إنني من رأيك تماماً.

ثم أزاح الصحاف والكؤوس من أمامه بجرأة الرجل الذي يتهدده خطر

---

(١) الكسندر سوڤوروف، أو ساڤاروف، جنرال روسي ولد في موسكو عام ١٧٢٩ وتوفي عام ١٨٠٠

ماحق، وأضاف: نعم، إنني مقتنع بأن على الروس إما أن ينتصروا وإما أن يموتوا كراماً.

كانت العبارة شديدة الوقع في ذلك الجو، لكنه شعر بعد فوات الأوان أنها لا تنسجم مع الجو كما لاحظ المدعوون، لذلك فقد بان عليه الارتباك. فقالت جارته جولي تؤيده: إن ما قلته رائع، جميل!

عندما سمعته سونيا، يتكلم على ذلك النحو، اقشعر جسمها واحمرّ وجهها. حتى إن عنقها لم ينج من تأثير القشعريرة، وغدا أرجوانياً.

وكان پيار يصغي إلى آراء الزعيم، فأيده بإشارة من رأسه وقال:

ـ إنه رأي سديد!

بينما صاح الزعيم، وهو يضرب الطاولة بقوة فاقت ما بدر منه في المرة السابقة:

ـ إنك جندي حقيقي، أيها الشاب!

غير أن صوت ماري دميترييـڤنا الخفيض ارتفع فجأة من الطرف الآخر للطاولة مجلجلاً. قالت تسأل العسكري الكبير:

ـ ما هذا الصخب؟ لمَ تضرب على الطاولة؟ مع من تظن نفسك الآن؟ هل تعتقد أنك أمام الفرنسيين؟

فأجاب الزعيم مبتسماً:

ـ أنا لا أقول غير الصدق. صاح بها الكونت من مكانه.

ـ كنا منهمكين في التحدث عن الحرب، يا ماري دميترييـڤنا. ذلك لأن ابني سيشترك فيها، هل تفهمين، ابني، نعم نيكولا.

فأجابت ماري دميترييـڤنا بصوت بلغ طرف القاعة الأقصى دون أن ترفعه:

ـ وماذا في ذلك؟ إن لي أربعة أولاد في الجيش. مع ذلك لست أبكي من

أجلهم، لأننا جميعاً بين يدي الله: فهنا يموت حي وهو على فراشه، وهناك يحارب بعضهم دون أن يصاب بأي أذى، وهكذا...

ـ بدون شك، بدون شك...

وبعد هذا الفاصل، عاد كل من الفريقين إلى حديثه الخاص دون أن يعير ما يقوله الآخر التفاتاً. وفي تلك اللحظة، كانت ناتاشا تنظر إلى أخيها متحدثة وهو يقول لها: لن تجرئي على ذلك السؤال. كلا لن تجرئي..

وكانت تجيبه معتدة بنفسها: أجرؤ...

وأشرق وجهها بتصميم جريء. فنهضت وألقت نظرة على پيار تدعوه للإصغاء إلى ما ستقول، ثم التفتت إلى أمها وقالت بصوتها الطفولي، محاولة اجتذاب انتباه أمها والسامعين:

ـ أماه!

فسألتها الكونتيسة مذعورة: ماذا هناك؟

لكنها لما قرأت على وجه ابنتها بوادر محاولة خبيثة، نظرت إليها بقساوة ودعتها إلى الصمت بحركة من يدها. وأعقب ذلك سكوت. لكن الصغيرة ما لبثت أن انطلقت تسألها بلهجة حازمة: أماه، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام؟

لم تجد الكونتيسة مبرراً للغضب، بينما رفعت ماري دميترييـڤنا إصبعها مهددة وقالت:

ـ حاذري يا «قوقازية»، اهدئي!

فنظر المدعوون إلى الوالدين وموقفهما من سؤال ابنتهما ليتصرفا بما يتناسب والمقام. فإن غضبا أظهروا استياءهم، وإلا ابتسموا مسرورين.

فقالت الكونتيسة: انتظري لحظة!

ازداد صوت ناتاشا ارتفاعاً وقد تأكدت أن رعونتها هذه لن تسبب لها أي عقاب: أماه، ماذا سيقدم لنا قبل انتهاء الطعام؟

كان پيتيا الضخم وسونيا لا يكادان يكبتان ضحكتهما. أما ناتاشا فقد قالت لأخيها، وهي تطيل التحديق إلى وجه پيار: ها قد سألتها!

ـ ستقدم «البوظة»، لكنك لن تطعمي منها. قالت ماري دميترييـڤنا مجيبة.

ولما كانت ناتاشا متأكدة أنها لن تعاقب، تجرأت على الصمود أمام «التنين» بالذات. قالت:

ـ أية «بوظة»، يا ماري دميترييـڤنا؟ أنا لا أحبها مع الـڤانيليا!

ـ بل ستكون مع الجزر!!

فصاحت العابثة بصوت أشبه بالصراخ:

ـ غير صحيح! أي نوع من «البوظة»، يا ماري دميترييـڤنا؟ أي نوع؟ أريد أن أعرف...

فقهقه السامعون اعتباراً من ماري دميترييـڤنا نفسها، وحتى الكونتيسة، التي كبتت ما في نفسها. ولم يكن جواب «التنين المرعب» هو الذي أثار تلك العاصفة الهوجاء من الضحك، بل كانت جرأة الفتاة الخبيثة التي عرفت كيف تصمد أمام «التنين» في غير وجل، هي السبب.

ولما أبلغت أن «البوظة» ستكون بالأناناس، تظاهرت ناتاشا بالرضى. وطاف الخدم بالشمبانيا قبل تقديم «البوظة»، وعزفت الموسيقى، فمضى الكونت إلى زوجته يقبّلها، فجدد المدعوون تمنياتهم بمناسبة ذلك العيد، وفرغت الكؤوس، وشربت الأنخاب، أنخاب الكونتيسة والكونت وأولادهما.

ثم عاد الخدم إلى النشاط، وعلا صخب المقاعد وارتفع ضجيجها، وغادر المدعوون قاعة الطعام بالترتيب الذي نهجوا عليه عند دخولهم، مع فرق واحد: وهو أن وجوههم كانت محمرّة من أثر الخمرة المعتقة. وانتقلوا إلى القاعة الكبرى حيث مكث فيها الذين كانوا فيها من قبل، بينما قصد الرجال إلى مكتب الكونت ليعودوا إلى أحاديث ما قبل الطعام.

الفصل العشرون

توزّعت طاولات لعب الورق؛ ونظمت الجماعات، وانقسم الحاضرون بين القاعة الكبيرة والغرف الأخرى والمكتبة. كان الكونت يمسك بالأوراق على شاكلة مروحة، ويغالب النعاس الذي تسلط عليه، بحكم اعتياده النوم بعد الطعام. واجتذبت الكونتيسة الشباب والشابات إلى الأرغن والپيانو. فمضت جولي، استجابة للرغبة العامة، تعزف على الأرغن، ثم اتحدت مع الشابات ووجهن جميعاً دعوتهن إلى ناتاشا ونيكولا، ليشتركا في غناء قطعة ما، نظراً لما عرف عن موهبتهما في الموسيقى.

شعرت ناتاشا بالاعتداد لأنها عوملت كشخص كبير ودعيت للغناء بالإجماع، لكنها مع ذلك شعرت بشيء من الارتباك.

ـ ماذا سنغني؟ سألت.

فأجابها نيكولا: أغنية «النبع».

ـ حسناً، لنبدأ. تعال يا بوريس إلى هنا... أين سونيا؟

أسرعت ناتاشا تبحث عن صديقتها خارج الغرفة. فلم تجدها لا في غرفتها ولا في غرفة الأولاد، اعتقدت ناتاشا أنها ولا شك مختفية فوق الصندوق في الممشى.

لقد جرت عادة فتيات آل روستوف الصغيرات على الانـزواء فوق ذلك الصندوق، كلما أردن أن ينفثن عن صدورهن. وقد صدق حدسها، إذ إن سونيا، دون اعتبار ما قد يصيب ثوبها الجميل الوردي من أذى، كانت

مستلقية على صدرها على فراش من الزغب، مخطط قذر، عائد إلى المربية، وموضوع فوق ذلك الصندوق، وقد دفنت وجهها بين يديها وراحت تبكي، اهتزت له كتفاها الدقيقتان العاريتان. تخلت ناتاشا عن بهجة العيد التي كانت فائضة على وجهها، والتي لم تبارحها طوال ذلك النهار، وشخصت أبصارها، وسرت رعشة في جسدها، وهبطت زاويتا فمها. صاحت:

ـ سونيا، ماذا بك؟... ماذا حدث؟...

وانقلبت سحنتها، تبعاً للتقلص الذي اعترى وجهها، فبدت شديدة البشاعة، وراحت تنتحب بدورها كطفل صغير، إلا لأن صديقتها تبكي.

حاولت سونيا أن ترفع رأسها لتجيب عن سؤال صديقتها، لكنها لم تجد القوة الكافية على ذلك، فراحت تزيد في البكاء ممعنة في إخفاء وجهها. جلست ناتاشا وهي باكية أيضاً على الفراش الأزرق، وأخذت صديقتها بين ذراعيها. وأخيراً، استعادت سونيا بعض شجاعتها، فنهضت وراحت تمسح دموعها، استعداداً لشرح ما يحزنها. قالت:

ـ سيذهب نيكولا بعد أسبوع... لقد تلقى أمر المسير العائد إليه.. لقد حدثني بذلك... لكنني لست أبكي من أجل هذا، ولكن... وأبرزت لها ورقة كانت تخفيها في يدها، عرفت ناتاشا من النظرة الأولى أنها تحوي الأبيات التي كتبها نيكولا بعد أن نظمها متغزلاً بسونيا.

ـ لكنك لا تستطيعين أبداً... بل لا يستطيع أحد أن يدرك مبلغ نبل نفسه!

ولما تذكرت تلك النفس النبيلة عادت إلى البكاء مجدداً. أردفت بعد لأي:

ـ إنك سعيدة... ولست أشعر بالغيرة منك... إنني أحبك وبوريس حباً جماً، وهو لطيف، ولا شيء يعترض زواجكما... أما نيكولا، فهو ابن عمي... وينبغي لنا الحصول على إذن خاص من الأسقف إذا أردنا الزواج... وهو

يستطيع أن يرفض إعطاءنا الإذن الخاص... ثم إذا تحدث بعضهم إلى أمي، وكانت سونيا تعتبر الكونتيسة أماً لها وتدعوها كذلك، فإنها ستقول إنني أحطم مستقبل نيكولا، وإنني عديمة الشعور مع ذلك، يشهد الله، ورسمت إشارة الصليب على صدرها، على إنني أحب ماما وأحبكم جميعكم... لكن ڤيرا... ولكن لماذا؟ ماذا فعلت لها؟ إنني شديدة الاعتراف بجميلكم جميعاً حتى إنني على استعداد للتضحية بكل شيء من أجلكم، لكن ليس لدي شيء...

أخفت وجهها مجدداً بين راحتيها وعادت إلى الفراش. فراحت ناتاشا تعزيها، لكن وجهها كان ينبئ بأنها تفهم أحزان صديقتها بشكل صحيح.

صاحت فجأة، وكأنها اكتشفت سبب حزن ابنة عمها: سونيا! لقد تحدثت ڤيرا معك بعد الطعام، أليس كذلك؟

ـ نعم... إن هذه الأبيات كتبها نيكولا بيده، وقد نسخت بنفسي أبياتاً أخرى. وقد وجدتها على طاولتي، فقالت إنها ستعطيها «لماما»... ثم قالت لي إنني عاقة وإن ماما لن توافق أبداً على زواجنا وإنه سيتزوج جولي. ألم تري أنه كان يغازلها طوال النهار؟... ناتاشا، لم تعذبيني على هذا الشكل؟

ـ لا تصدقيها يا عزيزتي سونيا، لا تصدقيها. وعاد إليها البكاء. فأنهضتها ناتاشا وأحاطتها بذراعيها وهي تبتسم خلال دموعها، وراحت تعمل على تهدئتها. تذكري حديثنا مع نيكولا في المنزل... هل تذكرين، ذات مساء بعد العشاء؟ لقد قررنا آنذاك كيف يجب أن نتصرف ليتحقق لنا المستقبل المنشود. لقد نسيت التفاصيل، لكن كل شيء سيسير على ما يرام. أتذكرين؟ إن أخا العم شينشين قد تزوج ابنة عمه لأبيه. ونحن، جميعاً تابعون لهذا التسلسل العائلي. إن بوريس يقول إن كل شيء سهل... لقد حدثته بكل شيء كما تعلمين... إنه لطيف جداً وذكي جداً... هيا، يا سونيا، لا تبكي يا عزيزتي، يا حبيبتي، وعانقتهما وهي تضحك، إن ڤيرا خبيثة، فلا تصغي إليها. لن تقول

شيئاً «لماما»، وسوف نسوي كل شيء. إن نيكولا هو الذي سيتحدث إلى ماما، تأكدي من ذلك ولا تفكري أبداً في جولي. وقبلت جبينها، فنهضت سونيا، وعادت الحياة إلى القطة الصغيرة فسطعت عيناها، وبدت على استعداد للقفز على رجليها، وللعب بكرة الصوف، وبكلمة موجزة، بدت القطة الصغيرة مستعدة للعودة إلى طبيعتها المرحة.

ـ أتعتقدين ذلك؟ حقاً؟ هل هذا وعد؟ قالت سونيا، وهي تسوي ما فسد من زينتها وشعرها بسرعة.

فأكدت ناتاشا قائلة، وهي تسوي خصلة من الشعر أفلتت من ضفيرة ابنة عمها: هذا وعد!

والآن، هيا بنا نغني «النبع» وراحتا تضحكان بمرح.

ـ هيا بنا. لكن ناتاشا توقفت فجأة، وقالت: أتعرفين، إن هذا الضخم پيار، الذي كان جالساً قبالتي على الطاولة، يبدو غريباً ومضحكاً.

وراحت مسرعة في الممشى! واندفعت سونيا على آثارها بعد أن نزعت الزغب العالق بثوبها وأودعت صدرها الضامر الورقة الحاوية على الأبيات الشعرية. تبعت ناتاشا، خفيفة الحركة، فلحقت بها قبل أن تغادر الممشى.

وبناء على طلب المدعوين، غنى الشبان والشابات الأربعة أغنية «النبع» فصفقوا لهم طويلاً. ثم غنى نيكولا وحده قصيدة كان قد تعلمها أخيراً:

عندما يلمع القمر في السماء الصافية
يفكر العاشق الحزين بقلق:
لا بد من وجود مخلوقة على الأرض.
يستجيب قلبها لنداء أشواقي،
وعلى أرغنها المرتعش،
تمرر أصابعها المرتعدة، وتدعوني بحب مدنف،

وهي مستعدة لاستجابة رغباتي الملتهبة.
وبعد انتظار يوم أو اثنين
سيفتح النعيم أبوابه...
أسفاً! إن أملك خائب،
وصديقك المسكين لن يكون بعد في الوجود!

لم يكن قد انتهى من أغنيته بعد، حتى كان الشبان في القاعة الكبرى يتأهبون للرقص، وكان أعضاء الفرقة الموسيقية يضبطون الإيقاع بأقدامهم استعداداً للشروع في العزف. خلال ذلك، كان شينشين في القاعة داخلاً مع پيار في بحث سياسي عميق أصبح بعد ذلك بحثاً عاماً. كان شينشين يرغب في استطلاع رأي شاب ناشئ تثقف خارج البلاد وعاد إليها بمعلومات جديدة. وكان پيار منزعجاً في مجلسه يريد التخلص من ذلك الجو المقبض. وما إن عزفت الموسيقى المقاطع الأولى، حتى دخلت ناتاشا واتجهت نحوه مباشرة. قالت الفتاة ضاحكة:

ـ لقد أوعزت إليّ أمي أن أستبقيك للرقص.

فنهض پيار، وقد احمرّ وجهه وقال:

ـ أنا أخشى أن أفسد الحركات الراقصة، لكنني أقبل إذا وافقت على أن تكوني أستاذتي...

واضطر إلى الانحناء ليستطيع إعطاء ذراعه القوية إلى الفتاة النحيلة. واستمر پيار يرافق فارسته طوال الوقت الذي لبثت الفرقة الموسيقية تعزف خلاله. وكانت ناتاشا تكاد تطير فرحاً، لأنها كانت تراقص «شاباً حقيقياً» عاد منذ فترة وجيزة من «الخارج»، فكانت تحاكيه في حركاته، وترافقه على مرأى من الموجودين، وكأنها سيدة كبيرة! ولما أعطتها إحدى الآنسات مروحتها راحت تستعملها وفق أحدث الأساليب الاجتماعية الراقية، دون أن يعرف

أين ومتى تعلمت تلك الأساليب، وهي تبتسم لـپيار من ورائها، وتتحدث معه بجدية.

وصدف أن كانت الكونتيسة روستوف تجتاز القاعة، فقالت تشير إلى ابنتها: ولكن ما هذا؟ انظروا إلى هذه!

ـ ثم ماذا، يا أماه؟ لم تسخرين مني؟ أية غرابة تجدينها في مظهري؟ فأجابت الفتاة، وقد صعد الدم إلى وجهها.

وعندما عزفت الموسيقى رقصة الأيقوسية الثالثة، ارتفع من المكتب حيث كان الكونت يلعب الورق مع ماري دميتريـڤنا، ضجيج مقاعد وجلبة خطوات إذ نهض الأشخاص المسنون، ومعظم المدعوين الذين شعروا بحاجتهم إلى الحركة وترويض أطرافهم، فأودعوا جيوبهم نقودهم وحافظاتهم، واتجهوا نحو قاعة الرقص على شكل مجموعة: كل فارس يرافق مراقصته.

فجاء الكونت مع ماري دميترييڤنا في الطليعة، وهما على أحسن مزاج. ثنى الكونت ذراعه وقدمها بأدب إلى مراقصته، ونصب قامته واتخذ طابع المرح متصابياً. ولما انتهت الحركة التصويرية الأخيرة من تلك الرقصة، صفق بيده، وهتف مشيراً إلى السيدة، مُحدّثاً عازف الكمان الأول: هل تعرف معزوفة «دانيللو كوبر»، يا سيميون؟

إنها رقصة الكونت المفضلة، رقصة أيام الشباب، رقصة تصويرية إنكليزية.

صاحت ناتاشا بكل قواها: انظروا إلى بابا! وأطلقت ضحكة مدوية امتلأت القاعة بصداها، وراحت تنحني فيلامس رأسها ركبتيها.

نسيت تماماً وهي في سياق مرحها أنها تراقص «شاباً حقيقياً».

والحقيقة أن كل مَن في القاعة بدأ يضحك، والجميع ينظرون إلى ذلك العجوز المرح الصغير، الذي كان إلى جانب مراقصته الضخمة، التي تفوقه

طولاً، ويبرز رأسها اعتباراً من العنق فوق هامته، يكور ذراعيه، ويضبط الإيقاع، فيهز كتفيه، ويضرب الأرض بقدمه، وعلى شفتيه ابتسامة مرحة تضفي على وجهه بهجة وسروراً، لافتاً انتباه الحشد المتفرج إلى المشهد الممتاز الذي هو في سبيل عرضه عليهم.

وعندما صدحت الموسيقى بمطلع الرقصة الرشيقة، فتحت الأبواب كلها، وأطلت منها وجوه باسمة تتطلع بانتباه ولذة إلى ذينك الراقصين. فكان الخدم والرجال من جهة، والنساء من الجهة الأخرى، يراقبون جميعهم الكونت وهو يعود إلى أيام الصبا.

ـ إن سيدنا نسر حقيقي! صاحت الخادمة العجوز.

كان الكونت يرقص بفنّ وهو معجب بذلك! بينما رفيقته فكانت، سيئة الحركة، تفسد الرقصة دون أن تبالي بأخطائها. فكانت جثتها الضخمة الهائلة منتصبة ثابتة، وذراعاها الهائلتان منسدلتين بلا حراك إلى جانبها بإعطائها إلى الكونتيسة. ولم يكن إلا وجهها القاسي، الذي يمتاز بجماله، يتابع الرقصة بالفرح المنتشر على قسماته.

اتسعت ابتسامتها حتى كادت تشمل الوجه كله، ورأسها مرتفع إلى الوراء باعتداد. أما الكونت، فكان، على العكس، يرقص بكل جسده الممتلئ. لكنه على الرغم من أن كل حركة من حركاته الرشيقة وخطواته المتزنة البديعة كانت تثير إعجاب المتفرجين، فإن أقل حركة أو اهتزاز من كتفي ماري دميترييـڤنا أو قدميها، كانت تحدث تأثيراً مماثلاً في نفوس المتفرجين، الذين كانوا مسرورين لرؤيتها في ذلك الوضع؛ تسخر جثتها الضخمة، وتتساهل رغم صلابتها المعروفة. وكانت الرقصة تزداد حيوية، حتى أن الراقصين الآخرين ما كانوا يستطيعون اجتذاب انتباه أحد. وعلى الرغم من أن الكونت وماري دميترييـڤنا كانا محط أنظار الجميع، فإن ناتاشا كانت تتهافت على المدعوين

واحداً تلو الآخر فتجذب هذا من كمه وتلك من ثوبها، لتنبههم إلى «البابا» وهو على حاله تلك.

وكان الكونت خلال فترات من الراحة يتنفس بصعوبة، ويوحي للعازفين سواء بالإشارة أو بالقول أن يضاعفوا سرعة العزف، الأمر الذي كان يزيده نشاطاً؛ فيدور تارة على رؤوس أقدامه، وطوراً على كعبيه حول الراقصة البدينة. وأخيراً، وبعد أن قادها إلى مقعدها، قام بالحركة الأخيرة، بأن رفع ساقه المرنة إلى الوراء، معتمداً على ساقه الأخرى، وانحنى حتى أصبح جسمه زاوية قائمة على ساقه، ورسم بيده اليمنى دائرة متسعة انتزعت عاصفة من التصفيق التي كان صوت ناتاشا واندفاعها يبرزان خلالها.

كان الراقصان المجدان على آخر رمق فتوقفا وراحا يجففان أيديهما ووجهيهما بمناديلهما الفخمة.

ـ هكذا كنا نرقص في أيامنا. يا عزيزتي. صاح الكونت.

فأجابت ماري دميترييـڤنا بعد أن استجمعت أنفاسها بصعوبة، وراحت تحسر الأكمام عن ذراعيها: هذا ما يسمونه «دانيللو كوپر».

الفصل الحادي والعشرون

أصيب الكونت بيزوخوف بنوبته السادسة بينما كان المدعوون يرقصون «الإنكليزية» السادسة في منزل آل روستوف، وبدأ الموسيقيون يخطئون في الإيقاع لشدة التعب، والخدم والطهاة يهيئون العشاء. أعلن الأطباء ضياع الأمل الأخير. لذلك لجأوا إلى أخذ اعتراف المريض «ومناولته» وهو فاقد الوعي، وراحت الاستعدادات للمرحلة الأخيرة تُتّخذ، وسط الطقوس الدينية المرعية.

سادت الفوضى الطبيعية، في مثل هذه الظروف، الفندق كله، وأسرع متعهدو الدفن إلى الأبواب لاصطياد ذلك الصيد الثمين، فراحوا يحاصرون مداخل الفندق، ويختفون كلما وصلت عربة بعض السادة أمام الباب. وجاء حاكم موسكو العسكري بنفسه يودع صفي كاترين الثانية العتيد الوداع الأخير، بعد أن أقام مساعدوه وحجابه في الفندق، ليطلعوه على أخبار المريض وتطوراته.

عندما خرج الحاكم العسكري من غرفة المريض، ازدحمت قاعة الاستقبال الفخمة بالناس. بعد أن مكث مختلياً به نصف ساعة، نهض الموجودون في قاعة الاستقبال متطلعين. لكن الحاكم مرّ بين المحتشدين متجنباً الرد على تحياتهم، وعلى أسئلة الأقارب والأطباء ورجال الدين. وكان الأمير بازيل، الذي نحل خلال الأيام الأخيرة، يرافق الحاكم ويهمس في أذنه من حين إلى آخر ببعض الكلمات. ولما ودع الحاكم بعد أن شيعه إلى الباب،

عاد الأمير يجلس وحيداً في القاعة، وقد وضع ساقاً فوق ساق، وأسند مرفقيه إلى ركبته، ووضع رأسه بين يديه. ولم تمض برهة حتى نهض، وسار بخطوات عصبية لم يسبق أن ظهرت في مشيته من قبل، وهو يُلقي حوله نظرات قلقة فاجتاز الممشى الذي يفصل بين أجنحة المسكن وغرفه الداخلية، ومضى إلى مخدع كبرى الأميرات.

كان الزوّار أثناء ذلك يتحدثون بأصوات خفيضة في القاعة الكبرى، التي كان يضيئها نور خفيف. ومن حين إلى آخر، كان الباب المؤدي إلى غرفة المحتضر، يحدث صريراً خفيفاً كلما فتح ليخرج منه بعضهم، فتعود الآراء إلى الاحتدام، وترتفع الأنظار إلى وجه الخارج بقلق واكتئاب.

قال عجوز يرتدي ثياب رجال الدين، يخاطب سيدة بجانبه تصغي إليه ببراءة: إن لكل مخلوق أجلاً لا يستطيع تجاوزه.

فسألت السيدة وهي تضفي على أقوالها صبغة كنسية:

ـ ألم يفت الوقت بعد لتلقينه الصلوات الأخيرة؟

ولما كان يبدو على وجهها جهلها التام بما تقول أجاب رجل الدين مقسماً وهو يمر بيده على رأسه الأصلع، الذي ما زالت خصلات من الشعر مبعثرة في أطرافه: يا سيدتي العزيزة، إنه طقس ديني كبير.

وفي الطرف الأقصى من الغرفة، ارتفعت أصوات تقول: من هو هذا؟... الحاكم العسكري؟... يبدو شاباً! بل إنه تخطى الستين؟... يقال إن الكونت فقد القدرة على التعرف إلى الأشخاص... سوف يلقنونه الصلوات الأخيرة.

ـ إنني أعرف واحداً لُقن سبع مرات وعاش بعدها.

ـ خرجت ثانية الأميرات من غرفة المحتضر، وجلست قرب الطبيب لوران، الذي كان متكئاً على طاولة في جلسة مريحة، تحت صورة كاترين الثانية.

أجاب عن سؤال يدور حول الطقس طرحته الأميرة عليه: جميل جداً يا أميرة. جميل جداً. إن القاطن في موسكو يعتقد أنه يعيش في الأرياف.

ـ أليس كذلك؟... هل نستطيع أن نعطيه ما يشرب؟

علت وجه لوران أمارات التفكير. سألها: هل أخذ جرعة الدواء؟

ـ نعم.

نظر لوران إلى ساعته وقال: خذي كأساً من الماء المغلي، وأضيفي إليه قليلاً من المسحوق الذي أعطيتك إياه.

وشفع قوله بحركة من إبهامه وسبابته، ليشير إلى الكمية الضئيلة التي يجب أن تضعها في كأس الماء.

قال طبيب ألماني لأحد المساعدين العسكريين: لم يسبق مثيل لهذه البادرة. إذ لم ينجح أحد قط بعد النوبة الثالثة.

فقال الضابط المساعد: لقد كان معنياً به عناية شديدة!

ثم أضاف هامساً:

ـ لمن ستؤول ثرواته؟

فأجاب الألماني بلغته الركيكة وهو يبتسم: لن ينقص الأدعياء والراغبون فيها.

شخصت عيون الاثنين إلى الباب الذي كان يصر من جديد، وتابعت الأنظار الأميرة، وهي تحمل للمريض الوصفة التي أشار بها لوران. فاقترب الألماني من زميله الشهير وسأله بفرنسية تظهر فيها رطانة أجنبية مضحكة: هل يطول به الأمر حتى الغد؟

زمّ لوران شفتيه، وراح يحرك سبابته أمام أنفه حركات سلبية، وقال ببطء:

ـ لا لن يتأخر أكثر من هذا المساء.

وشفع رأيه الحاسم بابتسامة مهذبة وابتعد.

كان الأمير بازيل يفتح الباب المؤدي إلى غرفة الأميرة، وكانت هناك شمعتان تحترقان أمام الصور المقدسة، فتعطيان ضوءاً شاحباً خافتاً، وتملأ المباخر والزهور الغرفة التي تتزاحم فيها الدواليب والمناضد والخزائن. وكان يُرى من وراء ستر من القماش، أطراف سرير مرتفع ذي فراش من الريش. فلما فتح الباب نبح كلبٌ صغير:

ـ آه، أهذا أنت يا ابن عمي؟

نهضت الأميرة ومسدت شعرها الذي جرت عادتها على ترجيله دون عقص ولا حزم، حتى وكأنه ملتصق بفروة رأسها. سألته: ماذا هناك؟ لقد أخفتني.

فأجاب الأمير وهو يتهاوى على المقعد الذي بارحته الأميرة: لا شيء. لقد جئت لأتحدث معك بأمور هامة يا كاتيش. رباه إن الحرارة عندك خانقة!... تعالي نجلس ونتحدث.

وكلمة كاتيش، هي التحريف لتصغير كاترين على الطريقة الفرنسية. وكاترين هو اسم الأميرة الكبرى.

قالت الأميرة وهي تجلس قبالة الأمير وعلى وجهها البارد برودة الصخر:

ـ ظننت أن أمراً قد وقع... كنت أريد النوم قليلاً يا ابن عمي، لكنني لن أستطيع.

ـ حسناً وماذا بعد، يا عزيزتي؟ طرح الأمير ذلك السؤال بعد أن استجاب لحركته الغريزية، التي درج عليها كلما استغرق في التفكير العميق، فأخذ يد الأميرة وأنزلها نحو الأرض. وكانت عبارته: «وماذا بعد يا عزيزتي» تحمل معاني كثيرة، كان كلاهما يفهمها دون حاجة إلى إعلانها وإظهارها.

راحت الأميرة تحدُج الأمير بعينيها الحزينتين، بنظرة تخلو من المعاني والتعابير، وقد انتصب جذعها الأعجف، الذي يعوزه التناسق مع ساقيها

القصيرتين. هزت برأسها وألقت نظرة على الصور المقدسة وتنهّدت. وكانت تلك الحركة تعني إما شدة الحزن، وإما الرغبة في راحة تستحقها. غير أن الأمير اعتبرها دلالة على التعب، فقال مواسياً:

ـ هل تعتقدين بأن الحال ليست أليمة بالنسبة إلي أيضاً؟ إنني منهك كحصان البريد. رغم ذلك، يجب أن أتحدث معك حديثاً خطراً وهاماً.

سكت الأمير بازيل، بينما أخذت وجنتاه تتشنجان دورياً تشنجات عصبية، تُضفي على وجهه بشاعة ونفوراً، لم يسبق للمجتمعات الراقية أن شهدت مثلها عليه. كانت في عينه تعبيرات غير معهودة، إذ كان الخوف يتنازع فيهما مع الوقاحة. وكانت الأميرة تنظر بانتباه إلى الأمير بازيل، وهي تربت رأس كلبها الصغير، الذي حملته على ركبتيها، بيدين جافتين نحيلتين. بدا أنها لن تقطع الصمت ولو دام يوماً كاملاً. لذلك اضطر الأمير بازيل، بعد صراع داخلي مرير إلى البدء بالحديث. قال:

ـ إصغي إلي يا أميرتي وابنة عمي العزيزة كاترين سيميونوڤنا. يجب على المرء أن يفكر في كل شيء في ظروف كهذه. ينبغي التفكير في المستقبل وفيكن... إنني أحبكن جميعاً كما أحب أبنائي، وأنت تعرفين ذلك.

بقيت الأميرة جامدة الوجه، تتأمله بنظرتها القاتمة. بينما تابع الأمير دون أن ينظر إلى وجهها، بعد أن دفع نضداً صغيراً بحركة عصبية:

ـ وأخيراً يجب أن أفكر في أسرتي. إنك تعرفين، يا كاتيش، أنك أنت وأختيك وزوجتي، الوارثات الوحيدات المباشرات لثروة الكونت. إنني أعرف أنه يصعب عليك البحث في كل هذا، ويؤلمك مجرد التفكير فيه. إن ذلك هو شعوري كذلك. غير أنني يا صديقتي أقترب من الستين، ويجب أن أكون مستعداً لكل شيء. هل تعرفين أنني أرسلت في طلب پيار؟ لقد أصر الكونت على إحضاره وهو يشير إلى صورته.

راح الكونت يتفحصها بعينيه دون أن يتمكن من التأكد أنها تفكر فعلاً في ما قاله لها، أم أنها تنظر إليه نظرة مجردة.

أجابت: لا أطلب إلى الله يا ابن عمي إلا أمراً واحداً، وهو أن يشفق عليه، ويمنح روحه الطاهرة سلامة التحرر من...

فقال الأمير وقد نفد صبره، وهو يمر بيده على رأسه الأصلع، ويعيد النضد بانفعال إلى مكانه الأول: نعم بدون شك. ولكن... ولكن، إنك تعرفين أن الكونت حرّر وصية في الشتاء الأخير، جعل پيار بموجبها الوارث الوحيد لكل ثرواته وأملاكه، حارماً كل الورثة المباشرين الآخرين.

فقالت الأميرة بهدوء: وصايا، لقد حرّر أكثر من وصية! لكنه لم يستطع إقامة پيار وارثاً شرعياً. فپيار ابن طبيعي!

جذب الأمير بازيل النضد إليه، وضغطه إلى صدره بشدة، وراح يتحدث باندفاع وسرعة. قال:

ـ ما رأيك يا عزيزتي إذا كان قد حرّر ملتمساً إلى الأمبراطور؟ إن إقامة شرعية بنوة پيار ستمنح له ولا شك، نظراً إلى خدماته الجليلة السابقة للعرش!

ابتسمت الأميرة ابتسامة الذي يعرف أكثر مما يظن المتحدثون، بينما تابع الأمير ممسكاً بيدها قائلاً: إنني محدثك بأكثر من ذلك. لقد حصل على تأييد جهات مسؤولة متعددة على ملتمسه، لكنه لم يرسله بعد إلى الأمبراطور. غيرأن جلالته أعلم بسير الأمور وبرغبة الكونت. والأمر الآن متوقف على معرفة مصير ذلك الملتمس، وهل أبلغ إلى الأمبراطور أم أتلف. فإذا لم يكن قد أتلف بعد، وقضي الأمر، وتنهّد ليصبغ على عبارة، «قضي الأمر» المعنى الذي يهدف إليه، واطلعوا على وصية الكونت وملتمسه بين أوراقه، فإن رسالته سترفع إلى الأمبراطور بالتأكيد. وسينظر جلالته في طلب الكونت

بعين الاعتبار، ويؤيد شرعية انتساب بيار إلى الكونت، فيصبح عندئذ الوارث الأوحد.

سألت الأميرة التي كانت ضحكتها تنبئ بأنها تصدق كل شيء إلا هذا: والقسم الذي يعود إلينا؟

ـ ولكن يا «كاتيشتي» المسكينة، إن ذلك واضح. سيصبح الوارث الشرعي، فلا يمكن أن تنالي شيئاً. فابحثي إذن عما إذا كانت الوصية والرسالة قد كتبتا، وإذا كانتا قد أتلفتا أم لا. فإذا كانتا منسيتين في مكان ما، لسبب من الأسباب، فيجب اكتشاف مكانهما مهما كلف الأمر لأن...

دون أن تتبدل نظرتها الجامدة، قاطعته الأميرة بابتسامة ساخرة، وصاحت: هراء! إنني امرأة وأنت تعتقد أن كل النساء سخيفات، إن لي من العقل ما يكفي لإقناعي بأن الابن غير الشرعي لا يمكن أن يرث... إنه ابن سفاح.

أرادت بهذه الكلمة أن تبين للأمير حقيقة بيار، لتثبت له فساد نظريته. غير أن الأمير لم يقتنع. قال يناقشها:

ـ ولكن يا كاتيش، كيف لا تفهمين، رغم ذكائك المتقد، أن الكونت إذا منح إذناً يسمح له باعتبار بيار ابناً شرعياً له، فإن هذا يصبح فوراً كونت بيزوخوف، والوارث الأوحد!... فإذا كانت الوصية والرسالة سليمتين لم تتلفا، لن يبقى لك إلا أن تعزي نفسك بأنك قمت بواجبك تجاه الكونت قبل وفاته، إلى آخر ما هنالك، وذلك واضح.

قالت الأميرة، بتلك اللهجة التي تعمد إليها النساء عندما يتعمدن إبراز شيء يعتقدن أن فيه ما يشير إلى الذكاء المفرط أو يتعمدن تجريح الشخص المخاطب به: أنا أعرف أنه حرر وصية. لكني أعرف أيضاً أن تلك الوصية لا قيمة لها. فهل تعتقد أنني حمقاء، يا ابن عمي؟

استطرد الأمير بلهجة منكدة:

ـ إذا كنت قد جئت للقائك، يا عزيزتي كاترين سيميونوڤنا المحبوبة، فإنني لم أهدف إلى مبارزتك بالفكر والدهاء، بل لأتحدث إليك عن مصالحك كما يتحدث المرء مع إحدى قريباته، مع قريبة حقيقية طيبة. إنني أكرر لك للمرة العاشرة يا عزيزتي، إذا كان الملتمس الموجه للأمبراطور، ووصية الكونت لمصلحة پيار، موجودين بين أوراقه، فإنك لا أنت ولا شقيقاتك يمكنكن أن تعتمدن على الإرث.

وإذا كنت لا تصدقينني، يمكنك السؤال من الأشخاص المختصين المسؤولين. لقد تحدثت منذ حين إلى ديمتري أونوويئيتش، وهو محامي الكونت، ولقد أيد رأيي بكليته.

ويمكن أن أفكار الأميرة اتجهت فجأة وجهة جديدة، إذ امتقعت شفتاها الرقيقتان، رغم تلك النظرة الثابتة التي لم تبارح عينيها الشاخصتين. فلما تحدثت، كان لصوتها وقع أدهشها، قبل غيرها، ما اعتراه من تأثر.

تابعت: سيكون الأمر على خير ما يرام، إنني لم أحلم بشيء ولا أحلم بشيء. ثم أبعدت الكلب الصغير من حضنها وراحت تسوي ثنيات ثوبها. وأردفت: هذه هي إذاً مكافأته لأولئك الذين ضحوا بكل شيء من أجله. لا بأس. إن هذا رائع. لست في حاجة إلى شيء، يا أمير.

فاعترض الأمير بازيل على قولها، دون أن تتنازل بالإصغاء إليه.

ـ لكنك لست وحيدة. هناك أخواتك.

ـ كان يجب أن أعرف من قبل أنني لن أحصد في هذا البيت إلا الحسد والرياء والعقوق. نعم، أسوأ أنواع العقوق.

سألها الأمير، وقد عادت التشنجات العصبية إلى وجنتيه، أقوى من المرة السابقة:

ـ هل تعرفين مكان الوصية؟

ـ آه، كم كنت حمقاء! يا لها من حماقة أن يستسلم المرء للناسن ويحبهم ويضحي بنفسه من أجلهم! إن النفوس الدنيئة وحدها، هي التي تنجح في هذه الحياة. إنني أعرف مصدر هذه المزعجات.

حاولت أن تنهض، غير أن الأمير استبقاها، فألقت عليه نظرة غضب، وبدا على وجهها أنها تخلت عن كل حسن ظنها في الجنس البشري.

ـ لم نخسر شيئاً بعد، يا صديقتي. إنك تذكرين، يا كاتيش، أن كل ذلك وقع فجأة، في لحظة غضب، وتحت تأثير المرض، ثم أهمل كل شيء ونسي. وواجبنا يا عزيزتي هو تصحيح هذه الخطيئة، وتخفيف عذاب ساعته الأخيرة، بأن نسمح له بإبطال هذه الظلامة، وألّا ندعه يموت وهو يفكر في أنه تسبب بآلام الناس وتعاستهم...

فعقبت كاتيش متممة حديثه: الناس الذين ضحوا بكل شيء من أجله...

وحاولت النهوض من جديد، فعاد الأمير يستوقفها مرة أخرى. أردفت وهي تتنهَّد: هذا هو الأمر الذي لم يقدره حق قدره البتة...

ثم أضافت:

ـ حسناً يا ابن عمي، إن هذا يعلمني بأنه ليس في هذا العالم مجال لانتظار المكافآت، بعد أن حرم العالم من الشرف والعدل. إن هذا العالم الدنيء ملك للخبثاء.

ـ هيا هدئي روعك. إنني أعرف قلبك الطيب:

ـ آه، كلا إنني لست طيبة.

كرر الأمير:

ـ أنا أعرف قلبك الطيب، وأقدر صداقتك، وأرجو أن تبادليني هذا الشعور الطيب. إهدئي ولنتحدث بتعقل، ما دام الوقت لم يدركنا بعد. لعل أمامنا يوماً كاملاً وقد تكون ساعة واحدة. حدثيني بكل ما تعرفينه عن الوصية. اذكري لي أين هي، إذ يجب أن تكوني على علم بذلك. سوف نطلع الكونت

عليها. لعله يكون قد نسيها، فيبدي رغبة في إتلافها. إعلمي جيداً أن رغبتي الصحيحة هي تنفيذ إرادته بكل أمانة وإخلاص، ومن أجل ذلك جئت إلى هنا؛ لقد أتيت لأساعدك وأساعده معاً!

ـ فهمت كل شيء الآن. أنا أرى الجهة التي تسبب كل هذه المضايقات، نعم إنني أرى بوضوح.

ـ لكن الأمر لا يتعلق بذلك، يا عزيزتي.

ـ إنها محميتك، عزيزتك الأميرة دورپيتسكوي، تلك المخلوقة اللعينة، تلك المرأة الذرية التي لا أرتضي بمثلها وصيفة لي...

إننا نضيع الوقت سدى...

ـ دعك من هذا! لقد تسللت إلى هنا في الشتاء الفائت، وروت للكونت عنا جميعاً أكاذيب مروعة، وبصورة خاصة عن صوفي، حتى إنني أخجل من إعادة أقوالها. فنجم عن ذلك أنه رفض رؤيتنا خلال مرضه، ولبث يبعدنا عنه خمسة عشر يوماً. أنا واثقة أنه كتب تلك الوصية الجائرة في تلك اللحظة. ولقد ظننت بكل سخف أن لا قيمة لها!

ـ ها قد وصلنا إلى النقطة الهامة. لمَ لمْ تحدثيني بهذا الأمر من قبل؟

ـ إن الوصية في حافظة أوراق جلدية، مع تعليمات أخرى. والحافظة موضوعة تحت وسادته. وعقبت الأميرة متغاضية عن الردّ على سؤال الأمير:

إنني الآن أرى الأمر بوضوح.

وصرخت غاضبة وقد خرجت عن طورها:

ـ إذا كنت أعترف بخطيئة أحمل وزرها، فإن خطيئتي الوحيدة ستكون الحقد الذي أحمله لتلك الحقيرة. ماذا تفعل هنا؟ لمَ تدخل إلى هذا المكان؟ إنني أسألك! ولكن صبراً، سوف أقول لها رأيي فيها، ولن أتحدث بصوت خفيض!

الفصل الثاني والعشرون

كانت عربة پيار التي أرسلت لنقله تقله وبصحبته أنّا ميخائيلوڤنا، التي قررت مرافقته، واعتبرت ذهابها معه ذا منفعة لها. بينما كانت الأحاديث تدور والمؤامرات تحاك في قاعة الاستقبال وغرفة الأميرة في فندق الكونت بيزوخوف. دخلت العربة فناء الفندق، ومرت على الطريق المفروش بالتبن، فخفت ضجيج عجلاتها. ولاحظت أنا ميخائيلوڤنا أن رفيقها الذي كانت تتوجه إليه بعبارات التعزية نائم في ركنه، فأيقظته وترجلت من العربة بصحبته. ولما صحا پيار، راح يفكر للمرة الأولى في المقابلة التي ستتم بينه وبين المحتضر.

لاحظ أن العربة وقفت أمام سلم الخدم بدلاً من وقوفها أمام المدخل العام. ولما ترجل منها بدوره، لاحظ أن رجلين في ثياب مدنية اختفيا مسرعين في ظلال الجدار. فتوقف لحظة، أتاحت له أن يرى عدداً آخر من الرجال، مختبئين في فراغات الأبواب وخلف الأعمدة. لكنه لم يعرهم التفاتاً، أسوة برفيقته أنا ميخائيلوڤنا وبالخادم المرافق.

وشعر الرجال المختفون كذلك بلا مبالاة القادمين، فسهل ذلك مهمتهم إلى حد كبير. تبع پيار رفيقته التي كانت تصعد بمرونة السلم الحجري الضيق، الذي ينيره ضوء خافت، وهي تحثه على الإسراع باللحاق بها. وعلى الرغم من أن پيار لم يفهم السبب الذي من أجله كان يذهب لمقابلة المحتضر، ولا الداعي لدخوله عن طريق سلم الخدم، فقد ظنّ أن لهفة أنا ميخائيلوڤنا وثباتها كانا كافيين لكي «يكون الأمر ضرورياً». ولما بلغ منتصف السلم، كاد يسقط

متدحرجاً إلى الأسفل، لاصطدامه بأشخاص يحملون دلاء، كانوا ينزلون السلالم بضجيج وصخب، تحدثهما أحذيتهم العالية. التصق هؤلاء بالجدار ليسمحوا له ولرفيقته بالمرور، دون أن تعبر وجوههم عن أية دهشة، لالتقائهم السادة على سلم الخدم.

سألت أنا ميخائيلوڤنا أحدهم: هل يوصل هذا السلم إلى شقة الأميرات؟

فأجاب الخادم بصوت مرتفع، وكأن المحاذير التي كانت تضطره إلى خفض صوته قد انعدمت: نعم. إن الباب الأيسر يقود إلى جناح الأميرات يا سيدتي الطيبة. ولما وصلا إلى البسطة، قال پيار متسائلاً: لعل الكونت لم يستدعني. ماذا لو قصدت إلى غرفتي الآن؟

توقفت أنا ميخائيلوڤنا لتسمح لـپيار باللحاق بها، وقالت وهي تلمس ذراعه كما فعلت منذ ساعات مع ابنها:

ـ آه، يا صديقي! ثق إنني أتألم مثلك. ولكن كن رجلاً.

فقال پيار، وهو ينظر إليها بوداعة خلال نظارتيه: الحقيقة إنني أحسن صنعاً بالذهاب إلى غرفتي والانسحاب فوراً.

انس الإساءات التي حدثت معك، واذكر أنه أبوك... ولعله في النزع الأخير وأطلقت زفرة، لقد أحببتك من فوري كما أحب ابني. فثق بي يا پيار، ولن أنسى مصالحك.

لم يفهم پيار شيئاً من مرامي حديثها، لكنه ازداد اقتناعاً بأن الأمر «يجب أن يكون كذلك». تبعها بدعة، وكانت قد شرعت تفتح الباب.

كان الباب يؤدي إلى ردهة، وقف في إحدى زواياها خادم الأميرات العجوز، ينسج جورباً من الصوف. لم يكن پيار قد دخل من قبل هذا الجزء من الفندق، أو فكر في وجوده. وظهرت وصيفة تحمل زجاجة ماء على طبق. فتقدمت أنا ميخائيلوڤنا منها، وسألتها عن غايتها، وهي تكرر عبارات:

«أيتها الطيبة وعزيزتي». استفسرت عن صحة سيداتها، ثم قادت پيار عبر ممرّ مرصوف بالبلاط، كان الباب الأيسر فيه يؤدي إلى غرفة الأميرات. وكانت الوصيفة في عجلتها، والعجلة كانت على أشدها ذلك اليوم في الفندق، قد نسيت إغلاق ذلك الباب عندما خرجت منه، مما أتاح لـپيار ولأنا ميخائيلوڤنا، أن يلقيا نظرة لا إرادية على الغرفة ومحتوياتها.

شاهدا الأمير بازيل، يتحدث بصوت خفيض وباهتمام بالغ مع كبرى الأميرات. فلما وقع نظرهما على القادمين، ألقى الأمير نفسه إلى الوراء بحركة تدل على نفاد الصبر، بينما نهضت الأميرة فجأة، وصفقت الباب بقوة وغضب.

تلك الحركة تنافي الهدوء الطبيعي، الذي كانت كاتيش تظهر عليه عادة، وكذلك كان رعب الأمير لا يتفق مع هدوئه وخطورة حركاته، حتى أن پيار شعر بالفرق الشاسع، فوقف يسائل رفيقته بنظره. أما أنا ميخائيلوڤنا، فإنها لم تعرب عن أية دهشة بل اجتاحت وجهها ابتسامة غامضة، كانت إلى جانب الزفرة الثائرة التي ندّت عن صدرها، كل ما يشهد بأنها كانت تتوقع كل هذه الأمور.

قالت، وهي تسرع الخطى: كن رجلاً، يا صديقي. سوف أسهر بنفسي على مصالحك.

بقي پيار لا يفقه من تلك المعضلة شيئاً. كان يتساءل في سره: ماذا تريد أن تقول بعبارة: «سأسهر على مصالحك»؟ ولما لم يجد جواباً اكتفى بالقول: «إن الأمر يجب أن يكون كذلك».

وصلا إلى قاعة كبرى نصف مضاءة تتصل بقاعة استقبال الكونت عبر الممشى. كانت من تلك القاعات الفخمة التي يعرفها پيار جيداً والتي لم يكن قد دخل إليها إلا عن طريق السلم الكبير. وكان في وسط تلك القاعة مغطس فارغ، وكان الماء مسفوحاً على قطع السجاد حوله. مرا وهما في طريقهما

يمشيان على رؤوس أقدامهما، بخادم وشماس يحمل مبخرة. لكن هذين لم ينتبها إليهما. وأخيراً دخلا إلى قاعة الاستقبال التي يعرفها پيار تماماً والتي تمتاز بنافذتين على النمط الإيطالي ومخرج يؤدي إلى الحديقة الشتوية. وكان تمثال نصفي لكاترين الثانية يجثم فوق قاعدة من الرخام وصورة الكونت مسندة إلى قدمي الأمبراطورة الكبيرة.

وكان في القاعة جمع غفير من الناس يتحدثون بأصوات منخفضة، فلما دخلا توقف المتحدثون عن متابعة أحاديثهم وصوبوا إليهما نظراتهم التي راحت تتصفح وجه تلك السيدة الشاحب المهدم بالدموع وإلى جانبها ذلك الفتى الضخم الفارع الطول الذي كان يتبعها بسكون وهو مطرق الرأس.

وحلّت اللحظة الحاسمة فشعت قسمات وجه أنا ميخائيلوڤنا انعكاسات تنذر بحلولها. دخلت دون أن تترك پيار متظاهرة بمظهر السيدة رفيعة الشأن القادمة من پيترسبورغ التي عركتها الأعمال وتسلحت بنشاط جم لم تشعر بمثله من قبل. كانت في تلك اللحظة لا تخاف لقاء أحد، وخصوصاً أنها كانت تصطحب الشخص الذي طلب المحتضر رؤيته. ألقت نظرة سريعة على الحاضرين، فلما وقع نظرها على رجل الدين الذي درج الكونت على الاعتراف أمامه، اقتربت منه بخطى قصيرة متتابعة دون أن تبالغ في الانحناء أو بالتظاهر بشديد التضاؤل أمام مركزه الروحي، فتقبلت بركاته على تلك الصورة المحترمة وبركة مرافقيه من رجال الدين وقالت لهم: حمداً لله لأنكم جئتم في الوقت المناسب. كانت الأسرة تخشى أن يكون الوقت قد أصبح متأخراً...

ثم أضافت بصوت خفيض: إن هذا الشاب ابن الكونت. يا لها من لحظات مروعة!

واقتربت بعد حين من لوران، وقالت له: عزيزي الطبيب، إن هذا الشاب ابن الكونت... فهل هناك أمل؟

رفع الطبيب عينيه إلى السماء وهز كتفيه فكانت تلك الحركات أبلغ من كل جواب. حذت أنا ميخائيلوڤنا حذوه فهزت كتفيها ورفعت إلى السماء عينيها المغمضتين تقريباً، وبعد أن أطلقت تنهيدة عميقة، عادت تلحق بـﭙيار لتقول له بحنان ممتزج بالحزن والامتثال:

ـ لتكن لك ثقة برحمة الله.

وأشارت إلى كنبة رجته أن ينتظرها عليها، ومضت بهدوء إلى الباب الذي كانت الأنظار كلها شاخصة إليه، ففتحته بحذر وأغلقته وراءها.

مضى ﭙيار إلى الكنبة التي أشارت إليها زميلته وقرر أن يطيعها في كل ما تريد. وما كادت أنا ميخائيلوڤنا تخرج من غرفة المحتضر، حتى تعلقت الأنظار بها متطفلة ومشفقة. ورأى ﭙيار أن كل الموجودين يتهامسون ويشيرون إليه بطرف العين في شيء من الخوف واللوم. شعر بهم يظهرون نحوه عناية لم يعهدها من قبل: فالسيدة المجهولة منه، التي كانت مع رجال الدين، نهضت لتقدم له مكانها، والضابط المساعد التقط قفازه الذي سقط من يده وقدمه إليه، والأطباء سكتوا عند اقترابه، وفسحوا له في الطريق باحترام. أحبّ ﭙيار بادئ الأمر أن يجلس في مكان آخر كي لا يزعج السيدة، وأراد أن يلتقط بنفسه قفازه، وتمنى لو تجنب لقاء الأطباء الذين لم يعترضوا سبيله، لكنه شعر فجأة بشعور غامض يوحي بأن من اللباقة أن تمر تلك الليلة بسلام، وأن يقوم خلالها بالأدوار التي تفرضها الظروف عليه، والتي ينتظرها الجميع منه، وبالتالي أن يتقبل من جميع الموجودين هذرهم وتعزياتهم.

وإذاً فقد سمح للضابط أن يعيد إليه قفازه وجلس في المكان الذي أخلته السيدة مباعداً بين يديه في جلسة بريئة تشبه وضع التماثيل المصرية. قرر في

نفسه أن كل هذه الأمور يجب أن تمر على هذا النحو وأنه، تجنباً لأي تصرف أخرق من ناحيته، يجب أن يتحاشى ذلك المساء كل ابتكار أو رغبة شخصية وأن يقنع بإطاعة من يوجهونه إطاعة عمياء.

دخل الأمير بازيل بعد دقيقتين مرفوع الرأس وعلى صدره ثلاثة أوسمة ذهبية. كان يبدو كأنه قد ازداد هُزالاً منذ حين، وكانت عيناه أكثر اتساعاً من جري العادة عندما راح يديرهما في القاعة ليعثر على پيار فلما وقعت عيناه عليه، اتجه نحوه مباشرة وأمسك بيده، وهو الأمر الذي لم يتعطف قطّ بعمله من قبل، هزّها بعنف كأنه يختبر مدى مقاومته وقال له:

ـ تشجع، يا صديقي. لقد طلب رؤيتك. وهذا أمر جيد.

تمنى الأمير بازيل أن يبتعد، لكن پيار ظنّ أن من المناسب أن يطرح عليه سؤالاً فقال: كيف حال صحة...؟

تردَّد قليلاً وهو لا يدري هل يجدر به أن يقول الكونت أو يقول أبي.

ـ لقد أصيب بنوبة جديدة منذ نصف ساعة. نعم لقد أصيب بنوبة جديدة، فتشجع يا صديقي...

واستعمل الكونت كلمة «ضربة» للدلالة على النوبة. لذلك فقد بقي پيار فترة طويلة وهو يعتقد أن الأمير بازيل أراد بكلمته معناها الحقيقي. كان عقله شديد الاضطراب قاصراً في تلك اللحظة عن إدراك مرمى تلك الكلمة، لذلك راح ينظر إلى الأمير بهلع حتى تبينت له أخيراً الغاية الحقيقية من تلك الكلمة.

ومضى الأمير بازيل على أطراف قدميه، بعد أن تبادل كلمة مع الطبيب لوران إلى غرفة المحتضر. وكانت تلك الطريقة في المشي جديدة عليه حتى أن كل جسمه راح يهتز تبعاً لخطاه. وجاءت كبرى الأميرات فتبعته وفي أعقابها عدد من الكهنة والشمامسة ورجال الكونت. وحدثت ضجة وراء

الباب. وفجأة خرجت أنا ميخائيلوفْنا، وهي شاحبة الوجه، تحمل قسماتها طابع الشعور بالواجب، فأسرعت إلى پيار ولمست ذراعيه وهي تقول:

ـ إن الرحمة الإلهية لا تنفد ولا تنضب، ستقام الآن طقوس المسحة الأخيرة، فتعال.

تقدّم پيار بضع خطوات على السجادة السميكة، وبينما كان يجتاز الباب رأى الضابط المساعد، والسيدة المجهولة، وعدداً من الخدم يتبعونه وكأن الأمر قد أصبح في تلك اللحظة في غير حاجة للاستئذان.

الفصل الثالث والعشرون

تلك الغرفة الفسيحة التي تغطي أرضها قطع السجاد العجمي الفخم والتي قسمت قسمين بقوس مرتكز على أعمدة. كان پيار يعرف تلك الغرفة جيداً. وكان ضوء أحمر قوي، نور كنسي مثل الذي ينبعث خلال صلاة المساء، يضيء أقصى الغرفة المؤثثة بسرير كبير من خشب الأكاجو «شجرة كابلي» ذي ستائر حريرية، وبخزانة كبيرة محاطة بالصور. وتحت الإيقونات التي كانت زينتها الثمينة تلتمع تحت الأضواء كانت هناك كنبة كبيرة من نمط «ڤولتير» وقد غطي مسندها بالوسائد التي كانت أغلفتها النظيفة قد أبدلت منذ حين بأخرى جديدة. وعلى تلك الوسائد البيضاء كالثلج سُجّي جثمان الكونت بيزوخوف وقد لف حتى وسطه بغطاء أخضر نضير اللون. نظر پيار إلى ذلك الوجه النبيل، ذي الجبين العريض، الذي تحيط به هالة متناسقة من الشعر الأبيض، وإلى تلك القسمات التي يعلوها الاصفرار المشوب بحمرة خفيفة، والتي حفرت فيها التجاعيد أخاديد عميقة واضحة.

كانت يدا الكونت القويتان مسدلتين على الغطاء وراحتاهما إلى الأسفل. فركز بعضهم بين سبابته وإبهامه الأيمن شمعة أسندها خادم عجوز انحنى فوق المقعد. بينما أحاط الكهنة بالمقعد وهم يرتدون الألبسة المزينة، وكانت شعورهم تنسدل تحت تيجانهم المرصعة التي كانت على رؤوسهم. أخذوا يرتلون والشموع في أيديهم، ويطوفون ببطء ووقار. جلست الأميرتان وراء هذا الحفل، وفي يد كل منهما منديل تخفي به عينيها، بينما انتصبت أمامها

أختها الكبرى كانيش وعلى وجهها علامات العزم والدهاء، وراحت تنظر بدقة إلى الإيقونات وكأنها تريد القول بأنها إذا أشاحت ببصرها عما تنظر إليه فإنها لا تستطيع أن تسأل عما يصدر عنها. بقيت آنّا ميخائيلوڤنا شديدة الوقار واقفة أمام الباب وإلى جانبها السيدة المجهولة.

وقف الأمير بازيل من الجانب الآخر من ذلك الباب، على مقربة من الكنبة وراء مقعد مزين بالنقوش المحفورة ومغطى بالقطيفة، وقد أدار مسنده إلى ناحيته وأسند يده اليسرى إلى المسند حاملة شمعة مضاءة، بينما كانت يمناه ترسم إشارة الصليب على صدره كلما رفع عينيه إلى السماء أو لمس جبينه بيده.

كان وجهه ينبئ بخشوع واستسلام لمشيئة الله وكأنه كان يقول: «إذا كنتم تدركون شيئاً من هذه المشاعر فذلك شأنكم». ووقف وراءه الضابط المساعد والأطباء والذكور من الخدم يتزاحمون. لقد انتحى الرجال والنساء جانباً آخر كما في الحال في الكنيسة.

كان الحاضرون جميعاً يرسمون إشارات الصليب على صدورهم، فلا يسمع المرء إلا صلوات وطقوساً وترتيلاً خافتاً عميقاً متناسقاً تليه بين فترة وفترة زفرات وحركات أقدام. أعربت آنّا ميخائيلوڤنا عن أنها تفهم وتعي ما تفعل. اجتازت الغرفة الفسيحة حتى بلغت موقف پيار فأعطته شمعة أشعلتها له وراح، مأخوذاً بالملاحظات التي كان يلتقطها على وجوه الموجودين، يرسم بدوره على صدره إشارة الصليب مقتدياً بالآخرين.

كانت «صوفي» الأميرة الشابة ذات «الحسنة» والخدين الورديين واللهجة الساخرة، تتأمل پيار مبتسمة وتخفي وجهها وراء منديلها. عادت بعد فترة طويلة ترفع نظرها إليه ثم تضحك من جديد. كان يبدو عليها أنها لا تستطيع الامتناع عن النظر إليه ولا أن تنظر إليه دون أن تفقد وقارها، لذلك

فقد تسللت من مكانها واختبأت وراء أحد الأعمدة لتحمي نفسها من الإغراء ومعاودة الكرة.

توقف المرتلون فجأة بينما كان الطقس الديني في أوجه، وراحوا يتهامسون بينما التفت الخادم العجوز الذي كان يسند يد الكونت نحو السيدات ونهض واقفاً، فاقتربت آنّا ميخائيلوڤنا وانحنت فوق المحتضر وأشارت بإصبعها من وراء ظهرها إلى لوران أن يقترب. كان الطبيب الفرنسي مستنداً إلى أحد الأعمدة يرقب الحفل الديني دون أن يحمل في يده شمعة شأن ذوي الأديان المختلفة الذين يقدرون رغم اختلاف دينهم قيمة ما يدور أمامهم من شعائر يؤيدونها بشعورهم الديني دون أن يؤمنوا بها.

اقترب الطبيب بخطوات ثابتة ساكنة، خطوات الرجل الذي في مقتبل العمر، وانحنى على المريض فأخذ يده بين أصابعه البيضاء المعقدة وراح يتحسس النبض بصمت وانتباه. أسقي المريض شراباً. ثم عاد كل إلى مكانه، وعاد الكهنة إلى إحياء طقسهم الديني. لاحظ پيار أن الأمير بازيل ترك مكانه خلال تلك الفترة وبدلاً من أن يتجه نحو المريض مر من أمامه واقترب من كبرى الأميرات، وبعدئذ توجه كلاهما إلى السرير الكبير الضخم ذي الستائر الحريرية الذي كان يتوسَّط القاعة، واختفى كلاهما وراء باب المضجع ثم عاد كلاهما الواحد وراء الآخر حوالى نهاية الحفلة، ومضيا كل إلى مكانه. وكان پيار مقتنعاً بأن كل ما يدور أمامه ذلك المساء لا يمكن إلا أن يكون كذلك. ولهذا السبب لم يعلق على تلك الحركة وذلك التصرف أية أهمية تذكر.

اقترب أحد الكهنة من الكونت وتوقف الترتيل الديني، وهو في استلقائه لا يفضح بادرة واحدة من بوادر الحياة، فهنأه بالقداس الذي أقيم له وتكأكأ الموجودون كلهم حول الكونت. وسمع پيار ضجيج الأقدام وهمسات يطغى عليها صوت آنّا ميخائيلوڤنا وهي تقول:

يجب نقله إلى سريره إذ لا يمكن إجراء شيء وهو في مكانه هذا!...

وأحاط الأطباء والأميرات والخدم بالمريض إحاطة كلية، حتى أن پيار لم يعد يرى رأسه الشاحب المضرج بحمرة خفيفة والمكلل بشعر أبيض، ذلك الرأس الذي ظل ينظر إليه طوال الاحتفال الكنسي رغم أن نظرته كانت في كثير من الأحيان شاردة، خمن من حركات الأشخاص حول الكنبة أنهم يحملون المحتضر لنقله إلى سريره، وسمع صوت أحد الخدم يغمغم:

ـ أمسك بذراعي، سوف تدعه يسقط...

وأصواتاً أخرى تقول:

ـ من الأسفل... واحد آخر...

وارتفعت أصوات الخطى واللهثات وكأن الحمل كان أثقل من طاقة الحمالين.

مرّ حاملو الجثمان ومن بينهم أنّا ميخائيلوڤنا أمام پيار الذي تمكّن أن يلقي نظرة خاطفة من فوق الأعناق، فرأى هالة الشعر الأبيض الأجعد الذي يحيط برأس الكونت وكتفيه المتينتين العريضتين، وصدره المتسع الممتلئ وهم يحملونه من تحت إبطيه. كان دنو الموت لم يبدل شيئاً من ذلك الرأس الذي لا يختلف أبداً عن الذي رآه پيار منذ نيف وثلاثة أشهر عندما غادر موسكو إلى پيترسبورغ مع فرق واحد، وهو أنه كان في تلك اللحظة يهتز وفق خطوات حامليه، وكانت نظرته الحائرة الشاردة لا تعرف أين تتوقف.

عندما وصلت أنّا ميخائيلوڤنا، تعالى ضجيج خلال دقائق حول السرير ثم ابتعد الناس، فتلمّست ذراع پيار وقالت له: تعال. فتبعها حتى السرير حيث أجلس المريض عليه بشكل أدعى للاحترام والوقار، شكل يتناسب والطقس الديني الذي أجري له منذ حين. وكان عدد من الوسائد قد رصت وراءه لتجعل جذعه منتصباً، بينما بسطت يداه على طول راحتيهما فوق الغطاء الحريري

الأخضر على مسافة إحداهما من الأخرى. فلما اقترب پيار حدجه الكونت بنظرة من تلك النظرات التي لا يمكن لكائن حي في الدنيا أن يحدد قيمتها، فهي إما أنّها لا تعني شيئاً مطلقاً أكثر من حاجة الإنسان الذي يضطر إلى فتح عينيه أن يلقي ببصره إلى جهة ما، وإما على العكس، أن تكون محملة بالمعاني مفعمة بها.

توقف پيار متردداً لا يدري ماذا يفعل في ذلك الموقف، والتفت إلى رفيقته مستفسراً. فأشارت إليه بنظرها إلى المحتضر وزمت شفتيها على شكل قبلة، فتبع پيار النصيحة ومد عنقه على مهل متجنباً المس بالغطاء، وألصق شفتيه بيد المريض المكتنزة. لم تتحرك اليد ولم تتقلص عضلة واحدة في وجه المريض فعاد پيار يستشير أنّا ميخائيلوڤنا، التي أومأت له أن يجلس على المقعد قرب السرير فجلس عليه متأثراً، وعاد إلى الاستفسار بالنظر من أنا ميخائيلوڤنا عما إذا كان أحسن صنعاً بما فعل وفهم مرادها، فلما هزت له رأسها موافقة عاد إلى جلسته الكهنوتية الساذجة الشبيهة بالتماثيل المصرية وهو آسف جداً لرؤية جسمه الضخم يشغل كل هذا الفراغ، يحاول الظهور في أصغر حجم ممكن. ولما رفع عينيه إلى وجه الكونت، رأى أن هذا يحدق بثبات إلى المكان الذي غادره منذ حين محمولاً.

وأما أنّا ميخائيلوڤنا فكان مظهرها يدل على الأهمية البالغة التي تقلقها على تلك المقابلة النهائية بين الأب والابن، وبعد دقيقتين خالهما پيار ساعتين طويلتين، انتفض وجه الكونت الأجعد فجأة وازداد تقلصاً، والتوى فمه الجميل محدثاً صوتاً أجش غير واضح، وعندئذ فقط فهم پيار أن أباه على وشك الموت. راحت أنا ميخائيلوڤنا تتفحص حدقة المحتضر محاولة معرفة رغبته من نظرته. أشارت بيدها إلى پيار ثم إلى الشراب فالغطاء وغمغمت بصوت منخفض تلفظ اسم الأمير بازيل. غير أن قسمات وجه المريض وعينيه

كانت توحي بنفاد الصبر. قام بمجهود جبار لينبه الخادم الذي كان لا يفارق سريره من جهة القدمين.

غمغم الخادم: إن سعادته يرغب في أن نقلبه على جنبه الآخر.

وبدأ يحاول القيام بتلك المهمة الشاقة التي تقتضيه تحريك جسد ضخم كبير فاقد الإحساس، فنهض پيار ليساعده في مهمته.

وبينما كان پيار والخادم يبدلان وضعية الكونت، راح هذا يحاول عبثاً جذب ذراعه التي بقيت منسدلة لا حياة فيها وراء ظهره. ولعل المريض شاهد نظرة الذعر التي ألقاها پيار على ذراعه المشلولة أو أن فكرة أخرى خطرت في باله، لأنه راح يتأمل ذراعه الجامدة ثم وجه پيار المذعور ليعود بنظره إلى ذراعه. وأخيراً افتر ثغره عن ابتسامة غامضة لم تكن تتفق مع طالعه النشيط، بل تبدو سخرية مرة من عجزه التام. شعر پيار فجأة بانقباض في صدره ودغدغة في أنفه، وما لبثت الدموع أن انهمرت من عينيه.

في تلك اللحظة كان الكونت مستديراً بوجهه إلى الجدار يتأوه.

ووصلت إحدى الأميرات تحل محل أنا ميخائيلوڤنا، فقالت هذه لـپيار:

ـ لعله أغفى قليلاً، هيا بنا!

فتبعها پيار صامتاً.

الفصل الرابع والعشرون

كان الأمير بازيل وكبرى الأميرات وحدهما في القاعة الكبيرة، وكانا جالسين قرب لوحة كاترين الثانية يتحادثان بحمية. لكنهما توقفا عندما شاهدا پيار ورفيقته.

غمغمت الأميرة: لا أستطيع رؤية هذه المرأة.

وخيل لپيار أن الأميرة أخفت شيئاً ما.

قال الأمير مخاطباً أنا ميخائيلوڤنا: إن كاتيش تقدم الشاي في القاعة الصغيرة فاذهبي إلى هناك يا أنا ميخائيلوڤنا وتناولي شيئاً، وإلا فلن تصمدي يا صديقتي المسكينة.

ولم يوجه كلمة واحدة إلى پيار، لكنه ضغط على ذراعه بحنان أسفل الكتف. واقتادت أنا ميخائيلوڤنا پيار إلى الغرفة الصغيرة...

كان الطبيب لوران واقفاً أمام طاولة محملة بأدوات الشاي وألوان الطعام الباردة، وقد انتظم حولها كل الأشخاص الذين قضوا الليل في الفندق. قال الطبيب وهو يفرغ كأسه الرقيقة المصنوعة من الخزف الصيني بجرعات صغيرة:

ـ ليس هناك ما يشحذ الهمة بعد ليلة بيضاء أكثر من قدح من هذا الشاي الروسي الممتاز.

كان يتحدث بحيوية دون أن يبدو عليه شيء مما يعتلج في صدره. تذكر پيار تلك القاعة الصغيرة المستديرة ذات المرايا والنضد. تذكر أنه كان في

السنوات القديمة الماضية، عندما كان الكونت يحيي حفلات راقصة، يفضل الجلوس في هذا المكان ليراقب السيدات وهن في أبهى زينتهن، عندما يخطين بتيه أمام تلك المرايا التي تحيط بها أضواء مشعة، فيتأملن هندامهن وأكتافهن العارية، وأعناقهن التي تحيط بها الجواهر والماسات الفاخرة الثمينة، فتنعكس الأضواء عليها وتشع إشعاعات تخطف الأبصار. ورأى أن شمعتين بسيطتين كانتا تضيئان تلك القاعة الصغيرة بالذات بدلاً من أنوار أمس الساطعة، وأن أقداحاً وصحافاً مبعثرة على تلك النضد التي يحيط بها أشخاص من كل نوع، مرتدين الألبسة العادية، يهمسون في الظلام وهم يبرهنون بأقوالهم وإشاراتهم على أنهم لم ينسوا بعد الحدث الأليم الذي وقع منذ حين في غرفة النوم المجاورة. لم يأكل پيار شيئاً رغم شهيته القوية.

وبينما كان يلتفت إلى آنّا ميخائيلوڤنا ليسألها بنظرة كعادته، رآها تسير على أطراف قدميها نحو القاعة الكبيرة، فقدر من جديد أن الأمر «يجب أن يكون كذلك»، وقرر بعد لحظة تردد أن يتبعها. ولما تخطى الباب، رآها منتصبة أمام كاتيش وهي محتدمة معها بنقاش عنيف بصوت خفيض. كانت السيدتان تتكلمان معاً في وقت واحد.

قالت كاتيش، وهي مضطربة كما كانت منذ حين عندما صفقت الباب في وجه آنّا ميخائيلوڤنا: اسمعي، يا أميرة... أظنني أعرف ما هو محتشم وما هو غير محتشم.

غير أن آنّا ميخائيلوڤنا أجابت ملمّحة، وهي تقف بين مخاصمتها والطريق إلى غرفة النوم:

ـ فكري يا عزيزتي في إن تصرفك سيزعج عمنا المسكين الذي هو في أمسّ الحاجة إلى الراحة! إن التحدث معه في مثل هذا الوقت عن أشياء تخص هذا العالم بينما هيئت روحه للصعود إلى العالم العلوي...

كان الأمير بازيل جالساً على مقعده لافاً ساقاً على ساق كعادته، وكان حذاءاه المترهلان ينتفضان بحركات تشنجية، وقد اتخذا شكلاً غريباً، فكانا يبدوان عند أسفلهما أكثر عرضاً من حالتهما الطبيعية. وفيما عدا ذلك، كان يبدو عليه عدم الاهتمام بحديث السيدتين. قال:

ـ هيا، يا آنّا ميخائيلوڤنا الطيبة، دعي كاتيش وشأنها. إنك لا تجهلين مدى حب الكونت لها.

فقالت كاتيش تخاطب الأمير بازيل، وهي تشير إلى حافظة جلدية مرصعة كانت ممسكة بها في يدها: أنا لا أعرف شيئاً عما جاء في هذه الورقة. على كل حال إن الوصية الحقيقية موجودة في مكتب الكونت. أما في هذه الحافظة، فكل ما فيها عبارة عن ورقة لا قيمة لها.

وحاولت أن تتخطى آنّا ميخائيلوڤنا. لكن هذه قفزت قفزة كبيرة ولحقت بها، وعادت مجدداً تمنعها من متابعة السير.

قالت، وهي تستحوذ على الحافظة الجلدية بيد ثابتة تفصح بأنها لن تتخلى عنها بسهولة: إنني أعرف ذلك يا عزيزتي، يا أميرتي الطيبة، ولكني أرجوك بل أتوسل إليك أن لا تزعجي الكونت، وأن توفري عناء ذلك عليه. أستحلفك الله.

فضلت كاتيش ألّا تجيب لأنها لو فتحت فهمها لما نطقت بدون شك بكلمات ترضي آنّا ميخائيلوڤنا، لذلك قام بين المرأتين نضال صامت حول ملكية الحافظة، كانت آنّا ميخائيلوڤنا خلاله تقاوم بشراسة بينما بقي صوتها محتفظاً بلهجته المهذبة. هتفت تقول:

ـ پيار يا صديقي، تعال... أعتقد أنه ليس غريباً عن هذا الأمر العائلي. ما رأيك، يا أميري؟

صاحت كاتيش فجأة، بصوت راعد، بلغت أصداؤه مسامع كل من كان في القاعة الصغيرة فأفزعت السامعين:

ـ ماذا يا ابن عمي، إنك لا تقول شيئاً! تحتفظ بالصمت بينما يعلم الله بأمر من يتدخل في شؤوننا، ويسمح لنفسه بإثارة فضائح على عتبة المحتضر!...

وتابعت بصوت غاضب: أيتها الدساسة!

وجذبت بكل قواها حتى أن آنّا ميخائيلوڤنا اضطرت أن تخطو إلى الأمام بضع خطوات وتقبض على ذراع الأميرة خشية أن تفلت الحافظة من يدها.

صاح الأمير بازيل باستغراب واستنكار: أوه! إن هذا شاذ! دعي الحافظة أقول لك!

فأطاعت كاتيش ذلك الأمر الحاسم وصاحت: أنت أيضاً!

لكن آنّا ميخائيلوڤنا لم تخضع للأمر. فقال الأمير:

ـ دعي ذلك أقول لك. إنني أتكفل بكل شيء. سأذهب بنفسي لرؤيته وسأسأله... نعم، أنا!... يجب ألّا تتقي بذلك.

فاعترضت آنّا ميخائيلوڤنا: ولكن يا أميري، لقد أقيم له منذ حين أكبر طقس ديني، فدعه في راحة. ما رأيك، يا پيار؟

كان الفتى قد اقترب منهما وراح ينظر بذهول إلى وجه الأميرة المنقلب السحنة، وخدي الأمير المتقلصين.

صرخ الأمير بازيل بحزم وقسوة: ستكونين مسؤولة عن كل ما يحدث. فكري في ذلك. إنك لا تعرفين ماذا تفعلين.

وصرخت كاتيش:

ـ أيتها المرأة الملعونة!

ثم ارتمت فجأة على آنّا ميخائيلوڤنا، وانتزعت الحقيبة من يدها. فأطرق الأمير بازيل برأسه وسقط ذراعاه إلى جانبيه.

فتح الباب في تلك اللحظة، ذلك الباب الرهيب الذي استأثر طويلاً بنظرة پيار، والذي كثيراً ما كان يوارب بهدوء، فتح في تلك اللحظة بعنف حتى اصطفق بالجدار. وظهرت ثاني الأميرات التي أسرعت إليهم وهي تضرب كفاً بكف وتصيح:

ـ ماذا تفعلون! إن الكونت يموت، ومع ذلك تتركونني وحيدة.

سقطت الحافظة من يدي كاتيش، فانحنت آنّا ميخائيلوڤنا مندفعة والتقطتها بقوة وركضت إلى غرفة النوم؛ فتبعها الأمير وكاتيش بعد أن سيطرا على اضطرابهما. ولم تمض لحظات، حتى غادرت كاتيش غرفة النوم شاحبة الوجه ممتقعته، تعض شفتها السفلى. فلما وقع نظرها على پيار، لم تستطع السيطرة على غضبها فصرخت في وجهه قائلةً:

ـ لينشرح صدرك. هذا الذي كنت تريده.

واختنق صوتها بالعبرات، فأخفت وجهها بمنديلها، وركضت مبتعدة.

وظهر الأمير بازيل بدوره مترنحاً في مشيته، وارتمى على الكنبة التي كان پيار جالساً عليها، وهو يحجب عينيه بيده. ولاحظ پيار أن وجهه شديد الارتعاش وأن ذقنه كانت ترتعد وكأنه واقع تحت تأثير حمى خبيثة.

قال الأمير، وهو يمسك بمرفق پيار: آه، يا صديقي!

كان صوته ينبئ بنبرة إخلاص وصراحة لم يعهد پيار مثلها فيه من قبل. وتابع الأمير يقول: آه يا صديقي، كم من خطيئة ترتكب وخدعة ودسيسة. وكل ذلك من أجل ماذا؟ لقد تجاوزت الستين، يا صديقي... وإنني... إن كل شيء ينتهي بالموت، كل شيء... والموت يا صديقي أمر رهيب.

اختنق صوته بموجة من البكاء والدموع.

خرجت آنّا ميخائيلوڤنا من الغرفة بدورها، واقتربت من پيار بخطوات خافتة وقالت تناديه:

ـ بيار.

فنظر إليها بيار مستفسراً، وإذا بها تنحني على جبينه تقبله وتبلله بدموعها. وقالت بعد لحظة سكوت: لقد قضى...

راح بيار يحدق إلى وجهها خلال نظارتيه، بينما أردفت تقول:

ـ ها، سأصحبك. حاول أن تبكي إذ ليس مثل الدموع ما ينفث الكرب.

قادت بيار إلى غرفة مظلمة، فسرّ هذا عندما رأى أن أحداً لن يرى وجهه، وتركته لحظة هناك ثم عادت لتجده معتمداً رأسه على ذراعه غارقاً في نوم عميق.

وفي صباح اليوم التالي قالت له: إنها خسارة جسيمة حلت بنا جميعاً، نعم يا عزيزي. إنني لا أتحدث عنك. لكن الله سيساعدك لأنك شاب وقد أضحت بين يديك الآن ثروة هائلة. لم تُفتح الوصية بعد. إنني أعرفك معرفة كافية تجعلني متأكدة أن الثروة المنتظرة لن تدير رأسك. لكن ذلك يفرض عليك واجبات جديدة فيجب أن تكون إنساناً.

بقي بيار صامتاً، فتابعت الأميرة تقول:

ـ ربّما أقول في المستقبل إنني لو لم أكن موجودة مساء أمس لكان الله وحده يعلم بما كان سيحدث. لقد كان عمي أول أمس يعدني بأن لا ينسى بوريس. لكنه لم يجد متسعاً من الوقت، فآمل يا صديقي العزيز أن تنفذ رغبة أبيك.

لبث بيار مشدوهاً لا يفهم شيئاً، واكتفى بالنظر إلى آنّا ميخائيلوڤنا وقد احمرَّ وجهه وبان الارتباك على قسماته.

عادت الأميرة دروبتسكوي بعد ذلك اللقاء والحديث، إلى منزل آل روستوف وأوت إلى سريرها. وبعد أن نالت قسطاً من الراحة، راحت تسرد على مدعويها ومعارفها تفاصيل دقيقة عن آخر لحظات الكونت بيزوخوف.

كان المرء، إذا أصغى إليها، يفهم من كلامها أن الكونت مات الميتة التي كانت هي نفسها تتمناها لنفسها، إذ إن نهايته كانت مثيرة للشعور بل عبرة للناس.

أعربت في حديثها عن تأثرها البالغ باللقاء الأخير الذي تم بين الابن وأبيه، حتى أنها لم تتمالك عندما فكرت في ذلك اللقاء من ذرف الدموع. ما كانت ترى أو تستطيع أن تميز الذي تصرف خيراً من الآخر في تلك المناسبة الأليمة: أكان الأب الذي تذكر كل الناس في تلك اللحظة الحاسمة وكل الأشياء المحيطة به، فوجه إلى ابنه كلمات آية في الحنان والعطف، أم پيار الذي صهره الحزن والألم رغم محاولته إخفاءهما بعناية كي يوفر على أبيه مضاعفة آلامه.

كانت أنّا ميخائيلوفْنا تقول: لقد كان المشهد أليماً لكنه لم يخل من الفائدة. إنه يرفع الروح ويسمو بها. إن رؤية رجال مثل الكونت العجوز وابنه البار تهز المشاعر.

وتناولت في حديثها أيضاً تصرفات كاتيش والأمير بازيل بلهجة فيها هجاء وتوبيخ. لكنها في تلك المرة كانت تتحدث بصوت خفيض، وسرية مطلقة.

الفصل الخامس والعشرون

منذ عهد پول الأول، حيث أُبعد الأمير نيكولا أندرييڤيتش پولكونسكي إلى أراضيه، يعيش في الريف مع ابنته ماري والآنسة بوريين الوصيفة المرافقة للأميرة الشابة. كان ينتظر في مقاطعته أليسياغوري أي الجبل الأقرع، وصول الأمير الشاب أندريه وزوجته من يوم إلى آخر، دون أن يغفل مع ذلك النظام الدقيق الذي يتبعه في بيته الكبير الذي يسكن فيه. وقد ظل الجنرال الأعلى، الأمير پولكونسكي، ملك بروسيا كما كان يسميه العارفون في الأرياف معتكفاً منذ ذلك الوقت. فلما فتح له العهد الجديد طريق العاصمتين، ظل مثابراً على انزوائه في أملاكه، زاعماً أن الأشخاص الذين يريدون لقاءه يستطيعون قطع أربعين ميلاً للوصول إليه حيث هو، في مقاطعة الجبل الأقرع. أما هو، فلم يكن في حاجة إلى شيء أو إلى أي شخص.

كان يصرح دائماً بأن البطالة والاعتقادات الخرافية كانت المصدر الأوحد لكل الشرور، وأن الفضيلتين الوحيدتين في العالم هما: الذكاء والعمل. فكان يشرف بنفسه على تثقيف ابنته وإنماء تينك الفضيلتين الأساسيتين في نفسها. استمرّ يعطيها دروساً في الجبر والهندسة حتى بلغت العشرين من عمرها، وجهد دائماً على ألّا يدعها تمضي فترة واحدة من أوقاتها دون عمل. وكان بدوره لا يهدأ أبداً: فكان يكتب مذكراته ويناقش ويحل مسائل رياضية عالية، ويصنع الأواني الفخارية، ويعمل في بستانه، ويراقب أبنيته الكثيرة لأنه كان بنّاء كبيراً.

كان وجوده منظماً بدقة، حتى في أدق المراحل واللحظات، لأنّ النظام هو الشرط الأساسي الأول في نشاطه وعمله، فكان بذلك يجلس إلى الطاولة في مواعيد ثابتة يراعي فيها ليس الساعة فحسب بل الدقيقة أيضاً. ولم يكن قط قاسياً، غير أن صلابته الملازمة التي لم تكن تفارقه قطّ، كانت توحي إلى من حوله ابتداء من ابنته وحتى أصغر الخدم احتراماً مخيفاً. لم يكن يستطيع فرضه أشد الناس قسوة.

وعلى الرغم من أنه كان محروماً من كل نفوذ جديد، فإن كل حاكم جديد للمقاطعة كان يعتقد عند وصوله أو قبل مغادرته المقاطعة ليحل محل سلفه، بضرورة الشخوص إلى منزل الأمير وتقديم تمنياته وواجبات الاحترام إليه. فكان ذلك الموظف الكبير يضطر إلى الانتظار في قاعة الاستقبال الفسيحة، أسوة بالمهندس والبستاني والأميرة ماري نفسها، ريثما تحين الساعة الثابتة لنهوض الأمير من فراشه، وعندئذ كان المنتظرون يشعرون، دون استثناء، شعوراً بالاحترام ممزوجاً بإحساس بالرهبة، عندما تفتح درفتا الباب الضخم المؤدي إلى مكتب الأمير ليبدو هذا على عتبته بشعره المستعار وقامته الصغيرة، قامة عجوز ذي يدين معروقتين وحاجبين أبيضين كثين يحجبان كلما قطبهما نظرته المشعة ببريق الذكاء والنشاط.

صباح اليوم الذي كان ينتظر وصول الزوجين الشابين ذهبت الأميرة ماري، إلى قاعة الانتظار كالعادة، في الساعة المعينة لتمنيات الصباح، ورسمت كالعادة إشارة الصليب على صدرها وقرأت دعاء صامتاً وابتهالاً سرياً. كانت كل صباح تدخل تلك القاعة وتبتهل إلى الله أن يؤازرها خلال المقابلة الرهيبة المتوقعة، فكان خادم عجوز ينهض دون ضجة فيستقبلها ويهمس لها قائلاً: تفضلي بالدخول.

كان دوي عجلة دائرة دورة رتيبة يسمع بوضوح من وراء الباب. جذبت

الأميرة بخوف مصراع الباب الذي كان يفتح بسهولة، وتوقفت على العتبة. فالتفت الأمير إليها، لكنه لم يتوقف عن عمله.

كانت غرفة الأمير الفسيحة تزدحم بعدد من الأشياء التي تحمل طابع الاستعمال الدائم. فالطاولة الكبيرة كانت تنوء بالكتب والمخططات، وخزائن الكتب العالية تعج بمحتوياتها، وفي قفل كل منها مفتاحه المناسب؛ وعلى نضد عال يصلح للكتابة إذا كان الشخص واقفاً، كان دفتر كبير مفتوحاً وبجانبه أدوات الكتابة. أما جهاز صنع الأواني الفخارية، فقد كانت الأدوات المختلفة المبعثرة فوق النشارة التي تغطي مساحة حوله، تشهد بنشاطه المستمر المتنوع المضبوط. كانت حركات ساقه على الدولاب وضغط يده النحيلة الثابتة يشهدان بالقوة الفائقة التي يمتاز بها الأمير في كهولته.

أدار العجلة بقدمه عدة دورات أخرى، ورفع ساقه عن المحرك ومسح «ازميله» وألقاه في جيب جلدي معلق إلى الجهاز، ثم اتجه نحو الطاولة، واستدعى ابنته، فقدم لها وجنته المتغضنة لتقبلها، وعلا صوته الصارم الذي تلطفه نظرة مفعمة بالحنان، قائلاً أن يباركها ـ لأن عادته جرت على استنكار مثل هذه الطقوس ـ.

ـ هل أنت على ما يرام؟... اجلسي إذن.

ودفع بقدمه مقعده الوثير وتناول دفتراً من دفاتر الهندسة وكتب بخط يده فيه. ثم تصفحه وهو يشير بظفره المتين إلى المقطع الذي يريد منها دراسته وحفظه: هذا هو واجبك غداً.

فانحنت الأميرة على الدفتر، بينما قال العجوز فجأة: انتظري... لدي رسالة لك.

وراح يبحث في جيب محدث في الطاولة عن الغلاف المنشود الذي كان يحمل كتابة نسائية.

ألقى الرسالة على الطاولة، فالتقطتها الأميرة بانفعال وضمتها إلى صدرها وقد احمرّ وجهها فجأة.

قال الأمير، وقد افتر ثغره عن ابتسامة باهتة كشفت عن أسنان صفراء متينة: أهي من «هيلوبيزتك»؟

فأجابت الفتاة بابتسامة ونظرة خجولة:

ـ أجل، إنها من جولي.

قال الأمير: سأدع رسالتين أخريين تمران، لكنني سأقرأ الثالثة. إنكن تكتبن لبعضكن سخافات أتوجس منها خيفة. لذلك سأقرأ الثالثة.

أجابت الأميرة، ووجهها يزداد احمراراً وهي تمد له يدها بالرسالة: يمكنك قراءة هذه، يا أبي.

فأجاب الأمير بلهجة حاسمة، وهو يبعد الرسالة عنه: الثالثة. قلت الثالثة!

جذب إليه دفتر الهندسة، ثم اتكأ على الطاولة وشرع يشرح وهو ينحني فوقه، مستنداً بإحدى يديه إلى مسند المقعد الذي جلست عليه ابنته:

ـ انتبهي يا آنسة، انظري إلى هذه المثلثات، إنها متساوية. لذلك اعتبري أن زاوية آب خـ....

كانت الأميرة، في جلستها تلك، تحسّ برائحة التبغ تنفذ إلى صدرها، وتشعر بالعفن الحاد الذي ينبعث من أجسام الكهول يختلط بأنفاسها. كانت ماري تختلس بين الحين والحين نظرات فزعة إلى عينيه الملتمعتين القريبتين من وجهها، لكنها لم تكن تفهم شيئاً لأن الخوف كان يمنعها من فهم شرح أبيها مهما بلغ من وضوح وإسهاب.

وسواء أكان الخطأ مصدره الأستاذ أم التلميذ، فإن ذلك المشهد يتكرر كل يوم: تضطرب عينا الفتاة وتعجز عن رؤية الأحرف والخطوط وسماع البيانات، فلا ترى إلا ذلك الوجه الصارم القريب من وجهها، ولا تحس إلا

بأنفاسه وبتلك الرائحة التي تنبعث منه، ولا تفكر إلا في الفرار بأسرع ما يمكن واللجوء إلى غرفتها لتدرس أمثولتها بهدوء، وتحل النظرية الهندسية باطمئنان. وكان العجوز يبرم بها وينفد صبره فيبعد المقعد ويقربه بصخب. لكنه في كل مرة كان ينتهي به الأمر إلى الثورة والانفعال والتأنيب، فيلقي بالدفتر إلى كل الشياطين!

أخطأت ماري في جوابها، فصاح الأمير العجوز وهو يلقي بالدفتر بعيداً ويستدير بغضب:

ـ هل يعقل أن تكون فتاة أكثر غباوةً منك!

غير أنه نهض، بعد ذلك، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ثم اقترب من ابنته وأخذ يداعب شعرها ملاطفاً، ثم عاد إلى مقعده وباشر يشرح نظريته مجدداً.

وبعد أن أخذت التلميذة ملاحظات على النظرية سجلها على الدفتر، استعدّت للخروج، فقال الأمير: يجب أن تكوني دؤوبة، يا أميرة. إن الرياضيات أهم شيء في الوجود إنني لن أسمح لك أن تكوني سخيفة كسيداتنا النبيلات في هذا العصر. سوف تشعرين بميل إلى العلوم الرياضية بعد قليل من الصبر.

ثم تابع، وهو يربت وجنتيها: وبذلك فقط تخرج الخرافات من رأسك إلى الأبد.

همت الأميرة بالخروج، لكنه استوقفها بإشارة، ووضع على النضد المرتفع كتاباً جديداً لم تقطع أوراقه بعد، وقال: وهذا أيضاً واحد من «مفتاح السر» ترسله لك صديقتك هيلوييز. إنه كتاب يؤيد العقيدة الدينية. إنني لا أتدخل في معتقدات أحد. وقد تصفحته فيمكنك أخذه. إذهبي الآن، إذهبي.

وربت كتفها، وأغلق بنفسه الباب وراءها.

رجعت الأميرة ماري إلى غرفتها وعلى وجهها أمارات حزن لم تكن

تفارقه، إنما كانت تضفي على ذلك الوجه محدود الجاذبية والفتنة ستراً من البشاعة. جلست إلى مكتبها الذي تراكم فوقه خليط من الكتب والدفاتر والمخطوطات يشهد بأنها على نقيض أبيها، لا تحب النظام الذي كان مهووساً به وألقت دفتر الهندسة جانباً، وراحت تفض الرسالة التي بعثت بها صديقة طفولتها المفضلة بصبر نافد لتطلع على ما أوردت فيها. ولا يفوتنا هنا أن ننوه بأن صديقتها جولي، هي بعينها جولي كاراغين التي مرّ بنا الدور الذي لعبته في حفلة آل روستوف.

كتبت جولي ما يلي:

«عزيزتي الصديقة الممتازة. الغياب أمر مخيف مرعب! لقد قلت دوماً إن نصف وجودي وسعادتي كامن في شخصك وإنه على الرغم من المسافة التي تفرق بيننا، فإن قلبينا متصلان برباط لا يُفصم. إن قلبي يتمرد على القدر فلا أستطيع، رغم المسرات التي تحيط بي والتي تساعدني على الترويح عن نفسي، أن أهزم وأبدد لوناً من الحزن الدفين الذي أحسّ به قابعاً في أعماق قلبي منذ فراقنا.

لِمَ يا تُرى لم نجتمع هذه المرة كما حدث لنا ذلك الصيف في غرفتك الكبرى على الكنبة الزرقاء، كنبة الاعترافات؟ لمَ لا أستطيع منذ ثلاثة شهور أن أحصل على قوى معنوية جديدة أستمدها من نظرتك شديدة الوداعة، شديدة الهدوء، وشديدة التعمق، تلك النظرة التي أحببتها حباً جماً، والتي يخيل إلي أنها ماثلة أمامي ساعة أكتب إليك هذه الرسالة!».

رفعت الأميرة نظرها، عند سماع هذا المقطع، إلى مرآة موجودة إلى يمينها في فراغ بين نافذتين. فعكست المرآة صورة هزيلة محزنة راحت عيناها المكتئبتان تتأملانها بكثير من الأسى. قالت في سرها: «إنها تمتدحني» وأشاحت بوجهها عن المرآة لتتابع القراءة. لكن جولي لم تكن تغدق المديح

الكاذب على أحد وخصوصاً على صديقتها. إذ إن عيني الأميرة الواسعتين العميقتين كانتا أحياناً تشعان بإشعاعات دافئة تسبغ على وجهها النحيل جاذبية يعجز الجمال عن مثلها.

ولما كانت الأميرة ماري تعرف أن تلك النظرة الدافئة لا تشع من عينيها إلا في أوقات تكون فيها أبعد الناس عن التفكير في نفسها، لذلك كانت لا ترى تلك البادرة أبداً ولا تعتقد بوجودها. كانت ككل الناس تقريباً، إذا وقفت أمام المرآة، اتخذت طابع الترقب اللاإرادي الذي يرتسم عادة على كل وجه أمام المرآة، فكان ذلك الطابع يشوّه حسنها. وتابعت قراءة الرسالة:

«إن موسكو كلها تتحدث عن الحرب، وإن واحداً من أخوي أصبح الآن خارج البلاد، أما الثاني فإنه مع فرقة الحرس التي تتجه نحو الحدود. إن أمبراطورنا العزيز قد ترك پيترسبورغ وهو يرمي، على ما نما إلي، إلى تعريض ذاته السنية لخطر الحرب. فعسى أن يقدر الله أن يُسحق الوحش الكورسيكي الذي أقلق سلام أوروبا ودمره، من قبل الملك الذي أرسله الله لنا برحمته ملكاً وأمبراطوراً!

حرمتني هذه الحرب علاقات حبيبة إلى قلبي بصرف النظر عن أخوي اللذين يخوضان غمارها. ذلك أن نيكولا روستوف، الشاب الذي دفعته حماسته إلى الانخراط في الجيش وترك الجامعة، قد ذهب في عداد الذاهبين. ثقي يا عزيزتي ماري أنه على الرغم من سنه الفتية فإنني أستطيع أن أصرح لك بأن ذهابه سبب لي حزناً كبيراً. إن ذلك الشاب، وقد حدثتك عنه في الصيف الماضي، شديد النبل. نبل يندر أن يلاقي المرء مثله في هذا العصر حيث نعيش بين شيوخ في العشرين من أعمارهم. إنه طيب القلب جداً، صريح إلى أبعد الحدود. وهو نقي السريرة، شاعري الإحساس، حتى أن علاقاتي به مهما بلغت من تفاهتها وكانت عابرة، كانت أجمل المباهج التي مرت على قلبي

المفعم بالألم. سأحدثك ذات يوم عن كل ما تحدثنا به عند الوداع وما دار بيننا خلاله. إنه لايزال حتى الآن عالقاً في ذاكرتي لأنه حدث بالأمس القريب.

آه، يا صديقتي الغالية! إنني أغبطك لجهلك المباهج والآلام الممضة التي أتحدث عنها في هذه الرسالة. إنك سعيدة لأن المتأخرات في هذا المضمار هن دائماً الأكثر سعادة والأشد ساعداً وقوة! إنني أعرف تماماً أن الكونت نيكولا صغير جداً لا أمل لي في بناء آمالي عليه في شيء أكثر من الصداقة العادية، غير أن تلك الصداقة الهادئة الوادعة، وتلك العلاقات شديدة الطُهر والشاعرية، كانت كلها من متطلبات قلبي. ولكن لنترك هذا الأمر جانباً، ولنتحدث في غيره. إن الخبر الأخير الذي يشغل بال أهل موسكو جميعاً هو موت الكونت بيزوخوف الهرم وإرثه. تصوري أن الأميرات الثلاث لا يرثن إلا نزراً تافهاً، وأن الأمير بازيل حُرم من كل شيء، وأن السيد پيار قد ورث كل شيء وأصبح فضلاً عن ذلك، ابن الكونت الشرعي وبالتالي الكونت بيزوخوف، مالك أكبر ثروة في كل روسيا. إنهم يزعمون أن الأمير بازيل لعب دوراً مرذولاً في هذه القضية، وأنه انسحب عائداً إلى پيترسبورغ وهو حائر خجل.

«وبصراحة أقول لك إنني لا أفهم من هذه الأمور شيئاً، لكنني أرى وأعرف أنه منذ أن أصبح الشاب الذي كنا نعرفه تحت اسم السيد پيار فقط، كونت بيزوخوف مالك أكبر الثروات الروسية، فإنني أتسلى بالنظر إلى السيدات والأوانس ومراقبة التبديلات والتغيرات في اللهجات وأساليب التحدث التي طرأت على الأمهات اللاتي ينؤن ببناتهن، البالغات سن الزواج، حيال هذه الشخصية الجديدة التي ظلت تبدو لي رغم ذلك، كما كانت من قبل، سيدة مسكينة. ولما كانوا منذ عامين يزعمون دائماً أنني سأتزوج فلاناً أو فلاناً من المجهولين مني، فإن آخر إشاعة راجت في موسكو جعلتني الكونتيسة

بيزوخوف المنتظرة. لكنك تشعرين من دون شك بشعوري، وتعرفين أنني لا أفكر أبداً في مثل هذا المركز.

ولما كنا نتحدث عن الزواج فإنني أعلمك «أن العمة الجماعية» أنّا ميخائيلوڤنا أسرت إليّ أخيراً أن هناك مشروع زواج يتعلق بك يحاك في الخفاء. فهل تعرفين الزوج المنتظر؟ خمني. إنه ليس إلا ابن الأمير بازيل، الشاب أناتول الذي يفكر أبوه في إيجاد مركز رفيع له، وإقحامه في صلب المجتمع، بتزويجه فتاة غنية راقية. وقد وقع اختيارهم واختيار ذويه عليك. ولست أدري كيف تنظرين إلى الأمر، لكنني أظن أن من واجبي، رغم السرية التامة التي أحيط المشروع بها، أن أبلغك وأنذرك بما يقال وما يشاع عن زوجك المنتظر. إنهم يقولون إنه جميل جداً ورديء جداً. هذا كل ما أستطيع قوله وما أعرفه عنه.

«لقد ملأت الورقة الثانية من رسالتي، كفانا ثرثرة حتى الآن. وها إن أمي أرسلت في طلبي لأذهب معها عند آل ابراكسين. اقرئي الكتاب الديني الذي يبحث في شؤون العبادة والذي أرسلته إليك مع كتابي هذا لأنه شديد الرواج عندنا. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يحفل ببعض الأمور التي يصعب علينا فهمها بإمكانيتنا الإنسانية المحدودة، فإنه كتاب رائع تسمو النفس عند قراءته. وداعاً. احتراماتي للسيد أبيك وتمنياتي للآنسة بوريين. أقبلك كما أحبك.

جولي»

«**ملاحظة**: اطلعيني على أخبار أخيك وزوجته الصغيرة الفتانة».

فكّرت الأميرة ماري وابتسمت أخيراً، وهي شاردة الذهن، وانبسطت أسارير وجهها الذي أضاءه ذلك الإشعاع المنبعث من عينيها. نهضت فجأة واتجهت إلى مكتبها بخطوات ثقيلة، فأخذت ورقة، وراحت يدها تجري بالقلم عليها جرياً. كان الجواب الذي حررته ما يلي:

«عزيزتي وصديقتي الممتازة، لقد أحدثت رسالتك المؤرخة في ١٣ الجاري سروراً بالغاً في نفسي. إنك إذن ما زلت تحبينني يا جوليتي الشاعرية. والفراق الذي تتحدثين عن كل مساوئه لم يؤثر في نفسك أثره المباشر الطبيعي، لأنك لم تنسيني. إنك تشتكين من الفراق فماذا أقول أنا، وأنا المحرومة من كل من هم أعزاء على نفسي؟ آه! لو لم يكن لدينا الدين عزاء، لكانت الحياة لا تطاق، حزينة كئيبة.

لم توقعت مني نظرة صارمة عندما حدثتني عن إعجابك بفتاك الشاب؟ إنني على هذا الأساس، لست قوية لست قاسية إلا على نفسي. أنا أفهم هذه المشاعر التي تعتلج في نفوس الآخرين. ولما كنت لا أستطيع تأييدها. وخصوصاً أنني أشعر بها بنفسي، فإنني لا أحكم عليكم على ضوئها. يبدو لي أن الحب المسيحي فقط، حب المستقبل والآخرة، حب أعدائنا، هو الحب الوحيد الأكثر فائدة وجدارة. وهو أجمل حب وأنبل إحساس لا تستطيع العيون الجميلة وأثرها في نفس فتاة شاعرية عاشقة مثلك. أن تحدث مثلها.

«لقد بلغنا موت الكونت بيزوخوف قبل وصول رسالتك. وقد حزن أبي حزناً عميقاً لموته وقال: إنه كان قبل الأخير بين ممثلي القرن المشرق، وإنه الآن بات يتحين دوره، لكنه سيعمل ما في طاقته لتأخير حلول ذلك الدور ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ليحفظنا الله من ذلك البلاء المريع! أنا لا أشاطرك رأيك حول پيار الذي عرفته طفلاً، لقد كان يبدو لي دائماً ذا قلب ودود، وهذه الصفة هي التي أقدرها أكثر من غيرها في نفوس البشر. أما فيما يختص بإرثه وبالدور الذي لعبه الأمير بازيل، فإن الأمر ذو عناء ونصب للاثنين معاً. آه، يا صديقتي الحبيبة! إن كلمة مخلصنا الإلهي التي تقول: إن دخول جمل في سم الخياط أسهل من دخول غني ملكوت السماوات الرهيبة إلى في حقيقتها وصدقها.

وإنني أشفق على الأمير بازيل وآسف من أجل پيار أسفاً أكثر عمقاً. لم يزل يافعاً، تبهره مثل هذه الثروة، فكم من مغريات سيتعرض لها بسببها! لو أنهم سألوني عما أفضله في هذا العالم على سواه من الأمور، لقلت إنني أرغب أن أكون أشد فقراً من أفقر المتسولين. ألف شكر يا صديقتي العزيزة على الكتاب الذي أرسلته إليّ، والذي هو في أوج رواجه عندكم. ولما كنت تنوهين بأنه يحوي، بين العديد من الأمور الطيبة التي فيه، شؤوناً لا يستطيع إدراكنا البشري بلوغ مداها، فإنه يبدو لي عبث الاستغراق وضياع الوقت في قراءة يصعب فهمها، يمكن أن تكون نتيجتها عديمة الجدوى. إنني لم أفهم قط سبب الولع الذي يبديه بعض الناس في تشويش مداركهم بالتعلق ببعض الكتب التي لا تخلع على نفوسهم إلا أطيافاً من الشكوك، فيسمو خيالهم ويعطيهم نفسية متطرفة، تتناقض والبساطة المسيحية.

لنقرأ الأسفار والإنجيل وأقوال الرسل. ولنترك البحث في محاولة التعمق في ما وراء ذلك من أسرار لأننا لا يجوز لنا، ونحن الخاطئين الحقيرين، أن ندخل أو أن نزعم أننا نستطيع الدخول في الأسرار الرهيبة المقدسة التي اختصت بها القدرة الإلهية، ما دمنا نرفل في ثوبنا الجسدي الذي يرفع بيننا وبين الواحد الأزلي ستاراً لا يخرق.

فلنكرس جهودنا إذن لدراسة المبادئ السامية التي خلفها مخلصنا الرباني وراءه لتكون سنتنا على هذه الأرض، ولنسع في إجادة القدوة وتأثر خطاه الشريفة، ولنضع نصب أعيننا أننا كلما اعتدنا إرهاق فكرنا البشري الضعيف كان ذلك أكثر تقبلاً من الله. لأن الله يستبعد كل علم لا يبلغ بالمرء إليه، وإننا كلّما حاولنا التعمق في الأمور التي طاب له أن يبعدها عن نطاق معرفتنا، أسرع في تقريبها وكشفها بروحه السامية.

«حدثني أبي عن الزوج المنتظر، لكنه لم يسهب، بل اكتفى بالقول إنه

تلقى رسالته وإنه ينتظر الأمير بازيل. أما رأيي في مشروع الزواج الذي يتعلق بي، فإنني أعتقد بأن الزواج سنة ربانية ينبغي للمرء أن يخضع لها. وإنني واثقة بأن الله القدير، إذا فرض علي واجب الزواج والأمومة، فإنه سيعطيني القوة الكافية لأداء تلك الواجبات بكل ما في طاقتي من إخلاص، دون أن أبالي بالاختيار الذي ستجتازه عواطفي حيال الشخص الذي سيصبح زوجي.

«سيحضر أخي إلى الجبل الأقرع مع زوجته لكنها بهجة قصيرة الأمد لأنه سيغادرنا بعدها ليشترك في الحرب التعيسة التي اندفعنا فيها، والتي لا يعلم إلا الله لماذا وكيف اشتركنا فيها. ولا يقتصر الحديث عن الحرب على وسطكم الحافل بالأعمال والمنتديات، بل إنه تعداه إلينا وسط أعمال الحقول وهدوء الطبيعة، كما يتصور أهل المدن حياة الأرياف.

إن الحديث عن الحرب قد بلغ إلينا وأحدث أثره السيئ الأليم. ولا يتحدث أبي إلا عن هجوم مضاد وما إلى ذلك من أمور لا أفهم منها شيئاً! وأمس الأول، بينما كنت أتنزه في شارع القرية كعادتي، وقعت نظراتي على مشهد أليم... لقد شهدت بأم عيني قافلة من المجندين الذين أدخلوا في أسلحة الجيش يغادرون القرية إلى مراكزهم التي تنتظرهم. ولو أنك شهدت مثلي حالة أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم، أولئك النساء الملتاعات اللواتي شهدن ذهاب رجالهن إلى الحرب، وهن ينتحبن، لاعتقدت معي أن الإنسانية نسيت قوانين مخلصها الرباني الذي بشر بالمحبة، تلك الإنسانية التي باتت تتنافس بينها وتتسابق في التقتيل والتدمير.

وداعاً يا صديقتي الطيبة العزيزة، ويحرسك مخلصنا الرباني وأمه شديدة القدسية برعايتهما القوية المقدسة.

ماري»

قالت الآنسة بوريين الضاحكة بصوتها الرخيم الألثغ: آه! هل ترسلين رسالة، يا أميرة؟ لقد أرسلت بريدي. لقد كتبت إلى أمي المسكينة.

كانت المرافقة، الآنسة بوريين، فتاة لعوباً تجر في أعقابها عالماً من المرح والحبور يبدد الجو الثقيل المشحون بالأسى الذي تعيش الأميرة فيه.

تابعت الآنسة بوريين، وهي تخفض صوتها: يجب أن أخطرك، يا أميرة: أن الأمير تعرض اليوم لنقاش حاد مع ميشيل ايـڤانوف، وهو الآن معتكر المزاج، شديد التبرم. وقد رأيت أن من واجبي أن أخطرك بالأمر.

إن الآنسة بوريين تجد لذة فائقة في التحدث عن مزاج الأمير، حتى إنها عندما كانت تروي للأميرة ماري موضوع النقاش، كان صوتها العذب ينطق بالسرور الفائق. لكن الأميرة لم تكن من رأيها، إذ قالت تجيبها:

ـ رجوتك من قبل يا صديقتي العزيزة، أن لا تحدثيني أبداً عن مزاج أبي والحالة النفسية التي يكون عليها. إنني لا أسمح لنفسي أن أنتقده ولا أريد أن يفعل غيري ذلك.

وألقت الأميرة نظرة على المنبه، أنبأتها بأنها قد تأخرت خمس دقائق عن تطبيق برنامجها العملي. فانطلقت إلى القاعة ودرجت عادة الأمير على نشدان الراحة من الظهر وحتى الساعة الثانية. وكان على الأميرة ماري أن تمضي ذلك الوقت في دراسة الموسيقى الوترية وتطبيق دروسها على «الپيانو» الموجود في القاعة.

الفصل السادس والعشرون

وعلى صوت الشخير الذي اعتاد سماعه عندما يكون الأمير نائماً في غرفته الفسيحة، نام الخادم العجوز في مقعده. ومن الجناح الأقصى من البيت، كانت إيقاعات لحن خاص بـ: دوسك، وهو مؤلف موسيقي تشيكي كان ذائع الصيت في ذلك الوقت، تتكرر باستمرار وتكرار ممل، لشدة الصعوبة التي كانت تواجه العازفة في إجادة عزف ذلك اللحن الصعب، وتصل إلى أسماع الخادم العجوز خافتة، عبر العديد من الأبواب الضخمة المغلقة التي تفصل بين الجناحين.

توقفت عربتان، في تلك اللحظة، أمام باب الفناء، إحداهما مغلقة من طراز بيرلين والأخرى خفيفة مكشوفة من طراز بريتشكا. ترجل الأمير أندره من الأولى وساعد زوجته الصغيرة على النزول، ودعاها لتتقدمه في الممشى. فأخرج الخادم العجوز تيخون رأسه المغطى بشعر مستعار، من خلال فرجة قاعة الانتظار، وأبلغ الأمير الشاب بصوت منخفض أن أباه في قيلولته، ثم أغلق الباب. كان يعرف أن أي حدث مهما بلغت أهميته، حتى ولا وصول الأمير الشاب، لم يكن يعكر سير برامج الأمير وسياق ترتيب أوقاته. وكان أندره يعرف ذلك كما يعرفه تيخون تماماً، وقد أقنعته نظرة ألقاها على ساعته بأن الأمير العجوز لم يتبدل قط منذ أن بارحه آخر مرة. فقال لزوجته:

ـ بعد عشرين دقيقة، سينهض أبي، فلنمض الآن إلى جناح ماري.

لقد ترهلت الأميرة الصغيرة بعض الشيء، غير أن عينيها وشفتها القصيرة

المظللة بطيف من الزغب كانت تتخذ دائماً، عندما تبدأ الحديث، ذلك الطابع الوديع. أخذت تسرّح الطرف حولها ثم قالت لزوجها بمثل اللهجة التي كانت تخاطبه بها لو أنه كان قد رتب حفلة راقصة أو أقام عرضاً مغرياً:

ـ إنه قصر رائع، لنسرع، هيا، لنسرع!...

كانت تبتسم لكل من كان حولها، لزوجها، لتيخون، وللخادم الذي كان يقودهم. تابعت: إن ماري تتمرن على العزف، أليس كذلك؟ حسناً، يجب أن نفاجئها، فلا تثيروا صخباً...

كان الأمير أندره يتبعها وعلى وجهه طابع أنس يشوبه الغمّ. قال يحدث تيخون الذي تقدم منه وقبَّل يده: لقد هرمت، ياتيخون...

وبينما كانا على وشك الوصول إلى القاعة، حيث راح صوت المعزف يزداد وضوحاً، شاهدا فتاة صغيرة الحجم جميلة الوجه، تكاد تطير من الفرح، تخرج من باب جانبي. صاحت الشقراء في مرح: آه! يا لسعادة الأميرة. أخيراً... لقد وصلتما، يجب أن أخطرها.

فقالت الأميرة الصغيرة، وهي تعانق الفرنسية الشقراء:

لا، لا، وحق السماء... إنك الآنسة بوريين. لقد عرفتك فوراً لكثرة ما حدثتني عنك الأميرة ماري في رسائلها. إنها تكن لك حباً عنيفاً. هل تنتظر قدومنا؟

على باب قاعة الموسيقى، توقف الأمير أندره، حيث كان ذلك المقطع الشائك لا يزال يتكرر ويتردد بإصرار وعناد، وكأنه يطير أمام مشهد محزن يكاد يقع.

دخلت ليز، فانقطع اللحن في أدق مقاطعه، وتعالت صرخة، ووقع خطى ماري البطيئة، ورنين القبل. ولما حزم أندره أمره على الدخول، كانت شقيقته وزوجته، وقد انقطعتا عن رؤية بعضهما بعد أن أمضتا فترة قصيرة عقب زواج

أندره بليز، تضمّ الواحدة الأخرى بشغف، وترشقان القبل كيفما اتفق، بينما كانت الآنسة بوريين تضغط على قلبها، وهي تبتسم بغبطة، وتكاد تنخرط في البكاء أو تنفجر. قطب أندره حاجبيه وهز كتفيه، كما يفعل الهواة عندما تصك أسماعهم نغمة ناشزة، وأخيراً، أفلتت الأميرتان بعضهما، ولكن سرعان ما هوت كل منهما على يد الأخرى فأطبقت عليها وكأنها تريد تقبيلها، رغم ممانعة كل منهما لحركة الأخرى.

ثم عادتا إلى العناق مجدداً ولشديد دهشة الأمير أندره انخرطتا في بكاء مرير، وهما تتبادلان القبل. وحزمت الآنسة بوريين أمرها على البكاء، ونفذت عزمها. وما كان الأمير أندره يخفي انزعاجه، غير أن الأميرتين كانتا تجدان تلك المكاشفة القلبية أمراً طبيعياً. بل إنهما ما كانتا تظنان أن لقاءهما يمكن أن يتم على أبسط من ذلك الشكل.

ثم انتقلت الأميرتان من البكاء إلى الضحك، فقالتا معاً:

ـ آه! يا عزيزتي!... آه! ماري! لقد حلمت الليلة الماضية... ما كنت تتوقعين إذن... آه ماري! لقد هزلت... وقد استعدت أنت...

قالت الآنسة بوريين، وقد قدرت تدخلها ضرورة لازمة: لقد تعرفت فوراً إلى سيدتي الأميرة...

صاحت ماري: وأنا التي لم أكن أتوقع قط!... آه! أندره!... لم أرك من قبل.

وتعانق الأخ والأخت، فقال لها أندره إنها لا تزال تلك المنتحبة «إياها»، بينما ألقت «هي» نظرة طافحة بحرارة العطف خلال دموعها، نظرة كانت تشع من عينيها الدامعتين فتكسب وجهها جمالاً وبهاء.

خلال ذلك، كانت ليز مسهبة في الحديث. وكانت ابتسامتها الرائعة لا تفارق ثغرها بسبب استمرار هبوط الشفة العليا القصيرة على الشفة السفلى،

وكشفها خلال هذه الحركة الرتيبة عن أسنانها البيضاء. راحت تروي حادثاً وقع لهما على منحدر سباسكوائي كان يمكن أن يكون ذا نتائج خطيرة بالنسبة إليها وهي في حالتها الحاضرة.

ثم انتقلت إلى التحدث عن شؤونها فقالت إنها تركت كل مستلزمات زينتها في بيترسبورغ، وإنها لن تجد هنا ما تظهر فيه، وإن أندره قد تبدل كثيراً، وإن كيتي أدوينيستوف قد تزوجت رجلاً عجوزاً، وإنهم وجدوا جدياً خطيباً لماري، ولكنها ستتحدث عن هذا الأمر فيما بعد. وكانت الأميرة ماري لا تنبس بكلمة خلال ذلك الحديث المطول، بل كانت عيناها المفعمتان بالحب والحزن شاخصتين إلى أندره، بينما كانت أفكارها تتبع اتجاهاً يختلف كلياً عن الوجهة التي كانت تسير فيها أحاديث ليز. وبينما كانت هذه تصف آخر الأعياد التي أحييت في بيترسبورغ، سألت ماري أخاها: هل ستذهب إلى الحرب، يا أندره؟

وزفرت زفرة أخرى، فانتفضت ليز وأجابت: نعم، منذ الغد.

ثم تابعت تقول: سوف يهجرني هنا، والله أعلم بالسبب، رغم أنه كان يستطيع أن يحصل على ترقية...

لم تنه جملتها حينما عادت الأميرة ماري، وقد كانت منسجمة مع أفكارها الخاصة، تقول لأخيها وهي تلقي نظرة ودوداً على قامته المتناسقة: إذن، هل ذلك محقق؟

فأبدلت ليز طابع وجهها وزفرت مرة ثانية، وقالت: نعم. آه إنه لأمر مخيف!...

انسدلت شفتها العليا فجأة فأطبقت على السفلى، وأدنت وجهها من وجه الأميرة وراحت تنتحب.

قال الأمير أندره، وهو يقطب حاجبيه: إنها في حاجة إلى الراحة. أليس

كذلك، يا ليز؟ خذيها إلى جناحك بينما أمضي للقاء أبي. كيف حاله؟ هل لا يزال كعهدنا به؟

فأجابت ماري بلطف: نعم، كعهدنا به. بل يبدو لي أنه ساء قليلاً عن ذي قبل. سوف تراه بنفسك.

سأل الأمير الشاب، وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة تدل على أنه، رغم كل الاحترام الذي يكنه لأبيه، يعرف نقاط الضعف فيه: ألا يزال مولعاً بالأوقات الثابتة إياها، وجهاز صنع الأواني الفخارية، والنزهات في المماشي المشجرة؟

فأجابت ماري: نعم، لا يزال يصر على دقة أوقاته، ويغرم بجهازه وبالرياضيات، ودروس الهندسة التي يلقنها لي كل يوم.

كان صوتها الفكه، وهي تتحدث عن دروسها، يوهم السامع أن تلك الدروس كانت إحدى مباهجها الرئيسية المستظرفة!

وعندما أزفت ساعة نهوض أبيه النظامية بعد الدقائق العشرين جاء تيخون يستدعي الأمير الشاب للقاء أبيه الذي خرق نظام عاداته ابتهاجاً بقدوم ابنه، وتفضل باستقباله بعد فترة راحة الظهيرة! فلما دخل أندره إلى غرفة الزينة، كان الأمير العجوز جالساً على مقعد ضخم من الجلد، مرتدياً قميصاً، مسلماً رأسه لعناية تيخون لأنه كان أميناً على العادة القديمة، فكان يرتدي أبداً ثوباً موشى وينثر على شعره الذرور.

لم يدخل الأمير على أبيه كما كان شأنه في المجتمعات الراقية: شرساً متطيراً بوجه مكتئب، بل كان هاشاً شديد الحيوية، كما كانت عليه حاله عندما التقى لأول مرة صديقه پيار.

صاحت الأميرة لدى رؤية الشاب:

ـ هذا هو رجل الحرب! لقد صورت إذن لنفسك أنك ستهزم بوناپرت؟

وهز برأسه بقدر ما كان تيخون، الذي كان يضفر الشريط الذي يثبت شعره، يسمح له به:

ـ حسناً، مثلك كمثل الآخرين. فاعمل ما في طاقتك. لأننا إذا لبثنا على ما نحن عليه من تصرف، سوف يجعلنا بعد حين في عداد أتباعه!

ثم أضاف، وهو يقرب له وجنته: مرحى!

كان الأمير العجوز يزعم أن النوم بعد الغداء من فضة، بينما النوم قبل الغداء من ذهب. وفي الحقيقة إنه كان على أحسن مزاج. ألقى نظرة جانبية نحو أندره، يظللها حاجباه الكثيفان المنسقان بعناية؟ فقبله هذا في المكان الذي عينه أبوه، لكنه لم يعقب على رأي أبيه، الذي درج على الاستهانة بعسكريي المدرسة الحديثة، وبصورة خاصة ببوناپرت.

قال الأمير الشاب وهو يتابع بنظره، بامتثال شديد، كل حركة من عضلات وجه أبيه العجوز: ها أنذا يا أبي. لقد أتيتك بزوجتي، وهي في حالة خاصة. كيف حالك يا أبي؟

ـ إن المرض، يا عزيزي، لا يدهم إلا الحمقى والفاجرين. ولما كنت ـ كما تعرف ـ عفيفاً زاهداً، كثير المشاغل، أعمل منذ الصباح وحتى المساء، فإن ذلك يجعلني في صحة جيدة.

فقال أندره مبتسماً: الحمد لله وشكراً.

ـ لا دخل لله في هذا الموضوع.

ثم عقب وقد عاد إلى سخريته المعتادة:

ـ هيا حدثني كيف علمكم الألمان التغلب على بوناپرت، بحسب الجديد المسمى «استراتيجيا».

فأجاب أندره بابتسامة وديّة تنبئ بأن ميول العجوز لا تمنعه من الإمعان في احترامه وقال:

ـ دعني أتنفس يا أبي. لست أدري بعد أين سنستقر.

فصاح الأمير وقد أمسك بذراعه وهو يجذب شريط شعره ليختبر متانته:

ـ بل على العكس، على العكس. إن مخدع زوجتك جاهز. سوف تأخذها ماري إليه. سوف تثرثران بكل سرور، لأن النساء لا هم لهن إلا الثرثرة. إنني سعيد باستقبالها. هيا اجلس ولنتحدث. إنني أفهم ماذا يفعل جيش ميخلسن، وكذلك جيش تولستوي... نزول متوافق.ولكن ماذا يفعل جيش الجنوب؟ سوف تبقى بروسيا حيادية ولا شك. ولكن ماذا عن النمسا؟ والسويد؟ كيف يمكن اجتياز پوميرانيا؟

وقف الأمير وراح يذرع غرفته يتبعه تيخون الذي كان يقدم له قطع الثياب المختلفة ليرتديها. فلم يستطع الأمير أندره أمام ذلك الإلحاح إلا أن يخوض في الحديث. بدأه في شيء من الضجر، لكنه ما لبث أن ثارت حميته وازداد اندفاعه، فراح كعادته، يخلط الكلمات الروسية بالكلمات الفرنسية، وأخذ يعرض على مسامع أبيه، خطة المعركة المقبلة:

سيهدد بروسيا جيش قوامه تسعون ألف رجل ليخرجها عن حيادها. وسوف يجتمع جانب من ذلك الجيش في سترالسوند بجيش السويد. وسوف ينشط للعمل في إيطاليا وعلى الرين مائتا ألف نمسوي ومعهم مائة ألف روسي. وسينزل في ناپولي خمسون ألف روسي وخمسون ألف إنكليزي. وسيكون مجموع الجيوش التي ستهاجم الفرنسيين، خمسمائة ألف رجل، وستعمل هذه الجيوش في نقاط مختلفة ومتنوعة.

كان الأمير العجوز، مستمراً في ارتداء ملابسه خلال الحديث وهو يتمشى في الغرفة. لم يكن يبدي أي اهتمام بما يشرحه ابنه من نظريات، بل كان يبدو وكأنه لا يصغي إلى قوله فلم يقاطعه إلا ثلاث مرات، وبصورة غير منتظرة أبداً. الأولى عندما صاح قائلاً:

ـ الأبيض! الأبيض!

وكان معنى ذلك أن تيخون أخطأ في تقديم الصدارة المطلوبة. والمرة الثانية عندما توقف ليسأله: إذن، هل الولادة قريبة؟

ثم هز رأسه بعدئذ بلهجة المؤنب قال: في! في!... استمر، استمر.

وأخيراً، بعد أن انتهى أندره من حديثه، أرعد بصوت ناشز محطم يغني: ما لبورغ يمضي إلى الحرب.

الله يعرف متى يعود.

عقب أندره مبتسماً: إنني لا أزعم أن ما عرضته على مسامعك هو المخطط المثالي الذي أحلم به، لكنني أروي لك ما سيكون. ولا شك أن لناپليون خطته التي تساوي هذه.

فقال الأمير العجوز مؤيداً: هيا، إنك لم تطلعني على شيء جديد. هيا إلى طاولة الطعام!

وراح يدندن مجدداً:

الله يعلم متى يعود...

الفصل السابع والعشرون

دخل الأمير العجوز، في الساعة المحددة لتناول الطعام، إلى القاعة وهو على أحسن زينة، فالتقى ابنته وزوجة ابنه والآنسة بوريين ومهندسه الخاص الذين كانوا ينتظرون قدومه حول الطاولة. وكان الأمير، انسياقاً مع هوى في نفسه، يتصل على طاولته ذلك المهندس عديم الشأن مضيفاً عليه شرفاً واعتباراً كان الأمير قليل الميل نحو اتحاد الطبقات، وكان يدعو إلى طاولته كبار موظفي المقاطعة في فترات بعيدة، مع ذلك فقط حلا له أن يظهر في شخص المهندس ميخائيل إيڤانوڤيتش الذي كان يمسح أنفه بين الحين والحين بمنديل ذي مربعات، إن كل الرجال متساوون على الأرض. وكان قد ألمح أكثر لابنه أن ميخائيل أيڤانوڤيتش لم يكن أدنى منهم مكانة في شيء فكان خلال أوقات الطعام، يوجّه حديثه إلى المهندس الصامت.

في قاعة الطعام الكبيرة ذات الجدران المرتفعة أسوة بكل غرف البيت كان أفراد الأسرة ينتظرون وصول الأمير. وكان خادم يقف وراء كل مقعد ورئيس الخدم واضعاً منشفته على ذراعه، يرقب المائدة، فيعطي بين حين وآخر أوامره بعينيه للخدم، بينما كانت عيناه القلقتان، تتبعان مشية عقارب ساعة الجدار البطيئة، وتنتقلان منها إلى الباب الذي سيدخل الأمير منه. كان أندره يدقق في إطار كبير مذهب، لم يره من قبل، يحوي شجرة ڀولكنسكي السلالية، يرتبط بإطار آخر لا يقل عنه ضخامة، يحيط بصورة أمير مالك، جالس على عرش

وعلى رأسه تاج، وهو، بدون شك، سليل روريك، وأصل أسرة پولكونسكي. كانت اللوحة سيئة التصوير تدل على أنها من صنع رسام مبتدئ.

كان أندره متعصباً أمام الشجرة السلالية يهز رأسه ضاحكاً وكأنه يعاين رسماً هزلياً «كاريكاتورياً».

قال لأخته التي كانت تقترب منه: إنني أتعرف إليه هنا!

فنظرت إليه ماري مأخوذة. لم تكن تفهم ما يدفعه إلى الضحك.

فقد كان كل ما يفعله أبوها، يوحي إليها باحترام عميق.

تابع أندره يقول: لكل إنسان ضعفه. كذلك فإن ذكاء متوقداً كذكائه قد أهرق في هذا العمل المضحك الغريب!

لم تكن ماري تتقبل حكماً هداماً مناقضاً كهذا الحكم، فهمّت تريد لومه والتعرض لأسلوبه، لولا أن ترددت الخطوات المتوقعة وعلا وقعها. ودخل الأمير العجوز بمشيته النشيطة الرشيقة، وحركاته الطليقة وكأنها تعترض على النظام الدقيق الذي يسير الأمور في البيت.

وفي تلك اللحظة دقت الساعة دقَّتين وردّدت القاعة صدى دقتين أخريين من الساعة المعلقة على جدارة. توقف الأمير وراحت نظرته العميقة القاسية تنتقل بين الموجودين حتى توقفت على زوجة ابنه. فشعرت هذه بذلك الشعور الذي يندمج القلق فيه بالاحترام، والذي يفرضه وجود الأمير على كل من حوله، وأحست إحساس الرعية المخلصة عند اقتراب الملك. لاطف الأمير العجوز ليز بأسلوب ينقصه التوفيق تدل على قصر باعه في مثل هذه المجاملات، فربت مؤخرة رأسها ومس شعرها بيده ثم قال بصوت أجش: إنني سعيد مفتون.

وبعد أن حدّق إلى وجهها مرة أخرى متفحصاً، أشاح بوجهه عنها فجأة ومضى إلى مكانه إلى الطاولة وهو يقول: خذوا أماكنكم، خذوا أماكنكم،

إجلس يا ميخائيل ايـڤانوڤيتش وأشار إلى زوجة ابنه أن تجلس بقربه، فأسرع خادم يحمل لها مقعداً إلى المكان المعين.

قال العجوز وهو يُشير إلى وسط زوجة ابنه: هه، هه! هذا يدل على الإسراع في الواجب. في! في!

وانفجر ضاحكاً ضحكته الجافة المكروهة، ضحكة تصدر عن فمه فلا تشاطره العينان فيها. تابع بإلحاح:

ـ يجب السير بأسرع ما يمكن، أسرع ما يمكن.

لم تسمع الأميرة الصغيرة كلامه، أو لعلها تظاهرت بأنها لم تسمعه كانت محتفظة بصمت قلق قطعته مرة لتجيب بابتسامة عن سؤال وجّهه الأمير إليها حول صحة والدها. ثم سألها عن معارفها وعندئذ عادت ليز إلى انطلاقها المعهود، فنقلت إليه تمنيات مختلفة وأفرغت ما في جعبتها من ثرثرات العاصمة.

فتمتمت: إن الكونتيسة آيراكيش، المسكينة، فقدت زوجها فبكته بكل ما في عينيها من دموع.

وبينما كانت ليز تزداد حماسة واندفاعاً، كانت نظرة الأمير إليها تزداد صرامة وقسوة، وفجأة أشاح بوجهه عنها وأدار لها ظهره وكأنه درسها كفاية، وراح يُحدث المهندس. حسناً يا ميخائيل ايـڤانوڤيتش، إن «بوناپرتنا» أصبح الآن في حال سيء! وذلك بالإصغاء إلى ما يقوله الأمير أندره.

كانت عادته عندما يتحدث عن ابنه أن يشير إليه بالضمير المفرد الغائب.

أردف يقول: ستنقض عليه زوبعة ثلجية هائلة. ونحن الذين كنا نعتبره مخلوقاً خالياً من الكفاءة والإمكانيات!

وتساءل ميخائيل إيڤانوڤيتش في سره عن الوقت الذي استطاع «كلاهما» خلاله التحدث عن هذه الآراء حول بوناپرت. لكنه كان يعرف أن الأمير

يستخدمه دائماً وسيلة لإثارة موضوعه المفضل. لذلك راح ينظر إلى الأمير الشاب بدهشة دون أن يعرف نتائج ذلك الموقف بالضبط.

قال الأمير العجوز لابنه وهو يُشير إلى المهندس:

ـ نعم، إنه ماهر جداً في أمور الحرب والخطط الحربية!

ودارت الأحاديث مجدداً حول الحرب، وبوناپرت، والقادة العظام ورجال الدولة المعاصرين. كان يبدو على الأمير العجوز أن كل زعماء العهد الجديد ليسوا فقط غلماناً صغاراً يجهلون حتى مبادئ الحرب والسياسة، بل إن بوناپرت أيضاً لم يكن إلا فرنسياً حقيراً، لم تكن انتصاراته لتدوم لو كان خصومه من طراز جريجوار الكسندروڤيش بوتيمكين[1] وسوڤوروف وكان كذلك مقتنعاً بأنه لم يكن في أوروبا في الوقت الحاضر عدوان ولا حرب جديرة بالاسم الذي يُطلق عليها بل إن الأمر كان مقتصراً على مشهد من مشاهد «كاراكوز» حيث الرجال يتظاهرون أنهم يقومون بدور جدّي. وكان أندريه يستقبل تلك السخرية اللاذعة بابتسامة مغتبطة، ويحاول بمكر أن يستزيد أباه منها، وقال يثيره:

ـ نعم إننا نحب دائماً تمجيد الوقت الماضي مع أن «سوڤوروڤك» سقط في الشرك الذي نصبه له «مورو»[2] ولم يستطع الخلاص منه كما أعلم.

صرخ الأمير العجوز وهو يُزيح صحفته من أمامه فيتلقفها تيخون برشاقة:

ـ من قال لك ذلك؟ من قال لك ذلك؟ سوڤوروف!... فكر قليلاً يا أمير أندريه؛ إنهما إثنان فقط: فريدريك سوڤوروف... مورو! لكن مورو كاد يقع

---

(١) «فيلد مارشال» مقرب من جلالة الأمبراطورة كاترين الثانية. (المترجم).

(٢) جنرال فرنسي حارب في إيطاليا، ثم أصبح قائداً عاماً لجيش الرين، وكاد يصبح منافس بوناپرت. (المترجم).

سجيناً لو أن سوڤوروف كان مطلق الحرية. غير أن يديه كانتا مغلولتين من قبل ضباط القيادة الألمان. سوف ترى هؤلاء الضباط الآن. إنهم يخدعون الشيطان نفسه حتى يجعلوه حماراً بليداً.

إذا كان سوڤوروف لم يستطع أن يتخلص، فهل تعتقد أن ميخائيل كوتوزوف[1] قادر على ذلك! كلا يا صديقي. إنكم بكبار ضباطكم الحاليين وحدهم لن تستطيعوا شيئاً ضد ناپليون. إنكم إذا شئتم هزمه، ينبغي لكم إيجاد فرنسيين «تنكروا نهائياً لأبناء قومهم، فينقضوا على أبناء قومهم». ولهذا السبب أرسلنا الألماني باهلين إلى أميركا، إلى يورك الجديدة «نيويورك حالياً» للبحث عن الفرنسي مورو.

كان بهذا القول يُلمح إلى العرض الذي تقدم به الروس إلى ذلك القائد الفرنسي للدخول في خدمة روسيا. أردف يقول: يا له من ضلال! هل كان بوتيمكين وسوڤوروف وأورلوف[2] وأمثالهم من الأجانب؟ كلا يا عزيزي. لقد فقدتم عقولكم جميعاً أو أنني عدت إلى عقلية الطفولة... ليساعدكم الله. وسنرى... بوناپرت عسكري كبير! هم!...

قال الأمير أندريه: أنا لا أزعم أن كل الخطوات التي اتخذت كانت مُجدية وممتازة، لكن رأيك عن بوناپرت يُدهشني. إضحك ما شئت، ولكنه عسكري كبير حقاً.

صرخ الأمير العجوز يستشهد بالمهندس الذي كان يهاجم قطعة الشواء، معتقداً أنه نُسي تماماً وأهمل في ذلك الحديث: يا ميخائيل ايـڤانوڤيتش، ألم أقل لك إن بوناپرت عسكري كبير؟ إنه هو الآخر يقول ذلك.

فأجاب المهندس: تماماً يا صاحب السعادة.

---

(١) جنرال روسي كان خصم ناپليون عام ١٨١٢

(٢) قائد عسكري روسي، توفي وهو مصاباً بالجنون أثر طرده من رحمة الامبراطورة.

عاد الأمير يضحك ضحكته الجافة وقال: لقد ولد بوناپرت محظوظاً. إنه أولاً لديه جنود ممتازون. وهو لم يواجه حتى الآن إلا الألمان. فمن الذي لم يهزم الألمان؟ لم يهزمهم إلا أولئك الذين لم يريدوا أن يحتملوا عناء ذلك. لأن الألمان كانوا منذ أن أصبح العالم عالماً يُهزمون. إنهم لا يُجيدون إلا التناحر فيما بينهم. وعلى مثل هؤلاء الحمقى أقام بوناپرت.مجده.

وراح الأمير العجوز يشرح بإسهاب الأخطاء الفنية الاستراتيجية التي يعزوها إلى بوناپرت. وأخذ كذلك ينتقد تصرفاته كرجل دولة. أما الابن فقد كان ممتنعاً عن إبداء أي اعتراض. لكنه كان يبدو على وجهه أنه رغم شرح أبيه وأقواله، فإنه لم يكن على استعداد ليغيِّر رأيه حول ذلك الموضوع. وكذلك كان الأب. لكن الأمير الصغير كان يتأمل بإعجاب سعة اطلاع العجوز على مجرى الأمور من الوجهتين السياسية والعسكرية في كل أوروبا، والطريقة الدقيقة التي كان يُعالج بها تلك الأمور رغم انزوائه منذ سنين طويلة في الريف.

قال العجوز معقباً: لعلك تتصور أن عجوزاً مثلي لا يمكن أن يفهم شيئاً في الأمور الحاضرة؟ إنك مُخطئ. إن هذه الأمور تقلقني حتى إنني لا أنام الليل بسببها. إذن أين ظهرت بوادر عسكريك الكبير في الآونة الأخيرة؟

فأجاب الابن: إن شرح ذلك يطول.

فصاح العجوز: حسناً، إمض إذن إلى لقاء بوناپرتك!...

واستدار نحو الآنسة بوريين وقال:

ـ يا آنسة بوريين، هو ذا مُعجب جديد بأمبراطورك القذر.

ـ إنك تعرف تماماً يا أميري أنني لست من أنصار بوناپرت.

فعاد العجوز يدندن بصوته الناشز: الله يعلم متى يعود...

وأعقبها بضحكة أكثر نشوزاً وهو ينهض عن الطاولة.

لم تنبس ليز بكلمة واحدة خلال هذه المناقشة بل كانت تُلقي نظرات مذعورة تارة على ماري وأخرى على أبيها. فلما انتهى الطعام، أمسكت بذراع ماري وأخذتها إلى غرفة مجاورة وقالت لها: إن أباك شديد الذكاء. ولعله بسبب ذلك يُشعرني بالخوف.

فأجابت ماري: أجل! إنه رجل طيّب!

الفصل الثامن والعشرون

صمّم الأمير أندره على السفر مساء اليوم التالي. مع ذلك، فإن الأب حرصاً منه على نظام حياته، انسحب بعد تناول الغداء مباشرة، بينما ذهبت ليز إلى جناح ماري. أما أندره وبعد أن عاين عربته الخفيفة وموضع حقائبه وترتيبها، وأعطى الأمر بأن يُقطر الجواد إلى العربة، راح وقد ارتدى ثوب السفر ونزع الزينة التي تُحلى بها كتفاه، يُهيىء حاجاته الأخيرة بمساعدة خادم غرفته في المنزل الذي خُصص له.

لم يترك في الغرفة إلا الأشياء التي لا يتخلى عنها أبداً: صندوق صغير يحوي أدوات للزينة مصنوعة من الفضة، وغدارتين تركيتين، وحُساماً. وكان أبوه قد قدم له هذه الأشياء هدية بعد أن أتى بها من أوتشاكوف. فكان يحتفظ بتلك الهدية بعناية فائقة محزومة في قطع من القماش السميك.

جرت العادة أن يفكر كل رجل قادر على التخيل، عندما يطرأ على حياته رحيل مفاجىء، أو انتقال، أو تبدل في أسلوب الحياة، وأن تراود عقله أفكار شتى. لأن مثل تلك الساعة تكون صالحة جداً للبحث في الماضي وإقامة خطط للمستقبل.

كذلك كان الأمير أندريه في تلك اللحظة. كان عاقداً يديه وراء ظهره يذرع الغرفة من زاوية إلى أخرى وهو شاخص النظر يهز رأسه بشرود. ترى هل كان يُرهقه الذهاب إلى الحرب ويرعبه، أم كان يقلقه هجرانه لزوجته؟ لعله كان يفكر في كلا الأمرين معاً... وبينما كان على تلك الحال. تناهى إلى سمعه

وقع خطوات في الردهة فلم يزعجه أن يفاجئه أحد وهو على تلك الحالة من الشرود. توقف قرب المنضدة وراح يتشاغل في عقد غلاف صندوقه، واستعاد هدوءه وأمارات السكينة المعهودة، وأسدل على وجهه ذلك الحجاب الكثيف الذي لا يمكن للعين أن تستشف من خلاله أفكار صاحبه. كانت الخطوات الثقيلة تُشير إلى وصول أخته ماري.

قالت لاهثة وكأنها قطعت شوطاً وهي تركض: قيل لي إنك أمرت بتجهيز العربة. وأنا التي كنت أتحين الفرص للقائك وحيداً. إن الله يعرف متى سنلتقي من جديد. هل أزعجك قدومي؟

وأضافت وكأنها تُبرر سبب إلقائها ذلك السؤال: ذلك أنك تبدلت كثيراً يا أندريوشا.

وابتسمت وهي تنطق باسم التدليل العذب الذي درجت على إطلاقه عليه. ولعلها وجدت أن من الغرابة أن يكون هذا الشاب الجميل، ذو الوجه الصارم، هو نفسه أندريوشا، ذلك الفتى الماكر الهزيل الذي كان رفيق طفولتها.

سألها بعد أن أجاب عن سؤالها الأول بابتسامة: أين ليز الآن؟

قالت الأخت وهي تجلس على كنبة قبالة أخيها: إنها شديدة التعب حتى أنها نامت من فورها على كنبة في مخدعي. آه يا أندره! إنها امرأة أثمن من كنز! إنها طفل حقيقي غاية في اللطف. لقد شعرت بميل عنيف نحوها للوهلة الأولى.

لم يُجب أندريه، لكن قسماته فضحت سخرية ارتسمت على وجهه. فلم يخف ذلك على الأخت. قالت: لنكن متسامحين تجاه هفوات الآخرين الصغيرة، يا أندره. من الذي يخلو من هفوات؟ لا تنس أنها نشأت في بيئة صاخبة راقية، ثم إن حالتها ليست على ما يرام. يجب أن نضع أنفسنا مكان الآخرين فإذا فهمنا كل شيء صفحنا عن كل شيء، فكر في ما ينتظر المسكينة

عقب لون الحياة الذي ألفته. ستجد أن وضعها الحاضر مؤلم خصوصاً وهي التي ستفترق عن زوجها لتمكث وحدها في الريف.

راح أندريه يبتسم وهو ينظر إلى أخته كما يبتسم المرء للشخص الذي يعتقد أنه يقرأ أفكاره وقال: لكنك أنت أيضاً تعيشين في الريف يا أختاه، فلا تجدين الحياة رهيبة بهذا القدر.

ـ إن أمري مختلف، فدع عنك الحديث عني، أرجوك... إنني لا أستطيع التطلع إلى لون مختلف من الحياة لأنني لا أعرف غير حياتي الحاضرة. فكر قليلاً يا أندريه في الحزن الذي تتعرض له امرأة شابة عصرية تدفن نفسها في الريف، وخصوصاً أن «بابا» مشغول أبداً وأنا... أنت أدرى بمبلغ عجزي عن توفير ما تتطلبه سيدة عاشت في أرقى الأوساط. بذلك لن يبقى إلا الآنسة بوريين...

ـ أنا لم أستملح قط هذه الآنسة بوريين.

ـ لا تقل! إنها فتاة رائعة، شديدة الطيبة، تستوجب الرثاء والإشفاق. إنها محرومة من كل سند في الحياة، كل سند. وإذا شئنا أن نتكلم بصراحة قلت لك إنني في غير حاجة إليها، بل إنها تزعجني أحياناً. لأن طبيعتي المتطيرة لا تتفق مع مزاجها اللطيف المرح. ثم إنك لا تجهل ولا شك، أنني أزداد إغراقاً في تطيري. أنا أحب الوحدة... ثم إن أبي يحبها كثيراً وهو دائماً لطيف معها، كما هو إزاء ميخائيل إيڤانوڤيتش. لأنهما مدينان لفضله. وكما قال ستيرن[١]: «إننا نحب الأشخاص بسبب ما فعلناه في سبيلهم من خير، أكثر مما نحبهم بسبب عملهم الخير لنا». لقد التقطها أبي يتيمة في الطريق لكنها ذات قلب طيب. وأبي يحب طريقتها في القراءة. وهي تقرأ له في كل مساء، وتقرأ بشكل ممتاز.

---

(١) ستيرن، كاتب إنكليزي ساخر (١٧١٣ ـ ١٧٦٨). (المترجم).

سألها أندريه فجأة: ألا تعترفين يا ماري بأنك تتألمين أحياناً بسبب عقلية أبينا؟

ألقى ذلك السؤال على الأميرة ماري في حالة من الذهول أقرب إلى الرعب والخوف. قالت: ماذا تقول؟... أتألم؟... أنا؟...

ـ لقد كان صارماً أبداً، وقد أصبح كما أعتقد مؤلماً شديد الإيلام.

لعله كان يريد بتعبيره عن آرائه بهذا الشكل المتحرر وبالتحدث عن أبيه بتلك اللهجة، أن يربك أخته أو يروعها.

قالت ماري وهي تتبع سياق أفكارها أكثر مما تصغي إلى سير المحادثة:

ـ إنك فتى ممتاز يا أندريه، لكن في أحكامك لون من الإغراق، وإنها خطيئة عظيمة. هل يجوز للمرء أن ينتقد أباه؟ ولو أن ذلك كان مباحاً، فكيف يمكن أن يوحي رجل مثل أبي بغير شعور الاحترام؟ ثق إنني مرتاحة جداً وسعيدة جداً بقربه. إن غايتي الوحيدة هي أن تكونوا جميعكم سعداء كما أنا سعيدة.

فهز أندريه رأسه بتشكك وارتياب بينما تابعت ماري: إذا شئت معرفة الحقيقة يا أندريه، فثق إن ما يعذبني ويزعجني في أبي هو لامبالاته حيال الشؤون الدينية. لست أفهم كيف يمكن لعقلية نيرة كهذه أن تتيه إلى هذا الحد، فتمتنع عن رؤية ما هو واضح كضوء النهار. إن هذه الناحية هي كل ما يؤلمني بل إنني في الآونة الأخيرة اكتشفت بعض التقدم عنده: فقد أصبحت سخرياته أقل شدة. بل إنه وافق على استقبال أحد الرهبان والاستغراق معه في حديث طويل.

فأجاب أندريه بلهجة جمعت بين السخرية والمودة: إنني أخشى، يا عزيزتي، أن تحرقي أنت والراهب كل جهدكما عبثاً!

ـ آه يا صديقي! إنني لا أنفك أبتهل إلى الله وآمل أن يتقبل ابتهالاتي...

ثم تابعت بعد سكوت يسير في شيء من الارتباك والخوف: أندريه، عندي رجاء حار أتقدم به إليك:

ـ ما هو رجاؤك يا صديقتي؟

ـ عدني أولاً أنك لن ترفضه. إنه لن يسبب لك أي عناء ولن تخجل منه. ثم إنك تسبغ علي بتقبله عزاء وسلواناً.

ثم تابعت وهي تلمس في حقيبة يدها شيئاً كان موضوع رجائها ولا شك، ولكنها ما كانت تريد إظهاره إلا بعد أن تحصل على كلمة أخيها وميثاقه: عدني يا أندريوشا.

وراحت تنظر إليه بعينين متوسلتين.

فأجاب أندريه وقد ضمن موضوع رجائها: بل إنني أعدك ولو كان فيه كبير عناء...

ـ لك أن تفكر كما تشاء لأنني أعرف أنك وأبي سواء حول هذا الموضوع. لكنني أتوسل إليك أن تفعل ذلك من أجلي. لقد حمله جدنا الأكبر، طوال غزواته وحروبه...

واستبقت يدها في الحقيبة لا تخرجها وعقبت: إذن هل تعدني؟

ـ طبعاً أعدك. ما هو الأمر الذي تريدينه؟

ـ أندريه، إنني أباركك بهذه الصورة المقدسة فعدني بأنها لن تفارقك أبداً. هل تعد؟

فقال أندريه: إذا كانت لا تزن أرطالاً ثقيلة، وكانت لا تجتذب عنقي بشدة إلى الأسفل، فإنني أود من صميم قلبي أن أدخل السرور إلى نفسك.

ولما شاهد ما ارتسم على وجه شقيقته من ألم.

عرف أن دعابته قد جرحت شعورها المرهف، فاستدرك بلهجة أخرى: بكل سرور، بل بسرور عظيم يا صديقتي.

قالت بصوت متهدج من الانفعال وهي ترفع راحتيها أمام أنظار أخيها بحركة محترمة، وعليها صورة مقدسة قديمة مسودة، يحميها إطار بيضوي جميل، معلقة بسلسلة فضية دقيقة الصياغة: سواء شئت أو لا، فإنه سينقذك ويعيدك إليه، لأن الحقيقة الوحيدة والعزاء الأوحد كامنان فيه.

ثم رسمت إشارة الصليب على صدرها وقبلت «الأيقونة» وقدمتها لأندريه وهي تقول: أرجوك يا أندريه، إفعل ذلك من أجلي...

كانت عيناها الواسعتان تشعان بذلك الوميض الدافئ الذي يجمل وجهها الهزيل الناحل. ولما همّ أندريه بأخذ «الأيقونة» استوقفته. أدرك مرادها، فرسم إشارة الصليب بدوره وقبّل الصورة المقدسة وهو بين ساخر ومنفعل، وقال وقد رقت عواطفه:

ـ شكراً.

فقبلته أخته في جبينه، وعادت تجلس على الكنبة وساد صمت عليهما.

قالت تقطع الصمت المخيم:

ـ كن طيباً كما أسلفت وطلبت منك لأنني أعرف أنك كنت كذلك أبداً. لا تقس في حكمك على ليز. إنها لطيفة جداً. إن مصيرها الحاضر غاية في الحزن:

ـ لم تكررين علي هذا القول يا ماري؟ هل قلت لك إنني آخذ على زوجتي مأخذاً ما، أم إنها تسبب إزعاجي؟

ظهرت على وجه ماري لطخات حمراء فسكتت وكأنها أخذت بخطئها. أردف أندريه:

ـ كلا. إنني لم أحدثك قط بشيء من هذا، لكنه نما إليك من بعضهم أليس كذلك؟ إن ذلك يزعجني ويؤلمني.

اجتاحت البقع الحمراء جبين ماري هذه المرة بعد أن صبغت وجنتيها

وعنقها. كانت تريد أن تجيبه ولكن أرتج عليها، وظلت الكلمات محتبسة في حنجرتها. لقد خمن أخوها حقيقة ما وقع: إذ إن ليز كانت قد حدثت ماري بعد الطعام وسط نوبة من الدموع، بأنها تنتظر ولادة عسيرة تخشى ألّا تنجو منها. ثم شكت سوء مصيرها وشكت من زوجها وأبيه، وأخيراً أنهكتها الدموع فاستسلمت للنوم. وقد أشفق أندريه على أخته فقال:

ـ اعلمي جيداً يا ماري أنني لا ألوم زوجتي على شيء، وما لمتها من قبل ولن ألومها في المستقبل. ولا أستطيع من ناحيتي أن أوجه لنفسي لوماً على سلوكي حيالها، لأن تعرفي منطقي، ومعقول ونحن في مثل هذه الظروف الحرجة. مع ذلك إذا شئت أن تعرفي إذا كنت سعيداً وكانت هي الأخرى سعيدة أجبتك بصراحة أن: لا، لا، لا! أما ما هو السبب؟ فلست أدري...

ونهض فاقترب من أخته وقبلها في جبينها، كانت عيناه الجميلتان تلتمعان ببريق غير معهود، بريق مفعم بالتعقل وطيبة النفس، ولكنه لم يكن يوجه أنظاره إلى أخته، بل كان شاخصاً بها إلى الظلمات العميقة البادية خلال الباب المفتوح وراءها.

نهضت ماري فوقفت على العتبة وقالت: أندريه، ليتك آمنت، لكن توجّهت إلى الله طالباً إليه أن يمنحكما الحب الذي لا تشعران به، ولكانت ابتهالاتك قد قبلت:

ـ نعم، لعل ذلك صحيح!... إذهبي يا ماري سأتبعك بعد حين.

وجد أندريه نفسه فجأة في مواجهة الآنسة بوريين الضاحكة بينما كان يجتاز الممشى الذي يجمع بين الجناحين ليدخل إلى مخدع أخته، فكانت تلك المقابلة الثالثة من نوعها لذلك اليوم في أمكنة منعزلة. كانت الفتاة تبتسم أبداً ابتسامتها الحية البريئة.

قالت وقد احمرَّ وجهها وأطرقت بعينيها دون سبب ظاهر: لقد ظننتك في مخدعك.

اتخذ أندريه فجأة طابع الغضبان واكتفى بأن حدج الفرنسية بنظرة ثائرة ملؤها الاحتقار، جعلت الدماء تصعد إلى وجهها فتحيد عن طريقه دون أن تهمس بكلمة. فلما بلغ غرفة أخته، بلغ مسمعه صوت ليز العاتي، التي كادت تستيقظ حتى راحت تسرد سلسلة من الحوادث الجديدة، وكأنها كانت تريد استدراك الزمن الذي فاتها، والذي قضته في صمت مطبق. كانت تقول:

ـ تصوري يا ماري الكونتيسة سوبوڤ العجوز بأقراطها المزيفة وفمها المنضد بأسنان صناعية وكأنها تتحدى السنين... ها! ها! ها!

كان أندريه قد سمع زوجته تردد هذه العبارة بالذات وتعقبها بتلك الضحكة بالذات أمام غرباء للمرة الخامسة. فدخل دون ضجة. رأى ليز جالسة على مقعد وأشغالها في يدها، مستديرة متوردة الوجه تثرثر دون توقف وتستوحي ذكريات پيترسبورغ وحتى نتفاً من أحاديثها. سألها وهو يداعب شعرها عما إذا كانت قد استراحت من عناء السفر، فأجابته مقتضبة وعادت إلى ثرثرتها.

ستة أفراس تقطر عربة مكشوفة كانت تقف أمام الباب، وكان ليل الخريف شديد السواد، حتى إن الحوذي لم يكن يستطيع رؤية عريش العربة. وعلى الممشى المؤدي إلى المدخل، كان عدد من الناس يحملون المصابيح ويعملون، وكانت الأضواء تلتمع خلال كل نوافذ المسكن العليا، وقد تهافت الخدم في الممشى، وكلهم يرغب في تقديم تمنياته للسيد الشاب قبل سفره... أما أهل الدار وميخائيل ايڤانوڤيتش والآنسة بوريين وماري وليز، فقد كانوا ينتظرون في القاعة الكبيرة عودة الأمير أندريه من لدن أبيه الذي أعرب عن رغبته في لقائه على انفراد لوداعه.

عندما دخل أندريه مكتب الأمير العجوز، كان هذا الأخير مرتدياً معطفاً منزلياً أبيض، احتفظ به خلال فترة وداع ابنه. وكان يكتب على ورقة وقد أثبت نظارتيه على أرنبة أنفه. استدار نحوه وقال: هل تذهب الآن؟

وعاد إلى كتابته. فقال الابن: لقد جئت أودعك يا أبي:

ـ حسناً قبلني هنا، وأشار إلى وجنته، شكراً شكراً.

ـ لأي شيء تشكرني؟

ـ لأنك تلتحق بالجيش في الوقت المناسب. يا للسعادة: إنك لا تتعلق بثياب امرأتك. إن الواجب قبل كل شيء فشكراً شكراً.

وظل القلم يجري على الورقة بسرعة حتى أنه كان يغرز فيها أحياناً أو يلطخها بالحبر. قال الأمير العجوز: إذا أردت أن تقول شيئاً فقله لأنه لن يزعجني.

ـ إن الموضوع متعلق بزوجتي... في الحقيقة إنني خجل إذ أتركها لك وأحملك مسؤولياتها:

ـ ما هذه الفلسفة؟ قل ماذا تريد أن تقوله.

ـ حسناً. عندما يحين وقت ولادتها، أرجو أن تستدعي مولداً من موسكو... إنني أصر على أن يكون بجانبها مولد عند ولادتها.

توقف الأمير العجوز وتظاهر بأنه لم يفهم، ثم حدج ابنه بنظرة قاسية فبدا أندريه مرتبكاً. قال الأمير الشاب: إنني أعرف أن الطبيعية إذا لم تساعد نفسها بنفسها فإن الإنسان لا يستطيع شيئاً حيالها. وإنني أعترف أن هناك حالة سيئة بين كل مليون حالة، ولكن ماذا تريد، تلك هي فكرتها... وكذلك هو رأيي. لقد أداروا رأسها وحلمت أحلاماً مزعجة، وبالاختصار إنها خائفة.

فغمغم العجوز وهو يُنهي رسالته ويوقع عليها توقيعاً ضخماً: هم!

هم!... ليكن! ثم التفت فجأة إلى ابنه وقال له وهو ينفجر ضاحكاً: إنها مسألة مزعجة أليس كذلك؟

ـ أية مسألة يا أبي؟

فأجاب الأب بلهجة مفعمة بالمعاني: زوجتك!

ـ لست أفهمك.

ـ والأسوأ يا صديقي الطيب هو أنه لا يمكن أبداً تبديل شيء. فلا تيأس، لن أتحدث بالموضوع إلى أحد، وأنت تعرف كيف تتصرف.

ثم أمسك بذراعه بيده الصغيرة النحيلة، وهزه وهو يحدجه بنظرة قاطعة تكاد تخترقه من جانب إلى آخر، ودوت ضحكته الباردة الجامدة من جديد. فأطلق الابن زفرة أثبتت للأب أنه أصاب الهدف في تخمينه، بينما عاد الأمير العجوز يطوي الرسالة ويختمها بخاتمه حسب طريقته المألوفة وقال: ماذا تريد، إنها جميلة!... فكن مطمئناً سوف أعمل اللازم.

لم يجب أندريه. كان مسروراً كما كان حزيناً لأن أباه استطاع أن يخترق سريرته ويحدس ما فيها. فنهض العجوز ومدّ الرسالة إلى ابنه وقال:

ـ إصغ. لا تقلق مطلقاً حيال زوجتك لأننا سنعمل المستحيل من أجلها. والآن هذه رسالة إلى ميخائيل إيلاريونوڤيتش، لقد كتبت له طالباً إليه أن يستخدمك في أهمّ المراكز وأن لا يستبقيك طويلاً في الأركان العامة لأن هذه المراكز سيئة مكروهة! طمئنه بأنني مازلت أذكره وأحتفظ له بمودتي القديمة، واكتب لي عندما يستقبلك. لا تمكث معه إلا إذا استقبلك استقبالاً يليق بك. إن ابن نيكولا أندرييـڤتش بولكونسكي، ليس بحاجة إلى أن يطلب منة من أحد، مهما سما مركزه. والآن تعال من هنا.

كان الأمير العجوز يتكلم بطلاقة عظيمة، حتى أنه ما كان يخرج نصف الكلمات. لكن أندريه كان معتاداً أسلوبه. قاده أبوه إلى خزانة فتحها وجذب

درجاً فيها أخرج منه دفتراً مكتوباً بخطه الكبير ذي الأحرف الطويلة المشبكة وقال:

ـ لا شك إنني سأموت قبلك. فاعلم إنني سجلت مذكراتي في هذا الدفتر فيجب إعطاؤه إلى الأمبراطور بعد موتي. وإليك رسالة ووثيقة ملكية «جبل الشفقة» إنها جائزة ثمينة لذلك الذي سيكتب تاريخ معارك سوڤوروف، فينبغي أن تنقل هاتين الوثيقتين إلى المجمع العلمي. وهذه أخيراً ملاحظاتي الشخصية فاقرأها من بعدي لأنك ستفيد من قراءتها.

حاذر أندريه أن يقول لأبيه إنه ينتظر أن يعيش سنوات طويلة أخرى، لأنه كان يعتقد أن ذلك القول خطيئة يجب ألّا يقع فيها فاكتفى بأن قال ببساطة: ستنفذ كل رغباتك يا أبي،

ـ حسناً والآن وداعاً!

وقدم له يده ليقبلها ثم ضمه بين ذراعيه وتابع: تذكر شيئاً واحداً يا أمير أندريه: إذا قتلت فإن ذلك سيكون شديد الوقع والألم على قلبي العجوز...

ثم أبدل مكانه وقال بعد صمت: لكنني إذا علمت أنك لم تتصرف جديراً بابن نيكولا پولكونسكي، فإن ذلك سيكون عاراً عليك!

فأجاب الابن مبتسماً: كان يمكنك يا أبي ألّا تقول لي ذلك وأن تثق بأنني سأكون عند حسن ظنك.

فسكت العجوز بينما استرسل أندريه يقول:

ـ لي رجاء أتقدم به إليك يا أبي. إذا قدر لي أن أقتل وأنجبت زوجتي ولداً، فأرجو أن لا تبعده من هنا. إنني أريد، كما أسلفت لك أمس، أن يترعرع ويشب في ظلالك. إنني أرجوك بإلحاح أن لا تغفل ذلك.

فقال العجوز مقهقهاً: آه، آه! يجب ألّا أدعه لأمه أليس كذلك؟

لبث الرجلان لحظة يتبادلان النظر صامتين. كان الأب يحدق إلى عيني

ابنه وكانت ذقنه ترتعد ارتعادة خفيفة. قال فجأة: حسناً، لقد ودعنا بعضنا فامض الآن!

ثم كرر بصوت آمر وهو يفتح الباب:

ـ إمض!

تساءلت الأميرتان وهما تشاهدان أندريه خارجاً ووراءه شبح العجوز الغاضب، وهو في معطفه المنزلي ونظارتيه، وقد غفل عن وضع الشعر المستعار على رأسه: ماذا هناك؟ ماذا هناك؟

فلم يجب أندريه إلا بزفرة وقال لزوجته بلهجة فيها سخرية باردة:

ـ هيا!

كان يبدو أنه يدعوها بتلك الكلمة إلى إلقاء مرثياتها التي يتوقع أن تلقيها!

هتفت ليز وقد شحب وجهها وراحت تنظر إليه بارتياع: أندريه، أتذهب!

فأخذها بين ذراعيه. غير أن ليز أطلقت صرخة وهوت على كتفه مغشياً عليها. فخلص نفسه منها وسجاها بهدوء على كنبة وقال لأخته بصوت خفيض:

ـ وداعاً يا ماري.

ثم عانقها وقبلها قبلات أخوية قلبية وابتعد بخطوات سريعة.

لبثت ليز مسجاة على الكنبة تغسل الآنسة بوريين صدغيها بالماء. أما ماري فكانت تنظر، بعينين مغرورقتين في الدموع، إلى الباب الذي خرج منه أخوها، فرسمت إشارة الصليب باتجاهه، وعادت تهتم بزوجة أخيها.

وارتفع صوت من مكتب العجوز الغاضب يشبه طلقة الغدارة، ينبئ بأن العجوز المنفعل يتنخم في منديله. وما كاد أندريه يغادر باب المكتب ويبتعد عنه، حتى وورب الباب، وظهر الأمير العجوز بقامته الصارمة وهو في معطفه المنزلي الأبيض وقال: هل ذهبت؟ هيا، ذلك أفضل!

هز رأسه بلوم وصفق الباب وراءه. بعد أن ألقى نظرة غضبى على زوجة ابنه المغمى عليها.

الجزء الثاني

الفصل الأول

كانت القطعات الروسية في تشرين الأول عام ١٨٠٥ تُشغل عدداً من قرى ومدن الأرشيدوقية النمسوية وكانت قوات روسية أخرى تصل باستمرار وتتمركز قرب حصن «برونو» محدثة أضراراً كثيرة للسكان. وكان ذلك الحصن مركز القائد الأعلى كوتوزوف.

على بعد ربع ميل من المدينة كانت إحدى سرايا الجيش مستقرة، تنتظر وصول الجنرال القائد الأعلى في اليوم الحادي عشر من تشرين الأول. وكانت تلك السرية، رغم المشهد الطبيعي الغريب الذي يحيط بها، البساتين والأسوار الحجرية، سطوح القرميد، والجبال الرابضة على البعد، ورغم طبيعة السكان التي لا تقل غرابة عن المشهد الطبيعي، الذين كانوا ينظرون بفضول إلى هؤلاء الجنود، تحمل الطابع الذي تتسم به كل فرقة روسية على أرض الوطن عندما تنتظر تفتيش قائدها الأعلى.

مساء اليوم الأسبق، أبلغ ضباط السرية أن الجنرال القائد الأعلى سيحضر لتفتيش الفرقة المحاربة عندما تصل إلى آخر مرحلة من برنامج سيرها المحدد. وعلى الرغم من أن منطوق الأمر اليومي الذي صدر إلى قيادة الفرقة كان قليل الوضوح، حتى أن قائد الفرقة تساءل عما إذا كان ينبغي للجنود أن يكونوا في ثياب الميدان أو في ثياب الاحتفالات، فإن مجلس ضباط الكتائب قرر أن يكون الجنود في ثياب الحفلات على اعتبار أن هذا التصرف لا غبار عليه، وأن استعمال تلك الثياب في الغالب في مثل هذه المناسبات، خير من

إغفاله. وعلى هذا، فقد مضت الليلة دون أن يُغمض جفن في المعسكر، رغم أن الجنود كانوا قد أنهوا رحلة طولها ثمانية أميال.

كان الجنود يُلمعون تجهيزاتهم ويُعنون بزيهم العسكري، والرؤساء ومساعدو القيادة يحصون الرجال ويوزعونهم على مراكزهم، حتى أنهم كانوا في الصباح الباكر، قد جهزوا تلك الفرقة التي كان قوامها ألفي رجل، على شكل دقيق منظم، فكان كل جندي يعرف المكان الذي سيحتله والعمل الذي سيقوم به، وكانت كل التجهيزات نظيفة وكل الأزرار في أماكنها على الألبسة العسكرية. ولم يُعن الضباط بمظهر رجالهم الخارجي فحسب، فلو أن القائد الأعلى فكر في النظر إلى الألبسة الداخلية، لوجد أن كل جندي كان يرتدي قميصاً داخلياً نظيفاً، ولتأكد أن في كيس كل منهم الأشياء النظامية بعددها النظامي.

غير أن هناك أمراً واحداً كان يُشغل بال الضباط والجنود معاً: ذلك أن أحذية الجنود كانت ممزقة بالية، وكان النصف الأكبر منهم لا يملك أحذية إلا «البقايا» التي ظلت في أقدامهم. ولم تكن الخطيئة في ذلك تعود إلى آمر السرية. بل كان الخطأ يقع على كاهل مصلحة الإعاشة النمسوية «مهمات الجيش»، التي رغم المطالبات المتكررة والملحة، لم تُقدم شيئاً إلى الجنود الذين كانوا قد قطعوا أكثر من مائة وخمسين فرسخاً قبل أن يصلوا إلى ختام المطاف.

كان قائد الفرقة جنرالاً ذا حاجبين وسالفين تسلل إليهما المشيب. عريض الصدر، ضيق الكتفين، منكمش الجسم. كان لباسه الرسمي جديداً يحمل ثنيات ضخمة «وكتافتين» مذهبتين كانتا تساهمان في إظهار كتفيه منتصبتين. وكان ظهره على شيء من الانحناء، وفي خطوته بعض التراخي. كان يتنزه أمام جبهة الفرق، وكأنه سيد أتم من فوره أجل عمل قام به في حياته. بدا فخوراً

مُظفراً لقيادته فرقة تفانى من أجلها قلباً وروحاً. لكن مشيته المترددة، كانت تعطي فكرة أخرى تدل على تمسكه بنعيم الحياة وإغراء الجنس اللطيف.

قال يخاطب أحد قادة الكتائب وهو يبتسم ابتسامة كلها رضى: حسناً يا عزيزي ميخائيل دميتريش، أيها الباسل! لقد احتمل كلّ منا نصيب رتبته من أعباء الليلة الفائتة أليس كذلك؟ غير أن السرية كلها تبدو لي في أوجها كذلك ألست من رأيي؟

كان ضابط الكتيبة قد أجاب على قائده الأعلى بابتسامة لا تقل انشراحاً عن ابتسامته. فلما شعر أن الرئيس قد تطرق إلى المزاج الجميل أجابه ضاحكاً: إنني أعتقد أننا ما كنا لنقطب وجوهنا ونعبس ولو كنا في ساحة القتال!...

فقال الجنرال مستفهماً: هم؟...

ظهر فارسان في تلك اللحظة على برونو، حيث كان قد أقيم عليها مراقبون بانتظار وصول القائد الأعلى. كان أحدهما ضابطاً مساعداً والآخر خيّالاً قوقازياً، كانت القيادة العليا قد أرسلتهما إلى قائد السرية ليوضحا له أمر البارحة. أوضح الضابط المساعد الجنرال أن القائد الأعلى يرغب في رؤية السرية على ما كانت عليه حالها عندما وصلت إلى مكانها الحالي، دون أي تعديل أو تبديل. أي إنه كان يريد تفتيش الفرقة بلباس الميدان.

صباح أمس، تلقى كوتوزوف، أحد أعضاء القيادة المتحالفة «هوف كريجران» جاء من ڤيينا يرجوه ويستدعيه للقيام بعملية الالتحاق مع جين ماك[1] وجين الأرشيدوق فرديناند[2]. ورأى كوتوزوف أن الالتحاق بذينك

(١) جنرال نمسوي طوّقه ناپليون فاستسلم دون قتال مع ثلاثين ألف محارب. (المترجم).

(٢) فرديناند الأول، أمبراطور النمسا، كان لا يزال أرشيدوقاً أثناء حملة بوناپرت. (المترجم).

الجيشين غير مُجد لذلك فقد أراد أن يُظهر للجنرال النمسوي، بين العديد من الآراء المؤيدة لوجهة نظره الحالة السيئة التي بلغت إليها الجيوش الروسية القادمة من روسيا. ولهذا السبب وحده، كان يريد استعراض الوحدات القادمة التي كانت ستزيد اغتباطه كلما كانت حالته أكثر سوءاً.

ولما كان الضابط المساعد يجهل هدف قائد السرية، فقد نقل إليه رغبة القائد الأعلى في لقاء السرية على حالها التي كانت عليها عند بلوغها مرحلتها الأخيرة، وأنه في حال عدم تنفيذ تلك الرغبة، فإن القائد الأعلى سيكون شديد الاستياء. فهزّ الجنرال قائد السرية كتفيه، وأطرق برأسه وباعد بين ذراعيه، وقال بلهجة غاضبة يُحدث قائد الكتيبة:

ـ ها نحن في موقف سيئ! لقد قلت لك يا ميخائيل دميتريش إن المعاطف واجبة في الميدان. رباه، رباه!

وسار بخطى حثيثة وصاح بصوته الآمر: يا حضرات قادة الفصائل! أيها النقباء!

ثم استدار إلى الرسول وقال بلهجة امتثالية:

ـ هل سيصل سريعاً؟

فأجاب الضابط المساعد: خلال ساعة على ما أظن.

ـ هل نجد وقتاً كافياً لتبديل ألبسة الجنود؟

ـ لست أدري يا سيدي الجنرال.

تقدم الجنرال من الصفوف الأولى وأعطى أمراً بارتداء المعاطف. فجرى ضباط الفصائل بين الصفوف يبلغون الأمر، واهتم الرقباء واكتأبوا بسبب سوء حالة معاطفهم. ولم يلبث المربع المنظم الذي كان يضم جنوداً نظاميين، أن اعوجّ مدوياً. فالحركة بين الجنود عادت على أشدها: رفعوا أكياسهم عن

ظهورهم بضجيج مسموع، وأخذوا يعدون معاطفهم، وارتفعت الأذرع تدخل في أكمام المعاطف.

ولم تنقضِ نصف ساعة، حتى عاد المربع إلى الالتئام والسكوت بعد أن انقلب لونه من أسود إلى أشهب. وعاد الجنرال بخطواته المتثاقلة، يقف على مقدمة الفرقة ليعاين جنوده عن بعد. صاح بانفعال: ما هذا أيضاً؟ ما معنى ذلك؟

وتقدم بضع خطوات إلى الأمام وصاح: ليحضر رئيس الفرقة الثالثة.

ورددت الصفوف عبارة: قائد السرية الثالثة مطلوب للمثول أمام الجنرال!

بينما راح ضابط تابع يجري باحثاً عن الضابط المتأخر.

فلما بلغت الأصوات المرددة: «ضابط الفرقة الثالثة، إلى الجنرال!» مشوهة حتى أصبح النداء «الفرقة الثالثة للرئيس!» أو «الجنرال للفرقة الثالثة»!، الصفوف الخلفية، خرج الضابط المعني بالأمر من الصفوف. وعلى الرغم من أنه لم يكن في شرخ الشباب، ولم تكن من عادته الجري، فقد راح يسير جرياً نحو موقف الجنرال. لكن طريقته في الجري كانت متعثرة حتى أن طرفي حذائه كانا يصطدمان معاً بين آونة وأخرى. وكانت قسمات وجهه تحمل طابع القلق الذي يتجلى عادة على وجه التلميذ الذي طُرح عليه سؤال في مادة لم يكن قد قرأها. وكانت لطخات بيضاء تحلي أنفه المحمرّ من شدة الدلك، وفمه المرتعد لا يستقر على حال. فلما كاد يبلغ موقف الجنرال، أصبحت أنفاسه مبهورة وخطواته تزداد بطئاً.

حدجه الجنرال بنظرة من رأسه إلى قدميه، وصاح وهو يقدم فكه الأسفل دلالة على امتعاضه:

ـ ما معنى ذلك؟ لعلك تلبس جنودك عباءات بيضاء بعد قليل.

وأشار بإصبعه إلى جندي كان يرتدي معطفاً يختلف لونه عن كل ما حوله من معاطف، وأردف: وأنت؟... أين كنت؟ نحن ننتظر القائد الأعلى بينما أنت تترك مركزك هم؟... سوف أعلمك كيف تجعل رجالك يبدون بمظهر حسن في أيام العرض!

كانت نظرات رئيس الفرقة شاخصة إلى قائده وهو يحيّيه بإصبعين لبثتا ممسكتين بحافة خوذته وكأنه لا يعرف من السلام إلا تلك الحركة.

عاد الجنرال يقول بصوت يجمع بين الشدة واللين: تكلَّم أخيراً! من هو المتنكر؟ أهو هنغاري؟

ـ يا صاحب السعادة...

ـ ماذا «يا صاحب السعادة»؟ يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة! فسر موقفك...

ـ إنه يا صاحب السعادة دولوخوف، الضابط الذي خفضت رتبته إلى جندي.

كان رئيس الفرقة يتحدث بوجل. فصاح الجنرال: دولوخوف! لقد جعلوا منه جندياً وليس مارشالاً على ما أعتقد. فلمَ إذن لا يرتدي ألبسة كل الجنود؟

ـ إن سعادتكم أجزتم له ذلك أثناء المسير.

فقال الجنرال وقد هدأت حدته بعض الشيء: أجزت؟ أجزت؟ إنكم جميعاً هكذا أيها الشبان: تقال لكم كلمة فـ...

ثم عاد إلى الاحتداد مجدداً وتابع:

ـ تُقال لكم كلمة فتجعلون منها... ماذا؟ هم؟ ألبس جنودك الكسوة المناسبة.

واقترب الجنرال من الفرق المحتشدة وهو يجر ساقه كعادته، دون أن

يعقب على قوله إلا بنظرة ألقاها على الضابط المساعد. كان من الواضح أن حالة الغضب التي كان عليها، تُدخل السلوان على نفسه.

كان يبدو عليه أنه يعتمد البحث بين أفراد السرية عن سبب آخر يفتأ غضبه. وبعد أن تقدم بملاحظة إلى أحد الضباط بسبب ياقته المستعارة التي لم تكن شديدة النظافة، وآخذ آخر لسوء انتظامه في الصف، وصل إلى الفرقة الثالثة.

ـ خمسة رجال تفصله عن دولوخوف الذي كان مرتدياً معطفاً يميل لونه إلى الزرقة. فصاح بصوت مكتئب: ما هذا الهندام؟ ساقك، أين ساقك؟.

فعدل دولوخوف وقفته ببطء وحدج الجنرال بنظرة جريئة. أردف الجنرال: ما معنى هذا المعطف الأزرق؟ انزع هذا... أيها الرقيب، ليبدل ثيابه هذا الـ....

فقاطعه دوخولوف بخشونة قائلاً: سيدي الجنرال، إنني مُلزم بتنفيذ الأوامر وليس باحتمال...

ـ اصمت!... ممنوع الكلام بين الصفوف!... اصمت!

فأتم دولوخوف جملته بصوت مرتفع واضح:

ـ ... وليس احتمال الإهانات.

تقابلت نظرات الجنرال ونظرات الجندي. فراح الأول يشد على حزامه بغضب دون أن يجرؤ على التفوه بجواب، وأخيراً قال: تفضل بتبديل هندامك أرجوك.

ومضى مبتعداً.

الفصل الثاني

لقد جاء! صاح أحد المراقبين على الطريق!

احمرّ وجه الجنرال فجأة فأسرع إلى حصانه، وأمسك بالسيور بيد مرتجفة واعتلى صهوته. فلما استوى في مكانه، استل حسامه وأشرقت أساريره وقد علاها الحزم، وفتح فمه على زاوية استعداداً لإصدار الأوامر. وانتفضت السرية كالعصفور الذي ينفض ريشه، وتجمدت ساكنة كقطعة من الصخر.

صرخ الجنرال بصوت كالرعد تتجلى فيه أصداء الرضى الممزوج بالحزم حيال السرية والامتثال للقائد الأعلى: إس ـ تا ـ عد!

وعلى الطريق العريض المغروس بالأشجار، كانت عربة عالية من عربات ڤيينا، مطلية بلون أزرق فاتح، تقطرها ستة خيول، تتقدم مسرعة بصرير خافت وصخب مكتوم. وكان يرافقها حرس كرواتي. توقفت العربة أمام السرية حين كان كوتوزوڤ يتحدث بهدوء مع جنرال نمسوي جالس إلى جانبه بثيابه البيضاء التي كانت أشبه بلطخة وسط الستار الأسود الذي تشكله ألبسة الروس. ولما ترجل من العربة بخطاه الثقيلة، كان يبتسم إلى محدثه دون أن يبدو على وجهه أنه يهتم بالألفين من الرجال الذين كتموا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم إليه وإلى قائدهم المباشر.

دوّى أمر جديد، فتماوجت السرية وارتفع بين الصفوف صليل الأسلحة بالتحية النظامية، وأعقب ذلك سكون ثقيل قطعه صوت القائد الأعلى الخافت وهو يحيي الجنود، وصوت الجنود يدوّي مجيباً: «نتمنى لسعادتكم

صحة طيبة..»! وعاد السكون والهدوء من جديد. وبعد أن شهد القائد الأعلى العرض العسكري وهو في مكانه، راح يجوس خلال الصفوف مع تابعيه وهو يمشي جنباً إلى جنب مع الجنرال الأبيض.

وقائد السرية، الذي كان منذ حين واقفاً دقيقة جامدة يحيي بسيفه القائد الأعلى وهو يلتهمه بنظراته، يركض وراءه في تلك اللحظة منحني الجذع جاهداً في الامتثال لأية إشارة تصدر عن القائد الأعلى، مُبرزاً الدليل الواضح على أنه يقوم بكل واجبات المرؤوس حيال الرئيس بسرور يفوق سروره بالقيام بأعبائه كرئيس.

وكانت السرية تبدو على أفضل حال بفضل جهوده وحزمه حتى أنها كانت أهمّ السرايا التي وصلت إلى برونو. لم يكن بينها أكثر من مائتين وسبعة عشر مريضاً أو متخلفاً، ولم يكن فيها ما يستحق النقد أو القلق إلا مسألة الأحذية.

بين الحين والآخر يتوقف كوتوزوف ليوجه بضع كلمات لطيفة إلى الضباط الذين عرفوه خلال حرب تركيا، وكان أحياناً، يتحدث إلى بعض الجنود.

كان يهز رأسه بحرارة مرات عديدة خلال استعراضه القوات كلما وقع نظره على أحذية الجنود، فكان يُشير إلى الجنرال الأبيض النمسوي بلهجة من يقول: إنه لا يوجِّه اللوم إلى أحد، ولكنه لا يستطيع مشاهدة حال رجاله السيئة دون أن يشعر بالمضض. وفي كل مرة، كان قائد السرية يندفع إلى الأمام محاذراً أن تفوته أتفه ملاحظات القائد الأعلى وكلماته. وكان مرافقو القائد الأعلى يسيرون وراءه على مسافة تسمح لهم بالإصغاء إلى كل كلمة يفوه بها بصوت خفيض.

وكان تعداد المرافقين يقرب من عشرين رجلاً، كانوا يتحادثون بينهم

ويسمحون لأنفسهم أحياناً بالضحك. وكان ضابط مساعد جميل يسير في أعقاب القائد الأعلى في الصفوف الأمامية من المرافقين. ذلك الضابط كان پولكونسكي. وكان إلى جانبه صديقه نيسڤيتسكي، وهو ضابط مديد القامة قوي البنيان متينه، بسّام ضاحك الوجه، بعينين دائمتي الاغريراق والجذل، كان يُضحكه ما يصدر عن ضابط مساعد آخر أسمر الوجه مرح لطيف. ذلك الضابط الأسمر، يحدج ظهر قائد السرية بنظرة ثابتة، ويقلد بكل جد ووقار كل انتفاضة وانحناءة تصدر عنه، فكان نيسڤيتسكي يضحك لذلك المشهد الطريف ويلكز رفاقه بمرفقه ينبههم إلى حركات ذلك الضحوك المسلي.

راح كوتوزوڤ يقابل بلا مبالاة ألوف العيون التي كانت تتابعه وكأنه لا ينفصل عن حدقاتها. فلما وصل قرب الفرقة الثالثة، توقف فجأة حتى أن تابعيه كادوا يصطدمون به بسبب توقفه الفجائي الذي ما كانوا يتوقعونه.

صاح القائد الأعلى محدثاً ضابط الفرقة الذي عرفه، والذي كاد المعطف الأزرق يسبب له عناء وتشويشاً: آه، آه! تيموخين!

وبدا مستحيلاً أن يتمكن المرء من الانتصاب أكثر مما انتصب تيموخين خلال فترة الاستعراض كلها. مع ذلك، فإنه وجد وسيلة مكنته من أن يضاعف انتصابه عندما سمع القائد الأعلى يوجه الحديث إليه، وكان بادياً عليه استحالة بقائه على ذلك الوضع المستعد وقتاً طويلاً، وفهم كوتوزوڤ الموقف تماماً. ولما كان لا يريد إلا خير قائد تلك الفرقة، فقد سارع بمغادرته ليسمح له باتخاذ وضعية تريحه، وشاعت ابتسامة على وجهه المكتنز الذي يشوهه جرح قديم.

قال لقائد السرية:

هذا زميل جديد «لإسماعيل»، إنه ضابط باسل! هل أنت مسرور منه.

فقفز الجنرال قائد السرية إثر انتفاضة، وخطا إلى الأمام خطوة وقال: شديد السرور يا صاحب السعادة العلية.

بينما نقل الضابط الأسمر المرافق للقائد الأعلى حركات قائد السرية كالمرآة الأمينة التي تعكس الصور الحقيقية للأشياء.

قال كوتوزوف باسماً: لكل منا نقاط في نفسه. أما هو فقد كان يُمالق باخوص[1] أكثر من اللازم.

واستمر في تفتيشه.

لم يتجرأ قائد السرية على الإجابة وهو الذي راح يسأل نفسه عما إذا لم يكن مسؤولاً فعلاً عن ذلك الضعف، وفي تلك اللحظة، أخذ الضابط المرافق الأسمر، لدى مشاهدته رأس قائد الكتيبة ذي الأنف الأحمر القرمزي والبطن المنتفخ المتصلب، يقلد تلك الشخصية تقليداً بلغ من إتقانه، أن نيسـڤيتسكي لم يستطع كبت ضحكة، مجلجلة. فالتفت كوتوزوف لكن الضابط الذي كان يتحكم في سحنته على هواه، أخذ في تلك اللحظة طابعاً جدياً خطيراً بريئاً ومحترماً، قلّ أن يشاهد مثله على وجه من الوجوه.

كانت الكتيبة الثالثة هي الأخيرة في الاستعراض والتفتيش فراح كوتوزوف يجهد فكره لتذكر أمر ما سها عن باله وعندئذ تقدم الأمير أندريه من صفوف المرافقين وقال للقائد الأعلى بصوت خفيض باللغة الفرنسية:

ـ لقد أوعزتم إليّ أن أذكركم بأمر «دولوخوف» الضابط الذي خفضت رتبته في هذه السرية.

سأل كوتوزوف: أين دولوخوف هذا؟

فلم ينتظر دولوخوف أن يستدعى عن طريق التسلسل حتى يمثل بين يدي القائد الأعلى، بل برز من الصفوف فوراً وجاء ينتصب بوضعية الاستعداد أمام

---

(١) إله الخمرة عند اليونان (المترجم).

القائد الأعلى، كان شاباً وضّاح المحيّا أزرق العينين، أشقر الشعر. وكان قبل ذلك قد استطاع استبدال معطفه الأزرق بمعطف الجنود الرصاصي.

سأله القائد الأعلى في شيء من الرقة: هل لك سؤال؟

قال الأمير أندريه: هذا هو دولوخوف!

ـ آه!.. حسناً آمل أن يردعك الدرس الذي تلقيته. فكن جندياً طيباً والأمبراطور رحيم شفوق، فإذا تصرفت تصرفاً حسناً فإنني أنا الآخر لن أنساك.

فشخص دولوخوف بنظره المشع إلى وجه الجنرال القائد الأعلى في كثير من الجرأة والحزم، كما فعل منذ حين إزاء قائد السرية، حتى وكانت تلك النظرة، قد مزقت حجاب التقاليد التي تجعل البون شاسعاً بين الجندي البسيط والقائد الأعلى الرفيع.

قال بصوت ثابت حازم:

ـ إنني لا أطلب من سعادتكم العلية إلا أمراً واحداً، وهو أن تعطى لي الفرصة لإصلاح خطيئتي، وإثبات تفانيّ لصاحب الجلالة ولروسيا.

عبس كوتوزوف فجأة وأشاح بوجهه، بينما أطلت من عينيه، تلك الضحكة الهازئة التي برزت منهما عندما التقتا رئيسه تيموخين منذ حين. ولعله أراد بذلك أن يقول: إن كل ما قاله دولوخوف وكل ما كان يمكن أن يقوله ليس إلا أشياء معروفة منذ زمن بعيد ومكررة بل في غير محلها، ثم مضى متجهاً نحو عربته.

تفرقت السرية إلى فرق صغيرة واتجهت نحو المعسكرات التي أقيمت لها على مقربة من برونو، حيث كان أفرادها يأملون الحصول على أحذية جديدة وألبسة مناسبة، وخصوصاً على الراحة المنشودة بعد تلك المراحل الطويلة من السير الشاق.

ولما راحت الفرقة الثالثة وعلى رأسها تيموخين تنظم صفوفها استعداداً للمسير، اقترب الجنرال، الذي جعلته سلامة عواقب التفتيش ميالاً إلى المرح، من الرئيس مُشرق الوجه وقال: آمل أ لَّا أكون قد أزعجتك يا بروخو إينياتيتش؟ إنك تفهم... إن خدمة القيصر... إن المرء عندما يكون على رأس الفرق يفقد صوابه فلا يستطيع تنميق كلامه أو انتقاءه... لكنك تعرفني وتعرف أنني على استعداد لتقديم اعتذاراتي عند الاقتضاء... هيا، أقدم لك خالص شكري؟

ومد له يده، فأجاب الرئيس الذي ازداد أنفه احمراراً، بابتسامة كشفت عن فكه وفضحت نقص نابين تحطما بضربة من عقب بندقية في معركة إسماعيل: وكيف لا أفهم يا سيدي الجنرال!...

ـ وبهذه المناسبة، قل للسيد دولوخوف إنني لن أنساه وإنه يستطيع أن يطمئن إلى هذا الأمر، أخبرني ما وددت منذ زمن طويل أن أسألك عنه: كيف يتصرف؟ وما رأيك في سلوكه؟

ـ إنه دقيق جداً في الخدمة يا صاحب السعادة. أما عقليته...

فقاطعه الجنرال قائلاً: حسناً، أما عقليته؟

ـ إن ذلك يتوقف على الوقت يا صاحب السعادة. فهو شاب ذكي ومهذب أحياناً، وهو على عكس ذلك وحش ضار أحياناً أخرى. لقد كاد يقتل يهودياً في پولونيا...

ـ إنك على حق... ولكن يجب أن نُشفق على الشاب في محنته. إن له علامات عالية هامة... كذلك يمكنك...

فأجاب تيموخين وهو يُبرز ابتسامة تعني أنه فهم غاية رئيسه:

ـ أمرك يا سيدي الجنرال.

ـ جيد، جيد.

مشى الجنرال إلى جانب الفرقة وأوقف حصانه إلى جانب دولوخوف وصاح بصوت تعمد أن يسمعه الجنود:

ـ حسناً، إن الأمر على ما يُرام... ليوزع على كل جندي كأساً من الخمرة من جانبي. شكراً للجميع وحمداً لله!

وتخطّى الفرقة ليقترب من أخرى، بينما راح تيموخين يقول لضابط مساعد له كان إلى جانبه: إنه رجل باسل يمكن التفاهم معه رغم كل شيء.

فأجاب الضابط الصغير: إنه «الملك الكبّا!» (ويقصد إنه طيب القلب).

كان ذلك اللقب قد أطلق على الجنرال من قبل أفراد سريته، وكان إلى جانب ما يحمله من معنى آخر لترجمة العبارة حرفياً، والذي يمكن القول بمقتضاها إنه ملك القلب، يحمل تورية يتفكه بها الجنود.

انتشر المزاح بين الجنود بعد أن عمّ الضباط جميعاً، فراحت السرية تسير بخطى نشيطة، والرجال يتبادلون الفكاهات على غرار: كانوا يقولون مع ذلك إن كوتوزوف أعور.

ـ لعلك تريد أن تقول إنه أعور العينين معاً!

ـ أنت مخطئ يا فتى. إن عينيه أحدّ من عينيك. لقد دقق في الأحذية والجوارب وتفحصها!

ـ آه! إنني يا فتاي، عندما عاين ساقي حدّثت نفسي بمثل هذا...

ـ هل رأيت النمسوي الذي كان معه... يبدو كأنه طُلي بالحبر. إنه أبيض كالدقيق. يا لشدة ما قضى من وقت في تلميع نفسه، ذلك الفتى!...

ـ هه، يا ڤيديا، ألم تسمعهم يتحدثون عن الوقت الذي سنقاتل فيه بوناپرت؟ لقد كنت قريباً منهم. يبدو أن بوناپرت في برونوف حالياً! (يعني برونو).

ـ بوناپرت في برونوف! من أين جئت بهذا أيها الغرّيد! إنك لا تعرف أن

بروسكو (ويقصد بروسيا) وحده هو المتعند في الوقت الحاضر وأن النمسوي يؤدبه ويسكنه. ومتى انتهى منه، فسيأتي دور بوناپرت. مع ذلك، تقول إنه في برونوف! إنك لست ذكياً يا فتى. ماذا لو أنك فتحت أذنيك أكثر من ذلك؟

ـ آه، من المشرفين على الإعاشة! أنظر إليهم يقيمون في القرية هناك. إنهم لن يهيئوا لنا الطعام قبل وصولنا.

ـ لن تحصل ولا على «بسكويته» أيها اللعين العجوز.

ـ ومن الذي أعطاك التبغ البارحة؟ هل تذكر ذلك أم لا؟.. خذ، خذ مع ذلك، وليباركك الله!

ـ ليتنا نتوقف فقط. ولسوف نسير هكذا مرحلة طويلة قبل أن نضع لقمة في فمنا.

ـ هل تريد أن يعطينا الألمان عربات؟ إن ذلك سيكون حتماً أمراً جميلاً.

ـ إننا هنا يا فتاي لسنا إلا حفاة الأقدام. لقد كنا حتى الآن فتيان التاج الروسي. أما الآن فليس... إلا الألمان!

صاح الضابط الرئيس:

ـ ليتقدم المغنون إلى الصفوف الأمامية.

فخرج من الفرقة حوالى عشرين رجلاً واجتمعوا في الطليعة. والتفت إليهم رئيس الفرقة الموسيقية وهز ذراعه وردد بصوت مدوٍ أغنية الجنود التي تبدأ:

أليس الفجر هذا.

الفجر الذي ينبلج؟

وتنتهي كما يلي:

نعم حتماً سوف نحصل

سوف نحصل على المجد

مع الأب كامانسكي...

نُظمت هذه القصيدة في تركيا، لكنها كانت تردد الآن في النمسا بتبديل بسيط في البيت الأخير، إذ استعيض بعبارة «الأب كوتوزوف» عن عبارة «الأب كامانسكي» التي كانت تنتهي بها في معركة تركيا.

وبعد أن انتهى الجنود من هذا المقطع الأخير، حركوا أيديهم بعنف وكأنهم يلقون بشيء إلى الأرض. ونظر قارع الطبل إلى المغنين نظرة قاسية شملتهم جميعاً، فلما أيقن أن عيونهم شخصت إليه، بدا كأنه يرفع شيئاً وهمياً فوق رأسه، شيئاً ثميناً غير مرئي، استبقاه لحظة مرفوعاً إلى الأعلى ثم ألقاه فجأة، بحركة يائسة إلى الأفق البعيد وقال:

آه، آه، يا كوخي.

يا كوخي الجميل...

وردَّد عشرون صوتاً بعده:

ـ يا كوخي الجديد!... بينما تقدم الضارب على الصنج إلى الأمام مهرولاً وراح رغم ثقل عتاده، يسير القهقرى وهو يحرك كتفيه بحركة دائرية ويقرع صنوجه بحركة تهديدية. أما الجنود فقد راحوا يضبطون الإيقاع بحركات أذرعهم، ويتقدمون بهمة عالية، وهم يضربون أقدامهم على الأرض.

وارتفع بعد قليل صوت عجلات العربة وصريرها، وصوت خيول تخب. كان كوتوزوف وتابعوه عائدين إلى المدينة. أشار الجنرال، القائد الأعلى، إشارة طلب فيها أن يمشي الجنود بخطوات حرة وكان وجهه ووجوه تابعيه مشرقة لسماعهم تلك الأغنية، ولرؤيتهم تلك القطعة المرحة الصاخبة، يقودها الراقص الذي يسير في المقدمة.

وفي الصف الثاني من ركبه، على الجانب الأيمن، كان جندي ذو عينين زرقاوين يلفت النظر بتصرفه الكيس الحماسي المتفق مع إيقاع الأغنية،

وبنظرة الإشفاق التي كان يُلقيها على كل من الفرسان المتعجرفين المواكبين لركب القائد الأعلى. كان يبدو مشفقاً عليهم لأنهم لا يسيرون في صفوف الفرقة. جاء أحد أولئك الضباط الفرسان متخلياً عن مكانه في الركب، واقترب من ذلك الجندي الذي لم يكن سوى دولوخوف.

كان جوكوف، ذلك المتخلف، تابعاً من قبل للعصبة التي كان يقودها ويرأسها دولوخوف. وكان قد لاقاه خلال الطريق وتجاهل وجوده. فلما رأى عطف كوتوزوف ولمس ميله إلى ذلك «الضابط المجرَّد من رتبته»، اقترب منه وعلى وجهه آيات من السرور.

سأله بصوت أراده أن يعلو على أصوات المغنين، وقد نظم خطوات جواده مع مشية دولوخوف: كيف الحال يا صديقي العجوز؟

أجابه دولوخوف ببرود: كما ترى.

كانت الأغنية الحماسية التي يسير على خطاها الجنود، تُضفي معنى خاصاً على لهجة جركوف المتواضعة وبرود دولوخوف المتعمد.

قال جركوف: إذن، هل الحال مع الرؤساء على ما يرام؟

ـ أنا لا أشكو من شيء. إنهم جميعاً رجال باسلون... كيف بحق السماء تسللت إلى الأركان العامة؟

ـ لقد نقلوني بصفة ضابط ارتباط.

وسكتا فترة مصغيين إلى الأغنية التي كان لحنها يثير الحماسة في القلوب:

لقد أطلق الصقر.

وطار من اليد اليمنى.

ولولا تلك الأغنية، لكان حديث الصديقين على نمط آخر.

سأل دولوخوف:

ـ هل صحيح أن النمسويين قد هزموا؟

ـ الله أعلم. ولكن يبدو لي ذلك حقيقة.

قال دولوخوف بصوت يتفق مع إيقاع الأغنية:

ـ ذلك أفضل.

ـ تعال لرؤيتنا ذات مساء. سوف نلهو على هوانا.

ـ إنكم إذن تتمرغون على الذهب؟

ـ تعال مع ذلك.

ـ مستحيل. لقد أقسمت ألّا ألمس الورق ولا الخمرة قبل أن تعاد إليّ رتبتي.

ـ ستعاد إليك في العملية المقبلة.

ـ عندئذ سنرى.

وعاد الصمت بينهما من جديد.

ـ إذا احتجت إلى شيء فتعال إلى الأركان، وسنحاول أن نخدمك.

أجاب دولوخوف بابتسامة هازئة:

ـ لا تعذبني إنني إذا احتجت إلى شيء ما أخذته.

آوه، إنك تعلم أن ما أقوله لك...

وأنا كذلك.

حسناً إلى اللقاء.

ـ انتبه إلى صحتك...

واستمرت الأغنية تعلو مقاطعها:

بعيداً، بعيداً جداً، نحو الوطن...

لكز جركوف حصانه فثار هذا، وبعد أن دار حول نفسه دورتين أو ثلاث دورات دون أن يهتدي إلى القائمة التي يجب أن يبدأ بها السير، اندفع خبباً على طول الفرقة على إيقاع الأغنية.

الفصل الثالث

دخل كوتوزوف إلى مكتبه بعد عودته من الاستعراض، يرافقه الجنرال النمسوي، بعد أن أعطى الأمر إلى أحد تابعيه، بأن يعرض عليه الأوراق المتعلقة بحالة الجنود القادمين من روسيا، والمخابرة الواردة من الأرشيدوق فرديناند الذي كان على رأس الطليعة. فلما جاء الأمير أندريه بالوثائق المطلوبة، رأى الجنرال القائد الأعلى وعضو القيادة العليا جالسين وراء طاولة يدرسان مخططاً. قال كوتوزوف وهو ينظر إلى پولكونسكي وكأنه يوحي إليه بالانتظار:

ـ حسناً! بينما تابع الحديث الذي كان يدور بالفرنسية. كانت لغته المهذبة ونبراته الواضحة، والعناية التي يبديها لتلفظ كل كلمة بوضوح، تأسر انتباه سامعه، وتبرهن على أنه يتلذذ بسماع أقواله:

ـ لو كان الأمر منوطاً بي وحدي أيها الجنرال، لكنت منذ زمن بعيد أجريت الاتصال مع الأرشيدوق وفقاً لرغبات جلالة الأمبراطور فرانسوا. ثق بشرفي إنني سأشعر براحة عميقة إذا أسلمت القيادة العليا لقائد أكثر دراية مني واستعداداً ومهارة. وأمثال هؤلاء القادة كثيرون في النمسا. إنني بذلك أتخلص من مسؤولية جسيمة. لكن ما يحدث يجعل الظروف تقهرنا يا جنرال.

وكانت الابتسامة التي شفع بها جملته الأخيرة توحي بالقول: «لك ألّا تصدقني إذا شئت، ولا يهمني إذا صدقتني أو لا، ولكن ليس بين يديك حجة تتذرع بها، وهنا جوهر المسألة».

وعلى الرغم من أن الجنرال النمسوي لم يكن مسروراً، فقد اضطر أن يدفع إلى كوتوزوف من نوع النقد الذي صرفه له. غير أن لهجته الشرسة، كانت تتنافى مع عروضه المعسولة:

ـ كلا، كلا. إن جلالته يقدر عالياً مساهمة سعادتكم في العمل العام، وأرجو أن تثق بذلك. لكننا نعتقد فقط أن الإمهالات الحالية تحرم الجيوش الروسية المظفرة ورؤساءهم المشاهير أكاليل الغار التي درجوا على اكتسابها والتحلي بها في ساحات القتال.

بدون شك، كانت تلك الجملة مهيأة سلفاً. فانحنى كوتوزوف وهو يبتسم قائلاً: إنني أقدر شخصياً. والرسالة التي شرفني بها صاحب السمو الأرشيدوق فرديناند منذ حين تؤيد رأيي، أن الجيوش النمسوية التي يقودها رئيس على جانب كبير من المهارة كالجنرال ماك، قد حصلت حتى الآن على نصر حاسم يجعلها بدون شك في غير حاجة إلى مساعدتنا.

عبس الجنرال، إذ على الرغم من أن هزيمة النمسويين لم تكن قد أعلنت رسمياً بعد، فإن الإشاعات الكثيرة المزعجة كانت تؤيدها، حتى أن جواب كوتوزوف بدا لهذا السبب نوعاً من السخرية. مع ذلك، فقد كان وجه القائد الروسي الأعلى يشع بابتسامة بريئة تؤكد براءة قصده. فقد كانت الرسالة التي أرسلها إليه الأرشيدوق فرديناند تصف الحالة الاستراتيجية بأنها ممتازة جداً.

قال للأمير أندريه: أعطني الرسالة.

ثم التفت إلى الجنرال النمسوي، فقرأ له المقطع التالي وقد تقلصت شفته بابتسامة تحمل شيئاً من الهزء:

«إن تركز قواتنا التي يبلغ عددها سبعين ألف رجل، قد أعد وأنهي على أفضل ما يرام، بشكل يجعل العدو يتعرض لهجماتنا إذا حاول اجتياز

«ليخ»[١] ويمنى بهزيمة مؤكدة. إننا باحتلال «الأولم»[٢] نحتفظ بأرجحية السيطرة على ضفتي الدانوب ونتمكن بذلك في كل لحظة أن نجتاز الدانوب إذا لم يحاول العدو اجتياز نهر «ليخ»، لنقطع عليه خط مواصلاته، وأن نعود إلى عبور الدانوب مرة أخرى، لنحول دون نجاح أية محاولة يقوم بها ضد حلفائنا المخلصين سوف ننتظر بصبر وبطولة أن ينتهي الجيش الروسي من استعداداته، وأن يتخذ استعداداته. وبعدئذ سوف نجد سهولة كبيرة بتهيئة المصير الذي يستحقه العدو باتحادنا معاً».

وعقب: تفضل بالاقتناع بصدق قولي.

وأطلق تنهيدة ارتياح، ونظر إلى الجنرال النمسوي. فأجاب هذا وقد رأى أن المزاح قد دام أكثر مما ينبغي، وأن من الأصوب بلوغ الغاية مباشرة:

ـ لا شك، ولكن يجب أن نتوقع دائماً أسوأ العواقب. إن سعادتكم تعرفون بدون شك هذه الحكمة القديمة.

وألقى نظرة بديهية على مساعد الجنرال. فقاطعه كوتوزوف بقوله: اعذرني يا جنرال.

واستدار نحو الأمير أندريه وأردف يحدثه: اسمع يا عزيزي. اذهب إلى كوزلوفسكي. واطلب إليه التقارير الواردة من جواسيسنا. هذه رسالة الأرشيدوق فرديناند. وهاتان رسالتان من الكونت نوستيتز. خذهما معك وكذلك هذه الأوراق لخصها جميعها باللغة الفرنسية، واحمل لي مذكرة واضحة تحمل كل معلوماتنا عن عمليات الجيش النمسوي... إنك تفهمني أليس كذلك؟... وعندما تنتهي من ذلك، أعط المذكرة إلى سعادته.

---

(١) نهر في باڤاريا يصب في الدانوب. (المترجم).

(٢) مدينة ألمانية على الدانوب استسلم فيها الجنرال ماك النمسوي مع ٣٠,٠٠٠ جندي. (المترجم).

أشار الأمير أندريه برأسه إشارة يُفهم منها أنه فهم الغاية من الكلمة الأولى، ليس ما قاله رئيسه بلسانه فحسب بل كذلك ما كان يُضمره في نفسه. وجمع الأوراق وحيا ثم انسحب بخطوات رشيقة.

على الرغم من أن الأمير أندريه لم يكن قد مضى على مغادرته روسيا زمناً طويلاً، فإن سحنته وحركاته وتصرفاته خلت كلها من أثر الانهاك والتفاعل الذي كان مألوفاً عليها. كانت مهامّه الجديدة تستأثر بكل انتباهه. وتفتنه بشدة، حتى إنه لم يكن يفكر في الانشغال بما يقوله زملاؤه عنه. وكانت نظرته وابتسامته تمتازان بدعوة وود لم يعرفا فيها من قبل.

تلقى كوتوزوف رسالة الأمير ڤولكونسكي العجوز وهو في ڤولونيا فاستقبل الأمير الشاب استقبالاً طيباً، وعده بأن لا ينساه. وقد بر بوعده إذ اختصه بين كل الضباط المساعدين، فأخذه برفقته إلى ڤيينا، وسلمه هناك أكثر المهام خطورة. وكتب القائد الأعلى كوتوزوف إلى الأمير العجوز ڤولكونسكي رداً على رسالته قال: «إن ابنك يبشر أن يكون ضابطاً ممتازاً بفضل كفاءاته ودأبه ودقته. وإنني أعتبر نفسي سعيداً جداً إذ أرى مرؤوساً مثله تحت تصرفي».

كان زملاء الأمير أندريه في الأركان والجيش ـ لما كان الحال في ڤيترسبورغ ـ يشعرون حياله شعورين مختلفين، وينقسمون تبعاً لذلك إلى معسكرين. الأول وهو معسكر الأقلية، يعتبره شخصاً بارزاً خلق لمستقبل ومصير عاليين رفيعين.

وكان أعضاء هذا المعسكر يصغون إليه ويعجبون به ويسيرون على هداه. فيتظاهر أمامهم بدوره بمظهر البساطة واللطف. والثاني وهو معسكر الأكثرية، يعتبره بارداً جامداً مكروهاً. وكان أعضاؤه يبغضونه. لكنه كان يتصرف حيالهم بشكل لم يكونوا يستطيعون معه إلا أن يقدروه بل أن يرهبوا جانبه.

خرج الأمير أندريه من مكتب كوتوزوف، فمر بطريقه على غرفة الانتظار حيث كان زميله، المرافق المنوب كوزلوڤسكي يقرأ كتاباً قرب النافذة.

سأله هذا: حسناً يا أمير؟

صدر الأمير بتحرير مذكرة تفسير سبب بقائنا دون نشاط.

فقال كوزلوڤسكي: ولماذا؟

هز الأمير أندريه كتفيه دلالة على أنه لا يعرف السبب، بينما تابع زميله: هل من أخبار عن ماك؟

ـ كلا.

ـ إذا كان هزم حقيقة فستردنا أخباره.

قال الأمير أندريه موافقاً: بلا شك.

واتجه نحو الباب. غير أن هذا فتح فجأة بعنف وظهر على العتبة جنرال نمسوي، مديد القامة، في ثوب رسمي، يعصب رأسه بوشاح أسود ويحمل حول عنقه صليب ماري تيرنير، فتوقف الأمير منتظراً.

قال الجنرال القادم بلهجة تظهر أصله الألماني: الجنرال الأعلى كوتوزوف؟

ونظر حوله ثم اتجه فوراً نحو باب المكتب.

فأجابه كوزلوڤسكي وهو يقف في سبيله بحركة عنيفة: إن القائد الأعلى مشغول. فمن يجب أن أبلغه عنه؟

حدج المجهول ذلك الضابط الصغير من عل وكأنه يقول:

«هل يعقل أن لا تعرف من أنا؟». فكرر كوزلوڤسكي بهدوء:

ـ إن القائد الأعلى مشغول.

عقد النمسوي حاجبيه وارتعدت شفتاه قليلاً، فأخرج دفتراً صغيراً من جيبه وكتب على ورقة منه بضع كلمات بقلم الرصاص، ثم قطعها وأعطاها

لكوزلوفسكي وانطلق بخطوات سريعة نحو النافذة، وارتمى على مقعد هناك وهو يسرح طرفه فيمن حوله وكأنه يقول لهم: «لمَ تنظرون إليّ هكذا؟». وبعد لحظة مد عنقه وكأنه يهم بالنطق، لكنه استدرك نفسه فلم يصدر عن حنجرته إلا صوت غريب يشبه الدمدمة، سرعان ما خنقه أيضاً. وفُتح باب المكتب، وبدا على عتبته كوتوزوف. عندئذ نهض الجنرال المعصوب الرأس محنياً ظهره وكأنه يفر من خطر داهم، وأسرع بخطوات واسعة وقال بصوت أجش:

ـ إنك ترى ماك التعس!

بقي كوتوزوف للوهلة الأولى جامداً أمام الباب ثم اجتاح وجهه غضن مرّ كموجة على قسمات وجهه، فانبسطت جبهته وانحنى بامتثال مغمض العينين دون أن يتفوه بكلمة، وتنحى عن طريق ماك ليدخل ثم أغلق الباب بنفسه وراءه.

كانت الشائعات حقيقة: استسلم الجيش النمسوي كله الذي كان مجتمعاً قرب «الأولم». لم تمض نصف ساعة حتى كان الضباط المساعدون يحملون إلى رؤساء الوحدات تعليمات خاصة تُشير إلى أن الجيش الروسي سيخرج عن جموده ويلاقي العدو عما قريب.

لم يكن سير العمليات العامة في الأركان العامة، يشغل إلا عدداً محدوداً من الضباط، وكان الأمير أندريه في عدادهم. بعد أن رأى ماك واطلع على تفاصيل الهزيمة، إن الحملة قد فشلت تقريباً وإن النصر بات أبعد مما كان يُنتظر. تخيل المصير المزعج الذي ينتظر الجيش الروسي في ذلك الموقف الحرج، والدور الذي سيلعبه شخصياً في ذلك المصير، فأحس بسرور للإهانة التي منيت بها النمسا، تلك الدولة المتباهية. كان ذلك الشعور أقوى منه، وكان يمجد الفكرة التي خطرت بباله، والتي قدر على أساسها أنه سيشهد لأول مرة، أول لقاء بين الفرنسيين والروس منذ عهد سوڤوروف، بعد ثمانية أيام على

الأكثر. لم تكن غبطته لتخلو من شعور بالهلع والخوف من أن تتفوق عبقرية بوناپرت وتتغلب على الجيوش الروسية الباسلة، لأنه لم يكن يتوقع أن يرى بطله في خذلان.

أثارت تلك الأفكار عواطفه وقلبت كيانه وحفزته، فودّ أن ينسحب إلى غرفة ليكتب إلى أبيه رسالته اليومية. لكنه بينما كان يجتاز الممشى، اصطدم بزميله في غرفة نيسـڤيتسكي وبالمداعب جركوف اللذين كانا على حال من البهجة والحبور كعادتهما. استغرب زميله شحوب وجهه والتماع عينيه فسأله قائلاً:

ـ لمَ أنت مكتئب؟

ـ ليس هناك ما يبهج على ما أعلم.

ومن الجانب الآخر من الممشى، ظهر الجنرال النمسوي عضو القيادة العليا يرافقه الجنرال «ستروخ»، الملحق بأركان حرب كوتوزوف للإشراف على شؤون تموين الوحدات الروسية. وكان عرض الممشى كافياً لمرور الجنرالين دون عوائق. غير أن جركوف أبعد نيسـڤيتسكي بذراعه وصاح بلهجة تشف عن المبادرة المصطنعة قائلاً:

ـ ها هما!... ها هما!... تنحوا، أخلوا المكان، تنحوا!

أغضبت تلك البادرة من التلطف، الجنرالين القادمين. غير أن جركوف تقدم خطوة إلى الأمام وخاطب أحدهما بابتسامة بلهاء وبمظهر الرجل الذي لا يستطيع كتمان فرحه: لي الشرف بأن أقدم لسعادتكم تمنياتي المخلصة.

وانحنى أمامه انحناءة هزلية وهو ينزلق على قدم ثم على الأخرى شأن الأطفال الذين يتدرجون على الرقص. فحدجه عضو الأركان العامة النمسوي بنظرة صارمة. لكن ابتسامته البلهاء طمأنته، فلم يستطع إلا أن يمنحه لحظة من انتباهه، فأشار بطرف عينه إلى أنه يُصغي إلى ما يريد قوله:

كرّر جركوف بوجهه المستبشر: تهانيّ الخالصة. لقد وصل الجنرال ماك في صحة طيبة باستثناء جرح طفيف هنا...

وأشار بإصبعه إلى جبهته.

فعبس وجه الجنرال وأدار له ظهره ومضى. ولم يكد يبتعد بضع خطوات حتى قال بالألمانية بصوت غاضب:

رباه يا للحماقة والسذاجة!

كان نيسـڤيتسكي يتلوى من الضحك، فأمسك بذراع الأمير أندريه غير أن هذا الذي أصبح وجهه ممتقعاً بعد شحوبه، دفعه عنه بغضب، واستدار نحو جركوف.

كانت دعابته السمجة بمثابة ضربة قاضية لأعصاب الأمير أندريه، الذي ضعضعت رؤية الجنرال ماك والهزيمة التي مني بها كيانه وروعة الفكرة التي تمثلها حول مصير الجيش الروسي. قال لجركوف بصوت حازم وقد ارتعدت ذقنه لفرط انفعاله: يا سيدي العزيز، إذا كانت مهنة المهرج تروقك، فإنني لا أستطيع منعك من مزاولتها. لكنك إذا سمحت لنفسك مرة أخرى بإظهار مثل هذا التهريج في حضرتي، فسأجد نفسي مضطراً إلى تعليمك وتلقينك مبادئ السلوك.

ذهل جركوف ونيسـڤيتسكي لأقوال الأمير أندريه، وراحا يتأملانه فاغرَيْ الفم متسعَيْ العينين. قال جركوف: ماذا حدث؟ لقد قدمت له تمنياتي ليس إلا.

فصاح بولكونسكي:

ـ إنني لا أناقشك فتفضل بالسكوت!

وأخذ نيسـڤيتسكي بذراعه، تاركاً جركوف جامداً في مكانه لا يدري ماذا يقول: قال له نيسـڤيتسكي:

ـ هدئ روعك يا عزيزي.

قال الأمير أندريه، الذي توقف لشدة انفعاله عن السير:

ـ أهدئ نفسي؟ ولكن من نحن إذن؟ أنحن ضباط نخدم قيصرنا ووطننا ونبتهج للنجاح المشترك ونأسف للخسارة المشتركة أم نحن خدم لا تهمنا قضايا أسيادنا إلا قليلاً؟...

وأضاف باللغة الفرنسية وكأنه يؤيد وجهة نظره.

ـ أيقتل أربعون ألف رجل ويحطم جيش حليفتنا، ونجد مع ذلك مادة للقهقهة؟ إن مثل ذلك يليق بفتى تافه كهذا الذي اتخذته صديقاً لك، ولكنه لا يليق بك، أجل لا يليق بك..

وتابع بالروسية متمماً: إن مثل هذه التسليات لا تليق إلا بالأغرار الحمقى.

وانتظر فترة معتقداً أن جركوف سيجيب عن أقواله. لكن هذا انسحب دون أن ينتظر المزيد.

الفصل الرابع

على بعد ميلين من برونو، كان فرسان پاڤلوغراد معسكرين وكانت الكوكبة التي انخرط في عدادها نيكولا روستوف تشغل قرية سالزنك التي خصص أفضل منزل فيها لرئيسها «الكاپتن دينيسوف» المعروف بين كل كتيبة الخيالة باسم «ڤاسكا دينيسوف». كان نيكولا قد التحق بتلك السرية في پولونيا. ومنذ ذلك الوقت ظل يشاطر الرئيس مسكنه.

في اليوم الذي قلب نبأ انهزام ماك القيادة العامة قلباً، في الحادي عشر من تشرين الأول كانت كوكبة الخيالة لا تزال تقضي أيامها بهدوء، وكأن أفرادها سادة أطربتهم حياة الريف. وعندما وصل روستوف، وهو في كامل ثيابه، ممتطياً جواده إلى سكن الرئيس بعد أن عاد من مهمة توزيع العلف، وجد أن دينيسوف لم يرجع بعد من سهرته التي قضاها مقامراً لدى أحد زملائه. ولما وصل إلى مرقاة البيت، أوقف جواده وطوح بساقه بحركة رشيقة مرنة. ولبث فترة معتمداً بجسده على الركاب وكأنه بارح السرج آسفاً، وأخيراً ترجل واستدعى الحاجب قائلاً:

ـ آه! بوندارانكو، هذا أنت أيها الباسل.

وأسرع الجندي عدواً استجابة لنداء روستوف الذي قال معقباً:

ـ خذ الجواد في نزهة يا صديقي الطيب.

كانت لهجته تدل على البهجة اللطيفة التي يستطيع الشبان الراقون المنحدرون من أرومات نبيلة إظهارها في ساعات سرورهم.

قال الجندي الصغير وهو يرفع شعره المتهدل بسبب الركض: كما تأمر يا صاحب السعادة.

ـ انتبه، ولتكن النزهة لطيفة.

أسرع جندي آخر في تلك اللحظة استجابة للنداء، غير أن بوندارانكو كان قد أطبق عنان الجواد. وكانت تلك المبادرة تدل على أن ذلك الضابط النبيل يعرف كيف يمنح المكافآت السخية، وأن خدمته تعود بالفائدة على من يتولاها. داعب روستوف حارك جواده ثم انتقل بيده إلى ردفه يربته، وظل يتأمله لحظة ثم قال في سره مبتسماً: «رائع! سيصبح جواداً رائعاً!» ورفع حسامه وراح يصعد السلالم ورنين مهمازيه يرافق كل خطوة من خطواته، وبرز صاحب المسكن على باب الاسطبل حاملاً مذراة. كان ألمانياً يرتدي صدارة من الصوف وقلنسوة من القطن. فلما رأى روستوف، طفح وجهه سروراً، وغمزه بعينه بمودة وكرر محيياً الشاب بسرور واضح:

ـ عم صباحاً، عم صباحاً!

فأجاب روستوف بصوت مهذب لطيف: هل بدأت تشتغل! ليحيى النمسويون! ليحيى الروس! ليحيى الأمبراطور ألكسندر!

كانت تلك العبارات هي ما سمعه بتكرار يردد على ألسنة الناس هناك، وكان يجد متعة في ترديدها على مسامع صاحب المسكن.

ضحك الألماني وخرج من اسطبله، فرفع قلنسوته وراح يلوح بها فوق رأسه ويصيح: وليحيى العالم أجمع!

فلوح روستوف بخوذته ضاحكاً وصاح بدوره: وليحيى العالم أجمع!

وعلى الرغم من أن هذين الرجلين اللذين كان ينظف أحدهما اسطبله والآخر يعود من مهمة توزيع العلف، لم يكن لسرورهما أي مبرر خاص، إلا أنهما كانا مع ذلك يتبادلان النظر ببهجة وسرور، ويتبادلان إشارات قلبية من

الرأس واليد ثم ينسحبان الألماني إلى اسطبله، وروستوف إلى البيت الذي يقطنه مع دينيسوف.

سأل روستوف خادم دينيسوف، وهو ماكر معروف في كل السرية: أين سيدك؟

ـ متخف منذ مساء أمس. لا شك أنهم نتفوا ريشه. إنني أعرفه تماماً: فهو عندما يربح يعود مبكراً منشرحاً. أما إذا لم يعد تلك الليلة، فمعنى ذلك أنه أنفق آخر درهم في جيبه وأنه سيعود غاضباً... هل أقدم لك القهوة؟

ـ لا مانع.

ولما عاد الخادم لأڤروشكا بعد عشر دقائق بالقهوة صاح قائلاً: ها هوذا، حذار من غضبه.

نظر روستوف من النافذة فرأى دينيسوف عائداً.

كان رجلاً قصير القامة أحمر الوجه، أسود العينين ملتمعهما، ذا شاربين كثين، وشعر غزير أجعد. وكانت سترته مفكوكة الأزرار، وسراويله هابطة بثنيات منسدلة، وقبعته مشوهة منحدرة فوق مؤخرة رأسه. كان مكتئب الوجه مطرق الرأس، يتجه نحو مرقاة المنزل.

صاح بصوت غاضب: لاڤروشكا، ارفع لي هذا يا بليد!

فأجاب صوت لاڤروشكا: إنني أدأب في رفع ذلك.

ولما دخل دينيسوف قال: كيف! هل نهضت؟

فأجاب روستوف: لقد عدت من مهمة توزيع العلف، ومررت على فراولين ماتيل.

صاح دينيسوف وهو يلثغ بشكل ظاهر: حقاً! يا عزيزي! لقد تعرضت لخسارة فادحة! إن المرء لا يخطر بباله شؤم كهذا، لقد بدأ الأمر فور ذهابك... هولا، أعطني شاياً!

كان وجهه عابساً، وفمه منفرجاً قليلاً تظهر خلال فتحته أسنانه القصيرة المتينة. راح دينيسوف يخلل شعره الكثيف الأسود، الشبيه بالغابة الملتفة، بإصبعه القصيرة الغليظة.

عاد يقول بعد أن مسح على جبينه ووجهه بيديه: يا لها من فكرة سيئة تلك التي حملتني على الذهاب إلى منزل ذلك الجرذ (والجرذ لقب أحد زملائهما من الضباط). تصور أنني لم أحصل على ورقة رابحة واحدة، ولا ورقة!

تناول الغليون المشتعل الذي كان الخادم يقدمه إليه، فعض عليه ثم ضرب به الأرض وهو يتابع شكواه: إنه ما كان يترك لي إلا أتفه الربح، أما الصفقات التي كانت تبشر بربح مضاعف، فقد كان يلتهمها وحده باستمرار.

كان التبغ المشتعل قد تبعثر في الغرفة دخاناً، فحطم الغليون وألقاه بعيداً وسكت فترة ثم قال مخاطباً روستوف، بعد أن خصه بنظرة نشيطة: ليت لدينا عدداً من النساء! ما العمل في هذا الجحر غير الشراب؟ آه! ليتنا دخلنا المعارك وحاربنا بشدة!...

وبلغت مسامعه أصوات خطى ورنين مهاميز تقترب من الغرفة، أعقبها سعال مستكين. فصاح: من هناك؟

فأجاب لاڤروشكا: إنه وكيل الضابط.

فازداد وجه دينيسوف اكفهراراً وقال وهو يلقي بكيس نقوده على الطاولة وفيه بضع قطع ذهبية: روستوف يا صغيري، عد ما في الكيس وخبئه تحت الوسادة.

وخرج للقاء القادم. فراح روستوف يعد المال الموجود في كيس النقود ويفصل القطع الذهبية القديمة عن القطع الحديثة بحركة آلية. بينما ارتفع صوت دينيسوف من الغرفة المجاورة يقول:

ـ آه، آه! تيليانين! مرحباً! لقد أصبت بإحدى هذه الخسارات...

ـ أين؟ عند بيكوف؟ عند الجرذ أليس كذلك؟ لقد كنت واثقاً بذلك.

ولم يلبث أن دخل الملازم تيليانين صاحب ذلك الصوت الرقيق، وهو ضابط من كوكبة روستوف.

وضع روستوف كيس النقود تحت الوسادة وضغط على اليد الصغيرة التي مدها الملازم إليه. كان تيليانين هذا قد نقل من سلاح الحرس إلى سلاح الخيالة لغير ما سبب ظاهر، وكان أصدقاؤه لا يحبونه رغم أنهم لم يكونوا واجدين عليه أي مأخذ. وكان روستوف بصورة خاصة يعجز عن إخفاء كراهيته الغريزية التي كان يُثيرها في نفسه ذلك الضابط، ولا يستطيع السيطرة على أعصابه.

سأل تيليانين: حسناً، أيها الفارس الشاب، هل أنت راضٍ عن المهر الذي بعته لك؟

كان تيليانين قد باع إلى روستوف فرساً صغيراً هو الذي شهدنا روستوف ينزل عن صهوته ذلك الصباح.

لم يكن ذلك الملازم ينظر إلى الأشخاص نظرة صريحة، بل كانت عيناه تائهتين أبداً من شيء إلى آخر مما يكون حوله.

أجابه روستوف: نعم، يبدو لي أنه حيوان جيد.

وعلى الرغم من أنه اشترى ذلك الفرس بسبعمائة روبل، رغم أنه لا يساوي نصف ذلك المبلغ، فهو لم يبد اعتراضاً.

وتابع يقول: لكنه يعرج الآن من قائمته اليسرى:

ـ لعل حافره قد أصيب. أمر تافه. سأريك كيف تعالج مثل هذه الحالات.

فقال روستوف متلهفاً على التخلص منه: إذن، سأستحضر الفرس:

ـ كما تريد. إنه ليس سراً. ولسوف تشكرني من أجل الفرس!

ـ حسناً، بيّن لي كيف تعالج هذه الحالات.

وخرج إلى الممشى ليعطي أوامر. أما دينيسوف، فقد كان واقفاً على عتبة الباب يصغي والغليون في فمه، إلى تقرير وكيل الضابط. فلما رأى روستوف، أشار بإبهامه من فوق كتفه إلى الغرفة التي بقي تيليانين وحيداً فيها وقال دون أن يعبأ بوجود وكيل الضابط: هوذا فتى لا يروقني!

فهزّ روستوف كتفيه وكأنه يقول: «ولا أنا، ولكن ما العمل؟».

وعندما رجع روستوف بعد برهة إلى حيث كان تيليانين، كان هذا لا يزال جالساً في مكانه جلسة اللامبالاة، يفرك يديه البضّتين الصغيرتين الواحدة بالأخرى فلما رآه عائداً نهض.

فكر روستوف في نفسه: «حقيقة إن في العالم رؤوساً لا تروق الناظر إليها بل تنفره».

سأل الملازم وهو يسرح طرفه الشارد حوله: حسناً، هل أمرت بإحضار الفرس؟

ـ نعم.

ـ لنذهب إلى حيث هو. لقد جئت أستفسر دينيسوف عن أوامر الأمس. هل هي معك يا دينيسوف؟

ـ ليست جاهزة بعد... أين تذهبان؟

ـ سأطلع هذا الشاب على طريقة معالجة حافر الفرس.

مضيا إلى الاسطبل، فأشار الملازم باتخاذ الترتيبات اللازمة لمعالجة حافر الفرس، ومضى إلى غرفته.

وعندما رجع روستوف، وجد دينيسوف جالساً والقلم في يده وزجاجة من الخمرة أمامه، وإلى جانبها قطع من المصير المحشو. فنظر إلى روستوف نظرة عابسة وقال:

ـ إنني أكتب «له».

ظهرت الغبطة على وجهه لأنه سيستطيع التعبير بالقول عما كان يود كتابته. واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يعرض على روستوف محتويات الرسالة. قال: ألا ترى يا عزيزي أننا عندما نبغض إنساناً تخبو قريحتنا؟ إن الإنسان ليس إلا حقارة. لكنه عندما يحب يصبح إلهاً ويشعر بنفسه أنه نقي مثل أيام الخليقة الأولى... من هناك أيضاً؟

ولما رأى لاڤروشكا مقترباً صاح به: ليذهب القادم إلى الشيطان. ليس لدي الوقت لاستقباله!

فأجابه الخادم دون أن يتأثر بلهجته: من تريده أن يكون؟ إنه بدون شك وكيل الضابط الذي جاء يسترجع نقوده. لقد استدعيته بنفسك.

عبس دينيسوف وبدا كأنه يهم بالصراخ، لكنه سكت دون أن يتفوه بكلمة. ولم يلبث أن غمغم بين أسنانه: آه، تباً! كم بقي من مال في كيس نقودي يا روستوف؟

ـ سبع قطع جديدة وثلاث قديمة.

ـ يا لها من حالة قذرة!...

ثم صرخ في وجه لاڤروشكا قائلاً:

ـ ماذا تفعل متسمّراً في مكانك كجذع الشجرة؟... إبعث إليّ بوكيل الضابط.

قال روستوف وهو محمرّ الوجه: اسمع يا دينيسوف. إذا كنت في حاجة إلى المال فإنني أستطيع إقراضك ما تريد.

فغمغم دينيسوف: إنني لا أحب الاقتراض من أصدقائي. كلا إنني لا أحب ذلك.

فكرر روستوف: لكنني أقول لك إن المال متوافر معي. ونحن صديقان. إنني أعتبر رفضك تجريحاً لي.

ـ كلا شكراً.

واقترب دينيسوف من السرير ليأخذ كيس نقوده: أين وضعت كيس النقود يا روستوف؟

ـ تحت الوسادة السفلى!

ـ لا يوجد تحتها شيء.

وألقى دينيسوف بالوسادتين إلى الأرض دون أن يظهر كيس النقود بينهما!

ـ ما معنى هذا؟

قال روستوف: انتظر. ربما سقط عندما نفضت الوسائد.

ورفع الغطاء وهزة وفتّش في كل مكان. لكن الكيس قد اختفى.

ـ هل تُراني نسيت؟... لكن كلا. بل إنني فكرت في أنك تضع نقودك تحت وسادتك وكأنها كنز.. نعم، لقد وضعت كيس النقود هنا...

والتفت إلى لاڤروشكا وقال: أين الكيس؟

ـ حيث وضعته صدقني. إنني لا أعرف عنه شيئاً ولم أدخل قط وحدي إلى هنا:

ـ ولكن...

ـ إنك دائماً هكذا... تُلقي بأشيائك ذات اليمين وذات اليسار ثم تنسى أين وضعتها.

ـ أجل لكنني هذه المرة أذكر كأنها على الضبط لأنني فكرت في قضية الكنز... لا شك أنني وضعتها هنا...

رفع لاڤروشكا كل ما على السرير ونظر أسفله وتحت الطاولة وقلب الغرفة رأساً على عقب وسيده يتابع حركاته صامتاً. فلما انتهى الخادم من

التفتيش وباعد بين ذراعيه وقال إنه لم يجد شيئاً في أي مكان، التفت دينيسوف إلى روستوف وقال له: هيا يا عزيزي، لا تلعب علينا لعب التلاميذ...

شعر روستوف أن أنظار دينيسوف شاخصة إليه. فرفع عينيه فترة ثم عاد فأطرق وقد احمرّ وجهه، وبدأ صدره يعلو وينخفض انفعالاً وكأنه ركض شوطاً بعيداً، وشعر بغصة في حلقه.

أردف لاڤروشكا قائلاً: يجب أن يكون كيس النقود هنا لأن أحداً لم يدخل هذه الغرفة إلّا كما والملازم تيليانين. فزمجر دينيسوف وقد عبق وجهه بالدم ورفع يده استعداداً لصفع خادمه: وإذن، تدبر أمرك أيها المنافق، أوجد الكيس! الكيس فوراً وإلا فاحذر العواقب! سوف أنهال عليكم جميعاً بالضرب!...

تجنب روستوف نظر دينيسوف، فزرر سترته وعلق حسامه إلى منطقته وتناول قبعته. بينما دينيسوف يصرخ بانفعال متزايد وقد أطبق على كتفي لاڤروشكا واعتصره بشدة وهو يدفعه نحو الجدار: الكيس، أتسمع، الكيس فوراً!

فقال روستوف: دعه بسلام، إنني أعرف من أخذه.

واتجه نحو الباب دون أن يرفع نظره. فترك دينيسوف الخادم وفكر فترة. فلما أدرك غاية روستوف، استوقفه بذراعه وصرخ بشدة أبرزت عروق عنقه وجبهته: مستحيل! لن أدعك تقول ذلك. إنك تثير فضيحة يا عزيزي!...

إن الكيس هنا. سأسلخ جلد هذا الحيوان، لكنه سيجده.

كرر روستوف بصوت متهدج وهو يتجه نحو الباب: إنني أعرف من أخذ الكيس.

فاندفع دينيسوف نحو زميله محاولاً إيقافه وهو يصيح: لا تحاول شيئاً من هذا القبيل، قلت لك لا تحاول!

لكن روستوف أفلت منه وكأن دينيسوف ألدّ أعدائه، وحدجه بنظرة عميقة، مفعمة بالحقد، وقال بصعوبة وألم: زن كلماتك جيداً. لا يوجد في الغرفة سواي. فإذا لم يكن الكيس مع الآخر فمعنى ذلك...

ولم يستطع إكمال عبارته، فانصرف مهرولاً. صاح دينيسوف مشيعاً: ليركبك الشيطان أنت والآخرون معك!

مضى روستوف إلى حيث يقيم تيليانين فقال له خادمه: إن الملازم في الأركان.

ولما رأى وجهه المنقلب المتقلص قال يسأله: ماذا حدث؟

ـ لا شيء.

فأضاف الخادم قائلاً: لو أنك جئت قبل قليل لوجدته هنا.

امتطى روستوف أول حصان صادفه، ومضى إلى الأركان العامة في قرية مجاورة تبعد ميلاً أو أقل من سالزنك. وكان في تلك القرية خان يؤمه الضباط فرأى روستوف أمام الخان حصان تيليانين. ولما دخل، رأى الملازم جالساً إلى طاولة حافلة بالطعام والخمر. صاح تيليانين وهو يبتسم ويرفع حاجبيه:

ـ آه! ها أنت ذا أيها الشاب!

فتمتم روستوف بجهد واضح:

ـ ن ـ ع ـ م.

وجلس إلى طاولة مجاورة.

لم يتوجه إليه بأية كلمة لأن الخان كان يضم اثنين من الألمان وضابطاً روسياً آخر غيرهما. وكان السكون مخيماً فلا تسمع إلا قرع السكاكين على الأطباق وحركة فكي تيليانين وهو يمضغ الطعام. فلما انتهى هذا من طعامه. أخرج من جيبه كيس نقود مزدوجاً، ومد أصابعه المرفوعة بتأنق، فأخرج قطعة ذهبية وقال للنادل: أعد إليّ الباقي بسرعة!

كانت القطعة الذهبية جديدة، فنهض روستوف واقترب من تيليانين وقال بصوت جامد: دعني أرى كيس نقودك.

فمدّ تيليانين الكيس إلى روستوف وهو حائر النظر، مرفوع الحاجبين وقال وقد شحب وجهه فجأة: إنه كيس جميل أليس كذلك؟... نعم، نعم... انظر إليه أيها الشاب.

فحص روستوف الكيس والمال الذي فيه ثم راح يحدق إلى وجه تيليانين الذي أخذ في تلك اللحظة، يتظاهر بالدعة وهو لا يفتأ يسرح طرفه حوله. قال: عندما ندخل ڤيينا، فإن كل ما في كيسي سيتبخر. أما في هذه الأحجار الصغيرة القذرة، فإن المال لا يفيد في شيء... هيا، أعد إليّ كيسي أيها الشاب لأنني سأمضي.

لم يتفوه روستوف بكلمة. فاستطرد تيليانين: هل تناولت طعامك؟ إن المرء يجد طعاماً جيداً هنا... حسناً، أعطني الكيس ومد يده إلى روستوف واستعاد الكيس فأعاده إلى جيب سراويله بهدوء وهو يرفع حاجبيه بدون مبالاة. وكانت شفتاه المنفرجتان تبدوان كأنهما تقولان «إنني أضع كيسي في جيبي وهو أمر بسيط لكنه لا يخص سواي».

وأطلق تنهيدة، ووجّه إلى روستوف نظرة مختلسة من تحت حاجبيه المرفوعين وقال: حسناً ماذا تريد أيها الشاب؟

فاتصل الرجلان بتيار غير مرئي ربط بين نظريهما كالشرارة الكهربائية وانتقل من تيليانين إلى روستوف ثم من روستوف إلى تيليانين وبالعكس.

استمر ذلك الاتصال حوالى ثانية. وصاح روستوف وهو يمسك الملازم من ذراعه ويسحبه في شيء من القوة باتجاه النافذة: تعال إلى هنا...

ولما بلغاها، همس في أذنه: إن هذا المال يخص دينيسوف، ولقد أخذته...

فاحتج تيليانين: كيف!... كيف!... كيف تجرؤ؟...

لكن ذلك الاحتجاج كان يشبه في لهجته صرخة اليأس، وطلب الصفح والغفران. فلما سمع روستوف لهجة الملازم، أحس كأن عبئاً قد أزيح عن كاهله: لم يعد للشك مكان! شعر بالسرور وبإشفاق على ذلك التعس الواقف أمامه. غير أنه كان مرغماً على الاستمرار في القضية حتى النهاية.

غمغم تيليان وهو يتناول قبعته ويتجه نحو غرفة خالية: إن الله وحده يعلم ما سيظن الناس بنا. يجب أن نتفاهم...

فقال روستوف: إنني أعرف ما أقول، وأنا على استعداد للبرهان عليه.

فتمتم الملازم: ولكن... ولكنني...

كان وجهه ممتقعاً من الخوف، وعضلات وجهه كلها ترتعد. وكانت نظرته تائهة لا يجرؤ على رفعها إلى وجه روستوف. أخذ يحاول حبس النشيج في حلقه.

قال وهو يرتمي على طاولة هناك: كونت!... لا تضيّع شاباً... ها هو ذا المال الملعون خذه.

وألقى على الطاولة بالمال ثم تابع:

ـ إن لي أباً عجوزاً وأماً مسكينة...

أخذ روستوف المال وهو يتجنب النظر إلى وجه تيليانين، وهمّ بالانسحاب دون أن يتفوّه بكلمة. لكنه لما بلغ الباب، أبدل عزمه فعاد إليه وقال: رباه، كيف أمكنك أن ترتكب مثل هذه الفعلة؟

كانت عيناه مغرورقتين في الدموع. فاقترب منه تيليانين وقال: كونت...

فصاح روستوف وهو يتراجع إلى الوراء:

ـ لا تلمسني!... إذا كنت في عسر فخذ هذا المال. احتفظ به... وألقى كيس النقود على الطاولة وغادر الخان ركضاً.

الفصل الخامس

اجتمع ضباط الكوكبة عند دينيسوف مساء ذلك اليوم، وراحوا يناقشون بحماسة.

قال أحد الضباط لروستوف الذي كانت الدماء المتصاعدة إلى وجهه قد أحالته قرمزي اللون: صدقني يا روستوف إنك مخطئ. يجب أن تقدم اعتذارك إلى العقيد.

كان المتحدث طويل القامة، أشهب الشعر، ضخم الشاربين، عميق تجاعيد الوجه. وكان قد حرم من رتبته بسبب أعمال تتعلق بالشرف وعاد فاسترجع رتبته بعد ذلك.

صاح روستوف: إنني لا أسمح لأحد أن يتهمني بالكذب! لقد قال إنني أكذب وإنني شوهت قوله، وإن الأمور يجب أن تتوقف عند ذلك الحد. إنه يستطيع أن يجعلني على رأس الخدمة كل يوم، وأن يفرض علي عقوبات عسكرية إذا حلا له ذلك. لكن أحداً لن يستطيع إرغامي على تقديم اعتذاري. فإذا كان بوصفه زعيماً يجد من غير اللائق أن يرضي كرامتي، فإنني...

فقاطعه الرئيس كيرستن بصوته الجهوري المنخفض وهو يفتل شاربيه الكبيرين: إهدأ يا عزيزي واصغ إلي. إنك تقول للزعيم إن واحداً من زملائك قد ارتكب سرقة، وتقول ذلك بحضور ضباط آخرين...

ـ وهل هو خطئي إذا كان هناك ضباط آخرون؟ يجوز أن التحدث في حضرتهم لم يكن ضرورياً، لكنني لست مداوراً سياسياً. لقد دخلت في

سلاح الفرسان لأنني كنت أظن أن الرقة وانتقاء العبارات ليست في شيء من الحسبان... لقد اتهمني بالكذب فليسحب كلمته!...

ـ إن كل ما تقوله صحيح ولا يوجد من يشك في شجاعتك، ولكن المسألة ليست هنا. سل دينيسوف: هل شوهد ضابط صغير يطلب اعتذاراً من زعيم؟

كان دينيسوف يقضم شاربه ويصغي إلى النقاش مكفهر الوجه، عازفاً عن التدخل فيه. فلما سمع سؤال الرئيس أجاب بإشارة نفي من رأسه. فاستطرد ذاك بإلحاح: هيا يا عزيزي. لقد كنت تتحدث إلى الزعيم عن تلك المسألة اللعينة بحضور ضباط آخرين، فأشار عليك بوغدانوڤيتش بالصمت ليقطع سياق حدثتك. «وهو الاسم الذي كان يطلق على الزعيم بين صفوف الضباط، واسمه الكامل كما سنرى هو: كارل بوغدانوفيتش شوبرت»

ـ أي إنه اعتبرني كاذباً.

ـ ليكن. لكنك تفوهت أمامه بحماقات ويجب أن تعتذر عنها.

فصاح روستوف: أبداً!

فأجاب الرئيس بصوت حازم: ما كنت أنتظر ذلك منك. إنك ترفض الاعتذار مع أنك يا عزيزي مذنب ذنباً كبيراً حيال الزعيم بقدر ما أنت مذنب حيالنا، وحيال السرية كلها، كان يجب أن تفكر في الأمر وأن تطلب المشورة منا فيما يجب أن تتبعه من تصرف. وبدلاً من ذلك، أفرغت ما في جعبتك دون حذر أمام ضباط آخرين! فماذا كان يستطيعه الزعيم إزاء ذلك؟ هل كان يستطيع أن يقدم ضابطاً للعدالة فيشوه سمعة السرية كلها؟ هذا هو رأيك، أليس كذلك؟ حسناً، إنه ليس رأينا. وقد أحسن بوغدانوڤيتش التصرف عندما زعم أنك لا تقول الصدق. إن قوله مزعج ولا شك. ولكن الخطأ ليس خطأه يا عزيزي. والآن عندما نرغب في خنق القضية، نراك على العكس تصيح فوق

الأسطح، وترفض الاعتذار لمجرد الزهو. كيف تجد أن بقاءك في الخدمة كل يوم يشكل مهانة، ولا تستطيع أن تقدم اعتذارات إلى ضابط عجوز نبيل! إن بوغدانوڤيتش لا يخلو من عيوب، لكنه ليس أقل من زعيم عجوز باسل. ومع ذلك فإنك تتكدّر من قوله. ولكن ألا تجد أن تشويه سمعة السرية أمر خطير؟

وأخذ صوت الرئيس يتهدج وهو يقول: إنك ولا شك يا فتاي لست هنا إلا لفترة من الزمن لأنك ستنقل يوماً لتكون ضابطاً مساعداً في الأركان، فلا يهمك والحالة هذه ما سيحدث بعدك، ولا يزعجك على ما يبدو أن يقال «إن بين ضباط پاڤلوغراد لصاً!» أما نحن، فإن ذلك الأمر على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة إلينا. أليس كذلك يا دينيسوڤ؟

بقي دينيسوڤ صامتاً جامداً يلقي على روستوڤ نظرات من عينيه السوداوين اللامعتين بين الحين والآخر. فتابع الرئيس: إنك لا تعرف غير الزهو ولا تريد أن تعتذر. لكننا نحن، معشر الجنود القدماء، لقد شببنا وهرمنا في السرية، ونطلب إلى الله أن يمنحنا شرف الموت فيها. لذلك فإن شرف السلاح ثمين عندنا، وبوغدانوڤيتش لا يجهل ذلك. آه! ليتك تعلم كم نستمسك بشرف السرية!... كلا يا صاحبي، إنك لا تتصرف تصرفاً لائقاً، إنك لا تتصرف تصرفاً طيباً! إنني لن أتفوه بغير الصدق ولو أزعجك ذلك! إنك لا تتصرف تصرف الرجل اللبق!...

ونهض الرئيس وأدار ظهره إلى روستوڤ. فصاح دينيسوڤ وهو ينهض عن مقعده: إنه لصواب! هيا يا روستوڤ، هيا!

كان وجه روستوڤ خلال ذلك يمتقع ويحمر، ثم يمتقع ثم يحمر مجدداً. وكان ينقل الطرف دورياً بين الضابطين. فقال:

ـ ولكن لا، أيها السادة، ماذا ستظنون؟... لقد كونتم عني فكرة سيئة... إنني أفهم ذلك... إن شرف السرية متأصل في أعماق قلبي أنا أيضاً.. ولسوف

أبرهن على ذلك بالأعمال... وهو عندي بمثابة شرف العلَم... ليكن. إنني أعترف بأنني مخطئ... ـ واغرورقت عيناه في الدموع ـ نعم إنني مخطئ، مخطئ تماماً... فماذا تريدون غير ذلك؟

استدار الرئيس نحوه وقال وهو يربت بيده الضخمة كتفه:

ـ مرحباً يا كونت. هذا هو خير الكلام.

وصاح دينيسوف قائلاً: أرأيت، إنه فتى باسل. لقد قلت ذلك لك من قبل.

فتابع الرئيس: نعم يا كونت، إنني أفضل ذلك. فاذهب يا صاحب السعادة وقدّم اعتذاراتك.

كان الرئيس يعطي روستوف كل ألقابه وكأنه يكافئه على حسن نيته. فقال روستوف ضارعاً: سأعمل كل ما تريدونه أيها السادة. إنني لن أتفوه عن هذا الأمر بكلمة. ولكن لا تطالبوني بالله أن أقدم اعتذاراتي. إنني لست طفلاً أيها السادة لأسأل العفو...

ـ فانفجر دينيسوف ضاحكاً بينما قال كيرستن: أنت وشأنك. إن بوغدانوڤيتش حقود. ولسوف تدفع ثمن عنادك غالياً:

ـ أقسم لكم إنني لست عنيداً!... لا أستطيع أن أصف لكم شعوري... لكن الأمر، بكل صراحة، يفوق حدود طاقتي...

فعقب الرئيس: هيا، ليكن كما تشاء!... أين اختفى ذلك الحقير؟

فأجابه دينيسوف: لقد ادعى بأنه مريض. سوف يسرح غداً بعد تبادل التقارير.

ـ إن المرض وحده يفسر اعتكافه.

فزمجر دينيسوف بصوت ضار: سواء أكان مريضاً أم لا، فإنني سأقتله إذا وقع نظري عليه!

ـ كيف، أنت!

وفي تلك اللحظة دخل جركوف فصاح الضباط:

ـ لقد صدر أمر الانطلاق أيها السادة. لقد استسلم ماك وأبيد جيشه.

ـ إلى الحرب، إلى الحرب! قدموا إليه زجاجة لقاء هذه البشرى. ولكن كيف جئت إلى هنا؟

ـ بسبب ماك اللعين. إنني لما رأيته عائداً، قدمت تهانيّ إلى الجنرال النمسوي. فشكاني هذا، وكانت نتيجة الشكوى أن أعدت إلى السرية... ولكن ماذا بك يا روستوف؟ إنني أراك على غير حالك!

ـ آه! يا عزيزي ليتك تعلم في أي بؤرة تردّينا منذ أمس.

جاء الضابط المرافق للزعيم في تلك اللحظة يؤيد الخبر الذي حمله جركوف: لقد كان أمر الحركة معطى ومحدداً في صباح الغد. صاح الضابط:

ـ إلى الحرب أيها السادة!

ـ شكراً لله. كفانا تعفناً حتى الآن!

الفصل السادس

في الثالث والعشرين من تشرين الأول، كان الجيش الروسي يعبر نهر إينس[1]. وكانت تُنقل المدفعية والقطعات العسكرية والأمتعة، تباعاً على طول مدينة «إينس» وعلى جانبي الجسر.

وانثنى كوتوزوف على ڤيينا يهدم الجسور وراءه. جسور «الإين»[2] في برونو والـ ترون[3] في لينز.

كان الوقت خريفاً والجو معتدلاً وممطراً. كانت «بطاريات» المدفعية التي تحمي الجسر وتشغل مرتفعاً مستديراً. وكان المشهد الذي يتيحه ذلك المرتفع، يضيق حيناً تحت ستار المطر الغزير، ويتسع حيناً آخر تحت أشعة الشمس، فكانت الأشياء البعيدة تبدو عندئذ واضحة، وكأنها طليت بطبقة من الدهان اللامع. والمدينة الصغيرة ببيوتها البيضاء وقرميدها الأحمر وكنيستها وجسرها الذي كان الجيش الروسي متمركزاً على جانبيه وموزعاً على قطعات كبيرة، تُرى بوضوح أسفل ذلك المرتفع. وعند المنعطف الذي يشكله نهر الدانوب في اندفاعه، كان المشاهد يرى بعض الزوارق وجزيرة وقصراً منيفاً وحديقة يحيط بها الماء، ماء نهر «الإينس» و«الدانوب» معاً. وعلى شاطئ النهر العظيم الأيسر، كانت مرتفعات خضراء وممرات زرقاء، قائمة في الأبعاد

---

(١) نهر إينس، من روافد الدانوب. (المترجم)

(٢) إين، من روافد الدانوب ينبع من سويسرا. (المترجم)

(٣) ترون، من روافد الدانوب يمرّ بعاصمة النمسا لينز. (المترجم).

الشاسعة المجهولة. وهناك أحراج تشبه الغابات البكر، تظهر وراءها أبراج دير كبير، بينما كان جنود الأعداء يظهرون وراء تلك المرتفعات بوضوح.

أمام «بطارية المدفعية»، على ذلك المرتفع، كان الجنرال قائد المؤخرة وضابط من بلاط جلالته، يرقبان الأرض حولهما بواسطة منظار مقرب. وإلى الوراء، كان نيسـفيتسكي قابعاً في كمين هناك. لقد أقامه القائد الأعلى في عداد ضباط المؤخرة. وكان القوقازي الذي يرافقه، يقدم له قصعة مملوءة بقطع البسكويت وإناء فيه شراب. وكان نيسـفيتسكي يطعم ضباط البطارية الذين يحيطون به مرحين، وبعضهم على ركبتيه، والبعض الآخر جالساً على الطريقة التركية فوق الأعشاب الندية.

قال نيسـفيتسكي: إن الأمير النمسوي الذي شيد قصره هنا، ذكي، بعيد النظر. يا للمركز الرائع!... ماذا أيها السادة؟ ألا تأكلون؟

فأجاب أحد الضباط وهو فرِح إذ يتحدث إلى عضو هام في أركان حرب الجيش: شكراً جزيلاً يا أمير. في الحقيقة إن الموقع رائع. إننا عندما مررنا في الحديقة شاهدنا خادمين. يا له من قصر بديع!

وقال ضابط آخر يتوق إلى تناول قطعة أخرى من الحلوى لكنه لا يجرؤ على ذلك، فاضطر إلى التظاهر بتأمل المشهد: انظر أيها الأمير، أنظر إلى مشاتنا كيف بلغوا القصر. ها ثلاثة منهم هناك في ذلك الحقل، وراء القرية، يجرون بينهم شيئاً ما... إنهم يحاولون تطويق ذلك القصر، فليوفقهم الله.

فقال نيسـفيتسكي وفمه الجميل الندي مملوء بالحلوى: هكذا يبدو لي. أما أنا شخصياً، فإنني أفضل أن أقوم بجولة إلى هناك.

وأشار بإصبعه إلى الدير ذي الأبراج الذي يبدو مرتسماً على الرابية. ثم ابتسم، فضاقت عيناه والتمعتا وتابع:

سيكون ذلك رائعاً، أليس كذلك أيها السادة؟

فانفجر الضباط ضاحكين وقال أحدهم: إن القضية قضية تخويف أولئك الراهبات المتدينات. يقال إن بينهن إيطاليات جميلات رائعات. إنني أعطي خمس سنين من حياتي، عن طيب خاطر، لقاء زيارة واحدة أقوم بها إليهن!

فقال أحد المدفعيين معقباً وهو يمتاز ببسالته وإقدامه: ثم إنهن ينزعجن في وحدتهن.

وفي تلك الأثناء، كان ضابط من الحاشية يشير إلى الجنرال بالنظر إلى نقطة ما. فسدد هذا منظاره إلى حيث أشار الضابط.

غمغم الجنرال وهو ينزل المنظار: لقد انتهى الأمر.

ثم هز كتفيه وأردف: نعم لقد استعدوا. سوف يطلقون قذائفهم علينا خلال عبورنا. ماذا ينتظر جنودنا؟

كانت العين المجردة من الجانب الآخر للنهر، تكتشف «بطارية» عدوة ارتفع فوقها دخان كثيف أبيض، وارتفع بعد ذلك دوي بعيد مكتوم، أعقبته حركة بين الوحدات الروسية. وقف نيسـڤيتسكي يتنفس ملء رئتيه، واقترب من الجنرال والابتسامة على شفتيه وقال يسأله:

ـ هل ترغب سعادتكم في تناول قطعة؟

فتجاهل الجنرال السؤال وقال: يا للمسألة اللعينة. إن رجالنا متأخرون.

ـ هل يجب أن نهبط يا صاحب السعادة؟

فأجاب الجنرال: هو ذلك. إذهب أرجوك.

وراح يكرر عليه الأوامر التي كان قد أصدرها من قبل بالتفصيل: قل للخيالة أن يعبروا آخر كل الفرق وأن يحرقوا الجسر كما أمرت من قبل، ولتفتش مرة أخرى المواد المشتعلة التي حددت أمكنتها.

فأجاب نيسـڤيتسكي: مفهوم.

ونادى تابعه القوقازي الذي كان يمسك بعنان جواده، فأمر بحزم الذخيرة والزاد، واعتلى بخفة ظهر جواده رغم ثقل جسمه.

قال للضباط الذين راحوا ينظرون إليه باسمين: إنني ذاهب لزيارة المتعبدات كما ترون.

وسلك الطريق الملتوي الذي كان يصعد الرابية المرتفعة.

حسناً يا كاپتن، أرنا مدى قذائفك، هيا! لمجرد خداع العدو.

صاح الضابط آمراً: أيها المدفعيون، إلى قطعكم!

فأسرع المدفعيون والرماة فوراً إلى مراكزهم، وأخذوا يلقّمون المدافع. ودوى صوت آمر يقول:

ـ القطعة الأولى، أطلق النار! فتراجع المدفع الأول بعنف، وأرعد بصوت معدني يصم الآذان، ومرت القذيفة فوق رؤوس القطعات الروسية المحتشدة عند سفح التل، وهي تصفر صفيراً قوياً. لكنها انفجرت على بعد من العدو بعد أن أعلنت مكان سقوطها بسحابة خفيفة من الدخان.

عمّ الفرح القطعات الروسية لسماع الدوي، ونهض الضباط والجنود ليشاهدوا بأنفسهم حركات الجنود الآخرين التي كانت واضحة جليّة، تقابلها من الجانب الآخر الوحدات العدوة. وفي تلك اللحظة خرجت الشمس من وراء السحب الأخيرة، فكانت تلك الطلقة الوحيدة من المدفع، مختلطة مع بريق الشمس المشع، توحي للنفس ببهجة حماسية رائعة.

الفصل السابع

وكان الأمير نيسـفيتسكي وسط ذلك الازدحـام، مستنداً إلى حاجز الجسر، يضحك وهو ينظر إلى تابعه القوقازي، الذي كان واقفاً على مقربة منه إلى ورائه، ممسكاً بأعنة جوادين عندما انطلقت قذيفتان فوق الجسر حيث كانت الحركة على أشدها.

وكلما راح يحاول التقدم، كان الجنود والعربات والحركة الدائمة الصاخبة تعيده إلى مكانه قرب الحاجز فلم يجد خيراً من الابتسام يعالج به مشكلته.

صاح القوقازي بجندي كان يدفع عربته الجنود المشاة ويهددهم بسحقهم تحت عجلاتها وسنابك الخيل: قل يا هذا، ألا تستطيع الانتظار قليلاً؟ يجب أن تترك المجال لمرور الجنرال، هل فهمت؟

لكن كلمة «جنرال» لم تُحدث أي أثر في نفس الرجل، الذي راح يصيح بالجنود الذين يعترضون سبيله قائلاً: احذروا يا هؤلاء! خذوا يساركم!

إلا أن «هؤلاء» كانوا يسيرون كتفاً إلى كتف، تتشابك حرابهم، ويتقدمون كتلة لا سبيل إلى تفريق أفرادها.

كانت أنظار نيسـفيتسكي تنتقل من النهر إلى الجسر، فتكتشف هنا وهناك مشاهد متماثلة. وإلى الأسفل، كان «الإينس» يدفع أمواجه الصاخبة متتابعة متلاحقة، لتتحطم وتشتبك مع الأوتاد المغروسة في مجراه لإقامة أبنية عليها، وإلى الأعلى، كانت أمواج هائلة تصطخب، أمواج بشرية، ولكنها متشابهة

مع أمواج المياه من حيث النتائج والاتجاه. كانت تلك الأمواج، سلسلة لا تنتهي من الأكياس والبنادق الطويلة والحراب والخوذات العسكرية بشعاراتها وأربطتها الحلقية، التي تظهر تحتها وجوه ذات خدود ضامرة وأخرى منتفخة، ثم غابة الأرجل المتخبطة في الأوحال اللزجة.

ومن حين إلى آخر كان أحد الضباط بمعطفه المميز، يظهر بين تلك الأمواج البشرية.

ومن وقت إلى آخر، تقع العين على إحدى عربات الضباط، أو من تلك التي تخصص نقل الأمتعة، وهي محملة ومغطاة بقماش سميك يحمي ما فيها ومن فيها فتبدو طافية، أشبه بجذع شجرة عائم في مجرى تيار جارف يتقاذفها على هواه.

قال القوقازي وقد يئس من التقدم: يُخيل إلى المرء أن الحاجز قد دمر فتدفقت المياه. هل يستمر هذا التدفق طويلاً؟

فأجابه مزّاح كان يمر في تلك اللحظة مرتدياً معطفه الممزق وهو يغمز بعينيه: إن العدد الذي سيمر قوامه مليون إلا واحداً!

وكان جندي عجوز، يسير متعقباً خطى المزّاح يقول لزميل له بلهجة مفجعة: إذا بدأ يطلق نيرانه علينا في هذه الساعة، فإننا سننسى حتماً أن نهتمّ بقملنا.

والضمير الغائب في هذه الدعاية يرجع إلى العدو.

مضى العجوز وجاء في أعقابه جندي يعتلي عربة ووراءه جندي يعدو على قدر طاقته ليلحق بالعربة السائرة ويبحث في محتوياتها. كان يصخب قائلاً: أين أخفيت جواربي أيها الحيوان السمج؟

وابتعد كما ابتعدت العربة، وتبعه جمع من الجنود يبدو عليهم السكر. وهم يضحكون مقهقهين. كان أحدهم يقول وهو يلوح بذراعيه. وياقة معطفه

مرفوعة تصل إلى شحمتي أذنيه: وفي تلك اللحظة يا فتاي الصغير كان بودي لو رأيته كيف أهوى بعقب بندقيته على أنفه فحطمها.

فأجابه آخر وهو ينفجر ضاحكاً: لا شك أن وجهه الآخر أصبح كفخذ الخنزير الشهي!

ومرّت هذه الجماعة دون أن يستطيع نيسـڤيتسكي أن يعرف من الذي أصبح «فخذاً» شهياً.

ومر نقيب مزمجراً: ليقال إن النار في أعقابهم! ألأنه أرسل قذيفة لم تنفجر، باتوا يعتقدون أنهم سيموتون عن آخرهم.

و«ألأنه» هذه تعني ألأن العدو طبعاً.

فأجابه جندي شاب ذو فم كبير، في كتمان ضحكته: إنني يا صديقي، عندما رأيت القذيفة تمر أمامي كدت أشيح ببصري.

وأردف فخوراً بأنه شعر بالخوف: نعم ولا شك أنني شعرت برعب مريع!

ومر هذان المتحدثان كذلك. وجاءت عربة تختلف عن سابقاتها. كانت عربة محلية يقودها ألماني من أهل المنطقة، يجرها جوادان وقد قطرت إليها بقرة جميلة ملونة ضخمة. كانت العربة تبدو متسعة كمنزل صغير تحمل أفراده، لأن ثلاث نساء كن جالسات على فرش فيها: عجوز وامرأة على يدها طفل، وفتاة متوردة الوجنتين. كانت تلك العائلة واحدة من عدد كبير أرغم أفرادها على إخلاء مساكنهم، ومنحت لهم تصاريح خاصة بالانتقال.

استدارت الأعين كلها تنظر إلى تلك الأسرة. وكانت البسمات توجه إلى المرأتين كلما تقدمت عربتهما ببطء بين تلك الجحافل، حتى أن الامرأتين الشابتين كانتا تبتسمان ابتسامة متشابهة تنم عن أفكار مثيرة.

صاح أحدهم بسائق العربة: ماذا أيها الأب المنتفخ، أتجلو عن المكان؟

وقال آخر يسأل الألماني الذي كان مطرق الرأس، مكفهر الوجه، يحاول حث الخيول على الإسراع في السير: هل تبيع رفيقتك حقاً؟

وانبرى صوت آخر يقول: رباه كم هي مزينة!

ـ إنها خير رفيقة سكن، أليس كذلك يا ڤيدوتوف؟

ـ بل إننا رأينا أجمل منها يا فتاي.

وسأل ضابط ميدان وهو يقضم تفاحة ويبتسم ابتسامة جميلة لفتاة العربة: إلى أين تمضون هكذا؟

فأغمض الألماني عينيه وتظاهر أنه لا يفهم شيئاً. فقال الضابط وهو يقدم تفاحته للفتاة: خذيها، أتريدين؟

فتقبلتها الفتاة بلطف.

ظل نيسـڤيتسكي، كالآخرين، يحدج النسوة بعينيه طوال الوقت الذي استغرقه مرور العربة. فرأى أولئك الجنود وسمع أقوالهم ثم توقف الرتل كله.

كانت الخيول التي تجر العربة الأولى قد توقفت عند نهاية الجسر، ورفضت كما يحدث غالباً للحصان الحرون. وسبَّب ذلك التوقف المفاجئ تجمّد السيل العرم الذي كان يرى.

توقف الجنود وهم يحدقون إلى وجوه بعضهم بعضاً ويتدافعون، وكل منهم يحاول أن يتجاوز الآخر. واختلطت الأصوات:

ألا يوجد نظام؟ ماذا ينتظرون؟ ألم تنته من الدفع أيها الأحمق؟ أأنت على عجلة من أمرك إلى هذا الحد؟ عندما تشتعل النار في الجسر سيكون الأمر مسلّياً أكثر. ألا ترى أننا نكاد نسحق ضابطاً...

وبينما كان نيسـڤيتسكي مستديراً ينظر إلى أمواج النهر، سمع فجأة صوتاً جديداً يختلف عن الأصوات التي ألفها حتى تلك اللحظة. رأى كتلة هائلة تقترب مسرعة وتنقض فتسقط في النهر.

غمغم جندي قريب من هناك وقد استلفتت الضجة انتباهه: إنه الآن يهتم بنا. (العدو).

فأجاب آخر مازحاً: «إنه» يريد أن يجعلنا نسرع في عبور الجسر.

أيقن نيسـڤيتسكي أن تلك الضجة الهائلة كانت نتيجة لقذيفة أطلقها العدو. ولما عاد الركب يسير، استوقف تابعه القوقازي وصاح به:

ـ إليّ بجوادي! هيا ابتعدوا من الطريق! دعوني أمر!

واعتلى صهوة الجواد بمجهود كبير وهو يكثر التأنيب ليشق لنفسه طريقاً، وراح يدفع حصانه غمار الجنود الذين راحوا يفسحون له في الطريق مختارين. لكن تلك الموجة البشرية ارتدت إليه فجأة، حتى أن أقرب الجنود إليه، كاد يسحق ساقيه مرغماً بفعل الازدحام.

وصاح صوّت أجش من وراء نيسـڤيتسكي: هه! نيسـڤيتسكي! هه أيها المنتفخ!

فاستدار هذا مستجيباً، وإذا به يرى على بعد خمس عشرة خطوة وراءه، فارساً أحمر، أسود، أجعد الشعر، استرسلت قبعته حتى استقرَّت في مؤخرة رأسه، وعلى كتفيه فروة مربوطة عند العنق، كانت الكتلة البشرية تفصل بينه وبين الفارس. لكنه لم يجد صعوبة في معرفته. كان هذا هو ڤاسكا دينيسوڤ. زمجر هذا الأخير وهو فريسة الغضب: قل لهؤلاء الأوغاد أن يفسحوا لنا في الطريق!

كانت حدقتاه الملتهبتان تدوران في محجريهما وتلتمعان كالشعلة المتوهجة. وكانت يده تهز حسامه في غمده وتلوح به. وكانت اليد حمراء كالوجه.

صاح نيسـڤيتسكي مرحاً: آه! ڤاسكا! ماذا بك؟

فزمجر دينيسوف بصوت كالرعد، وهو يكشف في غضبه عن أسنانه البيضاء: يستحيل مرور الخيالة.

وهمز جواده الأصيل الأسود بقسوة، ذلك الجواد العربي الذي يفخر به، والذي كان ينصب أذنيه كلما اندفع في غمار الحراب المشهرة، مذعوراً يغمره الزبد، وكأنه لا ينتظر إلا إشارة من فارسه ليقفز فوق الحاجز إلى النهر:

ـ يا لقطيع الخراف!... إفسحوا في الطريق أيتها الحيوانات!... أنت يا سائق العربة، قف وإلا مزقتك إرباً إرباً؟...

واستل سيفه من غمده، وراح يهدد المشاة تهديداً جدياً، فذعروا وراحوا يتدافعون ليفسحوا في المجال للضابط الفارس الغضوب حتى بلغ مكان زميله.

سأله نيسـڤيتسكي: كيف حدث أنك لست ثملاً؟

ـ آه يا عزيزي، إنهم لا يعطوننا الوقت الكافي لغسل المرافق! إنهم يتنقلون طوال النهار بين جانب وآخر. لنحارب إذا كان يجب أن نحارب! وإلا فالله يعلم معنى هذا التصرف!

رأى نيسـڤيتسكي الفروة الجديدة التي يتدثر بها الفارس ولبادة جواده فصاح: يا للشيطان! ما هذه الأناقة!

ابتسم دينيسوف وأخرج من جيب محفظته الجلدية منديلاً مضمخاً برائحة عطرية دفعه تحت أنف نيسـڤيتسكي وقال: إنك على حق لأننا في يوم المعركة! لقد حلقت لحيتي وتضمخت بالعطور بل أكثر من ذلك: لقد غسلت أسناني.

واستطاع هيكل نيسـڤيتسكي الضخم والقوقازي المرافق يؤذيهما تصميم دينيسوف وصيحاته وتوبيخاته، أن يُحدث أثره في النفوس، مما سهل عليهم أخيراً أن يشقوا لأنفسهم طريقاً ويبلغوا الجانب الآخر من الشاطئ حيث

لحقوا بموجة المدفعيين والقناصة الصاعدين، وهناك التقى نيسـڤيتسكي الزعيم الذي جاء ينقل إليه الأوامر فأتم مهمته، وعاد على أعقابه.

بعد أن شق دينيسوف طريقاً لخيالته بمجهود جبار، انتحى جانباً ليراقبهم وهم يغادرون الجسر. وكان يضبط جواده بيد متراخية، ويمنعه من الاندفاع وراء الجياد الأخرى. ولم يلبث أن ارتفع وقع حوافر جياد على أخشاب الجسر، وإذا بالكوكبة منتظمة على صفوف رباعية وضباطها في المقدمة، تجتاز الجسر وتصعد الجانب الآخر.

كان المشاة خلال ذلك، يناضلون بين الأوحال ويرمقون الفرسان الرسميين الأنيقين بنظرة فيها عداء معروف عند أسلحة الجيش المختلفة.

صاح أحد المشاة: هؤلاء على أحسن حال، وكأنهم ذاهبون إلى عرض عسكري! فأجاب آخر.

ـ ماذا تريد منهم أن يفعلوا غير ذلك؟ إنهم لا يحسنون إلا هذا.

صاح أحد الفرسان مازحاً وقد رأى كيف تعثر بأحد المشاة فألقاه أرضاً: أنت يا دافع الحصى بقدميك، اجهد في أن لا تثير غباراً!

فأجاب الآخر وهو يمسح بكمه وجهه الملطخ بالوحل: نعم، هو كذلك. تظاهر بأنك تنقض وأنت على ظهر جوادك. لكنك لو سرت مرحلتين أو ثلاث مراحل والكيس على ظهرك لما كنت متبجحاً إلى هذا الحدّ.

وصاح عريف يمازح جندياً نحيلاً منحنياً تحت ثقل كيسه: قل لي يا يازيكين، أهو أنت الذي تليق بامتطاء صهوة جواد؟ وددت لو رأيتك!

فرد عليه أحد الفرسان قائلاً: إن خير ما تفعله هو أن تضع له عصا بين ساقيه، وبذلك يصبح فارساً جميلاً!

الفصل الثامن

بدأت فصائل المشاة والمدفعية التي كانت محبوسة عند مدخل الجسر، تتدفق منه الآن بسرعة كالسائل الذي يندفع خلال القمع. مرت العربات كلها وخف الزحام. وبلغ آخر جحفل الضفة الأخرى. ولم يبق إلا فرسان دينيسوف لمواجهة العدو. كان هذا ظاهراً من أعلى المرتفع المقابل. أما من الأسفل عند الجسر، فلم يكن مكشوفاً بعد، لأن النهر كان يسير ملتوياً في مضيق كانت جنباته تقطع الأفق على مسافة لا تقل عن خمسمائة متر، كانت من الأمام، مساحة غير مأهولة يجوس القوقازيون خلالها.

وفجأة ظهرت معاطف زرقاء ومدافع فوق تلك المرتفعات التي راح القوقازيون ينحدرون منها خبباً. كان ضباط دينيسوف وجنوده لا يفكرون إلا في ما هو كامن فوق الهضبة وينظرون باستمرار إلى تلك النقاط الظاهرة على الأفق، والتي كانت في حقيقتها كتائب عدوة منتشرة هناك غير أنهم يحاولون جاهدين أن يشيحوا بأعينهم عنها إلى ناحية أخرى، وأن يتحدثوا حول مواضيع ثانية. وبعض الظهر، تحسنت الحالة الجوية وسطعت الشمس، وراحت تسدل إشعاعاتها الوهاجة على الدانوب الرائع والهضبات القاتمة التي تضمه بينها.

وكان السكون شاملاً، ومن حين إلى آخر، كان بعض الخيالة يقطعون مسافة الفراغ الممتدة بين الكوكبة والعدو الذي كان قابعاً في أمكنته لا يصدر عنه صوت، إلا صيحات تتردد من حين إلى آخر، ونفير يؤكد وجوده. وكان

ذلك السكون يزيد في خطورة الخط المرعب الذي يفصل بين الجيشين العدوين، ذلك الخط الوهمي الذي لم يقطعه أحد من الجانبين.

وراح كل رجل يفكر: «على خطوة وراء ذلك الخط شبيهة بتلك الخطوة التي تفصل بين الأحياء والأموات، يقبع المجهول الذي يحدث الألم والموت. ولكن ماذا يجد الإنسان هناك؟ ومن يجد؟ ماذا هناك وراء ذلك الحقل وتلك الشجرة وذلك السقف الذي تسطع الشمس فوقه؟ إن ما هناك مجهول يود كل إنسان معرفته.

كان كل إنسان يخشى اجتياز ذلك الخط، ويشعر مع ذلك برغبة في اجتيازه. كان كل واحد يعرف أنه سيضطر إلى اجتياز ذاك الخط آجلاً أو عاجلاً، وأنه سيعرف ما هناك، كما يجب، ذات يوم، أن يعرف ماذا وراء الموت معرفة لا بد منها، مع ذلك فقد كان كل إنسان يشعر أنه صحيح الجسم متقداً حماسة ومرحاً، وأن من حوله كذلك ممتلئون صحة وقوة واندفاعاً». تلك هي إحساسات كل رجل أمام العدو. وتلك الإحساسات تعطي صورة خاصة بعد كل حادث، فتجعل المرء يستقبل ذلك الحادث بنشاط وتعطش.

بدت سحابة خلّفتها قذيفة انطلقت من فوهة مدفع وراحت تصفر فوق الكوكبة، على قمة المرتفع الذي يعسكر العدو فوقه. فتفرق الضباط الذين كانوا مجتمعين في بقعة واحدة، وأخذ كل منهم مكانه على رأس فصيلته. وكان الرجال يحاولون جهدهم استبقاء خيولهم منتظمة الصفوف. وخيم الصمت من جديد. كانت عيون الفرسان شاخصة إلى العدو البعيد، وإلى الرئيس تنتظر الأمر منه. ومرت قذيفة ثانية وثالثة. كانت تلك القذائف تستهدف الفرسان بدون شك، غير أنها طاشت بصفيرها الرتيب مارة فوق الرؤوس وسقطت في مكان ما وراء الكوكبة.

كان يبدو على الوجوه عدم الاهتمام بتلك القذائف، ولكن كلما تردد

صوت المقذوف ودوّى، كان الرجال ذوو الوجوه المختلفة في ألبستهم الموحدة، يتوقّفون عن التنفس وكأنهم ينفذون أمراً صدر إليهم، ويرفعون أجسادهم معتمدين على الركب. كان كل واحد يتفحص زميله بزاوية عينه دون أن يدير إليه رأسه، محاولاً معرفة الشعور الذي أحدثه مرور القذيفة في نفسية زميله. وكان كل وجه، اعتباراً من وجه دينيسوف وحتى وجه نافخ البوق، يعبر عن الانفعال والعصبية، والصراع العنيف ضد النفس، فينظر ذلك التعبير في الخطوط الواضحة حول الذقون وعلى أطراف الشفاه. وكان الرقيب الأول ينظر إلى رجاله بوجه عابس ملؤه التهديد. أما التلميذ الفارس ميرونوف، فكان يحني ظهره أثر وصول القذيفة، بينما كان روستوف الواقف في الجناح الأيسر على حصانه الضعيف ذي المظهر الجميل مستبشر الوجه، وكأنه طالب استدعي أمام حشد غفير ليخضع لفحص، كان متأكداً أنه سيؤديه بتفوق وكانت نظرته المشعة تبدو وكأنها تشهد الناس على سكونه وهدوئه أمام قصف المدفعية. مع ذلك فإن الخط المعلن عن شعور جديد خطير ظهر رغماً عنه عند نهايتيْ قوس فمه.

صاح دينيسوف الذي كان يطير من جناح الكوكبة الأيمن إلى جناحها الأيسر متقداً: أيها التلميذ الفارس ميرونوفف، لم تدير رأسك إلى هناك؟ يجب أن تنظر إليّ أنا.

كان ڤاسكا دينيسوف بوجهه الممتلئ، ورأسه المتوج بشعر أسود، وقامته القصيرة الملفوفة، ويده المعقدة القصيرة المغطاة بالشعر، المتقلصة على مقبض سيفه المشهر، لا يختلف عما كان يبدو عليه عادة وخصوصاً في الأمسيات، بعد أن يكون قد أفرغ زجاجتين في جوفه. لكنه كان أكثر احمراراً من عادته. وكان رأسه منتصباً أشبه بالطيور التي تهم بابتلاع الماء الذي شربته، وجسمه ملقى إلى الوراء، تعصف ساقاه القصيرتان في جنبي جواده الأصيل

لكزاً دون إشفاق، فيهدب من جناح إلى آخر، ويلقي بصوت أجش الأمر بإعداد الغدارات. وجاء الرئيس الثاني «كيرين» للقائه فوق فرسه الضخم. كان كيرستين ذو الشاربين الكبيرين وقوراً كعادته، غير أن عينيه كانتا تسطعان أكثر من المعتاد.

قال يخاطب دينيسوف: ما فائدة تحضير الغدارات. إننا لن نشتبك مع العدو وسوف ترى.

فغمغم دينيسوف مزمجراً: يا للشيطان، لست أدري ماذا يفعلون؟

ثم صاح يخاطب روستوف بعد أن لاحظ الحبور الذي على وجهه: هه روستوف! ها إن اليوم المنشود قد أزف!

وشفع قوله بابتسامة مشجعة، وهو بادي السرور لشجاعة الفتى، بينما امتلأ قلب روستوف غبطة. وظهر ضابط المؤخرة في تلك اللحظة، على الجسر، فأسرع دينيسوف للقائه قائلاً:

ـ اسمح لي يا صاحب السعادة أن أهاجم. سوف أقذف بهم وأبددهم!

فغمغم الجنرال وقد قطب حاجبيه وكأنه يطرد ذبابة وقحة: إن الأمر كذلك، ماذا تفعل هنا حتى الآن؟ ألا ترى أن المستكشفين ينسحبون. أرجع رجالك.

تراجعت الكوكبة وخرجت سليمة من مدى القذف. وجاءت كوكبة ثانية كانت تستكشف حركات العدو، فمرت على الجسر يتبعها لفيف من القوقازيين هم آخر من تبقى من الفرسان.

كانت الكوكبتان تنسحبان نحو المرتفعات بناء على الأوامر. وكان الكولونيل كارل بوغدانوفيتش شوبيرت، الذي لحق بكوكبة دينيسوف، يسير الهوينا على جواده غير بعيد عن روستوف. وكان لا يلقي بالاً إلى الفتى، رغم أن ذلك اللقاء كان الأول بينهما، منذ جدالهما بصدد الملازم تيليانين.

كان روستوف يشعر أنه، بصفته في الخدمة، تحت مطلق تصرف هذا الرجل الذي أهانه والذي كان يعترف في تلك اللحظة بأخطائه التي ارتكبها حياله. فكان نظره لا يفارق كتفي الزعيم العريضتين ورأسه الأشقر وعنقه المحمرّ. كان يتصور أحياناً أن بوغدانوڤيتش يتظاهر باللامبالاة ليختبر شجاعته «هو» روستوف فعندئذ يشد قامته ويسرح حوله طرفاً متحمساً. ويظن، أحياناً، أن الزعيم بسيره بالقرب منه، يريد أن يبرهن له على شجاعته.

لكنه كان يتصور في بعض الأحيان أن الزعيم الراغب في معاقبته، سيلقي بالكوكبة في هجوم جنوبي، ليمد بعدئذ إلى روستوف الجريح، يداً مسترضية ويعلن أنه نسي ما بينهما من خصومة.

أسرع أحد الضباط المساعدين إلى حصانه متجهاً نحو الزعيم. كان ذلك الضابط المقبل هو جركوف الذي أصبح قوامه الممشوق معروفاً لفرسان پاڤلوغراد، رغم أنه منذ إقصائه عن الأركان العامة، لم يندمج بهم زمناً طويلاً. كان يقول إنه ليس شديد الحماقة لينخرط في صفوف الفرسان، بينما يستطيع ضمان ترقيته وهو في الأركان دون عمل يذكر. لذلك فقد سعى لنفسه حتى أصبح ضابطاً تابعاً للأمير باغراسيون الذي كان يقود مؤخرة الجيش. وكان في تلك اللحظة قادماً من لدنه لينقل أمراً إلى رئيسه السابق.

قال بوجه حزين وهو يتبادل النظر مع زملائه القدامى: أيها الزعيم، لقد صدر الأمر بالتوقف وإحراق الجسر.

فسأل الكولونيل بشراسة مستعملاً اللغة الروسية الركيكة: من الذي أعطى الأمر. كل ما أعرفه أن الأمير كلفني أن أقول لك إن على الفرسان أن يتراجعوا فوراً وأن يضرموا النار في الجسر.

وجاء ضابط آخر من الحاشية بعد جركوف يحمل ذلك الأمر بالذات. وجاء كذلك نيسـڤيتسكي الضخم الذي كان ثقل جسمه يهبط الجواد القوقازي

الصغير. صاح وهو على مسافة من الزعيم: رباه، يا كولونيل قلت لك أن تحرق الجسر ثم أراك لا تفعل شيئاً؛ إنهم على أشد الضيق في الأركان العامة، ينزعون شعر رؤوسهم من الغضب ولا يفهمون شيئاً من تصرفك.

أصدر الزعيم أمره إلى السرية بالتوقف، دون أن تبدو العجلة على تصرفاته، وأجاب قائلاً: لقد حدثتني عن المواد المشتعلة، أما عن حرق الجسر فإنك لم تحدثني.

كان نيسـڤيتسكي، خلال ذلك الوقت، قد أوقف جواده ورفع خوذته، وراح يمسّد شعره السابح في العرق بيده السمينة. قال دهشاً: كيف لم أحدثك عن إحراق الجسر يا سيدي العزيز! لمَ إذن وضعت عليه المواد المشتعلة؟

ـ عفواً يا سيدي ضابط الأركان. إنني أولاً لست «سيدك العزيز». وأخيراً إنك لم تحدثني بوجوب إحراق الجسر! إنني أعرف واجبي، ومن عادتي تنفيذ الأوامر حرفياً. لقد قلت إن الجسر سوف يحرق، أما من سيحرقه، فإنني ما كنت لأعرف ذلك بواسطة الروح القدس...

قال نيسـڤيتسكي وهو يشير بيده دلالة على الخضوع والامتثال: هيا!

ووقعت عيناه على جركوف فصاح: هه، جركوف! ماذا تفعل هنا؟

ـ مثل ما تفعل أنت، والفرق أنك مبتل كما ترى، فهل تريد أن أعصرك؟

أما شوبرت فقد كان يشعر بجرح في كرامته نتيجة لأقوال ضابط الأركان، لذلك فقد استمر يناقشه محتجاً:

ـ لقد قلت لي يا سيدي ضابط الأركان...

فقاطعه ضابط الحاشية قائلاً: لنسرع يا كولونيل وإلا فإن العدو سيقرب قطعاته ونصبح تحت رحمته...

سكت شوبرت مرغماً، وراح ينقل نظره بين ضابط الحاشية وجركوف وضابط الأركان الضخم فيزداد وجهه اكفهراراً.

قال بلهجته الوقورة التي تشعر بأنه يقوم بواجبه مهما تعرض لمخاصمات: ليكن! سأحرق الجسر.

وشدّ غضبه على جنبي جواده، إذ راح يضغط عليهما بساقيه القويتين دون رحمة، فطار الجواد به إلى المقدمة، وهناك أعطى الأمر إلى الكوكبة الثانية التي كان روستوف فرداً منها تحت أمرة دينيسوف، بالتراجع نحو الجسر.

فقال روستوف في سره وهو يشعر أن قلبه قد أطبقت عليه يد خفية راحت تعتصره: «هو ذاك، إنه يريد اختباري، حسناً، سأبرهن له على أنني لست جباناً»! وبدأت الدماء تضرج وجهه.

وعاد الخط الكئيب مجدداً إلى وجوه الخيالة المستبشرين، ذلك الخط الذي طبع وجوههم بالتهجم عندما دوت طلقات المدافع. وكان روستوف يحدج وجه خصمه وهو يتوق إلى اكتشاف أية بادرة تدعم ظنونه. غير أن نظرة الكولونيل الصارمة الوقور لم تلتق مرة نظرته. ارتفع صوت الزعيم آمراً، ورددت أصوات حول روستوف تقول: أسرعوا! أسرعوا.

بسرعة فائقة، وبين رنين المهاميز وصليل السيوف وصلصلة اللجم، ترجل الفرسان عن ظهور جيادهم وهم حيارى لا يدرون ماذا يفعلون. راحوا يرسمون إشارة الصليب، وقد أخذ منهم الخوف لبقائهم في المؤخرة. ونسي روستوف الكولونيل، وسلم حصانه الصغير إلى الجندي الذي يحرس الخيول، وشعر أن قلبه يدق بعنف جنبات صدره.

ومر دينيسوف وجسمه ملقى إلى الوراء على عادته هادباً جواده صائحاً مشجعاً. غير أن روستوف لم يعد يرى إلا الفرسان الذين كانوا يركضون حوله مرتبكين بمهاميزهم قارعين سيوفهم.

صاح صوت من ورائه: نقالة!

لم يفكر روستوف في معرفة السبب الذي من أجله تطلب النقالة، بل راح

يعدو بكل قواه محاولاً الوصول قبل سواه. لكن قدمه زلت في الطين اللزج عند مدخل الجسر، فسقط على يديه ومر الآخرون وتجاوزوه.

وسمع صوت الزعيم الذي كان يسير في المقدمة على صهوة جواده قرب الجسر ووجهه الوقور الطافح بالبشر: من الجانبين أيها الرئيس!...

التفت روستوف لينظر إلى خصمه وراح يمسح يديه الملطختين بالوحول بسراويله. أراد أن يتابع الجري مقدراً أنه كلما تقدم كان ذلك أفضل، لكن بوغدانوڤيتش صاح بصوت غاضب دون أن يعرفه أو أن ينظر إلى وجهه: من ذا الذي يسرع في منتصف الجسر؟ إلى اليمين! إلى الوراء أيها الفارس التلميذ!... ما فائدة التعرض للخطر أيها الرئيس؟

وأردف يخاطب دينيسوف الذي راح يتقدم ممتطياً جواده فوق الجسر متباهياً: ترجل يا دينيسوف.

فأجاب ڤاسكا دينيسوف وهو يستدير في مقعده على صهوة الجواد: إه! إن القذائف تجد دائماً من تصطدم به!

وقف نيسڤيتسكي وجركوف وضابط الحاشية بعيداً عن مرمى قذائف العدو، يراقبون تلك القبضة من الرجال بخوذاتهم الصفراء وستراتهم الخضراء ذات الأشرطة، وسراويلهم الزرقاء وهم ينشطون قرب الجسر وينقلون طرفهم عبر النهر، ليراقبوا المعاطف الزرقاء التي كانت تظهر على البعد والبطاريات المنصوبة التي كان يسهل تمييزها.

كان كل من الجنود الواقفين على الهضبة المطلة على النهر يتساءل بقلق وهو يرقب عن بعد اقتراب المعاطف الزرقاء والحراب وقطع المدفعية: «هل يجد الفرسان الوقت الكافي لإضرام النار في الجسر؟ هل سيهاجم الفرنسيون بسرعة ويسحقونهم تحت وابل رصاصهم؟».

قال نيسـڤيتسكي: سيتعرض الفرسان لضرب عنيف! ها إنهم باتوا تحت رحمة قذائف العدو.

فقال ضابط الحاشية ملاحظاً: لقد أخطأ إذا استصحب كل هذا العدد!

ـ حقاً. إن اثنين من الفتيان كانا كافيين.

فاعترض جركوڤ بلهجته التي تثير الضحك دون أن يبدو على وجهه أنه راغب فيه: ما هذا القول يا أمير؟ رجلان! أتريد إذن أن يمر صليب القديس ڤلاديمير تحت أنوفنا؟ سوف تقع ضحايا نتيجة هذه العملية، غير أن السرية كلها ستمنح ذلك الوسام، وسيحمل بوغدانوڤيتش شريطة. إنه يعرف ماذا يفعل.

صاح ضابط الحاشية قائلاً: هه! سيفتكون بهم الآن بطلقات الرصاص!

وراح يشير إلى الأسلحة الفرنسية التي شوهدت تُسحب من المقدمة وتُقطر بسرعة لتوجه نحو فرسان الجسر.

وظهرت فوق الوحدات العدوة التي تضم المدفعية، ثلاث سحب متتابعة ولما ردد الصدى دوي الانفجار الأول، ارتفعت فوق القطعات العدوة سحابة رابعة. ودوى انفجاران متتاليان أعقبهما ثالث.

زمجر نيسـڤيتسكي وكأنه يحس بألم محرق: أوه! أوه!

وأمسك بذراع ضابط الحاشية وأردف: انظر، أنظر! هو ذا واحد قد سقط: اثنان على ما يبدو لي أليس كذلك؟

فقال نيسـڤيتسكي وهو يشيح بنظره عن المشهد: لو كنت القيصر لما خضت حرباً.

لُقمت المدافع الفرنسية بسرعة، وكذلك البنادق، وتهافتت المعاطف الزرقاء بخطوات سريعة نحو النهر، وارتفعت سحب أخرى ولكن على فترات غير منتظمة. ولعلعت طلقات البنادق. غير أن نيسـڤيتسكي لم يستطع تمييز

ما يحدث على الجسر في تلك اللحظة، إذ ارتفع فوقه غمام كثيف يشعر بأن الفرسان الروس هناك قد نجحوا في إضرام النار.

لم يعد رماة الأعداء يطلقون النار ليمنعوا إنجاز العملية، بل لمجرد أن أسلحتهم كانت محشوة، وأن أمامهم هدفاً يطلقونها عليه. وقد أفرغوا أسلحتهم ثلاث مرات قبل أن يستطيع الفرسان الروس اللحاق بخيولهم وامتطاءها، وطاشت الدفعتان الأوليان، أما الدفعة الثالثة فقد أصابت فصيلة من الصميم، فقتلت ثلاثة من رجالها.

في وسط الجسر، توقف روستوف لا يدري ماذا يفعل، لأن عقله كان مشغولاً بعلاقاته مع بوغدانوفيتش. ولم يجد حوله أحداً يلقاه بسيفه وهو الذي لم يكن يظن أن المعركة ستكون خلاف ذلك. وما كان يستطيع المساهمة في إضرام النار لأنه لم يكن يحمل المادة الملتهبة كالجنود الآخرين. لذلك فقد وقف في مكانه متردداً. وفجأة سمع فرقعة تشبه سقوط جوز ناضج، ورأى الفارس القريب منه يسقط إلى الأرض مزمجراً قرب السياج، فأسرع إليه مع بعض الجنود وعلا صياح أحدهم من جديد: نقالة!

أمسك أربعة رجال بالجريح وأنهضوه، فصاح هذا: أوه! أوه!... دعوني بحق السماء:

غير أنهم حملوه ووضعوه على النقالة.

راح نيكولا روستوف يحدق إلى النهر الكبير الذي كان يضيع في الأبعاد الشاسعة، وتأمل السماء التي كانت الشمس تبدو فيها كالكتلة المتوهجة، بدت السماء لناظريه شديدة البهاء في إشراقها البهيج! وأعجب بجلال الإشعاع الذي تعكسه الشمس. وبدا له ماء الدانوب البرّاق كالمرآة الصقيلة، بهياً رائعاً، وبدت له التلال التي تصبح قاتمة اللون كلما ازدادت إيغالاً في البعد وراء الدير، جذابة فرحة، والوديان غامضة وغابات الصنوبر تائهة وسط الضباب الخفيف

بمحاذاة الأفق البعيد!... هناك كان السلام والسعادة... أخذ روستوف يحدث نفسه: «لو أنني كنت هناك فقط، إذن لما طلبت شيئاً، ولما رغبت في شيء مطلقاً. كم من سعادة أجدها في نفسي وفي هذه الشمس... بينما أصغي إلى التأوهات الأليمة تتردد بقربي... وهذه العجلة وهذا الارتباك... رباه، ها إن أمراً جديداً قد صدر وكل الفرسان ينفرون إلى حيث لا يعلم إلا الله، فلأركض معهم إذن... ها هو ذا الموت فوق رأسي وحولي... لحظة واحدة ولن أرى بعدها هذه الشمس، وهذه المياه، وهذا الوادي...».

مرت سحابة غطت الشمس، فرأى روستوف نقالات أخرى أمامه، وعندئذ اتخذ الرعب الذي أحدثه في نفسه تخوفه من الموت، بحبه للشمس والحياة، وبدت كلها على وجهه في طابع القلق فغمغم: «آه يا رب، أنت يا من علوت في سمائك، أنقذني واغفر لي!»

أسرع الفرسان إلى خيولهم، فاكتسبت أصواتهم ثقة أقوى، واختفت النقالات من أمامهم، وصاح ڤاسكا دينيسوف في أذن روستوف: حسناً يا صغيري، هل استنشقت رائحة البارود؟

فقال روستوف في سرّه: «هيا، لقد انتهى كل شيء، لكنني لست إلا جباناً. نعم إنني جبان». وزفر زفرة عميقة وأخذ عنان جواده من الجندي الذي كان يحرس الخيل ووضع قدمه في الركاب.

سأل دينيسوف قائلاً: ماذا كان نوع السلاح؟ أهو الرصاص أم القذائف؟

فأجاب دينيسوف: لقد كان يجمع بين كليهما! لقد قمنا بعمل باهر! ولكن يا للمهمة القذرة! حدثني عن هجوم يطربني لأن في الهجوم ما يستطيع المرء أقله أن يصب عليه نقمة سيفه. أما عمل كهذا، فإنني لست أدري كيف أصفه. يقذفنا العدو برصاصة فندعه يتم قذفه جاعلين من أنفسنا هدفاً لمقذوفاته!

وانتقل دينيسوف نحو جماعة غير بعيدة عن روستوف تضم الكولونيل نيسـڤيتسكي وجركوف وضابط الحاشية.

فكر روستوف في نفسه: «إن أحداً لم يلاحظ شيئاً، لكل ما اعتراني!» والحقيقة أن أحداً لم يلاحظ شيئاً، لأن كل واحد كان يعرف بمحض التجربة الشعور الذي يبعثه اللقاء الأول مع النار.

قال جركوف: سوف نرفع تقريراً رائعاً! لن أدهش إذا رُقيت إلى رتبة ملازم.

وقال الكولونيل بلهجة المنتصر: بلغ الأمير أنني أحرقت الجسر:

ـ وإذا سئلت عن الخسائر فماذا أقول؟

فأجاب الزعيم بصوت خفيض: خسارة لا تذكر. أصيب فارسان بجروح وقتل ثالث على الفور!

كان عاجزاً عن ضبط أعصابه وكتمان سروره. وبدت له الكلمة الأخيرة فائقة الجمال حتى أنه قالها بلهجة مرعدة والابتسامة تشع على شفتيه: قُتل فوراً.

الفصل التاسع

كان بوناپرت يطارد جيش كوتوزوف عبر وادي الدانوب، فانثنى جيش هذا الأخير أمام مائة ألف جندي فرنسي، بينما عدد الجيش الروسي لا يزيد على خمسة وثلاثين ألفاً. وكان السكان يستقبلون المتراجعين المتقهقرين بنظرات عدائية تدل على أنهم لا يثقون بحلفائهم. شعر الجيش المتراجع بنقص في مؤونته، فاضطرت القيادة إلى استعمال الأساليب المنظورة في مثل هذه الحالات أثناء الحرب. ولم يكن يجيب على ضغط العدو إلا بمعارك من مؤخرة الجيوش الغاية منها تغطية انسحاب الجيش ومحاولة إنقاذ الأمتعة والمؤن؛ واشتبك الجيشان في «لامباغ» وفي «آمستيتش» و«ميلك». وبرهن الروس في هذه المعارك عن شجاعة ومقاومة اعترف خصمهم بهما.

مع ذلك فإن تلك المعارك الجريئة اليائسة لم تكن إلا لتزيد في سرعة التقهقر. وكانت الجيوش النمسوية التي نجت من هزيمة «أولم» واستسلام جيوش «ماك» والتي انضمت إلى الجيوش الروسية في «برونو»، قد انفصلت عنها. فوجد كوتوزوف نفسه على رأس وحداته الشخصية المنهوكة، فلم يجد سبباً للتفكير في الدفاع عن ڤيينا. وبدلاً من الهجوم المرتقب بحسب قواعد الفن الحربي الجديد المسمى «استراتيجيا»، والذي كانت خطته قد عرضت عليه خلال إقامته في ڤيينا من قبل قيادة الأركان العليا الحليفة، فإن كوتوزوف لم يجد لزوماً لإضاعة جيشه كما أضاع ماك جيشه في «أولم» بل رأى أن خير

ما يفعله لسلامة وحداته، إنما هو الاتصال بالوحدات الروسية التي وصلت من روسيا، رغم أن تلك الغاية لم تكن سهلة وممكنة.

توقف كوتوزوف في الثامن والعشرين من تشرين الأول، على ضفة نهر الدانوب اليسرى، بعد أن جعل النهر فاصلاً بينه وبين القطعات الفرنسية الرئيسية. وكانت الضفة اليسرى محتلة من قبل الجيش الذي يقوده مورتيه[1] وفي ٣٠ تشرين الأول، انقض كوتوزوف على جيش مورتيه وهزمه. وكسب الجيش الروسي للمرة الأولى أسلاباً: علماً ومدفعين. وأسر جنرالين. وللمرة الأولى منذ خمسة عشر يوماً، ظل الجيش الروسي خلالها يقاتل ليغطي انسحابه، تمكن أخيراً أن يحتفظ بساحة المعركة، وأن يجابه العدو ويُنزل به هزيمة نكراء. كانت وحدات الجيش متعبة، وقد أصبحت ثياب الأفراد أطماراً مهلهلة، وخسرت ثلث عددها بين قتيل وجريح ومتخلف ومريض.

ولما كانت المستشفيات وأبنية مدينة كريمز الكبيرة التي تحولت إلى مشافٍ تضيق بالمرضى، ترك كوتوزوف مرضاه الآخرين والجرحى على الضفة الثانية، بعد أن سطر رسالة ناشد فيها إنسانية العدو في معاملة الجرحى والمرضى. مع ذلك، فقد جاء التوقف في تلك المدينة، والانتصار على مورتيه داعماً لمعنويات الرجال.

وراحت الإشاعات المشجعة تسري في الجيش حتى بلغت الأركان العامة. فمن قائل إن وحدات النجدة تقترب، إلى آخر يؤكد أن النمسويين قد انتصروا بدورهم، وثالث يروج أن بونابرت قد استولى عليه الذعر فولى الأدبار.

بقي الأمير اندريه قرب الجنرال النمسوي شميدت طوال المعركة التي

---

(١) مارشال فرنسي (المترجم).

قتل فيها هذا الأخير، وأصيب الأمير برصاصة خدشت ذراعه بعد أن قتلت جواده. وقد أكرمه الجنرال القائد الأعلى، فخصه بالذهاب إلى البلاط النمسوي لينقل خبر الانتصار إلى الملك، الذي انتقل مع حاشيته من ڤيينا التي كان الفرنسيون يهددونها، إلى برون. لم يكن الأمير ﭘولكونسكي تعباً، لكنه كان مضطرباً مثار العواطف ليلة المعركة. كان رغم بنيته النحيلة، يحتمل التعب أكثر من أيّ أمتن بنياناً منه. وقد وصل ليلتئذ إلى «كريمس» على صهوة جواده يحمل تقريراً من دوختوروڤ إلى القائد الأعلى كوتوزوڤ الذي أرسله لساعته إلى برون. فكان الاختيار الذي يقع عليه بانتقائه رسولاً يحمل الأخبار الهامة، يبشر بالإضافة إلى المزايا الأخرى التي يمتاز بها ذلك الاختيار، بترقية ومستقبل لامعين للأمير الشاب.

كانت تلك الليلة حالكة، والنجوم تسطع على صفحة السماء، والطريق يرسم خطاً أسود على أديم البراري الزاهية اللون، التي تغطيها طبقة من الثلج الذي ظل ينهمر طوال يوم أمس خلال المعركة. وبينما كان يقطع الطريق في عربة البريد الصغيرة، كانت أفكاره مشغولة في حوادث أمس الرهيبة. كان يستعرض أحياناً أخطار المعركة، وعبارات الوداع التي خصه بها القائد الأعلى وزملاؤه، وأحياناً يتمثل الأثر المفرح الذي ستحدثه أخطار المعركة والنصر الذي أحرز.

كان الأمير أندريه أمام تلك الأفكار، يشعر شعور الرجل الذي شاهد انبلاج الفجر، فجر سعادة ظل زمناً طويلاً يمضه الشوق إليها حتى تحققت بعد موجة انتظار مضنية، كان إذا أغمض عينيه، خيل إليه أنه يسمع صوت الطلقات النارية ودوي المدافع الذي اختلط بقعقعة العجلات وشعور النصر. وكان أحياناً يتصور أن الروس يدبرون فراراً، وأنه أصيب إصابة قاتلة فمات. لكنه كان يستيقظ منتفضاً ويتضح له بسعادة تداني سعادته في تخيلاته الأولى

البهيجة، أن خيالاته ليست حقيقة، وأنها على العكس تمثل صورة معكوسة، لأن الفرنسيين هم الذين لاذوا بالفرار. ومن جديد كان يتمثل ظروف المعركة والجرأة الغريبة التي أظهرها خلالها. وأخيراً نام وهو يهدهد تلك الأفكار الجميلة في مخيلته...

أعقب ذلك الليل الحالك ساطع النجوم، صباح مشع، فذابت الثلوج تحت حرارة الشمس، وراحت الخيول تخب مسرعة. بينما كانت الغابات والحقول والقرى المحيطة بالطريق، تمر أمام ناظريه بتشابه يربط بين مختلف تلك المشاهد. ولحق الأمير في إحدى مراحل تبديل الخيول بقافلة تضم عدداً من الجرحى الروس. كان رئيس القافلة متهالكاً في العربة الأولى، يصخب ويشتم جندياً شتائم قبيحة.

كان أولئك الجرحى التعساء، شاحبي الوجوه قذرين تحيط بأعضائهم المصابة الأربطة والضمادات. وكانوا محشورين في العربات الطويلة بمعدل ستة أو أكثر في كل عربة، تهتز دارجة على الطريق الحجري. كان بعضهم يتحدثون إذ بلغت مسامع الأمير بعض عبارات باللغة الروسية، والبعض الآخر يأكلون الخبز.

أما أولئك الذين كانت إصاباتهم خطيرة، فقد كانوا يتأملون، بصمت وبفضول المرضى المتواضع الصبياني، عربة البريد التي كانت تمر بهم مسرعة وتتجاوزهم.

أوقف الأمير العربة وسأل أحد الجرحى عن المعركة التي أصيب خلالها مع رفاقه. فأجاب الجندي: لقد جرحنا أول أمس في الدانوب.

فأخرج الأمير حافظة نقوده، وأعطى الجندي ثلاث قطع ذهبية وقال للضابط الذي اقترب منه في تلك اللحظة: إن هذا المال للجميع. تمالكوا قواكم يا أولادي. إن أمامنا كثيراً مما نعمل.

سأل رئيس القافلة متلهفاً على الدخول في محادثة: حسناً يا سيدي الضابط، ما هي آخر الأخبار؟

فأجاب بعد أن أصدر أمره لسائق عربته بالمسير.

ـ جيّدة...

وراحت العربة تبتعد بالأمير متجاوزة قافلة الجرحى.

عندما دخل الأمير برون، كان الظلام مخيفاً. وكانت فوانيس الشوارع مضاءة والأنوار تشع من واجهات الدكاكين ومن وراء النوافذ المرتفعة على جانبي الطريق. والعربات الأنيقة تدرج على أرض الشارع المبلطة محدثة قعقعة. شعر الأمير فجأة أنه مندمج في ذلك الوسط الجذاب الذي يأخذ بمجامع قلوب العسكريين الوافدين من ساحات القتال. كانت تلك المرحلة الطويلة التي قطعها، وليلة الأرق التي مرت به، عديمة الأثر في أعصابه. فلما اقترب من القصر شعر بنشاط يفوق نشاطه بالأمس. كانت عيناه وحدهما تشعان ببريق محموم، وأفكاره تتلاحق بوضوح وسرعة خارقين.

استعاد في ذاكرته أدق تفاصيل المعركة، فلم تكن تلك التفاصيل غامضة مشوشة، بل كانت واضحة وضوح تقرير جدير بأن يرفع إلى مقام الأمبراطور فرانسوا، أخذ يشعر شعوراً مُسبقاً بالأسئلة العريضة التي ستطرح عليه، والأجوبة التي سيقدمها. راح يفكر في أنه سيدخل إلى حيث الأمبراطور فور إعلان اسمه. لكنه عند مدخل القصر، التقى موظفاً أسرع للقائه فلما عرف أنه رسول يحمل نبأ، قاده إلى باب آخر غير مدخل الشرف الذي دخل منه.

قال له الموظف: اتبع الممشى واستدر إلى اليمين، فستجد هناك الضابط المساعد المنوط به أمر الخدمة في هذه الساعة، وهو الذي سيدخلك مكتب وزير الحربية.

امتثل الأمير. وتمنى الضابط المنوب عليه أن ينتظر لحظة ريثما يحمل

النبأ إلى وزير الحربية. وعاد بعد خمس دقائق ينحني أمام الأمير انحناءة ملؤها الاحترام.

ويقوده عبر ممشى إلى مكتب الوزير، والظاهر أن الضابط المنوب أراد بإبدائه مثل ذلك التأدب تجاه الرسول الروسي، أن يُحبط كل محاولة لنبذ الرسميات جانباً. وكلما اقترب الأمير من مكتب الوزير، حلّ شعور الغضب محل التفاؤل والاستبشار.

تحول ذلك الشعور بالغضب إلى كراهية واشمئزاز ليس لهما ما يبررهما. غير أن شعور الأمير المبتكر، استطاع أن يقدم له أسباباً وجيهة تبرر كراهيته للضابط والوزير. كان يحدث نفسه مبرراً شعوره: «لا شك أن الذين لم يستنشقوا رائحة البارود يجدون أن النصر سهل المنال!» وعلى هذا، فإنه عندما دخل مكتب الوزير، كانت في عينيه نظرة محتقرة، وكانت خطواته قد أصبحت متثاقلة. وازدادت كراهيته عندما وجد أن الوزير بقي دقيقتين كاملتين منشغلاً عنه مغفلاً وجوده. كان هذا جالساً وراء منضدة كبيرة بين شمعدانين ضخمين من الشمع، ورأسه الأصلع بصدغيه الرماديين يلتمع تحت الضوء. كان يقرأ أوراقاً يسطر عليها ملاحظاته بقلم الرصاص. بقي منكباً على القراءة عندما فُتح الباب وعلت خطوات الداخلين وأصبحت مسموعة.

قال الوزير لضابطه المساعد: خذ هذا وانقله إلى من يلزم.

ولم يبد عليه أنه شعر بوجود الرسول.

أحس الأمير أندريه أن عمليات كوتوزوف لم تكن موضع اهتمام الوزير الرئيسية، وأنه كان يتعمد استصغار شأنه. فقال الأمير في سره: «مع ذلك، إنني لا أبالي...» أزاح الوزير الأوراق الأخرى وسوى منها رزمة بعناية، ثم رفع رأسه. كانت سحنته الساطعة بالذكاء تنبئ بشيء من العبقرية. لكنه عندما استدار نحو پولكونسكي، اختفت تلك المعالم الصارمة بحكم عادة مصطنعة:

شاعت ابتسامة بلهاء على وجهه، ابتسامة طافحة بالخبث، عاجزة عن إخفاء ذلك المكر رغم مهمة صاحبها التي تجعله يستقبل يومياً عديداً من الملتمسين.

سأل الوزير: أأنت قادم من قبل الجنرال كوتوزوف؟ هل وراءك أخبار طيبة؟ هل تقابلتم مع مورتيه؟ وانتصرتم؟ لقد كان الانتصار في حينه!

وفض الرسالة التي كان كوتوزوف قد أرسلها إليه شخصياً. وبدا فجأة فريسة لهمّ شديد فصاح بالألمانية: آه يا رب، رباه! «شميدت»! يا للتعاسة! يا للتعاسة!

وبعد أن قرأ الرسالة وضعها على المنضدة، وراح يتأمل الأمير أندريه بنظرة ساهمة. قال: يا للتعاسة! أتقول إن المسألة حاسمة؟ مع ذلك استطاع مورتيه الإفلات.

سكت فترة مستغرقاً في تفكيره ثم تابع: سرني أن حملت أخباراً طيبة. لكن موت شميدت يجعلنا نعتبر أننا دفعنا ثمن الانتصار غالياً... إن جلالته سيرغب في لقائك حقاً ولكن ليس اليوم. أشكرك. اذهب واسترح ودعني أراك بعد الاحتفال عند المخرج. على كل حال سوف أخطرك.

واستعاد ضحكته البلهاء التي أفلتت منه خلال الحديث، وقال وهو ينحني انحناءة خفيفة: إلى اللقاء وألف شكر. إن جلالته سيرغب في رؤيتك بدون شك.

شعر الأمير أندريه، عندما خرج من القصر، أن كل ابتهاجه بالنصر الذي أحرزته القوات الروسية قد تبخر. لقد أعطى ذلك الكنز إلى وزير الحربية ومساعده المتكلف. نعم لقد ائتمن على الكنز أيدياً لا تستحقه. اتجهت أفكاره وجهة أخرى، وأصبحت المعركة في خياله ذكريات قديمة.

الفصل العاشر

في برون حلّ الأمير أندريه عند صديقه الدبلوماسي الروسي بيليبين. قال هذا لدى استقباله: عزيزي الأمير، لا شيء أمتع عندي من لقائك!

وأمر خادمه فرانز أن يحمل أمتعة الأمير إلى غرفة نوم السياسي. وتابع يخاطب الأمير: إذن يا عزيزي، لقد جئت تحمل نبأ النصر؟ رائع. أما أنا فإنني مريض كما ترى.

وبعد أن اغتسل الأمير أندريه وأبدل ثيابه، دخل إلى مكتب الدبلوماسي الفخم حيث كانت وجبة طعام خفيفة بانتظاره. جلس إلى الطاولة بينما انتحى بيليبين مكاناً قرب الموقد.

شعر پولكونسكي بانطلاق مرح عندما عاد إلى الجو اللطيف الرائع الذي اعتاد مثله منذ نعومة أظفاره. وخصوصاً أنه كان محروماً من كل وسائل الرفاه والراحة طوال سفره وخلال مختلف مراحل المعركة. ثم إن ذلك أثر في نفسه تأثيراً بالغاً، وخصوصاً بعد اللقاء الذي وقع بينه وبين الوزير.

فكان التحدث باللغة الروسية. أو أقلّه التحدث مع روسي ولو كان باللغة الفرنسية، روسي يشاطر مواطنيه بدون شك الكراهية العامة التي يحسّون بها نحو النمسويين، يخفف بعضاً مما في نفسه.

كان بيليبين في الخامسة والثلاثين من عمره تقريباً، أعزب، ومن بيئة الأمير أندريه ووسطه. وكانت علاقاته في المجتمع الراقي في ڤيينا تماثل العلاقات التي كانت له في پيترسبورغ. وقد شعر پولكونسكي بذلك إبان

زيارته لـڤيينا برفقة القائد الأعلى كوتوزوف. فإذا كان الأمير أندريه يتوقع لنفسه مستقبلاً باهراً في الجيش، فإن بيليبين كان ينتظره مستقبل رائع كذلك في مضمار السياسة. كان شاباً حقيقة، لكنه لم يكن فنياً في أجواء السياسة، إذ إنه مارس هذا العمل وهو في السادسة عشرة من عمره، وبدأ في پاريس ثم كوپنهاغن وهو الآن يشغل مركزاً مرموقاً في ڤيينا، مركزاً حساساً هاماً، وكان السفير الروسي والوزير المفوض للأمبراطورية الروسية يقدرانه حق قدره. ذلك أن بيليبين لم يكن من أولئك السياسيين الكثيرين الذين يعتقدون أن النجاح في الحياة السياسية رهن بالصفات السلبية التي يجب أن يتمتع بها الدبلوماسي، وبالامتناع عن بعض الأمور، والتحدث باللغة الفرنسية بطلاقة.

كان من أولئك الذين يحبون العمل ويجيدونه. وكان رغم كسله، يُمضي ليالي عديدة وراء طاولة العمل. كان ينجز عمله ويتبعه بنجاح مهما كان لون ذلك العمل ونوعه. وكان ما يهمه في الأمور ما يجيب منها على «كيف» وليس على «لماذا».

وكان الفن الدبلوماسي يشغل حيزاً ضيقاً في نفسه، لكنه كان دؤوباً في إعداد مذكرة بدقة، وبعبارات منتقاة وفن، حريصاً على إبراز هذه الصفات في كل المخابرات والعلاقات الخطية. فكان إلى جانب براعته في الإنشاء، يشعر من حوله بتفوقه في تصرفاته وعلاقاته مع الأوساط الراقية.

كان بيليبين شغوفاً بالحديث شغفه بالعمل، شريطة أن يكون ذلك الحديث فكرياً عالياً. ولا يتحدث في المجتمعات إلا إذا أتيحت له الفرص لإبراز ملاحظاته العبقرية على موضوع ما. فلا يتحدث إلا إذا سار الحديث وفق هواه. وكان يرصع حديثه بعبارات بديعية متقنة الصياغة سهلة الفهم، كان يهيئها عامداً في مكتبه كما يبدو، لتصبح سهلة النقل، فيتاح للأشخاص المرموقين في المجتمع وللمزهوين منهم، نقلها من قاعة إلى أخرى. والحقيقة

كانت كلمات بيليبين تؤخذ في كل أبهاء ڤيينا حيث كان تأثيرها شديد الوضوح في «الأمور الهامة».

كان وجهه هزيلاً أصفر، تقطعه غضون عميقة. وكان شديد العناية بنظافة وجهه وجسده. وحركات تلك الغضون هي أبرز صفات ذلك الوجه فكانت تارة تقطع جبينه أفقياً بينما يكون حاجباه في أقصى ما يستطيعان بلوغه من الارتفاع، وأحياناً أخرى تظهر على خديه بينما يكون حاجباه هابطين. وكانت عيناه الصغيرتان الغائرتان في محجريهما، تنظران إلى المتحدث نظرة صريحة وديعة.

قال يحدث الأمير: حسناً، قص عليّ الآن مشاريعك.

فقص پولكونسكي، بتواضع تام ودون أن يشير إلى دوره مطلقاً، تفاصيل المسألة التي ساهم فيها واللقاء الذي خصه به وزير الحربية، وقال معقباً: لقد استقبلوني مع الخبر الهام الذي أحمله كما يستقبل الكلب العائد من لعبة المطاردة.

فابتسم بيليبين وانشرحت أسارير وجهه وقال وهو يتأمل أظفاره عن بعد ويغمز بعينه اليسرى: مع ذلك يا عزيزي، فأنا رغم الحب الذي أكنه للجيش الروسي الأورثوذكسي، اعترف بأن انتصاركم لم يكن من أروع الانتصارات.

واستمر يتحدث بالفرنسية مستعملاً أحياناً بضع كلمات من لغته الأصلية، كلما أراد أن يضفي على جملة ما طابعاً خاصاً من الاحتقار. أردف يقول: قل لي، لقد انقضضتم بكل جيشكم على فيلق مورتيه البائس. مع ذلك، فقد استطاع مورتيه أن يتسلل من بين أصابعكم! ثم إنكم تسمون هذا نصراً.

فأجاب الأمير أندريه: إنه، على كل حال، أفضل من معركة «أولم»، إذا جاز لنا أن نقول ذلك دون تبجح:

ـ لمَ لم تأسروا ماريشالاً واحداً، واحداً فقط؟

لا يحدث كل شيء في الحرب كما يتوقعه المرء. والحرب والاستعراضات لا يمكن أن يتساويا. كنا نفكر أن نهاجم مؤخرته حوالى الساعة السابعة صباحاً، مع أننا لم نبلغ مكانه في الخامسة مساء.

سأل بيليبين مبتسماً: ولماذا لم تصلوا في الساعة السابعة؟ كان يجب أن تصلوا في الوقت المقرر، نعم في الوقت المقرر.

فأجاب الأمير أندريه بمثل لهجته: ولماذا إذن لم تقنع بوناپرت عن طريق الدبلوماسيات بإخلاء جينيس؟

فقاطعه بيليبين قائلاً: نعم! أعترف بأن أسرَ الماريشالات من أسهل الأمور في نظر من لا يتزحزح من زاويته قرب النار. أليس هذا ما تفكر فيه؟ إنك على حق في تفكيرك مع ذلك لمَ لم تأسروا ماريشالاً؟ لا تُدهش إذا قلت لك إن وزير الحربية وصاحب الجلالة الأمبراطور والملك فرانسوا لا يبدون سرورهم بغير ذلك. أما أنا، وأنا الموظف البسيط في السفارة الروسية، فإنني لا أُسر بل لا أجد حاجة لإظهار سروري إذا أعطيت خادمي فرانز ثلاثة ماركات، وأرسلته للقاء صديقته في حديقة الألعاب... ذلك أن المبلغ لا يمكن أن يكون كافياً لتأمين حاجات فرانز.

وبينما كان جبينه يبدد الأخاديد التي ارتسمت عليه، كانت عيناه تتغللان في أعماق الأمير أندريه. فقال هذا الأخير: دعني يا عزيزي ألقي عليك بدوري سؤالاً واحداً. إن دقائق الدبلوماسية تفوق فهمي الضعيف واستيعابي للأمور. فكيف يخسر ماك جيشاً كاملاً، ولا يعطى الأرشيدوقان فيرديناند وشارل أية دالة على حسن تصرفهما، بل يجمعان الخطأ إلى الخطأ، في حين أن كوتوزوف وحده يتفوق، فيعكر صفو الفرنسيين، ومع ذلك لا يجد وزير الحربية سبباً يدفعه للتعرف إلى تفاصيل المعركة؟!

ـ هذا صحيح! ولكن يا عزيزي: اهتف ما شئت للقيصر ولروسيا وللدين! إن كل هذا جميل. لكن أية مصلحة لنا نحن في انتصاراتكم؟ وأقصد

أية مصلحة وفائدة يجنيها البلاط النمسوي؟ أحمل إليهم خبر انتصار واحد من الأرشيدوقين شارل أو فرديناند ـ وكل أرشيدوق يساوي الآخر ـ حتى ولو كان انتصارهم على فريق من رجال الإطفاء الذين يرافقون بوناپرت، وعندئذ تراهم يحتفلون بالخبر بقصف المدافع. بينما يبدو أنكم في انتصاركم هذا لم تنتزعوا الغار إلا لتزعجوهم به. لا يتحرك الأرشيدوق شارل، والأرشيدوق فرديناند تغمره المهانة. وأنتم تتركون ڤيينا لمصيرها المحزن وكأنكم تقولون: «إن الله الرحيم يحميكم وذلك يكفي... فليباركَكم وليبارك عاصمتكم!» وكان لديهم جنرال واحد عزيز عليهم وهو شميدت. فعرضتموه للرصاص الذي قتله، وجئتم بعد ذلك تزعمون أنكم انتصرتم! فكر في الأمر، فكر وأيدني في القول: إن رسالتك كانت شديدة الأسى، أليمة الوقع أليس كذلك؟ إنها تشبه العمل المقصود، أجل العمل المقصود. ثم لو أنكم ربحتم معركة أو ربحها الأرشيدوق شارل بنفسه، فذلك لن يغير سير الأمور العام. إذ ما فائدة هذا النصر؟ لقد قضي الأمر وأصبحت ڤيينا الآن محتلة من قبل الفرنسيين:

ـ كيف محتلة؟ هل دخل الفرنسيون ڤيينا.

بدون شك وبوناپرت الآن في قصر شونبرون بينما سيأخذ عزيزنا الكونت «واربنا» أوامره قريباً.

شعر پولكونسكي بعجزه عن إدراك حقيقة الأمور التي تعرض على مسامعه، إذ كانت وعثاء السفر وبرودة اللقاء التي استقبل بها، والطعام الفاخر الذي التهمه، كافية لإخماد شعوره. واسترسل بيليبين قائلاً: لقد قابلت هذا الصباح الكونت ليشتنفلس فأعطاني رسالة جاء فيها وصف مسهب لدخول الفرنسيين إلى ڤيينا دخول الظافرين. لقد دخلها الأمير مورا[1] وكل الحاشية...

---

(١) مورا، صهر بوناپرت، وزوج كارولين بوناپرت. أصبح ملك ناپولي. في عام ١٨١٥ أُعدم رمياً بالرصاص بعد واترلو. (المترجم).

لذلك فإن انتصاركم كما ترى فقد طابعه، فلا يمكن والحالة هذه أن تستقبل استقبال المنقذين.

فأجاب الأمير أندريه الذي فهم أخيراً ضآلة أهمية معركة كريمز بالنسبة إلى احتلال العاصمة: إن ذينك سيان عندي شخصياً، ولكن كيف أخذت ڤيينا! أين الجسر وأقصد رأس الجسر العتيد، والأمير دوير سبيرج العظيم؟ أعتقد أنه كان يدافع عن المدينة إذا اعتقدنا بالإشاعات التي راجت عندنا:

ـ إن الأمير دوير سبيرج، من هذا الجانب من النهر، وهو يدافع عنا نحن. صحيح أنه أسوأ دفاع ولكنه مع ذلك يحمينا. أما ڤيينا، فإنها من الجانب الآخر. صحيح أن الجسر لم يسلم بعد، لكني لا أميل إلى الاعتقاد بأنه سيظل في أيدينا، مع العلم أن الألغام مزروعة فيه وأن الأمر بنسفه قد صدر. ولو أن الأمور سارت على غير ذلك كنا نحن في جبال بوهيميا منذ زمن طويل، ولأخذ جيشكم بين نارين، وقُضي عليه أسوأ قضاء.

فقال الأمير أندريه: ذلك لا يعني على أية حال انتهاء المعركة.

ـ بل إنها انتهت إذا شئت أن تصدق رأيي المتواضع. وهذا هو رأي ذوي الرؤوس الضخمة هنا وإن كانوا لا يجرؤون على الإفصاح عنه. سوف يقع ما تنبأت بوقوعه من قبل: إن مذبحتكم في دورنستين لن تبدل من الأمر شيئاً، وبصورة عامة لن يكون البارود والنار صاحبا الكلمة الأخيرة... بل إن الكلمة ستكون للذين اخترعوا البارود والنار.

وبسط بيليبين جبينه بعد أن نجح في تحرير واحدة من عباراته المنتقاة، سكت برهة ثم تابع:

إن كل شيء متوقف على مفاوضات برلين، بين ملك بروسيا والأمبراطور ألكسندر. فإذا دخلت بروسيا في حلفنا، شددنا أزر النمسا وعادت الحرب

مجدداً. أما إذا رفضت، فلا يبقى إلا الاتفاق على انتقاء المدينة التي ستسلم للعدو المكتسح.

صاح الأمير أندريه فجأة وهو يقبض أصابع يده الرقيقة ويضرب بها الطاولة: يا للعبقرية المدهشة. ويا للرجل السعيد!

قال بيليبين وقد عاد جبينه يتجعد دلالة على أن كلمة أخرى من كلماته ستجد مكانها المفضل في سياق الحديث:

ـ بوناپرت؟

ثم كرر القول وهو يضغط على المقطع الأول: بوناپرت؟ إنه الآن يشرّع في قصر شوپنرون قوانين جديدة لتطبق في النمسا. وأرى أن يحذف من اسمه حرف «الياء» الذي كان في المقطع الأول ليصبح اسمه بوناپرت فقط بعد أن كان يدعى ببوناپرت.

فقال پولكونسكي: دعك من المزاح. هل تعتقد حقيقة أن هذه الحرب ستنتهي؟

ـ إليك رأيي. ستحاول النمسا، التي لم تعتد مثل هذه الحال، الانتقام لكرامتها. إذ يقال إن المقاطعات قد دمرت، لأن الجيش الأرثوذكسي مخيف في أعمال السلب، ثم إن الجيش قد هزم، والعاصمة سلمت، كل ذلك إكراماً لعينيّ جلالة ملك سردينيا. لذلك يا عزيزي، وأرجو أن يكون الحديث بيننا، أعتقد أنهم يخدعوننا، لأنني أشم رائحة مفاوضات بين النمسويين والفرنسيين، ومشاريع سرية للسلم وللصلح المنفرد.

فقال الأمير أندريه: إن ذلك شديد البشاعة! لا يمكن أن يكون ذلك!

فقال بيليبين: من يعش يرَ.

وبسط نهائياً تجاعيد جبينه معرباً بذلك عن رغبته في إنهاء الحديث.

ولما اعتكف الأمير أندريه في الغرفة التي وضعت تحت تصرفه،

واستلقى على الأغطية النظيفة وفراش الريش والوسائد المعطرة، شعر أن المعركة التي حمل أخبارها قديمة العهد.

كان ما يشغل ذهنه هو التحالف مع بروسيا وخيانة النمسا وانتصار ناپليون الجديد، واستعراض الغد الذي سيمثل بعده بين يدي الأمبراطور فرانسوا...

لم يكد يغمض عينيه حتى عاد إلى أذنيه قصف المدافع وقعقعة البنادق ودوي العجلات. ومن جديد عاد يرى القناصة ينحدرون من أعلى التل وهم يطلقون رصاص بنادقهم، وشعر بأن قلبه يدق عنيفاً وأنه تقدم إلى الأمام مع «شميدت» والرصاص يصفر حول رأسه صفيراً جميلاً، فاستسلم للنوم بسرور متأجج مضاعف لم يشعر به منذ طفولته.

استيقظ بعد ذلك... فقال لنفسه بابتهاج، والابتسامة البريئة مرتسمة على شفتيه: «إه نعم، لقد حصل كل هذا!» وعاد يستغرق في نوم عميق.

الفصل الحادي عشر

تذكر بادئ الأمر أن عليه أن يتقدم ليمثل بين يدي الأمبراطور فرانسوا وقد استيقظ متأخراً وراح يرتب ذكرياته. ثم تذكر وزير الحربية وتابعه الأنيس، وبيليبين وحديثهما أمس.

ارتدى ثوبه الأنيق الذي لم يستطع منذ زمن طويل أن يرفل فيه لافتقاره إلى المناسبة الملائمة، فبدا أنيقاً نشيطاً رغم ذراعه المربوطة إلى عنقه. ودخل على بيليبين، فوجد هناك أربعة رجال من السلك السياسي، عرف منهم الأمير هيپوليت كوراغين، وهو أحد أمناء السر في السفارة. فقدمه بيليبين إلى الآخرين.

شكّل أولئك الشبان الأرستقراطيون الأغنياء في برون كما كانوا في مشينيا، حلقة خاصة كان بيليبين يتزعمها ويسميها: «جماعتنا». كانت تلك الجماعة تضم السياسيين وحدهم. مع ذلك فقد كان أفرادها لا يأبهون للسياسة ولا للحرب، كانوا يكرسون جهودهم للحياة العامة الراقية، ولبعض العلاقات النسائية ومشكلات المستقبل.

استقبلوا الأمير أندريه كواحد منهم في الظاهر. وهو الشرف الذي قل أن يضفوه على أحد. وجهوا إليه عدداً من الأسئلة المهذبة عن حالة الجيش وعن المعركة الأخيرة، مما مهد الحديث بينهم وبين الأمير، ثم تشعب الحديث وتطرق إلى نواح عديدة، حتى أصبح ثرثرة ولغطاً كالذي يدور عادة في الأبهاء والأندية.

قال أحدهم يتحدث عن خطب نزل بأحد زملائه: إن أجمل ما في الموضوع هو أن الوزير المفوض قال به بالذات: إن نقله إلى لندن يعتبر ترقية، وأن عليه أن ينظر إلى الموضوع من تلك الزاوية. ولكن أن تتخيّلوا ما اعترى تقاطيع وجهه من تغيرات وهو يرى السخرية تقذف في وجهه على هذا النحو!

فقال آخر: كلا،إن أخطر ما في الأمر هو تصرف كوراغين في المقابل. إنني أسلمكم أيها السادة هذا «الدون جوان» إنه يرى صديقاً في البؤس فينتهز تلك الفرصة ليجر إلى نفسه نفعاً! يا له من رجل مخيف!

إن الأمير هيپوليت كان قابعاً خلال ذلك على كنبة من طراز ڤولتير، وقد رفع ساقيه فوضعهما على مسنديْ الكنبة. قال وهو ينفجر مقهقهاً:

ـ حدثني عن هذا...

فصاحت أصوات متعددة تقول: أوه يا دون جوان! أوه أيها المغوي!

قال بيليبين: إنك تجهل ولا شك يا پولكونسكي، أن كل الفظاعات التي ارتكبها الجيش الفرنسي، كدت أقول الجيش الروسي، لا تعتبر أمراً مذكوراً إذا قيست بالتدمير الذي يحدثه هذا الرجل بين الجنس اللطيف.

فقاطعه الأمير هيـپوليت قائلاً وهو يحدق إلى ساقيه المرفوعتين على جانبي الكنبة خلال نظارتيه: إن ا لمرأة هي رفيقة الرجل.

فانفجر بيليبين و«جماعتنا» مقهقهين وأدرك الأمير أندريه أن هيـپوليت هذا، الذي كانت تصرفاته حيال زوجته عند انتهاء حفلة آنّيت شيرر قد أثارت، ولشدة خجله، دوافع الغيرة في نفسه، ليس إلا مهرجاً يسخر منه أصدقاؤه المجتمعون.

قال بيليبين يهمس في أذن الأمير أندريه: يجب أن أسليك على حساب كوراغين. إنه لا يقدر بثمن عندما يتحدث عن السياسة. سوف ترى بنفسك مسحة الوقار التي ستعلو وجهه.

وأخذ مكانه قرب هيـپوليت، واستجمع غضون جبهته، ودفع الشاب بلباقة نحو حديث السياسة. بينما تجمهر پولكونسكي والآخرون حولهما.

شرع هيـپوليت يقول وهو يلقي نظرة دائرية شملت من حوله كلهم: إن مجلس وزراء برلين لا يمكن أن يعبر عن رغبة في التحالف، دون أن يعبر... كما جاء في تعليماته الأخيرة... إنكم تفهمون... إنكم تفهمون... ثم إذا كان صاحب الجلالة الأمبراطور لا يناقض مبدأ تحالفنا...

ـ انتظر، إنني أفرغ بعد... إنني أميل إلى الاعتقاد أن التدخل أقوى من عدم التدخل... و... ـ سكت برهة ـ، لا يمكن أن يعزى الأمر إلى عدم تلقي برقيتنا المؤرخة في ٢٨ تشرين الأول. إن الأمر سينتهي هكذا.

وترك ذراع پولكونسكي دلالة على أنه قال كل ما كان يريد قوله.

صاح بيليبين وقد انتصبت ذؤابة شعره دلالة على الرضى وانشراح أساريره: آه يا ديموستين، إنني أعرفك من الحصاة التي خبأتها في فمك الذهبي.

أغرق السامعون في الضحك، وقد سبقهم هيـپوليت نفسه وطغت قهقهته على ضحكاتهم. كان يضحك بانشراح غريب يكاد يكتم أنفاسه رغم محاولاته الفاشلة كتم تلك الموجة الهوجاء من الضحك، التي أبدلت أساريره الجامدة في أغلب الأحيان.

قال بيليبين بعد أن خفت حدة الضحك: والآن أيها السادة، اصغوا إلى ضيفي پولكونسكي، وإنني عازم على إشراكه معنا في مباهج مدينتنا الطيبة. ولو أننا كنا في ڤيينا، لاختلف الأمر وكان ميسوراً. أما هنا، في هذا الحجر الملعون الكئيب، فإن الأمر أكثر صعوبة مما يحملني على طلب العون منكم. يجب أن نطلعه على أجمل ما في حياة برون من جمال؛ تعهدوا تطويفه على

المسارح وأتعهد أنا تعريفه إلى الطبقات الراقية. وأنت يا هيـپوليت، فإنك، بديهياً، ستقوم بواجبك تجاهه من الناحية النسائية.

قال واحد من «جماعتنا» وهو يطلق قبلة على أطراف أصابعه: يجب أن تقدمه إلى إميلي، إنها درة نادرة!

فأردف بيليبين: والخلاصة، ينبغي أن نعيد هذا الجندي الدموي إلى حظيرة العواطف الإنسانية.

فقال أندريه وهو يلقي نظرة على ساعته: اعذروني أيها السادة، لن أستطيع أن أفيد من حسن التفاتتكم إذ يجب أن أغادركم الآن.

ـ وإلى أين تذهب؟

ـ إلى الأمبراطور.

ـ أوه! أوه! أوه!

ـ حسناً، الوداع يا پولكونسكي! الوداع أيها الأمير! عد مبكراً لتناول الطعام، سننتظرك.

ورافقه بيليبين إلى الردهة وقال له: حاول أثناء مقابلتك الأمبراطور أن تضفي أكبر قسط ممكن من المديح على مصلحة التموين وإدارة المراحل.

فأجاب الأمير مبتسماً: أود ذلك من صميم قلبي لكنني عاجز عن ذلك لأن ضميري والحقيقة يأبيانه.

ـ إبذل ما في وسعك، على كل حال، وتحدث أطول مدة ممكنة. إنه يعشق المقابلات لكنه لا يحب أن يتحدث بنفسه لأنه لا يتقن الحديث. سوف تتأكد من ذلك بنفسك.

الفصل الثاني عشر

خلال العرض العسكري، ألقى الأمبراطور فرانسوا نظرة مترددة على الأمير أندريه الذي شغل مكاناً احتجز له في عداد مقاعد الضباط النمسويين أعقبها بإيماءة من رأسه الطويل. لكن الضابط المساعد الذي استقبل الأمير البارحة بتلك الحفاوة، جاءه بعد تلك الحفلة وحمل إليه بمزيد من التأدب نبأ رغبة جلالته في مقابلته.

استقبله الأمبراطور وهو واقف في منتصف غرفة مكتبه، وقبل أن يتفوه بكلمة، تبين الأمير أندريه مدى صدق أقوال صديقه بيليبين، وأذهله مظهر الأمبراطور المرتبك الذي كان لا يعرف ما يقول ولا يستطيع منع الدماء من التصاعد إلى وجنتيه.

سأله الأمبراطور أخيراً بشيء من التهلف: قل لي، متى بدأت المعركة؟

فأجابه الأمير أندريه عن سؤاله. وأعقب الجواب عدد من الأسئلة التي لا تقل تفاهة عن السؤال الأول! «كيف حال كوتوزوف؟ هل ترك «كريمز» منذ زمن طويل؟» إلخ... وكانت لهجة الأمبراطور تنبئ بأن همّه الأول هو طرح عدد كبير من الأسئلة. أما الأجوبة، فقد كان واضحاً أنه لا يأبه لها.

سأل مجدداً: في أي ساعة بدأت المعركة؟

فأجاب پولكونسكي بحماسة: لا أستطيع أن أحدد لجلالتكم بالدقة الساعة التي بدأت فيها المعركة على طول جبهة القطعات. غير أنني متأكد أن القتال في دورنستن، حيث كنت، بدأ في السادسة مساء.

وأمل پولكونسكي في أن يستطيع سرد وصف حقيقي للمعارك التي حضرها، وأن يعيد على مسامع الأمبراطور ما هيأه من قبل من جمل لهذه المناسبة. غير أن الأمبراطور قاطعه مبتسماً: كم من الأميال؟

ـ من أين يا صاحب الجلالة وإلى أين؟

ـ من دورنستن إلى كريمز؟

ـ ثلاثة أميال ونصف الميل يا صاحب الجلالة.

ـ هل ترك الفرنسيون الشاطئ الأيسر؟

ـ تفيد تقارير رقبائنا بأن آخر الفرنسيين اجتاز النهر ليلاً على نقلات...

ـ هل هناك علف كاف في كريمز؟

ـ لم يقدموا لنا الكمية التي...

فقاطعه الأمبراطور مرة ثانية ليطرح سؤالاً جديداً: في أية ساعة قتل الجنرال شميدت؟

ـ في السابعة على ما أظن.

ـ في السابعة؟ إنه لأمر محزن! شديد الحزن!

ثم شكره الأمبراطور وانحنى إشارة بانتهاء المقابلة. ولم يكد الأمير أندريه يغادر مكتب الأمبراطور حتى تحلّق حوله الأتباع ورجال البلاط، فأحاطوا به وأمطروه وابلاً من الأسئلة. كانت نظرات أنيسة تحدق إليه من كل مكان، وتقرع الكلمات المتوددة أذنيه. فالضابط المساعد أخذ عليه عزوفه عن الحلول في القصر وقدم له مسكنه الشخصي لينزل فيه؛ ووزير الحربية أبلغه بشيء كثير من الأدب وفي فيض من عبارات التهنئة، أن الأمبراطور أنعم عليه بوسام ماري تيريز من الدرجة الثالثة. ودعاه أحد حجاب جناح الأمبراطورة للمثول بين يدي جلالتها. وأنهى إليه كذلك أن الأرشيدوقة ترغب كذلك في

رؤيته. فما كان يدري لمن يعير أذنه، ومن يجيب. أخذه سفير روسيا. وانتحى به جانباً ليتاح له التحدث إليه بحرية أكثر.

على عكس تنبؤات بيليبين، أخذ نبأ انتصار الروس صدى قوياً في نفوس أفراد الحاشية، ورجال البلاط الذين استقبلوه بكثير من البهجة. فأقيمت الصلوات ابتهاجاً بالنصر، وأنعم على كوتوزوف بصليب ماري تريز الأكبر، ومنح جيشه عدداً من الهبات وكيلت له الإطراءات. وتوالت الدعوات على الأمير أندريه، فاضطر هذا إلى قضاء نهاره كله متنقلاً من مكان إلى آخر، استجابة لدعوات كبار الشخصيات المرموقة.

وأخيراً، ذهب إلى إحدى المكتبات ليشتري منها ذخيرة نافعة يفيد منها في حياة الريف التي سيعود إليها عند عودته إلى مركزه في الجيش. فلما عاد إلى مسكن بيليبين، وهو يحضِّر في مخيلته الرسالة التي سيخطها لأبيه، متضمنة الوصف الدقيق للمعركة والشرح الكافي عن رحلته إلى برون، وجد أمام الباب عربة نقل كبيرة محملة إلى نصفها بالأمتعة.

سأل فرانز، خادم بيليبين، الذي ظهر في تلك اللحظة أمام الباب يجر وراءه حقيبة ضخمة: ماذا هناك؟

فأجاب الخادم بالألمانية وهو يرفع الحقيبة إلى العربة بجهد كبير: آه يا صاحب السعادة! إننا نرحل من جديد ونعود على أعقابنا من جديد.

فصاح الأمير مستغرباً: ماذا! كيف! ماذا جرى؟...

في تلك اللحظة جاء بيليبين يستقبله. فقرأ الأمير على وجهه، وهو الذي كان منبسطاً في أكثر الأحيان، شيئاً من الارتباك.

قال بيليبين: هيا، اعترف معي أن ذلك رائع! وأعني قصة جسر تابور، أحد جسور ڤيينا، لقد مروا فوقه دون أي عناء!

فلم يفهم الأمير شيئاً من هذا القول. فسأله بيليبين: ولكن، من أين قدمت

إذن حتى تجهل مثل هذا الأمر الذي أصبح يعرفه كل حوذي في المدينة؟

ـ لقد خرجت من فوري من لدى الأرشيدوقة. لم يحدثني أحد عن شيء من هذا هناك.

ـ ألم تلاحظ أن جميع الناس كانوا يجهزون حقائبهم؟

أجاب الأمير مستغرباً: لا، أبداً... ولكن ما الخبر؟ ماذا هناك؟

ـ ماذا هناك؟ هناك أن الفرنسيين اجتازوا الجسر الذي كان «أويرسيرغ» يدافع عنه. فلم ينسفه، بل ترك «مورا» يمر فوقه بسلام، فجاء هذا يسعى على طريق برون. سوف يصل الفرنسيون إلى هنا اليوم أو غداً.

ـ إلى هنا؟ ولكن، لمَ لم ينسفوا الجسر وخصوصاً أن الألغام مزروعة فيه من قبل لهذه الغاية؟

ـ أنا أسألك ذلك بنفسي. على كل حال، ليس هناك من يعرف السبب، حتى ولا بوناپرت بالذات.

فهز پولكونسكي كتفيه وقال معقباً: إذا كان الجسر قد اجتيز من قبل الفرنسيين فقد ضاع الجيش. إن جيشنا إذن يوشك أن يُشطر إلى قسمين.

فأجابه بيليبين قائلاً: تماماً. إصغ إليّ. لقد دخل الفرنسيون إلى ڤيينا كما حدثتك بذلك. حسناً. وفي اليوم التالي، أعني البارحة، اجتمع السادة الماريشالات مورا ولان، وبيليار، وامتطوا صهوات جيادهم واتجهوا صوب الجسر. لاحظ أن الثلاثة غاسكونيين (من غاسكونيا في فرنسا)، واذكر ذلك. قال أحدهم: «أيها السادة، إنكم تعرفون أن جسر تابور مليء بالألغام وأن رأس جسر متين جداً يتقدمه وأن خمسة عشر ألف رجل يدافعون عن رأس الجسر ذاك. وقد تلقى هؤلاء المدافعون أمراً بنسف الجسر ومنعنا المرور فوقه. لكن احتلالنا هذا الجسر سيسر صاحب الجلالة الأمبراطور ناپليون سروراً عظيماً. فهيا بنا نحن الثلاثة إذن، لنحتل الجسر». فأجابه الآخران: «هيا بنا». ثم

جاؤوا فاحتلوا الجسر، وها هم الآن يجتازونه مع كل جيشهم فيتجهون نحونا، ونحوكم أنتم ليقطعوا خطوط مواصلاتكم.

فقال الأمير أندريه بلهجة شديدة الخطورة: يا للدعاية الفظة!

لكن بيليبين عقب قائلاً:

ـ أبداً، إنني لا أمزح. إنني أروي لك أصدق الأنباء وأشدها وقعاً على النفس. لقد وصل أولئك السادة إذن وحدهم إلى الجسر يلوحون. بمناديل بيضاء، فأيدوا أن هدنة قد وقعت وأنهم ـ هم الماريشالات جاؤوا يتباحثون بدورهم مع الأمير أوبرسبرغ. تركهم ضابط الحرس يمرون ويدخلون رأس الجسر. أنهوا إليه آلافاً من الأخبار المثيرة: انتهت الحرب، حدّد الأمبراطور فرانسوا موعداً لمقابلة بوناپرت، إنهم يرغبون في رؤية الأمير أوبرسبرغ...

والخلاصة أنهم لم يتركوا مما اشتهر عن الغاسكونيين من مكر إلا واستعملوه في تلك المناسبة. فأرسل ضابط الحرس يستشير أوبرسبرغ ويطلعه على ما سمعه، بينما راح أولئك السادة يعانقون الضباط ويداعبونهم ويجلسون على المدافع. وخلال ذلك الوقت، جاءت فرقة فرنسية فاحتلت الجسر متسللة فألقت بأكياس المواد المحرقة إلى النهر واقتربت نحو رأس الجسر.

وأخيراً وصل الجنرال الثاني بشخصه وأعني عزيزك الأمير أوبرسبرغ ڤون ماتيرن. فراح أولئك السادة يحدثونه: «أيها الخصم العزيز! يا زهرة الجيش النمسوي! يا بطل الحروب التركية! لقد انتهت المعارك ونستطيع الآن أن نمد بعضنا لبعض أيدينا التي امتشقت السيوف حتى الآن... إن الأمبراطور ناپليون يتحرق شوقاً للتعرف إلى الأمير أوبرسبرغ...» والخلاصة، إن أولئك السادة ليسوا من أهالي غاسكونيا عبثاً، إذ أغدقوا على أوبرسبرغ معظم كلامهم وعباراتهم حتى أن الرجل العزيز أخذ بالغرور، وذلك الرد المفاجئ

مع المارشالات الفرنسيين، وبهرته ألبسة مورا وريش النعام الذي يزين خوذته، حتى أنه نسي واجبه والنار التي كان يجب أن يصبها على العدو...

عند هذه الجملة قطع بيليبين حديثه رغم الحماسة التي كانت تلهب لسانه ويزيد في بلاغته. كان معجباً بتلك «الكلمة» التي استطاع أن يقحمها في حديثه. ولما تأكد أن الأمير أندريه قد استوعب قوله تابع يقول:

ـ زحفت الفرقة الفرنسية حتى بلغت رأس الجسر، فعطلت المدافع واستولت على الجسر...

سكت بيليبين لحظة ثم تابع وهو فريسة انفعال ظاهر: لكن أجمل ما في الموضوع هو أن أحد صف الضباط الذي كان منوطاً به إعطاء إشارة نسف الجسر وإحراقه من مدفعه. اقترب من أوبرسبرغ وقال له: «إنهم يخدعونك يا أمير، ها هم أولاء الفرنسيون!» ولما رأى مورا، وهو غاسكوني، ـ إنه إذا ترك ذلك الضابط الصغير يسترسل في حديثه، فإن الخطة كلها ستحبط، قال موجهاً حديثه إلى أوبرسبرغ متصنعاً الدهشة البالغة:

«كيف هذا! أتسمح لمرؤوس أن يحدثك بهذه اللهجة؟ إنني لا أرى في هذا التصرف ما اشتهر عن النظام والطاعة في الجيش النمسوي العتيد!»... ألا ترى أن هذا القول يدل على عبقرية رائعة؟ لقد أثير الأمير أوبرسبرغ، فأمر بتوقيف الضابط الصغير وسجنه! اعترف معي أن قصة جسر تابور قصة ممتعة رائعة! إن ما فعله أولئك السادة ليس نذالة ولا سخفاً...

قال الأمير أندريه الذي تاه خياله في تلك اللحظة ليستعرض المعاطف الرمادية والجرحى ودخان البارود وقعقعة البنادق وأزير الرصاص والمجد الذي ينتظره: لعلها خيانة...

ـ لا ليست خيانة. إن ذلك سيجعل البلاط في موقف...

وتوقف بيليبين وكأنه يبحث عن الكلمة المناسبة تابع:

ـ إنها «ماكية». أي على طريقة ماك... وبذلك نستطيع القول إننا قد «تمكوكنا»...

وشاعت على وجهه أمارات السرور لأنه توقف لإيجاد الكلمة الفنية المناسبة: «تمكوك». إنها كلمة جديدة، ولسوف يعيدها الناس من بعده ويكررونها.

كانت التجاعيد والغضون التي استنفرها على جبهته دلالة على قناعته ورضاه، فابتسم ابتسامة خفيفة واستغرق في تأمل أظفاره المصقولة.

وفجأة نهض الأمير أندريه فسأله بيليبين بلهفة: إلى أين تمضي؟

ـ إنني عائد!

ـ إلى أين!

ـ إلى الجيش.

ـ لكنك كنت تريد البقاء هنا يومين آخرين؟

صحيح لكنني الآن ذاهب فوراً.

وبعد أن أعطى الأمير التعليمات المتعلقة برحيله، انسحب إلى غرفته. ولم يلبث بيليبين أن دخل عليه. قال له: أتدري ما الأمر يا عزيزي؟ لقد فكرت في أمرك. لمَ، بحق الشيطان، ترحل؟

وأخفى كل تجاعيد جبهته ليقنعه بأن قوله ذاك لا يقبل الجدل. لكن الأمير اكتفى بنظرة استفهامية طافت بوجهه جواباً عن كلماته.

أردف بيليبين: نعم، ما هي حاجتك إلى الذهاب؟ إنك تقدّر ولا شك أن واجبك يدعوك إلى مكانك في صفوف الجيش، وخصوصاً أنه الآن في خطر. إنني أفهم ذلك يا عزيزي، إنه من صميم البطولة.

فأجاب الأمير أندريه: أبداً. لا شأن للبطولة في الموضوع.

ـ بلى. غير أنك فيلسوف أيضاً. فكن إذن فيلسوفاً كما يجب تصور الأمور

وعاينها من زاوية أخرى. وسترى أن واجبك يقضي عليك بالبقاء وبعدم تعريض نفسك للخطر على عكس ما ترى الآن. دع التعرض للخطر لأولئك الذين لا يصلحون لشيء... لم تؤمر بالعودة ولم يسمح لك هنا بالانسحاب. يمكنك إذن البقاء معنا ومرافقتنا إلى حيث يقودنا مصيرنا السعيد. يبدو أننا سننسحب إلى أولموتز. إنها مدينة جميلة جداً سنسافر إليها معاً وبراحة تامة في عربتي.

ـ كف عن المزاح يا بيليبين: بل إنني أحدثك كصديق مخلص. فكّر في الأمر لمَ يا تُرى تفضل الذهاب في حين أن باستطاعتك البقاء هنا؟

واسترسل بعد أن استجمع غضونه على جبهته: هناك أمران يستحق أحدهما: إما أن يوقع صلح عاجل قبل أن تلحق بقطعتك وإما أنك ستشهد انسحاق الجيش كله.

واقتنع، على ما يبدو، بأن نظريته لا تقبل الرد، فانبسطت أساريره وزالت الغضون عن جبينه.

أجاب الأمير أندريه بتردد: ليس لي أن أحكم على هذا الموضوع.

بينما كان يحدث نفسه قائلاً!

ـ إنني إذا كنت سأذهب فإن غايتي هي إنقاذ الجيش!

قال بيليبين مجيباً: إنك بطل يا عزيزي.

الفصل الثالث عشر

استأذن پولكونسكي وزير الحربية للالتحاق بجيشه، في تلك الليلة بالذات، وعاد في طريق العودة دون أن يعرف بالضبط المكان الذي سيجد الجيش فيه. وكان أكثر ما يخشاه أن يقع، دون أن يدري، بين يدي الفرنسيين على طريق كريمز.

أما في برون، فقد كان رجال البلاط جميعهم يعدون الحقائب الصغيرة بعد أن أرسلت الأمتعة الثقيلة في طريقها إلى أولموتز. ولما اجتاز اتزلسدورف، سلك الطريق الذي كانت الوحدات الروسية تسلكه في انسحابها السريع وهي على حال من الفوضى. كانت العربات الضخمة تسد الطريق على رحبه، وتمنع مرور أية فصيلة منظمة فاضطر الأمير المنهك الجائع إلى طلب جواد من أحد الضباط القوقازيين، فلبى هذا طلبه وأرفقه بتابع. وانطلق الأمير متجاوزاً خط العربات، يبحث عن الجنرال القائد الأعلى وعن عربته. وكان الضجيج والصخب يصمان الآذان خلال الطريق تؤيدهما تلك الوحدات المتفككة المنسحبة.

في تلك اللحظة، تذكر مقطعاً من خطاب بوناپرت الذي وجهه إلى جنوده في بداية تلك الحرب، وراحت الكلمات تتراقص أمام عينيه: «إن هذا الجيش الروسي الذي نقله ذهب انكلترا من أقاصي المعمورة، يجب أن نمنيه بمثل ما منيت به جيوش أولم». وكانت تلك الجملة، رغم ما فيها من تجريح لكرامته وإهانة لكبريائه، توقظ في نفسه شعوراً بالإعجاب بذلك الرجل العبقري

الذي قالها، فراح يفكر: ولو لم يبق إلا الموت؟ حسناً، سأعرف كيف أموت كالآخرين إذا شاءت الضرورة ذلك!

راح الأمير ينظر باشمئزاز إلى تلك القطعات مختلة النظام متداخلة الأفراد والوحدات، وإلى العربات المبعثرة هنا وهناك، وقطع المدفعية التي تسد منافذ الطريق الزراعية، ويتأمل ذلك الرتل الطويل من عربات النقل التي كانت تسير في اتجاه واحد وبصفوف متراصة انتظمت في كل ثلاثة منها أو أربعة، فكانت تشتبك وتتسابق وتصطدم بعضها ببعض وتغوص عجلاتها في الأوحال.

كانت الأذن لا تلتقط في غمار تلك الفوضى إلا صرخات وصخب ينبعثان من كل مكان: من الأمام ومن الخلف، يمتزج بهما صرير العجلات وارتجاج الأعتدة المحملة ووقع حوافر الجياد المضطرب وفرقعة السياط في الهواء. وكان هذا المزيج العجيب من الضجيج يختلط بسباب الجنود والضباط وصيحاتهم وتذمرهم وصراخهم، بين مستنهض للهمم وناقم على سير الأمور. وعلى جانبي الطريق، كانت العيون لا تنفك تقع على أفراس نافقة بعضها سلخت جلودها، وعلى عربات محطمة جلس بالقرب منها كل من كان من قبل راكباً متنها، ينتظرون بفارغ صبر أن يحصلوا على وسيلة نقل جديدة.

وكان هؤلاء المتخلفون خليطاً من جنود تأخروا عن اللحاق بصفوفهم ومغامرين جاؤوا يحومون بغية الإفادة من مخلفات الجيوش المنسحبة، فكانوا يدهمون القرى القريبة فيسلبون منها الدجاج والخراف والعلف وكثيراً من المسلوبات والمؤن. وكان الازدحام يزداد اشتداداً في كل مرتفع من الطريق أو منحنى حتى أن الناظر إلى ذلك الحشد الهائل يخال أن الأرض كلها قد أنبتت جنداً أو أن يوم الحشر قد أزف وكان الجنود غارقين في الوحول حتى ركبهم يحاولون بشق الأنفس زحزحة عربة غائصة العجلات أو نقل قطعة من

المدفعية الثقيلة. وكلما تكرر هذا المشهد تكرر قرع السياط وصهيل الخيول المنهكة، وتدفق سيل السباب والشتائم ممزوجاً بالأوامر والإرشادات من جديد.

وينجلي المشهد عن عدد آخر من العربات المحطمة المهشمة وعديد من الخيول النافقة. وكان الضباط المكلفون حفظ النظام أثناء هذا الانسحاب الصاخب، يروحون ويجيئون على خيولهم، فيخترقون صفوف العربات الصغيرة والكبيرة، يوزعون أوامرهم ويصيحون، فتضيع أصواتهم وسط هذا الهدير المخيف من أصوات الإنسان والحيوان، فتبدو على وجوههم المنقلبة المكفهرة خيبة الأمل المريرة في إيقاف هذه الفوضى أو الحد منها.

كان بولكونسكي ينظر إلى كل هذا الخليط. فتعاوده كلمة بيليبين عندما تحدث عن الجيش الروسي بقوله: الجيش الأورثوذكسي العزيز. قال يخاطب نفسه: «هذا هو إذن الجيش الروسي العزيز»!

اقترب من إحدى القوافل عازماً الاستفسار من قائدها كان يأمل تسقّط بعض الأنباء التي تمكنه من تحديد مكان القيادة العامة. وفي تلك اللحظة، لمح عربة غريبة الشكل يقطرها جواد واحد، تتقدم في الاتجاه العام. يبدو على العربة أنها صنعت محلياً بأيدي الجنود، فكانت خليطاً غريباً من عربة النقل وعربات الركوب الخاصة. رأى الأمير جندياً آخذاً بمقود الحصان يوجهه، وقد جلست في داخل العربة سيدة ملتفَّة بالشيلان، تحملها صدارة من الجلد، قابعة منطوية على نفسها. كاد الأمير يتوجه بالسؤال إلى الجندي سائق العربة حينما لفت انتباهه الصراخ الحاد الذي كان ينبعث من صدر المرأة.

كان ضابط القافلة المتقدمة، ينهال بالسوط على الجندي الذي يقود العربة لأنه كان يحاول تجاوز قافلته وتخطيها. فأصاب السوط الصدارة الجلدية التي تحمي ثياب المرأة من المطر، فراحت هذه تصيح وتزمجر. فلما

وقع بصرها على الأمير، أزاحت الحاجز الجلدي وراحت تلوح بذراعيها الناحلتين مستلفتة انتباهه وهي تصيح:

ـ يا سيدي الضابط المساعد... احملني بحق السماء... ماذا سيحدث لي؟... إنني زوجة طبيب فيلق القناصة السابع... لقد بقينا في المؤخرة وهم الآن يمنعوننا من المرور.

بينما راح ضابط القافلة الثائر يزعق بالجندي: انتح جانباً أو أمزقك! إذهب إلى الشيطان أنت وهذه المتأخرة!

وكررت زوجة الطبيب القائد: احمني يا سيدي الضابط المساعد. ما معنى هذا؟

فاقترب الأمير من الضابط وقال: دع هذه العربة تمر. ألا ترى أن فيها امرأة؟

فألقى هذا نظرة على الأمير، لكنه لم يتنازل بالرد عليه بل عاد إلى الجندي يصيح به: استدر وانصرف وإلا فإنك ستشعر بما يخترق جسدك!

فأصر الأمير وهو يضغط على أسنانه: قلت لك دعها تمر.

وفجأة استدار الضابط نحوه وصرخ يعميه الغضب: وأنت، من أنت حتى تصدر إليّ الأوامر؟ هه من أنت؟

أنا القائد هنا وليس أنت. انصرف عن وجهي أو أمزقك!

كان يخاطبه بلهجة المفرد ويضغط على مخارج كلماته مبالغة في الاستهزاء. وبدا أن العبارة الأخيرة التي تفوّه بها راقته خصوصاً بعد أن تعالى من ورائها صوت يقول: لقد لقي الضابط المساعد ما حطم كبرياءه.

وأحسّ الأمير أن الضابط قد فقد سيطرته على أعصابه وبالتالي على كلماته بسبب الغيظ والغضب الشديدين المستوليين عليه. ولما كان في موقف المدافع عن امرأة، فقد بات يخشى أن يؤدي به الأمر إلى عاقبة تجعله

أضحوكة للجنود والضباط، الأمر الذي كان يتجنَّبه. لكن غريزته تفوقت على عقله في الصراع الباطن الذي قام بينهما: فلم يكد الضابط يتم حديثه حتى كان پولكونسكي ينقض عليه مشرعاً سوطه وقد انقلبت سحنته من الغضب. صاح الأمير: دعـ... ـهاتـ..ـمر، هل سمعت!

فندت عن الضابط حركة قنوط وبادر إلى إخلاء المكان وهو يزمجر:

- إن كل الفساد وسوء التدبير مبعثه هؤلاء السادة، هؤلاء الغيد الحسان التابعات للأركان العامة!

سارع الأمير أندريه بمغادرة المكان دون أن يرفع عينيه إلى زوجة الطبيب التي أطلقت عليه اسم منقذها. وبينما كان يستحث جواده لبلوغ القرية التي أجمعت أقوال الجنود على أن الجنرال القائد العام وهيئة أركان حربه يقيمون فيها، راح يستعرض في ذاكرته باحتقار تفاصيل الحادث المخجل الذي وقع له منذ حين.

ترجل عن ظهر جواده عندما وصل إلى القرية وقصد المنزل الأول سعياً وراء نيل قسط ضئيل من الراحة يكون خلالها قد تناول طعاماً ونسق أفكاره المتزاحمة المضطربة، تلك الأفكار الأليمة التي كانت تحز في نفسه. كان يفكر في سره: «إن ما رأيته ليس جيشاً بل عصابة من قطاع الطرق والسفاحين»! وقبل أن يبلغ باب المنزل الذي يقصد إليه، سمع صوتاً مألوفاً يناديه. التفت مستطلعاً، فإذا بعينيه تقعان على نسـڤيتسكي الجميل واقفاً في فراغ نافذة صغيرة يمضغ شيئاً في فمه الرطب. صاح به ويداه لا تنفكان عن التلويح: پولكونسكي، پولكونسكي، هل أنت أصم؟ تعال إلى هنا!

قصد الأمير إليه فوجده مع زميل له من الضباط المساعدين يتناولان طعامهما. ابتدره كلاهما قبل كل شيء مستفسرين عما وراءه من أخبار، وكانت علامات القلق والترقب مرتسمة بوضوح فوق وجهيهما. بل إن وجه

نيسـفيتسكي الضاحك عادة، كان دليلاً جازماً، في تلك اللحظة، على مدى القلق الذي ينهش قلب صاحبه.

سأل پولكونسكي: أين الجنرال القائد الأعلى؟

فأجابه الضابط المساعد: هنا، في البيت.

وسأله نيسـفيتسكي بلهفة:

ـ وأخيراً، هل حقيقة أننا الآن في سبيل الاستسلام وعقد الصلح؟

ـ إنني أسألك أنت إيضاح ذلك لأنني لا أعرف عن الأمر شيئاً باستثناء المتاعب التي لا تحصى، والتي نالتني قبل أن أستطيع الوصول إلى مكانكما.

فقال نيسـفيتسكي: ليتك تعرف ماذا يجري هنا يا عزيزي! لقد كنا نهزأ من «ماك» وها نحن في موقف أشد بشاعة من موقفه! هيا اجلس واشترك معنا في الأكل!

وقال الضابط المساعد الآخر: إنك الآن يا أمير لن تجد هنا شيئاً حتى ولا مركبة أو أي شيء آخر. أما «پيوتر» فإن الله وحده يعرف أين ذهب.

ـ لكن أين مقر القيادة العامة؟

ـ إننا في زنائيم.

وأردف نيسـفيتسكي: أما أنا، فقد حزمت كل أمتعتي على ظهر جوادين. لقد صنعوا من أجلي برادع ممتازة ساعدت على تحميل تلك الأمتعة على ظهور الجياد. وبذلك أستطيع الفرار عند الاقتضاء عبر جبال بوهيميا. آه يا عزيزي، إن الموقف ليس مشجعاً... لكن ما بك ترتجف وكأنك مريض؟

نطق نيسـفيتسكي بملاحظته الأخيرة عندما رأى الأمير ينتفض فجأة وكأن زجاجة من محلول «اليود» قد سكبت على جرح غائر عميق في جسده.

فأجاب پولكونسكي: لا، لست مريضاً.

عادت إلى ذاكرته صور مزعجة تمثل زوجة القائد الطبيب ولقاءه إياها واشتباكه مع ضابط القافلة.

وفجأة سأل: ماذا يفعل القائد العام هنا؟

فأجاب نيسـڤيتسكي: لست أدري من أمره شيئاً.

فانبرى الأمير أندريه يقول: أما أنا، فإنني أفهم فقط أن كل هذا يثير اشمئزازي.

ونهض من مكانه متجهاً نحو جناح الجنرال القائد الأعلى. وقعت أنظاره وهو في طريقه إلى عربة كوتوزوڤ، وخيول الضباط المساعدين التي أنهكها التعب، ومر بجماعة من القوزاق المرافقين للجنرال وهم يثرثرون.

كان كوتوزوڤ في تلك الأثناء يتشاور في مقره مع الأمير پاغراسيون والجنرال النمسوي ويروذر الذي جاء يحل محل زميله القتيل شميدت. وفي الردهة، شاهد الأمير أندريه، كوزلوڤسكي الصغير وأمامه أحد ضباط الإعاشة جالساً على نصف برميل مقلوب رافعاً أطراف ثوبه العسكري، يكتب بسرعة ما يمليه عليه، وكانت تقاسيم وجه كوزلوڤسكي المتقلصة تدل بوضوح على أنه لم يعرف النوم منذ وقت طويل. ولما وقع نظره على الأمير، حياه بنظرة ساهمة دون أن يرفقها بحركة ما من رأسه وعاد يملي من جديد:

ـ ماذا جاء في السطر الثاني؟... قطعة كيف المهاجمة وقطعة يودولي...

ـ عفواً يا صاحب السمو، لا أستطيع متابعتك إذا استمررت تملي بمثل هذه السرعة.

كان ضابط الإعاشة يغمغم بهذه الجملة بلهجة منقبضة وهو يرفع عينيه إلى رئيسه.

ارتفع صوت كوتوزوڤ الغاضب في تلك اللحظة من وراء الباب المغلق يقاطعه صوت مجهول. كانت لهجة تلك الأصوات التي لم يكن كوزلوڤسكي

يعبأ بها وجواب ضابط الإعاشة الخائر الذي يدل على شدة تعبه وإنهاكه، ومظهر كوزلوفسكي الجالس على الأرض مع ضابط الإعاشة حول نصف برميل مقلوب على بعد خطوات معدودة من الجنرال القائد الأعلى، بالإضافة إلى أصوات القوقازيين الذين كانوا يضحكون صاخبين تحت النافذة التي كان كوزلوفسكي يجلس بالقرب منها، كل هذا أثار اشمئزاز پولكونسكي وجعله يترقب أحداثاً مثيرة. لذلك راح يمطر كوزلوفسكي بالأسئلة. فقاطعه هذا بقوله: لحظة واحدة يا أمير... واسترسل في إملائه:... موجودات الأمير پاغراسيون...

ولكن ماذا عن الاستسلام؟

ـ لا استسلام هناك، لقد أعطيت الأوامر باستئناف القتال.

تقدم پولكونسكي من الباب الذي تعالت الأصوات وراءه. غير أن هذه سكتت فجأة وفتح الباب، وبدا على عتبته كوتوزوف بأنفه الأقنى الذي كان يشطر وجهه الممتلئ شطرين. وجد الأمير نفسه وجهاً لوجه مع القائد العام. لكن تعابير عين الجنرال القائد الأعلى الوحيد التي لم تصب بأذى بعد كانت تدل على أن خطورة الحالة وأهوالها والتطورات المزعجة التي كانت تتلاحق في تلك الساعة قد أظلمت نظرة القائد الأعلى وخففت من قوة نظره. نظر إلى مرافقه الخاص نظرة صريحة دون أن يبدو عليه أنه عرفه.

سأل كوزلوفسكي قائلاً: حسناً، هل انتهى؟

ـ لحظة واحدة يا صاحب المقام الرفيع.

لم يلبث أن ظهر وراء الجنرال القائد الأعلى، رجل ذو وجه قاس، قصير القامة، أعجف العود، لم يزل في سن الشباب، له شخصية تحمل طابعاً شرقياً. ذلك هو الأمير پاغراسيون.

ولم يشأ الأمير أندريه الوقوف جامداً إزاء نظرة القائد الأعلى المتجاهلة، فقال بصوت مرتفع وهو يمد يده إليه حاملة غلافاً: لي الشرف بأن أقدم نفسي.

ـ آه، هل رجعت من ڤيينا؟ حسناً، سأراك فيما بعد، فيما بعد.

وخرج القائد الأعلى يصحبه پاغراسيون. قال له يودعه: وداعاً يا أمير، وداعاً وليحفظك الله. سوف تقوم بمهمة شاقة فتقبل بركاتي.

وفجأة تمددت قسمات وجه كوتوزوف وتلألأت عبرات في عينه. فجذب بيسراه الأمير پاغراسيون إليه بينما راح يرسم بيمناه، التي يزينها خاتم ثمين، إشارة الصليب على جسم الأمير. كان يبدو أن تلك المهمة مألوفة لديه. ولما فرغ، قدم خده المنتفخ لپاغراسيون ليقبله. لكن هذا قبله في عنقه.

كرر كوتوزوف قوله وهو يسعى إلى عربته: ليحفظك الله!

ثم استدار نحو پولكونسكي وقال له: اصعد معي.

ـ يا صاحب السعادة، وددت لو استطعت القيام بعمل مفيد هنا! اسمحوا لي بالبقاء في معسكر الأمير پاغراسيون.

فكرر كوتوزوف القول: اصعد!

ولما رأى أن پولكونسكي لايزال متردداً أردف يقول: إنني أنا الآخر في حاجة إلى ضباط ممتازين، نعم أنا أيضاً في مثل حاجته.

واحتوتهما العربة التي راحت تدرج بهما فترة طويلة دون أن يتبادلا كلمة واحدة. وأخيراً قال كوتوزوف: إن أمامنا الكثير مما يجب إنجازه. نعم الكثير.

كانت لهجته تدل على أنه بثاقب نظره قد خمن ما يعتلج في نفس پولكونسكي. وأردف بعد برهة وكأنه يحدث نفسه: إذا أعاد غداً عشر فيلقه سالماً أكون لله من الشاكرين.

وبينما كان پولكونسكي يرفع عينيه إلى وجه رئيسه مستفهماً، استلفت نظره محجر عين الجنرال الفارغ وآثار الجرح الغائر العميق الذي أحدثته

الرصاصة التي اخترقت رأسه في معركة إسماعيل، والتي كان الجنرال يعنى بنظافتها ومداراتها، فلم يتمالك أن قال في سره: «لا شك أن من حقه أن يتحدث بمثل هذا الهدوء عن أولئك الذين قضي عليهم بالموت!».

وأردف بصوت مرتفع: ومن أجل هذا بالذات، يا صاحب السعادة، أرجوكم أن ترسلوني إلى هناك.

بقي كوتوزوف صامتاً. كان غارقاً في تفكيره وكأنه نسي جملته الأخيرة وآثارها في نفس مرافقه، فترك نفسه مسترخياً ترجحه اهتزازات العربة وهي تدرج في الطريق المليء بالحفر. ولما استدار نحو پولكونسكي، وكان قد مضى استغراقه خمس دقائق، لم يكن بادياً على وجهه ظل من الاضطراب أو التحنان.

وبدأ يستجوبه بلهجة ضمنها سخرية رقيقة، ويسأله عن تفاصيل مقابلته مع الأمبراطور، وما دار في البلاط حول مسألة كريمس. ولم يفته أن يستفسره عن عدد من السيدات ممن كانت تربطه بهن أواصر معرفة.

الفصل الرابع عشر

حمل أحد الرسل إلى كوتوزوف خبراً على جانب كبير من الخطورة في اليوم الأول من تشرين الثاني. لقد أكد الرسول أن الجيش أصبح في حالة شديدة اليأس لا أمل في إنقاذه منها. والواقع أن الخبر كان صحيحاً إذ إن الفرنسيين كانوا قد اجتازوا جسر ڤيينا بقوات ضخمة وباتوا يهددون بقطع خط اتصال كوتوزوف بالقطعات الآلية من روسيا. فإذا بقي في كريمس، فإن قوات ناپليون المائة وخمسين ألفاً، قادرة على قطع خطوط مواصلاته كافة والإحاطة برجاله الأربعين ألفاً إحاطة مطبقة وخصوصاً أن أولئك الرجال كانوا في حالة من الإنهاك والتعب يتعذر عليهم معها القيام بمحاولات مجدية.

إذن، فإن المصير الذي ينتظر كوتوزوف لا يختلف عن مصير «ماك» في «أولم». أما إذا ترك طريق أولموتز وابتعد عنه، فإن معنى ذلك أن يتخلى كذلك عن آخر أمل له في الاتصال بجيوش «بوكزويڤدن» وأن يتوغل في مسالك مجهولة غير معبدة عبر جبال بوهيميا الوعرة، ملاقياً مع ذلك عدواً يفوقه عدداً وعُدداً واستعداداً ومعنوية.

وكان هناك احتمال ثالث وهو أن يتراجع بجيوشه المنهكة المحطمة عن طريق كريمس قاصداً «أولموتز» للتلاقي مع قطعات مستريحة قادرة على بعث النشاط في الصفوف. لكن هذه المحاولة أيضاً كانت تحتمل خطراً كبيراً. إذ كان يخشى أن يسبقه الفرنسيون على تلك الطريق وأن يضطروه إلى الدخول في معركة غير متكافئة، لأنهم سيكونون على كامل الأهبة لها بينما تكون

جيوشه في حالة الانسحاب والمسير، ينوء الرجال تحت أعباء ما يحملونه، ويكونون محاطين بأعداء من كل الجهات يفوقونهم عدداً وعدة ويبلغ عددهم ثلاثة أضعاف رجاله أو أكثر.

ولم يكن لكوتوزوف أن يختار. لذلك قرر الأخذ بالمبدأ الأخير.

نصّ تقرير الرسول المخبر، إذا صدق في تقريره، على أن الفرنسيين يحثون خطاهم في سير سريع لبلوغ «زناييم»، وهي مدينة تقع على خط انسحاب كوتوزوف، على بعد أكثر من خمس وعشرين مرحلة إلى الأمام فلو استطاع أن يبلغ هذه المدينة بجيوشه قبل أن يصلها الفرنسيون، أمكنه أن يهيئ لرجاله أملاً كبيراً في الخلاص. أما إذا سمح للفرنسيين أن يتقدموه، فمعنى ذلك أن جيوشه سيحل بها إذلال وخسران يعادلان ما حل بماك في أولم إن لم يكن فيهما معنى الانهيار التام. لقد كان في بلوغ الفرنسيين تلك المدينة قبل جيوش كوتوزوف، وصمة عار تلحق بشرف الجيش الروسي، وصمة لا يمكن غسلها.

كان الموقف كله في جانب الفرنسيين. لقد كان من المستحيل على كوتوزوف أن يبلغ بكل جيشه مدينة «زناييم» قبل الأعداء، إذ إن الطريق التي كان هؤلاء يسلكونها من ڤيينا إليها، كانت أقصر من المرحلة التي عليه اجتيازها، وكانت إلى جانب ذلك أفضل تعبيداً وأيسر تمهيداً من طريق الجيش الروسي الذي كان عليه السير في طريق كريمس لبلوغ تلك الغاية.

خلال الليل، أصدر كوتوزوف أمراً إلى جيش پاغراسيون (وهو مقدمة الجيش الروسي وتعداده أربعة آلاف جندي)، أن يتقدم بخط مستقيم عن يمينه ميمماً شطر طريق كريمس ـ زناييم ليبلغ طريق ڤيينا ـ زناييم عبر الجبل. وكان على الأمير پاغراسيون أن يقطع تلك المسافة على مرحلة واحدة وأن يتوقف باتجاه ڤيينا وأن يحاول بقدر ما يستطيع إيقاف الفرنسيين إذا التقاهم. أما

كوتوزوف فقد اتجه مباشرة نحو زناييم مع المعدات والذخائر والمؤن وبقية الوحدات.

بعد أن قطع عشر مراحل عبر الجبل في ليلة عاصفة، وصل پاغراسيون إلى «هولابرون» ومعه أربعة آلاف رجل أنهكهم التعب، حفاة، ضاع ثلثهم في الطريق. وكان وصوله إلى ذلك المكان على طريق ڤيينا ـ زناييم، قبل وصول الفرنسيين إليها بساعات معدودة. أما كوتوزوف، فقد كانت مشيته البطيئة لما ينوء به رجاله من أحمال، تتطلب منه يوماً كاملاً ليبلغ زناييم. ولم يكن ذلك خافياً على پاغراسيون. لقد كان يعرف أن عليه أن يوقف الجيش العدو برمته طوال أربع وعشرين ساعة بتلك الشرذمة القليلة من الرجال المنهكين. وكان يعرف أن ذلك ضرب من المحال. لكن القدر الساخر شاء أن يجعل المستحيل ممكناً. ذلك أن الخدعة الحربية التي مكنت القائد الفرنسي مورا من احتلال جسر ڤيينا دون أن يطلق رصاصة واحدة، شجعته على إجراء محاولة مماثلة مع كوتوزوف.

فلما قابل قوات پاغراسيون القليلة العدد على طريق زناييم، اعتقد أنه إزاء الجيش الروسي برمته. فأراد أن يسحقه بضربة واحدة، الأمر الذي كان متعذراً قبل وصول بقية الجيش الفرنسي الذي كان يصل تباعاً من ڤيينا. ومن أجل ذلك، عرض على پاغراسيون هدنة مدتها ثلاثة أيام شريطة أن تحتفظ قطعات كلا الجانبين بمراكزها الحالية. وادعى أن هناك محادثات حول عقد الصلح تدور في تلك الأثناء بين الحكومتين، وأن أي إهراق للدماء في تلك المرحلة يعتبر عملاً غير حكيم. واقتنع الجنرال النمسوي الكونت نوستيتز الذي كان على رأس الخطوط الأمامية الروسية بادعاءات مورا وانسحب من فوره كاشفاً بذلك جناح پاغراسيون.

وجاء متحدث آخر يعرض على الجنرال الروسي العرض نفسه الذي

تقدم به مورا للقائد النمسوي. لكن باغراسيون قال إنه لا يملك صلاحيات البحث في هذا الأمر، وأن عليه الرجوع إلى رأي الجنرال القائد الأعلى. وشفع قوله بالعمل، إذ بادر فوراً إلى إرسال أحد مساعديه من الضباط إلى مركز القيادة العليا حاملاً معه العرض الفرنسي.

بالنسبة إلى كوتوزوف كانت الهدنة هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من اكتساب الوقت الكافي وتوفير فترة استراحة لوحدات باغراسيون المنهكة. وكانت كذلك تساعده على إجراء نقل المهام وما إليها وأبعادها مرحلة أخرى وخصوصاً أن الفرنسيين كانوا يجهلون كل شيء عن هذه التحركات. وخلاصة القول: جاء ذلك العرض الغريب يحمل لكوتوزوف أملاً كبيراً في تحسين أوضاعه ومركز رجاله وإنقاذ الجيش الروسي من الإبادة. لذلك أرسل كوتوزوف إلى معسكر الأعداء مساعده العام، وينتزنغيرود، وكلفه إلى جانب تقبله عروض الهدنة الموقتة، مناقشة شروط الانسحاب الروسي والاستسلام. وفي الوقت نفسه أرسل ضباطاً مساعدين آخرين إلى الخطوط الخلفية ليعملوا على حث الوحدات المكلفة نقل المهام على الإسراع بنقلها في اتجاه زناييم بما أمكن من سرعة. وكان على جيش باغراسيون المنهك أن يبقى في مكانه رغم ما ناله من إنهاك ليخفي عن أعين الأعداء الذين يفوقونه عدداً وعدة تفوقاً ساحقاً حركة نقل مهمات جيش كوتوزوف وقطعاته الأخرى. وبعبارة أخرى، كان على باغراسون أن يصمد بأربعة آلاف رجل أمام ثمانية أضعاف هذا العدد من الأعداء في سبيل إنقاذ الأجزاء الكبرى من جيش كوتوزوف.

وقع ما حدسه كوتوزوف. فقد أمكن للعرض الذي تقدم به للجانب الفرنسي ببحث شروط الاستسلام، ذلك العرض الذي لم يكن يربط كوتوزوف بأي التزامات، أن يشغل الأنظار فترة مكنته من نقل المهمات الحربية، أو أقله جانب منها، إلى حيث يجب أن تكون.

غير أن خطأ مورا تجلّى لعيني ناپليون بوناپرت. كان بوناپرت في تلك الأثناء معسكراً في شونبرن على بُعد ست مراحل من هولابرون. فلما تلقى تقرير مرؤوسه مرفقاً بمشروع الهدنة، أدرك الخدعة الكامنة وراء ذلك وكتب للقائد مورا الرسالة التالية:

إلى الأمير مورا

شويبزن، في ٢٥ برومير عام ١٨٠٥ الساعة الثامنة صباحاً.

يستحيل عليّ إيجاد العبارات الملائمة لأظهر لك شدة استيائي. إنك لا تأمر إلا قطعاتي الأمامية وليس من صلاحياتك أن تعقد أية هدنة دون أمري. إنك بذلك تفوت علي ثمرة حرب برمتها، فاخرق الهدنة إلى الفور وسر إلى العدو. أعلن لهم أن الجنرال الذي سيوقع شروط الانسحاب لا يحق له اتخاذ هذه الخطوة وأن أمبراطور روسيا هو وحده صاحب هذا الحق.

مع ذلك فإن أمبراطور روسيا إذا وافق على مثل هذا التصرف فإنني بالمثل سأوافق عليه. لكن المسألة لا تتعدى حدود الخدعة. فسر إلى الأمام وحطم الجيش الروسي... إنك في موقف يمكنك من الاستيلاء على مدفعيته.

إن المساعد العسكري للأمبراطور الروسي ليس إلا... فالضباط لا وزن لهم عندما لا يملكون صلاحيات معترفاً بها، وليس مع هذا أية صلاحية... لقد انطلت الخدعة على النمسويين عندما سهلوا لك عبور جسر ڤيينا وها إنك تُخدع الآن من قبل أحد مساعدي الأمبراطور!

ناپليون

كان پوناپرت، الذي في طبعه عدم الركون إلى جنرالاته، يتقدم مع كامل فرقته إلى موقع العمليات العسكرية كي لا يتيح لضحيته فرصة الإفلات من الإفناء الكامل الذي يدخره لها بينما كان أحد ضباط پوناپرت المساعدين

يحمل هذه الرسالة الرهيبة إلى مورا طائراً على جواده، أما جنود پاغراسيون الأربعة آلاف، فقد كانوا في تلك الأثناء يوقدون النيران ويجففون ثيابهم بهدوء على لهيبها المتصاعد. لقد أتيح لهم للمرة الأولى منذ أيام ثلاثة أن يصنعوا لأنفسهم حساء ساخناً. ولم يكن أحد من هؤلاء الرجال البؤساء يشك أبداً في ما يخبئه له القدر.

الفصل الخامس عشر

حوالى الساعة الرابعة من بعد الظهر وصل الأمير أندريه إلى غرانت بعد أن وافق القائد الأعلى كوتوزوف على إرساله للحاق بجيش پاغراسيون بعد إلحاح شديد، وقدم نفسه لهذا الأخير. وكان الضابط المساعد الذي أوفده بوناپرت برسالته السالفة إلى «مورا» لم يصل بعد، والمعركة لم تدر رحاها بين الفريقين. أما الحالة العامة فلم يكن أحد يعرف عنها شيئاً، إذ بينما كان بعضهم يتكلم عن الصلح دون أن يؤمن به كان البعض الآخر يتحدث عن المعركة دون أن يصدق أيضاً بوقوعها.

ولما كان پاغراسيون يعرف مكانة پولكونسكي عند كوتوزوف، فقد استقبله بحفاوة بالغة لم تخل من بعض التحفظ، أعلمه بأن ساعة المعركة باتت وشيكة وترك له ملء الحرية في أن يشهدها إلى جانبه أو أن يشرف على انسحاب المؤخرة وهي مهمة تعادل في خطورتها المهمة الأولى. وأردف قائلاً يطمئن الأمير أندريه:

ـ وعلى كل حال، لا أعتقد أن قتالاً ما سيندلع اليوم.

بينما راح يحدث نفسه: «إذا كان هذا الضابط من أذناب القيادة العامة الذين يسعون إلى نيل وسام، فإنه على أيّ حال سينال ما يريد في المؤخرة. أما إذا أراد على العكس أن يبقى معي، فله أن يبقى لأن ضابطاً شجاعاً مثله لا بد وأن يفيد في شيء».

لم يجب الأمير أندريه على تعليق پاغراسيون بل طلب الإذن منه في أن

يتحرى وضع الجنود وأن يقوم بجولة تفتيشية على جواده. كان يريد معرفة جميع الأوضاع وتفاصيل المواقع التي يحتلها الجنود الروس ليكون على بيِّنة من الاتجاه الذي يجب عليه سلوكه عندما يستدعيه الموقف القيام بواجبه في المستقبل. وتقدم ضابط مرافق ليسير في صحبته. كان هذا شاباً بهيّ الطلعة، أنيق الهندام، يحلي سبابته بماسة كبيرة يتحدث اللغة الفرنسية بركاكة وتقليد سيئ.

رأى في كل مكان ضباطاً ساهمين غارقين في تخيلاتهم بوجوه حزينة، يبدو عليهم أنهم يفتشون عن شيء ما، وجنوداً عائدين من القرية حاملين أبواباً ومقاعد وحواجز.

قال الضابط المرافق وهو يشير إلى أولئك الجنود: أنظر إلى ما يفعله هؤلاء الرجال أيها الأمير. من المستحيل أن نتخلص من مثل هذه التصرفات! إن الرؤساء يتركون لهم الحبل على الغارب.

ثم أردف مشيراً إلى خيمة أقامها أحد الخمارين: أنظر إلى حيث يصرفون أوقاتهم. لقد عنيت دائماً بطردهم من هذا المكان. لكنني واثق الآن أن الخيمة تعج بهم، لنقترب أيها الأمير ولنعمل على إخافتهم. إن الأمر لن يستغرق أكثر من دقيقة صغيرة.

فقال بولكونسكي الذي لم يكن قد أتيح له من الوقت ما سمح له بشراء بعض المؤن وتناول الطعام: ليكن، وسأنتهز الفرصة لشراء بعض الخبز والجبن.

لِمَ لَمْ تقل لي ذلك أيها الأمير من قبل؟ لو أنني عرفت أنك لم تتناول طعامك بعد لاصطحبتك إلى خيمتي قبل أن نقوم بهذه الجولة.

ترجل كلاهما ودخلا الخيمة فوجدا فيها عدداً من الضباط جالسين إلى طاولات مبعثرة في المكان ووجوههم محمرة وهزيلة.

قال الضابط المرافق بلهجة الرجل الذي تعب من كثرة تكرار أمر بعينه دون جدوى: ما هذا أيها السادة؟ كيف يحق لكم ترك مراكزكم، وقد أصدر الأمير، ويقصد باغراسيون، أمراً يحظر وجودكم هنا؟ وأنت يا كابتن توشين، ألا تخجل من تصرفك؟

الكابتن توشين أحد ضباط المدفعية، وكان قصير القامة، هزيل العود، يرتدي ثوباً عسكرياً وسخاً. وكان في تلك اللحظة حافي القدمين إلا من جواربه لأنه أعطى حذاءه قبل دخوله إلى الخمار ليجففه له. لذلك فقد نهض مرتبكاً دون أن تند عنه كلمة واحدة.

أردف الضابط المرافق: نعم كيف لا تخجل من تصرفك؟ إنك ضابط مدفعية وكان عليك أن تعطي الباقين أمثولة جيدة. هذا عدا عن أنك حافي القدمين! (وهنا ابتسم ضابط المدفعية ابتسامة تائهة).

وأضاف وقد اتخذ صوته سمة الأمر: تفضلوا أيها السادة بالعودة إلى مراكزكم جميعاً دون استثناء.

بقي الضابط توشين ساكتاً والابتسامة منطبقة على شفتيه، وبدأ يقفز تارة على ساقه اليمنى وأخرى على الساق اليسرى، وعيناه تتفحصان تارة الضابط المرافق وطوراً الأمير بولكونسكي. كانت عيناه كبيرتين طافحتين بالذكاء وتوقد الذهن، فلم يتمالك الأمير ورفيقه من الابتسام. وأخيراً غمغم الكابتن توشين: يقول الجنود إن حافي القدمين يستطيع أن يقفز أفضل من غيره!

كان الضابط المرتبك يعتقد أن مثل تلك الدعاية خير ما يلجأ إليه للتخلص من ذلك الموقف الحرج. لكنه ما كاد ينتهي من جملته تلك حتى أدرك أنه لم يكن موفقاً في مزاحه لذلك فقد تضاعف ارتباكه.

كرر الضابط المرافق جاهداً أن يتخذ صوته لهجة جدية: تفضلوا بالعودة إلى مراكزكم.

استمر پولكونسكي يتابع الضابط توشين بنظرته. كان مظهره لا يدل على شيء من وقار الجندي بل إنه يستطيع القول إن في تصرفاته شيئاً مضحكاً غير أنه كان في الوقت نفسه ذا شخصية شديدة الجاذبية.

عاد الضابط المرافق والأمير أندريه إلى جواديهما يمتطيان صهوتيهما ويتابعان طريقهما.

وصلا إلى مخرج القرية، وهناك راحا يلتقيان في كل لحظة ضباطاً وجنوداً من مختلف الأسلحة والقطعات ويتجاوزانهم. شاهدا إلى يسارهما أكواماً من الطين الأحمر حديثة الصنع، ورأيا جنوداً كثيرين يسترون أجسامهم بقمصانهم البيضاء فحسب رغم لفحات الريح القارسة، يقيمون بسرعة فائقة المتاريس الضرورية عسكرياً.

وكان الناظر إلى ذلك المشهد يخيل إليه أنه إزاء حشر من النمل الأبيض العامل، كان عدد كبير من الأيدي غير المنظورة ترفع من الخنادق المحفورة الأتربة اللزجة المتراكمة، أتربة حمراء لا تنفك تلك الأيدي الخفية تقذف بها بانتظام وعلى دفعات متساوية. اقترب الضابطان من الجنود العاملين وعاينا تلك الخنادق ثم تابعا طريقهما. وفجأة التقيا عدداً من الجنود كانوا ينحدرون من أعلى مرتفع يتردد الجنود كلهم إليه لإزالة ضروراتهم، فاضطرا إلى حث جواديهما اللذين راحا يتسابقان هدباً لينقذا نفسيهما من الرائحة الكريهة المنبعثة في الجو حول ذلك المرتفع.

قال الضابط المرافق وهو يسد أنفه بأصابعه كما فعل الأمير: إن أقذار المعسكرات والنفايات كلها تجمع هنا يا سيدي الأمير.

ولما وصلا إلى المرتفعات التي كانت قبالتها والتي كان يمكن رؤية الفرنسيين من فوقها، توقف الأمير أندريه وراح يعاين خطوط العدو.

قال مرافقه ودليله مشيراً إلى نقطة مرتفعة تشمخ على التلال المجاورة

لها: لدينا هنا «بطارية» من المدفعية. إنها تحت إمرة ذلك الضابط المضحك الحافي القدمين. من هنا، يمكن للمراقب رؤية كل شيء هيا بنا أيها الأمير.

فقال پولكونسكي محاولاً التخلص من تطفل المرافق: لك مزيد شكري. لكنني أستطيع الآن العودة منفرداً إلى المعسكر، فلا تبتئس من أجلي.

فعاد الضابط المرافق أدراجه بينما مضى پولكونسكي قدماً إلى الأمام.

كلما ازداد اقتراباً من خطوط العدو، ازدادت ملاحظته للترتيب البديع والمعنويات المرتفعة التي ينعم بها الجنود الروس في الخطوط الأمامية، كان صباح ذلك اليوم قد لاحظ على قوافل المهمات والعتاد التي توقفت قرب «زناييم» على بعد حوالى ثلاث مراحل من الفرنسيين، الشيء الكثير من الفوضى والازدحام.

وكذلك كانت الحال في غرانت، حيث كان المراقب لا يحس إلا بالقلق والكآبة. أما هنا، فإن الأمر كان على النقيض من ذلك. فقد كانت الثقة والاعتداد بالنفس يشعان من وجوه الرجال رغم أنهم كانوا على قيد خطوتين من العدو. كان أحد الضباط برتبة رئيس، يرافقه أحد الرتباء يقوم بإحصاء جنوده الذين كانوا في ألبسة الميدان منتظمين صفاً منسقاً أمامه. فلما وصل إلى نهاية إحدى الفصائل، ضغط بإصبعه على صدر الرجل الأخير منها طالباً إليه أن يرفع ذراعه.

وهنا وهناك، كان مئات من الجنود ينقلون الأخشاب والحشائش الطفيلية لكي يبنوا بها أكواخاً لهم، وهم يضجون بالضحك والانشراح ويتبادلون الدعابات. ومئات أخرى ملتفون حول نار موقدة، بعضهم نازعاً ثيابه يجففها والبعض الآخر في كامل هندامه العسكري إلا من جواربهم أو أحذيتهم التي كانوا يرتقونها، ويلتفون حول قدور الطعام والطهاة من حولها.

وفي كتيبة أخرى، كان الطعام جاهزاً والجنود يمطرون القلل بنظرات

نهمة ويرمقون الصحفة التي كان «عريف» الطعام يحمل فيها عينة من الحساء ليتذوقها رئيس الكتيبة قبل توزيعها على الجنود. فكانت عيونهم تتابع الصحفة وحاملها حتى بلغ إلى حيث كان الرئيس جالساً عند جذع شجرة أمام كوخه. وفي كتيبة أخرى أحسن حالاً من غيرها، لأن كل الفرق لم تكن لتتساوى في توزيع الكحول عليها، كان الجنود يحاصرون أحد صف الضباط، وكان عريض الكتفين، شوه الجدري أدمة وجهه، الذي كان ينحني في كل مرة ليملأ أباريق الجنود خمراً. فكانوا فور تسلمهم حصتهم، يرفعون الإناء إلى أفواههم، ويفرغون محتوياته في أجوافهم دفعة واحدة، ثم يمضون في طريقهم إلى مراكزهم ووجوههم مشرقة. وكان بعضهم يتمضمض بالجرعة الأخيرة ثم يمسح شفتيه بطرف كمه. كان يبدو عليه مزيد من اللامبالاة حتى ليخيل إلى الناظر إليهم أنهم جنود في إجازة أو أنهم يعسكرون في أمكنة هادئة من بلادهم لا يتوجسون خيفة من شيء، وليس على مقربة من العدو وفي أمسية يوم ينتظر في صباح اليوم التالي أن ينام أكثر من نصفهم على تلك الأرض بلا حراك.

إلى جانب معسكر القناصة كان معسكر رماة «كييـف»، وكان جنود رماة «كييـف» من الشبان الأقوياء الأشداء، وكانوا جميعهم منصرفين بالمثل إلى مهمات سلمية لا علاقة للحرب بها. رأى الأمير أندريه، قرب الكوخ الكبير الذي يأوي إليه الزعيم (كولونيل) قائد الفرقة والذي كان يمتاز عن الأكواخ الأخرى بحجمه وارتفاع سقفه، فصيلة من الرماة وقد تمدد أمامهم رجل عارٍ من الثياب. كان اثنان من زملائه يمسكان به بينما راح الباقون ينهالون على ظهره العاري ضرباً بعصي مرنة بإيقاع موزون، كان الجندي البائس يصرخ ملء حنجرته من الألم. بينما كان أحد القادة (ماجور) يذرع الأرض في مقدمة الفرقة وهو يردد دون أن يبالي بصرخات الجندي المعاقب:

ـ من العار على الجندي أن يسرق. على الجندي أن يكون نزيهاً باسلاً.

فإذا سرق رفاقه، يكون عديم الشرف، وإذن، فإنه يصبح حقيراً محتقراً. تابعوا، تابعوا، اضربوا!

وتتابع صفير العصي المرتفعة الهابطة ممزوجة بتأوهات الضحية المصطنعة التي لم تكن لتخلو مع ذلك من شيء من الشراسة.

انفصل ضابط شاب عن موقع الجندي المعاقب وعلى وجهه علامات الإشفاق والارتباك، ورفع إلى الضابط المساعد نظرة متسائلة.

وانطلق الأمير أندريه إلى الخطوط الأمامية يستعرض خط الجبهة كله.

لاحظ أن ذلك الخط كان يتباعد تباعداً محسوساً عن العدو في الجناحين الأيمن والأيسر. أما في الوسط، في المكان الذي جرت المفاوضات لعقد الهدنة ذلك الصباح، فقد كان ملامساً لخطوط العدو لدرجة كان يمكن للجنود من الجانبين أن يروا بعضهم وأن يتبادلوا الحديث. وكان هناك، قلب الجبهة، إلى جانب الجنود المكلفين حماية الخطوط، عدد كبير من الفضوليين الذين جاؤوا من كلا الجانبين، يعاينون العدو غريب الشكل، ويتأملون ملابسه وعتاده التي لم يكونوا قد رأوا مثلها من قبل.

منذ ذلك الصباح لم يفلح الضباط في صد المتطفلين رغم الأوامر الصريحة التي تحظر عليهم الاقتراب من الخطوط الأمامية. وكان الحراس ينتظرون بفارغ الصبر أن يحين موعد استبدالهم. لم يعودوا يأبهون للفرنسيين، بل أصبحوا في مراكزهم أشبه بمن يشرف على عرض منظر نادر، يبدون الملاحظات على أولئك الوافدين. توقف الأمير أندريه يتأمل الفرنسيين.

قال أحد الجنود مشيراً إلى أحد الرماة الروس الذي كان في صحبة أحد الضباط يناقش أحد الرماة الفرنسيين بحرارة: أنظر إلى هذا. إن لسانه مديد جداً، وهذا الفتى! إن الفرنسي لا يستطيع متابعته أو التفوق عليه! دورك الآن يا سيدوروف.

فأجاب سيدوروف الذي كان يمر قرب الجنود ليتكلم بالفرنسية الصحيحة: دعني أستمع. إنه يحسن التخلص مع هذا الفرنسي.

كان الجندي الذي راح الجنديان المازحان يشيران إليه هو دولوخوف، لقد جاء مع رئيسه من الجناح الأيسر للجبهة الروسية حيث كانت سريته معسكرة هناك، لينعم بالحديث مع الفرنسيين. عرفه الأمير أندريه، فأصاخ السمع محاولاً التقاط ما يدور بينهما من حديث.

كان الكاپتن، رئيس دولوخوف، يهيب به أن يستمر في الحديث، بينما كان ينحني على قدر طاقته كي لا تفوته كلمة واحدة من ذلك النقاش الذي لم يكن يفهم من اللغة الذي كان يدور بها، كلمة واحدة. كان يصيح بدولوخوف: استمر، استمر، ولكن بسرعة! اسرع في النطق أكثر من هذا! ماذا يقول؟

لكن دولوخوف كان منصرفاً بكليته إلى نقاشه مع الجندي الفرنسي، فلم يكن عابئاً برئيسه وملاحظاته. كان الحديث يدور في تلك اللحظة حول المعركة والحرب، وكان ذلك متوقعاً. وكان الفرنسي المتحدث، وهو الذي كان يخلط بين النمسويين والروس، يزعم أن الجيش الروسي قد هزم في «أولم» وأنه استسلم هناك ولايزال يتراجع. بينما كان دولوخوف يؤكد له عكس ذلك، ويجزم أن الروس هزموا الفرنسيين وأنهم لا يفكرون في الاستسلام مطلقاً، وتابع يقول: إن لدينا أمراً بطردكم من هنا، ولسوف نطردكم!

فأجاب الفرنسي بسخرية: ولكن حـاذروا أن لا نأسركم جميعاً والقوقازيين معكم «على البيعة»!

وانفجر كل من كان في المعسكر الفرنسي ضاحكاً.

ردّ عليه دولوخوف قائلاً: بل إننا سنجعلكم ترقصون كما رقصتم من قبل أمام سوڤوروف!

قال أحد الفرنسيين متسائلاً: بماذا يهذي هذا الروسي؟

فأجابه آخر وقد خمن أن الأمر متعلق بحادثة قديمة سابقة: بالتاريخ القديم... ثم التفت إلى دولوخوف وتابع:

ـ سوف يرى سوڤارا «ك» هذا وكل الآخرين ما يخبئه له الأمبراطور.

همّ دولوخوف بمتابعة الحديث فقال: پوناپرت...

غير أن الفرنسي لم يمهله بل قطع عليه طريق الاستمرار غاضباً:

ـ ليس هناك پوناپرت، بل الأمبراطور.

ـ ليحل الشيطان في أمبراطوركم!

وعقب باللغة الروسية شتائم قبيحة شائعة على ألسنة الجنود، ثم تنكّب بندقيته وابتعد.

قال يخاطب رئيسه: هيا يا إيـڤان لوكيتش.

وقال الجنود الروس: هكذا الحديث بالفرنسية وإلا فلا! والآن امضِ أنت يا سيدوروف!

غمز سيدوروف بعينيه ثم راح يتمتم بكلمات مبهمة وهو يخاطب الفرنسيين، متظاهراً بالإلمام بلغتهم: كري، مالا، تافا، سافي، موتي، كاسكا،...

كان صوته ولهجته لا يدعان مجالاً للسامع الجاهل للشك في أنه ملمّ باللغة الفرنسية وقواعدها، وأنه يتحدث عن أشياء دقيقة.

وانفجر الجنود الروس بضحكة بهيجة بلغ من تأثيرها أن انتقلت إلى صفوف الفرنسيين المتجهمين. كان يخيل إلى الناظر إلى ذلك المشهد، أن الجانبين أصبحا على وشك إطلاق بنادقهم في الهواء وتفجير ذخائرهم استعداداً للعودة إلى بلادهم. لكن البنادق لبثت محشوة ونوافذ إطلاق القذائف ظلت مهيأة جاهزة، والخنادق والمتاريس محافظة على مظهرها العدائي المهدد، والمدافع موجهة من الجانبين إلى المعسكرين المتحاربين بعد أن سحبت عن العربات التي تجرها.

الفصل السادس عشر

صعد الأمير أندريه إلى حيث نصبت المدفعية التي قال الضابط المرافق عنها منذ حين: إنها أقيمت في مكان يشرف على ساحة المعركة كلها. بعد أن استعرض الجناحين الروسيين الأيمن والأيسر، فلما وصل إلى المرتفع الذي نصبت المدافع فوقه، ترجل عن جواده بالقرب من المدفع الرابع والأخير في ذلك العش الذي كانت مدافعه مهيأة كلها للانطلاق. وكان أحد الجنود يقوم بالحراسة هناك فهمّ بتحية الأمير بسلاحه، لكنه أشار إليه أن يتابع عمله، فعاد الجندي إلى سيره الممل في مركز حراسته.

كانت العربات التي تحمل عليها تلك المدافع بالقرب من المكان، يليها المزرب الذي تحفظ فيه الخيول ثم مركز المدفعيين. وإلى اليسار، قريباً من القطعة الأخيرة، أقيم كوخ صغير حديث البناء، كانت أصوات الضباط وأحاديثهم ترتفع منه.

كان الضابط المرافق على حق في قوله عندما أكد أن موقع المدفعية يشرف على الساحة ويسيطر عليها: لقد لمس الأمير پولكونسكي هذه الحقيقة بنفسه وتأكد أن المدافع قد نصبت بشكل جعلها تسيطر على كل المواقع الروسية وعلى جانب غير قليل من معسكر الأعداء.

كان إلى الأمام، على خط أفقي ممتد من إحدى التلال، يرى قرية شوپنغراين، وإلى اليمين وإلى اليسار منها، كانت الأدخنة المنبعثة من ثلاثة أماكن، مراكز الضباط الفرنسيين، تظهر أن جزءاً كبيراً من جيشهم يحتل القرية

المذكورة وسفح التل الموازي لها. وإلى أقصى اليسار، كان هناك شيء يشبه عشاً للمدفعية، لم يكن الدخان المتصاعد ليسمح للعين المجردة أن تتحقق من صحة الرؤية ـ كان الجناح الروسي الأيمن يحتل مرتفعاً صعب التسلق مسيطراً عى المراكز الفرنسية. وكان فرسان الدراغون، وهم فصيلة من فرسان الخطوط الأولى مهمتها الحرب في حالتي الركوب والترجل، ووحدات المشاة تعسكر هناك. أمام المنحدر سهل التسلق، فقد كان يبدأ من الوسط أو على أدق تحديد من حيث قامت وحدة توشين المدفعية،ويتصل بانحداره بالنهر الصغير الذي يفصل الروس عن قرية شوبنغرابن.

أما الجناح الروسي الأيسر، فكان يرتكز على غابة كان المشاة بالقرب منها قد أشعلوا النار ليصطلوا بها وهم في عملهم المنظم، يقطعون الأخشاب اللازمة لعمليات المعسكر. كان خط العدو أكثر اتساعاً من الخط الروسي وأبعد امتداداً. وكان واضحاً أنه قادر على تطويق الجنود الروس بسهولة عندما تحين الساعة.

أما في مؤخرة الجيش الروسي، فقد كان واد عميق صعب المسالك يقف حائلاً بينه وبين الانسحاب المنظم، وخصوصاً بالنسبة إلى سلاحي المدفعية والفرسان.

أخرج الأمير أندريه دفتره الصغير واتكأ على أحد المدافع وراح يرسم لنفسه مخططاً عن الوضعية العامة، وأضاف بعض الملاحظات بالقلم الرصاص في موضعين من مخططه، كان يهدف منها إلى إنارة سبيل الأمير باغراسيون عند الحاجة. وكانت تلك الملاحظات تنص على أن تجمع كل المدفعية في الوسط وأن ترسل وحدات الخيالة إلى ما وراء الوادي وراء الخطوط الخلفية. كان بولكونسكي مرافقاً للجنرال بصورة مستمرة، وكان مكلفاً تدوين النواحي التاريخية في المعارك. لذلك فقد كان اهتمامه منصباً

على التدابير العامة بصورة خاصة وعلى حركات الكتل الكبيرة من الجيوش. ولهذا السبب، وجد نفسه في مهمته الحالية مهتماً بصورة خاصة بالخطوط الرئيسية للعملية المتعلقة بالمعركة المقبلة، مغفلاً التفاصيل، مبيناً طارءين أو ثلاثة مما يتوقع حدوثه خلال استعار نار المعركة. كان يحدث نفسه بقوله: «إذا هاجم العدو الجناح الأيمن فإن على رماة كييف وقناصة يودولي أن يصمدوا في أماكنهم حتى تصلهم الإمدادات التي ستؤخذ من الوسط، وفي هذه الحالة، يستطيع فرسان الدراغون أن يهاجموا جناحه وأن يقذفوا به بعيداً. أما إذا بدأ الهجوم على الوسط فإننا سنركز المدفعية الوسطى على هذا المرتفع وبذلك نغطي انطواء الجناح الأيسر ثم ننسحب بتراجع منظم حتى نصل إلى الوادي».

خلال هذا الوقت كله، كان لا ينفك يصغي إلى نقاش الضباط في كوخهم دون أن يفقه شيئاً من أحاديثهم كما يحدث غالباً لكل من ينصرف بكليته إلى أمر ما دون أن تشاركه فيه كل حواسه العاملة الأخرى.

وفجأة ارتفع أحد الأصوات بشكل جعله ينصت مرغماً إلى ما يقوله ويرهف حاسة السمع لالتقاط المعاني وتجريدها عن الكلمات. كان ذلك الصوت ذو الإيقاع الجميل مألوفاً بالنسبة إلى مسامع الأمير، وكان يقول: كلا يا صغيري. لو كان في حدود المستطاع معرفة ما يحدث بعد الموت لما شعر أحد منا بالخوف. نعم، إنه كذلك يا صغيري.

فارتفع صوت آخر أكثر فتوة من الأول يقاطعه: سواء أخاف المرء أم لم يخف فإن من الواجب أن يمر المرء بهذه التجربة.

فقال صوت ثالث متفجر بالرجولة، أجش: إن ذلك لا يمنع المرء من الشعور بالخوف! هيه! أيها العلماء المتفذلكون يبدو أن علمكم كله ناتج من أنكم تستطيعون أبداً ابتلاع الطعام وشرب قطرات من الماء بعده!

وانفجر صاحب ذلك الصوت الضخم، وهو، ولا شك، من صفوف

المشاة في الخطوط الأولى، بضحكة مدوية. بينما عاد الصوت الأول يقول: نعم، إن ذلك لا يمنع المرء من الشعور بالخوف، إن المرء يخاف من المجهول. نعم إنه لكذلك. لأنه مهما حدثونا عن صعود الروح إلى السماء، فإننا نعلم أن السماء ليست إلا ظاهرة خداعة ليس فيها إلا الفضاء.

ومجدداً قاطع الصوت الأجش ذلك المتحدث ليقول: هيا يا توشين، ماذا أصابك. أذقنا طعم الخمر الذي عندك.

وتمتم الأمير أندريه محدثاً نفسه: «آه! إنه الكاپتن الذي كان حافي القدمين عند الخمّار!» تأكد الآن أن الصوت الذي كان مألوفاً لسمعه كان صوت توشين، فلذّ له الإصغاء إلى ذلك الصوت اللطيف الذي يملكه ذلك الرئيس الفيلسوف.

قال توشين: سأقدم لكم خمراً ما شئتم الاغتراف؛ ولكن فيما يتعلق بمعرفة الحياة المقبلة...

لم يتسنّ له الوقت لإتمام جملته. ذلك أن صفيراً عالياً شق الفضاء وراح يقترب ويتضح ويزداد حدة، ولم تلبث القذيفة أن احترقت الأرض بشدة قرب كوخ الضباط، وكأنها آسفة على عدم إمكانها التحدث بكل ما كانت تعنيه بذلك الصفير المزعج. وارتفعت من أطراف المكان الذي سقطت فيه شظايا وأتربة ووحول، واهتزت الأرض لتلك الصدمة القاسية فبدت وكأنها تطلق زمجرة ارتياع.

في تلك اللحظة بالذات، كان توشين يضع غليونه القصير في زاوية فمه، فاندفع خارج الكوخ. كان وجهه المتقد شاحباً بعض الشيء. اندفع وراءه ذو الصوت الأجش، وكان ضابط مشاة متين البنية، أسرع راكضاً ليلحق بسريته وهو يزرِّر معطفه على عجل.

الفصل السابع عشر

راحت عينا الأمير أندريه تتفحصان الرقعة الشاسعة المتاحة للنظر محاولاً اكتشاف مكان القطعة التي أطلقت تلك القذيفة استناداً إلى الدخان الذي تخلفه عادة بعد كل طلقة وقد اعتلى صهوة جواده ووقف به قرب بطارية المدفعية، رأى القطعات العسكرية الفرنسية التي كانت حتى ذلك الحين في جمود تام، تنشط بالحركة، ورأى كذلك أن هناك عشاً للمدفعية العدوة إلى يسارهم. كانت سحابة رقيقة من الدخان لا تزال تحلق فوق ذلك المكان. ورأى فرنسيين على جواديهما، ولا شك أنهما من الضباط المساعدين في الأركان، يتسلقان التل، وفي أسفل التل، قرب السفح، رأى فصيلة من الجنود تتحرك صاعدة، فقدر أنها أوفدت لتعزيز الجناح القائم هناك.

ولم تكد سحابة الدخان المنبعثة من القذيفة الأولى تتبدد حتى ارتفعت سحابة ثانية أعقبها دوي عنيف. كانت المعركة قد نشبت، حوّل پولكونسكي جواده ومضى مسرعاً في طريق «غرانت» للقاء پاغراسيون، بينما ازدادت المدفعية حدة من ورائه. كانت الأصوات الراعدة هي رد المدفعية الروسية على الأعداء، وفي الأسفل، في المكان الذي قدمت فيه المباحثات الأولى، جن جنون البنادق من الجانبين.

كان لومار وا قد سلم منذ لحظات كتاب بوناپرت الرهيب إلى مورا الذي أصيب في كبريائه، فأراد إصلاح الخطأ الذي تورط فيه. وهكذا أصدر الماريشال مورا أمره إلى جنوده بمهاجمة وسط القوات الروسية والقيام

بحركة التفاف حول الجناحين. كان يأمل أن يسحق الجيش الروسي الهزيل قبل حلول الظلام ويصل الأمبراطور إلى مكان المعركة.

أخذ الأمير أندريه يحدث نفسه قائلاً: «ها هي إذن المعركة المنتظرة! ولكن في أية لحظة يقدر لي أن أجد «طولوني»[1]؟ وماذا سيكون نوعها على وجه الدقة؟

أحسّ بالدم يتدفق بغزارة في قلبه. ولما مر أمام السرايا التي شاهد أفرادها قبل ربع ساعة يتناولون طعامهم هانئين ويشربون الفودكا مستبشرين، رأى الحركة الدائبة السريعة عامة في كل مكان، والجنود يصطفون حسب نظام المعركة ويعاينون بنادقهم. تأكد أن الاستفزاز الذي تعتلج به نفسه، يصطخب في كل القلوب من حوله ويبدو واضحاً على الوجوه. كان يبدو على الجنود والضباط على السواء أنهم ينطقون بلسان حال موحد قائلين: «ها هي ذي المعركة أخيراً! إنها مرعبة لكنها مع ذلك مسلية!».

شاهد في غسق تلك الأمسية من أيام الخريف وقبل أن يصل إلى الأكواخ التي كانت قيد البناء، كوكبة من الفرسان تقترب من موقعه. كان في طليعة الفرسان، فارس متدثر بفروة قوقازية وقلنسوة من جلد الخروف، يعتلي صهوة جواد أبيض. كان ذلك الفارس الأمير پاغراسيون، فتوقف پولكونسكي بانتظار قدومه. عرفه پاغراسيون الذي توقف بدوره على مقربة وأشار إليه برأسه أن يقترب وظل يراقب ساحة المعركة وهو يصغي إلى تقرير مساعده.

كانت فكرة: «تلك هي إذن المعركة!» مرتسمة بالمثل على وجه پاغراسيون البرونزي الصارم، الذي كانت عيناه نصف المغمضتين تبدوان وكأن صاحبهما مستغرق في سبات عميق، أو أنه لما يستيقظ من نومه بعد.

---

(١) طولون مدينة فرنسية كانت تحت سيطرة الإنكليز، استرجعها بوناپرت وطرد الإنكليز منها، فكانت بداية شهرته. (المترجم).

راح الأمير أندريه يتفحص بفضول قلق ذلك الوجه الجامد. أخذ يحدث نفسه: «ترى بماذا يفكر هذا الرجل الآن وما هي مشاعره؟ هل هناك شيء وراء هذا الوجه الجامد؟ هذا إذا كان صاحب مثل هذا الوجه قادراً على التفكير والشعور!» كان پاغراسيون يومئ برأسه بعد كل فقرة من تقرير پولكونسكي ويقول: «حسناً! حسناً!» وكأنه كان يعرف من قبل كل ما يفوه به مساعده وكل ما يجري في ساحة المعركة.

وكان پولكونسكي لاهثاً من جريه على جواده، فكانت الجمل تخرج من فمه متلاحقة أما پاغراسيون فعلى العكس، كان يلقي كل كلمة بتمهل وبطء شديدين، بتلك اللهجة الشرقية المعروفة لديه، وكأنه كان يقول أن لا حاجة إلى الإسراع والعجلة. مع ذلك فقد ترك جواده ينهب الأرض هدباً ليصل إلى حيث يقوم توشين بمدفعيته، فالتحق پولكونسكي بأعضاء معيته وبينهم ضابط من حاشية جلالة الأمبراطور الروسي، والمساعد الخاص لپاغراسيون وضابط تابع وضابط ركن كان يمتطي حصاناً جميلاً مولداً من أب إنكليزي العرق، وأخيراً موظف مدني، وهو أحد المنشئين طلب السماح له بمتابعة المعركة يدفعه حب التطلع والفضول. ذلك المدني، رجل ضخم الجثة، منتفخ الوجه، لا يعرف الاستقرار على صهوة الجواد، يلقي حوله نظرات يشفعها بابتسامة ساذجة بريئة، ويشكل في مجموعه منظراً غريباً مضحكاً وهو في معطفه الرث على السرج المخصص للضباط الفرسان، وسط تلك المجموعة من الفرسان والقوقازيين والضباط المساعدين.

قال جركوف لـپولكونسكي. هذا هو السيد الذي يريد مشاهدة المعركة. بدأ يشعر الآن بألم في فجوة معدته.

فأجاب المدني بابتسامة مشعة جمعت بين المكر والسذاجة: ولكن كلا، يا للدعابة!

بدا عليه أنه شديد الابتهاج لاعتباره هدفاً يسدد إليه جركوف دعاباته، وكان يتظاهر بالبلاهة أكثر من الحد الذي كان حرياً به أن يبلغه.

قال الضابط الركن بفرنسيته الركيكة: مضحك جداً يا سيدي الأمير.

كان يعرف كلمة أمير بالفرنسية تسبقها عادة كلمة أخرى. وكان على حق في هذا. لكنه ما كان يوفق إطلاقاً في معرفة تلك الكلمة.

بلغ باغراسيون وأفراد حاشيته عش مدفعية توشين، في اللحظة التي سقطت قذيفة على مقربة منهم.

سأل المدني بلهجته الساذجة: ماذا الذي وقع؟

فأجابه كركوف: فطائر فرنسية!

ـ آه! رباه! أبهذه الفطائر يقتلون إذن؟ يا للفظاعة!

كان لسانه ينطق بهذه الأقوال بينما جسمه الضخم على استعداد للاهتزاز تحت وطأة ضحكة مدوية. ولم يكد ينجز جملته حتى سقطت قذيفة ثانية يصحبها صفير مريع قطعته صدمة لينة مرنة. وإذا بالقوقازي الذي كان قرب الرجل الضخم إلى الوراء قليلاً، يهوي مع جواده محطمين. انحنى جركوف والضابط الركن على عنقي جواديهما وابتعدا بهما. أما المدني، فقد أوقف جواده وراح يتفحص القوقازي بنظرة متطفلة: كان الرجل قد فارق الحياة بينما كان الحصان لايزال يتخبط في النزع الأخير.

ألقى باغراسيون نظرة إلى الوراء. ولما شاهد سبب الاضطراب الذي حدث، استدار بلا مبالاة وكأنه يقول: «هل تستحق مثل هذه التفاهات شيئاً من الاهتمام؟» أوقف جواده برزانة الفارس الخبير وانحنى قليلاً ليمتشق حسامه الذي كان بين طيات «فروته». كان السيف من طراز قديم مختلف عما درجت العادة على حمله في تلك الأيام. تذكر پولكونسكي أن سوڤوروف كان قد أهدى سيفه إلى باغراسيون خلال الحرب الإيطالية، فكان لتلك الذكرى

في ذلك الموقف العصيب أثر جميل في النفوس. وفي تلك الأثناء، اقترب صحب الأمير من النقطة التي راح يتأمل منها المعركة الدائرة.

سأل باغراسيون جندي «الحراقة» الذي كان يقوم بواجبه أمام صناديق البارود: من أية «بطارية»؟

كان سؤاله يهدف في حقيقته إلى القول: «آمل ألّا تكون خائفاً». وقد أدرك جندي الحراقات، وهو شاب مشيق القامة، أحمر الشعر، خلف الجدري آثاراً باقية على وجهه، مضى السؤال كما يريده الأمير، فأجابه وهو يأخذ وضعية الاستعداد، بصوت منطلق: من بطارية الكاپتن توشين يا صاحب السعادة!

فأجاب باغراسيون بلهجة متزنة:

حسناً، حسناً.

ثم مر أمام عربات جر المدافع واقترب من المدفع الأخير.

دوى انفجار هائل صم أذنيه وآذان أتباعه بينما كان في طريقه إليه. إن المدفع الرابع كان في تلك اللحظة قد قذف ما في جوفه من حمم. ورأى الأمير وصحبه خلال الدخان الذي ارتفع من حوله، جماعة من المدفعيين يمسكون بالمدفع المنطلق محاولين إعادته إلى مكانه قبل الانطلاق.

وكان المكلف رقم ١، وهو فتى عريض المنكبين مباعداً ما بين ساقيه يمسك بيده الفرشاة المصنوعة من قطع اللباد والمخصصة لتنظيف «سبطانة» المدفع، يقفز جانباً قرب عجلة المدفع، بينما وضع المكلف رقم ٢ في فوهة القطعة القذيفة الثانية وكان توشين ـ وهو قصير القامة كما أسلفنا مربوع الجسم، يندفع إلى الأمام مستنداً إلى حاجز العش، يراقب العدو واضعاً يده على جبهته ليركز أنظاره في النقطة التي يحدق إليها؛ فلم يشعر بدنو الأمير باغراسيون.

ـ صاح توشين بصوته الرقيق الذي كان يسعى لجعله خشناً ما استطاع: أضف خطين آخرين إلى مسافة الرمي وعندئذ سنصيب الهدف!

كان صوته لا ينسجم مع شخصه. مع ذلك فقد صاح بقوة: القطعة الثانية: نار! هيا يا ميدڤيدييف!

استدعاه باغراسيون، فاقترب توشين ورفع إلى حاجز خوذته أصابعه الثلاث بحركة مضطربة غير موفقة، تشبه حركة الراهب عندما يبارك المصلين أكثر مما تبدو تحية عسكرية.

وعلى الرغم من أن وظيفة «بطاريته» كانت محصورة في دك صفوف الجنود الزاحفين فإنه كان يطلق نيران مدفعيته بضراوة على قرية شوينغرابن التي كانت ظاهرة أمامه والتي كانت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتحرك حولها ناشطة.

ولما لم يجد أحداً يمده بالتعليمات حول الهدف ونوع القذائف التي يجب أن يستعملها، لذلك فقد استشار صف الضابط المساعد له واسمه زاخارتشنكو الذي كان يقدره ويحترم رأيه، وقرر أخيراً أن من الأصوب قصف القرية وإشعال النار فيها. فقال باغراسيون على عادته بعد سماعه تقرير ضابط المدفعية: «حسناً. حسناً!» واستغرق في تأمل ساحة المعركة التي كانت ممتدة بأكملها تحت ناظريه، وبدا كأنه يضع خطة ما.

نشط الفرنسيون في التقدم على الجناح الأيمن أكثر من أي خط آخر من خطوط القتال. وكانت نيران البنادق على أشدها في الوادي حيث يجري النهر، على مقربة من الربوة التي كانت سرية كييف معسكرة عليها. وكان صوت الرصاص الملعلع يقبض القلب. أشار الضابط الركن لافتاً انتباه باغراسيون إلى فصيلة من الفرنسيين كانت قد انتهت من التفاف حول الجناح الأيمن الأقصى، ووراء فرسان الدراغون «التنين». وإلى اليسار، كانت غابة غريبة جداً

تقطع الأفق البعيد. أصدر باغراسيون الأمر لسريتين من الوسط بالتوجه إلى الجناح الأيمن لتعزيز قواته. وتجرأ الضابط الركن وأبدى ملاحظته على هذا التصرف مبيناً أن سحب السريتين من الوسط سيجعل «البطارية» دون تغطية لكن باغراسيون التفت إليه وحدّق إلى وجهه بعينيه الكامدتين دون أن يتفوّه بكلمة. وبدا للأمير أندريه أن ملاحظة الضابط الركن سديدة لا يمكن الجواب عنها أو نبذها. لكن في تلك اللحظة، جاء أحد الضباط التابعين يعلن أن: قائد السرية «الكولونيل» التي تحارب في منحدر النهر، يعلم القيادة أن الجيوش الفرنسية التي هاجمته كثيرة العدد، أرغمته على الانطواء إلى حيث يعسكر رماة كييف. فأومأ باغراسيون برأسه وأرسل الضابط على جناح السرعة إلى فرسان الدراغون يحمل إليهم الأمر بالقيام بالهجوم، بينما مضى سيراً على قدميه نحو الجناح الأيمن.

ولم تمض نصف ساعة حتى عاد الضابط التابع يقول بأن الزعيم قائد السرية اضطر للانسحاب إلى الجانب الآخر من الوادي بسبب النيران الكثيفة التي استقبله بها المهاجمون الفرنسيون في حركة انطوائه على موقع رماة كييف، وأنه وجد ذلك الانسحاب أكثر تعقلاً خشية أن يخسر عدداً كبيراً من جنوده دون جدوى. لذلك أرسل قناصة إلى الغابة ينتشرون فيها ليفاجئوا العدو من مراكزهم الجديدة.

قال باغراسيون: حسناً!

لعلع الرصاص بشدة إلى اليسار في الغابة. وفي اللحظة التي ابتعد فيها عن «البطارية». ولما كان الجناح الأيسر بعيداً جداً يتعذر عليه الوصول إليه شخصياً، فقد أرسل جركوف يحمل أمراً للجنرال الذي يقود ذلك الجناح، وهو ذلك الجنرال الذي قدم جنوده إلى كوتوزوف في برونو كما يذكر القراء،

يقضي بالتقهقر بأقصى سرعة إلى وراء الوادي نظراً إلى أن الواقع يدل على أن الجناح الأيسر لن يستطيع الصمود طويلاً أمام العدو.

أما توشين ولواء التغطية فلم يعد يفكر فيهما أحد. لاحظ ﭘولكونسكي، وكان يتابع بمزيد من الاهتمام المواضيع التي كان ﭘاغراسيون يتبادلها مع الضباط القادة والتعليمات التي كان يصدرها إليهم، أن الأمير لم يكن في الحقيقة ليصدر أيّ أمر، بل إنه كان يتعمد إيهام مساعديه وضباطه بأن كل ما كان يحدث بفعل ضغط الظروف وتطوراتها أو بمحض الصدفة أو نتيجة للأوامر التي كان ضباطه يصدرونها لرجالهم، لم يكن خافياً عليه من قبل، بل إنه وقع وسيقع بناء على رغبته ومعرفته التامة به. مع ذلك، وعلى الرغم من أن الأحداث كانت متروكة للظروف دون أن يكون لمشيئته أي أثر فيها، فإن مجرد وجود ﭘاغراسيون كان يعطي نتائج مدهشة بفضل الأسلوب الذي كان يتبعه وشخصيته الموقرة.

كان القادة الذين يلاقونه بوجوه قلقة متقلصة، يتركونه مشرقي الوجه متفائلين. وكان الضباط والجنود يحيونه بهتافات الغبطة عند مروره وقد دبّ النشاط في أوصالهم فجأة، ويجدون متعة كبيرة في إظهار شجاعتهم في حضرته.

الفصل الثامن عشر

بدأوا يجتازون الطريق المتعرج والرصاص يلعلع بشدة عند سفحه الغارق بدخان البارود. عندما وصل الأمير پاغراسيون وحاشيته إلى النقطة القصوى من الجناح الأيمن. وكلما توغلوا في تقدمهم، ساءت شروط الرؤية. لكنهم كانوا يشعرون جميعاً باقترابهم السريع من مكان المعركة الحقيقية. ولم يلبثوا أن التقوا طلائع الجرحى. كان أحدهم حاسر الرأس تغمره الدماء، متكئاً على ذراعي رفيقين له، يشهق ويبصق دماً، ولعل الرصاصة أصابته في فمه أو في حنجرته. وآخر يمشي وحيداً بشجاعة لا مثيل لها، وهو أعزل، يزمجر وهو يرفع ذراعه التي كان الدم ينزف منها على معطفه وكأنه يتدفق من إناء طافح. كان وجهه يدل على الذهول أكثر مما يحمل من معالم الألم ولا شك أنه قد أصيب منذ هنيهة فلم يشعر بعد بالألم.

قطع الأمير وجماعته طريقاً معترضاً ثم أصبح المنحدر شديد الوعورة صعب المسلك. كانت جثث القتلى مبعثرة فوق المنحدر الذي كانت جماعة من الجنود تتسلقه بصعوبة بالغة، لاهثة الأنفاس، دون أن يكونوا جميعهم مصابين بالجراح. ولم يمنعهم التقاؤهم الجنرال من إلقاء المواعظ وتحريك الأطراف تبعاً للحديث. وإلى الأمام، كان الأمير وجماعته في وضع يساعدهم على تميز صفوف من ذوي المعاطف الرصاصية اللون.

ولما أطل پاغراسيون، أسرع أحد الضباط يقطع الطريق على الهاربين، يأمرهم بالعودة إلى صفوف المعركة. اقترب پاغراسيون من الصفوف حيث

أزيز الرصاص يطغى على أصوات الأوامر والصيحات. كان الهواء مشبعاً بالدخان والجنود منقلبي الوجوه وقد تراكم دخان البارود ورشاشه على وجوههم فسوّدها. وكان بعضهم يحشو بندقيته مستعيناً بعصي خاصة، والبعض الآخر يضع «الكبسولات» في أماكنها ويخرج الرصاص من جيب الذخيرة الجلدي المتدلي إلى نطاقه، بينما كان الفريق الآخر يتولى مهمة إطلاق تلك البنادق. ولكن على من كانوا يطلقون؟ ذلك ما لا يمكن معرفته لأن الدخان الكثيف كان يقف حائلاً دون رؤية الأبعاد وخصوصاً أن الريح كانت هادئة، مما ساعد الدخان الكثيف على البقاء على ارتفاعه الخفيض فوق الرؤوس.

ومن حين إلى آخر، كان نوع من الصفير أو الدندنة المكتومة يطرق الأسماع. راح الأمير أندريه يتساءل وهو يقترب من القطعة المحاربة: «ما هذا على وجه الضبط؟ إنه ليس هجوماً لأن الجنود كانوا جامدين في أماكنهم، وليس تشكيل مربعات منظمة. لقد كان الأمر خلافاً لكل ذلك».

كان رئيس السرية وهو زعيم عجوز هزيل، تضفي أجفانه نصف المغلقة على وجهه طابع الدماثة والحلم. اندفع بجواده إلى حيث كان پاغراسيون واستقبله بما يليق به من حفاوة، أشبه بصاحب بيت كريم عندما يحتفي بضيف رفيع الشأن. أطلع الأمير على أن سريته تعرضت لهجوم من قبل الخيالة الفرنسية، فصدت الهجوم لكن سريته خسرت نصف تعدادها من الرجال على أقل تقدير. ولجأ الزعيم في بيانه عن صد هجوم الفرسان إلى تعبير فني ليبين ما وقع في سريته من الأضرار، والحقيقة أنه كان يجهل كلياً مدى الأضرار التي لحقت برجاله خلال نصف ساعة وما وقع أثناءها، وهل صمدت للمهاجمين أم تنحت لهم عن مراكزها.

كل ما كان يعرفه هو أن القذائف والقنابل راحت تمطر بغزارة على

سريته عند بدء المعركة، فقد عُشر رجاله، وراح بعضهم يصيح بعد ذلك قائلاً: «الخيالة!»، فراح الروس يطلقون النار وما زالوا يطلقون نيرانهم باستمرار وإن لم تكن في تلك اللحظة على الفرسان الذين تراجعوا قبل ذلك، بل على المشاة الذين اقتربوا من الوادي دون أن يقتصدوا هم الآخرون برصاصهم وبارودهم. أومأ باغراسيون برأسه إشارة يفهم منها أن كل شيء قد وقع طبقاً لما كان يتوقعه. ثم التفت إلى ضابطه المساعد وأمره أن يصعد إلى قمة التل فيأتي بالسريتين التابعتين لفرقة القناصة السادسة، اللتين مر بهما منذ قليل. بدا على وجه باغراسيون تحول مفاجئ دهش له الأمير أندريه. كانت قسماته في تلك اللحظة توحي بالعزم المركز شأن الرجل الذي قرر أخيراً القفز إلى الماء للخلاص من حرارة يوم قائظ. اختفت نظرته الجامدة الخاملة وتبدد ذلك المظهر الخداع الذي كان يسلكه في عداد المفكرين الهادئين المتعمقين، واتقدت عيناه ببريق حماسي مشبع بالازدراء، فحاكت عيناه المستديرتان القاسيتان عيون الجوارح التي تهم بالانقضاض على الفريسة غير عابئة بكل ما حولها. وراح باغراسيون ينظر إلى الأمام محدقاً غير مكترث لما يدور حوله. كان هذا التحول المفاجئ متنافياً مع الهدوء المتزن الذي كان يرافق حركاته من قبل تنافياً غريباً.

أخذ قائد السرية يتوسل إلى باغراسيون بالابتعاد لان المكان شديد الخطورة. وكان يكرر قوله: «رحماك يا صاحب السعادة، ناشدتك الله»، ويبحث عن عينيه، بأنظاره محاولاً التقاءهما علّ الأمير يقرأ في عينيه ما يهيب به أن يبتعد عن المكان. لكن باغراسيون كان شاخص البصر إلى الأمام فلم يكن يسمع قول الزعيم ولا تأييد الضابط الركن له، أخذ الزعيم على الأمير قائلاً: «رباه، تبين ما حولك أرجوك»، ويحاول لفت اهتمامه إلى الرصاص

الذي كان يئز فوق الرؤوس ويصفر. كانت لهجته مشبعة بإصرار البنّاء المتذمر الذي يريد أن يمنع «معلمه» من استعمال فأسه الخاصة.

كان يقول: «إن هذا ليس من عملك يا صاحب السعادة، إننا بلونا هذا العمل فألفناه أما سعادتك فإنك لن تربح من ذلك إلا إصابات وجروحاً». كان من يصغي إلى حديثه يكاد يظن أن تلك الرصاصات المتطايرة المنتشرة في كل مكان حوله، عاجزة عن الإضرار به ومسه بسوء، وكانت عيناه نصف المغلقتين تضفيان على حديثه نوعاً من القناعة الصارخة. وانضم مندوب الأركان العامة إلى الزعيم مؤيداً. فكان كل رد باغراسيون أن أصدر أمراً بالتوقف عن إطلاق الرصاص وبانسحاب الأحياء من سرية الزعيم لتحل محلهم السريتان الجديدتان. وفي تلك الأثناء هبت الريح فأزاحت ستار الدخان الكثيف إلى اليسار وكأن أيدياً خفية دفعته بعنف في ذلك الاتجاه؛ وانكشفت لنظر باغراسيون وصحبه الرابية المقابلة وقد غطاها الجنود الفرنسيون الزاحفون، اتجهت الأنظار كلها بصورة عفوية إلى ذلك الحشد الزاحف.

كان العدو يسير في خطوط ملتوية على الطريق الدائرية. كان الناظرون يميزون القلانس ذات الريش بل يفرقون بالعين المجردة بين الضابط والجندي، ويرون بوضوح العلم الذي كان يخفق على الصارية.

قال واحد من الأتباع ملاحظاً: إنهم يسيرون سيراً حسناً منظماً.

بدأت مقدمة الزاحفين تنحدر إلى الوادي فكان تقابل الفريقين متوقعاً عند سفح المراكز التي يحتلها الروس. عادت فلول السرية المشتتة إلى الاصطفاف بسرعة والانسحاب إلى اليمين باتجاه المؤخرة، دافعة أمامها والمتخلفين من الجنود؛ واقتربت سريتا فيلق القناصة السادس بنظام دقيق. بدأ وقع أقدامهم الثقيل يتردد ويصك المسامع بإيقاع موزون رتيب تشترك فيه أقدام القادمين دون استثناء. وصل الجنود الجدد إلى المستوى الذي كان يقف

فيه باغراسيون، فكانت السرية اليسرى أقرب من الأخرى إلى حيث وقف الأمين. فأتيح لمرافقيه رؤية قائدها الشاب الوسيم الذي عرف فيه پولكونسكي ذلك الضابط الذي أفلت راكضاً من كوخ توشين عند انفجار القذيفة الأولى. كان وجهه المستدير مطبوعاً بطابع البلاهة والغبطة معاً. ولعل سعادته في تلك اللحظة كانت تعود إلى شرف استعراضه من قبل الأمير وهو على رأس فرقته.

لم يكن إحساس الجنود الآخرين ليختلف عن مشاعر ذلك الضابط الشاب. كان ذلك الضابط يراقب حركاته ووضعيته ولا شيء سواهما، فكان منصرفاً بكليته إلى هذه الجهة. يرفع ساقيه القويتين دون أن يبذل أي عناء، شأن العسكري المحترف، ويضرب بقدميه الأرض حتى ليخيل إلى الناظر إليه أنه يسبح في بركة ماء ويطفو عليها جسده، فكانت مشيته الرشيقة غير منسجمة مع إيقاع أقدام الجنود الذين كانوا يسيرون على هدي مشيته. وكان يتدلى إلى منطقته سيف بدون غمد رقيق النصل ضيقه ـ وهو واحد من تلك السيوف المحدودبة التي لا تشبه الأسلحة في شيء، ويدير ناظريه نحو رؤسائه حيناً وإلى الوراء صوب جنوده أحياناً، وهو يلوح بساعديه القويين فيترجح جسمه المتين على إيقاعها. كان يبذل كل قواه ليبدو العرض الذي يرأسه في أوج الدقة والانسجام. وبدون شك إنه كان سعيداً لنجاحه في مسعاه وفوزه في أداء واجبه على أكمل وجه، فكان مظهره يوحي بأنه يهتف بانتظام: «شمال... شمال... شمال...» وهو يدق الأرض بيسراه فيتحرك الجدار الحي وفق ذلك الإيقاع الرتيب.

وهكذا كانت تسير مئات من النفوس، رجال ذوو وجوه صارمة متشابهة رغم اختلاف مشاربهم، حنوا ظهورهم تحت ثقل أكياسهم العسكرية وبنادقهم، بدا كل منهم مستجيباً أثر كل خطوة إلى النداء الخفي المتردد بانتظام: «شمال... شمال... شمال...».

بهرت أنفاس ضابط سمين برتبة ماجور، وفقد الإيقاع المنظم، فاستدار حول دغل صغير ليصحح من خطوه، ركض جندي متعب متخلف أجفل رعباً من تأخره، فالتحق بسريته راكضاً منتظماً في الصف الأخير. وسقطت قذيفة مرت فوق رأس باغراسيون قبل أن تنقض على السرية المتحركة، فأحدثت أضراراً جسيمة. غير أن الجدار المتحرك لم يتوقف ولم يضطرب في مشيته الإيقاعية: «شمال... شمال...» ... وكل ما في الأمر أن الضابط الوسيم أصدر أمره قائلاً: «تراصوا!». كان لصوته وقع بالغ، فراح الجنود يرسمون قوساً حول المكان الذي سقطت فيه القذيفة ليعودوا إلى نظامهم الرائع بعد تخطي ذلك العائق غير المنتظر.

تخلف أحد رؤساء الفصائل، وكان صف ضابط مسناً يزين صدره بالأوسمة، ليحصي عدد القتلى والجرحى، وما لبث أن أسرع يلتحق بالسرية في مكانه المقرر على الجناح، فبدل خطوته لتنسجم مع الإيقاع، واندمج كلياً مع السائرين وهو يلقي وراءه نظرات غاضبة. وعاد وقع الخطى: «شمال... شمال...» يتردد مجدداً معكراً السكون الثقيل الكثيف الذي كانت الخطى الإجماعية الرتيبة تقرع الأرض فتبدده.

قال الأمير باغراسيون للجنود: هيا يا أبنائي، تصرفوا تصرف الأبطال البواسل.

فأجاب الجنود بصوت واحد: سنعمل كلّ ما في وسعنا يا صاحب السعادة!

وبينما كانوا جميعاً، حدج أحدهم ـ وهو فتى عابس الوجه كان يسير إلى اليسار ـ الأمير باغراسيون بنظرة قاتمة، وكأنه يقول: «إننا نعرف ما يجب، يا للشيطان!». وكان آخر يصيح ملء حنجرته هاتفاً دون أن يدير رأسه إلى حيث كان الأمير، وكأنه يخشى أن ينسيه ذلك انتظام خطواته مع المجموعة السائرة.

صدرت الأوامر بالتوقف وبنزع الأكياس عن الظهور.

استعرض باغراسيون الصفوف ثم ترجل عن جواده وسلم أعنته إلى أحد القوقازيين بينما ألقى «بفروته» إلى قوقازي آخر، وحرك ساقيه ليعيد إليهما النشاط وسوّى من وضع قلنسوته. كانت الكتيبة الفرنسية الزاحفة وعلى رأسها ضباطها قد بلغت في تلك اللحظة حدود المنحدر.

دوى صوت باغراسيون الحازم آمراً: إلى الأمام وبعناية الله!

واستدار لحظة نحو جنوده، ثم رفع ساقه اليسرى، وهي ساق فارس لم يحسن قط السير المنظم، وضرب بها الأرض متقدماً، ملوحاً بذراعه، وراح يتقدم نحو العدو فوق أرض مليئة بالحفر، شعر الأمير أندريه بقوى خفية تدفعه إلى الأمام، فاندفع لاحقاً بالأمير باغراسيون والسعادة ملء إهابه.

كانت تلك المعركة هي التي قال عنها تيير[1]: «لقد تصرف الروس ببسالة. وقد شوهدت في تلك المعركة، الأمر الذي يندر وقوعه في الحروب، كتلتان من المشاة تسير كل منهما بحزم وتصميم نحو الأخرى، دون أن تتفكك وحدة صف إحداهما قبل التقائها الأخرى». وكتب نابليون عن هذه المعركة في القديسة هيلين، منفاه، «لقد أظهرت بعض القطعات الروسية شجاعة خارقة».

وصل الفرنسيون إلى مسافة قريبة جداً، واستطاع بولكونسكي الذي كان يسير إلى جانب باغراسيون أن يرى بوضوح حمالات أسلحة الجنود والأشرطة الحمراء التي تزين الأكتاف والوجوه أيضاً. ولاحظ كذلك أن ضابطاً فرنسياً ذا ساقين ملتويتين، يتسلق المرتفع بمشقة بالغة. لم يصدر باغراسيون أي أمر بل ظل في تقدمه بخطاه المنتظمة على رأس الجنود. وفجأة انطلقت رصاصة من صفوف الفرنسيين أعقبتها ثانية فثالثة،... ولعلع الرصاص على طول صفوفهم

(١) مؤرخ وسياسي فرنسي، مؤرخ تاريخ الثورة الفرنسية (المترجم).

المتفرقة بين سحب من الدخان الكثيف. سقط بعض الجنود الروس، وكان الضابط الوسيم الذي كان منذ حين يسير على رأس جنوده يستخفه الفرح، فيضبط الإيقاع بنظام مكين، في عداد الساقطين. وكان پاغراسيون، إثر انطلاق الرصاصة الأولى، قد توقف والتفت إلى جنوده وصاح بصوت قوي: هورّا!

فرددت الحناجر كلها مثل ترديد الصدى: هورّا... آ...آ!

واندفع الجنود يتخطون الجنرال ويتدافعون، بالحيوية والحماسة، فانحدروا إلى أسفل التل دون نظام، وارتموا على الفرنسيين الذين تبعثرت صفوفهم بالمثل.

الفصل التاسع عشر

سمح هجوم فيلق القناصة السادس بانسحاب منظّم للجناح الأيمن، بينما كانت مدفعية توشين المغفلة، حتى تلك اللحظة، تعرقل تقدم الفرنسيين على الخطوط الوسطى لأنهم اضطروا إلى الانشغال بإطفاء الحريق الذي أحدثته مدفعيته في القرية، مما أعطى الروس الفرصة المناسبة للانطواء. وتم الانسحاب عبر الوادي بسرعة صاخبة ولكن دون أن تكتسح البلبلة والفوضى صفوف الجنود. وفي المقابل، فقد شتت «لانّ[1]» الجناح الأيسر الذي كان يضم فيالق كييف وبودولي وفرسان الدراغون. فقد كانت القوة التي تحت إمرته، متفوقة بالعدد والعُدد على الروس، فهاجمتهم وطوّقتهم من كل جانب. فأرسل پاغراسيون الضابط المساعد جيركوف ليحمل الأمر إلى قائد تلك الفيالق ـ وكان برتبة جنرال ـ بالانسحاب فوراً.

وبدون تردد اندفع جركوف، ويده ملتصقة بحاجز قلنسوته بتحية محترمة، يحث جواده باتجاه الجناح الأيسر. لكنه لم يكد يغيب عن أنظار پاغراسيون حتى خانته قواه واستحوذ عليه خوف قاتل، جعله يذهب للبحث عن الجنرال وزملائه القادة في الأماكن التي لا يمكن أن يكونوا فيها، متنكباً المكان الذي كانت أصوات الرصاص والقذائف تشق فيه كبد السماء. وهكذا، لم يبلغ الأمر بالانسحاب!

كانت قيادة الجناح الأيسر مناطة بفعل القدم بالجنرال الذي قدم قواته

---

(١) مارشال فرنسي ساعد بوناپرت في انقلابه وتنصيبه أمبراطوراً. (المترجم).

لكوتوزوف قرب برونو، حيث كان دولوخوف في تلك الأثناء جندياً بسيطاً بعد أن عوقب بنزع رتبة الضابط التي كان حاصلاً عليها. وكان أقصى الجناح يأتمر بأمر كولونيل پاڤلوغراد وهو الفيلق الذي يضم في عداده الكونت روستوف.

فكان التناحر بين القائدين سبباً في حدوث سوء تفاهم مدمر، لأن كلاً منهما كان شديد الحقد على الآخر. وبينما كانت العمليات دائرة بنشاط على الجناح الأيمن، والفرنسيون على وشك التحول إلى الهجوم على الجناح الأيسر وفق خطة آنية، كان القائدان المتنافسان منهمكين في جدال ونقاش لم يكن في جوهرهما إلا تبادل عبارات التقريع. أما قطعاتهما، فإنها لم تكن معدة أعداداً كافياً للقتال، وخصوصاً أنهما لم يكونا يتوقعان قتالاً في ذلك اليوم بالذات.

فكان الضباط والجنود منصرفين إلى أعمالهم العادية السلمية، بين فرسان يقدمون العلف لخيولهم ومشاة يجمعون الحطب للوقود.

قال الزعيم قائد الفرسان لضابط تابع للجنرال، ووجهه شديد الاحمرار من الغضب: أنا أعترف بأنه أقدم مني رتبةً فليعمل ما يشاء. لكنني لن أسمح له بالتضحية بفرساني. أيها البوّاق، اقرع نداء الانسحاب!

كان الموقف شديد الحرج، والسرعة الكلية متطلبة ولازمة. فالمدفعية العدوة وطلقات البنادق كانت تتدخل وتمتزج محدثة دوياً مريعاً إلى اليمين وفي الوسط، ومعاطف المشاة الفرنسيين التابعين للماريشال «لانّ» أصبحت واضحة وقد بلغ لابسوها سدّ المطحنة القريبة ووجهتهم الجناح الأيسر. وبات العدو على صف مرمى البندقية فقط.

فمضى قائد المشاة بمشيته المترددة، إلى جواده فاعتلاه، واتَّجه مرفوع الجذع، إلى زعيم پاڤلوغراد. وتقابل القائدان بعد أن تبادلا تحية مهذبة لم تخل

من غضب عنيف يحاول كل منهما حجبه، وقال الجنرال: اسمع يا كولونيل، لن أستطيع إبقاء نصف رجالي في الغابة دائماً. فأرجوك، هل تسمع، أرجوك أن تهاجم وأن تحتل المكان الملائم في المعركة.

فأجاب الزعيم محتداً: وأنا أرجوك ألّا تتدخل فيما لا يعنيك. لو كنت فارساً...

- إنني أيها الكولونيل في رتبة جنرال دون أن أكون فارساً. وإذا كنت تجهل ذلك...

فصاح الكولونيل وقد أصبح وجهه بلون الدم: أعرف ذلك تماماً يا صاحب السعادة. تفضل وتنازل بمرافقتي إلى الخطوط الأولى وسترى أن المكان الملائم الذي تتحدث عنه لا يجدي نفعاً. لن أضحي برجالي لأرضيك أنت.

لقد نسيت نفسك يا كولونيل. أنا هنا أفكر في كل شيء إلا رغبتي ورضائي. لذلك فإنني لا أسمح لك بالتكلم على هذا النحو. لكز الكولونيل جواده، فتقبل الجنرال التحدي، وعطف جذعه وزوى بين حاجبيه، وتقدم مع غريمه إلى الخطوط الأولى، وكأن خلافهما لا يمكن أن يحسم إلا هنا، تحت وابل المقذوفات النارية. وبينما هما في طريقهما إلى المراكز الأولية، مرت بعض رصاصات إلى جانب رأسيهما، فتوقفا دون أن يتفوها بكلمة. لم يجدهما تفحص الساحة والأماكن التي تدور فيها المعركة فتيلاً.

لقد كان واضحاً لهما، في المكان الذي كانا فيه من قبل، أن هجوم الفرسان متعذر بسبب الأدغال والوديان والمنحدرات، ولأن الفرنسيين كانوا يقومون بحركة التفاف حول اليسار. فراح الجنرال والكولونيل، يتبادلان نظرات صارمة مفعمة بالخطورة، وكل منهما يترقب عبثاً أن تبدر عن الآخر أية بادرة تدل على الخوف أو التخاذل، أشبه بديكين شرسين قبل المعركة.

اجتاز كل منهما الامتحان بنجاح، فلم يجد أحدهما ما يقوله للآخر، وكان كل منهما يتجنّب ما استطاع، أن تبدر عنه بادرة أو حركة يستدل الآخر منها على رغبته في مبارحة خط النار قبله. وكانا على استعداد للبقاء وقتاً طويلاً في مكانهما يختبران شجاعتهما المشتركة، لو لا أن انفجرت في الغابة وراءهما مئات من طلقات البنادق رافقها ضجيج وصياح. كان الفرنسيون قد انقضوا في تلك الأثناء على جنود روس يجمعون الحطب للوقود! كانت فرصة الفرسان في الانطواء مع المشاة والانسحاب قد فاتت. وكان خط انسحابهم قد قطعه العدو من اليسار، فكان عليهم أن يشقوا لأنفسهم طريقاً بالقوة بين صفوف العدو في أرض لا تصلح لجري الخيل.

وجدت كوكبة روستوف الوقت الكافي لجمع الصف والصمود في وجه العدو. وعادت ظروف جسر «الأنز» تمثل في تلك اللحظة، إذ لم يكن بين المتحاربين من المعسكرين شيئاً يفصلهما إلا ذلك الخط المجهول المخيف والرعب، ذلك الخط الذي يشبه الخط الذي يفصل بين الأموات والأحياء. كان كلّ من جنود الفريقين يشعر بذلك الخط الخفي ويتساءل متردداً هل يجتازه أم لا، كيف السبيل إلى الإقدام والإحجام.

أسرع الكولونيل، فأجاب غاضباً عن أسئلة ضباطه الذين أقبلوا عليه مستفسرين، وألقى بعدد من الأوامر الغامضة، شأن الرجل الذي يتمسّك بيأس مريع بعقليته ورأيه. وعلى الرغم من أن أمر الهجوم لم يؤكده أحد، فإن الإشاعة راجت بين الصفوف مؤكدة أن الفرسان يقومون بالهجوم. وصدر الأمر:

ـ اس... تعد!

وأعقب ذلك صليل السيوف وقد أشهرت من أغمادها. لكن الأمر بالتقدم لم يصدر حتى تلك اللحظة، فلم يتحرك أحد قيد أنملة. كانت قطعات الجناح الأيسر كلها، بين فرسان ومشاة، تشعر أن الضباط أنفسهم عاجزون

عن معرفة ما ينبغي عمله في ذلك الموقف، فسرت عدوى تردد الرؤساء إلى الأفراد أنفسهم.

أخذ روستوف يحدث نفسه وهو يرى أن اللحظة التي سيختبر فيها لذة الهجوم التي طالما حدثه زملاؤه عنها قد أزفت: «ليقع ذلك بسرعة! بسرعة!».

صاح دينيسوف فجأة: بعناية الله أيها الفتيان، خبباً سر!

تماوجت أعناق خيول الصف الأول، وجذب الحصان «شوكا» العنان ومضى تلقائياً. رأى روستوف على مسافة من صفوف الفرسان الأولى، خطاً أدكن قائماً إلى اليمين، لم يتبين معالمه تماماً، لكنه قدر أن يكون هو العدو. كانت أصوات البنادق تسمع بوضوح وإن كانت بعيدة بعد. وعلا أمر جديد: خبباً سريعاً سر!

أحسّ روستوف أن «شوكا» قد مالت مؤخرته ومضى هدباً، فكان مغتبطاً لتتبعه حركات جواده ومعرفة مؤداه ونتائجها، وازداد انشراحه. شاهد شجرة ضخمة منتصبة بعناد على طريقه، وكانت تلك الشجرة تحتل منتصف ذلك الخط القائم الذي كان يعتقد أنه العدو. وها هو قد اجتاز ذلك الخط المخيف فلم يشعر بالرعب ولا بالخوف بل على العكس: ازداد اطمئنانه فراح يتمتم وهو يضغط على مقبض سيفه: «آه، سوف أعمل فيهم طعناً وتقتيلاً!».

انبعث هتاف «هورّا» مدوياً. فحدث روستوف نفسه: «هيا ليصدفوني الآن أياً كانوا!»، ولكز جواده بمهمازيه فاندفع «شوكا» يسابق الريح ويبتعد عن كل الفرسان. وفجأة ظهر العدو، وتساقط على الكوكبة وابل من الرصاص أشبه بلسعات سوط ذي شعب. رفع روستوف سيفه متأهباً للضرب، وفي تلك اللحظة انفصل عنه فارس آخر كان قد خرج عن الصفوف مثله وسار معه في المقدمة، اسمه نيكيتنكو، وشعر روستوف بأنه محمول باندفاع سرعة وهمية ومسمّر في مكانه في آن واحد، وكأنه في حلم مخيف. واصطدم به الفارس

بوندارتشوك الذي يتبعه، فألقى عليه نظرة غضبى، وجمح جواده ثم مضى مبتعداً.

«ولكن ماذا بي لا أتحرك؟» تساءل روستوف وجاءه الجواب على الفور: «لقد سقطت، لقد مت». أصبح وحيداً في ساحة المعركة، فلم يعد يرى غير الأرض الساكنة وعليها أكواخ مبعثرة، وغابت عن أنظاره الخيول الراكضة وفرسانها المنحنون على ظهورها. شعر بدم حار يغسل جسده فقال يحدث نفسه: «كلا، إنني لست جريحاً، إن «شوكا» هو الذي قتل». والواقع كان كذلك. فقد حاول «شوكا» النهوض على قائمتيه لكنه لم يفلح، وعاد يسقط مجدداً ساحقاً تحت ثقله ساق فارسه.

كان رأس الجواد مخضباً بالدم وكان الحيوان يتخبط دون أن يستطيع الوقوف على قوائمه. أراد روستوف أن ينهض ولكنه أخفق بالمثل لأن جزءاً من ثوبه كان مشبكاً بالسرج. أما أين مضى الجنود الروس؟ وأين الأعداء في تلك اللحظة؟ ذلك ما كان يجهله لأنه لم يكن يرى أحداً حوله.

تمكن من تخليص ساقه والنهوض بعد عناء مضن. راح يتساءل: «في أية جهة يقوم ذلك الخط الذي كان يفصل بين الجيشين؟» لكنه أخفق في الإجابة عن ذلك السؤال. عاد يناجي نفسه بقلق: «ألا يحتمل أن يكون قد وقع لي حادث مؤسف؟ هل ينتظر أن يقع مثل ذلك الحادث؟ وإذا وقع فكيف أتصرف؟» كان سبب هذا التساؤل ما لاحظه على ذراعه اليسرى المشلولة من ثقل إضافي في وزنها. كانت يده تبدو غريبة، غريبة عنه. مع ذلك راح يفتش عبثاً عن آثار الدماء.

شاهد فرقة من الرجال يقودها رجل يرتدي معطفاً أزرق ويضع على رأسه قلنسوة غريبة، أسمر الوجه غامق اللون أقنى الأنف فصاح مستبشراً: «آه! أخيراً لقد أقبل بعضهم! سوف يغيثونني!» كان ذلك الرجل متبوعاً باثنين فقط

ثم ما لبث أن انضم إليه عدد آخر كبير. كان أحد القادمين يغمغم أقوالاً لم تكن في نبراتها تشبه اللغة الروسية. وكان أولئك الذين يتبعون الثلاثة المتقدمين، قابضين على فارس روسي كانوا يقودون جواده من أعنته.

فكرّر روستوف: «لا شك أنه واحد من جنودنا وقد أخذ أسيراً... نعم، إن الأمر كذلك... هل سيأخذونني أنا الآخر؟... ولكن من هم هؤلاء؟... أهم الفرنسيون؟... مستحيل!» كان يرى الفرنسيين يقتربون منه وكان يحس، وهو الذي كان يحترق للقيام منذ حين، برعب طاغ كلما ازدادوا دنواً حتى أنه لم يعد يصدق عينيه. «ترى من هم هؤلاء؟... ولماذا يركضون؟... هل يتجهون نحوي؟... هل سيقتلونني؟... يقتلونني أنا الذي يحبني كل الناس؟» راح يفكر في حب أمه له وعطف أسرته عليه وفي أصدقائه المخلصين فبدا له مستحيلاً أن يعمد العدو إلى قتله «ولكن، ما العمل إذا كانت تلك هي غايتهم؟» لبث جامداً أكثر من عشر ثوان دون أن يفقه عن الموقف شيئاً. كان الفرنسي المتقدم، ذو الأنف الأقنى، شديد القرب من روستوف حتى أن هذا كان يستطيع تمييز تقاطيع وجهه. كانت سحنة هذا الرجل المتقلصة وهو ينقض عليه وحربته على فوهة بندقيته، قد أحدثت في نفس روستوف هلعاً شديداً فأشهر مسدسه ولكن بدلاً من أن يطلقه على الفرنسي، رماه به ومضى يعدو هارباً نحو الأدغال، وكأنه أرنب بري وفي آثاره كلاب الصيد.

لم يكن في تلك اللحظة متقداً حماسة للقتال كما كان شأنه في معركة جسر «لينز»، بل كان الرعب القاتل مستولياً على كيانه كله. الرعب من فقد حياته، تلك الحياة الفتية الحافلة بالبهجة والمرح. راح يركض عبر الحقول ويقفز فوق الحفر فيتخطاها، بمثل الاندفاع الذي يحرّك اللاعب الذي يحاول الفوز في مسابقة الحواجز. كان يلتفت بين الحين والحين بوجهه البريء الفتي الذي كساه شحوب الموت، فتجتاح فقرات ظهره قشعريرة باردة ويخاطب

نفسه بقوله: «كلا، من الخير لي أن لا ألتفت». لكنه قبل أن يبلغ الدغل، التفت مرة أخرى. كان قد أصبح بعيداً عن الفرنسيين، ورأى في تلك اللحظة، الرجل الذي كان في المقدمة، يسرع الخطى وينادي زميلاً له بصوت جهوري. توقف روستوف وقال لنفسه: «كلا، لا شك إنني مخطئ، يستحيل أن يكونوا راغبين في قتلي!» شعر أنه عاجز عن السير إلى أبعد مما سار إليه، لأن ذراعه اليسرى أصبحت شديدة الثقل وكأن ثلاثين رطلاً قد أضيفت إلى زنتها الطبيعية. كان الفرنسي قد توقف بالمثل وسدّد بندقيته إليه. فأغمض روستوف عينيه وانحنى على الأرض وانطلقت رصاصة ثم أخرى مرتا فوق رأسه تصفران. فاستجمع آخر قواه، وحمل ذراعه اليسرى بيده اليمنى ومضى راكضاً متوغلاً في الدغل حيث كان القناصة الروس منتشرين فيه.

الفصل العشرون

بدأت سرايا المشاة تفرّ أمام العدو بدون انتظام وقد هوجمت في الغابة على غير توقّع، واختلطت الفصائل والوحدات فأصبحت شبيهة بقطعان الماشية. أطلق أحد الجنود، في جنون الرعب الذي استولى عليه، صرخة سخيفة ضمنها جملة مرعبة شديدة الوقع في الحروب: «لقد قُطع خط تراجعنا!».. فأحدثت هذه الكلمات الغبية رعباً وذعراً شديدين في الصفوف، وانتشرت بين الجنود انتشار النار في الهشيم. فراح الفارون يصيحون:

ـ أحيط بنا! لقد طوقنا! لقد ضعنا!

وجاء الجنرال، الذي بلغت أصوات الرصاص مسامعه، مسرعاً من الخطوط الخلفية، وقد وصل في تلك اللحظة، فظنّ أن خطباً جللاً قد وقع في سريته. أقلقه أن يُعزى إليه، وهو الضابط القديم المثالي، إهمال في القيادة أو خطأ فيها. وبلغ من اضطرابه أن نسي عصيان «كولونيل» الفرسان ونسي كرامته كجنرال، فثبّت نفسه فوق السرج واندفع بحصانه غير مبال بالخطر.

اخترق ستاراً كثيفاً من الرصاص المتطاير دون أن يصاب بأذى. كان جلّ همه منصرفاً إلى شيء واحد: معرفة ما يدور في تلك اللحظة بين رجاله مهما غلا الثمن، وإصلاح الوضع وإنقاذ نفسه والترفع بها عن مزالق الخطأ وهو الذي أمضى اثنين وعشرين عاماً في الخدمة دون أن يتعرض لأي نقد.

وصل إلى حدود الغابة التي كان جنوده ينحدرون منها بعد أن اخترق صفوف الفرنسيين دون أن يصاب بأذى، متصامين عن سماع الأوامر. كان

ذلك الموقف، من تلك الفترات النادرة التي تنتصر فيها البلادة الفكرية وعدم الرويّة على الرصاص المتطاير. فهل كانت تلك الشراذم المتداخلة المضطربة من الرجال تصغي إلى أوامر رئيسها وتلبي نداءه أم أنها ستلقي عليه نظرة لا مبالاة وتستمر في فرارها؟ كان الجانب الأخير من هذا التساؤل هو الأكثر توقعاً.

ذلك أن الجنود، رغم نبرات ذلك الصوت الآمر الذي طالما خافوه ورغم ذلك الوجه المصطبغ بحمرة قانية لاندفاع الدماء الثائرة فيه، ورغم تهديدات السيف المشرع، وقسمات ذلك الوجه العاتي، ظلوا في فرارهم، يطلقون النار في الفضاء ويتصايحون ويرفضون الانصياع للأوامر. لقد كان اتجاه التردد النفسي منصباً نحو الذعر.

استمر الجنرال يصرخ حتى بحّ صوته، وامتلأت حنجرته بدخان البارود المحترق، فوقف يائساً تماماً. بدا له أنه فقد كل شيء. ولكن فجأة، ودون سبب ظاهر، استدار الفرنسيون الذين كانوا يطاردون الهاربين، وغادروا حدود الغابة التي ظهرت عليها بما يشبه المعجزة، فصيلة من القناصة الروس. كانت تلك الفصيلة، فصيلة تيموخين هي وحدها التي حافظت على النظام في صفوفها، فكمنت في الغابة حتى إذا بلغ العدو مقربة منها، انقضت عليه فجأة، وكان أن ارتد العدو مأخوذاً بالمفاجأة. وكان تيموخين مسلحاً بسيفه الصغير فقط، فارتمى على الفرنسيين. بجرأة السكير الجنونية، وراح يطلق صرخات مرعبة مروعة، حتى إن هؤلاء لم يجدوا الوقت الكافي لتعرف أوضاعهم، فألقوا ببنادقهم على الأرض وولوا الأدبار.

وكان دولوخوف في تلك اللحظة متجهاً نحو تيموخين. فقتل فرنسياً في طريقه من مسافة جد قريبة، وكان أول من أطبق على عنق ضابط فرنسي وأخذه أسيراً. وكان لهذه المفاجأة وقعها، فارتد الهاربون وعادت صفوفهم

تنتظم، وبذلك رُدّ العدو الذي كان يقطع الجناح الأيسر إلى قسمين، على أعقابه موقتاً. وهكذا اجتمعت القوات الاحتياطية التي بقيت قريبة في متناول يد الجنرال وعاد الفارون إلى صفوفهم.

كان الجنرال پاغراسيون مصحوباً بالماجور إيكونوموف يشرف بنفسه قرب الجسر على انسحاب قطعات جيشه. وفجأة رأى جندياً يقترب منه فيمسك بركابه ويعتمد بجسمه عليه. كان ذلك الجندي مرتدياً معطفاً حائل اللون ميالاً إلى الزرقة من قماش ثمين، ولم يكن يحمل كيسه ولا قلنسوته. لكنه كان يتمنطق بجيب عتاد فرنسي ويحمل في يده سيف الضباط. كان شاحب الوجه معصوب الرأس، يحدج رئيسه بعينين زرقاوين تشع منهما نظرة صافية، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة. وعلى الرغم من شدة انصراف الجنرال إلى إصدار أوامره إلى الماجور المرافق، فقد تحوّل اهتمامه إلى ذلك الجندي غريب المظهر.

قال دولوخوف بصوت متقطع وهو يعرض جيب العتاد الجلدي والسيف: هاتان غنيمتان يا صاحب السعادة وقد أسرت ضابطاً... والفضل لي في صمود سريتنا وجميعهم يشهدون لي بذلك. فأرجو أن تتفضل سعادتك بتذكر ذلك.

فقال الجنرال: حسناً، حسناً.

وأراد العودة إلى إصدار أوامره للضابط الركن. غير أن دولوخوف لم يتراجع، بل نزع رباط رأسه وحسر عنه مظهراً الدم المتجمد بين شعره وقال: ها هو ذا جرح أصابني من حربة. مع ذلك فإنني لم أخرج من الصفوف. فعسى أن تتذكروا سعادتكم ذلك!

لقد نُسيت تماماً مدفعية توشين ولم يتذكر الأمير پاغراسيون أمرها إلا عندما لاحظ في آخر المعركة أن قذف المدافع لايزال مستمراً في الجبهة

الوسطى. فأرسل الضابط الركن ثم أعقبه بالأمير أندريه ليحمل الأمر إلى توشين بالانسحاب بأقصى السرعة. وكانت المدفعية مستمرة في قصف العدو رغم أن جنود التغطية كانوا قد اختفوا بنتيجة أمر لا يعلم إلا الله من أصدره. وإذا كان العدو لم يستول عليها بعد، فذلك لأنه لم يكن يتوقع أن أربعة مدافع فقط دون جنود للهجوم والدفاع، يمكن أن تظل تقصف خطوطه بمثل تلك البسالة دون انقطاع. وكان رد الفعل الطبيعي لهذا الوضع، أن اعتقد الفرنسيون ان معظم قوى الروس متمركزة في الجبهة الوسطى فهاجموا تلك النقطة مرتين وفي كل مرة كانوا يتراجعون مندحرين، تصيبهم حمم أربعة مدافع منعزلة رابضة على ذلك المرتفع.

نجح توشين في إشعال النار في قرية شوبنغرابن بعد ذهاب الأمير باغراسيون بفترة قصيرة.

وراح الجنود المكلفون حشو المدافع وتنظيفها يصيحون: انظر، ها هم يميدون! لقد شبت النار! انظروا إلى الدخان! إنه لهدف محكم! رائع! يا للدخان الكثيف، يا للدخان!

استمرت المدافع الأربعة تقذف حممها دون انقطاع دونما حاجة إلى إصدار الأمر إلى المشرفين عليها، الذين عرفوا واجبهم وعرفوا أن الهدف هو النار المشبوبة. وكان المدفعيون يعقبون على كل قذيفة يطلقونها بعبارات مشجعة وكأنهم يهيبون بحماستهم ويحثون المدافع على الاستمرار: «هيا، هيا!... هو كذلك! بديع، لقد أصاب صميم الجمع!» وساعدت الريح على سرعة انتشار النار وامتداد رقعتها وراحت الوحدات الفرنسية التي كانت تسد مداخل القرية تتقهقر متراجعة. لكن العدو انتقم لهذا الخذلان الذي أصابه بأن نصب إلى يمين القرية عشرة مدافع راحت تصب حممها على مركز توشين.

كان الفرح الصبياني الذي أحدثه حريق القرية في نفوس جماعة توشين،

ودقة تصويبهم نحو الهدف، قد ألهياهم عن المدفعية القوية التي نصبها العدو ضدهم. ولم يشعروا بخطرها إلا عندما سقطت قذيفتان تبعتهما أربع أخرى فوق مركزهم، فقتلت إحداهما جوادين وأطاحت الأخرى ساق أحد سائقي عربات البارود والقذائف. لكن هذه المفاجأة المزعجة لم تفل من عزم توشين ورجاله الذين سرعان ما استبدلوا الجوادين النافقين بآخرين من الحظيرة القريبة، وأخرجوا الجرحى من الميدان، بل جعلتهم يحولون الهدف الذي كانوا يهاجمونه، ويصبون نيران مدافعهم الأربعة على «البطارية» العشرية.

كان ضابط توشين الملازم قد قتل منذ بدء المعركة. ولم تمض ساعة حتى كان سبعة عشر جندياً من الجنود الأربعين المكلفين العناية بالمدافع قد أخرجوا من ساحة المعركة لإصابتهم بجراح قاتلة أو عادية. مع ذلك فإن الرجال الباقين لم يفقدوا حماستهم. لقد شاهدوا الفرنسيين يهاجمونهم مرتين متتاليتين. وفي كلتا المرتين ردوهم على أعقابهم بقصف شديد حصد صفوفهم.

كان ذلك الرجل قصير القامة، ذو الحركات الفاشلة المبتسرة، يطلب إلى تابعه في كل لحظة «أن يوافيه بغليون آخر جزاءً له» ويسرع بعد كل قذيفة تطلقها مدافعه الأربعة، إلى الحاجز الأمامي ليطمئن بنفسه إلى سلامة القذف ودقته، ومعاينة صفوف الفرنسيين وحركاتهم، وهو يظلل عينيه بيده الصغيرة.

كان يصيح! النار أيها الفتيان!

ويمسك بنفسه المدفع المتراجع بعد الانطلاق ليعيده بمساعدة رجاله إلى مكانه الملائم، ويحل بيده سلم التصويب والتركيز.

كان توشين يمضغ أبداً غليونه القصير بين أسنانه، ويركض من مدفع إلى آخر يسدد هذا ويحصي ما يحشى به ذاك، أو يأمر بإبدال الخيول المقتولة والمصابة بجراح، ويلقي أوامره هنا وهناك بصوته الرقيق الأجوف، وقد

أصمه الدويّ المتتابع من المدافع، وأعماه الدخان الكثيف. وكان وجهه يزداد ابتهاجاً كلما استمر في دك صفوف العدو وتحصيناته، وكان إذا جرح أحد رجاله أو قتل، يقطب حاجبيه ويصب جام غضبه على رجاله السالمين الذين كانوا يتأخرون، كالعادة، في إخلاء الساحة من القتلى والجرحى.

وكان الجنود، ومعظمهم من الفتيان كما درجت العادة في المدفعية، حيث الجنود يمتازون عن ضباطهم بالطول الفارع والأكتاف العريضة والصدور العامرة القوية ـ يستشيرونه بأنظارهم، كالأطفال الواقعين في مأزق حرج، وينقلون على وجوههم بكل إخلاص الأمارات التي تبدو على تقاطيعه إثر كل استشارة.

ربما يعود الفضل إلى أن توشين لم يشعر بخوف مطلقاً يعود إلى الدوي المصمّ الذي كان يرتفع حوله، والحاجة إلى مجابهة كل خطر. فكان احتمال إصابته أو قتله لا يخطر على باله مطلقاً. بل إن بشاشته وخفته كانتا على العكس بازدياد مستمر. كانت أول دقيقة أطلق خلالها قذيفته الأولى على العدو، تبدو بعيدة جداً عن ذاكرته. وربّما كان يعتقد أنها بدأت يوم أمس، إذ إن تلك البقعة من الأرض التي وجد نفسه فيها ولم يعرفها إلا منذ وقت قريب، بدت لناظريه مألوفة وكأنه يعرفها منذ الأزل.

وعلى الرغم من أنه كان يشعر بكل شيء ويذكر كل شيء ويفكر في كل شيء، وإنه كان يتصرف على أفضل ما يمكن لضابط ممتاز أن يفعله في مثل ذلك الموقف، فإن حاله كانت أقرب إلى الهذيان أو السكر أو الحمى.

كانت الانفجارات المدوية التي تحدثها «بطاريته» الناشطة، وصفير القذائف العدوة، وحركة الجنود المكلفين صيانة المدافع الدائمة السابحين في عرقهم بوجوههم الأرجوانية، ومنظر دماء الرجال والخيول، ومشهد الدخان الكثيف المرتفع من الأسفل، دلالة على انطلاق قذيفة أو أكثر باتجاههم، قذيفة

قد تصيب مدفعاً أو رجلاً أو حصاناً أو ترتطم بالأرض، كل ذلك كان يغذي خياله بشتى المرئيات، ويخلق في رأسه جواً خيالياً وعالماً سحرياً غريباً، كان يرى نفسه متلذذاً بالعيش فيه. وبذلك لم تعد المدافع الأجنبية في نظره مدافع بالمعنى المعروف، بل غلايين يدخنها مدخن خفي غير منظور، يلذ له بين الحين والحين أن يطلق منها سحابة نحو السماء.

صاح مغمغماً: خذ! تلك نفحة جديدة!

كانت تلك النفحة سحابة من الدخان ارتفعت فوق موقع مدافع العدو وانزاحت عنه إلى اليسار تدفعها الريح...

تابع يقول: انتظر الآن الكرة لنلتقطها ونعيدها!

سأل الحرّاق الذي سمعه يزمجر: ماذا يجب أن نعيد يا حضرة الضابط؟

ـ لا شيء، قذيفة!

وأردف قائلاً: دورك الآن يا ماتـڤييـڤنا.

هذا هو الاسم الذي كان يطلقه مجازاً في خياله على القطعة الأخيرة من مدافعه الأربعة وهي قطعة قديمة. أما المكلف الأول بالقطعة الثانية، وكان فتى بهيّ الطلعة يساعده جندي مدمن، فقد عمّده في خياله باسم «العم». لقد كان ينظر إلى ذلك الفتى أكثر من سواه، وكانت حركاته ترضيه. وكان الفرنسيون المنشغلون حول مدافعهم على مرمى عينيه، يبدون في ناظريه أشبه بالنمل الدائب. أما لعلعة البنادق التي كانت ترتفع تارة وتخبو أخرى على سفح التل، فكانت في زعمه تنفس مخلوق حي. كان يصيخ السمع إلى إيقاع ذلك التنفس.

صاح ملاحظاً: ها هو ذا يعاود الكرة.

كان يتخيل نفسه في تلك اللحظة عملاقاً جباراً يلقي بيديه الاثنتين القذائف على الفرنسيين.

صاح وهو ينحرف عن مدى تراجع المدفع المنطلق: هيا يا ماتـڤييـڤنا، رائع أيها العجوز يصيح: كاپتن توشين! كاپتن!

فروعه أن رأى الضابط الركن الذي طرده من غرانت، واقفاً في تلك اللحظة يناديه بصوت لاهث ويهتف به: ولكن ماذا تفعل؟... هل أنت مجنون؟... هذه هي المرة الثانية التي يصدر إليك فيها الأمر بالانسحاب ومع ذلك...

فكر توشين وهو يرفع إلى رئيسه نظراته الوجلة: «ماذا يريدون مني بعد؟» وتمتم وهو يرفع إصبعيه إلى حافة خوذته: أنا؟... أبداً... إنني...

لكن الزعيم لم يستطع القيام بمهمته على الوجه الأكمل. ذلك أن قذيفة مرت فوق رأسه كادت تلامس شعره، جعلته يغطس على ظهر جواده مرغماً، ولما استعاد وضعيته وهمّ بالكلام، قاطعته قذيفة ثانية. وعندئذ حول عنان جواده وفر هارباً.

أخذ يصيح وهو يبتعد: انسحبوا انسحبوا جميعكم!

راح الجنود يضحكون. ولم تمض دقيقة واحدة حتى وصل ضابط مساعد يحمل أمراً مماثلاً.كان ذلك الضابط هو الأمير أندريه.

أول شيء وقعت أنظاره عليه، حصان يصهل قرب المكان والدم ينفر من قائمته المحطمة وكأنه يخرج من قناة جارية. ورأى الجثث متناثرة على الأرض بين عربات جر المدافع، والقذائف تمر الواحدة تلو الأخرى فوق رأسه. سرت في ظهره قشعريرة باردة، لكن تلك الفكرة التي أخافته هي نفسها التي ألهمته الصبر وأمدته بالشجاعة. قال في سره وهو يترجل عن جواده: «لا أستطيع الشعور بالخوف».

نقل الأمر إلى الضابط توشين وقرر البقاء للإشراف بنفسه على انسحاب

المدفعية برجالها. فراح توشين والأمير أندريه، يتخطيان الجثث تحت وابل النيران ويشرفان على عملية الانسحاب.

قال الحرّاق للأمير أندريه: يا لحسن الحظ، إن نبالتكم تختلفون عن السيد الذي كان هنا منذ حين، لقد فر بأسرع من الريح!

لم يتبادل الأمير أندريه كلمة واحدة مع توشين. كان كل منهما شديد الانهماك والانصراف إلى مهمته حتى ليقال إنهما لم يكونا يستطيعان النظر حولهما. واضطر الجنود إلى ترك مدفع معطل وقاذفة القنابل. وبعد ذلك قُطر المدفعان الباقيان وبدأ الموكب يسير. وعندئذ دفع الأمير أندريه جواده نحو توشين وقال له: هيا، إلى اللقاء يا صديقي.

ومد إليه يده مصافحاً. فأجابه توشين: إلى اللقاء يا عزيزي ويا صديقي الباسل.

تابع بعد حين، وقد شعر بالعبرات تنهمر من عينيه دون سبب ظاهر وتنساب على وجنتيه:

ـ وداعاً يا عزيزي!

الفصل الحادي والعشرون

توقّفت الريح وبدأت سحب الغيوم السوداء تتداعى فوق ساحة المعركة وتختلط عند الأفق بدخان البارود الكثيف. وكان اقتراب الظلام يزيد الحريقين المشتعلين في مكانين مختلفين حدة وظهوراً. خفت قصف المدفعية وتضاءل تدريجاً، لكن لعلعة الرصاص بقيت على اشدها عند الخطوط الخلفية وازدادت عنفاً واقتراباً إلى اليمين. ولم يكد توشين يخلص بمدفعيته متخطياً خطوط الجرحى منحدراً إلى الوادي مبتعداً عن منطقة النار حتى التقى رؤساءه وبالضباط المساعدين الذين عرف بينهم جركوف والضابط الركن.

كان جركوف قد أرسل مرتين إلى عش المدفعية الذي يقوده توشين وأخفق في تينك المرتين في بلوغ الغاية فلم يصل ولم يبلغ توشين شيئاً. أخذ رؤساؤه يعنفونه بقوة ويقاطع بعضهم حديث البعض الآخر، وهم يوجهون إليه الملاحظات دون أن يغفلوا مع ذلك عن إصدار الأوامر وتوجيهها إلى حيث يجب أن تصل. ولم يجرؤ توشين على الاعتراض ولم يرد على اللوم الموجه إليه خصوصاً وأنه كان يخشى أن يفتح فمه استعداداً للنطق بشيء لأنه كان يشعر برغبة في البكاء عند أول كلمة تصدر عنه. لذلك اكتفى بالصمت وراح يسير في مؤخرة «بطاريته» ممتطياً «كديشته» شأن كل ضباط المدفعية.

وعلى الرغم من أن الأوامر قد صدرت بترك الجرحى في أماكنهم، فإن عدداً غير يسير منهم راح يزحف في أعقاب الجيش المنسحب طالبين أن ينقلوا على عربات المدافع. وكان ذلك الضابط الجميل، طويل القامة، الذي أفلت

قبل بدء المعركة من كوخ توشين محاولاً اللحاق بوحدته، مسجّى على عربة ماتـڤييـڤنا وفي أحشائه رصاصة. وعند سفح التل، كان أحد الفرسان التلاميذ يحمل ذراعه بيده السليمة، يبتهل إلى توشين أن ينقله وهو شاحب الوجه خائر القوى. قال ذلك الفارس الشاب متوسلاً بصوت خجل: أيها الكاپتن، بحق الله! لقد رُضت ذراعي ولا أستطيع متابعة المشي. أستحلفك الله!

كان صوت ذلك الشاب الضعيف الشاحب بما كان عليه من ضعف يدل على أن صاحبه قد لقي حتى الآن رفضاً متكرراً من كل من استنجد بهم. تابع يقول: دعني أجلس أتوسل إليك.

فصاح توشين: خلوا له مكاناً، خلوا له مكاناً!

واستدار نحو جنديه المفضل صرخ به آمراً: أنت أيها «العم»، افرش معطفاً. ولكن أين الضابط الجريح؟

فأجاب أحدهم: لقد نقل إذ إنه مات.

ـ هيئوا له مكاناً، هيئوا له مكاناً، إجلس يا صغيري، اجلس. افرش المعطف يا أنتونوف.

روستوف، كان ذلك الفارس التلميذ! كان ممتقع الوجه، ترتجف ذقنه من الحمى، وكان يحمل يده المصابة بيده الأخرى. وضعه الجنود على عربة ماتـڤييـڤنا، على تلك العربة بالذات حيث رفع عنها الضابط الميت منذ حين. كان المعطف ملطخاً بالدماء، فتلوثت به سراويل روستوف ويداه.

قال توشين: لكنك جريح يا صغيري.

ـ كلا، بل مصاب بكسر أو رض.

ـ إذن لم هذه الدماء على المعطف؟

فأجاب أحد المدفعيين وكأنه يعتذر عن المكان القذر الذي هيأه للفارس الشاب: إنه الضابط يا صاحب النبالة. لقد ترك دماءه هنا.

وراح يمسح الدماء بكم معطفه.

تمكن توشين بعد جهد مضن وبعد اللجوء إلى مساعدة المشاة، أن ينقل مدافعه إلى ضفة الوادي المقابلة حيث بلغ الجيش المنسحب ضواحي كونترسدورف وهنا توقف عن السير. كان الظلام قد هبط بسواده حتى تعذر على الرجال تمييز ثوب الجندي على بعد عشر خطوات.

وكانت طلقات البنادق قد خمدت نهائياً. ولكن لم تمض فترة حتى عاد الرصاص يئز فجأة على الجناح الأيمن مصحوباً بصياح وضجيج. وكانت النيران المنطلقة تضيء الظلام كلما قذفت البنادق ما في أجوافها. كان سبب ذلك الرصاص المفاجئ الهجوم الأخير الذي قام به الفرنسيون والذي ردّ عليه الجنود الروس المحتمون في المنازل. هرع الجنود كلهم خارج القرية باستثناء توشين ومدفعيته. ذلك أن توشين أصبح عاجزاً عن الحركة لشدة الإعياء الذي أصابه ذلك اليوم. راح الضباط والمدفعيون والفرسان يتبادلون نظرات قلقة دون أن يتفوهوا بكلمة. وما لبثت البنادق أن صمتت، وعلا صخب وضجيج أحدثهما سيل عرم من الجنود العائدين عبر زقاق في القرية وهم يتناقشون باحتداد ويتدفقون على شارع القرية الرئيسي.

كان أحدهم يسأل زميله! ألست جريحاً يا بيتروف؟

وآخر يقول: يا لها من ضربة أليمة تلك التي أنزلناها بهم. إنهم لن يعودوا بعدها إلى الاحتكاك بنا.

وثالث يقول: لا يرى المرء شيئاً في هذا الظلام... لسنا ندري كم ذبحنا منهم! يا للشيطان أليس مزعجاً ألّا يرى المرء شيئاً؟... هل من سبيل إلى شرب جرعة خمر أيها الرفاق؟

تراجع الفرنسيون نهائياً على أعقابهم، ومجدداً راحت مدفعية توشين

تحف بها إطارات متراصة من المشاة، تشق طريقها وسط ذلك الليل البهيم أشبه بملكة النحل وسط ثول حافل كبير!

تشبه تلك الرحلة في ذلك الظلام تدفق مياه نهر عرم، بما تحدثه حوافر الجياد، وعجلات العربات، ووقع الأقدام، من ضجيج، وكانت تأوهات الجرحى وزمجراتهم تطغى على كل اللفظ الأصم، فكانوا وحدهم يشكلون مع تلك الظلمات وحدة متينة العرى، وكأنهم خلقوا منها وفيها. وفي فترة ما، وقع صخب بين جماعة من السائرين. ومر فارس على صهوة جواد أبيض يتبعه حرس مواكب وهو يتلفظ بكلمات غير واضحة. فانتثرت الأسئلة من كل مكان، أسئلة متلهفة طافحة بالتساؤل والفضول:

«ماذا قال الفارس؟ هل وجه إلينا التهاني على ما فعلناه؟ إلى أين نمضي الآن؟ هل نتوقف هناك؟» وأعقب ذلك تدافع وازدحام دل على أن الصفوف الأمامية قد توقفت، فشاعت بين الصفوف همسات تقول إن الأمر قد صدر بالتوقف، وعندئذ توقفت الكتلة البشرية الكبيرة وسط ذلك الطريق الموحل.

أشعلت النار في مكانين ووضحت الأصوات. وبعد أن أصدر الكاپتن توشين التعليمات اللازمة لاتخاذ التدابير المناسبة المتعلقة بقضاء الليل في ذلك المكان، أرسل من يستقدم عربة إسعاف أو طبيب لمعالجة الفارس التلميذ، وجلس قرب نار أوقدها الجنود على الطريق. فزحف روستوف حتى بلغ مكان توشين. كانت قشعريرة الحمى تجتاح كل جسمه بسبب الكسر الذي أصيبت به ذراعه والبرد والرطوبة اللذان تعرض لهما. وكانت ذراعه تؤلمه ألماً شديداً أطار النوم من عينيه رغم حاجته إليه. فكان يغمض عينيه حيناً ويحدق إلى النار التي كان يخيل إليه أنها مصبوغة باللون القرمزي حيناً آخر، وبين الحين والآخر، ينقل بصره إلى توشين الجالس على الأرض على الطريقة التركية محدودب الظهر، ينظر إليه بعينيه الكبيرتين المتوقدتين نظرات مفعمة

بالعطف والإشفاق، كان روستوف يشعر في قرارة نفسه أن توشين يود من صميم قلبه لو يستطيع مساعدته وأنه يتألم لعجزه عن ذلك.

جلس الجنود المشاة حول النار، فكانت خطواتهم وأصواتهم ترتفع في حلقة دائرية ممتزجة بوقع حوافر جياد الفرسان الذين كانوا يمرون بالقرب منهم.

كانت تلك الأصوات والخطوات، وخوض الخيول في الوحول، وفرقعة الأخشاب المشتعلة في النيران المشبوبة القريبة منها والبعيدة، تشكل إلى حد ما صوتاً أشبه بتلاطم الموج في محيط لجب في ليلة عاصفة. توقف السيل الخفي العرم عن التدفق وسط ذلك الظلام الحالك، وأصبح الحال في تلك الأثناء أقرب شبهاً بالبحر الزاخر الذي يعود إلى السكون والتماوج الهادئ بعد عاصفة عاتية هوجاء.

راح روستوف وهو ينظر ويسمع ما يدور حوله وأمامه دون أن يفهم منه شيئاً، واقترب أحد المشاة فأقعى بالقرب من النار ومد يديه يصطلي بالنار وهو يشيح بوجهه قائلاً لتوشين: أستمح نبالتك؟ إنني كما تراني نبالتك قد أضعت سريتي فلا أدري أين تركتها. آمل أن لا يزعجك وجودي!

وجاء رئيس من سلاح المشاة معصوب الوجه في تلك الأثناء، يوجه الحديث إلى توشين. طلب إليه أن يبعد مدافعه قليلاً لأنها كانت تعرقل سير عربات مهماته. ثم أعقب ذلك مقدم جنديين يتنافسان في ملكية حذاء يدعي كل منهما أنه له ويكيل للآخر الشتائم.

كان أحدهما يصيح بصوت أجش: هل التقطته أنت؟... إنك ولا شك أسوأ من ذلك حتى تدعي ملكيته!

وجاء جندي هزيل شاحب الوجه يلف عنقه بجورب ملطخ بالدم يطلب ماء للمدفعيين بلهجة غاضبة. كان يغمغم بانفعال:

ـ إنكم لن تدعوني على كل حال أنفق ككلب حقير!

أمر توشين أن يستجاب طلبه، وجاء بعدئذ أحد المهزاريين يطلب شعلة نار بقوله: «أريد ناراً صغيرة شديدة الاحمرار لفتيان الصف» فلما أجيب إلى طلبه قال: شكراً يا أبناء البلد، البثوا في أماكنكم دافئين. أما النار فلا تقلقوا من أجلها، سوف نردها لكم... عندما تلد أطفالاً صغاراً!

وابتعد مازحاً وهو يلوح بيده بقطعة من الخشب المشتعل. وبعد قليل مر أربعة من الجنود كانوا يحملون شيئاً ثقيلاً في معطف تعاونوا على حمله. فتعثر أحدهم وتمتم محنقاً: لا بأس؟ ها هم قد زرعوا الطريق كلها بقطع الحطب، يا للملاعين!

فقال آخر: ما دام ميتاً، أي فائدة نجنيها في نقله؟

ـ إه! ليأخذك الشيطان...!

وابتلعتهم الظلمات مع حملهم الثقيل.

سأل توشين روستوف بصوت خفيض: وإذن؟ هل تؤلمك ذراعك؟

ـ نعم؟

تقدم أحد الحرّاقين في تلك اللحظة يقول: إن الجنرال يطلب من نبالتك المثول بين يديه. إنه هنا في الكوخ على مقربة.

نهض توشين وزرَّر معطفه وهو يقول: على الفور يا صديقي.

وابتعد وهو يصلح هندامه على قدر استطاعته.

كان الأمير باغراسيون يتحدث مع قادة الأسلحة المتفرقة في كوخ أقيم على عجل لإيوائه قرب حظيرة المدفعيين. كان هناك ذلك الكهل قصير القامة ذو العينين نصف المغمضتين، يلتهم ضلع خروف مشوي بنهم، والجنرال الذي أمضى في الخدمة اثنين وعشرين عاماً وهو في أحسن هندام، وقد أشرق وجهه إثر العشاء اللذيذ الذي تناوله وأقداح الفودكا التي تلذذ بارتشافها،

وكان هناك كذلك الضابط الركن ذو الخاتم الماسي، وجركوف الذي كان يجعل حوله نظرات كئيبة قلقة، والأمير أندريه ممتقع الوجه تلتمع عيناه ببريق محموم.

وفي زاوية من المسكن المتواضع، أسند علم اغتصبه الروس من العدو، كان المدني الضخم يلمس القماش الذي صنع منه ويهز رأسه بسذاجة على عادته، لم يكن واضحاً إذا كان مهتماً حقيقة بتحسس قماش العلم أو أنه كان مرغماً على ذلك بسبب حرمانه من ذلك العشاء الشهي الذي لم يدع للمشاطرة فيه. وفي الغرفة المجاورة، كان الضباط الروس يتفحصون بشوق ضابطاً فرنسياً برتبة زعيم أسره فرسان الدراغون.

كان الأمير باغراسيون يهنئ قادة القطعات ويسألهم تفاصيل المعركة التي دارت رحاها ذلك اليوم ويستعلم عن الخسائر التي مني الجيش الروسي المنسحب بها. وكان قائد السرية التي استعرضها كوتوزوف قرب برونو يروي للأمير أنه عند بدء المعركة أخلى الغابة من جنوده الذين كانوا يجمعون الأخشاب ونظم صفوفهم حتى إذا مر الفرنسيون، انقض عليهم بلواءين كاملين فقذف بهم إلى الوراء ضرباً بالحراب. وتابع قائلاً:

ـ ما كدت أرى لوائي الأول في حالة بلبلة وفوضى حتى قلت لنفسي: «دعهم يمرون واستقبلهم بعد ذلك بنار حامية الوطيس». وهذا ما فعلت يا صاحب السعادة.

في الحقيقة إن ذلك ما كان يريد صنعه، فكان شديد الأسف لأنه لم ينجح في مسعاه حتى أنه كان مؤمناً كل الإيمان بصدق تقريره عن الحوادث. ولعله لم يكن مخطئاً قط: إذ من الذي كان يستطيع في مثل ذلك الظرف العصيب من الفوضى والاختلاط تمييز الحقيقة من الخيال؟

تابع القائد الكبير معقباً وقد تذكر لقاءه القريب مع دولوخوف وما قصّه

هذا عليه من عطف الأمير باغراسيون عليه: ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أشيد ببسالة الضابط السابق دولوخوف، تلك البسالة النادرة التي شهدتها بأم عيني. لقد أسر ضابطاً فرنسياً يا صاحب السعادة.

وتدخل جركوف في الحديث وهو يجيل حوله نظراته القلقة قال: وفي تلك اللحظة يا صاحب السعادة أتيح لي أن أشاهد بإعجاب هجوم الفرسان ـ فرسان پاڤلوغراد.

كان على حق في قلقه لأن في ذلك اليوم لم يلتق أي فارس من الفرسان بل كان يعتمد في حديثه بكل سذاجة على أقوال أحد ضباط المشاة. تابع يقول: لقد رأيتهم يشتتون مربعين من الأعداء

عندما بدأ جركوف الحديث ابتسم بعض الحاضرين متوقعين منه دعابة مستملحة يطلقها على عادته. لكنهم عندما سمعوه يعقب بجملته الأخيرة مضيفاً إكليل غار جديداً على هامة الجيوش الروسية، عاد الاتزان إلى قسمات وجوههم رغم أن معظمهم كان يعرف سلفاً أن تقرير جركوف لم يكن إلا كذبة صارخة وقحة.

قال پاغراسيون وهو يختص الكولونيل العجوز بمعظم ثنائه: أشكركم جميعاً أيها السادة. لقد تصرف الجنود من مختلف الأسلحة، بين مشاة وفرسان ومدفعية تصرفاً يدل على بطولتهم...

ثم أجال الطرف حوله باحثاً عن شخص ما وقال: ولكن كيف حدث أن تركنا قطعتين من مدفعيتنا في الجبهة الوسطى؟

لم يكن پاغراسيون يستفهم عن مدافع الجناح الأيسر كلها لأنه كان يعرف من قبل أنها سقطت جميعها في أيدي العدو منذ بدء المعركة. لذلك فقد عقب موجهاً حديثه إلى الضابط الركن: ألم أكلفك الإشراف على انسحاب المدفعية من الجناح الأيمن؟

فأجاب الضابط الركن: لقد كان أحد المدافع معطلاً، أما الآخر فإنني لست أدري على الضبط سبب تركه... لقد اتخذت كل الإجراءات اللازمة، ولم أترك «البطارية» إلا في اللحظة الأخيرة...

وتابع بشيء من التواضع: الحقيقة أن المدفع كان شديد الحرارة...

فهمس بعضهم أن الكاپتن توشين آمر المدفعية في الجناح الأيمن يعسكر قريباً من مركز القيادة وأنهم أرسلوا في طلبه. وعندئذ قال پاغراسيون للأمير أندريه: ولكن أنت؟ لقد كنت هناك أيضاً على ما اعتقد!

فبادر الضابط الركن يقول شافعاً كلامه بابتسامة لطيفة وجهها إلى پولكونسكي: بدون شك يا صاحب السعادة، لقد مر بعضنا ببعض.

ـ لم أتشرف برؤيتك!

وتلا ذلك صمت مطبق. وفي تلك اللحظة ظهر توشين على عتبة الباب، فبدا شديد الاضطراب كعادته كلما التقى رؤساءه. وبينما كان يتسلل بخجل وراء الجنرالات في تلك الغرفة الضيقة، تعثر بسارية العلم التي لم يكن قد لاحظ وجودها لشدة ارتباكه. فتعالت بعض الضحكات.

سأله الأمير پاغراسيون وهو يقطب حاجبيه برسم الضاحكين الذين كان جركوف أشدهم ضوضاء، أكثر مما عنى توشين بذلك التقطيب: كيف حدث أن أُغفل مدفع في ساحة المعركة؟

وفي تلك اللحظة فقط، إزاء جبين القائد العام المقطب، أدرك توشين أنه ارتكب خطأً فادحاً، وشعر بالعار لأنه فقد مدفعين وظل بعدهما على قيد الحياة. لقد كان شديد الاضطراب حتى أنه لم يفكر في هذا الموضوع قبل تلك اللحظة. وقد سببت ضحكات الضابط الساخرة انهيار تجلده التام، فبقي واقفاً دون حراك مرتجف الذقن ينظر إلى پاغراسيون بارتباك.

وأخيراً استطاع بعد عناء شديد أن يغمغم: لست أدري يا صاحب السعادة... لم يبق لدي عدد كاف من الرجال يا صاحب السعادة:

ـ كان يمكنك أن تأخذ حاجتك من جنود التغطية.

وعلى الرغم من أن الحقيقة الصارخة كانت تفسر السبب، فإن توشين لم يجرؤ على القول إنه لم يكن هناك قط جنود تغطية، كان يخشى إذا صرح بتلك الحقيقة أن يسيء إلى بعض الرؤساء الذين أمروا بانسحاب التغطية. لذلك فقد راح يتأمل باغراسيون بصمت دون أن ينطق بكلمة، شأن الطالب الذي لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة فاحصة.

ساد الصمت فترة غير قصيرة. كان باغراسيون، بدون شك، يتجنب الظهور بمظهر القاسي الصارم، لذلك، لم يجد ما يقوله. وكذلك المجتمعون الآخرون فقد لزموا الصمت المطلق متجنبين البدء بالحديث. وكان الأمير أندريه يختلس النظر إلى وجه توشين ويداه ترتجفان. وفجأة شق صوته الصارم السكون المخيم فوق الرؤوس وقال: لقد تفضلتم سعادتكم بإرسالي إلى «بطارية» توشين. ولما ذهبت إلى هناك وجدت أن ثلثي رجاله وخيوله بين قتيل وجريح، وأن مدفعين من مدافعه الأربعة كانا معطلين ولم يكن لديه جندي واحد من جنود التغطية.

راح باغراسيون وتوشين يحدقان معاً إلى وجه بولكونسكي الذي كان يتكلم بحماسة وتابع هذا يقول: وإذا تفضلتم سعادتكم بالسماح لي بإبداء رأيي قلت إن جانباً كبيراً من نجاح معركة اليوم يعود إلى تدخل بطارية توشين وإلى البطولة والبسالة والحزم التي أبداها الرئيس توشين ورجاله في هذا اليوم.

لم ينتظر بولكونسكي جواباً، نهض واقفاً وانسحب عن الطاولة. فعاد باغراسيون بنظرته إلى توشين. ولما كان راغباً عن إظهار تشككه في حكم

پولكونسكي الحاسم فقد أشار برأسه إلى توشين وقال إنه يستطيع الانسحاب. فخرج الأمير أندريه في أعقابه.

قال له توشين: شكراً لك يا صديقي. لقد أنقذتني.

فشمله پولكونسكي بنظرة حالمة وغادره دون أن يتفوه بكلمة. كان يشعر بحزن يحزّ في صدره ويعصف في قلبه. لقد كان ما رآه وسمعه شديد الغرابة مخالفاً آماله وأحلامه.

ساءل روستوف نفسه وهو يراقب الأشباح التي كانت تمر أمامه: «من هم هؤلاء الناس؟ ماذا يعملون هنا؟ ماذا يريدون؟ ومتى ينتهي كل هذا؟» كان الألم يزداد عنفاً في ذراعه، وكان جفناه مثقلين بنعاس قاهر، فراحت عيناه تريانه حلقات حمراء آخذة في الاتساع، تتراقص أمامه بين دنو وابتعاد. كانت تلك الأصوات المتلاحقة وتلك الوجوه المختلفة وذلك الشعور بالوحدة القاتلة تتحد في نفسه فتزيد من آلامه.

كان أولئك الجنود، بين جريح وسليم، هم الذين يثقلون عليه ويسحقونه ويقطعون أعصابه ويرهقونها، ويحرقون بشرته بنار وئيدة تلتهم ذراعه المحطمة وكتفه. كان يشعر أنهم أساس البلاء. ولما كان يود من صميم نفسه الابتعاد عن ذلك الخيال المخيف الذي يعذب تفكيره فقد ظن أن من الأفضل له أن يغمض عينيه.

لم يفقد حواسه إلا لحظة خاطفة. مع ذلك حلم خلال تلك اللحظة بعدد لا يحصى من الوجوه والأشخاص. رأى أمه بيديها البضّتين، الكبيرتين، وسونيا بكفيها النحيلين وناتاشا بعينيها الباسمتين، ودينيسوف بصوته الخشن وشاربيه الكبيرين، وتيليانين وكل قصته الطويلة التي وقعت له مع بوغدانوڤيتش.

كانت تلك الحادثة اللعينة متحدة مع الجندي ذي الصوت القاسي وذينك الشبحين اللذين حطما ذراعه دون رحمة ولبثا يشدان عليها في اتجاه

واحد، تشكل معهم وحدة لا تتجزأ. بذل جهداً خارقاً للتخلص من الجندي والشبحين الغامضين القاسيين وتلك القصة كلها. لكنهم لم يفلتوا كتفه ولا ذراعه دقيقة واحدة ولم يبدلوا مواقع أيديهم على تلك الذراع قيد أنملة.

ولعلّ الشفاء كان قريباً لو أنهم لم يحطموا ذراعه بتلك الوحشية، أما وأنهم مازالوا يجذبونها، فإن كل أمل بالشفاء بات وهماً وكل محاولة للخلاص من أيديهم أصبحت فاشلة.

فتح عينيه وراح ينظر إلى الفضاء. كانت حلكة الليل البهيم تخيّم على المكان حتى أن النار المشبوبة ما كانت لتبدد من الظلمة إلا على ارتفاع قدمين أو ثلاث أقدام فوقها وحولها. رأى منفذاً من الثلج تتدافع فوقه تلك الشعلة الملتهبة. أما توشين، فلم يعد بعد وكذلك الطبيب لم يصل قط. لم يكن أمامه إلا جندي واحد عار من الثياب يجففها على النار. كان شاحب الوجه، هزيل البنية، ضعيف التكوين، أصفر اللون.

فكر روستوف في سره: «لن أجد أحداً يهتم بشأني. لا يوجد أحد يسعفني ويطببني أو يشفق على مصابي كيف يمكن أن أنسى أنني منذ وقت قصير كنت في منزلي ممتلئاً حيوية، يحبني كل من حولي!».

أطلق تنهيدة انقلبت بالرغم عنه إلى زمجرة قبل أن تتبدد في الهواء. فسأله الجندي وهو ينفض قميصه فوق النار: هل تشعر بألم؟

ولم ينتظر جواباً إذا أضاف وهو يكح: لقد أصابوا أناساً كثيرين اليوم! آه يا للتعاسة!

لم يكن روستوف يصغي إلى قوله. كانت عيناه شاخصتين إلى نتف الثلج المتراقصة فوق اللهب، فتذكر شتاء روسيا والمنزل الدافئ المضيء والفراء الناعمة والزحافات السريعة. كان يرى نفسه بعين الخيال ممتلئاً صحة، محاطاً

بالعطف والحب ورعاية أسرته، فتمتم يخاطب نفسه: «يا لها من فكرة، تلك التي قادتني إلى هنا».

لم يقم الفرنسيون بهجومهم صبيحة اليوم التالي، وهكذا استطاع الناجون من جيش پاغراسيون بلوغ مواقع كوتوزوف والالتحاق بجيشه الناجي.

الجزء الثالث

الفصل الأول

ليس الأمير بازيل من الذين يعدون خططاً مسبقة للمستقبل، ولا من زمرة الذين يفكرون في أذية الناس لجني ربح شخصي. كل ما في الأمر، أنه كان من زمرة النبلاء، لاقى نجاحاً في حياته واعتاد النجاح في كل أعماله. كانت تدابيره كلها على اختلاف أنواعها، تدين بوجودها وترتيبها للظروف الطارئة ولنوع العلاقات التي تربط كلاً منها بما يجانسها. فكان مسرح الصخب والتناحر قائماً في رأسه، يتبع الظروف في اتجاهاتها غير مبال في أن ذلك كان سر كل وجوده. يحتفظ دائماً بخطط كثيرة تهدف كل منها إلى غاية محددة. لا يكاد تفكيره يخلو من عشرات من هذه الخطط. فكان بعضها يفشل وبعضها ينجح والبعض الآخر يتبخر قبل البدء بتنفيذه.

لم يكن يحدث نفسه مثلاً: «إن فلاناً قد بلغ مبلغ السطوة والنفوذ، فلأكسبن ثقته علّني أصل بها إلى نفع ما». أو مثلاً: «ها إن پيار قد أصبح غنياً، فعليّ إذن أن أزوجه ابنتي لأقترض منه الأربعين ألف روبل التي أنا في حاجة إليها». لكنه ما يكاد يلتقي تلك الشخصية القوية ذات النفوذ حتى تحدثه غريزته بأن ذلك الرجل يمكنه أن يكون ذا نفع له، فيربط بينهما علاقة متينة منتهزاً أول فرصة تعرض له دون تصاميم مسبقة، ويمتدحه ويرضي غروره مستعملاً معه لهجته الأنيسة التي تشعر السامع أنه يعتبره من أفراد أسرته، ثم يلمح إلى غايته بكلمة عابرة.

في تلك الأثناء كان پيار قريباً من متناول يده في موسكو، فقد عمل الأمير

بازيل على إبلاغه رتبة تعادل رتبة مستشار دولة، وأصر على أن يرافقه الشاب إلى پيترسبورغ وأن ينزل في ضيافته هناك. لم يكن الأمير بازيل قد نوّه بغايته أمام پيار بعد، لكن كيانه كله وقناعته الشخصية استلزما منه ذلك التصرف، الذي كان الأمير بازيل يبذل كل ما بوسعه ليبلغ به إلى نتيجة يرتضيها، وهي تزويج ابنته بالشاب پيار.

ولو أنه كان متدبراً أمره من قبل لما استطاع أن يبدو طبيعياً في تصرفاته إلى ذلك الحد، صريحاً في تصرفاته مع رؤسائه ومرؤوسيه كما كان عليه حينذاك. لقد كان بازيل مدفوعاً بقوى خفية إلى الاحتكاك بأشخاص أوسع منه نفوذاً وغنى. وكان يعرف بغريزته وحواسه الفطرية كيف يستخلص من هؤلاء مغنماً مهما كان تافهاً.

شعر پيار، وهو الذي أضحى بين عشية وضحاها «الكونت بيزوخوف واسع الغنى»، أنه أصبح فجأة محاطاً بصفوف متراصة كثيفة من الناس، شديد المشاغل والأعمال وهو الذي كان إلى الأمس القريب في عزلة حياة العازب المريحة. لذلك فإنه لم يكن يشعر بالراحة الحقيقية إلا عندما كان يأوي إلى سريره، حيث يجد نفسه وحيداً مع نفسه. كان عليه أن يوقع أوراقاً كثيرة وأن يقوم بأعمال المكتب، أعمال لم يكن يعلم عن فائدتها شيئاً. وكان عليه أن يحضر الحفلات الراقية وأن يهرع إلى استشارة مسجله الرئيسي، أو يزور أملاكه في ضواحي موسكو، ويستقبل عدداً كبيراً من الناس كانوا إلى عهد قريب يتجاهلون وجوده وأصبحوا الآن يشعرون بمرارة الخيبة إذا رفض مقابلتهم. وكان كل هؤلاء الناس، بين رجال أعمال وأقارب ومعارف عاديين، يظهرون استعدادهم القوي لخدمة الوارث الشاب بما يشبه الإجماع ويعلنون قناعتهم الوطيدة وإعجابهم العميق بصفاته النادرة.

كان لا ينفك يسمع أقوالاً تشبه: «بطيبتكم النادرة»، «نظراً إلى قلبكم

النبيل» «أنت الذي تتمتع بروح عالية»، «لو أنه كان على قدر من ذكائكم» إلخ... ولما كان يشعر بهاتف داخلي يؤكد له أنه شديد الطيبة جمّ الذكاء، فقد راح يصدق ما يغدقه عليه أولئك الناس من عبارات الإطراء ويؤمن بصحتها، كما يؤمن «بطيبته النادرة وذكائه النادر». وكان أولئك الذين كانوا من قبل يعاملونه بلا مبالاة وإهمال بل بنوع من الشراسة يعربون له الآن عن ميلهم وشعورهم الرقيق. فكبرى الأميرات مثلاً، وهي تلك المشاكسة ذات الجذع الطويل والشعر المنسدل الأملس كشعر اللُعب، جاءت إليه بعيد الخبازة تدخل إلى غرفته لتعلن أسفها الشديد لتنافرهما السابق، وهي خافضة العينين محمرّة الوجه.

ولم تقف عند ذلك الحد، بل اعترفت أمامه أنه ليس من حقها منذ الآن أن تطلب شيئاً، لكنها تلتمس منه السماح لها فقط بالبقاء بضعة أسابيع أخرى في ذلك البيت، الذي كان عزيزاً على قلبها حتى أنها ضحت فيه بكل ما في طوقها. ولم تستطع الامتناع عن البكاء فانفجرت منتحبة. وكان ذلك التحول الغريب من جانبها كافياً ليحدث أثره في نفس پيار الذي كان يعرف الأميرة شخصية باردة جامدة كالمرمر. فأمسك بيدها وسألها الصفح دون أن يدري عن أي شيء يطلب إليها أن تصفح. وراحت كبرى الأميرات اعتباراً من ذلك اليوم، تحوك له «لفحة» مخططة من الصوف وتعامله معاملة مختلفة عما درجت عليه عادتها.

وذات يوم، جاء الأمير بازيل يحمل إذناً مصرفياً بمبلغ ثلاثين ألف روبل باسم الأميرة وطلب إلى پيار أن يوقّعه وهو يقول: إفعل ذلك من أجلها يا «عزيزي». يجب أن نعترف أن المرحوم جعل حياتها قاسية جداً.

خاف الأمير بازيل أن تفضح الأميرة الدور الذي لعبه في قضية حافظة الأوراق. لذلك فقد راح يسعى لإلقاء تلك العظمة أمام تلك الفتاة المسكينة

ليشغلها بها. فوقع پيار إذن الصرف المخصص للأميرة، وتظاهرت هذه بالمزيد من التودد. أما أختا الأميرة فإنهما لم تختلفا في سلوكهما عن سلوك شقيقتهما الكبرى. أصبحتا شديدتي الحماسة والاندفاع في سبيل مرضاته حتى أن صغراهما، تلك التي كانت جميلة وعلى وجنتها حسنة، أقلقت پيار غير مرة بابتساماتها المعبرة والارتباك الذي كانت تتظاهر به كلما وقع نظرها عليه.

وكان پيار من جهته يعتقد أن حب الناس، كل الناس له، أمر طبيعي جداً وأن عكس ذلك مستحيل حتى أنه لم يكن يفكر لحظة واحدة في الشك في إخلاص الأشخاص المحيطين به. أضف إلى ذلك أنه لم يكن يجد متسعاً من الوقت للتساؤل عن صراحة المحيطين به أو أنانيتهم. لم يكن لديه الوقت ليعمل شيئاً ما. لقد كان يعيش في نوع من سكر دائم فيه نشوة وفيه نشاط.

كان يشعر أنه محور حركة عامة دائبة، وأنهم ينتظرون دائماً معلومات جديدة عنه ويتوقعون منه أمراً إذا لم يفعله، فإنه يسيء إلى عديد من الناس ويحزنهم ويخدعهم فيما ينتظرونه منه، وإنه إذا فعل ذلك الأمر، فإن كل شيء على العكس، يسير في الطريق الصحيحة التي يجب أن يسير فيها، فتعم السعادة ويعم الرخاء.

ما من أحد أشرف على رعاية شؤون پيار رعاية مستمرة متيقظة كما أشرف عليها الأمير بازيل في بدء المرحلة. ولم يتوقف ذلك الإشراف عند حل المصالح، بل تعداه إلى پيار نفسه. ذلك أنه منذ أن توفي الكونت، لم يترك پيار لحظة واحدة. كان يتظاهر بمظهر الرجل الذي تثقل الأعمال كاهله، وينهكه التعب، ومع ذلك، لا يستطيع لشدة حدبه على پيار، أن يترك مصيره للأقدار تتلاعب به وفق هواها، ويترك ذلك الشاب البريء فريسة سهلة لكل نصاب، وهو المحروم من كل أسلحة الخبث والدهاء، وخصوصاً أنه ابن صديقه

الودود ومالك ثروة لا تقدر. واستمر طوال الأيام التي قضاها في موسكو عقب الجنازة يستدعي پيار أو يذهب بنفسه إلى جناحه ليشير عليه بما يجب عمله. وفي كل مرة كانت لهجته المعبرة عن إنهاك شديد تكاد تحدثه قائلة: «إنك تعرف أنني مغمور بالعمل والمشاغل وأنني إذا كنت أهتم بشؤونك فماذا لك إلا على سبيل الإحسان الصرف. ثم إنك تعلم أن ما أعرضه عليك هو الأمر الوحيد الذي يمكن فعله في هذه المناسبة».

أعلن الأمير بازيل ذات يوم قراره وهو يربت ذراع پيار ويسدل جفنيه على حدقتيه: وعليه يا صديقي، سنرحل غداً ولن يكون رحيلنا قبل أوانه.

دلّت لهجته على أن الأمر الذي اتفقا عليه منذ أمد طويل لا يحتمل أي اعتراض. وتابع يقول:

أجل، سنرحل غداً ولسوف أحملك في عربتي. وسأكون مرتاحاً لوجودك معي. لم يعد لدينا هنا عمل هام يستبقينا وكان علينا أن نغادر موسكو منذ فترة طويلة... آه! لقد تلقيت جواباً من مستشار الدولة الأول، لقد سُميت بناء على طلبي نبيلاً إدارياً وستكون مرتبطاً بالسلك السياسي. لقد أصبح المستقبل مفتوحاً أمامك الآن.

ورغم القساوة التي كانت في لهجة الأمير المنهكة، تلك التي أطلق بها تلك الكلمات، فإن پيار، الذي كان قد فكر طويلاً في مستقبله، كاد يصيح محتجاً. غير أن الأمير بازيل قاطعه ملتجئاً في تلك المرة، إلى لهجته المنخفضة، تلك اللهجة التي لم يكن يعمد إليها إلا في الضرورة القصوى عندما يريد اجتناب كل إمكانيات الرفض: ولكنني يا عزيزي لم أفعل ذلك إلا من أجل نفسي، من أجل إرضاء ضميري، فلا أطلب منك أن تشكرني على صنيعي، ثم إنني لم أر بعد أحداً يشتكي من كثرة محبة الناس له، ثم إنك حر وليس هناك ما يمنعك من طرد كل الناس ورفض كل شيء منذ صباح الغد،

إذا راقك ذلك بنفسك عندما نبلغ بيترسبورغ. كذلك فإنني أعتقد أن الوقت قد أزف لتبتعد نهائياً عن هذه الذكريات الأليمة.

أنهى الأمير بازيل كلامه بتلك الجملة وشفعها بتنهيدة وتابع: اتفقنا أليس كذلك يا صديقي؟ سوف يركب تابعي في عربتك... آه! كدت أنسى: إنك تعرف أنني كنت على علاقات مالية مع المتوفى. ولقد قبضت مبلغاً على أجور أملاكك في ريازان. لست في حاجة إلى ذلك المبلغ، سوف نتفاهم عليه.

كان ذلك المبلغ الذي تحدث عنه الأمير بازيل موهماً أنه مبلغ تافه، أجور مزارع الكونت التي تبلغ عدة آلاف من الروبلات استملكها الأمير بازيل معتبراً أن من حقه التصرف فيها.

وجد بيار نفسه في بيترسبورغ قبلة أنظار الناس كما كان شأنه في موسكو. لم يصادف إلا كل من يغدق عليه الإطراء. ولما كان لا يعمل شيئاً فإنه لم يستطع رفض المركز الاجتماعي الذي أوجده له الأمير بازيل. وتهافتت عليه الدعوات وكثرت واجباته الاجتماعية حتى فاقت ما أحاطت به في موسكو. لذلك شعر من جديد أنه يطير في دوامة هائلة تبشر بسعادة عميقة تبدو قريبة منه وإن كانت في كل مرة تنأى عن متناول يديه.

لم يلتق في بيترسبورغ عدداً كبيراً من أصدقاء مرحه السابقين، فقد كانت فرقة الحرس في جبهة القتال وكان دولوخوف قد نزعت رتبته وأناتول في الجيش. أما في الضواحي، فإن الأمير أندريه كان كذلك متغيباً. لذلك فإن بيار لم يتمكن من قضاء الليالي الجميلة كما كان يفعل عندما كان أولئك الأصدقاء مجتمعين، ولا أن يكشف عن دخيلة نفسه من حين إلى آخر لذلك الصديق الذي يكبره سناً، والذي كان يحترمه ويقدره كل التقدير.

كانت كلها تتبدد بين الولائم والحفلات الراقصة، وفي معظم الأحيان لدى الأمير بازيل في صحبة الأميرة الضخمة وهيلين الجميلة.

وما تأخرت أبداً أنا پاڤلوڤنا شيرر عن تتبع الركب. فأظهرت لـپيار أن تحولاً كلياً قد طرأ على وجهة النظر التي كانت تتمسك بها بصدده. كان يشعر من قبل أن كل ما كان يتفوه به في حضرتها، يعوزه الإحكام وتنقصه اللباقة أو المناسبة. كانت كل كلماته، رغم ما كان يحس به في قرارة نفسه من وجاهتها وأحكامها، تبدو سخيفة حالما ينطق بها بصوت مرتفع. بينما كانت بلاهات هيـپوليت وحماقاته تعتبر مقبولة ومعبرة عن بديهة وتوقد ذكاء. أما الآن فقد... فقد انعكست الآية. لقد أصبحت أتفه كلمة يفوه بها «رائعة». حتى أن أنا پاڤلوڤنا إذا لم تعرب عن ذلك بتهافت، فإنه كان يلاحظ أن سكوتها ليس إلا عزوفاً منها عن إخجال تواضعه.

في مطلع شتاء ١٨٠٥ ـ ١٨٠٦، تلقى پيار، بطاقة أنا پاڤلوڤنا المعهودة، تدعوه فيها إلى وليمة، وقد ذيلت البطاقة بالملاحظة التالية: «لسوف ترى عندي هيلين الجميلة التي لا يمل أحد التحديق إلى جمالها».

لأول مرة، شعر پيار عند قراءته تلك الجملة أن علاقة ما قامت بينه وبين هيلين، علاقة تقبلها كل الناس ولكنها كانت ترهبه لأنها تفرض عليه التزامات لا يستطيع القيام بها. مع ذلك فإن تلك الفكرة كانت تروقه على اعتباره طارئاً مسلّياً.

إن حفلة أنا پاڤلوڤنا لم تختلف عن سابقتها إلا في الوجه الجديد الذي راحت تفكه به مدعويها. لم يكن في تلك الليلة مورتمارت كما في المرة السابقة، بل دبلوماسي وصل أخيراً من برلين يحمل معه آخر الأخبار عن إقامة الأمبراطور ألكسندر في پوتسدام وتفاصيل التحالف القوي الذي تعاهد عليه العاهلان الصديقان للدفاع عن قضية الإنسانية وحقوقها ضد الإنسانية. استقبلت أنا پاڤلوڤنا پيار وعلى وجهها سحابة من الحزن سببتها الخسارة

القاسية التي مُني بها الشاب، إذ إن كل الناس كانوا يتظاهرون بإيمانهم الشديد بحزن الشاب على أبيه الذي لم يعرفه ولم يقض معه إلا طفولة قصيرة.

كان ذلك الحزن البادي على وجهها يشبه إلى حد بعيد الخطورة الكئيبة التي تعلو وجهها كلما تحدثت عن سيدتها الجليلة الأمبراطورة ماري فيودوروڤنا. فشعر پيار بشيء من التيه لهذا الاستقبال. وزعت أنا پاڤلوڤنا ببراعتها المعهودة مدعويها على جماعات فكانت الجماعة الرئيسية تحيط بالأمير بازيل والجنرالات الذين كانوا يتلذذون بالتندر والبحث في الشؤون السياسية. وكانت جماعة أخرى تحيط بطاولة للشاي. وكان پيار يود من صميم قلبه لو انضم إلى جماعة المتحدثين بالسياسة، لكن أنا پاڤلوڤنا لم تكد تراه وتقدر عزمه حتى أسرعت إليه مبتهجة وكأنها رئيس في ساحة معركة اشتهر بحسن توجيهاته ودقة آرائه، فلمست ذراعه بيدها وقالت وهي تلقي نظرة على هيلين وتبتسم له في الوقت نفسه: انتظر، إنني أشملك هذا المساء بعناياتي.

وقالت تخاطب هيلين: يا هيلينتي الطيبة، يجب أن تكوني محسنة لـ«ماتانت»، فما قولك في الذهاب إليها والبقاء معها بضع دقائق؟ إنني أقدم لك عزيزنا الكونت الذي لن يرفض صحبتك خلال هذا الوقت كي يبعد عنك السأم.

مضت هيلين للقاء «ماتانت»، بينما أمسكت أنا پاڤلوڤنا بذراع پيار من جديد واستبقته برهة متظاهرة بأن عليها قبل أن تطلق يده أن تزوده بنصائحها وتوصياتها الضرورية.

وأشارت إلى الجمال الصارخ المتجسد في شخص هيلين التي كانت تتجه باعتداد ناحية «الماتانت» بخطوات مهيبة: ألست تراها رائعة الجمال؟ ثم يا لجمال هندامها! ويا لكياستها ووفرة علمها واتزانها رغم سنها الصغيرة وشبابها المتدفق! إن هذه المزايا طبيعية عندها وهي تدل على جمال قلبها. كم

هو سعيد ذلك الذي سيمتلكها. إن أقل الأزواج خبرة في الأوساط الراقية لن يجد نفسه معها إلا وقد أصبح في أوج المجتمع. ألست من هذا الرأي؟...

وأطلقت أنا پاڤلوڤنا پيار الذي راح ينعم النظر بإخلاص في مظهر هيلين الأنيق ولهجتها المتزنة. لم يكن يفكر ـ إذا أراد التفكير فيها ـ إلا في جمالها فحسب، في ذلك الفن النادر الذي تمكنت منه حتى راحت تتخذ مظهراً صامتاً في كل الأندية.

وهي في زاويتها، استقبلت «ماتانت» الشابين بتصرف كان يوحي بشديد خوفها من ابنة أخيها أنا پاڤلوڤنا أكثر مما ينبيء بحبها لهيلين الجميلة، اختلست نظرة إلى ابنة أخيها كأنها تستشيرها في السلوك الذي ينبغي أن تسير عليه معها. ولما انسحبت أنا پاڤلوڤنا، لمست كمّ پيار من جديد وقالت ملمحة وهي تنظر إلى هيلين: آمل أن تكف عن القول بأن الإنسان يشعر بالضجر في حفلاتي!

أما هيلين فقد أعربت بابتسامة وديعة عن أنها لا تتوقع ألّا يُعجب كل من يراها ويفتن بجمالها. سعلت «ماتانت» برهة وابتلعت ريقها ثم أعلنت لهيلين فرحها لرؤيتها ثم وجهت إلى پيار مثل ذلك القول بعد أن سعلت وابتلعت ريقها أيضاً. وانخرط الثلاثة في حديث لا معنى له، راحت هيلين خلاله تلتفت نحو پيار وتقطعه ابتسامتها المشرقة الصافية، تلك الابتسامة التي كان من عادتها منحها للجميع.

وكان پيار قد ألف تلك الابتسامة حتى أنه لم يعد يشعر بها لأنها كانت غير معبرة بالنسبة إليه، وإذا كانت تعبر عن شيء، فإنما عن تفاهة لا طائل فيها. وفي تلك اللحظة راحت «الماتانت» تمتدح علب السعوط التي كان الكونت بيزوخوف المرحوم يقتنيها. وبتلك المناسبة، أخرجت علبتها تعرضها على الشابين. فطلبت هيلين رؤية صورة زوج السيدة الفاضلة التي كانت منقوشة على غطاء العلبة تزينه.

قال پيار: إنها، دون شك، من صنع ڤينيس (ويقصد بذلك النقّاش اليدوي الشهير).

وانحنى على المنضدة لالتقاط العلبة وهو يستمع إلى الحديث الدائر حول الطاولة المجاورة.

همَّ بالنهوض ليدور حول المنضدة ويلتقط العلبة، غير أن «ماتانت» مدت يدها بها من وراء ظهر هيلين التي رأت من واجبها، تسهيلاً لحركة العجوز، أن تنحني قليلاً نحو پيار. فانحنت والتفتت نحوه مبتسمة. كانت ترتدي ثوب سهرة حاسر العنق يبرز الصدر وجزءاً كبيراً من الظهر كما كانت عليه أزياء ذلك العصر. فكان جذعها اللدن الذي كان پيار يتخيله دائماً منحوتاً في الرخام، شديد القرب منه حتى أنه رغم قصر بصره، لم تغب عن عينيه حركات العنق العاجي والكتفين المرمريتين، كان شديد القرب حتى إنه كان يكفي أن ينحني قليلاً حتى يلامس بشفتيه ذلك الجسد. أحس بدفء ذلك الجسد الفتي واستنشق عبيره، وأصغى إلى قرقعة حمالة النهدين الخفيفة.

وبدلاً من أن يرى ذلك الجمال والتكوين المرمري الذي كان متحداً مع الزينة الخارجية، أتيح لپيار بتلك الانحناءة أن يرى ويخمن ما تحت ذلك الستر الرقيق من الثياب ويقدر أن وراءه سحر جسد رائعاً شديد المفاتن. ومنذ أن وفق إلى ذلك الاكتشاف، استحال عليه أن يرى شيئاً آخر كما يستحيل على كل إنسان التعلق بخيال مرة ثانية بعد أن يكتشف حقيقته.

بدا على وجه هيلين تعبير من تقول: «إنك لم تكن ترى أنني أصبحت امرأة ناضجة؟ نعم امرأة تريد أن تصبح ملكاً لهذا أو لذلك، لك كما لسواك من الناس». وعندئذ أحس پيار أن هيلين لا يمكنها أن تكون زوجته فحسب بل إنها يجب أن تكون زوجته ولا شيء غير ذلك.

وأدرك ذلك منذ اللحظة بمثل التأكيد والاطمئنان الذي يشعر بهما لو

كان واقفاً معها بين يدي الكاهن يبارك زواجهما. أما كيف سيتحقق ذلك ومتى سيتحقق؟ كان يجهل التفاصيل. بل إنه لا يعرف إذا كانت تلك النهاية المنتظرة ستكون حدثاً سعيداً أو عكس ذلك، وكان ينتظر الحل الثاني بشكل غامض، لكنه كان متأكداً أن ذلك سيتم بالفعل.

خفض پيار عينيه ثم رفعهما وهو يتمنى لو أنه رآها كتلة جمال صارخ صعب المنال كما كان يراها في الأيام السابقة. لكنه لم يستطع إقناع نفسه بوجاهة ذلك. بل كان يستحيل عليه رؤيتها كذلك كما يستحيل على المرء الذي ظن تحت تأثير الضباب الكثيف أن حزمة من الحشيش إن هي إلا شجرة سامقة، أن يرى بعد انقشاع الضباب الشجرة حزمة من الحشيش أو أن يخدعه نظره مجدداً. كانت شديدة القرب منه وقد أثرت في شخصه واستولت على تفكيره. فلم يبق بينهما منذ ذلك الحين من عقبات إلا ما تواجهه في طريقهما إرادته الشخصية.

ارتفع صوت أنا پاڤلوڤنا يقول: حسناً، سأدعكما في زاويتكما. أرى أنكما على أحسن ما يرام.

وعندئذ راح پيار يتساءل بشيء من الارتياع عما إذا لم يكن قد ارتكب فعلاً مشيناً يستوجب اللوم، فاحمر وجهه وراح يسرح الطرف حوله بنظرات قلقة. كان يخيل إليه أن كل المدعوين باتوا يعرفون ما حدث له في تلك اللحظة مثل معرفته تماماً.

ولما انضم بعد فترة إلى الجماعة الرئيسية قالت له أنا پاڤلوڤنا: يقال إنك تجمّل منزلك في پيترسبورغ وتدخل عليه تحسينات جديدة.

والواقع كان كذلك. إذ إن پيار، دون أن يعرف السبب، نزل عند رأي مهندسه الجازم، فأمر بإجراء إصلاحات وإدخال تحسينات كثيرة على قصره المنيف في پيترسبورغ.

تابعت وهي تبتسم: إن هذا حسن. ولكن لا تترك منزل الأمير بازيل. إن من الخير أن يكون للمرء صديق كالأمير بازيل. ألا تراني أعرف شيئاً ما؟ ثم إنك شاب في مقتبل العمر ولاتزال بحاجة إلى النصح «أرجو أن لا تغضب إذا كنت أسيء التصرف في الحقوق المخولة إلي بوصفي من العانسات المسنات...».

سكتت قليلاً بانتظار عبارة الاحتجاج المألوفة في مثل هذا الموقف عندما تعترف سيدة بتقدمها في السن، ثم تابعت: لكنك إذا تزوجت فإن الأمر يكون مختلفاً.

وشفعت قولها بنظرة شملت الشابين معاً.

لم ينظر پيار إلى هيلين ولم تنظر هي إليه كذلك، لكنها كانت أبداً شديدة الالتصاق به إلى درجة مخيفة. غمغم بضع كلمات غير مفهومة وقد اندفعت الدماء إلى وجهه.

وعندما رجع إلى غرفته، جفاه الكرى طويلاً ونأى النوم عن عينيه. ظل يفكر في ما حدث له. ترى ماذا حدث له ذلك المساء؟ لا شيء. لقد فهم أن تلك المرأة التي كان يعرفها منذ طفولتها والتي كان يقول بلا مبالاة كلما تحدث عنها أو ردّ على أولئك الذين يطرون جمالها: «آه نعم، إنها لا بأس!»، أدرك أن تلك المرأة يمكن أن تصبح له.

وحدّث نفسه قائلاً: «لكنها حمقاء، لقد اعترفت بنفسي بذلك مراراً. هناك شيء من الانحطاط في الشعور الذي تلهمينه. لقد زعموا أن أناتول أخاها قد أغرم بها وأنها كانت كذلك مغرمة به تعشقه؛ وقد يكون إبعاد أناتول راجع إلى هذا السبب. ثم هناك أخوها الآخر هيپوليت وأبوها الأمير بازيل... هم! إن كل هؤلاء لا يروقونني...».

وبينما كان يناقش نفسه، على هذا النحو، دون أن يندفع بأحكامه إلى

المدى الأقصى أحسَّ بابتسامة تتحرك على شفتيه، واعترف أن هناك مناقشات أخرى كانت تتغلب في نفسه على تلك الاعتراضات. لقد كان يحلم بجعل هيلين زوجة له رغم اعترافه بتفاهة شأنها ومعرفته الأكيدة لذلك. لعلها كانت تستطيع أن تحبه في المستقبل، لعلها كانت خلافاً لكل ما ظن بها من سوء، ولعل كل ما قيل عنها ليس مرتكزاً على أسس متينة وتعود ابنة الأمير بازيل تخطر في خياله ليس بوصفها ابنته بل على اعتبارها المرأة التي لا يكاد الثوب الأشهب يغطي جسدها الفاتن.

«ولكن لمَ لم تراودني أفكار مماثلة من قبل؟» ومجدداً راح يؤكد لنفسه استحالة ذلك وأن ذلك الزواج لن يخلو من شيء مقيت، شيء ينقصه الشرف. تذكر كلماتها ونظراتها كما تذكر كلمات أولئك الذين كانوا يرونهم معاً ونظراتهم. تذكر عبارة أنا پاڤلوڤنا عندما حدثته عن منزله في پيترسبورغ وتذكر ألف تلميح وتلميح صدرت كلها عن الأمير بازيل في مناسبات متعددة وعن أشخاص آخرين.

عندئذ استولى عليه خوف شديد: ألم يقذف بنفسه في مغامرة تجلب عليه النقد واللوم دون شك، وعليه تحاشيها والتخلص منها؟ لكنه في الوقت نفسه، في أحلامه الكثيرة تلك الليلة كانت صورتها هي تبعث بين ألوف الأشياء الأخرى وتطالعه بكل إغرائها الأنثوي البديع.

الفصل الثاني

في تشرين الأول عام ١٨٠٥ عزم الأمير بازيل على القيام بجولة تفتيشية في أربع مقاطعات. وكان قد صمم القيام بتلك الرحلة ليتمكن من زيارة ممتلكاته التي كانت أوضاعها المتزعزعة تثير قلقه باستمرار. وكان يُنتظر أن يصطحب ابنه أناتول من المدينة التي كانت فرقته مستقرة فيها لزيارة الأمير پولكونسكي العجوز الذي كان يأمل الفوز بيد ابنته، تلك الوارثة الغنية. لكنه كان مصمماً، قبل الاندفاع في تدابيره الجديدة، على الانتهاء من مشكلة پيار.

والحقيقة، أن هذا لم يكن يغادر مسكنه منذ أسابيع، تبدو عليه في حضرة هيلين الجميلة بوادر الاضطراب والبلاهة والحياء الشديد، وهي الصفات المعروفة عن العاشقين، لكنه لم يكن بعد قد حزم أمره على التصريح بواقع حاله خلافاً لما كان ينتظر الأمير بازيل.

في صباح ذات يوم، حدث الأمير بازيل نفسه بقوله: «إن كل هذا جميل ورائع ولكن يجب أن أنتهي منه». وندت عن صدره زفرة عميقة، والواقع أن پيار ذاك، الذي كانت عليه التزامات كثيرة ليباركه الله! لم يكن يتصرف تصرفاً سليماً في تلك المسألة. كان يحدث نفسه بقوله: «الشباب.. الطيش.... ليباركه الله! ويلذ له إشعار نفسه بطيبته المتزايدة بتلك البركات التي يستمطرها عليه، ولكن يجب أن ننتهي من هذا. إن عيد ليوليا، وهو تحريف وتدليل لاسم هيلين ابنته، سيحل بعد غد. ولسوف أدعو بعض الأشخاص. فإذا لم يفهم هو واجبه فأنا سأقوم بواجبي. إنني على كل حال أبوها!».

انقضت ستة أسابيع على حفلة أنا پاڤلوڤنا الأخيرة وليلة الأرق تلك، التي قرر پيار فيها أن ذلك الزواج سيسبب له التعاسة وأن عليه تنكب سبيل هيلين والفرار منها مهما بلغ الثمن. لكنه مع ذلك لم ينفك عن السكنى في منزل الأمير بازيل طوال تلك المدة متطلعاً خلالها برعب إلى أن كل يوم يقضيه هناك يزيده تعلقاً بهيلين وقرباً منها في نظر الناس، وأن عودته إلى نفوره السابق منها أمر مستحيل.

شعر بعجزه التام عن انتزاع نفسه من بين يدي هذه المرأة التي كان يعتبر ربط مصيره بمصيرها مجازفة خطيرة عليه أن يتجنبها ولعله كان يستطيع رغم ذلك أن ينجو بنفسه من ذلك الخطر لولا أن الأمير بازيل راح يحيي كل يوم، خلافاً لعادته، حفلات كان على پيار الظهور فيها إلا إذا كان معتزماً تشويه متعة المدعوين بتخلفه وتبديد أملهم. وفي المناسبات النادرة التي كان پيار يجد نفسه فيها في منزله، كان الأمير يسرع إليه فيضغط بقوة على يده مصافحاً ويقدم له وجنته المجعدة لتقبيلها وهو يقول له: «إلى الغد» أو: «تعال لتناول الغداء معنا وإلا فلن أعود إلى رؤيتك» أو كذلك: «إنني سأنتظرك وأبقى خصوصاً من أجله» فإنه كان يوجه إلى پيار أكثر من كلمتين اثنتين خلال الجلسة كلها.

ولم يكن هذا قادراً على مشاكسته أو الصمود له. وفي كل يوم كان پيار لا يفتأ يردد في سره: «ينبغي أن أفهمها رغم كل ذلك وأن أصل إلى حقيقتها لأعرف هل كنت مخدوعاً من قبل أو أنني أخدع نفسي الآن؟... كلا إنها ليست حمقاء، كلا، إنها فتاة رائعة إنها لا تأتي أبداً أمراً منكراً، إنها تتكلم نادراً، لكن ما تقوله يكون دائماً مصيباً وواضحاً، فهي إذن ليست حمقاء. إنها ذات مزاج متزن لأنني لم أرها مرة مضطربة مرتكبة، فهي إذن شخصية ممتازة». وكان غالباً يتورط في التفكير بصوت مرتفع أمام هيلين فيلقي ببعض الآراء فكانت تجيبه إجابة قصيرة تدل، رغم ما فيها من وفرة المعاني، على استخفافها بتلك

الأمور إلا إذا أعربت خلافاً لذلك بنظرة أو بابتسامة، عن تساميها. ولقد كانت على صواب إذ ماذا تجدي تخرصات الناس وآراؤهم أمام تلك الابتسامة التي تنطق ببيان فصيح لا تعبر عنه الكلمات؟

لقد خصّته هيلين بابتسامة مرحة مطمئنة تحمل من المعاني ما لا تحمله ابتساماتها التقليدية التي ترسمها على شفتيها في كل المناسبات. وكان كل الناس ينتظرون أن ينطق پيار بكلمة أو أن يتخطى حدوداً معينة. وكان يعرف ذلك تماماً كما يعرف أنه سوف يتجاوز ذلك الحد آجلاً أو عاجلاً. لكن خوفاً غامضاً كان يستولي عليه لمجرد التفكير في تلك الخطوة الآتية. حدث پيار نفسه ألف مرة خلال تلك الأسابيع الستة وهو يشعر أنه يجذب كل يوم أكثر من اليوم الأسبق إلى تلك الهاوية الرهيبة: «ولكن عجباً، إن الأمر لا يعدو وجوب اتخاذ قرار، فهل أكون عاجزاً عن اتخاذ خطوة حاسمة؟».

رغم إصراره على اتخاذ قراره النهائي ـ كان پيار يشعر دائماً بذعر كلما رأى أن التصميم الذي كان يظن أنه جازم وفي طاقته التمسك به، يتبدد ويهجره في موقفه الحاضر. كذلك هي الحال لدى بعض الأشخاص الذين لا يشعرون بحقيقة قواهم الداخلية إلا إذا كان لهم ضمير نقي صاف. لذلك، منذ ذلك اليوم استولت فيه الرغبة الجامحة عليه بينما كان يعاين علبة السعوط عند أنا پاڤلوڤنا شل الخبث والمقصد السيئ اللذان نبتا في ضميره كل حركات إرادته.

في يوم عيد هيلين، لم يستقبل الأمير بازيل إلا مجموعة من الأقرباء والأصدقاء أو بعبارة أصح «الحلقة الصغيرة» كما كانت تسميهم الأميرة، وقد أشعر هؤلاء المدعوون، بشكل غير مباشر، أن مصير ابنة الأمير يتوقف على تلك اللحظة.

كانت الأميرة كوراغين، وهي سيدة ضخمة مهيبة الطلعة ذات جمال لم تعصف الأيام بكل آثاره، تترأس الطاولة وحولها المدعوون الأرفع شأناً

ومقاماً: جنرال عجوز وزوجته، أنا پاڤلوڤنا شيرر إلخ... وعلى طرف الطاولة، انتظم عدد من المدعوين ممن كانوا أقل شأناً أو أصغر سناً، وكان پيار وهيلين بين هؤلاء يجلسان جنباً إلى جنب. لم يشترك الأمير بازيل في تناول الطعام مع ضيوفه.

كان مزاجه شديد الصفاء، فكان يدور حول الطاولة فيجلس تارة قرب هذا وطوراً قرب ذاك، هامساً كلمة مجاملة في أذن هذه أو عبارة شيقة تطوي تلك لكنه لم يقترب من پيار وهيلين، وكأنه لم يكن يشعر بوجودها على الإطلاق كان يثير حماسة الموجودين وشهيتهم. وكانت الفضيات والكؤوس «الكريستالية» تلتمع تحت ضوء الشموع القوي وكذلك حلي النساء والصفائح الدقيقة الذهبية أو الفضية التي تزين أكتاف الرجال. وكان الخدم بأثوابهم الحمراء ناشطين في خدمة المدعوين وتلبية رغباتهم، ورنين السكاكين وقرع الكؤوس، واحتكاك الملاعق بالأطباق تختلط بالجدل. ارتفع من أحد أطراف الطاولة صوت حاجب عجوز يوجه إلى بارونة عجوز تصريحاً منمقاً يطري جمالها بلغة البلاط، الأمر الذي جعلها تنفجر ضاحكة من ذلك البيان الهزلي.

وفي جانب آخر كان القوم يتندرون بضائقات من تدعى ماري ڤيكتورڤنا. أما في الوسط فقد كان الأمير بازيل محور الانتباه. كان يقص على السيدات تفاصيل آخر جلسة لمجلس الدولة الاستشاري وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. قال إن تلك الجلسة عقدت يوم الأربعاء الفائت وإن حاكم پيترسبورغ العسكري الجديد، سيرج كوزمتيش ڤيازميتينوف، قرأ خلالها «فرماناً» بخط الأمبراطور ألكسندر، تسلمه عن طريق الجيش. كان الأمبراطور في كتابته الشريفة يخاطب ڤيازميتينوف قائلاً إنه يتلقى من كل مكان كتباً تعرب عن ولاء مرسليها وإخلاصهم وإن تلك التي أرسلت إليه من پيترسبورغ كانت تلقى عند جلالته عناية وتقبلاً فائقين، وأنه يشعر بفخار لأنه رئيس أمة عظيمة كالأمة

الروسية وأنه يعمل ما في وسعه ليكون جديراً بها. وكان الكتاب الشريف يبدأ بهذه الكلمات: «سيرج كوزميتش، تصلني من كل مكان...».

فسألت إحدى السيدات: إذن، لم يستطع الاسترسال في قراءته أبعد من عبارة «سيرج كوزميتش»؟

فأجابها الأمير ضاحكاً: كلا، بل «سيرج كوزميتش، من كل مكان... من كل مكان، سيرج كوزميتش...» لم يستطع البائس التخلّص من هذه الجملة. لقد حاول غير مرة متابعة القراءة. لكنه كان في كل مرة لا يكاد يتفوه بكلمة «سيرج» حتى ينفجر باكياً. وعند «كوز... ميتش» يزداد انتحاباً. أما عند «من كل مكان» فقد يختنق بالعبرات، فيخرج منديله من جديد ويعاود القراءة: «سيرج كوزميتش، من كل مكان» غير أن بكاءه كان لا يلبث أن يتعالى أكثر فأكثر... حتى أنه اضطر أخيراً إلى تكليف سواه قراءة الكتاب الشاهاني!

كرر أحدهم ضاحكاً: كوزميتش... من كل مكان... وكان يبكي ويرتفع نحيبه!

فهتفت أنا پاڤلوڤنا من الجانب الآخر من الطاولة بسبابتها:

ـ اعقلوا، إن «ڤيازميتنوڤنا» الطيب رجل باسل ممتاز!

فعم الضحك الطاولة كلها، ذلك الضحك الذي ما كان ينفك يتردد لأتفه الأسباب. وكان پيار وهيلين الوحيدان اللذان بقيا في مكانيهما صامتين وعلى شفاههما طيف ابتسامة لم تستكمل بعد. لم تكن لتلك الابتسامة أية علاقة بموضوع سيرج كوزميتش، بل كانت ابتسامة احتشام منبعثة عن عواطفهما الخاصة. وعلى الرغم من أن المدعوين استمروا يتحدثون ويتضاحكون ويتفكهون متلذذين بتذوق خمرة الرين وأطايب الطعام، متظاهرين بعدم الاهتمام بالشابين، فإن نظراتهم المختلسة التي كانوا يوجهونها إليهما من حين إلى آخر كانت تدل دلالة واضحة على أن فكاهة سيرج كوزميتش والقهقهات

المدوية، والوليمة الحافلة، وكل ما يحيط بها، ليس إلا خدعة يراد بها التمويه وأن الاهتمام العام منصبّ بكليته على الشفع: هيلين پيار.

وبينما كان الأمير بازيل يقلد سيرج كوزڤيتش في انتحابه، شمل ابنته هيلين بنظرة محيطة، وعندما كان ينقلب على قفاه مقهقهاً كان وجهه ينطق بصراحة: «إن كل شيء على ما يرام وإن كل شيء سيقرر هذا المساء» وكانت أنا پاڤلوڤنا تدافع عن «ڤيازميتينوڤنا الطيب» وهي تتخذ مظهر المتوعد. لكن الأمير بازيل كان يقرأ في عينيها خلال تلك النظرة الحادة التي سلطتها على پيار، أنها تهنئه بصهره الجديد المنتظر وبسعادة ابنته المرتقبة. أما الأميرة، فكانت وهي تقدم الخمر لجاراتها، تلقي على ابنتها نظرة غاضبة تطلق زفرة كئيبة وكأنها تقول: «بلى يا عزيزتي، لم يبق لنا الآن إلا أن نشرب النبيذ الحلو، لأن الدور قد أصبح لهذه الشبيبة وعليها أن تنشر سعادة شديدة السفاهة والوقاحة!» وكان هناك سياسي يرقب وجهي العاشقين المشرقين ويقول لنفسه متسائلاً: «لماذا أتظاهر بالاهتمام بكل ما أروي؟ إن كل هذا ليس إلا سخافات! والواقع إن هذا وحده هو السعادة الحقيقية!».

انبثق فجأة شعور جديد طبيعي غريزي. وفي غمار ذلك التشاغل التافه الذي يصطنعه الموجودون ليربط بينهم في تلك اللحظة، كان ذلك الشعور هو الرغبة التي يشعر بها أحدهما في الآخر، مخلوقان فتيان نبيلان!

كان ذلك الشعور مهيمناً على كل شيء، وكان متفوقاً على الثرثرات العرضية التي علت جلبتها في ذلك المكان. فقدت الدعابات ملاحتها والأنباء الجديدة طرافتها وأهميتها، وظهرت الحماسة العامة على حقيقتها مصطنعة. ولقد امتدّ ذلك الشعور إلى الخدم أنفسهم الذين كانوا رغم إغفالهم خدمة الشابين متعمدين، لا يزالون يتأملون وجه هيلين المشرق الوضاح ووجه پيار المحمرّ بقسماته الكبيرة التي امتزج البشر والقلق في الظهور عليها.

كان پيار يشعر أنه أصبح محط أنظار الجميع فكان يشعر بارتياح يشوبه الاضطراب والارتباك، لا يصغي إلى شيء ولا يفهم أو يسمع شيئاً شأن الرجل المنهمك في مشاغله. لولا أنه، من حين إلى آخر، كانت بعض الأفكار أو المشاعر الغامضة تعيده إلى الحقيقة دون سابق إنذار.

كان يفكر في سرّه «إذن لقد انتهى كل شيء... ولكن كيف وقع كل هذا؟ أبمثل هذه السرعة! إنني أرى الآن أن هذا الأمر يجب أن يتم ليس من أجلها هي أو من أجلي أنا، بل من أجل هؤلاء جميعاً لأنهم ينتظرون حدوثه بتلهف. إنهم ينتظرون كلهم حدوث «هذا الشيء» بمزيد من القناعة حتى أنني لا أجد ما يبرر خيبة أملهم. أما كيف سيتم ذلك؟فإنني لست أدري. لكن ذلك سيتم، أجل، سيتم حتماً».

بينما كان مستغرقاً في خواطره، كانت نظراته تجوب رحاب تينك الكتفين العاجيتين الرائعتين القريبتين من عينيه النهمتين. لكن لوناً من الخجل استولى عليه فجأة عندما فكر في أنه يحتكر اهتمام الموجودين جميعاً وأنه يبدو أمامهم بمظهر الرجل السعيد، وأنه بوجهه البعيد عن منازل الجمال، يلعب دور پاريس[1] في غزو قلب هيلين الجميلة.

وأخذ يفكر مواسياً: «مع ذلك فإن الأمر دائماً يبدو كذلك ولا يمكن أن يكون على شكل آخر... ثم إنني ماذا فعلت في سبيل ذلك؟ متى بدأ هذا الشيء؟ إنني عندما غادرت موسكو مع الأمير بازيل، لم يكن في الأمر شيء من كل هذا. ثم إنني ولا شك لم أكن أستطيع رفض النزول في ضيافته، ثم لعبت معها الورق والتقطت حقيبة يدها مرة، ورافقتها في نزهة... فمتى إذن بدأ هذا؟ متى وقع كل هذا؟» وها هو الآن يجلس بقربها وكأنه خطيبها، إنه

---

(١) عشيق هيلانة زوجة مينيلاس وهو الذي أعطى جائزة الجمال للإلهة ڤينوس (إلياذة هوميروس) (المترجم).

يسمعها ويراها ويحس بوجودها، يشعر بتنفسها وحركاتها وجمالها. جمالها؟ أوَلَيس جماله هو، وليس جمالها، الذي يجذب كل هذه الأنظار؟ واعتد بنفسه حين بلغ من مناقشته هذا الحد، فاستوى بجذعه ورفع رأسه مغتبطاً. وفجأة خيل إليه أن صوتاً مألوفاً لديه ارتفع مرتين. لكنه كان مستغرقاً في أحلامه فلم يفهم ما قيل له. ولما كرر الأمير بازيل سؤاله للمرة الثالثة قائلاً:

ـ إنني أسألك متى تسلمت رسالة پولكونسكي. كم أنت ساهم البال يا عزيزي!

وابتسم الأمير فرأى پيار أن الآخرين جميعهم يشاركونه في الابتسام وعيونهم شاخصة إلى هيلين وإليه. فقال في سره: «ماذا بعد، ما دمتم جميعاً على علم بالحقيقة... ثم هي الحقيقة الواقعة». وافتر ثغره عن ابتسامته الهادئة، ابتسامة الطفل البريء التي استجابت لها هيلين بابتسامة مماثلة.

ألح الأمير مستفسراً وقد بدا عليه أنه في حاجة إلى الجواب ليضع حداً لنقاش معين: ألا تتكلم، متى تلقيت تلك الرسالة؟ هل كانت واردة من أولموتز؟

فأسر پيار في نفسه قوله: «كيف يمكنهم الاهتمام بتفاهات كهذه؟» وأجاب بصوت مرتفع مشفوع بزفرة: نعم، من أولموتز.

وانتهى العشاء فرافق پيار رفيقته إلى القاعة أسوة بالآخرين. وأخذ المدعوون ينسحبون تباعاً فكان بعضهم لا يودع هيلين مطلقاً والبعض الآخر يتظاهر بعزوفه عن إزعاجها في انشغالاتها الجدية، فيقترب منها قليلاً ثم يستأذن مسرعاً ملحفاً عليها في البقاء مكانها معفيها من واجب التشييع.

فالسياسي انسحب انسحاباً صامتاً لأن حياته كلها بدت لعينيه تافهة إذا قيست بهناء پيار وسعادته، والجنرال العجوز اقتاد زوجته التي كانت تشكو ألماً في ساقها وهو يحدث نفسه قائلاً: «هه! أيها الحيوان العجوز، انظر إلى هيلين

ڤاسيلييڤنا، ها هي ذي امرأة تظل محتفظة بجمالها ولو تخطت الخمسين». أما أنا پاڤلوڤنا فقد همست في أذن الأميرة الأم قائلة: أعتقد أنني أستطيع تقديم تهاني منذ الآن.

وانحنت عليها تعانقها وتابعت: لولا إصابتي بالبرد لبقيت وقتاً أطول.

فلم تجب الأميرة، لقد كانت تغبط ابنتها بل تحسدها على سعادتها.

وبينما كان الأمير وزوجه يقودان الضيوف الذاهبين ويشيعونهم، بقي پيار منفرداً بهيلين في القاعة الصغيرة دون رقيب. لقد ظل وحيداً معها عدة مرات خلال الأسابيع الستة المنصرمة لكنه لم يحدثها قط عن الحب. لكنه كان يشعر أن مثل هذا الحديث أصبح الآن ضرورة ملحة. لكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ الخطوة الأولى، كان يشعر بالخجل، لقد كان يرى أنه يحتل مكاناً قرب هيلين جاهزاً لغيره من الناس. وكان هاتف داخلي يهيب به قائلاً: «إن هذه السعادة لم تخلق من أجلك، لقد خلقت لأولئك الذين لا يملكون ما تملكه في نفسك من مشاعر».

مع ذلك، شعر بضرورة التحدث بشيء ما، أي شيء، وحزم أمره على الكلام. سألها عما إذا كانت مسرورة من تلك الحفلة. فأجابته بطهرها وبراءتها المعهودين أن ذلك اليوم كان أجمل أيام الأعياد في حياتها كلها.

كان بعض الأقرباء المقربين لا يزالون يجالسون الأميرة الأم في القاعة الكبيرة، فجاء الأمير بازيل إلى حيث جلس الشابان يسترق الخطى. فنهض پيار عند قدومه وأعرب عن تأخره لأن الوقت قد أصبح متأخراً. لكن الأمير أظهر بنظرة قاسية مستفهمة أن مثل ذلك القول غريب وفي غير محله. لكنه تمالك نفسه فوراً وأمسك بذراع پيار فأجلسه وابتسم له ابتسامة وديعة.

سأل ابنته بلهجة ماجنة طبيعية لدى الآباء الذين أنشأوا أولادهم في النعيم والدلال، لهجة كانت غير واضحة لديه كما يجب: وإذن يا لوليا؟

ثم التفت إلى پيار وقال وهو يفك أزرار صدارته: «سيرج كوزميتش، من كل مكان».

ابتسم پيار. لكن ابتسامته، التي تعني، للأمير على أنه يفهم تماماً أن أقصوصة سيرج كوزميتش ليست هي التي تستأثر بانتباهه إلى هذا الحد في تلك اللحظة. وفهم الأمير كذلك أن پيار لم يكن غبياً كما كان يعتقد، فانسحب وهو يمضغ كلمات غير مفهومة. ولم يفت پيار اضطراب هذا النبيل العجوز ذي الوجه الجامد، وأثر ذلك الارتباك فيه، فالتفت إلى هيلين فبدت هي الأخرى مرتبكة تنظر إليه نظرة ناطقة تقول: «إنها خطيئتك على أية حال!».

خاطب پيار نفسه قائلاً: «لا شك أن علي أن أسرع في بلوغ النتيجة لكنني لا أستطيع، لا أستطيع». وعاد يتحدث في أمور تافهة. سألها عن حقيقة أقصوصة سيرج كوزميتش التي لم يكن قد استوعبها. فاعترفت له هيلين باسمة أنها هي الأخرى لا تعرف عنها أكثر مما يعرف.

ولما عاد الأمير بازيل إلى القاعة الكبيرة، كانت الأميرة تتحدث عن پيار مع سيدة في سنّ ناضجة: صحيح أنها صفقة موفقة، لكن السعادة يا عزيزتي...

فأجابتها السيدة المسنة: إن أمر الزواج بيد الله...

بدا على الأمير بازيل أنه لم يسمع تلك المحاورة، وراح يتهاوى على كنبة في إحدى الزوايا ولم يلبث أن أغمض عينيه وكأنه أغفى. ولما سقط رأسه على صدره تمالك نفسه وقال لزوجته: ألين، اذهبي وانظري ماذا يفعلان.

نهضت الأميرة واجتازت الباب وعلى وجهها طابع الخطورة واللامبالاة، فألقت نظرة على القاعة الصغيرة حيث كان پيار وهيلين يتحدثان. فقالت لزوجها: إنهما لا يزالان ينسجان على منوال واحد: الحديث!

قطب الأمير بازيل حاجبيه فتقلص جانب من فمه واهتزت وجنتاه وانطبع وجهه بذلك الطابع البشع وانتفض واستوى واقفاً، وألقى برأسه إلى

الوراء ومر بالسيدات غير عابئ بهن، واتجه نحو القاعة الصغيرة بخطوات ثابتة. مضى من فوره إلى پيار الذي ما إن شاهد خطورة قسمات وجهه حتى انتصب واقفاً مذعوراً.

قال الأمير: حمداً لله لقد حدثتني زوجتي بكل شيء.

ثم طوق پيار بإحدى ذراعيه وهيلين بالأخرى وعقب:

ليوليا، يا فتاتي، إنني سعيد، شديد السعادة... واختلجت نبرات صوته من الانفعال... وأنت يا پيار، لقد كنت أحب أباك... لسوف تكون رفيقة جديرة بك... ليبارككما الله!

وضم ابنته إلى صدره ثم عانق پيار الذي شعر بأنفاسه الكريهة تحجب وجهه، ومن الغريب أن دموعاً حقيقية كانت تبلل جفنيه.

صاح متابعاً: تعالي يا أميرة.

وأسرعت الأميرة، وراحت بدورها تبكي ثم تبعتها السيدة المسنة التي أخذت تمسح دموعها بمنديلها أيضاً، معانقين پيار الذي قبّل بدوره يد هيلين غير مرة وبعد قليل خرجوا نساء ورجالاً تاركين الشابين وحدهما.

حدّث پيار نفسه: «كان لا بد من وقوع هذه الكارثة، فمن العبث إذن أن أتساءل عما إذا كان الأمر حسناً أو سيئاً. والآن وقد حلت القضية فقد تخلصت من شكوكي المقلقة. ربما في هذا وحده ربح كاف» أمسك بيد مخطوبته بصمت وراح يمعن النظر في حنجرتها البديعة التي كانت تهتز بانتظام.

بدأ يقول فجأة: هيلين...

وأرتج عليه. راح يفكر: «إن الإنسان يجب أن يقول شيئاً في مثل هذه المناسبات». لكنه لم يتذكر كلمة واحدة من ذلك الشيء الذي يجب أن يقال. حدق إلى وجهها، فاقتربت منه محمرّة الوجه. قالت وهي تشير إلى نظارتيه: آه! إرفع هذه الـ... هذه الـ...

فأطاعها پيار ونزع نظارتيه فبدت عيناه مروعتين مستفسرتين إلى جانب التعبيرات الأخرى التي كانت مرتسمة فيهما، تلك التعبيرات المألوفة عند الذين درجوا على استعمال النظارات عندما ينزعونها. أراد أن ينحني ليقبل يدها، لكن هيلين، بحركة عنيفة من رأسها، سريعة غير متوقعة، قربت شفتيها من شفتيه وضغطت بهما عليهما. انقلبت سحنتها بشكل غريب حتى أن پيار شُده لذلك التحول.

قال في سرّه: «ليكن، لقد توغلنا كثيراً حتى تتيسر لنا العودة والتراجع ثم إنني أحبها بعد كل شيء!» نطق بقوله: أحبك.

تذكرأخيراً أن هذه الكلمة وأمثالها جديرة بالترديد في تلك المناسبة. لكن تلك الكلمة التي تفوه بها خلفت صدى مؤثراً مخزياً حتى أنه خجل من تلفظه بها.

وتزوج پيار، بعد ستة أسابيع أخرى، فأصبح المالك السعيد لأجمل امرأة ولعدة ملايين، أو أقله هذا ما كان يشاع عنه، فانتقل إلى قصره المنيف الذي أدخل عليه الكثير من التحسينات والإصلاحات، قصر كل كونت من آل بيزوخوف.

الفصل الثالث

تلقى الأمير العجوز نيكولا أندرييتش پولكونسكي في تشرين الثاني من عام ١٨٠٥ رسالة من الأمير بازيل يعلمه فيها بزيارته برفقة ابنه. جاء في الرسالة: «سأقوم بجولة تفتيشية ولا شك أن خمساً وعشرين مرحلة لا تعتبر بالنسبة إليّ شيئاً مذكوراً إذا كان المقصود من قطعها زيارتك يا محسني شديد النبل والاحترام. إن «أناتولي» يرافقني في هذه الزيارة. سيلتحق بالجيش وإنني آمل أن تسمح له أن يعبر لك شفهياً عن بالغ الاحترام الذي يشعر به إزاءك كما يكن مثله لأبيه».

ولما قرأت الأميرة الصغيرة تلك الرسالة قالت بطيش: هه لم يعد من حاجة لدفع ماري في الأوساط. ها إن الراغبين يتبعونها إلى حيث تقيم.

أما الأمير نيكولا أندرييتش فقد عبس ولم يعقب.

وبعد خمسة عشر يوماً، جاء رجال الأمير بازيل يعلنون أن سيدهم سيصل صباح الغد.

كان پولكونسكي العجوز يشعر دائماً بتقدير تافه لعقلية الأمير بازيل وشخصه وقد ازدادت تلك الفكرة قوة في نفسه عندما بلغ بازيل مركزاً لامعاً على عهد العاهلين، پول وألكسندر. وقد أدرك من التلميحات التي وردت في الرسالة من التنويه الذي فاهت به «ليز» الغرض الذي يسعى إليه بازيل، فامتزج الحكم السيئ الذي كان يصدره عليه بشعور بالازدراء والنفور منه.

لم يكن يتحدث عنه إلا مغضباً. وبلغت شراسته ذروتها في اليوم الذي

كان ينتظر وصول الأمير بازيل. فهل كان سيئ المزاج لأن الأمير سيصل ذلك اليوم أم أنه مستاء بصورة خاصة من مجيء الأمير لأنه كان سيئ المزاج؟ على كل حال، لقد كان في وضعية نفسية سيئة حتى أن توخين أشار على المهندس بعدم تقديم تقريره ذلك للأمير الساخط.

قال له وهو يدعوه إلى الإصغاء إلى وقع خطوات سيده! اسمعه كيف يمشي. ألا يضرب الأرض بكعبيه؟ نعرف معنى هذه المشية.

مع ذلك، قام الأمير بنزهته اليومية المألوفة في الساعة التاسعة صباحاً. كان يعتمر قلنسوته المعروفة وفروته المبطنة بالمخمل ذات الياقة المصنوعة من فراء السمور. وكان الثلج قد انهمر بغزارة في الليلة السابقة. لكن الممر الذي كان الأمير يسير فيه كان خالياً من الثلج. لقد كانت الآثار تشير إلى أن الخدم قد أزالوا الثلج عن الممر وكنسوه، وكانت آثار المكانس والرفوش واضحة، بل إن مجرفة كانت مفروشة في مرتفعات الثلج التي تحيط بجانبي الممر. جال الأمير العابس في حديقة البرتقال وفي الزرائب والاسطبل وبيوت أتباعه وتفقد الأبنية والدور المشيدة. سأل وكيله الذي كان يرافقه حتى القصر: هل تستطيع الزحافات المرور؟

فأجاب الوكيل، وهو رجل وقور تكاد سحنته وتصرفاته تكون صورة طبق الأصل عن تصرفات سيده وسحنته: هناك طبقة كثيفة من الثلج يا صاحب السعادة. لكنني أمرت بتنظيف الممر.

بلغ الأمير عتبة القصر. فأومأ برأسه إشارة إلى الموافقة. فهمس الوكيل في سره: «حمداً لله، لم تهب العاصفة»!

أردف معاتباً: ليس من السهل على الزحافة، لولا ذلك، أن تمر يا صاحب السعادة... ولما كان هناك وزير كما يقال آت لزيارة سعادتكم...

وهنا وقع المحذور؛ فقد التفت الأمير فجأة وحدج وكيله بنظرة ملتهبة

صاح بصوته القاسي الثاقب: ماذا قلت؟ وزير؟ أي وزير؟ من أعطاك هذه الأوامر؟ لا تنظف الأرض من أجل الأميرة ومن أجل ابنتي، ولكن من أجل وزير! أنا لا أعرف وزراء!...

ـ كنت أعتقد يا صاحب السعادة...

فصرخ الأمير وهو يقذف بكلمات لا حصر لها بسرعة متزايدة: كنت تعتقد! كنت تعتقد... آه، أيتها الحشرات، يا لكم من أوغاد!.. سأعلمك كيف تعتقد!

ورفع عصاه فوق رأس ألياتيتش وأهوى بها فدفعت الغريزة الرجل إلى تفادي الضربة...

تابع الأمير يقول: لقد كنت تعتقد إذن!... أيها القذر!

على الرغم من أن ألياتيتش، الذي روعه أن يجد في نفسه الجرأة على تجنب الضربة التي وجهها إليه سيده، ازداد اقتراباً من سيده وهو يحني رأسه الأصلع، فلم يعاود الأمير رفع عصاه ليضرب بها الرجل. ولعل اقتراب الوكيل من سيده بتذلل كان السبب في منع تلك المحاولة. لكنه لم يتوقف عن الصراخ وإغراق المسكين بوابل من الشتائم: أيها القذر السافل!... دعهم يعيدوا الثلج إلى الممرّ! واندفع إلى الداخل مغضباً.

انتظرت الأميرة ماري ساعة الغداء، والآنسة بوريين وصول الأمير وهما واقفتان. كانتا مطلعتين على حالته النفسية طوال ذلك اليوم. كانت الآنسة بوريين صافية الوجه يخيل إلى الناظر إليها أنها تقول: «لا أريد معرفة شيء، إنني كما أنا دائماً» أما الأميرة ماري فكانت ممتقعة الوجه خافضة العينين. وتعرف ماري أنه يجدر بها في مثل هذه الأزمات أن تتخذ مظهر الآنسة بوريين البريئة فتبدو باسمة الوجه مثلها. لكنها لم تكن لتستطيع النجاح في تصنع ذلك المظهر. كان عجزها يملأ قلبها حزناً. كانت تقول في سرها: «إنني إذا تظاهرت

بأنني لم ألاحظ عليه شيئاً فإنه يظن أنني لا أعبأ به ولا أحفل بما يصيبه. وإذا عبست واكتأبت فإنه سيقول من جديد إنني حزينة كجلباب الليل!».

وما كاد الأمير يطالع سحنة ابنته المستطيلة حتى انفجر مغمغماً: إما أنك عديمة القلب وإما حمقاء!

وعندما لاحظ اختفاء كنته عن المائدة حدث نفسه قائلاً: «ها إن الأخرى ليست هنا! لعلهم ثرثروا أمامها بحديث ما!»

سأل: ترى أين الأميرة؟ هل هي مختبئة؟

فأجابت الآنسة بوريين باسمة: إنها ليست على ما يرام لذلك فقد احتجبت في غرفتها. إن مثل هذه الأمور منتظرة لمن كانت في مثل حالها.

فتمتم الأمير وهو يجلس إلى المائدة: هم! هم!

كانت إحدى الصحاف على غير ما يشتهي، وحدث أنها غير مستوفية النظافة، فأشار بأصابعه إلى «المنطقة» المشتبه فيها وألقى بالصفحة بعيداً، فالتقطها تيخون قبل أن تسقط وأعطاها لرئيس الخدم.

لم تكن الأميرة الشابة منحرفة المزاج بالفعل، لكنها أعلمت بحالة الأمير المتوترة، ففضلت التزام غرفتها لأنها شعرت بخوف لا يوصف من مقابلته وهو في مثل تلك الحالة المعتكرة.

همست في أذن الآنسة بوريين قائلة:

إنني أخاف على الطفل في أحشائي لأن الله وحده يعرف ماذا سيترك مثل هذا الرعب في نفسي من نتائج.

تشعر كوري، منذ وصولها إلى ليسياغوري، بشيء من الخوف من حميما، خوف ممزوج بنفور لم تكن تتبينه بوضوح لشدة ما كان الخوف مستولياً عليها. أما الأمر، فإن نفوره منها انتهى بكراهية. ولما تأقلمت ليز مع محيطها الجديد، خصت الآنسة بوريين بكثير من عطفها ومحبتها. فلم تقنع

بقضاء ساعات النهار في صحبتها بل رجتها أن تنام إلى جوارها. وبذلك فإنها ما كانت توفر حماها في أحاديثها الكثيرة التي كانت تقطع الوقت بها مع الآنسة بوريين.

قالت الآنسة بوريين وهي تطوي منشفتها البيضاء بأناملها الوردية: سوف نستقبل ضيوفاً يا أميري. سعادة الأمير كوراغين وابنه هما اللذان سيصلان على ما نمي إليّ. أليس كذلك؟

وعلى لهجتها الاستفهامية المرحة أجاب الأمير: هم!... إن صاحب هذه «السعادة» عديم الشأن. أنا الذي أدخلته في الوزارة!... ثم لست أفهم ماذا جاء يعمل عندي الابن. لست أفهم. لعل الأميرة أليزابيت كارلوڤنا والأميرة ماري تعرفان السبب... أما أنا، فلست في حاجة إلى هذه الشخصية...

وألقى نظره على ابنته ماري التي احمرّ وجهها فجأة وتابع: هل أنت مريضة؟ لعله الخوف من الوزير كما يقول ألياتيتش، السخيفة! كلا يا أبي.

ومع أن الآنسة بوريين أثارت الحديث دون كبير مقصد فإنها لم تتقبل الهزيمة. راحت تتحدث عن بيوت البنات الشتوية وتبدي انشراحها وافتتانها بهزيمة تفتحت أكمامها أخيراً، حتى أن الأمير لم يكد يفرغ من الحساء حتى لانت أسارير وجهه وانبسطت.

ذهب إلى جناح كنته يزورها قبل انتهائه من الطعام فرآها جالسة على مقعد منخفض تثرثر مع ماشا وصيفتها. فلما وقع نظر ليز على حميها، شحب وجهها. طرأ على وجهها تحول كبير فغارت وجنتاها وبدت بشفتها الناتئة وعينيها الشاخصتين أميل إلى الشجاعة. أجابت عن سؤال الأمير الذي جاء يستفسر عن صحتها: إنني أشعر بشيء من التثاقل فحسب.

ـ ألست في حاجة إلى شيء؟

ـ كلا شكراً يا أبي.

ـ ليكن. حسناً.

وخرج من الغرفة. وبينما هو يجتاز الردهة وجد أليانتيتش مطرق الرأس. هل أعادوا الثلج إلى الممرّ.

لقد أعيد يا صاحب السعادة. أرجو أن تتفضل سعادتك بالصفح عن خطئي لقد تصرفت بحماقة...

لكن الأمير قاطعه وهو يضحك ضحكته المغتصبة: هيا، إنس هذا، حسناً، حسناً.

ومد يده إلى وكيله الذي هرع إليها يقبلها، ومضى إلى مكتبه.

قبل المساء وصل الأمير بازيل. أسرع عدد من الخدم والسائقين لاستقباله عند طرف الممر الذي نثر عليه الثلج عمداً. فلم يتمكنوا من إدخال زحافته وأمتعته إلى جناح القصر إلا بعد عناء شديد.

خُصصت للأمير بازيل وولده غرفتان مستقلتان.

نزع أناتول سترته وجلس إلى منضدة يحدق إلى زاويتها بعينيه الكبيرتين الجميلتين، ويداه إلى وركيه والابتسامة على شفتيه. كانت حياته كلها في نظره عيداً مستمراً دائماً يشرف على تنسيقها منظم خفي تنحصر مهمته في إعدادها وترتيبها. ومن خلال هذه الزاوية، راح أناتول ينظر إلى زيارته لذلك العجوز ووارثته البشعة. فكر في أن المهزلة قد تكون مسلية «وطالما هي على هذا القدر من الغنى، فلماذا لا أتزوجها؟ المال ووفرته لا يفسدان شيئاً».

حلق لحيته وتعطر بعناية وتدقيق باتا عادة مألوفة لديه، ثم رفع رأسه باعتداد مضفياً على نفسه، كعادته، مظهر الفاتح والشاب الهادئ الوسيم ودخل إلى غرفة أبيه. كان هذا الأخير منشغلاً في زينته وحوله وصيفاه، الملازمان له يستجيبان لطلباته. أجال الأب نظرة فيما حوله، نظرة ارتياح واطمئنان،

واستقبل ابنه بحركة رشيقة من رأسه تدل على مدى سروره وكأنه يقول له: «رائع، بديع، كذلك كنت أريد أن أراك اليوم!».

سأل أناتول مناقشاً موضوعاً قتله بحثاً وتمحيصاً مع أبيه من قبل كما يبدو!

ـ دعك من المزاح يا أبي. قل لي هل هي حقيقة شديدة البشاعة؟

ـ يا للغباوة! المهم هو أن تبدو معقولاً ومحترماً تجاه الأمير العجوز.

ـ فكر في أن مستقبلك كله متوقف على سلوكك ورضاه.

كانت الوصيفات في تلك الأثناء، في غرفة الخدم على علم بوصول الوزير وولده حتى إن أدق تفاصيل مظهريهما بات معروفاً، يتناقش فيه. أما الأميرة ماري، فإنها انسحبت إلى غرفتها محاولة عبثاً السيطرة على أعصابها وطرد ارتباكها.

كانت تحدث نفسها وهي تنظر إلى وجهها في المرآة قائلة: «لماذا كتبوا لي، ولماذا حدثتني ليز بالأمر؟ ذلك لا يمكن أن يحدث. علي أن أظهر في غرفة الاستقبال! لن أستطيع الظهور أمامه على حقيقتي بعد علمي بما يضمره حتى ولو نال إعجابي ورضاي!» كان مجرد تفكيرها في أنها قد تضطر إلى مجابهة نظرة أبيها، تشل أطرافها من الخوف.

أسرعت ماشا، وصيفة ليز، إلى سيدتها تنقل إليها وإلى الآنسة بورين تقريراً مفصلاً عن الوزير وابنه وآخر الأخبار المتعلقة بهما: لقد وجد الأب صعوبة تذكر في ارتقاء السلم أما الابن، وهو شاب جميل الوجه أسود الحاجبين، فقد ارتقاه وراء أبيه كالنسر وراح يتخطى كل ثلاث درجات دفعة واحدة. ولما حصلت الصديقتان على هذه المعلومات، راحتا تتناقشان حول هذا الموضوع نقاشاً حاداً حتى أن صوتيهما كانا مسموعين من الردهة، ولما قصدتا إلى غرفة الأميرة ماري، لم تكونا قد انتهتا من الجدال.

قالت ليز وهي تتهاوى على كنبة لأن انتفاخ بطنها كان يجعل مشيتها عسيرة: لقد وصلا يا ماري، هل علمت بذلك؟

كانت ليز قد نضت عن جسمها ثياب الصباح وارتدت واحداً من أجمل أثوابها وعنيت بشكل جيد بزينتها وشعرها. لكن انفعال وجهها لم يكن يخفي التعب والشحوب القاتل المتجليين على قسماته. وكان ذلك الثوب الذي لا ترتديه إلا إذا كانت مدعوة إلى حفلة رسمية أو اجتماع للنبلاء، يزيد في مظاهر بشاعتها. أما الآنسة بوريين، فقد كانت هي الأخرى قد أدخلت على زينتها تجميلاً خيل إليها أنه لن يكون واضحاً. ولقد بدت حينذاك أكثر جمالاً من عادتها.

قالت الآنسة بوريين: ماذا، هل تبقين كما أنت يا أميرتي العزيزة؟ لن يلبثوا حتى يعلنوا لنا أن هؤلاء السادة قد انتقلوا إلى القاعة، يجب أن نلحق بهم. ومع ذلك إنني أرى أنك لم تصلحي شيئاً من زينتك!

وقفت ليز وقرعت الجرس تستدعي الوصيفة، وراحت تجهد نفسها في تزيين سلفتها. كانت ماري تشعر بجرح في كبريائها لأنها كانت مضطربة لمجرد قدوم خطيب وخصوصاً أن صديقتيها ما كانتا تعتقدان غير ذلك الاعتقاد. ولم تكن تريد الإفصاح عن مشاعرها بإظهار ارتباكها في حضرتهما. ثم إنها إذا رفضت إصلاح زينتها، فإنها ستتعرض لإلحاحهما ودعابتهما التي لا تنتهي. لذلك فقد انطفأ وميض عينيها الجميلتين وتضرج وجهها بالاحمرار، واتخذت مسحة الضحية المستسلمة التي لطالما ألفتها، وأسلمت أمرها لعناية الصديقتين: ليز والآنسة بوريين. وشرعت المرأتان في تجميلها «بكل إخلاص» رغم أن بشاعتها كانت تفوق كل منافسة. راحتا إذن تنصرفان إلى عملهما بصراحة تامة تستلهمان غريزتهما النسوية الساذجة المتأصلة في

نفوس كل النساء، تلك الغريزة التي تجعلهن يعتقدن أن الزينة هي السلطة التجميلية الوحيدة!

وبعد أن تأملت جانب وجه سلفتها على مسافة معينة قالت ليز جازمة: كلا يا صديقتي الطيبة، إن هذا الثوب لا يناسب. مري أن يأتوك بالثوب الماساكا (وهي كلمة كانت تطلق على اللون الباذنجاني الذي كان يعتبر آخر مبتكرات ذلك العصر)... إن الأمر كما تقدرين. لعل مصيرك كله سيقرر اليوم... إن لون هذا الثوب فاقع. أؤكد لك أنه لا يلائمك، كلا، لا يلائمك.

والواقع لم يكن الثوب غير ملائم بل الوجه هو الذي كان غير متجانس، وليس الوجه وحده، بل الجسد كله، جسد الأميرة ماري. لكن لا الآنسة بوريين ولا ليز تعرفان ذلك. كانتا تعتقدان أنهما إذا ثبتتا شريطاً سماوي اللون في شعر ماري المرجل المرفوع إلى أعلى وخاطتا الثوب الأسمر بغلالة من ذلك اللون إلخ... فإن كل شيء يكون على خير ما يرام. لكنهما كانتا تنفيان من حسابهما أن الوجه الهزيل لا يمكن أن يخضع لأي تحويل. بل إنهما كانتا تنسيان أنهما مهما بالغتا في تجميل الإطار وتبديله، فإن ذلك الوجه سيبقى أبداً على بشاعته تلك التي تنتزع العبرات والحسرات.

وبعد تجربتين وثلاث تجارب استسلمت ماري لها بكل خضوع، وبعد أن عكفت ليز شعر سلفتها ورفعته إلى الأعلى، رغم أن ذلك كان يشوه وجهها، وبعد أن أثبتت أصابع الآنسة بوريين الغلالة الزرقاء على ثوب الماساك الجميل، دارت ليز حولها مرة أو مرتين فأصلحت ثنية هنا، وجذبت الغلالة من هنا، ثم حنت رأسها وراحت تتأملها من جانب ثم من آخر. وأخيراً قالت بلهجة الواثقة: كلا، مستحيل. كلا يا ماري، إنه لا يلائمك. إنني أراك أكثر جمالاً في ثوبك الأشهب الذي ترتدينه كل يوم. كلا. افعلي ذلك من أجلي.

وضربت كفاً بكف وصاحت تقول للوصيفة: كاتيا، ائتني بثوب سيدتك الأشهب.

وأردفت تخاطب الآنسة بوريين: انظري يا آنسة بوريين كيف سأجعلها تبدو في ذلك الثوب.

وراحت تتلمظ شأن الفنان الذي يتذوق فنه سلفاً.

وعندما جاءت كاتيا بالثوب، كانت ماري لا تزال جالسة دون حراك تتأمل قسمات وجهها. فرأت ليز في المرآة أن عيني سلفتها ممتلئتان بالدموع وأن ارتعاشة خفيفة كانت تهز شفتيها شأن من كان على وشك البكاء.

قالت الآنسة بوريين: يا عزيزتي الأميرة، ابذلي مجهوداً صغيراً آخر.

تناولت ليز الثوب من يدي الوصيفة واقتربت به من ماري: والآن، سوف نقوم بتجربة بسيطة وفتانة معاً.

واختلط صوتها بصوتي الآنسة بوريين وكاتيا الوصيفتين اللتين شاطرتاها الضحك، فتعالت ضجة مرحة.

قالت ماري: لا، دعيني يا ليز.

كانت لهجتها شديدة الخطورة مشبعة بالألم حتى أن زقزقة العصافير الجميلة انقطعت على الفور. ولما نظرت ثلاثتهن إلى تعبير تينك العينين الكبيرتين المليئتين بالدموع، أدركن أن الإلحاح غير مجد هذا إذا لم يكن إغراقاً في القسوة.

قالت ليز: ابدلي إذن ترتيب شعرك.

ثم توجهت إلى الآنسة بوريين بلهجة عتاب ولوم! لقد نبهتك من قبل إلى أن لماري وجهاً لا يلائمه هذا النوع من «التسريحة» المرتفعة. نعم إنها لا تلائم وجهها أبداً أبداً. أبدليها، رجاء!

فأجابت ماري بصوت مخضل بالدموع: لا بل اتركيني. سيان عندي ذلك.

واضطرت كل من ليز والآنسة بوريين إلى الاعتراف في سرهما أن ماري كانت، وهي على تلك الزينة، بادية البشاعة، بل أكثر بشاعة من ذي قبل. لكن فات الأوان الذي يمكّنها من تلافي الخطأ. نظرت إليهما تلك النظرة الكئيبة الحالمة التي لم تكن تُشعر أحداً بالرهبة، والتي كانت مع ذلك تجعلهما في مثل هذه الحالة تنطويان على نفسيهما وتلتزمان الصمت.

بقيت ماري وحيدة. لم تتبع نصيحة ليز بل لم تلق نظرة واحدة على وجهها في المرآة. لبثت كالحة الوجه، صامتة، مطرقة الرأس، متصلبة اليدين، وراحت تحلم في يقظتها. تتصور زوجها المقبل شخصاً قوياً مسيطراً، ذا جاذبية غامضة تساعده على حملها إلى عالمه هو، عالم سعيد مختلف كلياً عن عالمها. وتتصور طفلها «هي» شبيهاً بذلك الذي شاهدته أمس لدى ابنة مربيتها. كانت تراه مضموماً إلى صدرها وتتصور زوجها ينظر إليهما بحنان. لكنها قالت في سرّها فجأة: «ولكن كلا، إن هذا مستحيل، إنني شديدة البشاعة».

ارتفع صوت الوصيفة من وراء الباب تقول: لقد أعد الشاي يا سيدتي وسيصل الأمير فوراً.

خرجت ماري من أحلامها وروعت لاستسلامها إلى مثل تلك التخيلات. وقبل أن تخرج من غرفتها، عمدت إلى مصلاها حيث حدقت طويلاً إلى الوجه الأسود الماثل في صورة كبيرة للمخلّص يضيئها قنديل، ويداها مضمومتان إلى صدرها. كان يعذبها شك مريع: ترى هل كانت مدعوة إلى تذوق مباهج الحب، الحب الدنيوي المكرس لرجل؟ كانت كلما فكرت في الزواج تخيلت السعادة التي يشعر بها المرء في الأسرة، سعادة الأطفال والمنزل. لكنها كانت في قرارة نفسها تشعر أنها منذورة لأشواق أرفع من مباهج الأرض. وكان ذلك

الإحساس في نفسها شديد الوضوح حتى أنها راحت تحاول إخفاءه عن عيون الآخرين بمثل القوة التي كانت تصرفها لمغالطة نفسها في هذا الصدد تمتمت: ««رباه» كيف أستطيع إبعاد هذه الوساوس الشيطانية، خنق هذه الأفكار السيئة إلى الأبد، وإنجاز إرادتك المقدسة بسلام وهدوء؟»».

لم تكد تنتهي من هذا الابتهال حتى شعرت في قرارة نفسها بالجواب العلوي: «لا ترغبي في شيء من أجل نفسك، لا تبحثي عن شيء ولا تقلقي روحك، لا تحسدي إنساناً. يجب أن يظل مستقبلك مجهولاً منك كما هي الحال في آخرتك. ولكن نظمي حياتك بشكل تكونين معه مستعدة لكل شيء. فإذا شاء الله أن يبلوك بالتزامات الزواج فأطيعي مشيئته على الفور دون تردد».

وإزاء هذه الفكرة المطمئنة، وكذلك في أمل تحقق حلمها المحرم المتعلق بالحب الملتهب، رسمت ماري إشارة الصليب وهي تتنهد، وهبطت السلم دون أن تفكر في زينتها أو في شعرها، أو أن تهتم بالطريقة التي ستسلكها للظهور في القاعة. بل إنها لم تعد تفكر كذلك في المواضيع التي قد تثار وتصبح موضوعاً للبحث. إذ ما معنى هذه التفاهات إذا قورنت بمشيئة الله القدير؟ ذلك الإله الذي لا يمكن أن تسقط شعرة عن رأس مخلوق إلا بإذنه!

الفصل الرابع

كان الأمير بازيل وابنه يتحدثان إلى الأميرة الصغيرة والآنسة بوريين عندما دخلت ماري إلى القاعة. دخلت على مهل بتثاقل تسير على كعبها بحكم العادة. وعندما اقتربت، نهضت الآنسة بوريين وكذلك الأمير وابنه بينما صاحت ليز مشيرة إليها: «ها هي ماري!» شملتهم ماري بنظرة شاملة لم تترك شيئاً إلا أحاطت به. رأت أن الأمير بازيل عاد إلى الابتسام بعد أن حافظت قسمات وجهه فترة قصيرة على تعابير الخطورة المصطنعة التي أسدلها على وجهه، وأن ليز كانت تحاول أن تقرأ على وجهي الضيفين الأثر الذي أحدثته رؤيتهما لماري على تلك الصورة، وأن الآنسة بوريين، وكانت نظرتها أكثر اتقاداً من أي وقت مضى، في أوج زينتها، تشخص بناظريها محدقة إلى وجهه «هو». أما «هو» فقد كان الشخص الوحيد الذي لم تره رغم وجوده. لكنها حدست أنه طويل القامة، جميل، شديد الجاذبية.

تقدم نحوها مستقبلاً. انحنى الأمير بازيل فقبل يدها، فلمست بشفتيها جبهته الجرداء وأجابت عن عبارات المجاملة التي بادرها بها بأنها لاتزال تحتفظ في نفسها بذكرى ممتازة، ثم أتبع أناتول أباه، لكنها لم تحدق إلى وجهه. شعرت بيد ناعمة تمسك بيدها وأن الجبين الذي تحسسته بشفتيها كان أبيض يعلوه شعر أشقر مضمخ بشكل معقول.

فلما نظرت إليه أخيراً، أدهشها أن يكون على ذلك القدر من الجمال. كان رأسه محنياً قليلاً، واضعاً إبهام يده اليمنى في إحدى عرى سترته، عاطفاً

صدره وظهره معاً، مستوياً على إحدى ساقيه، يتأمل ماري بصمت، بينما كانت أفكاره منصرفة عنها بشكل واضح. وعلى الرغم من أن أناتول لم يكن حاذقاً ولا متحدثاً لبقاً، فقد كان يتمتع بميزة هامة في المجتمع وهي بروده واعتداده اللذان ما كانا يزعزعهما حدث مهما بلغت قوته. وقد درجت العادة على أن صمت الخجول أمام شخص يقابله للمرة الأولى واقتناعه بأنه غير لبق يضفيان على المقابلة بروداً ملحوظاً يكون خلاله مجهداً نفسه في التنقيب عن الكلمات المناسبة.

أما أناتول فكان على العكس، يسكت دون أي ارتباك ويتبختر أمام ماري متفحصاً زينتها. وكان واضحاً أنه يستطيع البقاء زمناً غير قصير على حاله تلك وكان سلوكه يشعر بأنه: «إذا كان سكوتي يؤلمك، فتحدثي على هواك. أما أنا، فإنني لست راغباً في الحديث» ثم إن أناتول كان يتخذ حيال النساء موقف الترفع الذي يوقظ فيهن الفضول بل الحب. كانت مواقفه المترفعة تنطق بصراحة قائلة: «إنني أعرفك، إنني أعرفك. فما الفائدة من تهافتي على الترحيب بك؟ لو فعلت ذلك لكنت في غاية السرور!» لقد كانت قسمات وجهه وتصرفاته توحي بذلك حتى ولو لم يكن يفكر مثل هذا التفكير بالفعل، وهو الذي عرف عنه أن التفكير ليس من مزيته وخصائصه! شعرت ماري بتلك المعاني التي تبرزها مظاهر ذلك الشاب وحركاته، ولكي تشعره بأنها لا تريد احتكار صحبته، انخرطت في حديث مع الأمير العجوز ولم يلبث ذلك الحديث أن أصبح عاماً متشعباً بفضل ثرثرة ليز التي كانت شفتها ذات الزغب تكشف باستمرار عن أسنانها البيضاء.

كانت تخاطب الأمير بازيل بتلك اللهجة الماجنة التي يستعملها الثرثارون الوادعون والتي تقضي بإيهام المستمعين أن بينهما ذكريات مشتركة لا يعرفها سواهما، والتي تكون في حقيقتها وهماً وخيالاً مطلقين. استطاب الأمير بازيل

تلك اللعبة فاشترك فيها. وبدأت ليز تقص على الحاضرين نوادر من ابتكارها وتوهمهم أنها حقائق ثابتة، وأشركت في تلك النوادر الأمير الشاب أناتول الذي لم تكن تعرفه من قبل إلا قليلاً وتاهت الآنسة بوريين في تلك الذكريات المبتكرة المختلفة حتى أن ماري نفسها وجدت صعوبة في انتزاع نفسها من تيار تلك الذكريات السعيدة!

قالت ليز بالفرنسية طبعاً: يا أميري العزيز، هنا أقله، بوسعنا أن ننعم بوجودك كلياً. إن الأمر يختلف عما كان عليه في حفلات أنّيت حيث كنت تنسحب فراراً. هل تذكرها، تلك العزيزة أنّيت؟

ـ لكنك لم تحدثيني في السياسة كما كانت تفعل أنّيت!

ـ وماذا عن ذكرياتنا حول مائدة الشاي؟

ـ آه! نعم...

وسألت أناتول: لماذا لم أكن أراك عند أنّيت؟ آه! نعم، إنني أعرف، إنني أعرف!

وغمزت بعينيها وأردفت: لقد حدثني أخوك هيـپوليت عن أعمالك ومشاريعك.

وهددته بسبابتها وعقبت: إنني أعرف حتى مغامراتك الپاريسية.

فقال الأمير بازيل لولده وهو يستوقف ليز بإمساكها من ذراعها، وكأنه يجد صعوبة في منعها من الفرار: غير أن ما لم يكن جديراً بهيـپوليت أن يحدثك به هو أنه كان يحوم حول أميرتنا الفاتنة التي طردته بلطف...

وتابع مخاطباً ماري: آه! إنها لؤلؤة النساء يا أميرة.

إن الآنسة بوريين لم تفلت الفرصة التي أتيحت لها عندما سمعتهم يتحدثون عن پاريس. فانبرت تسأل أناتول عما إذا كان قد غادر تلك المدينة منذ زمن طويل، وعن الشعور الذي خلفته في نفسه. فأجابها أناتول بسرور

واضح وهو ينظر إليها مبتسماً، وراح يحدثها عن وطنها. كان أناتول بمجرد أن وقع نظره على تلك الحسناء الفرنسية، قد حدث نفسه بأنه لن يسأم النزول في ليسيياغوري ما دامت هذه فيها. كان يتفحصها مدققاً ويقول لنفسه «إنها ليست رديئة، كلا، في الحقيقة إنها ليست رديئة، هذه الآنسة المرافقة إنني آمل أن تحتفظ ماري بها بعد زواجنا. إن هذه الصغيرة لطيفة للغاية».

في تلك الأثناء كان الأمير العجوز يرتدي ثيابه في مخدعه على مهل. كان يتساءل في شيء من السخط عن الخطة التي سيسلكها مع ضيفيه. لقد كان قدومهما يزعجه. كان يغمغم: «ما حاجتي إلى الأمير بازيل وفرخه؟ إن الأب دعيّ أما الابن فلا شك أنه سر أبيه». لكن سبب سخطه الحقيقي إنما يعود إلى أن تلك الزيارة تثير مسألة معينة كان يخنقها كلما طُرحت على بساط فكره، مسألة كان دائماً يفكر فيها ويدرسها من كل وجوهها: هل يقرر ذات يوم الافتراق عن ماري بإيجاد زوج لها؟ تلك كانت المسألة التي لم يفكر مرة في حلها بصراحة أو درسها بإقدام، وخصوصاً أنه كان يعرف سلفاً أن العدل وحده سيملي عليه الجواب وأن العدل في هذه المسألة يتناقض وعواطفه الشخصية بل يتنافى مع شروط وجوده وحياته.

لقد كان رغم البرود الذي يتظاهر به، لا يطيق الحياة دون وجود ماري. راح يفكر: «ولمَ أزوجها؟ لسوف تكون تعيسة حتماً في حياتها الزوجية؛ هذه ليز التي تزوجت أندريه، وهو ولا شك أفضل الأزواج، ومع ذلك فهي غير راضية عن مصيرها! ثم من ذا الذي سيتزوج ماري عن حبه لها؟ إنها بشعة وغير لبقة اجتماعياً. لسوف يتزوجونها من أجل ثروتها. فهل يتعذر فعلاً بقاؤها فتاة عزباء؟ أبداً وإنها ستعيش بذلك في سعادة أوسع!» وبينما هو يضرب أخماساً بأسداس ويستكمل ارتداء ثيابه، شعر أن المسألة التي ظلت متفاوتة زمناً طويلاً لن تكون اليوم أكثر تعقيداً. وإذا كان الأمير بازيل قد اصطحب ابنه فما ذلك

إلا ليتقدم بطلب يد ماري. ولا بد من إعطائه جواباً نهائياً سواء أكان ذلك اليوم أم غداً. نعم، إن الاسم والمركز مناسبان ولكن يجب أن يعرف كذلك إذا كان الخطيب نفسه جديراً بابنته. وهذا ما سيتأكد منه بعد حين.

وأنهى الأمير مناجاته بصوت مرتفع قائلاً: هذا ما سنراه الآن، أجل هذا ما سنتأكد منه بعد حين!

دخل إلى القاعة بخطى سريعة رشيقة وشمل الحاضرين بنظرة سريعة أتاحت له ملاحظة زينة ليز المحدثة والأشرطة التي كانت الآنسة بوريين تثبتها في شعرها وعلى ثوبها، وابتساماتها التي كانت تتبادلها مع أناتول، وشعر ابنته في ذلك الوضع الكئيب وانطوائها وسط النقاش العام، فحدث نفسه بغضب قائلاً: «لقد أظهرت نفسها كأغبى الحمقاوات! لقد فقدت كل حيائها بينما الفتى لا يعيرها التفاتاً!».

اتجه نحو الأمير بازيل وقال: مرحباً، مرحباً، سرتني رؤيتك.

فأجابه الأمير بازيل بتلك اللهجة الأنيسة الفكهة المتزنة المألوفة لديه: إن مرحلتين لا تعتبران مشقة في سبيل لقاء صديق طيب قديم. ها هو ذا أصغر أبنائي أقدمه بين يديك.

تأمل الأمير نيكولا أندرييتش وجه أناتول وقال: إنه فتى. تعال وعانقني!

وأدار له خده تسهيلاً لمهمته...

عانق أناتول الأمير العجوز وهو يتأمله بفضول منتظراً أن يبادره بإحدى ثوراته الشاذة التي حدثه أبوه عنها.

جلس الأمير نيكولا في مكانه المألوف على الكنبة وجذب إليه مقعداً دعا الأمير بازيل إلى الجلوس عليه وراح يستفسر منه عن الأحداث الأخيرة. وكان يتظاهر بالإصغاء للأمير بينما كانت عيناه لا تنفكان تلاحقان ابنته وتراقبانها.

قال مكرراً كلمات الأمير بازيل الأخيرة، وقد نهض فجأة واتجه نحو ماري مباشرة: إذن، فإن الأخبار أصبحت ترد الآن من پوتسدام؟

سألها: أمن أجل الضيوف قمت بهذه المهزلة؟ لعلك تريدين إظهار نفسك بمظهر الجميلة. ولما كنت قدرت أن من المناسب ترجيل شعرك بطريقة جديدة احتراماً للضيوف، فإنني أسرك الأمر أمامهم بأن لا تعمدي إلى تبديل «تسريحتك» بعد الآن دون موافقتي وإذني.

فتدخلت الأميرة الصغيرة وقد احمرّ وجهها: إنها خطيئتي يا أبي.

فأجاب العجوز: إنك حرة التصرف على هواك. أما هي، فلا حاجة بها لأن تظهر أكثر بشاعة مما هي عليه.

وعاد يجلس في مكانه دون أن يعير ابنته التفاتاً وهي التي بلغ بها الخجل مبلغ البكاء.

قال الأمير بازيل: على العكس، إن هذه الطريقة تتلاءم تماماً مع الأميرة.

لكن العجوز كان في تلك الأثناء ملتفتاً إلى أناتول. قال له: هيا أيها الفتى، أو أيها الأمير الشاب، لست أدري بالضبط كيف ينادونك الآن، تعال إلى هنا. يجب أن نتحدث وأن نتعارف.

فجلس أناتول قرب الأمير مبتسماً وهو يفكر في سرّه: «ها إن المهزلة قد بدأت!».

تابع الأمير العجوز: إذن يا عزيزي، لقد نشأت في الخارج كما قيل لي، أليس كذلك؟ طبعاً إن أمرك يختلف عن أمرنا أنا وأبيك، لأننا لم نجد إلا واحداً من جرذان الكنيسة ليعلمنا الكتابة والقراءة!

ثم سأله وهو يحدق إلى وجهه عن قرب: قل لي، هل انتظمت الآن في عداد الحرس الراكب؟

فقال هذا وهو يكبت ضحكته بجهد بالغ: كلا، بل إنني في عداد الجيش العامل.

رائع، حسن جداً يا صديقي. تريد خدمة القيصر والوطن؟ إننا في حالة حرب، وإن شاباً مثلك يجب أن يساهم في الخدمة. إذن هل تذهب إلى الجبهة؟

ـ كلا يا أمير. إن فرقتي في الجبهة فعلاً، لكنني أشغل مركز ملحق...

وتوجه إلى أبيه بالسؤال قائلاً وهو يضحك: إنني ملحق بأي شيء يا أبي، يا للشيطان.

فتضاحك الأمير العجوز وقال: هذا ما يسمى خدمة الوطن!... بأي شيء أنا ملحق بحق الشيطان؟ ها! ها! ها!

وانفجر أناتول ضاحكاً. غير أن الأمير العجوز قطب حاجبيه فجأة وقال له: حسناً،... إذهب.

فمضى أناتول إلى السيدات والابتسامة لاتزال على شفتيه، بينما تحول الأمير العجوز إلى أبيه يقول: لقد أنشأتهما نشأة ممتازة في الخارج أليس كذلك؟

ـ لقد عملت ما في وسعي. والحق يقال إن الثقافة الأوروبية خير من ثقافتنا المحلية...

ـ آه لا شك، كل جديد جميل... لا مجال للبحث في هذا، إنه فتى!... هيا، لننتقل إلى مكتبي.

وأمسك بذراع الأمير بازيل وقاده إلى مكتبه. وما إن أصبحنا وحيدين حتى أطلعه الزائر على رغبته وآماله.

قال الأمير العجوز غاضباً: أتعتقد مثلاً أنني أعترض سبيلها وأنني لا أستطيع الحياة بدونها؟ هراء يا عزيزي... خذها منذ الغد، فإنني لن أتصدى

لها. لكنني أريد معرفة صهري على حقيقته. إنك تعرف مبادئي: كل شيء في وضوح كامل! سوف أطرح عليها السؤال غداً بحضورك، فإذا وافقت، دعه يبقى هنا. نعم دعه يبقى وقتاً ما هنا لأدرسه.

وعقب بصوت ثاقب يشبه ذلك الذي صرف به أناتول عن نفسه: لتتزوجه، لتتزوجه، لست أبالي!

فقال الأمير بازيل بلهجة صريحة شأن الماكرين الذين يعرفون عقم الخداع مع مستمع نابه ذكي: سأحدثك بكل صراحة. من السهل عليك اختراق نفوس الناس وسبر أغوارهم. وإن أناتول لم يخترع البارود، لكنه فتى نبيل وطيب وابن ممتاز.

ـ حسناً، حسناً، سوف نرى.

ومثلما هي العادة لدى النساء اللواتي حرمن عشرة الرجال زمناً طويلاً، فإن نساء ليسياغوري شعرن عند حلول أناتول بينهن، أن الحياة التي عشنها حتى ذلك اليوم لم تكن حياة بالمعنى الصحيح. لذلك فقد تضاعفت ملكات التفكير والشعور والملاحظة في أشخاصهن حتى بلغت عشرة أضعافها وبدت حياتهن التي كانت حتى ذلك الحين مدفونة في الظلام، منتعشة تخطف الأنظار.

نسيت الأميرة ماري «تسريحتها» اللعينة ووجهها الهزيل. كان ذلك الشاب الجميل، ذو الوجه البشوش، الذي قد يصبح زوجاً لها، يجذب كل انتباهها كانت واثقة بأنه طيب كريم وثابت العزم. وراحت ألوف الأحلام أحلام الهناءة الزوجية المقبلة التي كانت تطردها من مخيلتها عبثاً، تزدهر في خيالها.

وهمست في سرها «ألست شديدة الجمود حياله؟ إنني إذا كنت أبذل ما في وسعي لأسيطر على مشاعري فما ذلك إلا لأنني أحس في قرارة نفسي

بأنني أصبحت شديدة القرب منه. لكنه لا يعرف كل ما أفكر فيه ولعله يعتقد أنه لم يعجبني».

وحاولت ماري الظهور بمظهر الآنسة المرحبة بالقادم الجديد، بينما كان أناتول يفكر في نفسه! «يا للفتاة المسكينة! إنها شديدة البشاعة!».

ونبتت في رأس الآنسة بوريين أفكار من لون آخر. كانت هي الأخرى مثارة أقصى الإثارة بوصول هذا الفتى الجميل. كانت تنتظر منذ وقت طويل أن يتقدم منها أمير روسي، يشعر للوهلة الأولى بتفوقها على لداتها الروسيات البشعات الغبيات اللواتي لا يجدن ارتداء ثيابهن وإظهار فتنتهن، فيقع صريع غرامها للنظرة الأولى. وها إن ذلك الأمير الفتان قد جاء في تلك اللحظة. كانت تعرف أن فتاة مثلها، محرومة رغم جمالها من أي مركز ممتاز في المجتمع، محرومة من الأقارب والأصدقاء حتى من الوطن، لا يمكن أن تقبل البقاء أبداً حيث هي، تكرس حياتها للأمير نيكولا أندرييتش، وأن تظل إلى الأبد رفيقة الأميرة ماري ومقرئتها.

كانت الآنسة بوريين شديدة التعلق بأقصوصة حفظتها عن عمتها، كانت قد حاكت لها نهاية من محض ابتكارها وخيالها. كانت قصة فتاة جميلة أغراها رجل فاستسلمت له دون أن يجمعهما زواج رسمي. وكانت الآنسة بوريين تذرف الدمع السخي كلما فكرت في خيالها أنها ستروي هذه القصة بالذات للفارس الذي سيغريها في المستقبل ويحظى بها. أما الآن فإن ذلك الفارس لم يعد خيالاً. بل «إنه» موجود بالفعل أمامها. إنه أمير روسي عريق، ولسوف يختطفها وينالها وينتهي الأمر أخيراً بالزواج.

تلك كانت خطوط المغامرة التي كانت تبدو في الأفق أمام ناظري الآنسة بوريين التي كانت تتحدث مع أناتول عن پاريس. لقد انقلبت القصة الخيالية إلى حقيقة بدأت خيوطها تبزغ عند الأفق. لم تكن تخضع في نفسها

لأي حسبان وهي التي لم تفكر في ما كان يجب عليها صنعه، لكنها كانت قد رتبت أقصوصتها منذ زمن بعيد حتى أن كل التفاصيل بدأت تجتمع تلقائياً في تلك اللحظة وبشكل طبيعي تماماً، وراحت خيوطها تلتف حول أناتول، ذلك الفتى، فتى أحلامها الذي طالما تاقت إليه، والذي كانت تظهر أمامه كل فتنتها وجمالها.

كانت ليز، كالجواد المدرب الذي يقفز عند سماعه البوق يقرع بالنداء، متحفزة للاندفاع في سباق الرشاقة، متناسية حالتها الصحية، متجاهلة ما قد يترتب على ذلك وخصوصاً أنها لم تكن تغذي أية فكرة أو تهدف إلى أية غاية من وراء ذلك التهافت، إلا تلك الرغبة الساذجة التي تدفعها إلى الظهور بطيش وتهور.

كان أناتول، وهو الذي درج في حضرة النساء على اتخاذ مظهر الإنسان الذي أنهكته ملاحقاتهن وتعلقهن، يشعر بلذة فائقة وهو يرى نفسه محور التفاف كل نساء البيت ومدار اهتمامهن. أضف إلى ذلك أنه لم يلبث حتى شعر نحو بوريين الجميلة المثيرة برغبة من تلك الرغبات الهوجاء الملحة التي كانت تستحوذ أحياناً على كيانه. وتقسره على التصرف بطيش وارتكاب أقصى الأخطاء وأكثرها تهوراً.

بعد تناول الشاي، انتقل الضيوف وصحبهم إلى القاعة الصغيرة. وهناك طُلب إلى ماري أن تعزف على الأرغن. واتكأ أناتول بالقرب منها على مرفقيه بجانب الآنسة بوريين مصوباً إلى وجهها نظرات وادعة. وكانت ماري تشعر بارتباك مصدره السرور الذي تحس به والقلق من إحساسها المرهف بتلك النظرة المسلطة عليها. وكانت القطعة الموسيقية المفضلة عندها التي كانت تعزفها قد حملتها إلى عالم سري شاعري، ازداد بهاؤه التماعاً وفتنة بتلك النظرة المغضبة عليها. والحقيقة أن تلك النظرة، رغم ما كان يبدو عليها من

أنها موجهة إليها لم تكن متوقعة عند ماري، بل كانت تراقب بدقة حركات قدم الآنسة بوريين الصغيرة التي تعمد أناتول الاحتكاك بها تحت المعزف. وكانت الآنسة بوريين تنظر بدورها إلى ماري، غير أن عينيها الجميلتين كانتا تحملان مسحة واضحة من الفرح الكئيب، وأملاً في ألّا تراها ماري وهي في وضعها ذاك مع أناتول.

فكرت الأميرة في سرها: «كم تحبني بوريين! كم أنا سعيدة الآن، يا للهناء الذي ينتظرني في حياتي الزوجية المقبلة مع صديقة كهذه وزوج كهذا! ولكن هل سيصبح زوجي حقيقة؟» كانت تشعر بعينيّ أناتول وهما تتفحصانها، لكنها ما كانت تجرؤ على اختلاس نظرة واحدة إليه.

عندما حان وقت الافتراق بعد العشاء، قبّل أناتول يد ماري. وبوغتت هذه من جرأته فنظرت إلى وجهه الجميل القريب منها بعينيها الضعيفتين نظرة كلها تساؤل. وببساطة مفاجئة كان لها الأثر في تخفيف حدة تلك الحركة النابية، همّ أناتول بتقبيل يد الآنسة بوريين أيضاً. فاحمرّ وجهها خجلاً وبدأت تستشير ماري بنظرة ذاهلة.

قالت ماري في سرها: «يا للرقة المتناهية! هل تعتقد إميلي، وهو الاسم الأول للآنسة بوريين، أنني أغار منها أو أنني لا أقدر إخلاصها حق قدره؟» واقتربت منها فعانقتها بحرارة لتزيل شكوكها.

واقترب أناتول من الأميرة الصغيرة فصاحت هذه نافرة وهي تلوح بإصبعها مهددة: كلا، كلا، كلا! لن أعطيك يدي لتقبلها قبل أن يكتب لي أبوك مؤكداً أنك أصبحت تسلك سلوكاً حسناً. أما الآن فلا.

وأفلتت خارجة.

الفصل الخامس

تلك الليلة، وحده نام أناتول نوماً هانئاً، أما الآخرون، فقد أمضوا جميعهم ليلة مضطربة قلقة.

ما زالت ماري تتساءل: «هل سيصبح زوجي، هذا المجهول الذي يبدو لي رائع الجمال؟» ويستولي عليها خوف مفاجئ وهي التي لم تكن تشعر بالخوف من قبل. لم تكن تجرؤ على النظر إلى زاوية غرفتها. كان يخيل إليها أن بعضهم كامن هناك في الزاوية المعتمة وراء الحاجز، وأن ذلك المختبئ كان الشيطان في جسد رجل أبيض الجبهة، أسود الحاجبين، قرمزي الشفتين. فقرعت الجرس مستدعية وصيفتها وطلبت إليها أن تنام عندها.

وبقيت الآنسة بوريين فترة طويلة تتنزه في حديقة النباتات الشتوية، منتظرة قدوم فارس ما، فكانت تبتسم تارة للقادم الموهوم وأخرى يأخذها التحنان حتى تطفر دموعها من عينيها وتتصور اللوم العنيف الذي ستتعرض له مثلما تعرضت فتاة أقصوصتها المسحورة بفتنة فارسها.

وجدت الأميرة الصغيرة، سريرها غير منسق كما يجب، فعنفت خادمتها. لم تكن تستطيع النوم على جنبها ولا على صدرها. وكانت كل وضعية تسبب لها ألماً. كان حملها يربكها، ويزيد من إزعاجها ما أثاره قدوم أناتول في تلك الليلة من ذكريات يوم كانت فيه بعيدة عن مشاكل الحمل، تتذوق المتعة وهي هيفاء القد، متأودة العود، منشرحة الصدر. غرقت في كنبة طريّة وهي في جلبابها وقلنسوة النوم على رأسها وراحت تنظر إلى وصيفتها كاتيا التي كانت

تسوي وتقلب الفراش الثقيل المحشو بالريش للمرة الثالثة وهي مشعثة الشعر يثقل النوم في أجفانها.

كررت احتجاجها بصوت متهدج كالطفل الذي يهم بالبكاء: لقد قلت لك إنه مليء بالأخاديد. إنني في أشد الحاجة إلى النوم وأؤكد أنه لو كان الأمر مقتصراً عليّ وحدي...

وظلّ الأمير العجوز ساهراً وقتاً طويلاً خلافاً لعادته. وكان تيفون الذي ينام بعين واحدة ويسهر بالأخرى، يسمع وقع خطى سيده الغاضبة وتنهداته الحارة. كان الأمير يعتقد أنه أُهين في شخص ابنته. وكانت تلك أشد الإهانات وقعاً على نفسه لأنها لم تكن موجهة إليه مباشرة، بل كانت تستهدف شخصاً يحبه أكثر من حبه لنفسه. وعلى الرغم من أنه دأب يكرر في سره أنه سيجد لهذه المسألة حلاً مرضياً بالتفكير العميق، فإن انفعاله كان في ازدياد مستمر.

كان يغمغم قائلاً: «لا يكاد أول طالب زواج يظهر على الباب، حتى تتناسى الآنسة الفاضلة أباها وكل ما تبقى، فيضيع رشادها وتسرع إلى المرآة لتتبرج وترتمي متهالكة! آه، إنها سعيدة بتركها أباها! لقد كانت تعرف أنني لن أغفل عن رؤيته... ذلك الغبي الذي لم يرفع عينيه عن بوريين! هذه واحدة يجب طردها فوراً!... كيف لم تلاحظ ماري تصرفهما! كان عليها أن تخجل مني إذا كانت لا تخجل من نفسها. يجب أن أطلعها على أن هذا المخاتل لا يفكر فيها مطلقاً، بل يفكر في بوريين... ولما كانت لا تملك شيئاً من الكرامة، فإن من واجبي أن أدلها على ما تفعل وأن أفتح عينيها...».

ويدرك الأمير العجوز تماماً أنه إذا أثبت لابنته أن اهتمام أناتول كان منصباً على الآنسة بوريين وحدها فإنه بذلك يدمي كرامتها وينجح في مبتغاه، فترفض الابتعاد عنه. فلما بلغ من مناقشته هذا المبلغ، قرع الجرس مستدعياً توخين الذي راح يحضر له ثياب النوم.

وبينما كان توخين يغطّي جسده النحيل ذا الصدر المغطى بالشعر الأشهب، كان الأمير يحدث نفسه: «ما كنت في حاجة إلى زيارتهما! لقد جاءا يقلبان حياتي كما لو كنت مستغنياً عنها!».

صرخ ورأسه لايزال محجوباً بالقميص الذي لم يتخلص منه بعد: ليذهبوا إلى جهنم!

كان يحدث أحياناً أن يعبر الأمير عن آرائه بصوت مرتفع، وكان توخين يعرف عادات سيده، لذلك فقد جابه نظرته المستفسرة الغضبى التي ظهرت خلال فتحة القميص بوجه مشرق.

سأل الأمير: هل ناموا؟

كان توخين خادماً ممتازاً يفهم غاية سيده من كلماته الأولى. لذلك أدرك على الفور أنه يعني بذلك السؤال الأمير بازيل وولده. فقال: نعم يا صاحب السعادة، وقد أطفأوا الأنوار في غرفهم. غمغم الأمير مزمجراً: لكأنني كنت في حاجة إلى أمثالهم!

ثم انتعل خفه وارتدى معطفه المنزلي ومضى يستلقي على الكنبة التي كانت تقوم عنده مقام السرير.

وعلى الرغم من أن أناتول والآنسة بوريين لم يتبادلا كلمة واحدة حول شعورهما، فقد فهم كلاهما أن لديما كثيراً مما يودان التحدث به في جلسة هادئة. أدرك كلاهما خطوط الرواية التي يفكر فيها الآخر، أو أقله الجزء الأول منها، الإغراء والاستسلام. لذلك فإن الصباح التالي ما كاد يكتحل طرفه بالضياء حتى أخذ كل منهما يبحث عن الآخر ليختلي به. ولما كانت ماري تذهب عادة في ساعة معينة كل صباح لتحيي أباها تحية الصباح، فقد أتيح لبوريين أن تقابل أناتول في الحديقة الشتوية.

ارتجفت ماري ذلك الصباح لدى دخولها غرفة أبيها أكثر من عادتها.

اعتقدت أن كل من حولها أصبحوا يعرفون ليس أن مصيرها على وشك التقرير فحسب، بل كذلك أفكارها الشخصية وأحلامها. بدا وجه تيفون لعينيها بعكس تلك المشاعر بكل صراحة، وكذلك خيل إليها أن خادم الأمير بازيل، الذي قابلته حاملاً إناء ممتلئاً بالماء الساخن ذاهباً به إلى غرفة سيده، مطلعاً على كل شيء بدليل التحية العميقة التي ابتدرها بها عندما مرّ بقربها.

رحّب الأمير العجوز بابنته بترحاب وبشاشة تنذر بأسوأ النتائج، كما عرفت ماري لطول خبرتها. كان وجهه منطبعاً بمثل التعابير التي كانت تقرأها عليه إبان دروس الرياضيات عندما كان يثيره عدم استيعابها الشروح التي كان يفسر بها الدرس اليومي. كان يطبق قبضته وينهض من مكانه مبتعداً عنها ويكرر الكلمة نفسها مرات عديدة بصوت جامد.

هاجم الموضوع فوراً باستعماله كلمة «أنتم» بدلاً من «أنت». قال بصوت هادئ والابتسامة المغتصبة تداعب شفتيه: لقد تقدم بعضهم بعرض يتعلق «بكم» لا شك «أنكم» عرفتم أن عينيَّ الجميلتين لا وزن لهما في زيارة الأمير بازيل وقاصره (والله وحده يعرف السبب الذي من أجله وصف أناتول بكلمة قاصر!). إذن فقد تقدموا إليّ بعرض يتعلق «بكم» كما قلت. وبما «أنكم» تعرفون مبادئي الشخصية ومثلي فقد عدت بالموضوع إلى قرار «كم»؟

تمتمت ماري وهي تمتقع تارة ويحمرّ وجهها تارة أخرى: كيف يجب أن أفهم قولك يا أبي؟

فصاح الأمير مستنكراً: كيف تفهمين! إن الأمير بازيل يجدك مناسبة لتكوني كنة ويتقدم إليك بالعرض نيابة عن قاصره. هذا ما يجب أن تفهميه!... كيف تفهمين!... ولكن عليك أنت إعطاء الجواب.

فعادت ماري تتمتم: لست أدري يا أبي كيف تنظر...

ـ كيف أنظر؟... إن الأمر غير متعلق بي! لا تهتمي بشأني. لست أنا الذي سأتزوج. لكن «أنتم»، ماذا تفكر «ون»؟ هذا ما أريد معرفته.

أدركت ماري أن العرض لم يرق أباها. لكنها عرفت كذلك أن مصيرها كله متوقف على هذه اللحظة من الزمن. أطرقت برأسها لتتجنب نظرة أبيها المسيطرة، تلك النظرة التي كانت تخنق في نفسها كل أبواب التفكير فلا تترك لها إلا الخضوع المطلق، وقالت: إنني لا أرغب إلا في شيء واحد: تنفيذ رغبتك. وبما أنك تريد معرفة رأيي حول هذا الموضوع...

لم تجد فرصة لإتمام حديثها لأن الأمير قاطعها قائلاً: حسناً، لسوف يأخذك أنت وبائنتك والآنسة بوريين «على البيعة» إنها هي التي ستكون زوجته وليس أنت...

لكنه توقف عندما رأى ماري خافضة الرأس على وشك البكاء وقد زعزعت تلك الكلمات كيانها. قال مستدركاً: لا تراعي، لقد كنت أمزح. كنت أمزح. إنك تعرفين مبدئي: على الفتاة أن تختار شريكها. وعلى ذلك فإنني أعطيك ملء الحرية. تذكري فقط أن سعادة حياتك كلها تتوقف على قرارك. ولا تجعلي مني حجة تقوم عليها اعتباراتك.

ـ لكن في الحقيقة لست أدري يا أبي.... أنا لا علاقة لي بهذا الشأن! أما هو فقد أمر أن يتزوجك، وإنه لفاعل. وإن لم يكن أنت فإنه لا بد وأن يتزوج أول من تقدم له. أما أنت، فإنك حرة في الاختيار. إذهبي إلى غرفتك وفكري في الأمر ملياً ثم عودي بعد ساعة. وسوف تتحدثين أمامه إما سلباً وإما إيجاباً. أنا أعرف أنك ستركعين مصلية فور اعتكافك. فليكن. صلي ولكن فكري كذلك. هيا اذهبي الآن...

واستمر يصيح وراءها: نعم أو لا، نعم أو لا!

حينما كانت تغادر أباها مترنحة في مشيتها وكأنها تائهة في ضباب، كان

مصيرها قد تقرر وكان ذلك القرار على خير ما يرام لأنها كانت تملك ناصيته. لكن تلك الملاحظة العابرة التي أبداها أبوها حول مسألة الآنسة بوريين وعلاقتها ما زالت تشغل بالها. اجتازت الحديقة الشتوية على خط مستقيم دون أن ترى أو تسمع شيئاً. لكنها فجأة سمعت همسات الآنسة بوريين المألوفة فانتشلتها من شرودها. رفعت عينيها فرأت على مسافة خطوتين منها الأمير أناتول ضاماً الفرنسية بين ذراعيه يهمس في أذنها كلاماً، ولما وقعت عيناه على ماري، اكتسى وجهه الجميل بطابع الذهول وكأنه كان يقول: «ماذا؟ ماذا تريدون مني! انتظري لحظة». لم يفلت بوريين لفوره وخصوصاً أن هذه لم تكن قد رأتها بعد. أخذت ماري تتأملها بصمت دون أن تتقبل ما ترى أو أن تفهم ما يراد منه. وفجأة أطلقت الفرنسية صرخة وأفلتت هاربة. أما أناتول فاستعاد ابتسامته وانحنى أمامها وكأنه يدعوها إلى مشاطرته الابتسام من هذه المناسبة الفريدة. ثم هز كتفيه واتجه نحو الباب المؤدي إلى الجناح الذي نزل فيه مع أبيه.

وصل توخين بعد انقضاء ساعة يعلن للأميرة ماري أن أباها ينتظرها وبصحبته الأمير بازيل سيرغييتش. وكانت هذه جالسة على كنبة تضم بين ذراعيها الآنسة بوريين وتمسّد شعرها بعطف وحنان. كانت عيناها الجميلتان على هدوئهما وإشعاعهما السابقين، وكانت تحدق إلى وجه الآنسة بوريين، ذلك الوجه الجميل الذي كان مبلّلاً بالدموع. كانت تنظر إلى الفرنسية ببشاشة وعطف حقيقيين. وكانت بوريين تقول: لا، يا أميرة، لقد هلكت إلى الأبد وفقدت مكاني في قلبك النبيل.

فتجيبها ماري: ولماذا؟ إنني أحبك أكثر من أي وقت مضى وسأسعى بكل ما أوتيت من قوة في سبيل سعادتك.

ـ لكنك تحتقرينني. أنت الطاهرة، لا يمكنك أن تفهمي هذه الخطيئة الغريزية، خطيئة الرغبة! آه! إنه خيالي وأقصوصتي...

فأجابتها الأميرة بابتسامة كئيبة: بل إني أفهم كل شيء، اطمئني يا صديقتي...

ثم عقبت وهي تنهض من مكانها... ولكن يجب أن ألحق بأبي.

كان الأمير بازيل جالساً على مقعده وقد لف ساقاً على ساق وعلى وجهه آيات الانفعال، وكانت الابتسامة الحانية المطلقة على شفتيه عند دخول ماري تبدو وكأنها استخفاف بذلك الانفعال والاضطراب. بادر إلى الهجوم فقال وهو يستقبلها واقفاً ويمسك بيديها الاثنتين: آه! أيتها الطيبة، أيتها الطيبة!

ثم أطلق زفرة وأردف: إن مصير ولدي بين يديك. فقرري يا ماري، أيتها الطيبة، أيتها العزيزة الرقيقة التي أحببتك دائماً كابنتي.

وبينما هو يفسح لها في الطريق، ظهرت دمعة حقيقية في زاوية عينه بين الجفن الهدب.

صاح الأمير العجوز بعد أن أخذ نفساً عميقاً: إن الأمير باسم قاصره لا بل باسم ابنه يطلب يدك للزواج. فهل تريدين أن تصبحي زوجة أناتول كوراغين؟ أجيبي نعم أو لا. قولي نعم أو قولي لا، وإنني أحتفظ بحقي في إبداء رأيي بعد ذلك... رأيي فقط ولا، ولا شيء سواه.

وكرر هذه الجملة عندما لمس أمارات التوسل التي انطبعت على وجه الأمير بازيل وتابع: حسناً؟ ما هو رأيك؟ نعم أو لا؟

فقالت ماري بثبات وهي تنظر في عيني الأمير بازيل ثم تنقل نظرها إلى وجه أبيها: إن رغبتي يا أبي هي ألّا أفارقك أبداً، ألّا أفصل حياتي عن حياتك، إنني لا أريد أن أتزوج.

فغمغم الأب حانقاً وقد اكفهر وجهه: يا للغباوة، يا للغباوة! سخافات، سخافات!

لكنه جذب ابنته نحوه ولامس وجنتها بوجنته دون أن يقبلها وضغط على يدها بشدة حتى أن ماري لم تتمالك أن أطلقت صرخة خافتة شفعتها بحركة دالة على شدة الألم.

أما الأمير بازيل فقد نهض واقفاً وقال: يا عزيزتي، أستطيع القول إنني لن أنسى هذه اللحظة أبداً ولكن ألا تعطين مجالاً للأمل في أن قلبك شديد الطيبة قد يعيد النظر في قراره؟ قولي يجوز... إن المستقبل كبير فسيح قولي: يجوز. كلا يا أميري. لقد تحدثت بكل صراحة وليس لدي ما أضيفه على ما قلت. أنا أشكرك للشرف الذي أسبغته علي، لن أكون زوج ابنك أبداً.

وعندئذ قال الأمير العجوز: حسناً يا عزيزي بازيل، لقد انتهينا من هذا. سرني أن رأيتك بعد طول فراق... سرني... وأنت أيتها الأميرة يمكنك الانسحاب...

وعانق الأمير بازيل للمرة الثانية وأردف: كانت ماري تحدث نفسها بقولها: «إن مهمتي في الحياة تختلف عن كل هذه الأمور، إنها تنحصر في التضحية في سبيل الحياة الآخرة. ولسوف أمكن إميلي المسكينة من سعادتها مهما بلغ الثمن. إنها تحبه بشغف وهي آسفة شديدة الندم على زلتها. سأقوم بكل ما في وسعي كي يتزوجها. إذا لم يكن غنياً فإنني سأقدم له بائنة. سوف أبتهل إلى أبي وأتوسل إلى أخي أندريه. سأكون شديدة السعادة عندما تصبح زوجته!... إنها غريبة مسكينة لا أقرباء لها ولا سند... آه! يا إلهي، هل كان يجب أن تتعلق به إلى هذا الحد حتى تنسى نفسها فتستسلم له! لعلني كنت أتصرف!... إنها لا تلام».

الفصل السادس

لم يتلق آل روستوف منذ زمن طويل شيئاً من أخبار نيكولا. وعندما انتصف الشتاء، سلم للكونت رسالة كان العنوان مخطوطاً بخط ولده. حركت تلك الرسالة عواطف الكونت حتى أنه مشى على أطراف قدميه محاذراً تنبيه أحد إليه وأغلق على نفسه باب مكتبه ليختلي برسالة ابنه ويكتم الخبر عن الآخرين، وكانت أنّا ميخاييلوفنا، رغم تحسن أحوالها وانتعاش مواردها، لا تزال تقيم لدى آل روستوف. وكان من عادتها الإحاطة بكل ما يدور حولها. وهكذا، لم تلبث أن اكتشفت الأمر فتسللت بخطى حذرة إلى مخدع الكونت وهناك وجدته يضحك وينتحب والرسالة في يده.

سألته بلهجة قلقة واستفسار، وبلهفة تتقن إبرازها كلما أرادت المساهمة في الاطلاع على موقف معين: ماذا يا صديقي الطيب؟

فتضاعف نحيب الكونت وتمتم خلال دموعه: رسالة... من صغيري نيكولا... لقد جرح يا عزيزتي... نعم، نعم، لقد جرح صغيري العزيز... ولقد بشروه برتبة ضابط... حمداً لله!

كيف أنقل هذا الخبر... إلى عزيزتي الكونتيسة الصغيرة؟...

أخذت أنّا ميخاييلوفنا مكانها قرب الكونت وراحت تمسح عينيه بمنديلها وتجفف الورقة التي تساقطت عليها بضع عبرات، وأخيراً تمسح دموعها هي الأخرى. ثم قرأت الرسالة، فطمأنت الكونت وقررت أن تهيّئ

الكونتيسة لتلقي النبأ قبل موعد الطعام معلنة أنها ستنهيه إليها بعون الله بعد تناول الشاي.

استمرت آنّا ميخاييلوڤنا تتحدث طوال الوقت الذي استغرقه الطعام عن الأنباء والإشاعات المتناقلة على الألسن المتعلقة بسير القتال. وعلى الرغم من إلمامها التام بالوقت الذي تلقت فيه الأسرة آخر أنباء نيكولا، عادت تسأل عن الوقت ملمحة إلى أنه لا يستبعد أن يصل منه كتاب في ذلك اليوم بالذات.

كانت تلك التلميحات تسبب للكونتيسة قلقاً واكتئاباً. كانت تتفحص وجه زوجها بنظرة صارمة تارة ووجه صديقتها تارة أخرى، وعندئذ كانت هذه تحول الحديث ببراءة إلى موضوعات تافهة. غير أن ناتاشا ذات الحس المرهف، أدركت منذ أن بدأ الطعام أن في الجو شيئاً جديداً، لذلك راحت تصغي بانتباه شديد إلى كل التنويهات وتسجل كل التحولات التي تطرأ على قسمات وجوه الجالسين محاولة اختراق الستور ومعرفة ما وراء تلك النفحات الصوتية الغامضة. فهمت بسرعة أن هناك سراً، وأن ذلك السر يتعلق بنيكولا وأنه كامن بين أبيها وبين آنّا ميخاييلوڤنا بل أدركت أن هذه تمهد السبيل للافضاء بذلك السر.

ولما كانت تعلم أن كل ما يتعلق بنيكولا يثير أمها ويزعجها، فإنها لم تجرؤ رغم جرأتها وطيشها، على طرح أي سؤال. لكنها كانت في غمار لهفتها ناسية الطعام الذي بين يديها فلم تصب منه إلا قليلاً. لم تكن لتستقر على كرسيها متجاهلة ملاحظات مربيتها. وما إن نهض أفراد الأسرة عن الطاولة حتى أسرعت إلى آنّا ميخاييلوڤنا كالمجنونة فلحقت بها قرب المخدع وهناك قفزت إلى عنقها فتعلقت به وهتفت: يا عمتاه، يا خالتي الجميلة العزيزة، نبئيني بالخبر!

ـ ليس من خبر يا عزيزتي.

ـ بلى، بلى. إنني واثقة بأنك تلقيت شيئاً جديداً. آه يا عزيزتي، يا جميلتي، يا معبودتي، قولي لي فوراً ما الخبر وأسرعي لأنني لن أفلتك قبل أن تنهيه إلي.

فقالت السيدة الطيبة وهي تهز رأسها: إنك مرهفة الحس يا طفلتي...

فقالت ناتاشا: إنها رسالة من نيكولا أليس كذلك؟

ولما قرأت على وجه آنّا ميخاييلوڤنا ما يدعم هذا الرأي استطردت: بلى، رسالة من نيكولا، بالتأكيد!

ـ كوني حكيمة بحق السماء. إنك تعرفين ما يعتري أمك من انفعال لهذا النبأ.

ـ نعم، نعم. ولكن نبئيني بالخبر. حدثيني. ألا تريدين؟ حسناً، إنني ذاهبة فوراً إلى أمي أخبرها...

فاضطرت آنّا ميخاييلوڤنا إلى إيجاز فحوى الرسالة الواردة في بضع كلمات وناشدتها أن تكتم الخبر عن الجميع. فقالت ناتاشا وهي ترسم إشارة الصليب: أعدك وعد شرف أن لا أقول ذلك لأحد!

وأسرعت فوراً إلى سونيا وقالت لها وهي تكاد تطير فرحاً: سونيا، إن نيكولا... جريح... هناك رسالة منه...

فامتقع وجه سونيا ولم تستطع النطق إلا بكلمة واحدة: نيكولا!

وأدركت ناتاشا من اضطراب ابنة عمها مبلغ ما في الخبر الذي وافتها به من حزن. فارتمت على عنقها وذابت في دموعها.

راحت تطمئنها خلال نحيبها بقولها: لقد جرح جرحاً طفيفاً وسيصبح ضابطاً بعد حين. إن حاله بتحسن مستمر ولقد كتب الرسالة بنفسه وبخط يده.

ومن هنا أعلن پيتيا، الأخ الصغير وله من العمر تسع سنوات، وكان يذرع الغرفة بخطوات ثابتة: كل النساء بدون شك لسن إلا نائحات منتحبات. أما أنا،

فسعيد جداً، نعم سعيد حقاً أن يكون أخي قد أظهر شجاعته على هذا الشكل. إنكن نائحات سخيفات، لا تفقهن شيئاً.

فابتسمت ناتاشا رغم دموعها بينما سألتها سونيا: هل قرأت الرسالة؟

ـ كلا، لكنها أنبأتني بأنه شفي تماماً وأنهم رقوه إلى رتبة ضابط. فقالت سونيا وهي ترسم إشارة الصليب على صدرها: حمداً لله! ولكن، لعلها لم تنبئك بالصدق. هيا بنا إلى «ماما».

وكان پيتيا لا يزال في تجواله صامتاً. قال: لو أنني كنت بدلاً من نيكولا، لقتلت مزيداً من أولئك الفرنسيين، يا للأوباش! كنت قتلت منهم عدداً كبيراً وكتلت جثثهم حتى يبلغ ارتفاعها هكذا!

وشفع ذلك بإشارة من يده مبيناً الارتفاع المنشود.

قالت أخته: حقاً يا پيتيا، يا لك من غبي!

ـ لست أنا الغبي بل أنتن، يا من تبكين لأتفه الحماقات.

سألت ناتاشا بعد فترة صمت: هل تذكرينه يا سونيا؟

فقالت سونيا باسمة: تسألينني إذا كنت أتذكر نيكولا؟

فألحت ناتاشا وهي تؤيد خطورة سؤالها بحركة من يدها: كلا يا سونيا، هل تذكرينه بشكل يجعلك تذكرين كل شيء؟ أنا أتذكر كل قسماته أما بوريس فقد نسيته تماماً...

فصاحت سونيا مذهولة: كيف، أنسيت بوريس!

ـ أقصد أنني لم أنسه بمعنى الكلمة، إنني أعرف تقاطيعه بالطبع، لكنني لا أذكره كما أذكر نيكولا. عندما أغمض عيني، وأغمضتهما فعلاً، أراه أمامي. أما بوريس، فعلى العكس، إنني لا أراه، أبداً.

نظرت ناتاشا إلى صديقتها بخطورة وجلال وكأنها قدرت أنها لا تستحق الإصغاء إلى ما تقول، فراحت تخاطب شخصاً آخر لم يكن دأبه المزاح: آه!

ناتاشا، ناتاشا، إنني أحب أخاك. ومهما جرى له أو لي، فلن أنقطع عن حبه طوال أيامي.

أرتج على ناتاشا وحارت في الجواب الذي تقدمه، فاكتفت بالتحديق إلى وجه ابنة عمها بنظرة كلها اندهاش. كانت تشك في صدق قول سونيا وفي إمكانية وجود حب من هذا النوع. ولكنها لم تجد مندوحة عن الاعتراف بجواز مثل هذا الأمر خصوصاً وأنها لم تكن بعد قد شعرت بشيء من هذا القبيل واجتازت اختباراً من هذا النوع. وأخيراً سألت: هل ستكتبين له؟

استغرقت سونيا في التفكير. كانت منذ وقت طويل تتساءل بقلق عما إذا لم يكن من الواجب عليها أن تكتب لنيكولا، وعن العبارات التي تتلاءم مع هذه الغاية. أما الآن وقد أصبح بطلاً ينتظر ترقيته إلى رتبة ضابط، فهل من النبل في شيء أن تعيد إلى ذاكرة الفتى ذكراها؟ ألن يفسر رسالتها بأنها نداء وتذكير بالعلاقة والالتزام الذي تعهد به حيالها؟

قالت وقد احمرّ وجهها خجلاً: في الحقيقة لست أدري. ولكن يبدو لي أنني أستطيع أن أكتب له طالما أنه يكتب لنا بدوره.

ـ وهل ستشعرين بالخجل إن أنت كتبت؟

فقالت سونيا باسمة: أبداً، لماذا أخجل؟

ـ لست أدري. هكذا... إن ذلك قمين بارتباكي.

تدخل بيتيا مجدداً وقال وهو شديد الألم لملاحظة أخته الأخيرة: أما أنا فأعرف لماذا تشعر بالخجل. ذلك لأنها بعد أن أحبت بوريس، عادت تعشق ذلك الضخم ذا النظارتين، ويقصد به الكونت بيزوخوف الجديد الذي لم يجد بيتيا وصفاً آخر ينطبق على مظهره الطيب، وها هي الآن مفتونة بالمغني، وكان يقصد ذلك الإيطالي الذي يقوم بدور أستاذ الموسيقى بالنسبة إلى ناتاشا، هذا هو سبب خجلها.

قالت ناتاشا: يا لك من غبي يا پيتيا!

ـ لست أكثر غباوةً منك يا صديقتي الطيبة!

نطق الطفل بهذه الجملة بثبات الكهل المحنك.

تذكرت الكونتيسة وهي في غرفتها بعد الطعام إلى التلميحات التي فاهت بها آنّا ميخاييلوڤنا على المائدة، فغرقت في كنبتها واستغرقت في تأمل صورة ابنها الصغيرة المنقوشة على غطاء علبة سعوطها تلألأت الدموع في عينيها وطفرت تبلل أهدابها. وفي تلك اللحظة، كانت آنّا ميخاييلوڤنا تقترب من غرفة صديقتها بخطوات متسللة والرسالة في جيبها. قالت للكونت الذي كان يريد اللحاق بها: كلا، لا تدخل... انتظر برهة...

وأغلقت الباب وراءها.

ألصق الكونت أذنه بثقب الباب منصتاً وانتظر اللحظة المناسبة لدخوله.

لم يسمع بادئ الأمر إلا موضوعات تافهة ثم خطبة مطولة من آنّا ميخاييلوڤنا أعقبتها صرخة وبعدها صمت. ولم يلبث ذلك الصمت أن مزقته هتافات البشر والفرح المتبادلة بين الصديقتين. وعلى وقع خطوات ظهرت آنّا ميخاييلوڤنا تدعوه إلى الدخول. كانت تعابير وجهها تشبه تعابير الجراح الماهر الذي جاء يفتح الباب للجمهور الراغب في عيادة المريض بعد أن انتهى من إجراء عملية خطيرة له بنجاح خارق، استحق عليها الثناء.

قالت للكونت بفخار وهي تشير إلى الكونتيسة التي كانت ممسكة بعلبة السعوط في يد ورسالة نيكولا في الأخرى، تقرأها بشغف وتقبلهما دورياً بتحنان: لقد انتهى الأمر.

عندما وقع نظر الكونتيسة على الكونت، مدت ذراعيها نحوه وأحاطت بها رأسه الأصلع وقدرت أنها تستطيع إعادة تلاوة الرسالة وهي على ذلك الوضع، والتامل في الصورة المنقوشة على غطاء علبة السعوط. بل إنها

اضطرت إلى تضييق الخناق على الرأس وصاحبه ليتسنى لها تقبيل تلك الأشياء بكل راحة. ودخل الأولاد: ڤيرا، ناتاشا، سونيا وپيتيا بدورهم وأعيدت تلاوة الرسالة على مسامعهن أيضاً. أورد نيكولا في رسالته وصفاً موجزاً للجبهة والمعركتين اللتين اشترك فيهما، ثم يخبر ذويه أنه رفع لرتبة ضابط. وأخيراً قال في رسالته إنه يقبل يدي ماما وبابا ويلتمس بركاتهما ودعاءهما، ويقبل وجنات ڤيرا وناتاشا وپيتيا ويبعث بتحياته إلى السيد شيللنج والسيدة شوس وإلى المربية. ويطلب إليهم أن يقبلوا سونيا العزيزة نيابة عنه مؤكداً أنه لايزال يحبها كسابق عهده ويحتفظ بذكراها بكل إخلاص.

ولما بلغت الكونتيسة في القراءة هذا المقطع اندفعت الدماء في وجنتي سونيا واغرورقت الدموع في عينيها. ولما أخفقت في الصمود تجاه النظرات التي راحت تحدق إلى وجهها، ركضت هاربة فدخلت القاعة الكبرى واستدارت حول نفسها من الفرح فانتفخ ذيل ثوبها وأصبح كالكرة الضخمة، وجلست على الأرض محمرة الوجه باسمة الثغر.

كانت الكونتيسة تبكي لذكرى ابنها فقالت لها ڤيرا: لماذا تبكين يا أماه؟ إن رسالته تستحق أن يفرح الإنسان لها بدلاً من البكاء.

ملاحظة في محلها. مع ذلك فقد راح الكونت والكونتيسة وناتاشا والآخرون يحدجونها بنظرات اللوم. كانت أمها تتساءل: «بمن هي متعلقة إذن؟».

تليت رسالة نيكولا مرات ومرات لكن أولئك الذين رئي أنهم يستحقون الإصغاء إلى ما جاء فيها، كانوا يحضرون إلى حيث كانت الكونتيسة لتقرأها عليها لأنها لم تكن توافق على التخلي عن رسالة ابنها. وهكذا فقد مرّ أمامها رؤساء الخدم والمربية وميتانكا وعدد من الأصدقاء. وفي كل مرة كانت الكونتيسة تعيد التلاوة بشغف، وبعد كل تلاوة جديدة، كانت تكتشف في

نيكولا من الصفات ما فاتها إدراكه في المرة السالفة. وهكذا فإن ذلك الابن، الذي كان في أحشائها قبل عشرين عاماً، يتحرك بجسده الضئيل الضعيف، ذلك الابن الذي تشاجرت بسببه مع الكونت الذي كان يدلله بكثرة، ذلك الابن الذي كان أول ما نطق به من الكلام هو: «إجاصة» ثم تعلم بعدها كلمة «سيدة»، ذلك الابن بالذات قد أصبح الآن بعيداً عنها في بلاد غريبة، وحيداً دون مساعدة ولا دليل، يقوم بأعمال الرجال! يا لها من فرحة، لكن الموضوع يستوجب كذلك الدهشة والذهول، أصحيح أن العالم كان لا يكاد يجهل أن الأطفال يصبحون بالتدريج رجالاً وربما أبطالاً.

غير أن هذا التدرج الطبيعي العام الذي ينطبق على كل البشر، لم يكن معروفاً من الكونتيسة قبل ذلك اليوم. نسيت الكونتيسة أن الملايين من البشر قد مروا في هذه المراحل من التطور، فرفضت الاقتناع بأن ولدها «ذاك» قد بلغ مبلغ الرجال. منذ عشرين عاماً، عندما كانت تحمل هذا الصغير قرب قلبها، لم تكن تصدق أنه سيرضع ثديها يوماً ويتعلم الكلام بعد ذلك. وكذلك الآن، فإنها لا تصدق أن ذلك الصغير بالذات قد أصبح، كما كانت تنبئ رسالته، رجلاً باسلاً جديراً بأن يكون مثالاً يقتدي به الأبناء كلهم، بل الجنس البشري برمته!

كانت تقول وهي تعيد تلاوة المقاطع الوصفية في الرسالة: يا له من أسلوب جميل! يا للبراعة في وصف الأشياء! ثم يا لله من القلب الذي له! لم يتحدث بكلمة واحدة عن آماله، ولا همسة! إنه لا يتحدث إلا عن واحد اسمه دينيسوف. مع ذلك فأنا واثقة بأنه أشدهم بسالة. ثم إنه يهمس بكلمة واحدة عن العنت الذي لاقاه والمشقة التي احتملها. يا لقلبه الكبير! إنني أتعرف إلى ذلك القلب من خلال الأسطر! ثم إنه عني بصورة خاصة بإبلاغ تحياته للجميع

فلم ينس أحداً ولم يستثن أحداً! لقد كنت أقول دائماً إنه نبيل كبير القلب، نعم، منذ أن كان هكذا في طوله!...

وانقضت ثمانية أيام لم يكن للأسرة من هم خلالها إلا كتابة الرسائل ثم تمزيقها لعدم صلاحيتها ثم إعادة كتابتها.

وتحت إشراف الكونتيسة، هيأ الكونت كل التجهيزات اللازمة للضابط الجديد، ولما كانت أنّا ميخاييلوڤنا قد أحاطت ابنها بكثير من الرعاية وأسلمت أمره إلى عدد من المتنفذين. فإن الأسرة استطاعت بفضل هذه التدابير المسبقة أن تتصل بابن أنّا بكل سهولة، خلافاً لما كان عليه نيكولا وهكذا فقد كان رسول الغراندوق كونستانتان باڤلوڤيتش، قائد الحرس العام، يتعهد إيصال الرسائل بأمانة. وبدت عبارة: «الحرس الروسي في الخارج» المطبوعة على الأوراق والغلافات، كافية بنظر آل روستوف لتكون عنواناً مضموناً. كانوا يقولون: طالما البريد يصل إلى يدي الغراندوق قائد الحرس العام، فإنه ليس هناك ما يبرر عدم وصوله إلى سرية پاڤلوغراد التي يجب ألّا تكون بعيداً جداً عن مكان وجوده وهكذا قرروا إرسال ما يتوجب من المال مع رسالة في بريد الغراندوق باسم بوريس وتكليفه تسليمها.

المال والرسالة نيكولا. وجمعت الرسائل، من الكونت والكونتيسة وپيتيا وڤيرا وناتاشا وسونيا، وأضيف إليها مبلغ ستة آلاف روبل قدرت أنها كافية لشراء التجهيزات اللازمة، وأرسلت جميعها في البريد، بريد الغراندوق، مع عدد من الأشياء المختلفة التي قدر الكونت العجوز أنها ضرورية يجب إيصالها إلى ولده نيكولا.

الفصل السابع

كان جيش كوتوزوف في الثاني عشر من تشرين الثاني، الذي كان معسكراً في ضواحي أولموتز، يستعد للقيام باستعراض كبير غداة اليوم التالي أمام الأمبراطورين الروسي والنمسوي. وكان الحرس الروسي، الذي وصل أخيراً، يقضي الليل على مسافة أربعة أميال من المدينة وكان عليه الظهور في ساحة العرض في الساعة العاشرة صباحاً.

تلقى نيكولا روستوف كلمة من بوريس ينبئه فيها بأن فيلق إسماعيل معسكر على مسافة أربعة أميال خارج أولموتز وأنه ينتظر قدومه إليه ليسلمه رسالة ومبلغاً من المال أرسلهما ذووه. وكان نيكولا في أمسّ الحاجة إلى المال لأن معسكره كان محاصراً بعدد كبير من الباعة اليهود النمسويين الذين كانوا يقدمون للضباط والجنود سلعاً مختلفة مغرية ومتاعاً.

وكانت أيام ضباط پاڤلوغراد تمضي في سلسلة متصلة من الولائم والحفلات، وهي مزايا خصصت لهم إبان انتقالهم، فكانوا لا يفتأون يترددون إلى أولموتز، إلى حانة أسستها امرأة اسمها كارولين الهنغارية، جعلت مستخدميها كلهم من الجنس الناعم. وكان روستوف قد احتفل منذ أيام بترقيته الجديدة واشترى حصان دينيسوف (بيروان)، فتورط في ديون كثيرة موزعة في غير عدل بين الباعة وزملائه. لذلك ما كاد يتلقى كتاب بوريس حتى بادر إلى الذهاب إلى أولموتز وهناك تناول طعامه وجرع زجاجة من الخمر بصحبة زميل له، وراح يبحث عن صديق طفولته. لم يكن قد أتم تجهيزاته

بعد، لذلك فقد كان ممتطياً صهوة جواد روسي استعاره من أحد القوقازيين، ومرتدياً سترة الجندي القذرة وقد التمع عليها صليب يمنح للجنود، وسراويل ركوب مرقعة، وتمنطق بحسام ضابط في فرسان الدراغون وغطى رأسه بقبّعة مشوهة أمالها على أذنه بمجون. وعندما اقترب من معسكر الحرس، راح يفكر في الأثر الذي سيحدثه مظهره العسكري وحركاته التي انطبعت بطابع فرسان الجيش على بوريس والسادة أفراد الحرس.

في الحقيقة، إن فرقة الحرس كانت قد التحقت بالجيش المحارب وكأنها ذاهبة إلى نزهة. كان أفرادها على أوفر حظ من التنظيم وشموخ الأنفة، وألبستهم نظيفة لا تقبل النقد. ولقد كانت المراحل التي قطعها رجال الحرس قصيرة جداً والأمتعة والأكياس وما إليها كانت تنقل على عربات، أضف إلى ذلك أنهم في كل مراحل الطريق، كانوا يطعمون أفخر الطعام الذي كانت السلطات النمسوية تجهزه خصوصاً من أجلهم، فكانت السرايا عند دخولها إلى المدن، تسير على إيقاع الموسيقى وتخرج منها على تلك الحال.

كان مقرراً أن يقطع رجال الحرس تلك المراحل بنظام السير الإيقاعي، الأمر الذي كان يجعل الأفراد شديدي الاعتداد، فكان الضباط في أماكنهم المقررة بين الصفوف وإلى جانبيها، يتيهون في أثوابهم الأنيقة. وكان بوريس قد قطع المرحلة كلها إلى جانب بيرج الذي أصبح قائد سرية بفضل دقته وعقليته النظامية. كان يتمتع بكل ثقة رؤسائه بوصفه من النوع الذي لا يجب أن يهمل شأنه.

وكان بوريس من جانبه قد ارتبط بعلاقات مفيدة نذكر منها تعرفه إلى الأمير أندريه بولكونسكي الذي تلقى من بيار بيزوخوف توصية خاصة تدعوه للعناية ببوريس. وكان يعتمد على دعم الأمير وحمايته ليلتحق بأركان حرب القائد العام كوتوزوف.

كان بيرج وبوريس في أبهى زينتهما، ينعمان بالراحة بعد المرحلة الأخيرة، ويقضيان الوقت بلعب الشطرنج حول طاولة مستديرة في الفندق المريح الذي عُين لهما، وكان بيرج مودعاً غليونه المشتعل بين ركبتيه، بينما كان بوريس يبني أهرامات بالبيادق التي ربحها من صديقه، منصرفاً إليها باهتمامه على عادته، يسويها بيديه الدقيقتين وهو لا يني يراقب زميله الذي كان عليه أن يجيب عن حركته. وكان بيرج، وهو المخلص لمبدأه القاضي بعدم الاهتمام إلا بعمل واحد حتى إنجازه، منصرفاً بكليته إلى اللعبة غافلاً عن كل ما حوله.

سأله بوريس: هيا، دلني على المخرج الذي ستجده لورطتك الآن.

فأجاب بيرج وهو يلمس بيدقاً لا يلبث حتى يفلته: سوف نعمل ما في وسعنا.

وفي تلك اللحظة فتح الباب. صاح روستوف: آه، ها هو ذا أخيراً! ها إن بيرج موجود كذلك!

وأردف مقلداً لهجة مربيتهم العجوز التي كانت كثيراً ما تضحكهم من قبل: هيا يا أطفالي، إذهبوا لتستلقوا وتناموا!

ونهض بوريس لاستقبال روستوف قائلاً: يا إلهي، كم تبدلت!

نهض من وراء الطاولة وهو يسعى لإبقاء إهراماته على حالها، واندفع يريد معانقة روستوف. لكن هذا تنحى عن طريقه ممتنعاً. لقد درج الفتيان الشباب على تنكب العادات المألوفة، لأنهم يفضلون اللجوء إلى أساليبهم الخاصة التي لا تتفق غالباً مع ما هو مألوف بين الكبار من عادات لعلها لا تخلو أحياناً من الأنانية وهكذا فضل نيكولا أن يحيي رفيق صباه على طريقتهما السالفة معرباً عن سروره بلقائه، تلك الطريقة التي درجا عليها والتي لا تخرج

عن قرصة في الأذن. أما بوريس فعلى العكس اندفع نحوه وقبله ثلاثاً دون خجل مصطنع، وبمحبة قلبية واضحة.

مضت ستة أشهر على افتراقهما، لذلك راح كل منهما يتأمل التغيرات التي نالت من رفيقه، تلك التغيرات التي يعود الفضل فيها إلى الوسط الذي عاش فيه كل منهما، وأخذ كل واحد يبين للآخر المعالم البارزة في تلك التغيرات الجديدة.

قال روستوف بصوته الذي لم يألفه بوريس، وبلهجة عسكرية صحيحة، وهو يشير إلى سراويله: أيها الملعونان، إنكما على أجمل زينة وكأنكما في نزهة، خلافاً لحالنا نحن جنود الجبهة التعساء!

وأطلت صاحبة المسكن الألمانية خلال الباب الموارب مستغربة مثل هذه الصيحات. فغمزها نيكولا بعينه وقال: ماذا هناك يا جميلتي؟

فقال بوريس: لا تصرخ هكذا، سوف تخيفهم. في الحقيقة إنني لم أكن أنتظر قدومك اليوم لأنني لم أرسل إليك رقعتي إلا البارحة بواسطة أحد ضباط كوتوزوف المساعدين الذي أعرفه. إن اسمه پولكونسكي. وما كنت أظن أنك ستتلقى الرقعة بمثل هذه السرعة... ليكن، كيف حالك؟ لقد بلوت في القتال إذن، أليس كذلك؟

فهز روستوف صليب سان جورج المعلق فوق سترته العسكرية، وأبرز ذراعه المعلقة إلى عنقه ونظر إلى بيرج مبتسماً دون أن يجيب. وأخيراً قال: أظن أن نعم!

فاستطرد بوريس وهو يبتسم بدوره: طبعاً، طبعاً. رائع. أما نحن، فقمنا كذلك برحلة رائعة. إنك تعرف أن سموّه ظل يقطع الطرق تواكبه كتيبتنا، وبذلك أتيحت لنا كل أنواع المتعة. ففي پولونيا لم نشعر بالوقت يمضي ونحن نتنقل من حفلة راقصة إلى وليمة حافلة إلى حفلات استقبال فخمة. ولقد كان

التسيزاريـڤيتسن لقباً يعطى رسمياً لابن القيصر البكر الذي سيخلفه في تسنم العرش، شديد العطف على الضباط جميعاً.

وبدأ الصديقان يطريان أعمالهما، الأول يمتدح الفرسان ويطنب في وصف شجاعتهم في الحرب ويثني على حياة التقشف التي يعيشونها والآخر يعدد الميزات والاعتبارات الكثيرة التي ينعم بها أولئك المنتسبون إلى سلاح يكون قادته محط أنظار الناس واحترامهم.

قال روستوف: آه، إننا نعرفكم معشر رجال الحرس! ماذا يا عزيزي لو أرسلت من يأتينا بزجاجة؟

فعبس بوريس ثم قال: إذا كنت مصراً فلا بأس.

وأخرج كيس نقوده المخبأ تحت الوسائد النظيفة وأصدر أمره بإحضار الشراب وقال: وبهذه المناسبة، سأعطيك الرسالة الواردة باسمك والمال.

أخذ روستوف الرزمة فألقى بكيس النقود على الكنبة واتكأ بمرفقيه على الطاولة وراح يقرأ الرسالة. ولم يكد يطالع الأسطر الأولى حتى راح يحدق بيرج بنظرات التضجر. لقد أحسّ أن عيني بيرج شاخصتان إليه فجعل من الرسالة ستاراً يحجب نفسه وراءه.

قال بيرج وهو ينظر إلى كيس النقود الفارغ في الكنبة: أرسلوا إليك مبلغاً كبيراً على ما يبدو. مساكين نحن يا كونت لأننا لا نملك إلا راتبنا الحقير نتبلغ به. وأنا من أفراد هذا الحرس.

فهتف روستوف: اسمع يا بيرج، إذا وقع لك أن تسلمت أمامي رسالة من ذويك وكان إلى جانبك أحد المقربين إليك يرغب في أن يطرح عليك ألف سؤال وسؤال فثق بأنني أكفيك مؤونة التخلص من بقائي. فاعمل إذن كما كنت سأعمل لو كنت في مثل موقفك واذهب إلى حيث تشاء... وليكن إلى الشيطان!...

فجأة استدرك نفسه وخفض صوته وقام إلى بيرج يمسك بذراعه ويصلح بنظرة متوردة ما أفسده بكلماته القاسية. وتابع بلطف: لا تغضب يا عزيزي، أرجو أن تعذر صراحتي. لكنني أعاملك معاملة الصديق القديم.

فقال بيرج بصوت محتبس وهو ينهض: لا بأس يا كونت، إنني أفهم شعورك.

وقال بوريس من جانبه: أتدري أن مضيفينا دعوك إلى البقاء.

تناول بيرج سترته النظيفة وأصلح شعره أمام المرآة وسواه فوق صدغيه على طريقة الأمبراطور ألكسندر وخرج باسماً بعد أن دلته نظرة ألقاها على روستوف أن مظهر ثوبه الأنيق قد أحدث الأثر المطلوب في نفس الفارس.

تنهد روستوف وهو يعود إلى قراءة رسالته: آه! يا لي من حيوان!

ـ كيف؟ ماذا هناك؟

فكرر مزمجراً وقد احمرّ وجهه فجأة: يا لي من حيوان إذ لم أكتب لهم مرة من قبل أن أسبب لهم كل هذا الخوف. يا لي من حيوان! ولكن أيها الغليون المحترق، هل أرسلت تابعك يأتينا بالخمر؟ نعم. إذن من الخير أن نتناول كأساً.

كانت الكونتيسة روستوف قد أضافت إلى رسالتها الشخصية إلى ابنها، رسالة توصية للأمير باغراسيون حصلت عليها بواسطة صديقتها آنّا ميخاييلوفنا. وكانت تتوسل إلى ابنها أن يستفيد منها إلى أقصى الحدود.

صاح روستوف وهو يلقي بكتاب التوصية أسفل الطاولة: يا للغباوة! لست في حاجة إلى مثل هذا أبداً!

سأله بوريس: لماذا ألقيت بهذه الرسالة؟

ـ إنها كتاب توصية! يا للوسيلة المناسبة! لست أبالي بها!

فقال بوريس وهو يلم الرسالة ويقرأ ما جاء فيها: كيف لا تبالي! يمكن أن تفيدك هذه الرسالة.

ـ لن تفيدني في شيء فلن أكون ضابطاً مساعداً لأحد.

ـ ولماذا من فضلك؟

ـ لأن هذا من عمل الخدم لا الجنود!

فقال بوريس وهو يهز رأسه: ما زلت ذلك الحالم الساهم كما أرى.

ـ وإنك ما زلت ذلك «الدبلوماسي» المعهود. ولكن دعنا من هذا. قل ماذا أصبحت وما هي أخبارك.

ـ الواقع أنني بخير حتى الآن. لكنني أعترف لك بأنني لا أرغب في البقاء في الجيش العامل لفترة طويلة. ثق بأنني لن أخجل أبداً لو أصبحت ضابطاً مساعداً.

ـ ولماذا؟

ـ لأنني إذا كنت اخترت الجندية سبيلاً فما ذلك إلا لأخلق لنفسي مركزاً مرموقاً.

فقال نيكولا الذي كانت أفكاره تبدو في مكان آخر: صحيح!

كانت عيناه تحدقان إلى عيني صديقه وكأنه يبحث عبثاً عن جواب لسؤال محدّد.

وجاء التابع العجوز بالخمر فقال بوريس: لعلنا نستطيع استدعاء ألفونس كارليتش. سوف تفرغ الزجاجة معه لأنني امتنعت عن الشراب أخيراً.

فسأل نيكولا شافعاً سؤاله بضحكة مزدرية: لا بأس، لا بأس... قل لي أي نوع من الناس هو هذا الألماني؟

ـ إنه فتى باسل لطيف جداً ومستقيم.

حدج روستوف صديقه بوريس فترة وأطلق زفرة طويلة.

رجع بيرج سريعاً. وكانت الخمرة قد حلت عقد اللسان فراح الحديث يتشعب بحماسة. أخذ ضابطا الحرس يرويان لروستوف الحوادث التي وقعت لهما خلال الطريق وينهيان إليه تفاصيل الاستقبالات التي نظمت لهما في روسيا وپولونيا والخارج. وصفا له تصرفات رؤسائهما وبصورة خاصة تصرفات الغراندوق وقصا عليه عديداً من النوادر حول سلامة طويته وثورات غضبه.

ومن الطبيعي أن بيرج لم يكن يتحدث إلا إذا كان الموضوع يتعلق بشخصه بالذات، ولكن ما إن دار البحث حول الغراندوق ونوبات غضبه، أعرب عن فخاره إذ استطاع أن يتحدث معه في غاليسيا[1]، خلال جولة تفتيشية قام بها سموّه للقطعات في الميدان، وبدا عليه أنه غير راض عن تحركات الجنود. قال بيرج موضحاً وعلى شفتيه ابتسامة منتصرة إن التسيزاريـڤيتش اندفع بحصانه نحوهم وصاح: «يا لكم من عصبة باشيبوزوك ـ وهي الشتيمة المفضلة لدى سموه عندما يكون غاضباً ـ» وسأل بإلحاح أن يتقدم قائد السرية منه. وأردف: أيها الكونت أنا لم أشعر قط بالخوف لأنني كنت أعرف عدم مسؤوليتي عن الأمر. أنا لا أمتدح نفسي يا كونت، لكنني أؤكد لك أنني أحفظ عن ظهر قلب كل الأوامر اليومية الصادرة والتمسك بها، كما أحفظ عن ظهر قلب صلاة «أبانا الذي...». وهكذا فإنني في سريتي لا أتحول أبداً عن النظام. ولهذا السبب، كنت دائماً مرتاح الضمير. وإذن فقد تقدمت ممتثلاً ووقف بيرج يمثل حركاته حينما تقدم من الغراندوق رافعاً يده بالتحية إلى حافة خوذته، فاتخذ وجهه طابعاً امتزجت فيه اللامبالاة بالاعتداد بالنفس إلى أقصى حدودهما، فبدأ يشتمني ويكيل لي السباب حتى غسلني فيها غسلاً كما يقال. وتحدث

(١) غاليسيا، مقاطعة پولونية كانت جزءاً من النمسا. (المترجم).

فوصفني بكل الصفات وأدرجني في كل الفئات: «منحط! باشيبوزوك! طريدة سيبيريا!» لم يترك كلمة إلا قالها.

وهنا ابتسم بيرج وتابع: ولما كنت واثقاً ببراءتي مما ينسب إلي فإنني لم أتفوه بكلمة. ألست على صواب يا كونت؟ فصرخ لي: «هل أنت أبكم يا هذا؟» لكنني بقيت صامتاً لا أجيب. لك أن تصدقني إذا شئت يا كونت حينما أقول لك إنه في صباح اليوم التالي عند اجتماع الصباح لم يذكر شيئاً عن حادثة أمس في التقرير اليومي ولم أعاقب. وهذا يرجع إلى تمالكي أعصابي في ذلك الموقف...

وجذب من غليونه نفساً عميقاً وراح يطلق حلقات الدخان من فمه بانتظام وابتسامة الظفر لا تفارق شفتيه.

قال روستوف مبتسماً ابتسامة غامضة: نعم، هذا الصواب عينه!

أحسّ بوريس أن روستوف على وشك جعل بيرج هدفاً لسخريته، فقطع الطريق بمهارة بأن سأله أين ومتى وكيف جرح. وكان هذا الموضوع طلياً. وعلى روستوف الذي راح يتحدث بحماسة أخذت في التزايد كلما أوغل في سرد التفاصيل. قص عليهما مسألة شوبنغرابن كما درج الجنود عادة على التحدث عن عظيم الأفعال التي قاموا بها، أي واضعاً الأمور كما كان يريدها أن تكون لا كما كانت في واقع الأمر أو كما سمعوا غيرهم يصفها. ولا شك أن روستوف، وهو الذي يعتبر الصراحة جزءاً من طبعه، كان يتجنب تشويه الحقيقة، ومع ذلك، فإن روايته التي بدأت صحيحة تماماً، لم تلبث أن اختلطت وداخلت تدريجاً دون أن يشعر حتى أصبحت ادعاء واضحاً ومبالغات تبهر العيون.

كان يتعذر عليه التصرف على غير ذلك الشكل. وكان رفيقاه قد سمعا من قبل وصفاً لبعض المعارك وكونا، على ضوء ما سمعا، فكرة حول الموضوع

فباتا ينتظران منه أن يأتي وصفه مصداقاً لفكرتهما. فلو أنه لم يوش قصته ولم يزينها لاعتقد كلاهما أنها بعيدة عن الحقيقة أو، وهنا أخطر ما في الأمر، لعزوا إلى خطيئة ما صادرة عنه بالذات، تلك المخالفات الواضحة في روايته عن حملة يقوم بها سلاح الفرسان. لذلك فإنه لم يكن يستطيع القول إن سريته قامت بأقصى ما في طاقة الخيل وإنه سقط عن جواده أثناء الجري فانكسرت ذراعه وفر بعدها بكل ما أوتيت ساقاه من قوة هرباً من الفرنسيين. ثم إنه لا يمكن في سرد قصة طويلة أن يتجنَّب المتحدث الخروج عن جادة الصدق إلا إذا بذل مجهوداً خارقاً لكبت عواطفه، الأمر الذي قلّ أن استطاع شاب حديث العهد بالجندية.

كان بيرج وبوريس ينتظران منه أن يحدثهما بأنه انقض على فيلق كامل من فيالق العدو وهو يتقد حماسة واندفاعاً فراح يفتك بهم ويضرب بحسامه يميناً وشمالاً، والأشلاء تتناثر في كل حدب وصوب حتى أعياه التعب فسقط أخيراً إلخ... إلخ... وقد رسم لهما روستوف لوحة مماثلة تقريباً عن بطولته وسبب جرحه!

بينما كان في غمرة تحمسه لحديثه يقول: «لا يمكنك أن تتصور السعار الغريب الذي يصيب المرء خلال الهجوم». دخل الأمير أندريه ﭘولكونسكي الذي كان بوريس بانتظاره. وكان ﭘولكونسكي يحمي الشباب الجدد مرضياً بذلك نزعته الشخصية التي كان يرضيها لجوء هؤلاء إلى حمايته، وخصوصاً أنه كان على أتم استعداد لخدمة بوريس الذي راقه أمس واستلطف صحبته. فلما كلفه كوتوزوف أن يحمل أوراقاً معينة إلى التسيزاريـﭭيتش، انتهز الفرصة لزيارة بوريس وهو يعتقد أنه سيجده على انفراد.

لكنه انزعج عندما شاهد فارساً يتبجح ويروي طرائف شجاعته، وهو الأمر الذي لم يكن يطيق احتماله. فابتسم لبوريس وحيا روستوف بتقطيبة

خفيفة مشفوعة بطرفة من عينيه أعقبهما سلام مقتضب ومضى يجلس بإرهاق على الكنبة. كان يخشى أن يحتك بأشخاص ويتناقش معهم بلغة غير مناسبة. وقد حدس روستوف ما في خاطره فاحمرّ وجهه خجلاً. لكنه ما لبث أن حدث نفسه قائلاً: «ولكن ماذا يهمني منه؟ إنني لا أعرف هذا المخلوق!» مع ذلك فإنه ما كاد يرفع أنظاره إلى بوريس حتى شعر أنه هو الآخر مرتبك من تصرفاته المقتبسة عن فرسان الجيش. وعلى الرغم من أن مظهر الأمير أندريه الفاتر المتهكم، وعلى الرغم من ازدرائه الشخصي العميق الذي يشعر به بوصفه من الجنود المحاربين تجاه كل هؤلاء الحقيرين التابعين للأركان، والذي لا بد أن يكون هذا الوافد الجديد منهم، فإن روستوف لم يتمالك نفسه عن الاضطراب أو يكبح اندفاع الدم الغزير إلى وجهه.

وهكذا فقد سكت مرغماً وعندئذ استفسر بوريس عن حوادث الأركان العامة وأخبارها. غير أن الأمير بولكونسكي لم يكن يستطيع التصريح أمام هؤلاء الغرباء بأمور على جانب كبير من الخطورة والأهمية. لذلك أجاب:

أعتقد أننا سنسير إلى الأمام.

وامتنع عن التعقيب على هذا القول بأية كلمة.

سأل بيرج بلهجة ملؤها الاحترام عما إذا كانت النية منصرفة حقاً إلى زيادة العلف ومضاعفته لرؤساء السرايا كما كان يشاع. فأجاب بولكونسكي بأنه لا يستطيع احتمال البت في أمور على مثل هذه الأهمية، مما جعل بيرج يتقبل هذا الرد بضحكة مرحة.

وقال بولكونسكي لبوريس وهو يختلس نظرة إلى حيث جلس روستوف:

أما قضيتك أنت، فسنتحدث فيها في مناسبة أخرى. لاقني بعد العرض، ولسوف نعمل جاهدين على إرضائك.

وسرّح نظره في أنحاء الغرفة ثم أوقفه على روستوف متظاهراً بأنه لم

يدرك ارتباكه المشوب بالغيظ وقال له: أعتقد أنك كنت تتحدث عن مسألة شوبنغرابن. فهل كانت هناك؟

فأجاب روستوف معتقداً أنه سيجرح شعور الضابط المساعد بإجابته: نعم، لقد اشتركت فيها.

غير أن ذلك الجواب لم يأت بالمفعول المتوقع. تلقاه الأمير بابتسامة ساخرة. كان يجد متعة في مراقبة مزاج هذا الفارس الشاب. قال معقباً: نعم، إنهم يروون عن هذه المعركة صنوفاً من الروايات.

فصاح روستوف وهو يلقي على پولكونسكي تارة وعلى بوريس تارة أخرى نظرة نارية مشتعلة مفاجئة: صنوفاً من الروايات! نعم، بالطبع. لكن روايتنا نحن الذين بلونا نار العدو هي وحدها الحقيقة. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى هؤلاء السادة الذين يحشرون أنفسهم في زوايا الأركان والقيادة وينالون الأوسمة وهم مكتوفو الأيدي.

وتابع پولكونسكي بلهجته الهادئة وابتسامته الوديعة: والذين تعتبرني واحداً منهم أليس كذلك؟

خلق ذلك الهدوء الذي اتسم به پولكونسكي احتراماً في نفس روستوف نحوه رغم أنه ضاعف سخطه وغضبه فقال: أنا لا أقول هذا عنك. أنا لا أعرفك ولا أريد بكل صراحة أن أتعرف إليك. إنني أتحدث عن رجال القيادة العامة بصورة عامة...

فأجاب پولكونسكي بلهجة حازمة: وأنا أقول لك ببساطة إنك تهدف إلى إثارتي وإهانتي. الأمر الذي لن يعييك فعله إذا توقفت عن احترام نفسك. ولكن اعترف معي أن المكان والزمان غير ملائمين لمثل هذا العمل. سوف ندخل جميعاً بعد أيام قريبة في مبارزة جدية من نوع آخر. ومن جهة أخرى إذا

كان وجهي لم يرقك، وهذا من سوء حظي، فإن دورپتسكوي الذي يدعي أنه من أصدقائك القدامى، لا دخل له في الموضوع.

وأردف وهو ينهض: إنك تعرف اسمي وتعرف أين تجدني. مع ذلك حاذر أن تعتقد بأنني أعتبرك مهاناً أكثر مما تقدر أنت نفسك الموضوع... اتفقنا أليس كذلك يا دورپتسكوي؟ إنني أنتظرك يوم الجمعة بعد العرض.

وانسحب بعد أن حيا الشابين.

بقي روستوف مذهولاً فترة وجيزة، ولما وجد الجواب المناسب كان الآخر قد انصرف، الأمر الذي ضاعف غضبه. فاستقدم جواده وسلم على بوريس بلهجة جافة تقريباً وعاد إلى معسكره. كان صراع داخلي مرير يستعر في نفسه طوال الرحلة. كان يتساءل: هل يجب عليه الذهاب في الغد إلى مقر القيادة ليتحدى ذلك الصعلوك؟ هل كان من الأفضل الامتناع عن مثل هذا الأمر؟

كان يتذوق أحياناً اللذة التي تنتظره لرؤية ذلك الدعي مذهولاً أمام فوهة مسدسه المصوب إلى صدره، وأحياناً أخرى كان يعترف، رغم كل ما في نفسه، إنه لم يجد بين كل معارفه، رجلاً جديراً بصداقته، كهذا الضابط المساعد الهزيل اللعين.

الفصل الثامن

جرت المقابلة بين روستوف وبوريس غداة اليوم التالي، كان الجيشان الحليفان، وتعدادهما ثمانون ألف جندي، لأن فرقاً جديدة مرسلة من روسيا التحقت أخيراً بجيوش كوتوزوف العائدة من حملتها الأوروبية ـ يقومان باستعراض ضخم يشاهده العاهلان. كان أمبراطور روسيا مصحوباً پولي عهده التسيزاريـڤيتش والأمبراطور النمسوي يصحبه الأرشيدوق.

وعندما بزغ فجر ذلك النهار بدأت القطعات تنتظم صفوفاً في ساحة القلعة وهي على أفضل حال. كانت ألوف من الأقدام والحراب تمر حيناً وأعلامها خافقة فتقف تحت إمرة ضباطها وتتراص شاغلة كل فراغ مقام بين كتل أخرى من المشاة، في أثواب مختلفة، وأحياناً يمر ألوف الفرسان على إيقاع سنابك الخيل وقعقعة السلاح وصليل السيوف، فيخطرون على خيول زرقاء وحمراء وخضراء تسبقهم موسيقاهم الصداحة يعزفها موسيقيون على صهوات جياد صهباء أو شهباء.

وأحياناً، كانت المدفعية تدرج بجلبتها المعهودة تنبعث رائحة المشاعل المضاءة في الجو، بوحداتها البراقة تقطرها الجياد، فتختلط في صفوف المشاة والفرسان. وكان الجنرالات، وكلهم في أبهى زينة وعلى صدورهم الأوسمة والأوشحة، مضرجي الوجوه لاحتقان أعناقهم، الهزيلة منها والضخمة، في الياقات القاسية، والضباط المعطرون المضمخون، والجنود وقد اغتسلوا حديثاً وعنوا بألبستهم عناية فائقة وأجهزتهم وعتادهم نظيفة ولامعة، والخيول

نفسها، وقد نظفت وغسلت حتى راحت أعناقها وقوائمها تلتمع تحت أشعة الشمس وكأنها عوينت شعرة فشعرة، كانوا كلهم يشعرون بخطورة موقفهم ويدركون أهمية تلك الساعة الرهيبة. وكان كل من المحتشدين من الجنرال وحتى الجندي البسيط يحس بأنه ذرة من الرمل في صحراء أو محيط من البشر. لكنه كان معتداً بنفوذه وسطوته نظراً إلى أنه جزء لا يتجزأ من هذا المجموع الهائل.

بدأت الاستعدادات منذ الفجر. فلم تبلغ الساعة العاشرة تماماً حتى كانت كل الأمور على أهبة تامة. فالجيش كله، الفرسان في الطليعة والمدفعية في الوسط والمشاة في المؤخرة، كان منتظماً في ثلاثة صفوف ضخمة متراصة على الساحة الكبرى الفسيحة. وكان يفصل بين كل قطعة فراغ على شكل شارع فسيح.

كانت تلك الكتلة الهائلة المؤلفة من عناصرها الثلاثة الهامة، تشمل قطعات كوتوزوف التي خاضت الحرب وفي مقدمتها فيلق پاڤلوغراد في ثياب العرض، ثم القطعات التابعة للحرس أو للجيش التي وصلت حديثاً من روسيا وأخيراً الوحدات النمسوية. وكانت هذه الكتل البشرية كلها، محتشدة في صف واحد وفق تشكيل موحد، تخضع في قيادتها لقائد واحد.

وارتعشت الشفاه بدمدمة هاتفه: «ها هم! ها هم!» وسرت تلك الدمدمة في الصفوف سريان النار في الهشيم والريح بين الأغصان وقام الجنود بحركتهم الأخيرة استعداداً للساعة الحاسمة، فكانت تلك الحركة أشبه بموجة هادئة اجتاحت أديم محيط زاخر.

عند أبواب أولمرتز، ظهر موكب مقبل وفي تلك اللحظة، مرت نسمة خفيفة فوق رؤوس الجنود رغم السكون الشامل، فتذبذبت نيران المشاعل وارتعشت الأعلام في أعلى صواريها. خيل للناظر أن انتفاضة عامة شملت

الجنود كلهم سروراً لمقدم العاهلين. وردد الصدى صيحة مدوية تكررت منطلقة بالترتيب من أفواه مسؤولة متعددة، كصياح الديك عند الفجر:

اس... تعد...؟

تلك كانت الصيحة فأعقبها سكون القبور.

ما عادت الأسماع تصغي إلا لوقع قوائم الجياد القادمة. ولما وصل العاهلان إلى الحشد، صدحت موسيقى فيالق الفرسان الأولى منبهة. وبدت تلك الأصوات الموسيقية صادرة عن الجيش كله وليس عن فرقة موسيقية بعينها. كانت موسيقى معبرة عن سعادة الجند وفرحهم بالاحتفال والحفاوة بمقدم العاهلين الفجائي. مع ذلك، فإن الصخب الموسيقي لم يحجب صوت الأمبراطور ألكسندر، الفتي الجياش، الذي كان يرد التحية للجنود. وأجاب الفيلق الأول على التحية بنداء راعد: «هورا!» طويلة تصم الآذان، «هورا» أخافت الجنود أنفسهم مبينة لهم كبير عددهم وعظيم بأسهم.

في بادئ الأمر، استعرض الأمبراطور جيش كوتوزوف. وكان روستوف واقفاً في الصفوف الأولى، فشعر شعور كل الجنود الآخرين: إنكار للذات، وإيمان عنيف بقوته، وحماسة منقطعة النظير لبطل تلك اللحظة. كان يعرف أن كلمة واحدة من هذا البطل تكفي لكي تتحرك هذه الكتلة البشرية التي لم يكن بنفسه إلا ذرة حقيرة من ذراتها، فتلقي بنفسها إلى الماء أو إلى النار، وتندفع نحو الموت، وتجري وراء الجريمة أو الأفعال الأكثر بطولة. وعلى ذلك، فقد شعر أنه على وشك السقوط عندما اقترب الرجل صاحب تلك الكلمة.

«هورّا» ترددت من كل مكان تختلط بأصداء الموسيقى واستقبلت الفيالق، الواحد تلو الآخر، الأمبراطور بالهتاف وقرع الطبول التي تراجعت أصداؤها على شكل زمجرة هائلة متداخلة تصم الآذان.

قبل وصول الأمبراطور، كان كل فيلق يبدو جامداً لا حياة فيه. حتى

إذا اقترب منه وبات على حدود جناحه، دبت الحياة فيه على أعنف الصور فيلحق صيحاته وهتافاته بصيحات الآخرين وهتافاتهم المدوية، وفي جحيم تلك الأصوات المرعدة وذلك الصخب، وفي وسط ذلك البحر الزاخر من الجنود، كانت بضع مئات من خيول الحرس المواكب، تبدو أقل الجميع مبالاة بالنظام وقد روعتها الصيحات. لكن فرسانها كانوا قادرين على كبح جماحها دون ارتباك بل في شيء من اللامبالاة، وجعلها تقف متباعدة حسب ترتيبها الأصيل. وكان فارسان اثنان ـ الأمبراطوران ـ يسيران في مقدمة الموكب وقد تعلقت فيهما أنظار جميع الجنود دون استثناء.

كان الأمبراطور ألكسندر الشاب الجميل يرتدي ثياب الحرس الراكب وقد أمال قبعته المثلثة الأطراف قليلاً على أذنه. وكان يستأثر بالاهتمام العام بوجهه المشرق وصوته الداوي في غير قسوة.

في مكانه قرب فصيلة الموسيقى استطاع روستوف، أن يتعرف إلى الأمبراطور عن بعد، فراح يتابع حركاته كلها بعينيه الحادتين. فلما أصبح ألكسندر على بعد عشرين خطوة، لم يعد يرى شيئاً أو يميز تقاطيع ذلك الوجه الجميل. لقد استسلم لشعور لم يحس بمثله من قبل، شعور امتزج فيه الحنان بالاندفاع. بدا له ذلك الرجل، في كل حركة من حركاته وكل قسمات وجهه، جذاباً يأخذ بمجامع القلوب.

أمام فيلق پاڤلوغراد توقف ألكسندر وتحدث إلى الأمبراطور النمسوي ببضع كلمات بالفرنسية ثم أخذ يبتسم. أثارت تلك الابتسامة ابتسامة مماثلة على شفتي روستوف الذي أخفق في كبتها، وازداد تعلقه وحنينه حتى أنه شعر برغبة لا توصف في أن يعرب لأمبراطوره عن حبه وإخلاصه! ولما أدرك عقم تلك الرغبة واستحالة تنفيذها، شعر بحزن عميق كاد أن يفجر الدمع من عينيه.

استدعى الأمبراطور وفي تلك الأثناء، قائد الفيلق وراح العاهلان يتحدثان معه فترة من الزمن.

أخذ روستوف يناجي نفسه قائلاً: «رباه» ماذا يكون حالي لو أنهما تحدثا معي أنا: إنني سأموت حتماً!

لم ينس ألكسندر ضباط الفيلق من شكره فقال لهم: أيها السادة، أنا أشكركم من أعماقي.

كانت كل كلمة من هذه الكلمات تبدو لروستوف لحناً صادراً عن السماء باتجاه الأرض. كم كان سيشعر بالسرور لو أنه مات في تلك اللحظة في سبيل القيصر!

كان الأمبراطور يقول مسترسلاً: لقد استحققتم بنود القديس جورج ولسوف تظهرون جدارتكم بها.

ففكر روستوف: «نعم الموت، الموت من أجله، هو أقصى ما أتمناه!».

وأضاف ألكسندر كلمات أخرى لم يتبينها روستوف، ولم يلبث الجنود أن هتفوا ملء حناجرهم: هورّا!

انحنى روستوف على صهوة جواده وراح يهتف كالجنود. كان مستعداً لتفجير رئتيه إذا كان في ذلك دليل كافٍ على حبه للامبراطور!

بقي ألكسندر حائراً فترة أمام فيلق الفرسان لا يتحرك. فتساءل روستوف: «كيف يمكن أن يحار الأمبراطور؟» ولكن تلك الحيرة لم تلبث أن بدت لناظريه، لكل حركات العاهل وتصرفاته، مليئة بالجلال والوقار.

لكن ذلك التردد لم يدم إلا لحظة سرعان ما تبددت وتحركت قدم الأمبراطور المغيبة في أحذية ضيقة عالية دقيقة المقدمة فمست برفق كشح الفرس المحجل القوائم المولد من عرق إنكليزي وجمعت يده المقفزة الصروع، وعاد إلى سيره يتبعه سيل زاخر من الضباط المساعدين. وراح يبتعد

أكثر فأكثر ليتوقف أمام فيالق أخرى حتى لم يعد يرى منه أخيراً إلا الريشة البيضاء التي تزين قبعته، طافية فوق ذلك المحيط المتلاطم من البشر.

رأى روستوف بين المواكبين للأمبراطور، الأمير پولكونسكي يختال على جواده بمرونة ووقار. وعادت إلى ذاكرته حوادث الأمس وتصور خصامهما فعاد السؤال الذي بقي دون جواب يراود مخيلته: «هل أتحداه؟» وأخيراً قرر في سره: «أبداً، إن الوقت في الواقع لا يسمح بمثل هذه الأمور، ثم ما قيمة خصوماتنا الصغيرة في هذا الظرف الحافل بالحماسة والتضحيات؟ نعم ما قيمة التوعك الذي يصيب كراماتنا في مثل هذا الظرف؟ إنني أحب كل الناس الآن وأصفح عن الجميع!».

بدأت الصفوف تمرّ أمام الأمبراطور، بعد أن استعرض كل الفيالق، بخطوات الاستعراضات الموزونة، كان روستوف ممتطياً صهوة حصان «بيدوان» الذي عاد فاشتراه من دينيسوف يسير وحيداً في مؤخرة كوكبته، أي إنه كان وحيداً يلفت أنظار العاهل، وقبل أن يصل إلى حيث كان الأمبراطور، همز روستوف، وهو الفارس البارع، «بيدوان» عدة مرات ونجح في جعله يسير بذلك الجنب الهائج الذي كان مشهوراً به عندما يثار ويغضب، خفض خطمه المكسو بالزبد حتى كاد يلامس جؤجؤه، ونصب ذيله، وراح يطرح قوائمه على التوالي على ارتفاع متناسق وكأنه يطير في الفضاء دون أن تطأ قوائمه الأرض، وهكذا مرّ بيدوان الذي أحس بأنظار العاهل تتعلق به أمام الأمبراطور بفارسه الشاب على ذلك النمط الرائع. حتى أن روستوف نفسه، الذي كان ضامر البطن مضموم الساقين مبعدهما إلى الخلف، متقلص الوجه منشرح الخاطر، بدا كأنه قطعة لا تنفصل عن جواده الأهوج، فمر به أمام الأمبراطور وكأنه «شيطان من الجحيم» حسب قول دينيسوف.

قال الأمبراطور: مرحى يا فرسان پاڤلوغراد!

فناجى روستوف نفسه بقوله: «رباه بأية سعادة ألقي بنفسي إلى النار لو أمرني بذلك في هذه اللحظة!».

وبعد نهاية العرض، اجتمع الضباط الروس: ضباط كوتوزوف والوافدون حديثاً من روسيا، في حلقات متفرقة واستغرقوا في الحديث الذي كان يدور بصورة خاصة حول المكافآت المنتظرة والنمنسويين وألبستهم وحول بوناپرت الذي كان موقفه قد ازداد خطورة بعد وصول فيالق إيسن وانضمام بروسيا إلى الحلف، غير أن الحديث كان يدور حول الأمبراطور ألكسندر بصورة عامة، فكانت كل حركة أو إشارة من إشاراته تفسَّر بحماسة وتوقد، كانوا جميعاً لا يطلبون إلا أمراً واحداً:

الهجوم على العدو، كان روستوف ومعظم الضباط يفكرون في أنه من المستحيل أن يهزم جيش يأتمر بإمرة عاهل كهذا القيصر، فكانوا يشعرون بدنو النصر المبين ويؤمنون به إيماناً يتوافر مثله عقب معركتين ظافرتين متتاليتين.

الفصل التاسع

ارتدى بوريس أجمل ثيابه غداة اليوم التالي للعرض، ومضى إلى أولموتز ترافقه تمنيات صديقه بيرج الطيبة. كان يهدف إلى الإفادة من مركز پولكونسكي ليصل إلى أفضل المراكز وأرقاها، كان المركز الذي يهدف إليه هو أن يكون ضابطاً مساعداً لشخصية قوية واسعة النفوذ يغبطه الآخرون على سطوته ويحسدونه على قوته. كان يناجي نفسه بقوله: «يستطيع روستوف الذي يرسل له أبوه كل مرة عشرة آلاف روبل، أن يترفع ويأبى الانحناءات والاحترامات، أما أنا، الذي لا أملك شيئاً باستثناء نفسي. فإنني مرغم على شق طريقي والإطباق على الفرصة بأيد قوية».

لم يكن الأمير أندريه في أولموتز ذلك اليوم. لكن معالم المدينة، حيث أقيم فيها مركز القيادة العامة والسلك السياسي وأقام فيها الأمبراطوران مع حاشيتهما بين مقربين وأقرباء، كل هذه الأشياء زادت في نفسه لهيب الشوق إلى المركز المنشود استعاراً، وحببت إليه الدخول في ذلك العالم الجديد. لم يكن يعرف أحداً في المدينة. وأحسّ، رغم ثوبه الأنيق، أن كل هؤلاء الرجال العسكريين، المزوقة قلنسواتهم بالريش، المزينة أثوابهم بالصفائح الذهبية، الذين يخطرون بتيه وترفع في صخب وضجيج، يبدون أرفع منه مقاماً، حتى أنه لم يتنكر لوجوده فحسب بل شعر أنه لا يستطيع إلا أن يتنكر لذلك الوجود التافه. ففي مركز القيادة حيث استعلم عن الأمير پولكونسكي، أحسّ من لقاء

الضباط المساعدين والحجاب أيضاً الذين عاملوه بلا مبالاة، أنهم يستقبلون كل يوم عشرات من أمثاله حتى أنهم متبرمون من كثرتهم.

وفي اليوم التالي، رجع بوريس إلى أولموتز مرة ثانية. ولعل لقاء الأمس والمهانة التي شعر بها كانا الدافع المحفز له على معاودة الكرة. توجّه إلى الفندق الذي ينزل فيه كوتوزوف وضباطه وكان ذلك بعد ظهر يوم ١٥ تشرين الثاني. قيل له إن الأمير موجود، وأدخلوه إلى غرفة فسيحة كانت من قبل صالة للرقص كما بدت لبوريس الذي شاهد «پيانو» باقياً في إحدى زواياها إلى جانب خمسة أسرة، مؤسسة إلى جانب أسرة، بطاولة وبعض المقاعد. وكان أحد الضباط المساعدين جالساً قرب الباب في معطف منزلي فارسي يكتب. وكان آخر، وهو نيسـڤيتسكي الضخم الأحمر الوجه، مكوماً فوق أحد الأسرة معتمداً رأسه على يديه المضمومتين، يمازح زميلاً له جالساً بالقرب منه. وثالث يوقع على «الـپيانو» لحن ڤالس شاع عن ڤيينا بينما انحنى الرابع على الآلة الموسيقية يرافق العازف في الغناء.

لم يبدل أحد من الأربعة من سلوكه لدى رؤيتهم بوريس. استدار الذي كان يكتب، والذي سأله بوريس عن پولكونسكي، باستياء واضح وأفهمه أن پولكونسكي كان يؤدي وظيفة معينة وأنه إذا كان يرغب في لقائه حقاً، عليه أن يذهب إلى قاعة الاستقبال ماراً بالباب الذي إلى اليسار! فشكره بوريس ومضى إلى القاعة التي عينها له الضابط فرأى فيها عدداً من الأشخاص بين ضباط وجنرالات ينتظرون.

عند دخوله، شاهد جنرالاً روسياً تملأ الأوسمة صدره، واقفاً في وضعية أقرب إلى وضعية الاستعداد العسكرية، ينهي تقريره إلى پولكونسكي وعلى وجهه الناطق بالتبرم أمارات الإكرام المعروفة عند الجنود وكان الأمير يصغي إليه وعلى وجهه أمارات الإرهاق المهذب وفي عينيه ومضة ساخرة، توحي

للآخرين أنه لولا مستلزمات الواجب وضروراتها لما أصاخ السمع لحظة إلى كل ما يقولون. وسمع الأمير يقول له:

ـ حسن جداً، حسن، تفضل بالانتظار.

وكانت لهجته وأسلوب نطقه باللغة الروسية على الطريقة الفرنسية توحي بالسخرية والتهكم.

في تلك اللحظة وقعت عيناه على بوريس، فأغفل شأن الجنرال الذي راح يلاحقه متوسلاً إليه أن ينصت إلى ما يقول، واتجه نحو الشاب يخصه على البعد ببسمة بهيجة وبإيماءة من رأسه.

أدرك بوريس عندئذ بجلاء ما توقعه من قبل، دون أن يلمسه تماماً، وأعني أن في الجيش شيئاً اسمه درجات التسلسل، وأن هذا الشيء أكثر أهمية من الطاعة الواردة في الأنظمة والمعروفة منه كما هي معروفة من كل رفاقه.

وكان ذلك الشيء الجوهري هو الذي يضيق على الجنرال ذي الوجه القرمزي المحشور في ثوبه العسكري، أن ينتظر بكل احترام أن يفرغ الرئيس الأمير پولكونسكي من محادثة حامل العلم دروبتكوي على حديثه هو، وأن يصفو مزاجه ليصغي إليه... أحس بوريس أكثر من كل مرة سبقت أنه يجب أن يخضع لذلك الترتيب الضمني أكثر من خضوعه للنظم المدونة. ذلك أنه رأى بنفسه أن مجرد حصوله على توصية لدى الأمير پولكونسكي جعله وهو حامل العلم البسيط في فيلق الحرس، يتفوق دفعة واحدة على جنرال قادر على محقه في الصف وسحقه.

قال الأمير وهو يمسك بذراع بوريس: أنا آسف لأنك لم تجدني أمس، لقد ذهبنا باتجاه ڤيرورهر نعاين الأوضاع. لقد أضاع هؤلاء الألمان عليّ كل يومي. إنهم عندما يتوخون التدقيق لا ينتهون منه بسهولة!

وبدت على شفتيْ بوريس ابتسامة العارف بالأمر رغم أنه لم يسمع بذلك

الاسم إلا لأول مرة، بل لم يسمع كلمة «أضاع» كذلك إلا للمرة الأولى، أردف پولكونسكي: إذن يا عزيزي، ما زلت ترغب في أن تكون ضابطاً مساعداً أليس كذلك؟ لقد فكرت فيك خلال هذا الوقت.

فأجاب بوريس وقد احمرّ وجهه دون أن يعرف السبب: نعم. إنني عازم على تقديم طلب للجنرال القائد الأعلى الذي أوصاه بي الأمير كوراغين.

وأضاف وكأنه ينتحل عذراً لسلوكه: إذا كنت أنهج هذا النحو فما ذلك إلا لخوفي من ألّا يخوض فيلق الحرس معركة حقيقية.

أجاب الأمير: جميل جداً! سوف نتحدث عن كل هذا. لكن اسمح لي الآن أن أدخل هذا السيد وسوف أكون بعد ذلك رهن تصرفك.

وبينما ذهب پولكونسكي ليعلن وجود الجنرال ذي اللون القرمزي، راح هذا، وهو الذي لم يكن، ولا شك، يشاطر بوريس رأيه حول تفوق الترتيب النظامي لاستثناءات بروتوكولية، يحدج بإلحاح مرير ذلك الصعلوك.. حامل العلم البسيط الذي حرمه متعة التحدث براحة إلى الضابط المساعد وأحس بوريس بالارتباك فأشاح بنظره وراح ينتظر عودة الأمير بفارغ صبر.

قال الأمير وهو يقوده إلى القاعة ذات الأسرة والآلة الموسيقية (الـپيانو): إليك يا عزيزي الفكرة التي خطرت لي: أعتقد أنه من العبث تقديم طلب إلى القائد الأعلى. سيسمعك ألف مجاملة ولعله يدعوك أيضاً إلى تناول الطعام على مائدته.

فكر بوريس في سره معقباً: «الأمر الذي لن يكون تافهاً إذا قورن بفروض الاحترام لدرجات التسلسل!» بينما تابع الأمير: لكن هذا لن يبدل من الأمر شيئاً، لأنَّنا معشر الضباط المساعدين والأتباع أصبحنا طابوراً كبيراً. إليك إذن ما سنقوم به: لي صديق، وهو الأمير دولغوروكوف، وهو فتى رائع يشغل مركز ضابط مساعد عام لجلالته. ولعلك تجهل أننا أصبحنا جميعاً، كوتوزوف

وهيئة أركانه ونحن معهم، عديمي النفوذ الآن لأن كل شيء أصبح منوطاً بجلالة الأمبراطور. لذلك فإنني سأقابل دولغوروكوف هذا، فهيا رافقني إليه. لقد حدثته من قبل عنك ولعله قادر على أخذك في معيته أو إيجاد مركز مناسب لك!

ازدادت حماسة الأمير أندريه تباعاً كلما أتيحت له الفرصة لحماية شاب ناشئ ودعمه وتقويم خطاه الأولى وتوجيهها في الحياة. كانت تلك الحجة، حجة مساعدة الآخرين التي لم تسمح له كبرياؤه قط باستثمارها في سبيل نفسه.

كان پولكونسكي يختلط بالأوساط الرفيعة التي تؤمن النجاح، ويتقرب من المتنفذين. لذلك فقد اعتبر أن مصالح بوريس التي أوكلت إليه، بادرة طيبة ترضي نزعته، وهكذا اصطحبه معه لزيارة الأمير دولغوروكوف بكل طيبة خاطر.

لمّا دخل الصديقان قصر أولموتز، كان الليل قد أفنى جانباً من عمره، وغطى الظلام ذلك المكان الذي يقيم فيه الأمبراطور وحاشيتهما.

قرر المجتمعون في مجلس حربي حضره الأمبراطوران وكل أعضاء القيادة النمسوية والروسية، خلافاً لآراء العجوزين كوتوزوف وشوارزنبرغ(١) المبادرة إلى شن هجوم عام ضد بوناپرت. وكان المجلس قد أنهى اجتماعه عندما دخل پولكونسكي ورفيقه يستفسران عن دولغوروكوف.

كان أولئك السادة، سادة المجلس الحربي، في حبور كبير بسبب الفوز الذي أحرزه حزب «الشباب» على الكهول في ذلك الاجتماع. لقد خنقوا أصوات المستمهلين بإجماع رائع وأحبطوا كل اعتراضاتهم بمنطق سديد

---

(١) جنرال وسياسي ألماني دهم فرنساسنة ١٨١٤ واكتسحها، واسمه شارل فيليپ. (المترجم).

حتى أن المعركة أو الأحرى النصر المنتظر الذي توقعوا الحصول عليه أثناء مناقشاتهم في المجلس الحربي، بدا وكأنه وقع وانطوى في صفحات الماضي. كانت كفة الحلفاء، الروس النمسويين والألمان، هي الراجحة: فقواتهم هائلة متفوقة بالعدد، دون شك، على قوات بوناپرت. وهي جميعها متمركزة في نقطة واحدة. وكان الجنود، قد نشّطهم وأوقد العزيمة في نفوسهم وجود الأمبراطورين، يتحرقون شوقاً إلى المعركة، والأرض التي تقرر شن الهجوم عليها، أرض معروفة مدروسة يعرف الجنرال ڤيروزر كل التفاصيل المتعلقة بها حتى أقلها شأناً. وهذا الجنرال هو الذي أوحى بفكرة الهجوم لأن الجيش النمسوي كان أجرى في العام الأسبق مناورات في تلك البقعة بالذات التي تقرر لقاء الفرنسيين عليها وحدد على خرائط حديثة الوضع كل الأماكن والمرتفعات والمنحدرات. أضف إلى ذلك أن بوناپرت كان، ولا شك، ضعيفاً بل عاجزاً عن خوض معركة كبيرة!

كان دولغوروكوف، وهو أكثر المتشيعين لفكرة شن الهجوم حماسة، يخرج في تلك اللحظة من قاعة الاجتماع منهوك القوى لكنه مع ذلك ممتلئاً حماسة واندفاعاً فخوراً بالنصر الذي أحرزه فريقه منذ قليل. قدم له پولكونسكي «محميه» الذي اكتفى دولغوروكوف بأن شد على يده بتأدب دون أن يوجه إليه كلمة. لكنه لم يلبث أن خارت عزائمه أمام رغبته الملحة في الإعراب عما يجيش في صدره. فالتفت إلى الأمير أندريه وقال له بالفرنسية بلهجة متهدجة: يا عزيزي. يا لها من معركة تلك التي شنناها منذ حين! عسى أن يريد الله أن تكون المعركة التي ستنشأ عنها قريباً مكللة بالنصر! أتدري يا عزيزي أنني كنت مؤيداً مشرفاً للنمسويين وخصوصاً ڤيروزر؟ يا للدقة، يا للإحكام، يا للمعرفة التامة بالأرض، ويا للخبرة المستبقة بكل الإمكانيات،

بل يا للعلم بكل التفاصيل! صدقني يا عزيزي لا يمكن أن يتصور المرء مناسبة أكثر ملاءمة من التي نحن في صددها. لقد اجتمعت الشجاعة الروسية بالدقة والإحكام النمسويين، فماذا تريد أفضل من ذلك؟

فسأله پولكونسكي: إذن فقد تقرر الهجوم بالفعل؟ فأجاب دولغوروكوف بابتسامة هازئة: وخسر بوناپرته، تسمية ساخرة لبوناپرت، كل شيء. هل تعرف أن الأمبراطور قد تلقى أخيراً رسالة منه؟

ـ حقاً! وماذا جاء فيها؟

ماذا تريده أن يكتب؟ ترهات كسب الوقت... إننا نتحكم الآن في مقدراته، ثق بقولي!...

ثم أضاف ضاحكاً بطيبة قلب: إلا أن ما يثير الفضول في الموضوع هو أن أحداً، حتى الآن، لم يوفق في تدبيج الجواب عن تلك الرسالة بسبب العنوان. إن النية منصرفة إلى عدم استعمال كلمة «قنصل»[1] فكيف بكلمة «أمبراطور».

ولقد اقترحت أن يرسل الجواب باسم «الجنرال بوناپرته».

فقال پولكونسكي: اسمح لي، يجوز أن لا يُعترف به كأمبراطور. ولكن تسميته «بالجنرال بوناپرته»...!

فقاطعه دولغوروكوف ضاحكاً: تماماً، وقد أصبح الأمر أكثر تسلية... إنك تعرف بيليبين بدون شك، أليس كذلك؟ حسناً، لقد اقترح هذا الساخر أن نعنون الرسالة إلى «المعتدي عدو الجنس البشري!».

واستغرب دولغوروكوف في قهقهة مدوية. سأله پولكونسكي: أهذا كل شيء؟

---

(١) سمّى بوناپرت نفسه قنصلاً عاماً لفرنسا قبل أن يصبح أمبراطوراً، وهذا ما لم يعترف أعداؤه به. (المترجم).

ـ كلا، لقد أوجد بيليبين أخيراً اللقب المناسب. إن هذا الساخر يتمتع بذكاء خارق.

ـ وماذا كان ذلك اللقب؟

فقال دولغوروكوف بلهجة رزينة: إلى رئيس الدولة الفرنسية. أليس لقب مخرج لهذه الورطة؟

فأجاب پولكونسكي: رائع، ولكنه لن يروقه.

ـ بل على العكس! إن أخي يعرفه. أجل إنه يعرف ذلك الأمبراطور المرتجل. لقد تناول الطعام معه مرة في پاريس وأنبأني بأن لم ير في حياته دبلوماسياً داهية مثله. لقد اجتمع فيه الدأب الإيطالي بالرقة الفرنسية. هل تعرف الأقاصيص التي تشاع حول علاقاته بالكونت ماركوف. الرجل الوحيد الذي عرف كيف يتصرف معه بجدارة؟ هل تعرف قصة المنديل مثلاً؟ إنها رائعة.

وأخذ دولغوروكوف يتبسط في سرد الأحدوثة ملتفتاً تارة إلى پولكونسكي وأخرى إلى بوريس. قال إن بوناپرت كان مرة مع سفيرنا ماركوف في مقابلة رسمية. فأراد أن يختبره ليعرف قيمه الشخصية.

وبينما هما واقفان، ترك بوناپرت منديله يسقط على الأرض وراح ينظر إلى الكونت ماكوف نظرات ملؤها الأمل في أن يبادر هذا إلى التقاط المنديل وإعادته إليه. فما كان من سفيرنا إلا أن ألقى منديله بجانب منديل بوناپرت وانحنى فالتقطه دون أن يمس منديل هذا الأخير.

قال پولكونسكي: رائع! ولكن اسمح لي يا أميري، لقد جئتك ملتمساً أمراً. إنه يتعلق بهذا الشاب الذي...

لم يكمل حديثه ذلك أن أحد الضباط المساعدين جاء يسأل عن دولغوروكوف ليسأله المثول بين يدي الأمبراطور.

قال الأمير وهو يقف بنشاط ويضغط على يدي پولكونسكي وبوريس مصافحاً: يا لها من مضايقة! كنت سأكون سعيداً بتلبية كل ما ترغب به يا أمير في كل ما يتعلق بك وبهذا الشاب النضر. وإنك تعرف حقيقة مشاعري تجاهك.

وضغط بشدة على يديهما وخص بوريس بابتسامة مرحة لم يكن الإخلاص فيها إلا طلاءً ظاهرياً وأردف: لكنك ترى بنفسك... فإلى المرة القادمة!

كانت مجاورة بوريس للسلطة العليا تحرك مشاعره بانفعال. شعر في قرارة نفسه أنه في تلك اللحظة قريب من السلطة التي تستطيع تحريك الكتلة الهائلة من البشر التي كان في عدادها صباح ذلك اليوم، والذي لم يكن فيها إلا ذرة طيعة سلسة القياد.

تبع مع پولكونسكي الممشى الذي سار فيه دولغوروكوڤ، وعندما بلغا مكتب الأمبراطور الذي دخل إليه المساعد العام، التقيا رجلاً قصير القامة، في ثوب مدني، ذي ذقن ناتئة، تضفي على مظهره لوناً من الحيوية الماكرة دون أن تكسب وجهه بشاعة، كان خارجاً من حضرة الأمبراطور. شاهدا ذلك الرجل يومئ برأسه للأمير دولغوروكوڤ وكان من معارفه، ثم يصوب إلى پولكونسكي نظرة باردة منتظراً أن يبادره هذا بالتحية أو يتنحى عن طريقه. لكن پولكونسكي خيب أمله وعبس وقطب حاجبيه مما جعل ذلك المدني يستدير متابعاً طريقه.

سأل بوريس: من هذا؟

ـ هو من أكثر الرجال رفعة في المركز وخطورة في الدولة. غير أنه من أشدهم مقتاً في نفسي. إنه الأمير آدم تزارتوريسكي وزير الخارجية. إن أمثال هذا الرجل يقررون مصير الشعوب.

وبينما كانا خارجين من القصر، ندت عن صدر پولكونسكي زفرة عميقة لم يستطع كتمانها.

وزحفت الجيوش في اليوم التالي ولما لم يستطع بوريس لقاء پولكونسكي أو دولغوروكوف قبل معركة أوسترليتز، فإن بقاءه في فيلق «إسماعيل» كان يضنيه.

الفصل العاشر

انطلق نيكولا روستوف الذي كان في عداد كوكبة الفرسان التي يقودها دينيسوف الملحقة بجيش پاغراسيون، في فجر اليوم السادس عشر من تشرين الثاني من الثكنة مع كوكبته للدخول في العمليات المدبرة، أو أقله هذا ما كان يشاع حينذاك. ولكن لم تكد الفرقة تجتاز ربع مرحلة حتى صدر إليها الأمر بالتوقف حيث هي، رأى روستوف الجنود القوقازيين يمرون أمامه ثم الكوكبتين الأولى والثانية للفرسان، ففيالق كاملة من المشاة مصحوبة بعدد من المدافع، وأخيراً الجنرالين پاغراسيون ودولغوروكوف يتبعهما الضباط المساعدون، وفي تلك المرة أيضاً، بذل روستوف، الذي شعر بالرعب يتسرب إلى نفسه، جهداً كبيراً للتغلب على مخاوفه، لقد حلم للمرة الثانية في أن يتصرف تصرف الأبطال، تصرف الفرسان الحقيقيين، لكن حلمه تبدد لأن كوكبته تركت لتكون في عداد الاحتياطي من الجيوش، لذلك فقد قضى سحابة يومه في قلق واكتئاب عميق.

وفي الساعة التاسعة، ترامى إلى سمعه صوت طلقات نارية أعقبها هتاف مدو، ولم تلبث أن مرت مواكب الجرحى عائدة إلى الصفوف الخلفية وفي أعقابها كوكبة من القوقازيين تعدادها مائة فارس تحيط بحشد من الفرسان الفرنسيين الأسرى، وبدا أن المسألة قد انتهت نهاية سعيدة تتلاءم مع أهميتها. كان العائدون إلى الصفوف الخلفية ينبئون زملاءهم بأخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزتها القوات الروسية التي احتلت «ويشو» وأسرت كوكبة كاملة من

الفرسان، وكان الصقيع الذي غطى الأرض خلال الليل بدثاره اللامع، ينعكس بريقه تحت أشعة شمس الخريف الخابية، فيزيد في ضياء ذلك الصباح الجميل متناسقاً مع النصر المظفّر الذي أحرزته القوات الروسية، والذي لم تقتصر الروايات وحدها على تمجيده، بل أعربت عنه كذلك الوجوه كافة، وجوه الجنود الضباط والجنرالات التي كانت تفيض بشراً وفرحاً كلما خطر أصحابها تحت أنظار روستوف الملتاع. وإزاء تلك المظاهر البراقة المغرية، ازدادت نفس نيكولا اكتئاباً واشتد سخطه لقضائه يوماً آخر في جمود مزعج وهو الذي كان يتوق إلى القتال.

صاح دينيسوف يحدثه: تعال يا روستوف نغرق أحزاننا في الخمرة.

وكان دينيسوف مقيماً على جانب الطريق وأمامه إناء.

شكّل ضباط الكوكبة حلقة حول صندوق دينيسوف الحافل بالأرزاق يتبادلون الحديث وهم يتناولون طعام الفطور.

صاح أحدهم مشيراً إلى أحد فرسان الدراغون الفرنسيين الذي كان يسير على قدميه بين اثنين من القوقازيين: هه، ها هو ذا آخر يعودون به من جديد.

كان حصان الأسير، وهو حصان ضخم جميل التكوين، يسير في أعقاب صاحبه وقد أمسك القوقازي بعنانه.

قال دينيسوف للقوقازي: هل تبيع الحصان يا هذا؟

ـ قد أبيعه يا صاحب النبالة...

تحلّق الضباط حول القوقازيين وأسيرهما. كان هذا الألزاسي الشاب، تكاد الدماء تتفجر من وجهه من شدة انفعاله فلما سمع الضباط يتحدثون باللغة الفرنسية، راح يحدثهم بطلاقة واندفاع شديدين، متوجهاً تارة إلى هذا وأخرى إلى ذاك، معلناً أنه لولا عناد العريف قائد مفرزته، لما وقع في الأسر. قال إنه أخطر رئيسه مراراً بأن الروس قد احتلوا المدينة، مع ذلك فإن ذاك

أرسله للبحث عن لبد أغفلت هناك. وكان بعد كل جملة يلاطف عنق جواده ويقول متوسلاً: لكن أرجو ألّا تسيئوا إلى جوادي المسكين. كان يبدو على ذلك الجندي أنه لا يعرف عن أمره شيئاً، كان يعتذر أحياناً لأنه استسلم وأسر، وأحياناً أخرى يعتقد أنه في حضرة رؤسائه فيتبجح أمامهم مبيناً غيرته ودأبه في الخدمة.

وبفضله أمكن للقوات الروسية المرابطة في الصفوف الخلفية أن تفهم الجو الذي يعيش فيه الجيش الفرنسي بكل تفاصيله، ذلك الجو الذي لم تكن لديهم أية فكرة عن حقيقته.

وبقطعتين ذهبيتين باع القوقازيان الحصان إلى روستوف الذي كان أكثر زملائه ثروة. فقال الأسير الألزاسي لروستوف الذي قبض على عنان الجواد:

ـ أرجو أن لا يعامل جوادي الصغير معاملة سيئة!

ابتسم روستوف وطمأن الأسير ثم أعطاه بعض المال. صاح أحد القوقازيين بالأسير وهو يدفعه إلى الأمام: هيا، هيا! تقدم.

وفجأة صاح أحدهم: الأمبراطور! الأمبراطور!

هرع الجميع لهذا النداء. واستدار روستوف فوقعت عيناه على بعض الفرسان القادمين وعلى قلنسواتهم الريش الأبيض. وفي طرفة عين، كان كل في مكانه من الصف ينتظر القادمين.

ذهب روستوف إلى مركزه، واعتلى صهوة جواده دون أن يشعر بما يفعل. تبدد أسفه العميق لعدم اشتراكه في المعركة، وتبخر اشمئزازه العنيف من اللفظ اليومي الذي كان يطالعه أبداً على تلك الوجوه المعروفة منه، وأصبح لا يشعر حتى في وجوده. لقد كان الفرح الذي شمله عند سماعه بأن الأمبراطور بات قريباً منه، يستأثر بكل اهتمامه. كان سعيداً كالعاشق الذي ينتظر لقاء حبيبته للمرة الأولى. مع ذلك لم ينس مقتضيات النظام الذي تفرض

عليه عدم الالتفات. لكنه لم يكن في حاجة للالتفاف ليعرف «أنه» اقترب. ولم يكن اقتراب الأمبراطور يُعلن بارتفاع أصوات سنابك الخيل وتقدمها فحسب، بل بالاشراقة التي أحسّ بها روستوف تغمر الجو، والجلال الذي راح يستولي على النفوس. وكانت تلك الشمس التي أضفت ذلك النور الهادئ تقترب تدريجاً وتلف روستوف بأشعتها الدافئة. وتبينت أذنه ذلك الصوت الجليل الدافئ الذي أخذ يتعالى كلما ازداد صاحبه قرباً.

لم تخدع روستوف مشاعره لأن سكوناً مطبقاً شمل المكان فجأة، وتردد صوت الأمبراطور يمزق ستره بقوله: فرسان پاڤلوغراد؟

فأجابه صوت بدا لسمع روستوف أن لهجته تدل على أن صاحبه ليس إلا من بني البشر بقدر ما كان الصوت الأول ملائكياً: الاحتياط من الفرقة يا صاحب الجلالة.

توقف ألكسندر أمام روستوف الذي شعر أن وجهه أشد جمالاً مما بدا له في الاستعراض العام قبل ثلاثة أيام. كان ذلك الوجه يطفح بالشباب والوداعة، شباب بريء جعله يبدو رغم جلاله وهيبته، أشبه بوجه وديع لطفل في الرابعة عشرة من عمره. وبينما كان يجيل بصره في وجوه فرسان الكوكبة، التقت أنظاره فترة أنظار روستوف وتوقفت برهة معها. فهل تراه فهم ما كان يجول في خاطره كما توقع روستوف؟ المهم أنه تأمله حوالى ثانيتين بعينيه الزرقاوين اللتين ينبعث منهما نور وديع. وفجأة، رفع حاجبه ولكز جواده بمهمازه الأيسر واستمر في طريقه هدباً.

لم يستمع الأمبراطور الشاب إلى رجاء أتباعه وأفراد حاشيته، ولم ينجح في التخلي عن رغبته في المساهمة في الهجوم، حتى إنه حوالى الظهر، انفصل عن الصف الثالث من الجيش وأسرع إلى الصفوف الأولى. لم يكد يصل إلى

حيث كان الفرسان منقضين على العدو حتى أبلغه ضباطه المساعدون بنبأ النصر الذي أحرزوه.

رسم ذلك النجاح الذي لم يكن إلا أسر كوكبة فرسان فرنسية فحسب للأمبراطور الشاب على لوحة تظهره بمظهر النصر المبين، حتى أن الأمبراطور والجيش كله، كما أشيع في حينه، ظنوا أن الفرنسيين قد دحروا وأنهم يتراجعون مرغمين. وكان الدخان الكثيف الذي غطى ساحة المعركة يكاد هو الآخر يثني على ذلك. ولم تمض دقائق على مرور الأمبراطور، حتى صدرت الأوامر للجيش الذي كان الاحتياطي من فرسان پاڤلوغراد تابعاً له، بالحركة. وقد قدر لروستوف أن يشاهد الأمبراطور مرة ثانية في مدينة ويسشو وكانت بعض الجثث، جثث الجرحى والقتلى، لاتزال في مكانها في ساحة تلك المدينة التي لعلع الرصاص فيها منذ حين، خلال المعركة.

وكان الأمبراطور ممتطياً صهوة جواد آخر غير ذلك الذي استعرض القطعات على صهوته، لكنه كان مولداً أيضاً من أصل إنكليزي ومحجل الأطراف. وكانت مجموعة كبيرة تحيط به. كان منحنياً على جنبه حاملاً بيده نظاراته الذهبية، ينظر إلى جندي مستلق على صدره مضرجاً بالدماء التي تخضب رأسه وسترته. كان ذلك الجريح كريه المنظر، شديد القذارة، حتى أن روستوف أحس بألم شديد لوجود الأمبراطور بالقرب منه.

اجتاحت قشعريرة ظاهرة كتفي العاهل المحنيتين قليلاً، فهمز جواده بعصبية بساقه اليسرى. غير أن الفرس المطهمة المدربة تدريباً ممتازاً، لوت عنقها بشيء من اللامبالاة ولم تتقدم خطوة واحدة. وكان روستوف يراقب كل حركات الأمبراطور. وأخيراً، ترجل أحد الضباط المساعدين فحمل الجريح من تحت إبطيه ووضعه على نقالة جيء بها في تلك اللحظة. فأطلق الجريح زمجرة.

وقال الأمبراطور الذي كان يتنفس بصعوبة أكثر من المحتضر نفسه: رويدكما، احملاه بلطف. ألا يمكن نقله بعناية أكثر؟

شاهد روستوف الدموع تملأ عيني أمبراطوره وسمعه يقول لكزار كوريسكي وهو يبتعد: يا لها من أمر مريع هذه الحرب: يا لها من أمر مريع!

بدأت مقدمة الجيش تحتل مراكزها خارج المدينة تلقى العدو الذي ما فتئ إزاء أصغر هجوم يتخلى عن مساحات من الأرض. أعرب الأمبراطور عن شكره للقطعات المحاربة ووعد بمكافآت، وفي ذلك النهار وزعت على الجنود جراية مضاعفة من الفودكا. كانت نيران المعسكرات أكثر بهجة في تلك الليالي عن الليالي السابقة وكذلك أغنيات الجنود كانت أشد حماسة. واحتفل دينيسوف تلك الليلة بترقيته إلى رتبة ماجور. وقبل نهاية الحفلة، رفع روستوف يده بكأسه وكان قد ثمل لكثرة ما عبّ من شراب، واقترح أن يشربوا نخب الأمبراطور. قال مفسراً: إصغوا إليّ لكي تفهموا غايتي. إنني لا أقترح أن نشرب نخب «صحة الأمبراطور» كما درجت عليه العادة في الحفلات الرسمية، بل أطلب أن نشرب نخب الأمبراطور ألكسندر، الرجل الطيب الرائع. نخب صحته إذن، نخب انتصارنا على الفرنسيين! إن النصر أكيد أيها السادة. فنحن الذين حاربنا ببسالة من قبل وطوّحنا بالفرنسيين في شوييغرابن، ماذا يكون موقفنا اليوم والأمبراطور على رأسنا؟ سوف نموت جميعاً وبسرور أليس كذلك أيها السادة؟ لعلني لم أنجح في التعبير عن شعوري وعواطفي كما يجب، لكنني أوجزت في ذكر مشاعري وإحساساتكم أيضاً. فاشربوا نخب صحة ألكسندر الأول! هورّا!

ورددت الحناجر صيحة هورّا! حتى أن الرئيس العجوز كيرستن أودع تلك الصيحة من الحماسة الساذجة مثل ما أودعها روستوف.

بعد أن أفرغ الضباط كؤوسهم وحطموها، ملأ كيرستن كؤوساً أخرى.

حمل كأسه وراح يلوح بها وتقدم وهو في قميصه الأبيض إلى حيث يعسكر الجنود، وتوقف أمامهم وقفة جليلة قريباً من المعسكر، وشارباه الأشهبان الطويلان، وصدره الأبيض البارز خلال فتحة قميصه، بارزان بوضوح تحت أضواء النيران.

صاح بصوته الأجش، صوت الفارس العجوز: هيا أيها الفتيان، اشربوا نخب صحة جلالة الأمبراطور، ونخب انتصارنا على العدو! هورّا!

وراح الفرسان حوله يرددون بأصواتهم القوية هتافاته المدوية! هورّا!

وفي آخر الليل، حان وقت الانفصال. فربت دينيسوف بيده الصغيرة كتف روستوف صفيه وقال: إذن، إنك لم تجد من تتعلق به في السرية فانصرفت إلى عشق الأمبراطور!

ـ آه يا دينيسوف. لا تمزح هكذا. إنه إحساس جميل شديد التسامي شديد...

ـ لا شك، لا شك. وأنا أشاطرك هذا الشعور وأؤيده.

ـ كلا. بل إنك لا تفهمني!

ووقف روستوف وراح تياهاً بين المعسكرات، يحلم في السعادة التي ينشدها في الموت ليس في سبيل إنقاذ حياة الأمبراطور التي كان يؤمن أنه غير جدير في نيل شرف إنقاذها، بل في الموت تحت أنظاره. كان مأخوذاً بأمبراطوره وبعظمة الجيوش الروسية، يسمو ويحلق مع الأمل في إحراز نصر قريب. ولم يشعر روستوف وحده بهذا الإحساس في تلك الأيام الخالدة التي سبقت معركة أوسترليتز، بل أقله إن تسعة أعشار الجنود كانوا مثله مأخوذين بروعة شخصية أمبراطورهم وبعظمة الجيوش الروسية.

الفصل الحادي عشر

في اليوم الثاني أقام ألكسندر في مدينة فيسشو وأمر باستدعاء طبيب جلالته المرافق فيلبير، فانتشر خبر الوعكة الصحية التي ألمت بالأمبراطور في القيادة العامة وبين الوحدات القريبة من المكان. كان المقرّبون من العاهل الروسي يزعمون أن روحه الحساسة تأثرت بمشاهد القتلى والجرحى، فضعفت شهيته إلى الطعام وأمضى ليلة شديدة الإزعاج.

تقدم ضابط فرنسي يحميه علم أبيض، في فجر اليوم السابع عشر[١] إلى الخطوط الروسية الأمامية وطلب مقابلة الأمبراطور، فنقل إلى فيسشو. ولما كان الأمبراطور نائماً، فقد اضطر ذلك الضابط الذي لم يكن إلا سفاري[٢]، أن ينتظر حتى يستيقظ جلالته. وحوالى الظهر، مثل بين يدي الأمبراطور حيث مكث ساعة كاملة خرج بعدها يصحبه الأمير دولغوروكوف، وسرت بين الصفوف شائعة مفادها أن ناپليون أرسل يلتمس مقابلة الأمبراطور ألكسندر الذي رفض الذهاب بنفسه وأرسل الأمير دولغوروكوف نيابة عنه، المنتصر في معركة فيسشو ليبحث مع ناپليون في شؤون السلام إذا رغب هذا، خلافاً لما كان ينتظر منه، وقد قوبل رفض العاهل، ألكسندر من قبل الجنود بسرور بالغ وأثار في الجيش روح الكرامة والاعتداد.

---

(١) يجب ألا يغيب عن البال أن التقويم الروسي شرقي يتأخر بثلاثة عشر يوماً عن التقويم الغربي. (المترجم).

(٢) جنرال فرنسي، ظهرت مواهبه في معركة أوسترولنكا، كان وزير الپوليس في عهد بوناپرت. (المترجم).

عاد دولغوروكوف، حوالى المساء، فمضى فوراً إلى مكتب الأمبراطور حيث بقي في حضرته على انفراد وقتاً طويلاً.

وفي يومي ١٨ و١٩ (أي ١ و ٢ كانون الأول كما أسلفنا) استمرت الوحدات الروسية تتقدم والخطوط الأمامية للعدو تتراجع إثر مناوشات بسيطة تافهة. لكن حركة كبيرة دبت في الصفوف اعتباراً من بعد ظهر يوم ١٩ (٢ ـ ١٢ ـ ١٨٠٥) حركة هائلة بلغت في مداها إلى أعلى مراتب الجيش واستمرت حتى صباح يوم ٢٠ تشرين الثاني، وهو اليوم الذي وقعت فيه معركة أوسترليتز التاريخية[١] الخالدة.

كانت الحركة الصاخبة والأحاديث الحارة والسعي الدائب، ومهام الضباط المساعدين، محصورة كلها حتى ذلك اليوم بين حدود مركز القيادة العامة الأمبراطورية. أما في يوم ١٩ تشرين الثاني، فتعدّت الحركة تلك الحدود حتى بلغت مركز قيادة كوتوزوف ومركز أركان حرب قادة الكتائب والوحدات. ولم يحل المساء إلا وكانت الصفوف كلها في شغل شاغل بفضل مساعي الضباط التابعين. وفي ليل ١٩ ـ ٢٠ تشرين الثاني، اهتزت الكتلة الهائلة التي كان قوامها ثمانين ألف عسكري والتي كانت تنبسط على جبهة طولها يناهز العشرة كيلومترات.

بدأت الحركة المركزية في ذلك الصباح من مركز القيادة الأمبراطوري التي دب بسببها النشاط في كل القطعات، تذكر المرء بالعجلة المحركة التابعة لساعة جبارة كبيرة. بدأت إحدى العجلات تدور ببطء ثم أعقبتها ثانية فثالثة ما لبثت حتى استجابت لها المشابك والعجلات الفرعية وما إليها، فراحت تهتز بدورها وتزداد مشيتها سرعة دقيقة بعد دقيقة، فيدوي الجرس وتتحرك

(١) مدينة في موراڤيا اسمها بالتشيكية سلاڤكوف. هزم فيها ناپليون النمسويين والروس هزيمة نكراء، ولايزال اسم أوسترليتز يواكب اسم ناپليون حتى اليوم. (المترجم).

التماثيل الصغيرة وتتقدم الإبر بانتظام إلى الأمام كما هي النتيجة المحتومة للعملية كلها.

كانت الآلة العسكرية، تشبه آلة الساعة في كل شيء حتى في الغاية فإذا ما قامت الحركة الأولى، بقيت كل الآلات الأخرى جامدة حتى يصل إليها النشاط الدوري الرتيب. فتصر العجلات على الحوامل وتتشابك أسنانها وتتحرك المشابك بفعل السرعة والروتين بينما تظل العجلة المجاورة ساكنة بانتظار دورها في الحركة وكأنها تستطيع البقاء في سكونها مئات السنين. ولكن عندما تأتي اللحظة المواتية، وتشتبك أطرافها في مخلب مشرشر مدبب تخضع لنظام الحركة فوراً فتدور ويرتفع صريرها هي الأخرى متماشية مع الحركة العمومية التي تبقى النتائج المرجوة مجهولة منها.

ولا تنتهي الحركة المعقدة في الساعة، إلا بانتقال الإبرة المشيرة إلى الوقت من مكانها على الميناء ببطء وانتظام، فإن النشاط الذي دب في أعصاب مائة وستين ألف رجل بين روسي وفرنسي، واصطدام تلك الرغبات واختلاط تلك الشهوات، والحسرات والمخاوف وبوادر الكبرياء والذعر والحماسة، لم يكن لها من نتيجة إلا خسارة معركة أوسترليتز بالنسبة إلى أحد الجانبين المتحاربين، تلك المعركة التي أطلق عليها اسم معركة الأباطرة الثلاثة، أمبراطور روسيا والنمسا وفرنسا. وبمعنى أصح، لقد كانت حركة إبرة التاريخ العام على ميناء تاريخ البشرية.

وفي ذلك اليوم كان الأمير أندريه في الخدمة، فلم يفارق الجنرال الأعلى كوتوزوف لحظة واحدة. ووصل كوتوزوف في الساعة السادسة مساء، إلى مقر القيادة الأمبراطورية، وبعد لقاء قصير مع الأمبراطور، قصد إلى الكونت تولستوي، الذي كان ماريشال البلاط الأكبر. شعر پولكونسكي أن كوتوزوف لم يكن على ما يرام. بل لاحظ عليه الاغتمام والاستفزاز اللذين كان مردهما

الاستقبال الفاتر الذي قوبل به من قبل السادة أعضاء الحاشية في القيادة العامة، واللهجة التي خاطبوه بها والتي توحي بأنهم يعرفون أشياء يجهلها الآخرون. وأراد پولكونسكي معرفة كلمة السر في هذه المعضلة، فمضى إلى دولغوروكوف منتهزاً فرصة الفراغ القصير الذي عرض له أثناء مقابلة كوتوزوف للكونت تولستوي.

قال له الأمير، وهو يتناول الشاي مع بيليبين: إه! مرحباً يا عزيزي. نعم إن غداً موعد العيد. ترى ماذا يقول عجوزك؟ إنه ليس حسن المزاج أليس كذلك؟

ـ لا يقتصر الأمر على مسألة مزاج، إنني أعتقد أن الجنرال يطلب أن يُصغى إلى ما يقول.

ـ لقد أصغينا إليه عندما انعقد المجلس الحربي. سوف نصغي إليه كلما عزم على التحدث بتعقل. أما أن نتمهل في حين أن بوناپرت لا يخشى شيئاً مثل خوفه من معركة عامة تشن على قواته، فذلك مستحيل.

ـ صحيح، بمناسبة الحديث عن بوناپرت، حدثني عن انطباعاتك. لقد رأيته وتحدثت معه. ماذا وجدت فيه؟

ـ لقد رأيته واستخلصت من تلك المقابلة أن ما من شيء يخيفه أكثر من معركة عامة تشن عليه!

كرر دولغوروكوف هذا القول وهو شديد الفخار إذ استطاع استخلاص ذلك الرأي. وتابع يقول: لو لم يكن خائفاً من المعركة، فلماذا أثار هذه المباحثات ورغب في المفاوضة؟ ثم لماذا يتراجع باستمرار وهو الذي عرف عنه أن التراجع ليس في برامجه؟ صدقني إنه خائف. إنه يخاف المعركة العامة. لقد دقت ساعته أؤكد لك فثق بقولي.

لكن پولكونسكي ألح يسأله: لكن خبرني، كيف وجدته؟

ـ إنه رجل يرتدي «الرودنغوت» الرمادي يريد من كل قلبه أن يناديه الناس بـ«يا صاحب الجلالة». لكنني، لشديد حزنه، لم أطلق عليه أي لقب. هذا هو الرجل ولا شيء أكثر.

وابتسم دولغوروكوف لبيليبين ابتسامة شيقة وتابع: إنني مع مزيد احترامي لكوتوزوف العجوز، أعتقد أننا لو تمهلنا وترددنا فإننا نعطي فرصة كبيرة لناپليون تمكنه من الإفلات، وبذلك نكون من أكرم المحسنين. إنه الآن بين أيدينا. لا تنس مبدأ سوڤوروف العتيد: لا تسمح لخصمك بمهاجمتك بل كن أنت المهاجم. صدقني يا عزيزي إن حيوية الشباب في الحرب تمتاز ببعد نظر يفوق خبرة المخضرمين العُجَّز.

اعترض پولكونسكي على نظرية دولغوروكوف، راجياً أن تتاح له في هذه المناسبة فرصة عرض خطته الشخصية التي وضعها لذلك الهجوم.

ـ ولكن في أي اتجاه سنهاجم وعلى أية وضعية؟ لقد ذهبت بنفسي منذ حين إلى خطوطنا الأمامية وأيقنت استحالة تحديد مركز قواته الرئيسية.

فأجابه الأمير وهو ينهض ويبسط خريطة على الطاولة: وماذا يهم ذلك؟ إذا كانت في برون.

وبدأ دولغوروكوف يشرح بسرعة وبوضوح حركة الالتفاف التي وضع خطوطها ڤيروذر.

قدّم پولكونسكي اعتراضاته وعرض خطته الشخصية التي كانت تبدو في مثل قيمة الخطط التي وضعها ڤيروذر، مع فرق واحد في غير صفه، وهو أنها جاءت متأخرة. ومنذ أن حاول إظهار محاسن خطته ومساوئ الأخرى، توقف دولغوروكوف عن الإصغاء إليه، فلم يعد يلقي إليه إلا نظرة ساهمة دون أن ينظر إلى شروحه على الخريطة.

وأخيراً قال له: حسناً، سيقام هذا المساء مجلس حربي في مكتب كوتوزوف، وبإمكانك الدفاع عن وجهة نظرك هناك.

فأجاب پولكونسكي وهو يبتعد عن الخريطة: وهذا ما أريد القيام به.

وهنا تدخل بيليبين الذي بقي صامتاً، حتى تلك اللحظة، ينظر إلى المتحدثين بهدوء مترقباً الفرصة الملائمة للإلقاء بإحدى كلماته المأثورة: ماذا يفيدكم مثل هذا القلق الذي تسومونه أنفسكم أيها السادة؟ سواء جاءنا الغد بالهزيمة أو بالنصر، فإن عظمة الجيوش الروسية لا يمكن أن تمس إننا إذا استثنينا كوتوزوف، فلن نجد قادة روساً على رأس جيوشنا. إن القادة هم كالتالي: هر جنرال ويمبفن، الكونت دولانغيرون الأمير دوليشتنشتاين، الأمير دو هوهنلوه، وأخيراً برشد... برشد... وهلمجراً كما هي حال كل الأسماء الپولونية.

فصاح به دولغوروكوف: اخرس يا لسان السوء! ثم إن هذا غير صحيح. فهناك قائدان روسيان هما ميلورادوڤيتش، ودوختوروف وكان يمكن أن يكون هناك ثالث أيضاً وهو أراكتشييف، لكن أعصابه ضعيفة قليلاً.

قال پولكونسكي: أعتقد أن مقابلة ميخائيل إيلاريونوڤيتش قد بلغت نهايتها. فإلى اللقاء أيها السادة وحظاً سعيداً.

وصافحهما وخرج.

وبينما كان عائداً بصحبة كوتوزوف إلى مقر القيادة العامة دون أن ينطق هذا بكلمة، لم يستطع كبح جماح نفسه، فألقى عليه سؤالاً ينشد رأيه في معركة صبيحة الغد.

فحدجه كوتوزوف بنظرة صارمة وأجابه بعد لحظة صمت: أنا أعتقد أننا سنخسر المعركة. وهذا ما قلته للكونت تولستوي راجياً أن يبلغ الأمبراطور رأيي. فهل تعرف ماذا كان جوابه؟ لقد قال لي: «إيه يا عزيزي الجنرال، إنني لا أهتم إلا بالأرز والضلع المحشو، فاهتموا أنتم بالحرب»... نعم هذا هو الجواب الذي حصلت عليه منه!

الفصل الثاني عشر

اتجه ڤيروذر، عند الساعة العاشرة مساء إلى منزل كوتوزوڤ يحمل أوراقاً ومخططات حيث كان سيعقد هناك جلسة مع قادة الفرق العسكرية قبل اندلاع المعركة. ودعي جميع قادة الجيوش فحضروا عدا الأمير پاغراسيون.

ڤيروذر صاحب الخطة التي ستسير بموجبها المعركة القادمة، على نقيض كوتوزوڤ من حيث المظهر والمزاج فالأول شديد الحماسة والاندفاع على نقيض كوتوزوڤ العابس المتشائم، الذي يقوم بدور الحكم، ومدير الجلسة رغم نفوره من تلك المهمة. من الواضح أن ڤيروذر كان يشعر بأنه يرأس عملية خطيرة جداً. كان أشبه بالحصان الذي ينحدر من علٍ، لا فرق لديه بين أن يكون هناك من يدفعه أو أن يكون مدفوعاً بثقل عربة يجرها وراءه. كان همه كله محصوراً في الانحدار واجتياز المسافة بسرعة، بصرف النظر عما يمكن أن يكون فيها من أخاديد وحفر قد تورده مورد الهلاك بسبب سرعته الجنونية. مضى مرتين في ذلك المساء يتفقد شخصياً مراكز الجيش الأمامية، ربما يستكشف مواقع العدو. وفي كل مرة، كان يقدم لكل من الأمبراطورين تقريراً شاملاً. ثم ذهب بعد ذلك إلى مكتبه حيث عكف على وضع خطته باللغة الألمانية. فلما ذهب كوتوزوڤ لعقد المؤتمر الأخير، كان يقف على قدميه بصعوبة لفرط تعبه. لقد كان مشغول الفكر لدرجة أنسته واجب الاحترام تجاه الجنراليسيم. كان يقاطعه ويتحدث بسرعة غامضة دون أن ينظر إليه أو أن

يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه. كانت الأوحال تغطي ثوبه ويوحي مظهره بشرود ذهنه. مع ذلك فقد كان ممتلئاً اعتداداً واستعداداً.

كان كوتوزوف يسكن في قصر صغير بالقرب من أوسترليتز. وكان الضباط المدعوون إلى ذلك المجلس العسكري، مجتمعين في القاعة الكبرى يشربون الشاي. وكان المجتمعون ينتظرون قدوم الأمير پاغراسيون لافتتاح الجلسة. ولم تنقض دقائق بعد الساعة السابعة، حتى وصل أحد ضباط پاغراسيون يقدم اعتذارات الأمير لعدم تمكنه من حضور الاجتماع وحمل الأمير أندريه اعتذارات پاغراسيون إلى القائد الأعلى كوتوزوف، واستغل فرصة وجوده في القاعة لحضور اجتماع القادة استناداً إلى رغبة كوتوزوف بالذات في إبقائه بقربه.

قال ڤيروذر وهو ينهض وكأنه آلة تدفعها قوة رافعة: بما أن الأمير پاغراسيون لن يستطيع حضور الاجتماع، فنستطيع البدء بما نحن بصدده.

واقترب من الطاولة وبسط فوقها خريطة ضخمة تبين ضواحي برون بتفصيل دقيق.

كان كوتوزوف ذو العنق الضخم البارز خلال فتحة الثوب العسكري، جالساً على مقعد من طراز «ڤولتير» ويداه السمينتان مرتكزتان على ذراعيه في وضع متناسق. وكان النعاس يداعب عينيه فلما علا صوت ڤيروذر، فتح عينه الوحيدة بجهد وقال: نعم، نعم، لا شك أن الوقت متأخر.

وأومأ برأسه دلالة على الموافقة ثم عاد يغمض عينيه ويترك رأسه يسقط على صدره.

ولو أن أعضاء المؤتمر العسكري اعتقدوا للوهلة الأولى أن كوتوزوف يتظاهر بالنوم استخفافاً بما يدور، فإن شخيره الذي علا بعد لحظات بدد الشكوك، وأكد أن الجنراليسيم لم يتعمد إظهار الازدراء بما يدور، أو بالخطة

المرسومة أو بأي شيء آخر، بل كان يرضي حاجة غريزية في النفس البشرية وأعني النوم الذي كان في نظره لا يقل أهمية وخطورة عمّا هو بصدده. لقد كان نائماً. فألقى ڤيروذر نظرة على كوتوزوف ليتأكد أنه نائم فعلاً، ثم أتى بحركة تشعر أنه لا يستطيع إضاعة دقيقة واحدة في أمر خارج عن موضوع الخطة، وأخذ ورقة راح يقرأ ما فيها بصوت رتيب قوي، تفاصيل الخطة دون أن يشير إلى أي فضل أو مساعدة لزملائه.

كان عنوان الورقة هو الآتي: «خطة الهجوم على موقع العدو وراء كوبلنيتز وسوكوليتز في العشرين من تشرين الثاني عام ١٨٠٥».

الخطة صعبة شديدة التعقيد تبدأ كالآتي: «لما كان العدو يرتكز بجناحه الأيسر على هضبة غابة، ويمتد بجناحه الأيمن على طول كوپيلينتز وسوكولينتز، وراء المستنقعات الموجودة هناك، وكنا نحن نتجاوز بجناحنا الأيسر امتداد جناحه الأيمن، فمن الأرجح بالنسبة إلينا أن نهاجم جناح العدو الأيمن، خصوصاً إذا احتللنا القريتين: سوكولينتز وكوبيلينتز، الأمر الذي سيسمح لنا بالانقضاض على جانب العدو ومطاردته في السهل بين شلابابنتز وغابة توارس، متجنبين بذلك قوات شلاپابينتز نفسها والقوات المعسكرة في بلوتيز، التي تغطي جبهة العدو. وللوصول إلى هذا الدف النهائي، من الضروري... إلخ... تنطلق الفرقة الأولى... وتنطلق الفرقة الثانية»... إلخ...

لم يكن القادة متبهجين لسماع تلك الجمل المعقدة. فالجنرال پوكسووفدن، وهو طويل القامة، أشقر اللون، كان واقفاً قرب الجدار يحدق إلى شمعة، وكأنه لا يصغي ولا يريد أن يعتقد أنه يصغي إلى ذلك الشرح. والجنرال ميلورادوڤيتش، وهو أحمر الوجه، ضخم الشاربين معقوفهما، متهدل الكتفين، جالس قبالة ڤيروذر جلسة عسكرية مهيبة ويداه على ركبتيه ومرفقاه إلى الجانبين. يحدق بعينين شاخصتين وهو صامت بعناد واضح.

عندما انتهى رئيس الأركان النمسوي قراءة التفاصيل، نقل ميلورادوڤيتش نظره بين زملائه. لكن أحداً منهم لم يستطع أن يتبين شيئاً في تلك النظرة المفعمة بالخطورة، أو أن يخمن لونها: هل هي تحمل معنى الموافقة على الخطة أم الاعتراض عليها؟ وكان الكونت دولانغرون، الجالس إلى جانب ڤيروذر، يتأمل أصابعه الطويلة التي كانت تداعب علبة السعوط الذهبية ذات الصورة اليدوية التي تزين غطاءها. وكانت الابتسامة مطلة على وجهه الفرنسي الذي يشهد بأنه من أهل الجنوب، والعلبة الأنيقة ترسم حلقات مركزية بين أصابعه. وفي أحد المواقف الدقيقة الشديدة التعقيد، أوقف حركة علبته الرتيبة ونصب رأسه ثم انفرجت شفتاه الرقيقتان عن اعتراض بلهجة مهذبة.

لكن الجنرال النمسوي لم يتوقف عن القراءة، بل قطب حاجبيه بغضب وحرك مرفقيه حركة تشبه القول: «بعد حين، بعد حين، سوف تحدثني بكل رأيك. أما الآن، فأرجو أن تصغي إلى الشرح وأن تتبع المراحل على الخريطة» فرفع لانغرون رأسه وفي عينيه تعبير حائر وتطلع إلى وجه ميلورادوڤيتش وكأنه يسأله شرحاً، لكنه لما تقابلت نظرته ونظرة الجنرال الروسي الخطيرة الخالية من كل معنى، أطرق بعينيه بكآبة وعاد إلى علبته يديرها بين أنامله.

غمغم بصوت مرتفع متعمداً إسماع الآخرين: ... درس جغرافيا!

وكان برزينيسزوسكي، يوجه أذنه بيده، بحركة مهذبة، نحو ڤيروذر، شأن الرجل المستغرق في الإصغاء إلى محاضرة شيقة يخشى أن تفوته كلمة منها. أما دوختوروڤ القصير القامة، فكان منحنياً فوق الخريطة قبالة ڤيروذر، يدرس بدقة مشروع الهجوم والمواقع التي لا يعرفها، وعلى وجهه علامات الاهتمام والتواضع. وبلغ من شديد عنايته أن قاطع زميله النمسوي مراراً طالباً إليه أن يتفضل بإعادة جملة لم يستوعبها أو مقطع لم يسمعه جيداً، أو بعض أسماء

القرى الصعبة. فكان ڤيروذر يستجيب لطلباته ودوختوروف يسجل ملاحظاته في دفتره.

وبعد ساعة انتهت القراءة، أوقف لانغيرون دوران علبة سعوطه وأعرب، دون أن ينظر إلى ڤيروذر أو إلى أحد زملائه بصورة خاصة، عن رأيه قائلاً إنه سيكون من الصعوبة بمكان القيام بمثل هذه المناورة التي ترتكز أسسها على معرفة مواقع العدو، بينما أن الحقيقة لا تؤيد هذه المعرفة لأننا نجهل تحركات العدو التي لا تسمح لنا بمعرفة مواقعه. وكان ذلك الاعتراض، يهدف إلى إشعار ڤيروذر المتبجح، بأن هؤلاء العسكريين المحترفين الذين يعاملهم معاملة الجهلة، على استعداد لتلقينه دروساً في فنون القتال. وفي تلك الأثناء، فتح كوتوزوف عينه الوحيدة بعد أن انقطع صوت ڤيروذر الرتيب، وكأنه طحان نام على صوت مطحنته الممل ليستيقظ فجأة عند توقف الصوت. استمع بشرود إلى وجهة نظر لانغيرون وبادر إلى إغلاق عينه وكأنه يقول: «يا إلهي! أما زلتم تناقشون هذه التفاهات!» وعاد رأسه يسقط على صدره مثقلاً بالنعاس.

كان لانغيرون يريد أن ينال من شعور ڤيروذر ويحط من كبريائه وغروره الذي يصور له أنه يستطيع وضع الخطط الموفقة. لذلك راح يبين أن بوناپرت يستطيع أن يتحول بسهولة إلى الهجوم بدلاً من أن يكون مهاجماً، الأمر الذي يجعل تلك الخطة بدون فائدة لكن ڤيروذر لم يكن يجيب عن تلك الانتقادات إلا بابتسامة ساخرة مهيأة من قبل لتجيب عن كل الاعتراضات من أي نوع كانت.

قال مؤيداً رأيه: لو كان قادراً على مهاجمتنا، لقام بذلك اليوم.

فاعترض لانغيرون بقوله: هل أنت واثق بعجزه؟

فأجاب ڤيروذر جازماً وعلى شفتيه ابتسامة الطبيب الذي يُطالب

باستعمال علاج النساء المخرفات: إنه لا يملك أكثر من أربعين ألف رجل.

فابتسم لانغيرون ابتسامة ساخرة وقال معقباً: إذن هو يسعى إلى حتفه بنفسه!

وراح يبحث مجدداً، بنظره عن تأييد جاره ميلورادوڤيتش. لكن هذا كما كان واضحاً، لم يكن يفكر قط في الموضوعات التي يناقشها زملاؤه.

قال: سيقرر كل هذا في ساحة المعركة.

وتابع ڤيروذر يدلل بابتسامة ساخرة على وقاحة هؤلاء الجنرالات الروس الذين يسمحون لأنفسهم بمعارضته، هو، ومطالبته ببراهين حول أمور لم يكن مقتنعاً بوجاهتها، بل إنه كذلك أقنع الأمبراطورين بتلك الوجهة. قال: لقد أوقف العدو نيرانه والجلبة المستمرة ترتفع من معسكره دون انقطاع، فماذا يعني ذلك؟ هل يبتعد أم يحول مراكزه؟ إن الاحتمال الأول هو وحده الذي نخشاه.

ثم تابع وابتسامته لا تفارق شفتيه: فإذا افترضنا جدلاً أنه يبتعد وأنه سيتمركز في توراس، فسيوفر علينا الكثير من المتاعب. على كل حال، إن تفاصيل خطتنا حتى أصغر خطوطها وأتفهها تبقى نافذة بدقة.

فسأل الأمير أندريه الذي كان يتحين، منذ زمن طويل، فرصة إظهار مخاوفه وشكوكه: كيف ذلك؟...

وفي تلك اللحظة، استيقظ كوتوزوف فسعل وأجال حوله نظرة دائرية استعرض فيها وجوه الجنرالات وقال: أيها السادة، إن خطة غد، أو الأحرى اليوم لأن الساعة قد جاوزت منتصف الليل، لا يمكن تعديلها. لقد سمعتم تلاوتها وعلينا أن نقوم بواجبنا.

سكت فترة ثم تابع: غير أن لا شيء يضاهي النوم في أهميته قبل أية معركة... فاذهبوا إلى أسرتكم.

ووقف، فنهض الجميع وانسحبوا. وتبعهم الأمير أندريه وكانت الساعة تشرف على الواحدة.

لم يتمكن الأمير أندريه من الإفصاح عن وجهة نظره في المؤتمر الحربي الذي عقد قبل بدء المعركة، الأمر الذي ترك في نفسه شعوراً عميقاً بالانزعاج. ترى من كان على حق؟ أكان دولغوروكوف وڤيروذر اللذان كانا يحملان لواء فكرة الهجوم ويمتدحانها،أم كوتوزوف ولانغيرون والآخرون الذين كانوا ينتقدون الفكرة؟ لم يكن يعرف! ولكن، أما كان كوتوزوف قادراً على إطلاع الأمبراطور مباشرة على تلك الخطة؟ ألم يكن ذلك التصرف ليبدّل الأمور؟

كان يقول في سرّه: «هل من الواجب التضحية بعشرات الألوف من البشر، ولعله يكون في عدادهم، لإرضاء حفنة من أفراد بطانته المتملقين؟ نعم، حياتي أنا أيضاً، لأنني لا أريد أن أقتل غداً». وفجأة اكتسح مخيلته فيض من الذكريات إزاء فكرة الموت. ذكريات بعيدة أخذت تمر في خياله. رأى نفسه يودع أباه الوداع الأخير ويترك زوجته، وتذكر ليز الحبلى واستعاد فترات حبّها الأول فشعر بعطف عليها وعلى نفسه. كان فريسة اضطراب عنيف لا يستطيع الاستقرار، لذلك خرج من مسكنه الذي كان يشغله نيسـڤيتسكي وراح يذرع الطريق.

ضباب يغطي القرية بردائه الشفاف، وإشعاع هزيل من القمر يخترق ذلك الحجاب فيضفي على الجو طابعاً غامضاً. راح يحدث نفسه: «نعم، غداً، غداً.. غداً قد ينتهي كل شيء من جانبي. غداً ولا شك، بل وبالتأكيد، لأن هاتفاً خفياً يؤكد لي ذلك، سيتسنى لي أن أظهر كفاءتي وقدرتي». تصور المعركة واحتدامها وامتدادها المحزن وارتكاز القتال في نقطة واحدة، وبلبال الرؤساء كلهم وتشوش القادة. وعندئذ، تعرض له الفرصة الذهبية لتحقيق «طولونه» المنشود: وبصوت واضح عرض تفاصيل خطته على كوتوزوف وكذلك على

ڤيروذر ثم على أسماع الأمبراطورين، وذهل هؤلاء جميعاً بدقة خطته، لكنهم لم يتعهدوا مجتمعين أو فرادى باحتمال نتائجها... وعندئذ، وبعد أن أيقن أن أحداً لن يتدخل في خطته فيعترض عليها أو يدعمها، ترأس سرية، بل جيشاً، وقاده إلى حيث كانت المعركة في أدق المراحل وأخطرها، فأنقذ الموقف وانتصر. وهنا اعترض صوت داخلي قائلاً: «والموت، والآلام؟» لكن الأمير أندريه كان يتتبع خطوط فوزه وخطى انتصاراته. وضع بمفرده خطة المعركة القادمة، رغم أنه لم يكن يحمل أي لقب باستثناء الملحق العسكري بقيادة كوتوزوف، وكان هذا المركز هو كل ذخر لديه، فقد قاد العملية الناجحة. ثم هو نفسه الذي سينتزع النصر من براثن الهزيمة وعندئذ، يقال كوتوزوف من مركز القيادة وتسند هذه إليه، فيصبح القائد هو، پولكونسكي. واعترض الصوت مرة ثانية قائلاً: «وبعدئذ؟ هذا على افتراض أنك لم تقتل أو تجرح عشرات المرات أو تمنى بخيانة منتظرة، وبعدئذ! لست أدري ماذا سيحدث بعدئذ. لا أستطيع ولا أريد معرفة ما سيأتي. لكنني إذا كنت حقيقة أسعى وراء هذا الشيء الذي يطلق عليه اسم المجد، أو الشهرة أو...، فإنني لا أدان لأنني أردته وعملت من أجله. نعم من أجل هذا وحده! لن أعترف لأحد بهذه الحقيقة، ولكن، ماذا أستطيع أن أفعل إذا كنت لا أحب إلا هذا، المجد والشهرة بين الرجال؟ إن الموت والجرح وفقد أسرتي، كل هذه المصائب لا تخيفني. صحيح أن لدي عدداً كبيراً من الأعزاء وعلى رأسهم أبي وأختي وزوجتي، مع ذلك فإنني مهما بدوت مخيفاً ومنافياً في تفكيري للطبائع البشرية، فإنني مستعد للتضحية بهم دون تردد في سبيل دقيقة مجد، وفي سبيل حب الأشخاص الذين لا أعرفهم والذين لن أعرفهم أبداً... أشخاص مثلهم!» وأصاخ السمع إلى أصوات كان ترتفع في تلك اللحظة من فناء مسكن الجنراليسيم، فأعقب قائلاً: «أشخاص مثل هؤلاء!...».

في قصر كوتوزوف، بدأ الخدم والتابعون يستعدون للنوم. وكان أحدهم، ولعله الحوذي، يريد إثارة «تيت» طاهي كوتوزوف الذي كان أندريه يعرفه جيداً. سمع السائق يقول: تيت، هه، تيت؟

فأجاب الرجل مستفسراً: ماذا تريد؟

فعاد الأول يقول مازحاً: امض إلى حبيبتك الفتانة!

فأرعد الصوت الآخر وقد طغت عليه أصداء الضحكات المتعالية: ليأخذك الشيطان!

وأردف أندريه في سره: «رغم كل ذلك، فأنا متعلق برغبة الفوز من أجلهم جميعاً، إنني لا أمجد إلا هذه القوة الغامضة، هذا المجد الذي أشعر به عالياً فوق رأسي في هذا الضباب!».

الفصل الثالث عشر

كانت مجموعة الفرسان التابعة لروستوف تستكشف، في ذلك المساء لمصلحة جيش باغراسيون، فانقسم الفرسان إلى فصيلتين انتشرتا على طول خطوط الجيش الأمامية. وكان روستوف يطوف على فرسانه مفتشاً، يصارع النعاس الذي يثقل جفنيه. كان يميز في الفراغ الشاسع الممتد أمامه، أضواء الجيش الروسي الخافتة، لكنه لم يكن يرى في الرقعة التي يشغلها العدو إلا الظلام الحالك. لم يستطع اختراق تلك الحجب المدلهمة بنظراته. كان يظن تارة أنه رأى أشكالاً سوداء تتحرك وأحياناً يعتقد أنه طالع بنظره نيران العدو المخفية بإحكام. وكان يقنع نفسه بأن هذه المرئيات ليست إلا أوهاماً.

أطبق جفنيه من التعب، وصور له خياله الأمبراطور تارة ودينيسوف وذكريات موسكو تارة أخرى كان يفتح عينيه بسرعة، فلا يرى إلا رأس جواده وأذنيه وأحياناً أشباح الخيالة عندما كان يقترب من بعضهم، بينما ظل الظلام الكثيف يخيم على الأبعاد التي يربض فيها العدو. راح يفكر في سره: «لمَ لا؟ لعلني إذا قابلت الأمبراطور، حصلت منه على إحدى المهام التي يسندها إلى الآخرين. لعله يقول لي مثلاً! «إذهب واستطلع ما يحدث هناك!» إنه كما يبدو، كثيراً ما يقع نظره على أحد الضباط فيلحقه بخدمته. ولكن ماذا لو جرى لي مثل ذلك؟ كم سأضحي في سبيل حمايته، كم سأبذل لأحدثه بالحقائق وكم سأجهد لأفضح الخونة وأكشف عن المارقين!» ويجسد له الخيال هذه الآمال فيرى نفسه بعين الواقع مشتبكاً مع عدو أو خائن ألماني، فيطرحه أرضاً

ويضربه في حضرة معبوده الأمبراطور ليبين له مبلغ حبه وتفانيه في سبيل شخصه المبجل. وفجأة أعادته صرخة ثاقبة بعيدة إلى الحقيقة، فانتفض وفتح عينيه.

«اين أنا؟ آه! نعم، في الخطوط الأمامية. إن كلمة السر هي تيمون، أولموتز... يا للضنك ببقاء كوكبتنا في عداد الاحتياط غداً! سأطلب الاشتراك في العمليات. لعل بذلك فرصتي الوحيدة لرؤية الأمبراطور. لقد أزفت ساعة تبديل الحرس. سأقوم الآن بجولة جديدة وبعدها أقدم ملتمسي للجنرال».

انتصب على صهوة جواده وهمز الجواد للقيام بجولته الأخيرة. بدا له الظلام أقل سواداً، فاستطاع أن يرى إلى يساره منحدراً خفيفاً مضيئاً ومن الجانب الآخر تلا مظلماً، بدا لعينيه منتصباً كالجدار القائم. شاهد على ذلك التل بقعة بيضاء لم يتمكن من تحديد نوعها. ترى هل كانت بقعة جرداء يضيؤها القمر، أم ذراعاً من الثلج أم صفاً من المنازل؟ خيل إليه أنه يرى تلك البقعة تتحرك. راح يحلم: «يجب أن تكون هذه البقعة كتلة من الثلج... بقعة، بقعتي... آه! نعم، ناتاشا، أختي وعينيها السوداوين... هل ستدهش عندما أخبرها أنني رأيت الأمبراطور!... ناتاشا... حاولي أن لا تسقطي...».

صاح أحد الفرسان إلى يمينه فجأة، وكان روستوف قد مر به وهو بين النوم واليقظة: إحذر نبالتك من الأدغال.

استيقظ من حلمه فرأى أن رأسه كان يتهدهد فوق ذؤابة الجواد. انتصب على السرج وتوقف قرب الفارس. لقد كان النوم، النوم البريء الذي يثقل عيون الأطفال، يطغي على حواسه.

عاد يحدث نفسه: «هيا، بماذا كنت أفكر؟ لا لا يجب أن أنسى. نعم، كنت أفكر في ما سأقوله للأمبراطور أليس كذلك؟ كلا، إن هذا لن يكون إلا غداً... آه نعم، كنت أفكر في ناتاشا... بقعة، بقعة، بقعة... أية مهمة تنتظرنا غداً؟...

من هذا؟ الفرسان؟... آه! نعم الفرسان ذوو الشوارب. أين يا ترى شاهدت واحداً من هؤلاء الفرسان ذوي الشوارب؟ آه! نعم. كان ذلك في شارع تڤير (Tver) قبالة منزل العجوز غورييـف.. يا له من باسل هذا آل: دينيسوف!... لكن هذه الأفكار كلها ليست إلا حماقات. المهم هو أن الأمبراطور موجود هنا!... عندما نظر إليّ، خيل إلي أنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يجرؤ على قوله... كلا، بالطبع إنه لم يجرؤ... حماقات كل هذه أيضاً! المهم هو أن لا أنسى... ترى ماذا كان ذلك الشيء المهم الذي كنت أريده؟... ناتاشا، لطخة، لطخة... بقعة...».

وعاد رأسه مجدداً إلى الانحناء فوق حارك الجواد. وفجأة خيل إليه أن هناك من يطلق النار عليه. فصاح منتفضاً: ما هذا؟ ماذا هناك؟ أعمل السيف! أعمل السيف!

وفتح روستوف عينيه، وسمع من جانب العدو جلبة قويّة صادرة عن ألوف من الأصوات. فنصب جواده وجواد الفارس القريب منه آذانهما. وفجأة أضيء نور على المرتفع وأعقبه آخر، ولم تلبث النيران أن التمعت على طول الجبهة الفرنسية، بينما ظلت الجلبة تزداد امتداداً واتساعاً. وعلى الرغم من أن روستوف لم يستطع أن يميز تلك الأصوات لسبب كثرة عددها، فإن الأحرف التي التقطها أكدت له أنها صادرة عن خناجر الفرنسيين.

سأل الفارس الذي كان إلى جانبه: ما معنى هذا؟ ماذا تظن؟ إنه صادر عن معسكر العدو أليس كذلك؟

فلم يجب الفارس. وعاد روستوف يسأله بعد أن انتظر جوابه عبثاً:

ـ ماذا؟ ألا تسمع؟

فأجابه الفارس بتذمر: الله يعلم ما الخبر يا صاحب النبالة.

قال روستوف ملحاً: إذا استهدينا بموقع العدو، فإن هذه الأصوات صادرة ولا شك عنه!

فقال الفارس بلغته الرعاعية: قد يكون كذلك وقد لا يكون. ليس من السهل معرفة ذلك في الظلام.

تابع يهيب بجواده الذي حاول التراجع أن يقف: هه، كفاك حماقة قف!

كان حصان روستوف نافد الصبر لا يستقر على الأرض. كان ينصب أذنيه ويضرب بقوائمه الأرض ويميل نحو الأضواء. أما الصيحات فقد أخذت تزداد وتتعالى وتذوب في جلبة عامة لا تستطيع القيام بمثلها إلا الألوف من الرجال. وكانت النيران منتشرة في تلك اللحظة على طول خط متناه في البعد، لا شك أنه كان خط العدو الأمامي. واتضحت أخيراً معالم الأصوات واستطاع روستوف أن يتبين فيها هتافاً مؤداه: «ليحيى الأمبراطور، الأمبراطور!» فشعر كأن ذلك الهتاف سوط ينهال على جلده.

قال يحدث الفارس: لا يمكن أن يكون هذا بعيداً، لعله على الجانب الآخر من النهر. أليس كذلك؟

فسعل الفارس بعد أن زفر غاضباً. وكان هذا كل الجواب. وفجأة علا وقع حوافر جياد قادمة، وانبعث من ذلك الضباب الليلي شبح وكيل ضابط ما زال يقترب حتى وصل إلى حيث كان روستوف. قال القادم: يا صاحب النبالة، لقد قدم الجنرالات.

تبع روستوف وكيل الضابط وأذنه تصغي إلى الهتافات والصيحات. واستطاع رؤية مفرزة من الفرسان تقترب؛ ورأى أحدهم يمتطي جواداً أبيض. كان القادمون هم الأميرين: باغراسيون ودولغوروكوف ومعهما أفراد حاشيتهما. لقد جاء الأميران يستطلعان سبب تلك البادرة الغريبة: النيران

والأصوات بعد الظلام والصمت المطبق. قدم روستوف تقريره لپاغراسيون وانتظم في عداد الضباط المساعدين يصغي إلى ما يقوله الجنرالان.

قال دولغوروكوف بتأكيد: صدقني إنها مجرد خدعة حربية. إنه بينما ينسحب متراجعاً، يضع جنود المؤخرة ويأمرهم بإبقاء النيران والهتاف على هذا الشكل لإيهامنا بأنه في مكانه. إنها خدعة.

فأجابه پاغراسيون: إنني أشك في هذا القول. لقد رأيتهم هذا المساء فوق هذا النتوء. لا شك أن جيشهم لو كان ينسحب كما تقول لما بقي هؤلاء فوق التل...

وأضاف يسأل روستوف: يا سيدي الضابط، هل لايزال مشاتهم المكلفون حماية الجناحين في أمكنتهم؟

ـ كانوا هناك هذا المساء، أما الآن فلا أستطيع الجزم. فإذا أصدرتم لي سعادتكم الأمر، مضيت مع فرساني لمعرفة ذلك.

توقف پاغرسيون محاولاً تمييز وجه روستوف وسط الضباب وأخيراً قال: حسناً، إذهب واستطلع!

كما تأمرون سعادتكم.

لكز روستوف جواده واستوقف وكيل الضباط ڤدتشنكو واثنين من رجاله وأصدر إليهم الأمر بمواكبته. وانحدر عن المرتفع وراح يقطع المسافة باتجاه الأصوات بأقصى ما تستطيعه الخيول من سرعة. كان يشعر بقلق فرح لذهابه وحيداً مع ثلاثة من الفرسان نحو ذلك الأفق المليء بالضباب، حيث يكمن السر الرهيب، الذي لم يستطلعه قبله إنسان ومن أعلى المرتفع، صاح به پاغراسيون يأمره أن لا يتجاوز النهر الصغير. لكنه أصمّ أذنيه عن الأمر وأوغل في جريه رغم العوائق والأخطار التي كان يقع فيها. كان يرى الدغل أشجاراً والحفر رجالاً. ولما وصل إلى أسفل المنحدر، لم يعد يرى ناراً، سواء

أكانت النار الروسية أم نيران العدو. لكن الأصوات أخذت تزداد اقتراباً. خيل إليه أنه يرى النهر الصغير في أسفل الوادي لكنه لما اقترب منه، رأى أنه كان طريقاً ممهدة، فأوقف جواده وهو لا يدري أيتبع الطريق أم يسير في الاتجاه المعاكس؟ أيخترق الحقول التي تحاذي الطريق في ذلك الظلام أم يعود إلى نقطة انطلاق أخرى؟ وأخيراً قدر أن سلوك الطريق كان أقل خطراً لأنه كان أشبه باللطخة المضاءة وسط ذلك الضباب، فكان يمكن تمييز الأشباح عليها بأكثر سهولة. صاح بفرسانه: «اتبعوني!» وعبر الطريق محاولاً تسلق التل الذي شاهد الرقباء الفرنسيين فوقه مساء ذلك اليوم.

قال أحد فرسان دينيسوف: ها هو ذا يا صاحب النبالة!

وفي ذلك الضباب انتصب خيال. لم يجد روستوف وقتاً كافياً لتبينه، إذ التمع شهاب ناري تلاه دوي طلقة نارية، ومرت الرصاصة تشق الضباب فوق رؤوس الفرسان الأربعة بزمجرة صاخبة. لم تنطلق رصاصة ثانية، لكن وميض «الكبسولة» فضح رغبة صاحبها. لوى روستوف عنان جواده وجرى بأقصى سرعة راجعاً من حيث أتى. دوت أربع طلقات أخرى خلال فترات متقطعة وعلى مسافات مختلفة، ومرت الرصاصات تصفر وسط الضباب. فأوقف روستوف جواده الذي كان شديد الانفعال كفارسه وراح يسيره الهوينا بخطوات وئيدة كان صوت بهيج يغمغم في أعماقه: «هيا، طلقة أخرى!» وتوقف الرصاص.

وقبل وصول روستوف إلى موقع پاغراسيون ببضع خطوات، هدب حصانه ورفع يده اليمنى إلى حافة خوذته بالتحية. كان دولغوروكوف لا يزال يصر على أن الفرنسيين ينسحبون وأن تلك الأصوات ليست إلا خدعة حرب. كان يقول:

ـ علامَ تدل هذه النيران؟ فبوسعهم ترك بعض الحراس حتى بعد انسحابهم لمجرد الخداع.

فيجيبه پاغراسيون: صدقني يا أمير إنهم لم يذهبوا جميعاً. سوف تتحقق من ذلك غداً صباحاً.

وكان روستوف قد وصل فقال: لا يزال هناك نقطة مراقبة على التل، يا صاحب السعادة. ما زالوا حيث رأيتهم هذا المساء.

كان يرفع يده بالتحية إلى قبعته وهو منحن إلى الأمام مسروراً بما أحدثته تلك المهمة في نفسه فلم يتمكن من كتمان ابتسامته المشرقة.

قال پاغراسيون: حسن، حسن جداً، أشكرك يا سيدي الضابط.

قال روستوف: هل تسمحون لي سعادتكم بتقديم طلب لي.

ـ ما موضوعه؟ ستبقى كوكبتنا غداً في عداد الاحتياط، وأنا أرغب في الالتحاق بالكوكبة الأولى.

ـ ما اسمك؟

ـ كونت روستوف.

ـ آه! حسناً، ابق معي كضابط تابع.

وسأله دولغوروكوف: أأنت ابن إيليا أندرييتش؟

لكن روستوف لم يجب عن هذا السؤال بعد أن خاطب پاغراسيون قائلاً: إذن؟ هل آمل أن يحقق طلبي؟

سأصدر أوامري!

فقال روستوف في سره: «غداً، يجوز أن أكلف حمل رسالة أو تقرير إلى الأمبراطور. حمداً لله وشكراً!».

وسبب اشتعال النيران في صفوف العدو، وتلك الهتافات المدوية في معسكراته، حضور ناپليون بنفسه، الذي راح يستعرض القطعات على ظهر

جواده، بينما القادة يقرأون على الجنود الكلمة التي وجهها إليهم. فلما رآه الجنود، أشعلوا النيران! نيران مشاعل من التبن وراحوا يركضون وراءه هاتفين: «يحيا الأمبراطور!» أما الكلمة التي وجهها إليهم فكانت كما يلي:

«أيها الجنود!

«إن الجيش الروسي ينتصب الآن أمامنا لينتقم لهزيمة حلفائه النمسويين في أولم. إن وحداته هي نفسها التي هزمتموها في هولا بروون والتي ما زلتم تتابعون خطاها في هزيمتها منذ ذلك اليوم.

«هذه المواقع التي نحتلها ممتازة: سوف يكشفون لي عن جانبهم حين التفافهم حول جناحي الأيمن. أيها الجنود. أيها الجنود! سوف أدير بنفسي كتائبكم. وسأظل بعيداً عن خطوط النار إذا قدرتم بشجاعتكم المعهودة أن تزرعوا الفوضى والارتباك في صفوف العدو. ولكن، إذا رأيت أن النصر بات مهدداً في أية لحظة، فسترون أمبراطوركم يعرض نفسه للرصاصات الأولى، لأن النصر لن يعرف التردد، خصوصاً في هذا اليوم الذي يتوقف فيه شرف الجيش الفرنسي على الانتصار، ذلك الشرف الذي يدعم شرف الأمة الفرنسية بأسرها.

«يجب ألّا تفرغ الصفوف بحجة إبعاد الجرحى. وليكن نصب أعين كل منكم أنه يجب إلحاق الهزيمة بأجراء الإنكليز هؤلاء، الذين يضمرون حقداً على أمتنا!

«سينهي هذا النصر هذه الحملة، وسنستطيع بعدها إقامة معسكرات الشتاء، وستلحق بنا القطعات الجديدة التي تشكل الآن في فرنسا، وعندئذ سيكون الصلح الذي أعقده جديراً بشعبنا وبكم وبي كذلك».

الفصل الرابع عشر

لا يزال الظلام يخيم وقد تجاوزت الساعة الخامسة صباحاً. وكان جناحا باغراسيون الأيمن والوسط وقوات الاحتياط في مواقعها لم تتحرك بعد. ويتشكل الجناح الأيسر من الفرسان والمشاة والمدفعية ومنوط بهم مهاجمة الجناح الأيمن للعدو وفقاً للخطة المرسومة، وإرغامه على الاتجاه نحو جبال بوهيميا. وكان دخان المهاجع التي كانت النار تلتهم فيها كل ما كان يلقى إليها به من أشياء غير ذات أهمية، يحرق العيون والوقت ظلام. كان الضباط يتناولون طعامهم بسرعة ويشربون الشاي، والجنود يلتهمون قطع البسكويت ويضربون الأرض بأقدامهم استجلاباً للدفء، أو يحيطون بالمواقد التي كانت تغذي نيرانها أخشاب جدران المهاجع والكراسي والجرائد والعجلات والعلب وكل ما كان يتعذر حمله ولما وصل الأدلة النمسويون الذين كان عليهم إرشاد الوحدات الروسية في زحفها، كان وصولهم إيذاناً ببدء الحركة. لم يكن أحد من أولئك الضباط يمثل أمام أحد قادة الكتائب. فالجنود يغادرون مضاجعهم مسرعين فيحشرون غلايينهم في سوق أحذيتهم العالية، ويلقون بأجربتهم في العربات، ثم يتنكبون بنادقهم ويقفون في صفوف منظمة، والضباط يزررون ستراتهم، ويربطون نطقهم وخرجهم، ويطوفون بالصفوف ليصدروا أوامرهم والخفراء والتابعون يقطرون الخيول إلى العربات ويكدسون الأمتعة ويشدون السيور، والزعماء «كولونيل» والعقداء والضباط الملحقون يمتطون خيولهم

ويرسمون إشارات الصليب ويعطون تعليماتهم الأخيرة للحوذيين والخفراء الذين سيمكثون في الخطوط الخلفية احتياطاً.

ولم يلبث الصوت الرتيب، صوت ألوف الأقدام التي تضرب الأرض، حتى علا. كانت الصفوف تسير دون أن تعرف الهدف أو أن تميز طبيعة الأرض التي كان الازدحام والدخان والضباب المتكاثف تتحد كلها لإخفائها وحجب الهدف الذي تسعى تلك الصفوف إليه عن الأنظار.

فالجندي محاط في صفوف وحدته كالبحار السجين في حدود زورقه. فهو مهما توغل وابتعد، ومهما ازداد الخطر المحدق به فإن عينيه تقعان أبداً على رؤسائه أنفسهم وزملائهم أنفسهم، وعلى الرقيب الأول إيڤان ميتريش «اياه» وكلب السرية «نوارو»، تميمة الفرقة. وكذلك البحار الذي يجد نفسه أبداً يواجه الصواري نفسها والحبال نفسها والمنظر المألوف دون تبديل. لا يطلب الجنود معرفة الامتداد الذي يجري فيه زورقهم إلا نادراً لكنهم في يوم المعركة، يشعرون جميعهم في قرارة نفوسهم بصوت خطر، يوقظ فضولهم وينبئهم بقرب حلول لحظة حاسمة. وعندئذ، يحاولون اختراق أفقهم المحدود، فيصفون الهمسات ويراقبون الحركات ويطرحون الأسئلة تلو الأسئلة، وهم في مزيد الشوق إلى معرفة ما يدور حولهم.

اشتدت كثافة الضباب حتى أن الجندي لا يستطيع رؤية أبعد من عشر خطوات أمامه رغم أن النهار كان قد انبلج. وبدت الأدغال ونباتات العوسج أشبه بأشجار ضخمة شامخة، والأخاديد المتقاربة أودية سحيقة. وكان خطر الاحتكاك بالعدو والاصطدام به كامناً في كل مكان يميناً وشمالاً. وكانت الرؤية المحدودة تزيد في وقع ذلك الخطر. مع ذلك فقد راحت الوحدات تتسلل عبر ذلك الضباب الكثيف فترة طويلة، وسط تلك الأراضي المجهولة، فتنحدر إلى الأودية وتتسلق المرتفعات، وتسير بحذاء الأسوار والحظائر والبساتين، دون

أن تلتقي الفرنسيين. بينما كانت الوحدات الروسية تتبع ذلك الاتجاه آتية من كل حدب وصوب، تطالع العيون صفوفها في كل لحظة. وحدها تلك البادرة تطمئن الجندي الذي يرى أن عدداً كبيراً من بني قومه يتقدمون معه نحو هدف واحد، هدف يجهلونه جميعاً.

كانوا يتحدثون بين الصفوف قائلين: ها هم جنود روس من كورشك[1].

فيجيب غاضباً: ذلك أنهم عديدون إنهم يعدون بالآلاف يا أخي. لم أجد وسيلة للإحاطة بعددهم أمس عندما أوقدت النيران. وفي الحقيقة، يمكن القول إن المرء يتصوّر نفسه في موسكو!

وقد تأخر رؤساء الوحدات قليلاً عن وحداتهم. كان هؤلاء السادة، كما نوّهنا في جلسة المؤتمر الحزبي، على أسوأ مزاج، شديدي الاستياء لرؤيتهم العمليات في بدايتها، فكانوا ينفذون الأوامر بإخلاص ولا يبالون بمعنويات الجنود. وكان هؤلاء يسيرون بوداعة وابتهاج شأنهم كلما مضوا إلى المعركة وخصوصاً في حالات الهجوم. غير أن معظم القطعات اضطرت إلى التوقف بعد مسير ساعة كاملة في ذلك الضباب الكثيف. ثم اكتسحت الصفوف إحساسات مؤلمة بالفوضى. صحيح أن الإنسان يعجز عن تبيان الأسلوب الذي تتصل فيه تلك المشاعر وتنتقل من فرد إلى آخر، غير أن امتدادها بسرعة مدمرة هائلة، وانتشارها كما تكسح المياه أرضاً منخفضة، أمر مؤكد. ولو أن الجيش الروسي كان وحيداً لا يعضده حلفاء، لكان ممكناً أن يمر وقت طويل قبل أن يصبح ذلك الشعور مؤكداً محققاً وعاماً شاملاً. أو في تلك الأثناء، فقد راح كل من القادة والجنود على السواء، يلقون تبعة هذا الأمر على عاتق أولئك «الألمان البلهاء» وأولئك الملاعين «أكلة النقانق»، بمكر مألوف عند البشر.

---

(١) مدينة جنوبي الأورال. (المترجم).

ـ ماذا؟ ألا نتحرك؟ هل الطريق مقطوع؟ أم ترانا وقعنا على فرنسيين؟

ـ كلا، لو كان كذلك لأطلقوا النار علينا ونحن لم نسمع بعد شيئاً.

ـ إذن، ألكي يوقفونا في العراء جروا بنا ركضاً منذ الصباح؟ إن كل هذا نتيجة خطأ أولئك الألمان الملاعين!

ـ لو أن الأمر كان راجعاً إليّ لأرغمتهم على السير في الطليعة، وهاها! لا شك أنهم في أحسن حال في المؤخرة، يلتهمون ما يشاؤون، بينما أوقعونا هنا وبطوننا خاوية!

وزمجر ضابط: اللعنة...! ألن ننتهي من هذا؟ يزعمون أن الفرسان يقطعون الطريق.

فأجابه آخر: ماذا تفعل بمثل هؤلاء الألمان الأغبياء؟ لا يعرفون حتى بلادهم صاح أحد الضباط المساعدين وكان وصل من فوره: من أية فرقة أنت؟

ـ من الثامنة عشرة.

ـ إذن ماذا تفعل هنا؟ كان يجب أن تكون في الطليعة منذ زمن طويل. أما الآن فإنك تتعرض للانتظار حتى المساء.

فقال الضابط وهو يبتعد: هل الأمر على مثل هذا السخف! لا يعرفون أنفسهم ماذا يفعلون.

وبعد ذلك، وصل جنرال وصاح بصوت مرتفع بلغة أجنبية. فقال أحد الجنود وهو يشير إلى الجنرال الذي كان يبتعد: تافا، لافا! ماذا يغني؟ إننا لا نفهم شيئاً. كان يجب قتل هؤلاء السفلة رمياً بالرصاص!

ومن كل مكان كان هناك من يزمجر: كان علينا أن نحتل مواقعنا قبل الساعة التاسعة مع ذلك فإننا حتى الآن لم نقطع نصف الطريق...! ألا ترى هذه العظمة في ترتيبهم وإعدادهم!

حلّ التعب محل العزيمة التي بدأ الجنود بها يومهم، وتطور إلى نوع من

الغضب العاجز عن بلوغ مداه، غضب على سخف الأساليب وأخطاء الألمان الفادحة.

ومردّ تلك البلبلة قرار اتخذته القيادة العليا: وجدت أن وسط الجيوش قد أصبح متباعداً عن الجناح الأيمن، فأصدرت الأوامر بإيقاف زحف المشاة، وانتقال الفرسان النمسويين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يحمون الجناح الأيسر، إلى الجناح الأيمن لحمايته، الأمر الذي جعل المشاة يتوقفون وقتاً طويلاً ريثما تمر تلك الموجة الزاخرة من الفرسان الذين يعدون بالآلاف.

كان الجنرال الروسي وفي تلك الأثناء، ثائراً على الدليل النمسوي في مقدمة الجيوش. كان الروسي يرغي ويزبد مطالباً بإيقاف الفرسان ليعود المشاة إلى سيرهم، بينما كان النمسوي يحتمي وراء أوامر القيادة العليا. وخلال ذلك، كانت القطعات متوقفة تفقد شجاعتها، وانقضت ساعة كاملة قبل أن تعاود المشي والنزول إلى أعماق الوادي، حيث الضباب الذي كان قد زحف فوق المرتفعات لا يزال كثيفاً مظللاً. دوت طلقتان ناريتان في مقدمة الجنود، وسط ذلك الضباب، ثم تبعتها طلقات أخرى بدأت غير متتابعة أول الأمر، وما لبثت أن زادت حدة على ضفاف غولدباخ.

لم يتوقع الجنود الروس الالتحام مع العدو هنا، لذلك أخذوا على حين غرة، دون أن يسمعوا عبارة تشجيع واحدة. والأدهى في الأمر أنهم ما كانوا يرون شيئاً أمامهم أو حولهم. اقتنعوا في تلك اللحظة أنهم وصلوا متأخرين، فراحوا يجيبون على نيران العدو بتراخ، فيتقدمون تارة ثم يتوقفون، دون أن يتلقوا أي أمر من القادة الكبار أو بواسطة ضباطهم الملحقين الذين كانوا يتيهون في ذلك الضباب دون التعرف إلى الوحدات التي يريدون الاتصال بها. وهكذا بدأت المعركة بالنسبة إلى الفيالق الأول والثاني والثالث، التي

انحدرت من هضبة براتزن التي لم يبق فوقها إلا الفيلق الرابع الذي يقوده كوتوزوف بالذات.

بدأت العمليات في الأعماق، كان الضباب كثيفاً، أما على المرتفعات فقد باتت الرؤية واضحة حتى أن المرء كان يستطيع معرفة ما يدور أمامه. لم يكن أحد يعرف إذا كانت قوات العدو الرئيسية كامنة على مسافة ميلين أو ثلاثة أميال كما كان يتوقع الروس، أم أنها تنتظرهم وراء هذا الخط من الضباب الكثيف. نعم، لم يكن أحد يستطيع تحديد ذلك.

أزفت الساعة التاسعة. وبحر الضباب لايزال متلاطماً في الأعماق ممتداً على مسافات شاسعة. أما باتجاه قرية شلاپاينتز حيث كان ناپليون يرقب على مرتفع هناك، محاطاً بماريشالاته، فقد كان منقشعاً تماماً. لقد كانت السماء الزرقاء الصافية تمتد فوقه، وقرص الشمس الأحمر يغمر بإشعاعاته الوردية سطح ذلك البحر الأبيض. لم يكن الجيش الفرنسي برمته، وناپليون بالذات مع كامل أركان حربه على الطرف الآخر من النهر وفي تخوم مستنقعات سوكولينتز وشلاپاينتز، حيث كان يزمع الجيش الروسي وحلفاؤه مهاجمته هناك بعد أن يعدوا له العدة اللازمة، بل كان هنا، على هذا الجانب من النهر، شديد القرب من القطعات الروسية حتى أن ناپليون كان يستطيع بعينه المجردة أن يفرق بين الضابط والجندي، وبين الفارس والرجل.

كان الأمبراطور متقدماً ماريشالاته قليلاً ممتطياً صهوة جواد عربي أشهب، مرتدياً المعطف الأزرق الغامق الذي خاض به حملة إيطاليا. كان يراقب بصمت المرتفعات التي تبدو كأنها ناتئة من خضم من الضباب، والتي كانت القطعات الروسية تتحرك فوقها على البعد. وكان يصيخ السمع إلى لعلعة الرصاص التي انفجرت فجأة في الوادي. لم تتحرك عضلة واحدة من وجهه الذي كان لا يزال هزيلاً حينذاك، بل ظلت عيناه البراقتان تحدقان إلى

نقطة واحدة. لقد صدق حدسه ووقع ما كان ينتظره. كان جزء من القطعات الروسية قد انحدر إلى الوادي باتجاه المستنقعات بينما راح الجزء الآخر يتهيأ لإخلاء مرتفع پراتزن، الذي كان يريد مهاجمته والاستيلاء عليه. كان يتطلع إلى ذلك المرتفع تطلعه إلى مفتاح العملية الحقة. يرى الوحدات الروسية تسير خلال الضباب شاكية الحراب، فتختفي إحداها في إثر الأخرى في محيط الظلمة الكثيف الرابض في أعماق المنحدر الذي كان يفصل بين المرتفعين المجاورين لقرية پراتزن. وكانت المعلومات التي تلقاها مساء أمس، والضجة التي أطلعه خفراؤه في الخطوط الأولى عليها، وقعقعة العجلات التي سمعها جنوده خلال الليل والحركات الكثيرة المتداخلة التي أمكن تميزها في صفوف الروس، كل ذلك كان يؤكد له أن الحلفاء يعتقدون أنه بعيد عنهم، ويثبت أن الفيلق الذي كان يتحرك قرب پراتزن ليس إلا وسط الجيش الروسي، فتأكد أن هذا الوسط كان شديد الضعف حتى ليعجز عن مهاجمته بنجاح. مع ذلك لم يعطِ الأمر بالبدء بالهجوم.

ذلك اليوم كان يوماً مجيداً بالنسبة إليه، كان يوم تنصيبه الأول أمبراطوراً لفرنسا. اختلس سويعات نوم قليلة ثم نهض بعدها نشيطاً خفيف الحركة. وفي مثل ذلك الاستعداد الفكري المشرق الذي بدا له فيه كل شيء ممكناً وكل شيء ناجحاً، اعتلى بوناپرت صهوة جواده وقصد إلى ساحة المعركة. أما الآن، فقد كان جامداً شاخص العينين إلى تلك المرتفعات التي كانت ظاهرة وراء الضباب وفوقه، ووجهه الجامد يشع بالاطمئنان، وبسعادة العشاق الشباب عندما يجدون تشجيعاً من عشيقاتهم. وكان ماريشالاته منتظمين صفاً وراءه لا يجرؤون على تعكير سكونه. كان ينظر إلى هضبة پراتزن تارة وتارة أخرى إلى الشمس التي كانت تخترق الضباب.

وعندما انقشع الضباب عن الشمس تماماً، وأنارت هذه البرية بضيائها

الوضاء، خلع ناپليون قفازه عن يده البيضاء، وكأنه ينتظر تلك اللحظة بالذات، لإصدار الأمر إلى ماريشالاته ببدء الهجوم. فأسرع هؤلاء وضباطهم المساعدون في أنحاء مختلفة لإدارة العمليات. لم تمض دقائق معدودة، حتى كانت قوى الجيش الفرنسي الرئيسية تتجه بسرعة نحو هضبة پراتزن التي كانت الوحدات الروسية تخليها باستمرار لتنحدر إلى أعماق الوادي، نحو اليسار!

الفصل الخامس عشر

في الساعة الثامنة صباحاً امتطى كوتوزوف صهوة جواده وانطلق نحو پراتزن. وعندما بلغ الفيلق الرابع، الذي يقوده ميلورادوڤيتش الذي جاء يحلّ محل فيلقَي پرزيبيسزوسكي ولانغيرون اللذين كانا في سيرهما المقر، تبادل التحية العسكرية مع جنود اللواء وأعطى الأمر بالمسير دلالة على أنه سيقود هذا الفيلق بنفسه. توقف عند وصوله قرية پراتزن. كان الأمير أندريه في عداد ضباط المساعدين. كان فريسة ذلك النوع من الانفعال الذي يستحوذ على كل من يرى أن الفرصة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر أصبحت وشيكة. كان مقتنعاً بأن يوم «طولونه» قد أزف أو يوم «جسر أركول»[1] ما كان يعرف كيف سيقع ذلك الحدث الذي سيحقق حلمه، لكنه لم يكن يشك قطّ في وقوعه. نسي خطته الاستراتيجية الخاصة التي أصبح تحقيقها مستحيلاً وتبنى خطة ڤيروذر، وهو الذي يعرف المواقع أكثر من أي آخر من مواطنيه الروس. كان في تلك اللحظة يفكر في الصدف التي يمكن أن تعرض، وفي مختلف الخطط التي ستساعده على التحقق من وجهة نظره وسرعة تقديره.

كان الرصاص يلعلع بين فرق غير مرئية في أعماق الـوادي تحت الضباب. ففكر پولكونسكي في سرّه: «سوف تتركز المعركة هناك. فليظهر أي عائق ولأرسل على رأس وحدة أو جيش، وعندئذ، سوف أندفع على رأس

---

(١) ضاحية إيطالية. هزم فيها ناپليون النمسويين متقدماً فرقة القناصة حاملًا العلم. (المترجم).

الجيش والعلم في يدي، وسأحطم كل ما يظهر أو يعيق سبيلي». أبهجته رؤية الأعلام ترفرف في مقدمة كل قطعة سائرة. غمغم وعينه تحصي الأعلام التي راحت ترى: «لعلني سأرسل حاملاً هذا العلم، وسيتاح لي أن أقود الوحدات تحت لوائه».

وعلى المرتفعات خلّف الضباب الليلي صقيعاً راح يتحول إلى ندى تحت وطأة الحرارة، أما في الوادي، فقد كان البحر على حاله يعرقل السير ويعترض نطاق الرؤية، مما جعل القوات الروسية لا تعرف العدد الذي يهاجمها وموقع المهاجمين على الضبط وفي أعلى الهضبة، كانت السماء داكناء، أما إلى اليمين فقد كان قرص الشمس الضخم واضحاً. وإلى الأمام، على الشاطئ الآخر من خضم الضباب، كانت تقوم هضاب محرشة تشكل مشارف مناسبة تصلح لاختبار العدو فيها. وقد أيد هذا الظن الأشباح التي كانت ترى بشكل غامض نظراً إلى بعد المسافة.

أما إلى اليمين، فكانت قعقعة العجلات وصدى الخطى المتزاحمة ووقع حوافر الخيل وبعض الانعكاسات الضوئية على الحرب، تدل على أن الحرس يشق الضباب التي كانت سرايا كاملة من الفرسان تسير فيه على اليسار وراء القرية.

أما في المقدمة وفي المؤخرة فقد كانت التحركات مقتصرة على المشاة. كان كوتوزوف يراقب زحف القطعات وهو في مكانه عند مخرج القرية. كان يبدو متعباً منهكاً سيئ المزاج. ولما رأى أن المشاة توقف زحفهم دون أن يصدر إليهم الأمر بالتوقف، راح كوتوزوف يناقش الحساب، الجنرال الذي كان يقود فرق المشاة. صاح به: ماذا تنتظر لترتب صفوف لوائك وتجعله يدور حول القرية؟ هيا يا سيدي العزيز، أقصد يا صاحب السعادة، هل يتمدد الجنود على هذا الشكل على طول الطريق عندما ينطلقون نحو العدو؟

فأجابه الجنرال: لتعذرني سعادتكم. كنت أفكر في تنظيم الصفوف عند الجانب الآخر للقرية.

قال كوتوزوف وهو يضحك ضحكة خشنة: حقاً؟ إنك تريد أن تكشف جبهتك على مرأى من العدو؟ إن هذا جميل جداً!

ـ لايزال العدو بعيداً يا صاحب السعادة العلية. إن الخطة...

قال كوتوزوف مستنكرً بلهجة غاضبة: الخطة! من الذي قال لك هذا؟... تفضل بالتقيد بما تؤمر به.

ـ كما تأمرون.

وهمس نيسـڤيتسكي في أذن الأمير أندريه قائلاً: إن العجوز يا عزيزي معتكر المزاج.

واقترب ضابط نمسوي في حلة بيضاء، في تلك الأثناء، والريشة الخضراء مغروسة في قبعته، ليقول لكوتوزوف على لسان الأمبراطور إن جلالته يسأل إذا كان الفيلق الرابع قد خاض الحركة.

ودون أن يجيب، التفت كوتوزوف. ووقع نظره صدفة على الأمير أندريه، فهدأت ثائرته، وكأنه أدرك أن ضابطه المساعد لم يكن على علاقة بكل تلك الحماقات. قال لـپولكونسكي بلهجة هادئة وهو يغفل عامداً الضابط النمسوي: إذهب يا عزيزي وانظر إذا كان الفيلق الثالث قد اجتاز القرية. قل لضباطه أن يتوقفوا بانتظار أوامري.

ولم يكد الأمير أندريه يتحرك نحو الوجهة التي أوفده إليها حتى رجع فاستوقفه ليضيف مزمجراً بين أسنانه مغفلاً النمسوي دائماً: واسألهم إذا كان الرماة قد أخذوا مراكزهم. استعلم عما يفعلون، عما يفعلون!

أسرع الأمير أندريه للقيام بمهمته. ولما اجتاز الألوية السائرة، استوقف الفيلق الثالث ولاحظ أن أي خط من خطوط القناصة لم يقم بعد على طول

جبهته ولا لحماية الفيالق المنطلقة. أظهر الكولونيل الذي يقود الفيلق الثالث دهشته للأمر الذي يحمله الأمير. كان يعتقد أن قطعات أخرى يجب أن تتقدمه وأن مرحلتين أو ثلاثاً على الأقل تفصله عن العدو. وكان محقاً في وجهة نظره لأنه لم يكن يرى أمامه إلا امتداداً شاسعاً للسهل الذي يسبح في الضباب. وبعد أن أوعز إليه باسم الجنرال القائد الأعلى، بتلافي الخطأ عاد الأمير أندريه إلى مركزه. كان كوتوزوف في مكانه، وقد استرخى جسمه الضخم على سرج الجواد، وكان يتثاءب مغمض العينين. أما القطعات فكانت هناك متوقفة وأسلحتها عند أقدامها.

قال كوتوزوف وهو يلتفت نحو الجنرال الذي كانت ساعته مفتوحة في يده يتطلع إليها وكأنه يلمح إلى أن لحظة الزحف قد حانت: حسن، حسن. لدينا الوقت الكافي يا صاحب السعادة، لدينا الوقت الكافي!

وعاد يتثاءب من جديد. كانت وحدات الجناح الأيسر كلها قد انحدرت إلى الوادي حسب الخطة المرسومة.

وتجاوبت في تلك اللحظة، وراء كوتوزوف هتافات ترددها أصوات بعيدة أخذت تقترب شيئاً فشيئاً، فاستدل من ذلك على أن الذي توجه إليه تلك التحيات يتحرك بسرعة نحوه مستعرضاً الفيالق. فلما راح جنود كوتوزوف على رأسهم يرددون الهتاف، تراجع هذا قليلاً إلى الوراء وألقى نظرة مستوضحة. شاهد كوكبة كاملة من الفرسان تتجه نحوه مسرعة قادمة من پراتزن. ورأى أن ألبسة أولئك الفرسان غير موحدة. وكان فارسان يهدبان في المقدمة، أحدهما يرتدي حلة سوداء وفي قبعته ريشة بيضاء، يمتطي جواداً محجلاً من أصل إنكليزي، والآخر، في زي أبيض معتلياً صهوة جواد أدهم. كان الأمبراطوران قادمين مع أفراد حاشيتهما. أسبغ كوتوزوف على وجهه

قسمات الجندي العجوز الذي يخضع للقوانين والأنظمة العسكرية وصرخ يأمر الجنود الواقفين: استا... عد!

تغيّرت وضعيته وكذلك أساليبه فأصبحت في لحظة أساليب المرؤوس الذي لا يفكر بل يطيع. وباحترام واضح، اقترب من الأمبراطور يحييه.

ظهرت تلك الحفاوة على غير ما يتمنى الأمبراطور. لكن ذلك الشعور لم يكن إلا سحابة عابرة ظللت وجهه فترة وجيزة ثم تبددت، أشبه ببقية من ضباب خفيف في سماء شديدة الإشراق. بدا الأمبراطور في ذلك الصباح أكثر نحولاً من المألوف، ولعل لانحراف صحته في الأيام الأخيرة دخلاً كبيراً في هذا الشأن. لقد رآه پولكونسكي يوم استعراض «أولموتز» وكان على أحسن حال. مع ذلك كان ذلك المزيج من الفتنة الطاغية والجلال متركزاً في عينيه الشهلاوين، وذلك الأسلوب المعبر مرتسماً على شفتيه الرقيقتين. وكان شبابه يطغى على كل هذه الصفات، ذلك الشباب النبيل. صحيح أنه كان أقل هيبة مما كان عليه في أولمتز، فقد كان أكثر ابتهاجاً وحيوية.

احمرّ وجهه بسبب الرحلة القصيرة على الخيل فاستعاد أنفاسه والتفت يتفحص وجوه بطانته التي كانت تضم كل شاب متوقد الوجه محمر مثله. وكان هؤلاء يتحدثون فيما بينهم مبتسمين. وكان بينهم كزارتوريسكي، ونوڤوسيلتسوف والأمير ڤولكونسكي وستروغانوف، وآخرون، وكل منهم طلق المحيا يرتدي ثياباً أنيقة تدل على محتده، وكلهم مبتهجون، على صهوات جياد مطهمة، مجهزة بسخاء، ونظيفة. توقف أفراد الحاشية على مسافة من الأمبراطور الذي لبث وحده إلى جانب زميله النمسوي الأمبراطور فرانسوا. وكان هذا شاباً ذا وجه طويل مشرب بالحمرة، منتصباً فوق صهوة جواده الأصيل، يسرح الطرف على مهل حوله وعيناه تشعان قلقاً. نادى أحد مساعديه، وكان مثله في ثياب بيضاء وطرح عليه سؤالاً. فقال الأمير أندريه

في سره: «لا شك أنه يسأله عن ساعة مغادرتهم القصر»، ولم يستطع كتمان ابتسامة طافت على شفتيه حينما تذكر مقابلته الشخصية معه. كان أفراد حاشية الأمبراطورين منتخبين من أشهر الفرسان الروس والنمسويين المنخرطين في أسلحة الجيش. وكان بعض فرسان الركاب ممسكين بأعنة خيول البدل، وهي من أهم أصناف الجياد التي تحفل بمثلها اصطبلات الأمبراطور.

تشبه تلك الكوكبة، المؤلفة من أهم الفرسان النفحة المنعشة التي تغمر الحقول وتدخل إلى غرفة كئيبة عبر النافذة المفتوحة. كان لها أثر عميق في نفوس أعضاء حرب كوتوزوف المتشائمين، الذين شعروا بنفحة من الشباب والثقة بالنجاح تتغلل في دمائهم.

سأل الأمبراطور ألكسندر والجنراليسيم كوتوزوف بصوت حي وهو يلقي نظرة امتثال على الأمبراطور فرانسوا: هه يا ميخائيل لاريونوڤيتش، ألا تبدأ؟

فأجاب كوتوزوف وهو يحييه تحية عميقة؟ إنني أنتظر يا صاحب الجلالة.

قطب ألكسندر حاجبه وانحنى فوق الجواد مدللاً على أنه لم يسمع الجواب. فكرر كوتوزوف الذي كانت شفته السفلى ترتجف بشكل غير عادي لم يغب عن دقة ملاحظة الأمير أندريه: إنني أنتظر يا صاحب الجلالة. فتركيز القطعات لم ينته بعد يا صاحب الجلالة. فهم الأمبراطور، لكن الجواب بدا على غير ما كان متوقعاً. فهز كتفيه المقوستين وألقى نظرة على نوڤوسيلتسوف وكأنه يشكو إليه كوتوزوف، وأردف: ولكن يا ميخائيل لاريونوڤيتش، لسنا في ساحة المناورات في تساريتسينو حيث ينتظر المرء هناك إن لم يتم تجهيز كل القطعات لبدء العرض.

عاد ألكسندر مجدداً يختلس النظر إلى الأمبراطور فرانسوا وكأنه يدعوه

للانتباه أقله إذا كان لا يرغب في المشاركة في الحديث. لكن الأمبراطور فرانسوا كان يجيل ناظريه بشرود دون أن يسمع شيئاً.

قال كوتوزوف بصوت قوي يبلغ مسامع الأمبراطور: إذا كنت لا أبدأ يا صاحب الجلالة فذلك لأنني في الحقيقة لست في ساحة المناورات ولا في عرض عسكري.

ومجدداً عادت الارتجافة الخفيفة تقلص تقاطيع وجهه.

وتبادل ضباط البطانة نظرات تنبئ باللوم والانزعاج. كانت وجوههم تقول: «مهما كان عجوزاً مسناً، كان يجب ألّا يتحدث بهذه اللهجة، كلا، ما كان يجوز له ذلك».

بدأ الأمبراطور يتفحص بدقة وجه كوتوزوف، منتظراً منه المزيد من التفسير. لكن هذا كان منحنياً بكل احترام يبدو وكأنه ينتظر بدوره. وساد الصمت حوالى دقيقة.

تابع كوتوزوف بعد أن استعاد طابع الجندي القديم الذي لا يعرف غير الطاعة دون مناقشة: على كل حال، إذا كنتم جلالتكم تأمرون...

ولكز جواده ليصدر الأمر بالهجوم إلى سيلورادوڤيتش.

وتحركت الكتل البشرية من جديد. تحرك لواءان من فيلق نوڤغورود ليمر أمام الأمبراطور وما لبث أن تبعهما لواء من فيلق ابشيرون. وبينما كان هذا اللواء يسير تحت أنظار الأمبراطور وحاشيته، انقض ميلورادوڤيتش على صهوة جواده، بوجهه المحمر، دون معطف، تزين صدره الأوسمة، والريشة الفاخرة الضخمة تنبت من قبعته، وأوقفه فجأة أمام الأمبراطور وهو ينحني محيياً بحركة رشيقة.

قال له ألكسندر: ليحفظك الله يا جنرال!

فأجاب هذا بمرح لم يمنع أفراد الحاشية من الابتسام ضاحكين من

ركاكة لغته الفرنسية: يا صاحب الجلالة، سنقوم بكل ما في وسعنا يا صاحب الجلالة!

لوى ميلورادوڤيتش عنان جواده بحركة مفاجئة وتوقف وراء الأمبراطور على بعد عدة خطوات، أما لواء الجنود، فمرّ أمام العاهل يستخف أفراده الفرح لوجوده، وهم يسيرون بخطى عسكرية تثير الإعجاب.

نسي ميلورادوڤيتش وجود الأمبراطور فصاح بجنوده: هيا يا شجعاني، أظهروا مقدرتكم من جديد، إنها ليست أول مرة!

كان صوت الرصاص المتطاير وقرب وقوع المعركة، بالإضافة إلى جنوده البواسل الذين خاض معهم معارك سوڤوروف من قبل، قد أثارت حميته واندفاعه حتى نسي كل ما حوله.

وصاح الجنود يرددون: سنعمل ما في وسعنا!

إثر ذلك الهتاف المدوي غير المتوقع الذي انبعث من مئات الحناجر شبّ جواد الأمبراطور. كان هذا الجواد الذي اعتاد الأمبراطور ركوبه في الاستعراضات في روسيا، يحمل سيده الآن إلى ساحة المعركة ويحتمل لكز مهماز قدمه اليسرى، فينصب أذنيه عند سماع أصوات الطلقات النارية كما كان يفعل في ساحة مارس (ساحة العرض)، دون أن يعرف شيئاً عما تعنيه تلك الطلقات وجواره مع حصان الأمبراطور فرانسوا. كذلك فقد كان كل ما كان فارسه يفكر فيه ذلك اليوم أو يقوله أو يشعر به، غير ذي أهمية بالنسبة إليه.

التفت ألكسندر نحو أحد خلصائه وأشار إلى لواء أبشيرون الباسل وأسر له شيئاً وهو يبتسم.

الفصل السادس عشر

تبع كوتوزوف ومعه ضباطه المساعدون الفيلق سيراً على الأقدام وفي مقدمهم حاملو الغدارات. وبعد اجتياز خمسمائة متر، توقف قرب منزل مهجور يبدو أنه كان خاناً قبل أن يهجره أصحابه. وكان ذلك المنزل قائماً عند ملتقى طريقين ينحدر كلاهما من الهضبة وتغطيهما الفرق الزاحفة في تلك الأثناء.

أخذ الضباب ينقشع وأصبح بالإمكان رؤية قطعات عدوة على التل المقابل في غير وضوح، على بعد نصف مرحلة. وازدادت طلقات البنادق وضوحاً في الجهة اليسرى المطروقة من قبل الجنود السائرين إلى الهدف. تبادل كوتوزوف بضع كلمات مع الجنرال النمسوي. وكان الأمير أندريه متخلفاً قليلاً يرقبهما بانتباه. طلب من أحد زملائه الضباط أن يعيره منظاره. وصاح: انظروا، انظروا.

وأشار بيده ليس إلى الأبعاد البعيدة بل إلى أسفل الهضبة التي كانوا عليها وأضاف: ها هم الفرنسيون!

تنازع المنظار جنرالان وعدد من الضباط المساعدين، وتبدلت أسارير وجوههم كلهم وظهر الخوف على قسماتهم. كان العدو الذي اعتقدوا أنه بعيد عنهم منتصباً أمامهم فجأة، وكانت الأصوات المتداخلة تقول: أهو العدو؟... مستحيل!... لكن بلى، انظر، إنه هو... ما معنى هذا؟...

وبالعين المجردة تمكّن الأمير أندريه أن يرى فيلقاً كبيراً من الفرنسيين

يتقدم للقاء لواء أبشيرون على أقل من خمسمائة خطوة من المكان الذي وقف فيه كوتوزوڤ.

قال الأمير أندريه في سره: «ها إن الدقيقة الحاسمة قد أزفت!» لكز جواده واقترب من كوتوزوڤ. وهتف: يا صاحب السعادة العلية، يجب إيقاف لواء أبشيرون!

كان المشهد كله في تلك اللحظة وسط سحابة كبيرة من دخان البارود. ولعلع الرصاص قريباً جداً. وفجأة ارتفع صوت على مسافة خطوتين من الأمير أندريه يصرخ بذعر: لقد قضي عليها أيها الشباب!

كان ذلك الصوت أشبه بالأمر حتى أن كل من سمعه لم يلبث أن لاذ بالفرار.

وقع ازدحام متزايد عكسيّ، متجه إلى حيث استعرض الأمبراطور الجنود الذين مروا أمامه منذ خمس دقائق. كان يستحيل إيقاف ذلك السيل الجارف بل يستحيل أن يتفادى المرء الانقياد إليه. أما پولكونسكي فكان يجهد على عدم البقاء في المؤخرة ويجيل حوله نظرات حيرى دون أن يعرف ما يجري. أما نيستـڤيتسكي، فكان غاضباً ملتهب الوجه خارجاً عن طوره، يصيح بكوتوزوڤ قائلاً إنه إذا لم يتراجع فإنه سيسقط في يد العدو. غير أن كوتوزوڤ لم يبارح موقفه، ولم يجب. بل أخرج منديله من جيبه ليمسح الدماء التي كانت تلطخ وجهه. فشق الأمير أندريه لنفسه طريقاً محاولاً الوصول إليه.

سأله وهو لا يكاد يسيطر على ارتجافة ذقنه من الانفعال: هل أنت جريح؟

فأجاب كوتوزوڤ: الجرح ليس في وجهي بل هنا!

وأشار بيده إلى الجنود الفارين بينما كانت يده الأخرى تمسح الدم بالمنديل. فصاح: أوقفوهم!

لكنه اقتنع فوراً باستحالة تنفيذ ذلك الأمر، فهمز جواده محاولاً بلوغ

الجانب الأيمن. غير أن موجة أخرى من الهاربين اكتسحته وأجبرته على العودة إلى الوراء.

بدأ هروب الجنود جماعات جماعات بلغ من كثافتها أن كل من يقع في سبيلها كان مصيره السحق إذا حاول المقاومة. كان أحدهم يصيح: «انج بنفسك، أسرع تحرك، ماذا تنتظر؟» وآخر يطلق النار في الفضاء وهو مدبر وثالث يضرب حصان كوتوزوف. فلما استطاع هذا الأخير ومن بقي معه من معاونيه، وكان عددهم قد تقلص إلى أقل من النصف، بمعجزة خارقة أن يتخلصوا من ذلك السيل الجارف، راحوا يستهدون بقصف المدافع القريب الذي كان يدوي في الجانب الأيسر.

وكان پولكونسكي يسعى بكل ما أوتي من قوة أن يلحق بكوتوزوف. لاحظ وهو في سبيل التخلص من الازدحام، مدفعية روسية تقصف حشداً فرنسياً لا يزال يهاجم مواقعها. كان عش المدفعية مقاماً في منتصف المسافة بين السفح والقمة. وكان الدخان يعلو في السماء كثيفاً. وفي الأعلى، شاهد فيلقاً من المشاة متوقفاً لا يحاول مدّ يد العون إلى المدفعية ولا يلتحق بالهاربين إلى المؤخرة. دفع الجنرال الذي كان يقود ذلك الفيلق، جواده نحو كوتوزوف الذي كان مساعدوه لا يتجاوز عددهم الأربعة، وكلهم ممتقعو الوجوه ينظرون بعضهم إلى بعض بصمت.

صاح كوتوزوف منهكاً وهو في أقصى درجات الإعياء: أوقف هؤلاء السفلة!

وأشار بيده إلى الهاربين. غير أن زخات من الرصاص تساقطت في تلك اللحظة على الفيلق الجامد وعلى كوتوزوف وحاشيته وكأن الغاية منها الاستهزاء بالأمر الصادر. كان الفرنسيون الذين يهاجمون عش المدفعية، قد شاهدوا ذلك الفيلق أثناء هجومهم، فجعلوا منه هدفاً لنيران بنادقهم. قبض

الجنرال على فخذه وتساقط عدد من الجنود. أما حامل العلم، فقد أفلت العلم من يديه، فترجح وهوى فوق بنادق الجنود الذين حوله. وانطلقت رصاصات أخرى دون أن يصدر أي أمر إلى الفيلق المنتظر.

زمجر كوتوزوف بلهجة يأس: آوه! أوه!

ثم أدار نظره حوله وهمس بصوت مرتعد صادر عن اقتناعه بعجزه وهو في شيخوخته: پولكونسكي، پولكونسكي، ما معنى هذا؟

وأشار بإصبعه إلى الفيلق المبعثر والعدو الزاحف.

بالكاد أنهى كوتوزوف جملته حتى كان پولكونسكي يقفز على صهوة جواده وقد تبلل بدموع الخجل والغضب، فاندفع نحو العلم يحمله وصاح ملء رئتيه: إلى الأمام أيها الفتيان!

فكر وهو يمسك بسارية العلم: «ها هي ذي اللحظة الحاسمة!» كان يسمع أزيز الرصاص حول رأسه بغبطة وابتهاج.

صاح من جديد: هورّا!

وعلى الرغم من ثقل العلم الذي كان يربكه، كان متأكداً أن الفيلق كله سيتبعه.

لم يكد يجتاز بضع خطوات منفرداً حتى لحق به جندي ثم تبعه آخر وبعدئذ انحدر الفيلق كله وكأنه سيل يصخب منحدراً نحو الأعماق. وبدأ الجنود يلقون صرخات الحرب ويعدون ولم يلبثوا أن تجاوزوه. ولما كان العلم يترنح بين يديه، فقد اقترب أحد صف الضباط ليأخذه منه. لكنه قتل على الفور. فعاد الأمير يجر العلم من ساريته ويتابع الزحف مع الفيلق.

كان يرى رجال المدفعية الروس أمامه وقد ترك بعضهم مدافعه بينما استمر الآخرون يطلقونها ورأى الفرنسيين يستولون على المدافع فيحولون اتجاهها ليطلقوها على رجاله. لم يبق بينه وبين عش المدفعية سوى عشرين

خطوة، والرصاص يلعلع حول رأسه بينما الجنود يزمجرون حوله ويسقطون. لكنه لم يكن مبالياً بكل هذا. كان كل همه منصرفاً إلى المدفعية. تبين مدفعياً أحمر الوجه وعلى رأسه قلنسوة مائلة إلى الجانب، يتنازع ملكية جهاز تفريغ المدفع مع جندي من الأعداء. كانا باديي الغضب، لا يدركان شيئاً مما يفعلان.

تساءل الأمير أندريه: «ماذا يفعلان؟ لماذا لا يفر «الأحمر» ما دام لم يعد يملك سلاحاً؟ ولماذا لا يخرق الفرنسي صدره بحربته؟ لو أن الفرنسي فكر في حربته لما وجد الآخر متسعاً للفرار».

أقبل فرنسي آخر في تلك اللحظة، وحربته على فوهة بندقيته، واقترب من المتخاصمين. كان مصير «الأحمر» الذي لم يكن حتى تلك اللحظة يعرف ماذا يفعل، يحاول بكل طاقته تخليص الجهاز من يد خصمه، لكن الأمير أندريه لم ير كيف انتهى النزاع. أحس بأنه تلقى على رأسه ضربة من عصا أهوى بها بعض من حوله بكل ما في طاقة البشر من قوة. لم يكن الألم شديداً، لكن ما أثاره وأزعجه، كان انصرافه بسبب تلك الضربة عن متابعة المشهد الذي كان يرقبه.

قال محدثاً نفسه: «ما هذا؟ أأسقط؟ أتخونني رجلاي؟» وهو على ظهره من فوق الجواد. عاد ففتح عينيه آملاً أن يتابع النظر إلى القتال العنيف الدائر بين الفرنسيين ورجال المدفعية، متعطشاً إلى معرفة ما إذا كان «الأحمر» قد قتل واستولى على «البطارية» أم لا. لكنه لم يعد يرى شيئاً. لم يكن فوق رأسه إلا السماء، سماء غائمة ولكن شديدة الارتفاع، تخفق على أديمها غيوم دكناء. فكر في نفسه: «يا للهدوء، يا للجلال، يا للسلام! يا له من فرق شاسع بين سرعتنا المجنونة وسط الهتافات، والغضبة السخيفة التي استولت على رجلين يتنازعان عصا تنظيف المدفع، وبين مشية الغيوم البطيئة على أديم هذه السماء

اللامتناهية! كيف لم ألاحظ هذا حتى اليوم؟ كم أنا سعيد لأنني اكتشفت ذلك أخيراً! أجل، إن كل شيء غرور وعدم، كان كذباً ونفاقاً باستثناء هذه السماء التي لا تحدها حدود. لا يوجد شيء مطلقاً، أي شيء، باستثناء هذا... ولعل هذا المشهد أيضاً هو ومضة خداعة، لعله لا يوجد شيء إطلاقاً، باستثناء السكون والراحة».

الفصل السابع عشر

لم يدخل الجناح الأيمن المعركة، وقد أزفت الساعة التاسعة، رغم إلحاح دولغوروكوف ومطالباته. كان باغراسيون لا يشاطره الرأي، لكنه يريد رفع المسؤولية عنه. لذلك عرض عليه أن يرسل من يأتي بالأوامر من لدن القائد الأعلى. هناك مسافة لا تقل عن ثلاثة أميال تفصل بين الجناحين. فإذا لم يقتل الرسول، وهو احتمال ممكن، وإذا استطاع بلوغ مكان الجنرال القائد الأعلى، وهو أمر شديد الصعوبة، فإنه لا يمكن أن يعود إلى حيث كان الجناح الأيمن إلا عند المساء. ولم يكن باغراسيون يجهل ذلك.

راح يجيل نظرات كئيبة في ضباط حاشيته، فاجتذب انتباهه وجه روستوف المشع بالانفعال والأمل. فانتقاه ليقوم بالمهمة المطلوبة.

سأل روستوف ويده لا تزال على حافة خوذته بالسلام: وإذا لاقيت صاحب الجلالة قبل التقائي الجنرال القائد الأعلى؟

فأجابه دولغوروكوف دون أن يتيح لباغراسيون مجالاً للرد: يمكنك أخذ الأوامر من جلالته.

لقد نال روستوف قسطه من الراحة عندما انتهت نوبته حوالى منتصف ليلة أمس، فكان يشعر بالراحة والاطمئنان، ممتلئاً حماسة مؤمناً بحسن مصيره، وباختصار، كان في عقلية تجعل كل شيء ميسوراً في نظره.

تحققت كل رغباته في ذلك الصباح. فثمة معركة ضارية على وشك الاندفاع وسوف يساهم في خوضها، وها هو ذا تابع لواحد من أكثر الجنرالات

بسالة، وأخيراً ها إنه يكلف مهمة إلى كوتوزوف، لعله يقابل فيها الأمبراطور. كان الصباح جميلاً وجواده ممتاز، نفسيته مبتهجة. فما إن تلقى الأمر، حتى اندفع بجواده مبتعداً. وبعد أن حاذى في جريه جيش پاغراسيون الجامد، بلغ المكان الذي كان فرسان أوڤاروف يرابطون فيه استعداداً لاشتراكهم في ا لعمليات العامة. ولما تخطى هؤلاء، طرقت أسماعه ضجة مبهمة ما لبثت أن توضحت، فإذا هي قصف عنيف من المدفعية تصحبه لعلعة تحدثها طلقات البنادق. ويزداد القصف والرصاص وضوحاً كلما ازداد اقتراباً.

كان الإرعاد مستمراً فوق تلال پراتزن في ذلك الصباح الهادئ الذي تعكره انفجارات متباعدة، إرعاد مرعب تساهم فيه المدافع والبنادق، فتجعل من الجو جحيماً. وكانت أدخنة الانفجارات تتوالى على طول سفح الهضبة، بينما الغيوم الكثيفة التي تخلفها طلقات المدافع تتناثر يختلط بعضها ببعض. وكان لمعان الحراب وسط ذلك الدخان يدل على كتل المشاة المتحركة، أما الخطوط الدقيقة التي كانت تتخللها، فقد كانت تدل على مكان المدفعيين وصناديق ذخيرتهم الخضراء.

ولكي يكوّن فكرة عن المعركة، أوقف روستوف جواده برهة. لكنه أخفق في مسعاه. كانت كتل المخلوقات تتحرك وسط الأدخنة وستائر من الفرق تنتشر في المقدمة وفي المؤخرة. ولكن من كان أولئك الجنود؟ وإلى أين كانوا ذاهبين؟ ماذا كانت نياتهم؟ يستحيل معرفة ذلك. لكن هذا المشهد لم يثبط عزيمته بل على العكس، أضفى عليه مزيداً من الشجاعة والعزم. كان يهيب بالانفجارات قائلاً: «كرر! كرر! بمزيد من القوة! بمزيد من القوة!».

لكز جواده فبلغ به جانب الجبهة الذي كان الجنود فيه قد بدأوا بالمساهمة في المعركة.

وتساءل في سرّه: «ماذا سيحدث هناك؟ لست أدري. مع ذلك فأنا واثق أن كل شيء سيكون على ما يرام».

تجاوز فيلقاً نمسوياً ووصل إلى المراكز التي يحتلها جنود الحرس. لكن هؤلاء كانوا يخوضون المعركة عند وصوله.

فكر في سره: «ذلك أفضل! سوف أشاهد المسألة عن قرب».

سار في محاذاة الخط الأول تقريباً، فوقعت عيناه على عدد من الفرسان ظهروا في تلك اللحظة. تبين أنهم كانوا بعض رماحي الحرس العائدين من المعركة مفككي الصفوف. ولما مروا بجانبه، رأى بوضوح أن أحدهم مغطى بالدم. فقال يحدث نفسه: «ماذا يهم!» ولما قطع بضع مئات من الخطوات، شاهد مفرزة كبيرة من الفرسان، كانت ثيابهم البيضاء تتعارض بشدة مع ألوان جيادهم. بدأ ظهور تلك المفرزة عن يساره وقد انتشر أفرادها على خط طويل يقطع الاتجاه الخلوي الذي كان يسير فيه، ولم يلبثوا أن اندفعوا نحوه. وكان روستوف يرغب في تجنب الاصطدامات ليقوم بمهمته، لذلك أرخى لجواده العنان، فراح هذا يسابق الريح.

لكن الفرسان بدورهم قاموا بحركة مماثلة حتى إن بعضهم راح ينهب الأرض نهباً بجواده. وأصبح وقع الحوافر أكثر وضوحاً وصليل الأسلحة قريباً وراءه. بل إنه أخذ يتبين أشكال الفرسان واتضحت معالم وجودهم. عرف فيهم فرسان الحرس الذين كانوا يقومون بهجوم معاكس ضد الفرسان الفرنسيين.

لم تكن جيادهم مطلقة الأعنة، وازدادت سرعتهم. سمع روستوف ضابطاً يصيح: «هدباً سر!» ورأى الفرسان يطلقون الأعنة لخيولهم، فتندفع هذه وكأن بطونها تلامس الأرض. وخشي روستوف أن تطأه سنابك الخيل

أو أن تقتحمه في هجومها. فراح يحث جواده على طول امتداد خط هجومهم حتى إنه لم ينج من الاصطدام بهم إلا بأعجوبة.

كان آخر الفرسان من الحرس الراكب، وهو عملاق، ذو وجه منقوش بالجدري، يعلو وجهه الغضب لمرأى هذا الفارس الذي جاء يعرض نفسه للسقوط بين حوافر جواده. وكانت نهاية روستوف حتمية، وقد شعر بضآلته إزاء هؤلاء الفرسان العمالقة، لولا أنه بقي محتفظاً ببداهته، فأهوى بسوطه بضربة قوية على وجه الجواد المندفع، الذي يعتليه العملاق. فشب الحيوان على قائمتيه وأرخى أذنه وأدار وجهه. لكن الفارس لم يمهله، بل همزه بشدة، فعدا على أحسن ما كان عدواً، ممدود العنق مشرع الذيل، لكن روستوف كان قد نجا.

ما كاد فرسان الحرس يبتعدون عن روستوف حتى سمع هذا الأخير هتافات قريبة. ولما استدار، رأى أن صفوفهم الأولى قد اشتبكت بصفوف العدو، ذوي شعارات الكتف الحمراء. ودّ لو يتابع مشهد المعركة، لكن مدفعاً انطلق في تلك اللحظة وتبعه آخر، وعلت سحب الدخان فحجبت الفرسان عن أنظاره. تردد فترة وهو بين راغب في الانضمام إلى ذلك الهجوم ومحجم عنه. كان هجوماً عنيفاً مستميتاً تجلت فيه البسالة النادرة، حتى إن الفرنسيين أنفسهم لم يسعهم إلا الإعجاب بأعدائهم الفرسان. ولقد علم بعدئذ أن كل أولئك الميامين الأبطال، زهرة الفرسان وزينتهم، كل أولئك الشبان المتأججة حماستهم، قد هلكوا في تلك المعركة باستثناء ثمانية عشر فارساً.

فكر روستوف في سره: «لمَ أغبطهم؟ سوف يأتي دوري ولعلني أجد فرصة مؤاتية أشاهد فيها الأمبراطور للحظة خاطفة!».

وتابع طريقه، فلما اقترب من الحرس الراجل، لاحظ من تعابير وجوه الضباط التي يمتزج فيها الجلال بالعطف والخشونة العسكرية، أنهم كانوا

هدفاً لنيران مدفعية العدو. لقد كانت تعابير الوجوه أبلغ في معانيها من أصوات القنابل وأزيز الرصاص المتطاير فوق الرؤوس.

وبينما كان يمر وراء إحدى الفرق، سمع بعضهم يناديه: روستوف.

أجاب دون أن يعرف صوت بوريس: ماذا هناك؟

فقال بوريس وابتسامة السعادة التي تنطبع على وجوه الشبان الذين خاضوا نيران المعركة للمرة الأولى، مرتسمة على وجهه: هه، ها نحن أولاء في الخطوط الأولى!

توقف روستوف وقال: حقاً! وماذا بعد؟

فقال بوريس وهو شديد الانفعال: لقد دحرناهم!

وفجأة أراد أن يثرثر. فبدأ يقص عليه نبأ فيلق الحرس الذي ما كاد رجاله يبلغون الأماكن المخصصة لهم حتى شاهدوا جنوداً آخرين يحتلونها. لقد ظنوا بادئ الأمر أنهم نمسويون. لكن أولئك الجنود الغرباء أمطروهم وابلاً من قذائف المدفعية. عندئذ أدركوا أنهم إزاء العدو، ورأوا أنفسهم بغتة في الخطوط الأولى وهم الذين ما كانوا يتوقعون لقاء العدو... لكن روستوف لم ينتظر نهاية القصة، بل همز جواده ومضى. صاح به بوريس: إلى أين؟

ـ عندي مهمة إلى جلالته!

وخيل إلى بوريس أنه يقول إلى سعادته، فقال: ها هو ذا.

وأشار إلى الغراندوق الذي كان على مسافة مائة خطوة منهما، مرتدياً خوذة الفرسان وسترتهم، مقطب الحاجبين، مرفوع الكتف، يصرخ محدثاً أحد الضباط النمسويين، الذي كان شاحب الوجه في ثوبه الأبيض.

ـ لكن هذا هو الغراندوق! إن مهمتي محصورة بين الأمبراطور والجنرال القائد الأعلى.

وهم بالابتعاد، لولا أن أسرع بيرج من الجانب الآخر، وكان على مثل

انفعال بوريس وحماسته. صاح وهو يريه رسغه الملفوف بمنديل تخضب بالدم: كونت، كونت، لقد جرحت في يدي اليمنى، مع ذلك فقد لبثت في الصف. إنني أمسك سيفي بيدي اليسرى يا كونت. لقد كان كل آل «فون بيرج» أبطالاً في أسرتي.

أضاف بيرج كلمات أخرى، لكن روستوف لم يسمعها لأنه كان قد ابتعد فعلاً.

وبعد أن اجتاز قفراً خالياً، قرر الابتعاد عن الصفوف الأولى ليتجنب الوقوع في طريق هجوم جديد. راح يسير على طول جبهة الاحتياطي من القطعات، مبتعداً عن المكان الذي كانت المعركة فيه على أشدها. وفجأة، رأى أمامه، على مؤخرة الفرق الروسية؟ رأى العدو يصلي الجنود الروس ناراً حامية. تساءل: «ما معنى هذا؟ هل التف العدو حولنا؟ مستحيل!» وارتعد فجأة خوفاً على مصير المعركة. وأردف يقول لنفسه: «مهما بلغ الأمر، لا يمكن الإفلات منه! يجب أن أكتشف الجنرال القائد الأعلى هنا، وإذا كان كل شيء قد فقد وانتهى. فإن واجبي يدعوني إلى الموت مع الآخرين».

في تلك اللحظة كان قد بلغ حدود قرية پراتزن حيث كانت تتزاحم أعداد هائلة من مختلف القطعات الفارة المتقهقرة دون نظام. وكلما توغل في السير ازداد شعوره القاتم بالنهاية المحزنة.

سأل في طريقه بعض الجنود الروس والنمسويين الذين كانوا يقطعون الطريق لكثافة أعدادهم: ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ على من تطلق النار؟

فأجابه الفارون بالروسية والألمانية والتشيكية، وهم لا يدرون من أمرهم شيئاً: الشيطان وحده يعرف! لقد قضي علينا! لقد فقدنا كل شيء!

وصاح أحدهم: الموت للألمان!

ليأخذهم الشيطان، أولئك الخونة!

بينما غمغم ألماني في لغته: إلى الشيطان هؤلاء الروس!

كان بعض الجرحى يجرون أنفسهم على جانبي الطريق، الشتائم والصيحات والزمجرات تختلط بعضها ببعض فترتفع عنها جلبة تصم الآذان. وكان صوت البنادق قد خبا. ففهم روستوف أخيراً أن تلك الطلقات كانت متبادلة بين الروس والنمسويين حلفائهم!

فكر روستوف: «ما معنى كل هذا؟ وهنا، حيث يمكن للأمبراطور أن يراهم بين لحظة وأخرى؟... لا يمكن ذلك... إن هؤلاء ليسوا إلا عصبة من السفلة... لأسرع في الابتعاد عنهم...».

لم يفكر إطلاقاً في هزيمة ساحقة يصاب بها الروس. شاهد القطعات الفرنسية متمركزة على هضبة پراتزن، ورأى المدفعية العدوة منصوبة تصب وابل قذائفها على مواطنيه، غير أنه لم يفكر في الهزيمة. كانت مهمته محصورة في إيجاد القائد الأعلى، فكان كل همه منحصراً في تلك المهمة، ولم يكن مباحاً له أن يقدر الواقع بل إنه لم يكن يريد ولا يستطيع مجابهة ذلك الواقع.

الفصل الثامن عشر

توقع روستوف أن يجد الأمبراطور وكوتوزوف القائد الأعلى بالقرب من پراتزن وفقاً للمعلومات التي حصل عليها أثناء الطريق. لكنه لم يعثر على هذا ولا على ذاك بل لم يجد هناك أي قائد مسؤول. اندفع بجواده الذي بدأت حوافره تؤلمه، محاولاً تخطي زمر الفارين من مختلف الأسلحة والجنسيات. لكنه كلما توغل في سيره، ازدادت الوحدات الهاربة كثافة.

شاهد على الطريق الأيسر الذي استطاع بلوغه، عدداً من العربات بين كبيرة وصغيرة ومن كل الأنواع، وحولها جنود روس ونمسويون بين سليمين من الجراح ومصابين. وكان هذا الحشر المخيف الذي تموج فوقه الأصوات المتنافرة في صخب مريع، يختلط مع مشهد العدو المتمركز فوق هضبة پارتزن، الذي يمطر الروس وحلفاءهم وابلاً من حممه، فيعطي صورة تحطم المعنويات.

كان روستوف يسأل الجنود عبثاً: أين الأمبراطور؟ أين كوتوزوف؟

أخيراً استطاع أن يطبق على ياقة أحد الجنود ليرغمه على الجواب. فقال الجندي مازحاً وهو يحاول التملص من قبضته: آه يا أخ! لقد كانت اللعبة حامية حتى أنهم هربوا جميعاً؟

شعر روستوف أن ذلك الجندي كان ثملاً. فتركه ليتصدى لفارس كان يبدو عليه أنه تابع أو خفير في خدمة إحدى الشخصيات المرموقة. ضيق عليه روستوف بالأسئلة، فأجاب الفارس أن الأمبراطور قد جرح جرحاً بالغاً أدى

إلى حمله في عربة سجّي فيها على صدره، وأن العربة سلكت هذا الطريق منذ ساعة:

فقال روستوف معترضاً: إنك مخطئ. إنه الجريح وليس الأمبراطور.

فقال الرجل وعلى شفتيه ابتسامة الواثق: كيف أخدع وقد شهدته بنفسي. أتعتقد أنني لا أعرف الأمبراطور! لقد شهدته مرات عديدة في پيترسبورغ. كان شاحباً كالأموات. لقد مرت العربة أمامنا تجرها أربعة أجياد. كان يجب أن ترى ذلك! أنا أعرف جياد القيصر وأعرف سائق عربته إيليا إيڤانيتش. لعل إيليا هذا يقود عربة غير عربة القيصر أو يحمل القيصر شخصاً آخر غيره!

أفلتت يد روستوف عنان الجواد. راح يتابع طريقه. وفجأة ناداه أحد الضباط الجرحى وقال له: عمن تبحث؟ عن القائد الأعلى؟ لقد قتل... نعم لقد أصابته القذيفة ملء صدره وهو على رأس فيلقنا.

فصحح ضابط آخر قول زميله: لم يقتل بل جرح.

فسأل روستوف: من الذي قتل أو جرح؟ أهو كوتوزوف؟

لا ليس كوتوزوف، بل الآخر... آه، لقد نسيت اسمه!... هذا غير مهم، إذ لم يبقَ منه إلا الأشلاء... هل ترى تلك القرية هناك؟ إذهب إلى هناك وستجد القادة كلهم مجتمعين.

وأشار الضابط إلى قرية غوستييراديك وابتعد.

سار روستوف الهوينا على جـواده وهو مرتبك. ترى هل جرح الأمبراطور؟ هل خسرنا المعركة؟ لم يكن ليصدّق كل هذه الأقوال. فاتجه نحو القرية التي كان جرس كنيستها يرتفع فوق الأبنية. ما فائدة العجلة؟ ماذا كان يستطيع أن يقوله الآن للأمبراطور أو لكوتوزوف؟ هذا إذا افترضنا أنهما كانا سليمين!

صاح به أحد الجنود: انعطف من هنا نبالتك. إن المكان خطير حيث تسير، وستقتل حتماً.

فقاطعه آخر: ماذا تقول؟ إلى أين يؤدي هذا الطريق؟ إن هذا الذي يسلكه أقرب من ذاك؟

توغل روستوف بعد فترة وجيزة، في الطريق الذي أنبأه الجندي بأنه سيقتل إذا سار فيه. قال يحدث نفسه: «ماذا يهمني أن أقتل الآن؟ إذا كان الأمبراطور جريحاً، فلمَ أوفر نفسي؟»

لقد مُني الفارون من جبهة پارتزن بخسائر جسيمة في تلك الأرض التي يجتازها. ولم يكن الفرنسيون يحتلونها بعد، رغم أن الروس، أو على الأصح، الأحياء من الروس والجرحى الذين سمحت لهم جراحهم بالانتقال، قد أخلوها منذ وقت طويل. كانت جثث القتلى مبعثرة على عشرة أو خمسة عشر متراً على سفح الهضبة، وكأنها حشائش نابتة في أرض خصبة. والجرحى الخطيرون يزحفون مثنى أو ثلاث وهم يطلقون صيحات مصطنعة أحياناً، كانت تترك في نفس روستوف أسوأ الأثر. دفع جواده إلى السير خبباً ليتفادى رؤية هؤلاء المصابين، وشعر بالخوف يستولي على كيانه: كان يخشى على شجاعته أكثر مما كان يخاف على حياته. كان في حاجة ماسة إلى تلك الشجاعة التي كانت تزايله كلما وقعت عيناه على جماعة من أولئك المناكيد.

توقّف قصف الفرنسيين على ذلك الحقل المغطى بالجثث بعد أن خلا من كل ما يستحق القصف. لكنهم ما إن رأوا الضابط المساعد حتى سددوا نحوه أحد المدافع وأطلقوا عليه عدداً من القذائف، أحدث صفير القنابل ورؤية الجثث المبعثرة، نوعاً من الذعر في نفس روستوف الذي أحس بإشفاق على نفسه تذكر رسالته الأخيرة إلى أمه وجوابها عليها. فكر في نفسه: «ترى ماذا كانت تقول لو شاهدتني هدفاً لهذه المدافع؟!».

بدأت الوحدات الروسية تفرّ من ساحة القتال وهي التي رآها في غوستييراديك ولكن في شيء من النظام. وكانت قنابل الفرنسيين لا تصل إلى هناك وأصوات البنادق تصل مختلطة، كان كل المحتشدين هناك على مختلف رتبهم يعلنون بصوت مرتفع أن المعركة قد انتهت. ولم يستطع أحد أن يعين لروستوف مكان كوتوزوف ولا مكان الأمبراطور. كان بعضهم يؤكد له أن الأمبراطور جريح، والبعض الآخر يكذبون تلك الإشاعة قائلين إن الرجل الشاحب الذي حملته عربة الأمبراطور لم يكن إلا الكونت تولستوي، ماريشال الحاشية الملكية الأكبر الذي رافق سيده إلى ساحة المعركة.

وزعم أحد الضباط أنه رأى شخصية كبيرة على يسار القرية. فاتجه روستوف حيث أشار الضابط ليريح ضميره. ولما اجتاز مرحلة صغيرة، تجاوز فلول الجنود الروس، شاهد فارسين يقفان قرب حفرة تحد بستان خضار. كان أحدهما يضع على رأسه قبعة غرست فيها ريشة بيضاء بدت أليفة في نظر روستوف، والآخر كان مجهولاً منه، يمتطي صهوة جواد محجل القوائم بديع الشكل، خيل إلى روستوف أنه شاهده من قبل في مكان ما. لكز هذا الأخير جواده، فقفز فوق الحفرة وإن كانت قائمتاه الخلفيتان قد احتكتا قليلاً بحافتها. ثم استدار إلى حيث كان ذو الريشة البيضاء، واجتاز الخندق من جديد ليحدثه بلهجة شديدة الاحترام، قدر روستوف أنه يدعوه إلى تخطي الخندق. غير أن هذا، وكان روستوف شاخصاً بعينيه إليه بدافع غريزي، أبدى إشارة من يده ورأسه تدل على رفضه الدعوة. وعندئذ، عرف روستوف أنه إزاء أمبراطوره المعبود، الذي كان يحس بألم شديد للمصير السيئ الذي بلغت إليه قواته في هذه المعركة.

وعاد يقول لنفسه: «ولكن مستحيل، لا، لا يمكن أن يكون الأمبراطور وحيداً هنا، في هذا السهل المقفر». وفي تلك اللحظة، أدار ألكسندر رأسه،

فرأى روستوف تقاطيع وجهه، المنقوشة على صفحة ذهبية، وعرفها. كان الأمبراطور ممتقع الوجه، لكن شحوبه، وخديه الغائرين، وعينيه الخابيتين، كانت تجعل وجهه أشد فتنة، وأكثر وداعة. ورأى روستوف بسرور بالغ أنه لم يكن جريحاً فكان سعيداً برؤيته سليماً. شعر أنه يستطيع أن يخاطبه مباشرة، بل إنه يجب أن يكلّمه ليحمل إليه رسالة دولغوروكوف.

وكما يرتعش العاشق ساعة اللقاء ويسيطر عليه الخوف فيطغى على إحساساته الحادة الجارفة التي طالما استقرت في أعماق نفسه، ويجعله يلقي حوله نظرات مذعورة، باحثاً عمن يساعده ويمنحه فرصة يسترد فيها روعه، كذلك كان روستوف، في تلك اللحظة، التي تحققت فيها أغلى أمنياته وأعزها على نفسه. كان يخشى الاقتراب من الأمبراطور ويقنع نفسه بألف حجة أن سلوكه سيكون معيباً، بل يستحيل تقبله.

كان يهمس في سره: «ماذا؟ إنني سأبدو أشبه بذلك الذي استغل فرصة وجوده وحيداً محطم المعنويات! لا شك أنه سيتألم لرؤية غريب يقترب منه في هذه اللحظات الكئيبة. ثم ماذا أستطيع أن أقول له وأنا الذي تكفيني نظرة منه لتسلبني القدرة على النطق والسيطرة على الأعصاب»؟

لم تحضره أيّ جملة من الجمل التي هيأها سلفاً لمثل هذه المناسبة، عندما كان يفكر في لقاء الأمبراطور وتوجيه الكلام إليه. وخصوصاً أن معظم تلك الجمل كانت موضوعة لتلائم مناسبات تختلف عن هذه كل الاختلاف. كانت تتعلق بساعات النصر والمجد وباللحظات التي سيتقبل فيها تهاني أمبراطوره، وهو جريح تحت قدميه، فيعرب له بدوره عن حبه العميق الذي برهن عليه بالتضحية بحياته.

وتابع يقول: «ثم ما هي الأوامر التي سأطلب إليه إصدارها بخصوص الجناح الأيمن والساعة الآن الرابعة مساء والمعركة قد ضاعت؟ كلا يجب

ألّا أقترب. ليس من حقي أن أقلق تأملاته وتفكيره. أفضل الموت ألف مرة على أن أوحي إليه فكرة سيئة عني، أو أن أراه يصوب إلي نظرة عدم رضاء» فلما بلغ روستوف هذا الحد من تقريره، ابتعد واليأس يملأ قلبه، وهو يلتفت بين الحين والآخر إلى حيث كان يقف أمبراطوره المفدى وهو لا يزال متردداً جامداً في موقفه.

وبينما يعود روستوف كسير الفؤاد حزين النفس وهو يفكر على ذلك النحو، مر من هناك رئيس يدعى ڤون تول، فاقترب من الأمبراطور عارضاً عليه خدماته، وساعده على تخطي الخندق راجلاً وكان ألكسندر مرغماً بسبب انحراف صحته على نيل قسط من الراحة، فجلس في ظلّ شجرة تفاح بينما بقي ڤون تول واقفاً بالقرب منه. رأى روستوف كل هذه الحركات عن بعد والمرارة ملء حنجرته، ورأى ڤون تول يحدث الأمبراطور بحرارة ورأى هذا الأخير يمد إليه إحدى يديه بينما حجب بالأخرى وجهه ليخفي عن عينيه مرأى الدموع التي انهمرت على خديه.

فكر روستوف: «تأمل، إنني كنت سأحل محل هذا في أداء هذه الخدمة!» كان الغضب يعصف بكيانه حتى أنه كان على وشك البكاء على الأمبراطور. تابع طريقه وهو لا يعرف إلى أين يتجه. كان يأسه يزداد عمقاً كلما اعترف بينه وبين نفسه بأن ضعفه الشخصي أدى إلى فقدان الفرصة الجوهرية التي كان يتلهف عليها.

يمكنه الاقتراب من الأمبراطور. بل كان يجب عليه أن يقترب منه؛ كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي تمكنه من إظهار تفانيه في سبيل أمبراطوره. لكنه أفلت الفرصة من يده. قال يحدث نفسه: «ماذا فعلت؟» لوى عنان جواده وعاد هرباً إلى حيث وجد الأمبراطور. لكنه لم ير هناك أحداً قرب الخندق ولا حوله. كانت عربات النقل والأمتعة والمهمات تملأ الطريق أنبأه أحد الجنود

أن كوتوزوف وأركان حربه هم على مقربة من القرية التي يسيرون بجانبها. فتبع روستوف الموكب الزاحف.

كان «سائس» كوتوزوف يسير في مقدمة الموكب يقود خيولاً مسرجة، ويسير وراءه عجوز من الخدم على ساقيه الملتويتين، لا يفصل بينهما إلا عربة نقل.

صاح السائس: تيت، هه! تيت!

فأجابه العجوز ذو القبعة وحيدة الجانب والسترة المبطنة بالفراء والساقين الملتويتين، ببساطة:

ـ ماذا تريد؟

ـ إذهب للقاء حبيبتك!

فزمجر العجوز وهو يبصق من الغيظ: أيها الغبي!

وراحا يتابعان طريقهما صامتين، ولكن الدعابة عادت تتكرر والعجوز يؤخذ بالنداء فلا يتجنب الجواب.

كانت المعركة عندما بلغت الساعة الخامسة مساء، قد ضاعت على كل الجبهات. استولى الفرنسيون على أكثر من مائة قطعة من قطع المدفعية واستسلم «بريبيسزوسكي» وفيلقه وخسرت الفيالق الأخرى أكثر من نصف جنودها فبدأت تنسحب بفوضى وصخب، بينما كانت بقايا فيالق لانغيرون ودوختوروف تتزاحم بجنون على شواطئ مستنقعات أوغويزد وعلى مداخل السدود.

وكانت المدفعية الفرنسية بعد ساعة تقريباً، تستهدف هذا المكان. كان الفرنسيون حينذاك يقصفون الجيوش الروسية المنهزمة من أعشاش مدفعيتهم التي نصبوها على مرتفعات هضبة پراتزن.

كان دوختوروف في الخطوط الخلفية، وآخرون يحاولون إعادة ترتيب

بعض الألوية ليوقفوا مدفعية العدو ومطاردة الفرسان الفرنسيين الفلول المتقهقرة. وقد حلّ الظلام. وعلى السد الضيق، سد أوغويزد، حيث أمضى الطحان العجوز ذو القلنسوة القطنية سنوات طويلة يصطاد السمك المحبوس بصنارته، بينما كان حفيده يداعب الأسماك الفضية المحبوسة في صفيحة من التنك، وهو حاسر الكم؛ على ذلك السد الذي عبر فوقه المورافيون بستراتهم الزرقاء وقلنسواتهم المصنوعة من القطيفة، طوال أعوام طويلة، يقودون عرباتهم المحملة بالقمح الذي كانوا يعيدونه وقد استحال دقيقاً أبيض، وعلت أثوابهم طبقة خفيفة من الطحين وغطت رؤوسهم وأقدامهم، على ذلك السد بالذات، كانت تتزاحم في تلك الساعة عشرات عربات النقل وجر المدافع، تسحق عجلاتها الصماء رجالاً شوه الرعب وجوههم وشل حركتهم، وتعجن سنابك الخيول جثث القتلى والمحتضرين. ويتقاتل الجنود فيما بينهم سعياً وراء الفوز بالعبور، الذي ما كان يتم أبداً، لأن القتلة كانوا بدورهم يقتلون ولما يتجاوزوا بعد خطوات معدودات.

كانت قذيفة تشق الفضاء بين كل عشر ثوان، لتنفجر وسط ذلك الازدحام المرعب، فتقتل وتجرح وتبعثر مئات من الأرواح وتلطخ بالدماء ثياب العشرات من الناجين. كان دولوخوف، وقد أعيدت إليه رتبته السابقة، يسير على قدميه على رأس قبضة من رجاله الناجين، والكولونيل قائد السرية على صهوة جواده.

وكان هذا النفر القليل هو كل من بقي على قيد الحياة من فيلق دولوخوف. كانوا يدفعون دفعاً من قبل كتل الفارين نحو مدخل السد: اضطروا إلى التوقف لأن جواداً سقط تحت عجلات عربة مدفع، وكان الجنود المذعورون يحاولون إخراجه ليفسح لهم في طريق العبور. فسقطت قذيفة وراءهم فقتلت رجلاً وجرحت آخر، فسقط هذا إلى الأمام، فتخضبت ثياب دولوخوف بالدماء.

واندفعت الزمر بجهد خارق خطوات إلى الأمام. لكنها ما لبثت أن توقفت.

كان كل منهم يقول في سره: «مائة خطوة أخرى وبعدها الخلاص. لكننا إذا بقينا هنا دقيقتين ضعنا!».

وصل دولوخوف المحصور في صميم الازدحام وسط السد، إلى الجانب الآخر بعد أن طرح جنديين أرضاً. وهناك تزحلق على جليد المستنقع الذي كان يغطي معظم سطحه.

صاح وهو يقفز قفزات خفيفة فوق الجليد الذي كان يتحطم تحت ضغط قدميه: هاتوا المدفع إلى هنا، فالجليد هنا يحتمل الثقل. هاتوه!

كان سطح المستنقع يحمل ثقل جسمه، لكنه كان واضحاً أنه سيتحطم بعد قليل، فكيف إذا أضيف إليه ثقل مدفع وعدد كبير من الجنود! بدأ الجنود المجتمعون قرب الشاطئ ينظرون إليه دون أن يستجيبوا لأوامره. وكان الجنرال منتصباً عند مدخل السد فوق صهوة جواده فرفع يده يحيط بها فمه، محاولاً التحدث إليه. لكن قذيفة مرت فجأة على ارتفاع خفيض، حتى أن كل الموجودين اضطروا إلى حني رؤوسهم لتفاديها. وارتفع صوت تخبط مكتوم، وشوهد الجنرال يسقط مع جواده في بحيرة من الدم. ولم يفكر أحد في رفعه.

ألوف الأصوات كانت تصيح بعد إصابة الجنرال دون أن يعي أصحابها شيئاً مما يقولون: على الجليد! على الجليد! هاتوا المدفع! هل أنت أصم؟ إلى الأمام، إلى الأمام فوق الجليد!

لقد وصل إلى مدخل السد ذلك المدفع الذي يطلب الجنود المخپولون من الذعر سحبه فوق الجليد، وكان الجندي الذي يقود عربته محجماً عن تلك المغامرة. لكن الجنود الفارين كانوا متجمهرين بالمئات على ضفاف المستنقع المتجمد. اندفع أحدهم فوق الجليد، فتحطم تحت وطأة قدمه. وعندما حاول تخليصها، سقط حتى وسطه في الماء المتجمد. وتوقف الصف الأول متردداً.

لكن الأصوات ظلت تصيح من الوراء: «على الجليد! لماذا تتوقفون؟ إلى الأمام!» وهكذا لم يجد سائق عربة المدفع بداً من السير خصوصاً وأن مئات الأيدي أخذت تلوح وتحث الجواد على السير، مصحوبة بزمجرات الرعب العنيف الذي كان مستولياً على كل النفوس.

انهال الجنود الأقربون بالسياط على جواد العربة ليرغموه على التقدم، وقرروا أخيراً مغادرة الضفة والسير فوق الجليد. فتقدموا ولكن، لم تلبث أن ارتفعت فرقعة هائلة مكتومة، ندت عن الجليد المتحطم، وسقط أربعون رجلاً في الماء وهم يجرون معهم إلى الهاوية، رفاقهم الذين تشبثوا بهم ليستعينوا بهم على النجاة من الغرق.

وراحت قذائف المدفعية تترى وتسقط على الجليد وفي الماء وغالباً على الكتل البشرية المتزاحمة فوق السد وعلى ضفاف المستنقع وجوانبه!

الفصل التاسع عشر

سقط الأمير أندريه فوق هضبة پارتزن وبقي هناك والعلم في يده. وكان الدم ينزف من جراحه بغزارة، وهو يزمجر متألماً بصوت ضعيف دون أن يعي.

عند المساء، توقف عن الأنين وفقد وعيه. لكن ألماً حاداً في رأسه ما لبث أن أعاده إلى الصواب.

أول فكرة راودته عند يقظته هي: «أين تلك السماء البعيدة التي لم أكن أعرفها من قبل والتي اكتشفتها اليوم»؟ ثم تساءل: «وهذا الألم أيضاً، أما كنت أجهله؟... نعم، لقد كنت أجهل كل شيء، إطلاقاً كل شيء... لكن أين أنا»؟

وسمع وقع حوافر جياد تقترب فأصغى. ودوت في أذنه عبارات فرنسية، ففتح عينيه. كانت تلك العميقة التي تسبح الغيوم فوق صفحتها، وتضفي على الجو لوناً لازوردياً، قائمة فوق رأسه. لم يدر رأسه ليرى نوع الأشخاص الذين كانوا يقتربون منه، رغم أن أصواتهم كانت تدل على أنهم توقفوا بالقرب منه.

كان الأمبراطور ناپليون، واثنان من ضباطه المساعدين، يقومون بجولة تفقدية في ساحة المعركة. وبعد أن أعطى أوامره بدعم المدفعية التي كانت تقصف السد والجنود المتراصين حوله، راح يتفحص وجوه القتلى والجرحى الذين تركوا في ساحة المعركة.

قال وهو ينظر إلى أحد القناصة الروس ملقى على الأرض ووجهه إلى التراب، مسود العنق وإحدى ذراعيه ممتدة قليلاً ومتخشبة: إنهم من أجمل الرجال.

ووصل أحد الضباط المساعدين موفداً من قيادة المدفعية التي تقصف أوغويزد فقال: لقد نفدت ذخيرة المدافع يا صاحب الجلالة.

فأجابه نابليون: قدموا مدافع الاحتياط.

مشى بضع خطوات وتوقف الأمير أندريه، الذي كان ممدداً على ظهره قرب سارية العلم الذي أخذ الفرنسيون القماش عنها، وقال وهو يتأمل وجه بولكونسكي: يا لها من ميتة جميلة.

فهم بولكونسكي أن الأمر متعلق به، وأن نابليون يتحدث عنه. لقد سمع منذ حين صوت أحدهم يخاطب المتكلم الحالي بلقب «صاحب الجلالة». لكن الكلمات كانت تصل إلى أذنيه على شكل دندنة خافتة تشبه طنين ذبابة. لم يلق بالاً إليها، ولم يهتم بفهم ما يقال. بل فقد قوة الذاكرة بعد حين. كان يشعر بنار تلتهب في رأسه، وأن الدم يغادر جسمه، وراح يتأمل السماء المرتفعة البعيدة، العالية المتسامية، كان يعرف أن نابليون، بطله المفضل، موجود بالقرب منه. لكن نابليون بدا له في تلك اللحظة، شديد التفاهة، إذا قيس بالمأساة الصاخبة الأليمة التي كانت تمثل في أعماق روحه، بين روحه والسماء الصافية. لم يعد يهتم بمعرفة أولئك الذين كانوا منحنين فوقه يتحدثون عنه، لكنه كان فرحاً لأنهم لا يتجاوزونه. كان يرغب في أن يمدوه بعون ليعيدوه إلى تلك الحياة التي بدت له رائعة، منذ أن اكتشف أخيراً عقيدته الجديدة. جمع قواه، أو ما تبقى من قواه، فاستطاع تحريك ساقه، وانطلقت أنة خافتة ملأ صوتها الناحب نفسه تحناناً!

قال نابليون: إنه حي! ليحمل هذا الشاب إلى عربة الإسعاف!

واستمر الأمبراطور في سيره ليستقبل الماريشال. لأن (لانّ)، الذي كان متجهاً نحوه باسماً ممسكاً بقبعته. هنأه الأمبراطور بفوزه وانتصاره الساحق.

لم يتذكر الأمير أندريه شيئاً مما جرى له بعد أن أمر نابليون بنقله على

عربة الإسعاف. سبب له نقله على المحفة واختبار عمق جراحه، إغماء طويلاً، فلم يعد إليه وعيه إلا عند المساء، وعندما كانوا ينقلونه إلى المستشفى في صحبة عدد آخر من الضباط الروس الجرحى. شعر خلال الرحلة أنه أفضل حالاً، واستطاع أن يجيل نظره حوله يتلفظ ببعض الكلمات.

قال أحد الضباط الفرنسيين وكان يرافق موكب الجرحى: يجب التوقف هنا.

كانت هذه أولى الكلمات التي سمعها پولكونسكي بعد أن استعاد الوعي. وأضاف الضابط: سيمر الأمبراطور من هنا بعد حين. ولا شك أنه سيكون مسروراً لرؤية هؤلاء الأسرى من الجرحى البارزين.

فقال ضابط آخر: لدينا الآن المزيد من الأسرى حتى أن الأمبراطور سيتذمر في وفرتهم، لدينا كل الجيش الروسي تقريباً.

فأجاب الضابط الأول: صحيح، لكن هذا، وأشار إلى ضابط في ثوب أبيض تابع للحرس الراكب، كان يقود فيلق حرس الأمبراطور ألكسندر كله.

عرف پولكونسكي أن ذلك الضابط الجريح كان ربنين الذي كان قد صادفه مرات عديدة في الأوساط الراقية، وإلى جانبه ضابط آخر من سلاح الحرس في العشرين من العمر.

اقترب ناپليون وأوقف جواده بالقرب منهم. سأل عندما وقع بصره على السجناء الجرحى: من هو الأرفع رتبة؟

فأجيب إن الزعيم الأمير ربنين.

سأله ناپليون وهو يلتفت نحوه: أأنت رئيس الحرس الراكب التابع للأمبراطور ألكسندر؟

لقد كنت أقود كوكبة من ذلك الحرس.

ـ لقد قام فيلقك بواجبه كاملاً.

ـ إن ثناء عسكري كبير خير مكافأة للجندي الصغير!

ـ أنا أمنحك إعجابي عن طيبة خاطر... لكن من هو هذا الشاب الراقد بالقرب منك؟

فأجابه الأمير ربنين إنه الملازم سوختلن. نظر إليه ناپليون وقال وهو يبتسم: لقد جاء يحتك بنا وهو ما زال فتى يافعاً!

فأجاب سوختلين بصوت متهدج: إن صغر السن لا يمنع المرء أن يكون شجاعاً.

ـ جواب بديع أيها الشاب، سوف تبلغ مرتبة سامية!

وُضع الأمير أندريه في الصف الأول من الجرحى ليكمل اللوحة التي شاء الضباط الفرنسيون رسمها لأمبراطورهم. ووقعت أنظار الأمبراطور عليه، واجتذبت هيئته انتباهه. تذكر أنه رآه من قبل في ساحة المعركة فسأل، وهو يناديه بعبارة: «أيها الشاب» التي احتفظ بذكراه في مخيلته مقروناً بها: وأنت أيها الشاب؟ كيف تشعر الآن أيها الباسل؟

ظلت عينا الأمير أندريه، الذي استطاع منذ حين، أن يوجه بضع كلمات إلى الجنود المرافقين، شاخصتين إلى وجه الأمبراطور، وقد غرق في الذهول والسكون... أحس بأن الأهداف التي تشغل بال ناپليون، تافهة حقيرة، وأحسّ بأن بطله بالذات شديد الضآلة في حمى انتصاره الحقير، إذا قيس على جلال السماء وعظمتها، تلك السماء الحافلة بالعدالة والخير، والتي اكتشفت حقيقتها في اللحظة الأخيرة. لذلك فلم يجد عبارة يحسن به أن يوجهها إليه.

بدا كل شيء لناظريه فانياً إذا قورن بالأفكار القاتمة السامية التي خلفها في نفسه نزف الدماء من جسده، والألم الحاد الذي أحس به، وانتظار الموت البطيء الذي تعرض له. ظلت نظرته غارقة في أعماق عيني ناپليون، يفكر في

غرور العظمة، وفي تفاهة الحياة الفانية، التي لا يمكن لأحد أن يدرك معناها، وبطلان الموت نفسه الذي كان مدلوله مغلقاً أبداً على مفاهيم الأحياء.

وعندما لم يتلق الأمبراطور جواباً من الأمير أندريه، استدار نحو رجاله وقال لهم آمراً: أريد أن يعنى بهؤلاء السادة وأن ينقلوا إلى مركزي. اطلبوا إلى طبيبي «لاري» أن يفحص جراحهم.

ولكز جواده بساقيه الاثنتين وعندما رأى واندفع ووجهه مشرق بالسعادة والرضى.

وعندما رأى جنود النقلات مدى عناية الأمبراطور بالجرحى، أسرع الذي سلب الأمير أندريه الصورة المقدسة الذهبية، يعيدها إليه. ولم ير الأمير أندريه ذلك الذي أعادها إليه، كما لم يشعر كيف وقع ذلك، لكنه فجأة شاهد الصورة فوق ثوبه العسكري ملقاة على صدره، ورأى سلسلتها الذهبية التي أحاطت أخته ماري عنقه بها بخشوع ورهبة.

تأمل أندريه الصورة، تساءل: «لماذا لا يبدو كل شيء واضحاً كما تؤمن به ماري؟ يا له من عزاء إذا عرف المرء أين يجد العون في هذه الحياة، وأدرك ما ينتظره فيما وراء القبر! يا للغبطة! ويا للهدوء الذي سأحس به لو استطعت القول: يا إلهي، رحمة بي!... ولكن لمن أتقدم بهذا الابتهال؟ ألتلك القوة غير المحدودة التي لا أستطيع توجيه الكلام إليها ولا أستطيع التعبير عن أفكاري بكلمات في وصفها، وهل هي العدم أو كل شيء؟ أم ترى لهذا الله الذي أراه هنا مؤطراً في هذه الصورة التي صنعتها يد ماري؟ لا شيء ثابتاً، إلا إذا اعتبرنا أن ما أعرفه ضئيل وأن ما أجهله جليل عظيم، وهذا الجزء الهائل غير مفهوم مني، ولكنه مع ذلك عظيم الأهمية».

وسار حاملو النقالات. كان پولكونسكي يشعر بآلام هائلة إثر كل رجة أو صدمة. ازدادت وطأة الحمى عليه وبدأ يهذي. كان خياله الملتهب بالحمى

مليئاً بشتى الذكريات. كانت صورة أبيه وزوجه وأخته، وذكرى تحنانه تلك الليلة الفائتة، ووجه ناپليون الصغير ومشهد السماء الصافية، كانت كل هذه المرئيات تدوي وتصطخب في رأسه وتفكيره.

ورأى نفسه في ليسيبا غوري، يعيش حياته بهدوء. لكنه ما كاد ينعم بتلك الحياة البيتية حتى ينتصب وجه ناپليون، ذو النظرة القاسية، وعلى سيمائه أمارات الاغتباط لتعاسة الآخرين، فيعيده إلى مهاوي الشك والألم. وعندئذ، يلقي نظرة إلى السماء الصافية، فتلهمه السلوان. وحوالى صباح اليوم التالي، كانت هذه الأحلام لا تزال تتزاحم في خياله، حتى أن الطبيب «لاري» أكد أن الظلمات الفكرية التي غرق فيها پولكونسكي والانحلال الكلي في قواه، لا تبرئه الحياة، كما يشفيه الموت نفسه!

أكد الطبيب قائلاً: إنه شخص عصبي سوداوي. لن ينجو من الموت.

وتُرك پولكونسكي لعناية سكان المنطقة أسوة بجرحى آخرين رئي أن شفاءهم لا أمل فيه.

الجزء الرابع

الفصل الأول

كان دينيسوف يريد زيارة أهله في ڤورونيج فاتفق مع روستوف الذي عاد مأذوناً في العام ١٨٠٦، على أن يترافقا حتى موسكو حيث يقيم عنده فترة من الزمن قبل رحلته إلى ڤورونيج. التقيا قبل المرحلة الأخيرة، فاحتفل روستوف بذلك اللقاء بأن شرب مع زميله ثلاث زجاجات ونام خلال بقية الرحلة نوماً عميقاً، منطوياً على نفسه في الزحافة. أما روستوف، فكلما ازداد قرباً من نهاية الرحلة، ازداد شوقاً في نفسه وبلغ صبره منتهاه.

فكّر في نفسه بنفاد صبر: «ألن نصل أخيراً؟ ألا نفتأ نمر في شوارع ودكاكين ومخابز ومصابيح وعربات! أمر لا يحتمل!» وكان إذ ذاك قد دخل موسكو بعد أن أشر على مأذونيته ومأذونية صديقه.

صاح ينادي دينيسوف وقد مال بجسمه إلى الأمام وكأنه يستحث سرعة الزحافة: دينيسوف، لقد وصلنا!... لا يزال نائماً، يا للحيوان!

أردف في شبه هذيان: هذه هي الناحية التي اعتاد «زاخار» الوقوف عليها بزحافته...

ها هو ذا زاخار بنفسه، ومع الجواد «إياه» الذي لا يبدله... وهذا هو الدكان الذي نشتري منه الحلوى... بسرعة، بسرعة أكثر!

سأل سائق الزحافة: أين يجب أن نتوقف؟

ـ أمام أكبر المنازل، في آخر الشارع... ألا تـرى!... إنه منزلنا... دينيسوف، دينيسوف، لقد وصلنا!

رفع دينيسوف رأسه وسعل، لكنه لم ينطق بكلمة.

سأل روستوف تابعه وكان جالساً على حاجز الزحافة: دميتري، إن النور الذي نراه يشع من منزلنا أليس كذلك؟

ـ تماماً، بل إنه ينبعث من مكتب أبيك على الضبط.

ـ إذن، لما يأووا إلى مهاجعهم بعد! ماذا ترى؟... لا تنسَ بصورة خاصة سترتي الهنغارية الجديدة التي يجب عليك إخراجها من الحقيبة فوراً.

وراح يحاول عقف شاربه الصغير الذي لما ينبت بعد. وتابع: أسرع، ضاعف السرعة!

وصرخ في أذن دينيسوف الذي عاد إلى النوم مجدداً تاركاً رأسه يترجح على صدره: ألن تستيقظ يا ڤاسيا؟

وللسائق رغم أن ثلاثة منازل فقط أصبحت تفصله عن داره: أسرع، سأمنحك ثلاثة روبلات ولكن زد سرعة جيادك.

اعتقد أن الجياد لا تتحرك. وأخيراً، مالت الزحافة إلى اليمين ودخلت الممرّ المؤدي إلى الدار. عرف روستوف حدود الرصيف، والطنف ذا الجص المكسر المتساقط. قفز من الزحافة وهي في سيرها وأسرع إلى الردهة فوجدها خالية. كان المنزل في جموده وصمته يبدو غير آبه لوصول القادمين. فكر وهو يتوقف متردداً منقبض الصدر: «آه! رباه! هل وقع مكروه؟» لكنه سرعان ما عاد إلى ركضه وصعد السلم أربعاً أربعاً، ذلك السلم الذي كانت درجاته المنحنية مألوفة لدي. كان لباب المدخل يحمل المقبض نفسه الذي عرفه قبل رحيله، ذلك المقبض الذي كانت قذارته تثير غضب الكونتيسة، والذي كان يتحرك بسهولة لقدمه. رأى شمعة تضيء الردهة الداخلية وميخائيل العجوز نائماً فوق صندوق فيها. أما بروكوپ، وهو الوصيف المرافق، العملاق الذي يستطيع رفع عربة من محورها الخلفي، فقد كان في خفّ منزلي. التفت عندما سمع

الباب يفتح، وأشرق وجهه الجامد المذعور. قال وقد عرف سيده الصغير: يا ملائكة النعيم، إنه الكونت الشاب! هل هذا معقول؟ آه يا عزيزي!

وأسرع بروكوپ مضطرباً إلى باب القاعة ليذيع النبأ. لكنه تماسك لحظة وعاد على أعقابه يسند رأسه الضخم كتف سيده الشاب.

سأله روستوف بعد أن خلص ذراعه: هل الجميع في صحة جيدة؟

ـ كل شيء على ما يرام! لقد تناولوا العشاء منذ حين. دعني أراك يا صاحب السعادة!

ـ صحيح أن كل شيء على ما يرام؟

ـ حمداً لله، حمداً لله!

نسي روستوف في اندفاعه صديقه دينيسوف. نزع فروته ودخل على أطراف قدميه إلى القاعة الكبرى المظلمة. كان كل شيء فيها كما تركه عند رحيله: غرف اللعب، والنجفة وكل الأشياء المألوفة. ويبدو أن بعضهم قد رآه، لأنه ما كاد يصل إلى الغرفة الصغيرة حتى انقض أحدهم عليه كالإعصار قادماً من باب جانبي، فطوقه وراح يغمره بالقبل. وجاء ثان وثالث كأن الأرض قد انشقت عنهما، وعاد العناق والقبل على أشدهما، وارتفعت صيحات التعجب والفرح وانسفحت دموع الغبطة. لم يكن يعرف أيهم أبوه وأي المهاجمين ناتاشا أو پيتيا. كانوا يصرخون معاً ويتحدثون ويعانقونه. لكنه استطاع التنبؤ بأن أمه ليست بينهم.

ـ وأنا الذي ما كنت أنتظر وجودك... نيكولا، يا صديقي!

ـ هو ذا طفلنا الجميل!... هذا الصغير العزيز!... كم تبدل!... أسرعوا إليّ بالشموع والشاي!

وأنا يا حبيبي، وأنا!

أحيط به من جديد احتضنته الأذرع، وتناقلته الصدور، فمن سونيا إلى ناتاشا وبيتيا وآنّا ميخاييلوڤنا، وڤيرا والكونت العجوز، فالخدم والوصيفات.

صاح بيتيا وهو متعلق بساقيه: وأنا، وأنا!

أما ناتاشا، فكانت مطبقة على خرج سترته تلتهمه بالقبل، ثم تركته فجأة وراحت تدور حول نفسها وتطلق صرخات عالية.

كل النظرات مفعمة بالحنان، والعيون مبللة بالدموع، والشفاه متعطشة إلى القبل.

كانت سونيا محمرة الوجه كالزهرة البرية الحمراء، متفجرة بالسعادة، ممسكة بذراعه تبحث عن عينيه لتستجديهما نظرة. كانت قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها، وازدادت جمالاً وخصوصاً في تلك اللحظة التي كانت السعادة تضطرم في أعماقها وتشرق من عينيها. كانت تتأمله باسمة. خصها بنظرة منفعلة. لكنه ظل يبحث عن شخص آخر، ذلك أن الكونتيسة لم تظهر بعد بين الحاضرين. وأخيراً ارتفع وقع خطوات قرب الباب. كانت خطوات مسرعة لا يمكن أن تكون لأمه.

قد كانت هي القادمة. بدت في زينة لم يرها روستوف من قبل. أفسح لها الجميع في الطريق أسرع «هو» للقائها. ارتمت الكونتيسة على صدر ابنها وراحت تبكي. لم تكن تستطيع رفع رأسها، بل زاحت تضغطه بشدة على الأشرطة المذهبة التي تحلي سترته.

دخل دينيسوف إلى القاعة دون أن يشعر به أحد، ووقف مباعداً بين ساقيه يتأمل ذلك المشهد وهو يدلك عينيه.

قال يقدم نفسه جواباً عن نظرة الكونت المستفسرة التي حطت عليه بعد طول تنقل: ڤاسيلي دينيسوف، صديق ولدك.

فقال الكونت وهو يبسط ذراعيه ويعانق صديق ابنه: تماماً، لقد حدثني

نيكولا عنك في رسائله، ... أهلاً بك بيننا! ناتاشا، ڤيرا، هذا هو، هذا دينيسوف.

تحولت الأنظار المبتهجة السعيدة إلى شخص دينيسوف الضخم وأحاطت به.

زمجرت ناتاشا، وقد أخفقت في ضبط شعورها، وارتمت على عنق دينيسوف دون وعي: آه، أيها العزيز، دينيسوف العزيز!

ارتبك الحاضرون لطيش الفتاة واحمر وجه دينيسوف ثم ابتسم وأمسك بيد الفتاة المتحمسة وقبلها. ثم اقتيد إلى الغرفة التي خصصت له، بينما اجتمع أفراد الأسرة في المخدع ملتفين حول نيكولا

جلست الكونتيسة قرب ابنها ممسكة بيديه توسعهما تقبيلاً، واحتشد الآخرون حولهما يراقبون حركات نيكولا ونظراته ويحصون عليه كلماته، شاخصين إليه بأنظارهم المفعمة بالابتهاج. وتزاحم أخوه الصغير مع أخواته يتنافسون على أقرب المقاعد إلى أخيهم الأكبر، ويتنازعون شرف تقديم الشاي إليه أو المنديل أو الغليون.

لا يمكن أن توصف سعادة روستوف وهو يرى نفسه موضع هذا العطف والحب. غير أن اللحظة الأولى التي مرت على لقائهم بلغت من تسامي العاطفة مبلغاً جعلته ينظر إلى الدقائق التي بعدها وما رافقها من أحاسيس، نظرته إلى شيء تافه في مضمونه، وحفزته إلى التطلع إلى المزيد.

نام المسافران نوماً عميقاً بعد رحلتهما الشاقة فلم يستيقظا إلا بعد العاشرة من صباح اليوم التالي.

تراكمت السيوف في الغرفة التي تليها غرفتاهما، وجيوب الذخيرة والحقائب المفتوحة والأحذية الملطخة بالوحول. وجاء خادم بزوجين من الأحذية المنظفة الملمعة فوضعهما قرب الجدار، وآخر يحمل الصحاف

والماء الساخن لإزالة اللحية، وثالث يحمل الألبسة النظيفة. أما الغرفة فكانت رائحة الرجل والتبغ تفوح فيها.

ارتفع صوت ڤاسيلي دينيسوف، الأجش صائحاً: هيلا! يا غريشكا، إليّ بغليوني! وأنت يا روستوف، كفاك نوماً!

فرك روستوف جفنيه اللذين ألصقهما النعاس وانتزع رأسه من الوسادة الدافئة وغمغم متسائلاً: استيقظ؟ هل الوقت متأخر؟

فأجابه صوت ناتاشا: طبعاً. لقد أشرفت الساعة على العاشرة.

وارتفع من الغرفة المجاورة حفيف الأثـواب، وتعالت الهمسات والضحكات المجلجلة، بينما كان الباب الموارب يكشف عن شيء أزرق وأشرطة وشعور سوداء ووجوه مرحة كانت ناتاشا قد وصلت بصحبة سونيا وپيتيا تترقب نهوض أخيها من نومه.

كررت ناتاشا نداءها وهي واقفة بالباب: انهض يا نيكولا، انهض! حالاً!

وفي تلك الأثناء، وقع نظر پيتيا على السيوف، فحمل واحداً منها، وهو يشعر بالحماسة البريئة التي تستحوذ على نفوس الفتيان الصغار حيال المظاهر الحربية التي يتمتع بها الكبار، وفتح الباب على مصراعيه مغفلاً التقاليد التي لا تسمح لأخواته برؤية الرجال وهم نصف عراة، وصاح: أهذا حسامك؟

قفزت الفتيات إلى الوراء وذعر دينيسوڤ لهذه المفاجأة وبادر إلى إخفاء رجليه المملوءتين بالشعر تحت الغطاء وهو يلقي نظرة متطيرة على رفيقه. ولما مر پيتيا، أغلق الباب وارتفعت وراءه القهقهات. سمع صوت ناتاشا يقول: سيخرج نيكولا في معطفه المنزلي!

بينما كرر پيتيا سؤاله غير عالم بما فعل: أهو حسامك؟

واستدار إلى دينيسوف وأردف يسأله باحترام متأثراً بمشهد شاربيه الأسودين الكبيرين: أم هو حسامك أنت؟

ارتدى روستوف معطفه المنزلي على عجل وانتقل خفاً وخرج. وكانت ناتاشا قد ربطت المهاميز بزوج من الأحذية وراحت تهيئ الآخر. أما سونيا فكانت تدور حول نفسها يستخفها الفرح. كانت هي وناتاشا ترتديان ثياباً زرقاء فاتحة اللون. وكانتا باسمتين متوردتي الخدود ممتلئتين حيوية. نفرت سونيا عند مرأى نيكولا، بينما قادت ناتاشا أخاها إلى الغرفة وراحت تثرثر معه. لم يجدا قبل هذه اللحظة فرصة مواتية ليتطارحا ألوف الأسئلة الصغيرة التي لا تخص إلا سواهما. فلما سنحت، انتهزاها، وراحت ناتاشا تضحك بعد كل كلمة تتفوه بها أو تخرج من فم أخيها. ولم يكن مرد الضحكة الدعابة التي يتبادلانها، بل كانت بهجة ناتاشا ومرحها هما الدافعان، ولم تكن تستطيع الإعراب عنهما إلا بالضحك. كانت تقول في كل لحظة: آه! كم هذا جيد! كم هو بديع!

وهكذا منذ ثمانية عشر شهراً، شعر روستوف لأول مرة بأن ابتسامة الصبا التي فارقت وجهه منذ ذلك الحين، تعود فتغمر وجوده وتشرق في عينيه تحت تأثير ذلك السيل الجارف من الحنان الذي كانت ناتاشا تغدقه عليه. قالت له: اصغِ إليّ، ها أنت قد أصبحت رجلاً حقيقياً! كما أنا سعيدة إذ تكون أنت أخي!

ولمست شاربه الصغير وتابعت: آه! كم وددت لو عرفتكم معشر الرجال! هل تشبهوننا في شيء! كلا؟

سألها روستوف: لم نفرت سونيا؟

ـ آه، لكن هذه وحدها قصة طويلة! وبهذه المناسبة هل ستعود إلى مخاطبتها بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع؟

ـ سأخاطبها كما يدور على لساني.

ـ بل أرجوك أن تقول لها «أنتن» بدلاً من «أنت». سأفسر لك السبب فيما بعد. بل سأقوله لك على الفور. أنت تعرف أن سونيا صديقتي، وأن صداقتنا عميقة حتى أنني على استعداد لحرق ذراعي من أجلها. خذ، انظر.

رفعت كمّ ثوبها المصنوع من «الموسلين» وأشارت إلى بقعة حمراء على ذراعها الطويلة النحيفة، قرب الكتف، في موضع لا يظهر حتى ولو كانت مرتدية ثياب الحفلات الراقصة. أردفت: حرقت ذراعي بنفسي لأدلل لها على صداقتي المتينة. لقد أحميت مسطرة وألصقتها هنا.

شعر روستوف وهو في مجلسه في قاعة الدرس القديمة على كنبة ذات ذراعين تغطيها الوسائد الصغيرة، ونظرات ناتاشا الدافئة تغمره، بأنه عاد إلى عالمه العائلي، الذي لم يكن يعني بالنسبة إليه شيئاً، لكنه يزخر بتلك المتع العميقة التي طالما تذوقها، لذلك فإن مغامرة المسطرة الحامية وإحراق الذراع بها إشارة إلى الصداقة المتينة، لم تكن تافهة في نظره. كان يفهم أسبابها ولا يدهشه ذلك التصرف. سألها:

ـ وماذا؟ لا شيء آخر؟

ـ آه! ليتك تدرك مدى ما نحن عليه من صداقة! إن مسألة المسطرة ليست جدية أبداً... لكننا صديقتان، صديقتان إلى الأبد... وهي، عندما تحب أحداً، فإنما تحبه إلى الأبد. لكنني لا أفهم هذا، بل أنسى كل شيء على الفور.

ـ وماذا بعد؟

ـ حسناً، إنها تحبنا، أنت وأنا، على هذا النحو...

ثم احمرّ وجهها فجأة وأردفت: هل تذكر قبل رحيلك؟... حسناً، إنها تطلب إليك الآن أن تنسى كل شيء... لقد قالت لي: «سأحبه إلى الأبد. أما هو، فليكن حراً!» إن هذا شيء رائع! النبل! نعم إنه نبيل أليس كذلك! ألا تجده كذلك؟

أصرّت وألحّت بتلك اللهجة المنفعلة التي تدل على أن ما قالته الآن هادئة قالته من قبل وهي تبكي.

فكر روستوف فترة وقال: إنني لا أسحب كلمتي، ثم إنها شديدة الجمال حتى إن المرء يجب أن يكون غبياً إذ يرفض أن يكون سعيداً!

صاحت ناتاشا: كلا، كلا. لقد تحدثنا من قبل في هذا الشأن. كنا نعرف أنك ستقول مثل هذا القول. لكنه يجب ألّا يكون كذلك. ألا تفهم، إنك إذا اعتبرت نفسك مرتبطاً بوعدك، فسيبدو ذلك وكأنها أثارته معتمدة. وعندئذ لا بدّ أن تعتقد في فترة ما بأنك إنما تزوجتها بدافع من الواجب. ولن يكون الأمر كذلك.

أحس روستوف بوجاهة هذا المنطق السليم. لقد أذهله جمال سونيا مساء البارحة، فلما رآها هذا الصباح، بدت لعينيه أكثر جمالاً رغم قصر الفترة التي استطاع خلالها أن يتأمل جمالها. كانت تلك البنية التي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها تحبه حباً كبيراً، ولم يكن عنده شك في ذلك. ولكن، لمَ لا يحبها هو الآخر؟ بل لمَ لا يتزوجها أيضاً؟ بيد أن متعاً وانشغالات كثيرة كانت تنتظره في تلك الظروف! فقال لنفسه: «نعم، إنهما على حق، من الخير أن أبقى حراً».

قال لأخته: حسناً، كما تريدين! سوف نعاود البحث في هذا... آه! كم أنا سعيد برؤيتك!... لكن، نبئيني، لعلك أقله لم تخوني بوريس؟

فصاحت ناتاشا ضاحكة: هذه حماقات! أنا لا أفكر فيه ولا في أحد سواه.

ـ مستحيل! في أي شيء تفكرين إذن؟

فقالت ناتاشا ووجهها يزداد إشراقاً: أنا؟ هل شاهدت دوبور[1].

---

(١) راقص فرنسي شهير معروف في روسيا. (المترجم).

ـ كلا.

ـ دوبور الشهير، الراقص، ألم تره قط؟ إنك إذن لن تفهم. أنظر.

أدارت ناتاشا ذراعيها وأمسكت بثوبها على طريقة الراقصات وابتعدت راكضة ثم استدارت وقامت بقفزة صغيرة ضربت خلالها قدميها مراراً في الفضاء قبل أن تمس بهما الأرض (وتلك طريقة كان يبدأ بها الراقصون) وخطت بضع خطوات جرياً على رؤوس أصابع القدمين.

قالت مفسرة وقد عجزت عن الاستمرار في وقفتها الفنية: لقد استطعت الوقوف على رؤوس أصابعي أليس كذلك؟ هذا ما سأكونه! لن أتزوج أبداً، سأصبح راقصة. ولكن لا تتحدث بهذا إلى أحد.

انفجر روستوف ضاحكاً ضحكة بلغت من صفائها حداً جعل دينيسوف الذي سمعها في غرفته، يغار منه، ودفعت ناتاشا إلى الاستجابة لها فجارته بضحكة مثلها. كررت بإلحاح: أليس هذا بديعاً؟

ـ بلى، إنه بديع. لكنك لن تستطيعي بعدئذ الزواج من بوريس.

احمر وجه ناتاشا وقالت: أكرر القول إنني لا أريد الزواج بأحد!... وسأقول له ذلك متى قابلته.

فقال روستوف مستهزئاً: أصغوا إلى هذا القول! يا له من كلام!

ـ على كل حال إنه ضرب من الغباوة... قل لي هو لطيف دينيسوف هذا؟ بل شديد اللطف.

ـ حسناً... إلى اللقاء. إذهب وارتد ملابسك... أليس دينيسوف هذا شديد الرهبة؟

ـ رهيب، ڤاسكا؟ أبداً. إنه شاب جميل.

ـ هه، أتسميه ڤاسكا؟.. ذلك مضحك... إذن، إنه لطيف جداً؟

ـ كل ما في العالم من لطف.

ـ هيا إذن أسرع. سنتناول الشاي كلنا معاً.

واجتازت ناتاشا الغرفة على رؤوس أصابع القدمين كما تفعل الراقصات مع فرق واحد، وهو أن الابتسامة التي كانت على شفتيها، لا يمكن أن ترتسم إلا على شفاه الفتيات السعيدات إذا كنّ في مثل سنها.

عندما دخل روستوف القاعة، احمر وجهه وظهر الاضطراب عليه عندما وقع نظره على سونيا، وارتبك في انتقاء النهج الذي سيجري عليه في معاملتها. لقد تعانقا أمس في غمار الفرحة الأولى والتحرر من القيود الذي سببته عودته المفاجئة. لكنهما كانا في ذلك الصباح يعرفان أنه يتعذر عليهما انتهاج سبيل البارحة. أحس نيكولا بنظرات أمه وأخواته المستفسرة تنصبّ عليه. كان الموجودون يتساءلون عن السلوك الذي سيعمد إليه في حضرتها. انحنى على يدها يقبلها وخاطبها بصيغة الجمع. لكن عيونهما كانت تتلاقى فتتخاطب بصيغة المفرد، وتتبادل أعذب القبل. كانت نظرات سونيا تسأله المغفرة لأنها جرؤت على تذكيره بوعده عن طريق ناتاشا وتشكوه على استمراره في محبتها. أما عينا نيكولا، فكانتا تشكرانها لأنها أعادت إليه حريته وتفهمها أنه سيظل يحبها لأنها كانت من اللاتي لا يمكن للمرء إلا أن يحبهن.

انتهزت ڤيرا فترة سكوت الحاضرين وقالت: إن هذا مضحك. ها إن سونيا ونيكولا يتخاطبان بصيغة الجمع الآن وكأنهما غريبان!

جاءت ملاحظتها وجيهة كعادتها، لكنها أيضاً، أحدثت أثراً سيئاً في نفوس الحاضرين. ولم يقتصر هذا الأثر على نفس سونيا وناتاشا ونيكولا وحدهم، بل تعداه إلى الكونتيسة التي احمرّ وجهها كالفتيات، خشية أن تحرم تلك العاشقة الصغيرة، ابنها العزيز نيكولا «صفقة» زواج مغرية!

دخل دينيسوف، في تلك اللحظة، فكانت دهشة روستوف لا توصف إذ رأى صديقه معطراً مزيناً في ثوب جديد، في مثل الرشاقة والأناقة التي كان عليها يوم المعركة، ورآه بمزيد من الدهشة، يتجه إلى السيدات وينخرط معهن في حديث شيق.

الفصل الثاني

استقبل أقارب روستوف ابنهم على اعتباره شاباً مرموقاً رفيع التربية كما استقبلته عائلته ابناً عزيزاً وبطلاً في الحرب. ورحّب به أصدقاؤه في موسكو كملازم شاب من الفرسان الأبطال، وكراقص رائع وواحد بين أفضل من ترجو الأمهات الفوز به زوجاً لبناتهن في العاصمة.

في ذلك العام وبفضل تجديد عقود رهن أملاكه، كانت نقود الكونت العجوز متوافرة. بذلك استطاع نيكولا أن يعيش حياة جميلة. فكان يمتطي كل يوم صهوة جواد خاص مطهم ويرتدي سراويل الفرسان من آخر ابتكار ولم يكن أحد يرتدي مثلها في موسكو ـ وينتعل أحذية عالية «لم تتوصل صناعة الأحذية إلى أفضل منها»، دقيقة الرأس بمهمازين فضيين صغيرين مثبتين في أعلى الكعبين. كان روستوف يتلذذ بالعودة إلى الحياة الأولى التي انتزع منها منذ عامين وهو أكثر خشونة وأمتن عوداً، كانت مغامراته القديمة: انزعاجه لتخلفه عن فحص التعليم الديني وقروضه الصغيرة من الحذوي غافريل والقبلات التي كان يختلسها من سونيا، تمثل في خياله الآن على صورة أفعال صبيانية بعيدة جداً.

أصبح اليوم ضابطاً برتبة ملازم في سلاح الفرسان، يحمل صليب سان جورج على سترته المزينة بأشرطة رتبته الفضية، ويدرب جواده استعداداً للاشتراك به في سباقات تضم هواة مشهورين ورجالاً وقورين ذوي نفوذ؛ وقد تعرف أخيراً إلى سيدة تقطن في «البولـڤار» راح يستمر في زيارتها

في الأمسيات؛ وأصبح يقود المازور كافي سهرات آل أرخاروف الراقصة ويتحدث عن الحرب مع الماريشال كامنسكي ويتردد إلى النادي الإنكليزي ويتحدث بصيغة المفرد مع زعيم في الأربعين من عمره قدمه دينيسوف إليه.

لم يعد إعجابه بالأمبراطور الذي لم يره منذ تلك الحوادث مثلما كان سابقاً. مع ذلك فإنه كان عندما يتحدث عنه، الأمر الذي كان كثير الوقوع، يوحي إلى السامعين بأنه لا يتحدث عن كل ما يعرف، بل إن في عواطفه حياله جانباً سرياً لا يمكن للناس العاديين اكتشافه. وكان يشاطر أهالي موسكو تعلقهم بألكسندر الأول الذي كان يبلغ درجة العبادة، حتى إنهم أطلقوا عليه اسم «الملاك المتأنس»، أي المتقمص شكلاً ناسوتياً ليراه البشر.

أدت هذه الإقامة القصيرة في موسكو إلى التباعد بينه وبين سونيا. كانت سونيا جميلة جداً، لطيفة، يشع الحب من عينيها، لكن روستوف كان، حسب زعمه، في تلك السن التي يجد الشاب فيها كثيراً مما يعمل حتى ليتعذر عليه إقطاع مثل هذه الأمور جانباً من وقته. كان في السن التي يخشى الشاب فيها من الارتباط بفتاة ويجد أن حريته أغلى من كل شيء. كان إذا فكر في سونيا يقنع نفسه بقوله: «إه! ليست الوحيدة في العالم ولقد خلقت للتعرف إلى عدد كبير من أمثالها! وعندما يبرّحني الهوى، لن أعدم الوقت للانشغال في الحب. أما الآن، فإن في رأسي أهدافاً أخرى».

ثم إنه شعر، منذ أن أصبح في عداد الرجال، أن الركض وراء الأثواب النسائية ومن فيها أدنى من أن تتقبله كرامته. كان يتردد إلى الحفلات الراقصة والولائم، لكنه كان يتظاهر بأنه إنما يحضرها مرغماً. أما السباقات والنادي ومهازله مع دينيسوف وزيارات «هناك»، فإن أمرها كان مختلفاً جداً: كان الفارس المغامر يجد فيها الجو الذي يناسبه.

قرّر النادي الإنكليزي الذي كان الكونت روستوف العجوز عضواً فيه

وفي مجلس إدارته منذ تأسيسه، إقامة حفلة عشاء على شرف الأمير باغراسيون. ولما كان الكونت العجوز لا يبارى في مواهبه التنظيمية في مثل هذه الأمور وفي ذوقه المرهف وكرمه المشهور، فقد كلفه مجلس إدارة النادي مهمة إعداد الوليمة. واستجاب الكونت لذلك التكليف بكليته وصرف كل وقته في سبيل ذلك. كان الكونت من النادرين الذين لا يجدون غضاضة في الإنفاق من جيوبهم إذا اقتضى الأمر، دون تردد. وهكذا فقد كان الكونت روستوف يروح ويجيء بين القاعة الكبرى ومختلف أنحاء قصره وهو في معطفه المنزلي، يعطي أوامره إلى أمين الصندوق ورئيس الطهاة، تيووكتيست المشهور حول ألوان اللحوم والسمك والهليون والخيار والفريز. فكان رئيس الطهاة وأمين الصندوق يصغيان إليه بسرور وهما متأكدان أنهما يستطيعان بفضل الكونت، أن يكسبا ربحاً كبيراً من مجموع أثمان تكاليف تلك الوليمة الباذخة، مما لا يتاح لهما مثله لو كلف غيره هذه المهمة. لقد كان الكونت ذواقاً فرفعت تلك المزية تكاليف الوليمة إلى بضعة ألوف من الروبلات.

ـ انتبه جيداً ولا تنسَ أعراف الديكة في حساء السلحفاة، مفهوم؟

ـ وثلاثة أنواع من الحساء المبهر أليس كذلك؟

ففكر الكونت برهة وأجاب: نعم، لا يمكن تقديم أقل من ذلك. لنقل إذن: حساء المايونيز وحساء... فقاطعه أمين الصندوق: وماذا عن سمك الـ: ستيرله، سننتقي الكبار منه بدون شك، أليس كذلك؟

ـ نعم، خذ الكبار... يا عزيزي، كدت أنسى: يلزمنا كذلك نوع آخر من المقبلات... آه! يا ربي العظيم!

واحتوى رأسه بين يديه وتابع: رباه! والزهور، من سيأتيني بها؟... ميتانكا، هه، ميتانكا... أسرع إلى منزلي الصيفي وقل لماكسيم البستاني أن

ينفذ باسمي الأوامر التالية على الفور: لتحزم في قطع من القماش كل نباتات الحديقة الشتوية وليُحمل إليّ إلى هنا مائتا إصّ على أن تصلني يوم الجمعة.

أسرع الوكيل ميتانكا لتنفيذ الأمر، بينما أصدر الكونت سلسلة أخرى من الأوامر وراح ينشد الراحة قرب كونتيسته الصغيرة العزيزة. لكنه تذكر فجأة أمراً مهماً فعاد على أعقابه واستدعى رئيس الطهاة وأمين الصندوق وعاد يتحاضر معهما. وفي تلك الأثناء، ارتفع رنين مهاميز قرب الباب وظهر على عتبته الكونت الشاب متورد الوجنتين، يغطي شفته العليا ظل شارب خفيف. أزالت حياة موسكو اللطيفة كل آثار العناء التي كانت مخلفة على وجهه الفتي.

قال العجوز وعلى وجهه ابتسامة لا تخلو من ارتباك: آه! يا صديقي، أنا فريسة دوار عنيف. تعال أنقذني وأغثني. ينبغي إيجاد المغنين. إنني بالطبع متعاقد مع جوقة موسيقية ولكن ألا تعتقد أن وجود البوهيميين سيقابل بالترحيب؟ إنكم معشر العسكريين تحبون هذا اللون من الغناء.

أجاب الابن وهو يبتسم بدوره: حقاً يا أبي إنك تزعج نفسك الآن وترهقها أكثر مما كان يفعل پاغراسيون قبل معركة شوپنغرابن.

فقال الكونت متظاهراً بالغضب: حسناً، ضع نفسك مكاني وسترى أن الأمر ليس من السهولة كما يبدو لك.

والتفت إلى رئيس الطهاة الذي كان يرقبهما بوقار وفي عينيه نظرة ماكرة وقال له: أرأيت الشباب يا تييوكتيست؟ إنهم يهزأون بنا نحن معشر الكهول.

ـ ماذا نستطيع يا صاحب السعادة أن نفعل! إن الشبان لا يريدون إلا رؤية قصعتهم مملوءة بالطعام، لكنهم لا يبالون بالكيفية التي جاء بها الطعام إلى قصعتهم.

صاح الكونت: هذا صحيح، هذا صحيح!

وتابع وقد أمسك بذراع ابنه بحركة مرحة: بما أنني ممسك بذراعك

الآن، فلن أفلتك بسهولة. سوف يسرني أن تقفز إلى الزحافة ذات الجوادين وأن تطير بها إلى منزل بيزوخوف لتقول له إن الكونت إيليا أندريتش أرسلك في طلب بعض ثمار الفريز والأناناس من حدائقه الشتوية. من المستحيل أن نجد منها في مكان آخر. وإذا لم تجد، أرجو أن تبلغ الأميرات ملتمسي. ومن هنا ستذهب إلى رازغوليه، والسائق هيبات يعرف الطريق، لتطبق على البوهيمي إيليوشا مهما كان الثمن، وتأتي به إلى هنا. ألا تعرف إيليوشا الذي رقص عند الكونت أورلوف متشحاً بعباءة بيضاء؟

سأل روستوف ضاحكاً: وهل يجب أن آتيك بمغنياته أيضاً؟

ـ هلا أطبقت فمك!

دخلت آنّا ميخاييلوفنا تلك اللحظة، إلى القاعة بخطوات غير مسموعة، وهي على عادتها متشاغلة مرهقة بالعمل ومفعمة بالإيمان والتعاليم المسيحية. كانت تفاجئ الكونت كل يوم تقريباً في معطفه المنزلي، مع ذلك، فقد كان هذا يبدو شديد الخجل منها ويطلب صفحها في كل مرة.

قالت وهي تخفض عينيها بخفر: لا أهمية لهذا يا صديقي. أما بصدد المهمة المتعلقة بآل بيزوخوف فإنني أتطوع لأدائها. لقد وصل پيار أخيراً ولا شك أنه سيضع كل حدائقه الشتوية في تصرفنا. ثم إنني في حاجة إلى مقابلته، إذ إنه أرسل إليّ رسالة من بوريس ولدي الذي أحمد الله على التحاقه بالأركان العامة.

راق عرض آنّا ميخاييلوفنا للكونت، فأمر بإعداد العربة الصغيرة لها فوراً، وقال لها: ستقولين لبيزوخوف إننا ننتظره. سوف أسجل اسمه... هل ترافقه زوجته؟

بدا على قسمات آنّا ميخاييلوفنا حزن عميق ورفعت عينيها إلى السماء قائلة: آه! يا صديقي. إنه تعيس جداً. إذا كان ما يزعمونه حقيقياً فإن الأمر مريع.

بينما كنا نحن نبتهج لسعادته من كان يصدق حدوث مثل ذلك؟ إن بيزوخوڤ الشاب إنسان طيب نبيل! أنا أتألم من كل قلبي لمصابه وسأحاول أن أوفر له ما في طاقتي من عزاء وسلوان.

سأل الأب والابن بصوت واحد: ماذا حدث له؟

جاء الجواب غامضاً: يقال إن دولوخوڤ، ابن ماري إيڤانوڤنا، قد أغواها. لقد انتشل پيار هذا الفتى من مأزقه ودعاه إلى قصره في پيترسبورغ، وهذه كانت مكافأته... لم تكد تصل إلى هنا حتى أسرع ذلك المعتوه في أعقابها.

كانت أنّا ميخاييلوڤنا ترمي إلى التوجع على مصير پيار، لكن لهجتها كانت توحي بعطف على دولوخوڤ الذي أطلقت عليه اسم المعتوه. وتابعت معقبة: ويزعمون أن پيار يكاد يقضي حزناً.

ـ أطلبي إليه رغم ذلك أن يحضر إلى النادي لأن حضوره سينسيه آلامه. سنقيم هناك وليمة حافلة.

في الثالث من آذار، وبعد ظهر اليوم التالي، كان أعضاء النادي الإنكليزي وعددهم مائتان وخمسون، ينتظرون ومدعووهم الخمسون، وصول الأمير پاغراسيون بطل معركة النمسا، وضيف الشرف في وليمتهم. وكان نبأ هزيمة أوسترليتز قد غمر موسكو كلها في ذهول عميق، لأن الروس ألفوا الانتصار من قبل لدرجة رفض البعض تصديق ذلك النبأ، بينما استغرق البعض الآخر في التساؤل عن الحدث الخارق الذي وقع وأدى إلى تلك النتيجة الغريبة. ولما توارد النبأ الأليم في كانون الأول، بدا كأن كل أعضاء النادي الإنكليزي، وهم النخبة الممتازة من الشخصيات الكبيرة العارفة ببواطن الأمور، قد تواعدوا على الانصراف عن الاجتماع فيه تجنباً للحديث عن الحرب والمعركة الأخيرة.

هجر النادي كل الذين درجوا على إثارة المناقشات، أمثال الكونت

روستوبتشين والأمير إيوري ڤلاديميروڤيتش دولغوروكي وڤالوييف والكونت ماركوف والأمير ڤيازمسكي، وانصرفوا إلى حلقات خاصة واجتماعات عائلية. وهكذا حرم الأعضاء الموسكوڤيون أمثال الكونت إيليا أندرييتش روستوف، الذين درجوا على ترديد أقوال الآخرين، من مصادرهم الغنية، فظلوا فترة طويلة محرومين من الأنباء الجديدة الموثوق يها حول مجرى الأمور. ولكن لم تمض فترة معينة حتى عادت تلك الشخصيات البارزة إلى النادي فكانوا أشبه بالمحلفين الذين خرجوا من فورهم من غرفة المداولة.

وألقيت الأضواء على الأمور وانحلت عقد الألسن. لقد وجدوا أخيراً مبررات لذلك الحدث المروع الذي يستحيل وقوعه كما تصديقه، وأعني هزيمة الروس. كانت تلك الأسباب التي راحت تكرر وتفسر في كل زوايا موسكو كما يلي: غدر النمسويين، سوء التموين، خيانة البولوني برزيبيسزوسكي والفرنسي لانغيرون، عجز كوتوزوف عن معالجة الأمور في حينها وهذا السبب كان يُبحث دائماً بصوت خفيض كما هي الحال في السبب التالي والأخير ـ وشباب الأمبراطور وقلة خبرته مما أدى إلى وثوقه بأشخاص عديمي القيمة. أما الجيوش الروسية، فقد اتفق رأي كل المتحدثين على أنها تصرفت تصرفاً يدعو للإعجاب، لأنها بذلت تضحيات قيمة.

لقد تصرف الجنود والضباط والجنرالات تصرفاً كله بطولة وتضحية. أما بطل الأبطال فكان الأمير پاغراسيون الذي طبقت شهرته الآفاق بعد معركة شوينغرابن وانسحاب أوسترااليتز الذي استطاع فيه أن يعيد فيلقه بنظام محكم وأن يصمد طوال ذلك النهار لعدو يفوقه عدداً وعُدداً. والأمر الذي جعل الموسكوڤيين يعتبرون پاغراسيون بطل الساعة أكثر من غيره، كان جهل الموسكوڤيين به وعدم وجود أية علاقة له بينهم. فكانوا إذ يحتفلون

به، يقدمون تمنياتهم وعواطفهم لرمز الجندي الروسي الباسل المحروم من التوصيات، البعيد عن المكر. وكانت ذكرى معركة إيطاليا تدني اسمه من اسم سوڤوروف. ثم ألم تكن تلك الحفاوة البالغة التي يظهرونها له هي خير تعبير عن اللوم الموجه إلى كوتوزوف والانتقاص من كفاءته؟

راح شينشين السليط اللسان يقول مجتراً كلمة ڤولتير المأثورة: لو أن باغراسيون لم يكن موجوداً لوجب إيجاده وابتكاره.

ولم يكن أحد يتحدث عن كوتوزوف. وإذا ورد اسمه على اللسان، فإنما كان في معرض الذم ووصفه سراً بأنه متغطرس فاسد أو بإطلاق اسم «مذبذب البلاط» عليه.

كررت موسكو كلها قول دولغوروكوف المأثور: «يتدبق المرء لكثرة ما يلصق»، الذي كان يخفف من وقع الهزيمة بإحياء ذكريات الانتصارات السابقة. كذلك كانت تعيد أقوال روستوبتسين: «إن الجندي الفرنسي يجب أن يساق إلى ساحة المعركة بالكلمات الطنانة، والجندي الألماني لا يطيع إلا إيحاءات المنطق، فيتطلب من قادته شرحاً وتفسيراً يشعران بأن الفرار أشد خطراً من الهجوم. أما الجندي الروسي، فإنه على العكس، يتطلب من قادته ضبطه وإعادته إلى الهدوء والسكينة».

كانوا كل يوم يدونون مآثر جديدة في مضمار نشاط الجنود الروس وضباطهم: فأحدهم أنقذ علماً والآخر قتل خمسة فرنسيين وثالث قام بمفرده بكل ما يلزم من خدمة مضنية لثلاثة مدافع معاً. وكان عدد من الناس الذين لا صلة لهم ببيرج، يؤكدون أنه جرح في يمناه، فحمل سيفه بيسراه وسار تحت وابل النيران، يهاجم العدو. أما بولكونسكي، كان خلصاؤه وحدهم يأسفون على موته وهو في عزّ الشباب، ويشفقون على زوجته التي ستضطر لوضع جنينها تحت سقف حميها سقيم العقل.

الفصل الثالث

في اليوم الثالث من آذار، كان النادي الإنكليزي بكل قاعاته مليئاً بالأحاديث، الأعضاء والمدعوون منهم في ثوب «الفراك»، ومنهم في قفاطينهم والشعر المستعار، يروحون ويجيئون، بين واقفين ومتجمهرين وجالسين ومتفرقين، وكأنهم خلية نحل في الربيع. وقف الخدم على كل باب، في أثوابهم الحمراء الرسمية وجواربهم الحريرية وأخفافهم الرقيقة، يراقبون حركات المدعوين ليسرعوا إليهم ملبين طلباتهم. وكان المدعوون، ومعظمهم من المسنين ذوي النفوذ والسلطة، ذوي أصابع ضخمة ووجوه ممتلئة، وأصوات حازمة وحركات متزنة، يجلسون في أماكنهم المحددة لهم وكأنهم ملوك على عروشها، أو يجتمعون في حلقاتهم المألوفة يتبادلون الأحاديث.

وكان الضيوف الطارئون أمثال دينيسوف وروستوف ودولوخوف، الذي أصبح ضابطاً في فيلق سيمينوڤسكي، وكلهم من الشباب، يشكلون أقلية ضئيلة. كانت وجوه أولئك الشباب، وبصورة خاصة العسكريين منهم، تنطق باحترام مستهزئ وكأنها تقول للمسنين: «نحن لا نمسك عليكم الاحترام الذي تطلبون ولا المعاملة الحسنة التي تنتظرون، لكننا نذكركم بأن المستقبل لنا، فلا تنسوا ذلك».

حضر في ذلك اليوم، نيسـڤيتسكي، وهو عضو مرموق في النادي وكان بيار، الذي وافق على التضحية بنظارتيه بناء على أوامر زوجته يعوض هذا

النقص بإرساله شعره طويلاً وارتدائه ثياباً على أحدث طراز، يذرع الغرف وعلى وجهه علامات الضجر، كان يشعر هنا، كما في أي مكان آخر، بجو من الدناءة واللؤم. لقد اعتاد الرفعة والاستكانة التي يجزيها إليه متملقوه الطامعون في ثروته، الساعون وراء إحسانه، وقد اعتاد أسلوبهم فراح يمنحهم جانباً من احتقاره. وإذا كان العمر يسلكه في عداد الشبان، فإن الثروة كانت تفتح له حلقات الكهول والشخصيات المحترمة ذات الشأن.

فكان بذلك يتردد بين جموع الفريقين. وفي تلك الليلة، تجمهر حول أعلام الشخصيات، نفر كبير من الناس بينهم مجهولون مغمورون، جاؤوا كلهم يتسقطون الأخبار ويتزودون أقوال هؤلاء الأشخاص المرموقين. وكان الازدحام على أشده حول الكونت روستوبتشين[١] وڤالوييف وناريشكين[٢].

كان روستوبتشين يؤكد أن الروس فوجئوا بفلول النمسويين الهاربين حتى اضطروا إلى شق طريقهم بقوة الحراب بين أولئك الفارين المذعورين؛ وڤالوييـف يعلن بصورة سرية أن أوڤاروف أرسل أخيراً من پيترسبورغ ليتحسس آراء الموسكوڤيين عن أوسترليتز. أما ناريشكين، فكان يعيد إلى الأذهان ذكرى مجلس سوڤوروف العسكري العتيد لما أجاب أفراده بنداء يشبه صياح الديكة، كردّ على أقوال «الجنرالات» النمسويين. وكان شينشين يصغي إلى هذا القول، فوجد فيه مادة مناسبة لحديثه وفرصة مؤاتية ليطلق لسانه السليط فقال: يبدو أن كوتوزوف لم يستطع أن يتعلم من سوڤوروف حتى تقليد صياح الديكة رغم ما في هذا الفن من سهولة! لكن الكهول

(١) سياسي روسي أحرق موسكو عندما دخلها بوناپرت فاضطره إلى التراجع. (المترجم).

(٢) سليل أسرة روسية نبيلة كانت أم بطرس الأكبر من أفرادها. (المترجم).

المحترمين، حدجوا ذلك الماجن بنظرة قاسية أفهمته أن المكان والزمان لا يسمحان بمثل هذه النكات!

وكان الكونت إيليا روستوف يجر حذاءيه الليّنين من قاعة الطعام إلى غرفة الاستقبال، يلقي تحيته السريعة على الشخصيات البارزة كما على أتفههم شأناً، لأنه كان يعرف هؤلاء وأولئك على السواء. ومن حين إلى آخر، كانت نظراته المنقبة تتوقف على وجه فتاة جميل، فيغمز. وكان روستوف الشاب يتحدث مع دولوخوف في مدخل إحدى الغرف، وهو شديد الاهتمام بهذا الصديق الجديد. فاقترب الكونت العجوز منهما وضغط على يد دولوخوف وقال له: يسرني أن تحضر إلى زيارتي، فأنت صديق ابني، وبطل مثله...

ومرّ شيخ بالقرب منهما فحياه الكونت قائلاً: آه! ڤاسيلي اينياتيتش، مرحباً يا عزيزي.

لكن تحياته ضاعت وسط ضجة عامة ارتفعت في تلك اللحظة. ذلك أن أحد الخدم دخل مسرعاً يعلن مذعوراً: «لقد وصل!».

دوى قرع أجراس، وهرع أعضاء اللجنة، وتجمهر المدعوون الذين كانوا حتى تلك اللحظة متفرقين في مختلف الغرف، واندفعوا إلى باب القاعة الكبرى يحتشدون وكأنهم حبات قمح جُمعت بمجرفة!

وحسب تقاليد النادي، ظهر پاغراسيون في الردهة، تاركاً سيفه وقبعته لرئيس الخدم. لم يكن يعتمر قبعة من جلد الخروف ويمسك بيده سوطاً ذا شعب كما شاهده روستوف قبل معركة أوسترليتز، بل كان مرتدياً ثوباً ضيقاً تزيّنه الأوسمة الروسية والأجنبية إلى جانب «صفيحة» سان جورج. وكان، كما يبدو، قد أسلم للحلاق شعره وسالفيه، فتبدلت هيئة وجهه بما لا يتفق والغاية المتوخاة من ذلك التبديل. وكان مظهره الذي يجمع بين السذاجة والجلال يتناقض بشكل مضحك مع قسمات الرجولة البارزة على وجهه. وصدف أن

وصل بيكليشوف وفيودار پيتروفيتش أوفاروف في اللحظة نفسها التي دخل فيها پاغراسيون إلى الردهة. فتوقفا يفسحان له في المجال ليتقدمهما بوصفه بطل الحفلة.

وأخجل هذا التأدب پاغراسيون، فحاول الاعتراض مما أدى إلى فترة توقف، انتهت بقبوله الدخول قبلهما. دخل إلى قاعة الاستقبال بخجل وارتباك، لا يعرف ماذا يفعل. كان بدون شك يألف السير تحت وابل من الرصاص في أرض محروثة، كما حدث له في شوپنغرابن، عندما سار في مقدمة فيلق كورسك إلى العدو، أكثر من السير بين مستقبليه في قاعة الاستقبال الفخمة. أعرب أعضاء المجلس الإداري الذين كانوا ينتظرونه عند الباب الأول، عن ترحيبهم بقدومه وسرورهم باستقبال ضيف عزيز مثله، ثم «استولوا» عليه دون أن ينتظر رده، واصطحبوه إلى القاعة. أصبح الدخول إلى القاعة الكبيرة قريباً من الاستحالة لكثرة الازدحام والتفاف المدعوين الذين راحوا يحدقون، عبر المناكب، إلى وجه البطل وكأنهم يتفرجون على مطيّة غريبة مثيرة. وكان الكونت إيليا أندريتش أكثر المستقبلين ابتهاجاً، تشهد بذلك ضحكته العالية التي كانت تطغى على كل الأحاديث. راح يشق الطريق مستعيناً بعبارة: «افسح في المكان يا عزيزي، افسح»، حتى استطاع أخيراً إدخال الضيف إلى القاعة، حيث أجلسه بين بيكليشوف وأوفاروف، على الكنبة القائمة في الوسط. ومن جديد، حاصر أعضاء النادي المتوافدون، ضيوفهم المرموقين. وعاد إيليا أندريتش يشق طريقه وسط الحشد خارجاً من القاعة ليرجع بعد قليل في صحبة أحد أعضاء مجلس الإدارة، حاملاً طبقاً فضياً وُضعت عليه مقطوعة شعرية نُظمت وطُبعت على شرف الضيف الشهير.

قدم الطبق إلى پاغراسيون الذي راح يجيل حوله نظرات مرتبكة وكأنه ينشد العون. غير أن كلّ العيون التي لاقت عيونه، كانت تدعوه إلى الاستسلام.

ولما شعر أنه أصبح تحت رحمتهم، أخذ الطبق بكلتا يديه بحركة عنيفة شفعها بنظرة غضبى وجهها إلى الكونت الذي كان يحتفي به. وتلطف أحدهم فأخذ من يديه ذلك «الشيء المزعج المربك» الذي بدا عليه أنه عازف عن التخلص منه حتى ولو اضطر إلى الإبقاء عليه معه على طاولة الطعام، ولفت انتباهه إلى المقطوعة الشعرية. فبدا على پاغراسيون كأنه يقول: «حسناً! سأقرأها». وحدق إلى الورقة محاولاً الاطلاع على ما جاء فيها، وقد اكتست قسمات وجهه بطابع من الجد. لكن صاحب القصيدة أخذ الورقة من يديه وراح يتلوها بصوت مرتفع، بينما كان پاغراسيون يصغي إلى قراءته مطرق الرأس.

ليخلد إلى الأبد مجد عصر ألكسندر.
الحارس اليقظ لتيتوس على العرش.
رئيس رهيب ورجل إحسان كبير معاً،
يشبه ريفي في وطنه، قيصر في الحروب.
الواقع إن الفضل لك في أن ناپليون السعيد.
لن يتحدى بعد اليوم (الآستدة) الشمال...

لم يفرغ من قراءة القصيدة بعد، حينما ارتفع صوت رئيس الخدم مرعداً يقول:

ـ إن طعام سموه جاهز!

وفتح باب قاعة الطعام على أنغام إلپولونيز:

تجاوبي يا صواعق النصر.
يا أيها الروس البواسل، استسلموا للمرح[1].

وحدج الكونت إيليا أندرييتش ناظم الشعر وقارئه الذي بقي مستمراً في

---

(١) نشيد يخلد احتلال الروس «اسماعيل» ظل يعزف بدلًا من النشيد الوطني الروسي زمناً طويلاً. (المترجم).

إلقائه، وانحنى أمام پاغراسيون. رأى المجتمعون جميعاً أن الطعام أفضل من القصيدة، فنهضوا متجهين إلى غرفة الطعام وپاغراسيون في المقدمة. أجلس الجنرال في مقعد الشرف بين إسكندرين: إسكندر بيكليشوف وإسكندر ناريكشين، وهو تلميح ضمني لاسم الأمبراطور. وجلس المدعوون الثلاثمائة حسب ترتيب درجاتهم الاجتماعية. وبديهي أن أرفعهم مكانة كان أقربهم إلى مجلس المحتفى به. مع ذلك، ألا يكون الماء أكثر عمقاً في الأماكن الأكثر انخفاضاً؟

قدم إيليا أندرييتش قبل البدء في الطعام، ابنه إلى پاغراسيون الذي عرفه ووجه إليه بضع كلمات مرتبكة، ككل ما تفوه به ذلك اليوم. مع ذلك، راح الكونت يجيل بين المشاهدين لهذا الحديث نظرات تشع منها الكبرياء.

جلس كل من نيكولا روستوف ودينيسوڤ وصديقهما الجديد دولوخوڤ عند وسط الطاولة وقبالتهم الأمير نيسـڤيتسكي وپيار. وكان الكونت إيليا أندرييتش، وقد احتل مع أعضاء مجلس الإدارة الجانب المقابل لـپاغراسيون، يقوم بدور المضيف حتى ليمكن اعتباره تجسداً بليغاً للضيافة الموسكوڤية الشهيرة.

لم تذهب سدى جهوده المبذولة وكانت أصناف الأطعمة على أحسن ما يمكن من الترف المفرط، وبقي الكونت العجوز قلقاً حتى نهاية الطعام. كان يغمز بعينيه الخازن آمراً ويهمس بتعليماته في آذان الخدم المشرفين على المائدة، ويترقب بانفعال ظهور كل لون جديد من الألوان التي انفرد باقتراح طهوها وتقديمها؛ فكان كل شيء فوق النقد. وأطار الخدم صمامات زجاجات الشمبانيا، وطافوا بها يملأون الكؤوس، حالما دخل الطهاة باللون الثاني من الطعام، وكانت سمكة هائلة، الذي جعل وجه إيليا أندرييتش يحمرّ من الارتباك. وقد أحدث هذا اللون بعض الأثر في نفوس المدعوين. فلما

فرغوا منه، تبادل الكونت نظرة مع زملائه أعضاء مجلس الإدارة وقال لهم بصوت خفيض: «ستُشرب أنخاب كثيرة، لذلك يستحسن أن نبدأ بها». ونهض واقفاً وكأسه في يده. فسكت الجميع وأصغوا إلى ما سيقول.

هتف الكونت وقد اخضلت عيناه بدموع الحماسة: نخب صحة جلالة الأمبراطور!

صدحت الموسيقى من جديد بـ«تجاوبي يا صواعق النصر» ونهض المدعوون جميعهم هاتفين: «هـورّا»!. وعلا صوت پاغراسيون مدوياً كما كان في ساحة معركة شوپنغرابن. وميزت الأسماع صوت روستوف الشاب الذي كان يجد صعوبة في حبس دموعه وهو يزمجر: «نخب صحة الأمبراطور، هورّا»! أفرغ كأسه دفعة واحدة وألقى بها على الأرض فتحطمت، وحذا الآخرون حذوه وعادت الهتافات تتجدد مدوية. ولما ساد الصمت، جمع الخدم الكؤوس المحطمة، وعاد المدعوون إلى مقاعدهم يتحادثون والابتسامات التي خلفتها حماستهم على شفاههم ترافق حركاتها في مراحل الحديث.

ولم يلبث الكونت أن نهض مرة ثانية فألقى نظرة على مذكرة صغيرة موضوعة بجانب صحفته، وصاح نخب «بطل حملتنا الأخيرة، پيوتر إيـڤانوڤيتش پاغراسيون»، بينما تبللت أهدابه بالدموع. وصرخت ثلاثمائة حنجرة بصوت واحد: «هورّا»! ولكن بدلاً من عزف الموسيقى، ارتفع صوت المغنين بنشيد وضعه باڤل إيـڤانوڤيتش كوتوزوف:

ماذا تفعل العقبات ضد الروس؟

إن بسالتهم هي عربون النصر.

ليكن لدينا فقط العديد من أمثال پاغراسيون.

وسنرى الأعداد عند كؤوسنا...

لم يكد المغنون ينتهون من هذا النشيد حتى اقترحت أنخاب وأنخاب كان انفعال إيليا أندرييتش يزداد بتعددها، وحطمت كؤوس كثيرة وبحّت حناجر كثيرة. شرب المدعوون نخب پيكليشوڤ وناريشكين وأوڤاروڤ ودولغوروكوڤ وأبراكسين وڤالوييـڤ ونخب أعضاء مجلس إدارة النادي ومدعويهم وأخيراً نخب منظم الحفلة الكونت إيليا أندرييتش. وكان الكونت في أوج انفعاله فلم يستطع حبس دموعه عند النخب الأخير فراح يكفكفها ويمسحها بمنديله.

الفصل الرابع

كان پيار يجلس قبالة دولوخوف وروستوف يأكل بشهية كما هي عادته ويحتسي الكأس تلو الكأس. لكن الذين يعرفونه جيداً رأوا فيه تبدلاً كلياً. بقي ساكتاً خلال فترة الطعام، مقطب الحاجبين، يجيل نظره حوله، ويفرك جانبي أنفه بإصبعه. وكان وجهه عابساً مكفهراً كان غارقاً في فكرة مسيطرة، مشغولاً في شكوك مقلقة، حتى أنه لم يكن يصغي إلى من حوله ولا يرى وجوه المحيطين به.

تقدمت إحدى الأميرات بتلميح ماكر فأيقظت الشكوك المخيفة في نفسه منذ وصوله إلى موسكو. ولقد تلقى رسالة مغفلة، صباح ذلك اليوم، تدعم تلك الشكوك التي تنهش صدره. أخبره كاتب تلك الرسالة بأسلوب متهكم، كما هي العادة، بأنه لا يرى بوضوح بسبب استغنائه عن نظارتيه. وأن علاقة زوجته بدولوخوف ليست إلا سراً عند المغفلين. وعلى الرغم من أن پيار كان يحاول الاستخفاف بكل تلك التعليمات المهنية، لكنه لم يكن يستطيع تفادي الانزعاج الذي يشعر به كلما وقع نظره على دولوخوف الجالس قبالته.

كان كلما وقع نظره على عيني ذلك الضابط الوقحتين يشعر في أعماقه بأن عاصفة تهب فيها، فيشيح مسرعاً. كان ماضي هيلين كله، وطرائق تصرفها مع دولوخوف كلها، تدفع پيار على التفكير في أن الروايات المتشابهة يمكن أن تكون حقيقة، أو أقله، يمكن أن تكون كذلك لو لم تكن متعلقة بزوجته «هو». تذكر رجوع دولوخوف إلى پيترسبورغ بعد أن أعيدت له كل اعتباراته

بعد الحملة، ولجوئه إليه دون غيره مذكراً إياه بأعمالهم الماضية ومجونهم، سائلاً منه قبوله ضيفاً عنده، الأمر الذي لم يتردد پيار في تحقيقه بسخاء. بل إنه تساهل معه حتى أنه أقرضه بعض المال لمصروفه الخاص. واستعاد صوت هيلين عندما كانت تحدثه وهي مبتسمة، مستنكرة تصرفه وإدخاله مثل ذلك الضيف المزعج إلى منزلهم، وصوت دولوخوف يهنئه بلهجة هازئة بجمال زوجته. تذكر أنه منذ ذلك الحين وحتى وصولهم إلى موسكو، لم يرهما يفترقان لحظة واحدة.

قال پيار في سره: «إنه شاب جميل جداً. ثم إنني أعرفه. لقد قمت بتدابير في مصلحته فأنزلته في بيتي وقدمت له كل ما من شأنه أن يجعله يجد متعة في تلويث اسمي. لا شك أن خيانته كانت ذات أثر... لو كانت المسألة صحيحة. ولكن لا، ليست صحيحة. أنا لا أصدق ذلك وليس لي الحق في تصديقه». وفي تلك الأثناء، كان يرى الطابع الوحشي على قسمات وجه دولوخوف كلما سقط فريسة لنوبة قسوة. ذلك اليوم مثلاً، يوم أن أوثق الشرطي إلى ظهر الدب قبل أن يلقي بهما إلى الماء، وذاك اليوم أيضاً، عندما أثار رجلاً وبارزه دون أي سبب، وتلك المرة عندما رآه يقتل حصان أحد السعاة بطلقة من غدارته. وفجأة تذكر پيار أن دولوخوف نظر إليه غير مرة تلك النظرة المليئة بالقسوة. قال يحدث نفسه: «نعم، إنه شغوف بالقتل، إن قتل رجل لا يشكل عنده أدنى أسف، لا بد أن يتخيل أن كل الناس يخشونه، فيتذوق هذه المتعة بسرور ماكر. ولا شك إنه يظن أنني أيضاً أخاف منه. إنه غير مخطئ في ظنه هذا على كل حال»! ومن جديد عصفت في نفسه أعاصير مدمرة.

كان دولوخوف الجالس قبالته وبجانبيه دينيسوف وروستوف، يبدو غارقاً في التسلي مع صديقيه. كان روستوف يتحدث بلطف مع صديقيه وهو فخور بأن يكون أحدهما فارساً شجاعاً والآخر مقاتلاً بنفسية مستهترة. ومن

حين إلى آخر، كان يلقي على پيار نظرة جافة، متأملاً جسمه الضخم ووجهه المكتئب اللذين يلفتان إليهما النظر. وليس صعباً على المرء تفسير سبب عداء هذا الفارس الشاب: فقد كان پيار في نظر هذا العسكري «مدنياً» واسع الغنى وزوج سيدة شديدة الجمال. وبالإيجاز: رجلاً ضعيف الإرادة. ومن جهة أخرى فإن پيار بدا كأنه لا يعرف نيكولا روستوف حتى إنه لم يرد على تحيته.

وبعد انقضاء ساعة على شرب الأنخاب، وطلب الكونت العجوز أن يشرب المدعوون نخب الأمبراطور، بقي پيار مستغرقاً في تخيّلاته، فلم ينهض ولم يتناول كأسه بيده.

رمقه روستوف بنظرة غاضبة وصاح به: ماذا تعمل؟ ألا تسمع إنهم يشربون نخب صحة جلالته؟

فتنهّد پيار ونهض بخشوع وأفرغ كأسه. وبينما كان ينتظر أن يروق الآخرين الجلوس فيجلس معهم، ألقى على روستوف نظرة شفعها بابتسامته الطيبة المعروفة وقال له: وأنا الذي لم أعرفك!

لكن روستوف كان مندفعاً في صياحه فلم ينتبه إلى قوله.

سأله دينيسوف: لم لا تجدد معرفتك به؟

ـ إنني لا أحفل أبداً بهذا الغبي!

فقال دينيسوف معترضاً: ولكن ينبغي أن يجامل المرء دائماً أزواج النساء الجميلات!

لم يسمع پيار حديثهما، لكنه قدّر أنهما يتحدثان عنه، فاحمر وجهه وأدار رأسه.

قال دولوخوف مقترحاً: والآن، لنشرب نخب النساء الجميلات.

ونهض وخاطب پيار بلهجة جدية وعلى زاوية فمه ابتسامة صغيرة: نخب النساء الجميلات وعشاقهن!

أفرغ پيار كأسه وهو خافض العينين، دون أن يجيب بكلمة على دولوخوف.

وقام أحد الخدم يوزع على المدعوين المرموقين نسخاً مطبوعة من قصيدة الاحتفاء بضيف الشرف ونشيد كوتوزوف، فوضع واحدة أمام پيار. فلما همّ هذا بأخذها، انحنى دولوخوف فوق الطاولة وانتزعها من يده وراح يقرأها. وعندئذ نظر إليه پيار. فانخفضت حدقتاه وانفجرت العاصفة التي كبتها طوال فترة الطعام. فانحنى بكل جسمه الثقيل على الطاولة وصرخ: دع هذا!

ذعر نيسڤيتسكي لهذه البادرة وعرف الشخص الذي استهدفته فحاول التدخل يدعمه زميل دولوخوف الذي كان إلى يمينه. قالا له معاً: اهدأ، ماذا دهاك؟

أما دولوخوف فقد حدج پيار بنظرته الصريحة والقاسية معاً وابتسم ابتسامة من يقول: «آه! آه! هذا ما يروقني»! وأجابه بصوت جازم: كلا، لن أتركها!

امتقع وجه پيار من الغضب وارتجفت شفتاه فانتزع الورقة من يده وقال هائجاً: إنك... مخلوق... حقير!...

ودفع مقعده وغادر المائدة.

وفي اللحظة التي نطق فيها پيار بتلك الكلمات، شعر أن مسألة إدانة زوجته، تلك المسألة التي كانت تعرض له بأسى منذ أربع وعشرين ساعة، قد فصل فيها الآن دون تأخير ومالت إلى الجانب الإيجابي. فنبت في صدره حقد على زوجته وأحسّ بأنه انفصل عنها إلى الأبد.

أبدى روستوف موافقته على أن يكون شاهداً لدولوخوف رغم تقريع دينيسوف. فلمّا انفض المدعوون عن الطاولة سوى مع نيسڤيتسكي، الذي كلفه بيزوخوف بحث هذه المسألة، شروط اللقاء. أما پيار فعاد إلى منزله بينما

استمر روستوف ودينيسوف في صحبة دولوخوف يتسامرون في النادي حتى ساعة متأخرة، ويستمعون إلى غناء البوهيميين والمغنين العسكريين. وعندما افترق الأصدقاء عند مدخل النادي قال دولوخوف: إلى الغد إذن في حديقة الفوكونيية (مدربو البزاة).

سأله روستوف: وهل أنت هادئ مطمئن؟

توقف دولوخوف وقال: اسمع يا صديقي. سأكشف لك بكلمتين عن سر المبارزة. إنك إذا رجعت في المساء الأسبق ليوم اللقاء تكتب وصيتك ورسائل عاطفية إلى أقاربك، وإذا فكرت في إمكانية إصابتك وموتك، فإنك لست إلا أحمق تسعى إلى حتفك. أما إذا ذهبت للقاء خصمك وأنت على يقين أنك ستقتله في أسرع وقت، فسيكون كل شيء على العكس، على خير ما يرام كما يقول صياد الدببة في كوستروما. لقد قال لي مراراً: «إذا ذهبت إلى صيد الدب، شعرت بالخوف. لكن ما إن يظهر الوحش حتى يتبدد الخوف ويحل محله شعور بالابتهال كي يبقى الوحش في سيره عليك». وهذا ما أفعله بكل دقة. فإلى الغد إذن يا عزيزي.

وصل پيار ونيسڤيتسكي في صباح اليوم التالي، إلى مكان مدربي البزاة حيث كان دولوخوف بانتظارهما وبرفقته دينيسوف وروستوف. كان پيار فريسة انهماك واستغراق غريبين في المسألة التي كان بصددها. كان يُرى على سحنته الصفراء، وفي نظرته الشاردة، وفي عينيه الزائغتين وكأن انعكاس ضوء باهر يعميهما، إنه لم ينم ليلته تلك. كان أمران فقط يشغلانه: إدانة زوجته التي تحقق منها خلال ساعات أرقه الطويل وبراءة دولوخوف الذي لم يكن لديه أي سبب للتجاوز عن شرف رجل لا يشغل في نفسه أي اعتبار. كان يقول في سره: «لو أنني كنت مكانه، أما كنت أنهج نهجه؟ بلى، ولا شك، إنني كنت سأفعل مثله. إذن لمَ هذه المبارزة، هذا القتل؟ إما أن أقتله وإما أن يصيبني هو

في رأسي أو مرفقي أو ركبتي. ماذا لو هربت، ماذا لو اختبأت في مكان ما»؟ لكنه في حين كان يغذي مثل هذه الأفكار في سره، كان يسأل بلهجة باردة وبطلاقة استغربها من حوله: «هل نحن على استعداد»؟ أو «هل نتأخر بعد»؟

كان الشهود في تلك الأثناء، يحشون الغدارات ويغرسون السيوف في أماكن معينة على الثلج إشارة إلى الحد الذي لا يجب تخطيه. ولما انتهت هذه الاستعدادات، اقترب نيسـڤيتسكي من پيار وقال له بصوت متهدج: أظن أنني يا كونت أخون واجبي ولا أستحق الشرف الذي منحتنيه بانتقائي شاهداً لك إذا لم أبادر في هذه اللحظة الخطرة إلى إطلاعك على الحقيقة كلها. إنني لا أرى أسباباً وجيهة تدعو إلى هذه المبارزة، لأن المسألة لا تستحق أن يراق من أجلها الدم... إنك مخطئ أو أقله، إنك لست على صواب... لقد ثرت وانفعلت...

فقال پيار مؤيداً: نعم، إن كل هذا غاية في السخف.

فأردف نيسـڤيتسكي قائلاً: إذن، اسمح لي بنقل اعتذاراتك. أنا متأكد أن خصومنا سيتقبلونها. إنك لا تجهل يا كونت أنه من النبل الاعتراف بالأخطاء بدلاً من الوصول إلى ما لا يمكن تلافيه. لم تقع بينكما إهانة خطيرة ولم تتبادلا ما يستحق هذه النتيجة فاسمح لي إذن بالتفاوض...

كان نيسـڤيتسكي يقوم بواجبه ككلّ إنسان يجد نفسه منغمساً في مثل هذه الشؤون. ولم يكن يعتقد، ككل من وقفوا مثل موقفه، أن المسألة ستستمرّ حتى تبلغ نهايتها المحتومة. لذلك فقد أدهشه أن قاطعه پيار بتصميم وحزم قائلاً: كلا، ما فائدة ذلك... ماذا يهم ذلك الآن؟... هيا، هل نحن على استعداد؟ فقط قل لي إلى أي حد يجب أن أتقدم وفي أي اتجاه يجب أن أطلق غدارتي؟

أضاف هذه الجملة وعلى وجهه ابتسامة مغتصبة. وتناول الغدارة وسأل

كيف يضغط زنادها دون أن يعترف بأنه لم يمسّ سلاحاً طوال عمره. قال عندما شُرح له ما غمض عليه: آه نعم! لقد فهمت، كنت ناسياً.

وكان دولوخوف يقول لدينيسوف الذي كان يحاول إعادته إلى الصواب فيعترف بخطئه ويطلب الصفح عنه: كلا إنني أرفض بشدة، لن أقدم اعتذارات.

وذهب إلى مكانه المحدّد.

كان المكان الذي وقع الاختيار عليه للمبارزة، على مسافة ثمانين خطوة عن الطريق حيث ترك الطرفان الزحافات في بقعة مكشوفة من غابة الصنوبر.

أقبل موسم ذوبان الثلج مبكراً منذ أيام. وقف الغريمان على جانبي البقعة المكشوفة تفصل بينهما مسافة أربعين خطوة. وكان الشهود قد خلفوا آثار أقدامهم على الثلج الرخو عندما راحوا يقيسون المسافة قبل الشروع في المبارزة، وكانت تلك الآثار تتوقف عند سيفي نيسڤيتسكي ودينيسوف اللذين كانا مغروسين على بعد عشر خطوات لتحديد الساحة. وكان الضباب وبخار الثلج الذائب من الكثافة حتى أن الرؤية كانت مستحيلة على مسافة أربعين خطوة. وكان كل شيء معدّاً منذ ثلاث دقائق دون أن يفكر أحد في البدء بالعمل أو التلفظ بكلمة.

الفصل الخامس

قال دينيسوف: حسناً، هيا!

فأجاب پيار وهو مبتسم: من الواضح أنه أصبح متعذراً إيقاف هذه المسألة التي أجريت بشيء من الاستخفاف. لقد أصبحت القضية مخيفة. كانت قوة فوق طاقة البشر تريد أن يحدث هذا الأمر دون تأخير.

تقدم دينيسوف من الحد المقرر وصاح: بما أنّ الخصمين قد رفضا التصالح، فأنا أدعوهما إلى التسلح بالغدارات والسير عندما أصل إلى رقم «ثلاثة»!

ثم تابع بصوت غاضب: واحد! اثنان! ثلاثة!

وابتعد. بدأ الخصمان اللذان يحق لكل منهما أن يطلق النار قبل الوصول إلى الحد الفاصل، يمشيان الواحد باتجاه الآخر، سالكين الطريق الحديث الذي شقته في الثلوج أقدام الشهود عند قيامهم بالترتيبات الأولية. أخذ كلاهما يحدق إلى الآخر بشكل أوضح كلما اقتربا في ذلك الضباب. كان دولوخوف يقترب بخطوات بطيئة، خافضاً غدارته، شاخصاً إلى پيار بعينيه الزرقاوين اللامعتين. وابتسامة غامضة تشرق على وجهه كعادته.

قال پيار: وهكذا فإنني أستطيع إطلاق النار متى أشاء، أليس كذلك؟

عندما صاح الحكم «ثلاثة»، اندفع پيار إلى الأمام في مشية سريعة كانت تحرفه عن الطريق الممهد فتغرز قدماه في الثلوج. لا شك أنه كان يخشى أن يصيب نفسه بجرح من غدارته، لذلك كان ممسكاً بها على امتداد ذراعه

اليسرى، جاهداً في إبقاء يسراه إلى الوراء لأنه كان ينوي استعمالها في تثبيت يمناه، غير جاهل عدم جواز ذلك. ولما خطا بضع خطوات تائهة وسط الثلج، نظر إلى قدميه وألقى نظرة سريعة على دولوخوف وضغط الزناد كما أوضحوا له. قفز مروعاً من دوي الانفجار الذي لم يكن يتوقع شدته، لكنه ما لبث أن ابتسم لسذاجته وتوقف في مكانه. وكان الضباب والدخان يحجبان خصمه عن عينيه تحت ستار كثيف. وبدلاً من أن تدوي الطلقة الثانية كما كان متوقعاً، شعر بوقع خطوات سريعة متلاحقة. وأخيراً، شاهد شبح دولوخوف يبرز من الباب، ووجهه ممتقع وإحدى يديه تضغط على جنبه الأيسر بينما كانت الأخرى مطبقة بشدة على الغدارة المخفضة. أسرع روستوف إليه وقال له بضع كلمات أجاب عنها خلال أسنانه المطبقة:

كلا... كلا، لم ينته بعد.

خطا بضع خطوات أخرى مترنحاً ثم هوى على الثلج بجانب السيف. وبعد أن مسح يده اليسرى الملطخة بالدم بسترته، استند إليها بجسمه. كان وجهه الشاحب يرتعد.

غمغم بصعوبة وهو ينهض بمجهود خارق: اس... اس... اسمحوا...

بدأ بيار الذي كان على وشك البدء بالبكاء، يركض نحوه دون أن يتبادر إلى ذهنه الخروج من الساحة. فصاح دولوخوف قائلاً: «إلى الحد»!. فهم بيار ما يعنيه فتوقف قرب حسامه. لم يكن يفصله عن دولوخوف إلا عشر خطوات. غمر دولوخوف رأسه في الثلج وملأ فمه منه بنهم ثم انتصب وهو يحافظ بصعوبة على توازنه حتى تمكن من الجلوس. كان يمتص الثلج الذي ملأ به فمه. شفتاه ترتعدان لكن عينيه كانتا أبداً تبسمان ويلتمع فيهما بريق حقد عميق ضاعفه ذلك المجهود الخارق الذي كان يبذله. وأخيراً رفع غدارته وسدّد إلى الهدف.

قال نيسـڤيتسكي يوصي پيار: قف وقفة جانبية واحجب نفسك بالغدارة.

ولم يستطع دينيسوف بدوره إلا أن يهتف به رغم أنه شاهد الخصم: رباه، احجب نفسك!

لكن پيار ظل واقفاً مباعداً بين ساقيه وذراعيه دون دفاع، يعرض صدره العريض لدولوخوف، وهو ينظر إليه بابتسامة شاحبة تحمل طابع الإشفاق والندم. أغمض دينيسوف وروستوف ونيسـڤيتسكي عيونهم. وسمعوا صوت انطلاق الغدارة وصيحة غضب ترافقها.

زمجر دولوخوف: أخطأت الهدف!...

انهارت قواه فهوى على الأرض ووجهه على الثلج.

أطبق پيار على رأسه بيديه وراح يلتجئ إلى الغابة. كان يسير بخطوات واسعة على الثلج الذائب يصرخ بصوت مبحوح كلمات متتابعة: شنيع!.. شنيع!... الموت... ترهات كل هذه!

فلحق به نيسـڤيتسكي وأعاده إلى منزله.

وحمل روستوف ودينيسوف الجريح.

كان دولوخوف ممدداً في قاع الزحافة مغمض العينين! لا يجيب عن الأسئلة التي كانت تطرح عليه.

وبينما هم داخلون إلى موسكو، عاد إلى رشده وأمسك بيده روستوف الجالس بجانبه. كان وجهه مضيئاً بقبس مشع من حنان وكأنه تحول إلى إنسان آخر. سأله روستوف وهو لا يصدق عينيه: حسناً! كيف حالك؟

ـ سيئة!

وبادر بصوت متقطع يقول: ولكن ليس من الجرح يا صديقي. أين نحن؟ في موسكو أليس كذلك؟... أنا لا أبالي بما قد يصيبني... ولكن هي... لقد قتلتها، لقد قتلتها... إنها لن تحتمل هذا، كلا، أبداً...

فقال روستوف مستفسراً: من «هي»؟

فأجابه دولوخوف وقد استحال إلى دموع هاطلة: أمي، أمي، ملكي، ملكي المعبود!...

وضغط على يد روستوف بأصابعه المتشنجة..

وعندما هدأت ثائرته، أوضح لروستوف أنه يعيش مع أمه وأنها إذا شاهدته على هذه الحال، فلن تحتمل المشهد. وراح يتوسل إلى نيكولا أن يذهب إليها قبل وصوله وأن يمهد السبيل لتخفيف الصدمة على أعصابها.

وافق روستوف على القيام بتلك المهمة التي أطلعته، ولدهشته البالغة، على أن ذلك الحقير، ذلك المبارز الولوع بالقتل، يعيش في موسكو مع أمه العجوز وأخته الحدباء، وأنه من أكثر الأبناء براً والإخوة محبة.

الفصل السادس

كان البيت في موسكو عامراً بالناس كما كانت عليه الحال في پيترسبورغ. فلم يجد پيار نفسه وحيداً مع زوجته في الأيام الأخيرة. وفي الليلة التالية للمبارزة، بقي پيار، كما كان يحدث له مراراً، في الغرفة الفسيحة التي كان يشغلها أبوه، تلك الغرفة التي مات فيها الكونت. ولم يشعر بحاجة إلى الذهاب إلى غرفة نومه.

تهالك على كنبة آملاً أن يجد في النوم سلواناً لما وقع ومضى، لكنه أخفق. كانت عاصفة عنيفة من الأفكار والعواطف والذكريات تصطخب في أعماقه، فما كان يطيق النوم ولا كان يستطيع الجلوس. قفز عن الكنبة وراح يذرع الغرفة الفسيحة بخطوات سريعة متلاحقة. استعاد في ذاكرته صورة هيلين في لحظات زواجهما الأولى، وهي عارية الكتفين ذات نظرة ضعيفة. وانتصب إلى جانب تلك الصورة، وجه دولوخوف الساخر كما كان يوم الحفلة ثم ذلك الوجه بالذات، الممتقع المتقلص الذي شاهده آخر الأمر عندما كان صاحبه التعس يهوي على الثلج.

بدأ يتساءل: «ماذا حدث بعدئذ؟ لقد قتلت «العشيق» نعم، لقد قتلت عشيق زوجتي. لماذا؟ كيف توصلت إلى ذلك»؟ ليجيبه صوت داخلي: «لأنك تزوجتها»! ـ «ولكن ما هو ذنبي»؟ ـ «ذنبك أنك تزوجتها دون حب ولأنك خدعتها إذ خدعت نفسك». وعادت إلى ذاكرته فوراً تلك اللحظة الحاسمة التي نطق خلالها، وكان ذلك بعد العشاء الذي تناوله عند الأمير

بازيل، بهذه الكلمات التي لم تكن تريد الخروج من فمه: أحبك. «نعم، كل شيء كامن في هذه الكلمة. كنت أشعر تماماً بأن لا حق لي بنطقها، وإنني كنت أخطو خطوة عميقة. ولم يخدعني شعوري المسبق».

وفجأة، احمر وجهه عندما مثلت في خاطره ذكريات شهر العسل. وكان حادث واحد خلال ذلك الشهر السعيد يغمره بالخجل. ذلك أنه ذات صباح، حوالى الساعة الحادية عشرة، بينما كان خارجاً من غرفتهما في طريقه إلى مكتبه، التقى هناك وكيله العام. فلما رأى هذا الرجل وجه پيار الطافح بالغبطة ومعطفه المنزلي المصنوع من الحرير، حيّاه تحية مفعمة بالاحترام وسمح لنفسه بإظهار ابتسامة صغيرة معبراً عنها عن مشاطرته سيده الشعور بسعادته.

ـ «وأنا الذي كنت أجعل منها مداراً لفخري! كنت أفتخر بجمالها الصارخ، وعصمتها المنيعة. كنت أعجب بأسلوبها في استقبال الناس في پيترسبورغ! كان فيها ما يبعث على الفخار! كنت أعتقد أنني لا أفهمها. وكم من مرة، لمت نفسي وأنا أدرس طبيعتها، على تجاهل هدوئها الدائم ومظهرها القانع، واختفاء كل آثار الرغبة فيها! مع أن مفتاح السر كان في هذه الكلمة الرهيبة: إنها فاجرة. لقد أوضحت هذه الكلمة الرهيبة كل الأمر وأنارت السبيل!

«يقترض أناتول منها المال ويقبل كتفيها العاريتين. لم تكن تعطيه المال ولكن كانت تتقبل منه القبل. وأبوها يثير غيرتها مازحاً فتجيبه بابتسامتها الهادئة بأنها ليست حيواناً لتتطرق الغيرة إلى نفسها. كانت تقول عني: يمكنه أن يفعل ما يشاء». ولما سألتها ذات يوم عما إذا كانت لا تشعر ببوادر الحمل، أجابتني بضحكة مزدرية أنها: «لم تكن حمقاء حتى ترغب في الحمل وإنها على كل حال لن تنسل مني ولداً».

راح يعيد على نفسه انحطاط أفكاره الطبيعي وفجاجة تعابيرها التي

لا تتناسب مع نشأتها الأرستقراطية الراقية. كانت تقول مثلاً: «هل تعتبرني سخيفة؟... جرّب لأرى.. شوف شغلك...» كان يحار دائماً، كلما رآها موضع تزلّف الجميع، في فهم السبب الذي يجعله وحده لا يشعر بحبها. «كلا ولا ريب، إنني لم أحبها قط. كنت أعرف أنها فاجرة، لكنني لم أكن أجرؤ على التصريح بهذه الحقيقة... والآن، ها إن دولوخوف متهاوٍ فوق الثلج، يحاول جاهداً أن يبتسم، ولعله سيموت، وأن يجيب على نزعة الندم في نفسي بالتظاهر بالشجاعة الخارقة»!

رغم ما يقال عنه إنه ضعيف العزيمة، كان پيار من أولئك الناس الذين لا يأمنون جانب أحد فلا يفصحون عن أحزانهم لأحد ويبقونها تعتلج في نفوسهم ويجترونها في خلواتهم.

استرسل في مناقشته: «إنها الجانية، نعم، إنها الجانية. ولكن ما العمل معها؟ لمَ ارتبطت بها؟ لماذا قلت لها تلك الكلمة القاضية «أحبك» رغم أنها لم تكن إلا كذبة وأسوأ من كذبة؟ إنني أنا الجاني إذن، ويجب أن أحتمل... ولكن ماذا أحتمل تحديداً؟ تلويث الشرف، الخصومة... كلا، كلا بل العار. إن كل هذه تتصل بسبب بينها فتجعل شخصيتي في خبر كان.

«لقد أعدموا» لويس السادس عشر «لأنهم» اعتبروه مجرماً عديم الشرف، وكانوا على حق من وجهة نظرهم، لكن أولئك الذين احتملوا الاستشهاد والتضحية من أجله، وكانوا يضعونه في مصاف القديسين، ألم يكن هؤلاء أيضاً على حق؟ طبعاً كانوا محقين من وجهة نظرهم. ثم أعدموا بعد ذلك روبسپيير لأنه كان مستبداً طاغية... فمن الذي كان على حق ومن الذي كان على خطأ؟ لا أحد. انتهز فرصة وجودك على قيد الحياة لأنك ستموت غداً كما كدت أموت اليوم منذ ساعة. فهل يستحق شيء في الوجود أن يتعذب

المرء من أجله، وخصوصاً أن الوقت الذي سنعيشه لا يساوي ثانية في عمر الزمن»؟

وفي اللحظة التي كان يعتقد فيها أنه بلغ الهدوء المنشود بفضل تلك المحاكمة البليغة، عاد يعيش في ذاكرته تلك الدقائق من الاستسلام الكاذب التي «راحت» خلالها تعرب له عن عشقها الكاذب. وحينئذ شعر بالدم ينحبس في قلبه ويكاد يفجره. فنهض من جديد ليمشي ويحطم ويجزئ كل شيء يقع تحت يده. راح يتساءل: «لماذا قلت لها: «أحبك» بحق الشيطان»؟ وبينما كان يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة العاشرة، تذكر كلمة موليير الشهيرة: «لكن، يا للشيطان، ماذا كان يريد أن يفعل في تلك الجحيم «تلك السفينة»، يريد القول بذلك «ما الذي دفعه إلى سلوك هذا الطريق الوعر»؟، وراح يضحك من تعاسته.

أثناء الليل استقدم خادمه وأمره بإعداد ما يلزم. كانت فكرة التقائه زوجته تبدو له مخيفة فقرر الرحيل منذ صباح اليوم التالي على أن يشرح الأمر لها في رسالة يعلمها فيها أنه يفترق عنها إلى الأبد.

وعندما جاء الوصيف بقهوته عند الصباح، كان پيار مستلقياً على كنبة تركية حيث بات ليلته وفي يده كتاب. قفز من مرقده فزعاً وراح يجيل حوله نظرة متبلدة حتى أدرك أخيراً أين كان ولماذا.

قال الخادم:

ـ سيدتي الكونتيسة تسأل إذا كنتم سعادتكم على استعداد لمقابلتها.

لم يكن پيار قد حزم أمره على الجواب بعد، عندما دخلت الكونتيسة مرتدية غلالة من الساتان الأبيض المطعم بالفضة، ووجهها النضر، تتوجه ضفيرتان ثقيلتان على شكل إكليل، وقد ارتسمت فوق جبهتها المرمرية المائلة قليلاً ثنية أقامها الغضب ليشوه ذلك الإشراق الرائع. دخلت متحلية

بالحزم والعظمة. لقد تناهى إليها خبر المبارزة فجاءت تسأله إيضاحاً. مع ذلك، استطاعت بهدوئها أن تسيطر على أعصابها حتى أنجز الوصيف عمله وغادر الغرفة. واسترق بيار نظرة خجلى خلال نظارتيه وبدا أشبه بالأرنب الذي دهمته كلاب الصيد، عندما يرخي أذنيه وينطوي على نفسه أمام أعدائه الألداء. حاول التحصن وراء كتابه والتلهي بالقراءة، لكنه شعر بعقم هذا التصرف، فراح يرقبها من جديد بنظرة وجلة. أما هي فقد لبثت واقفة تتفحصه وعلى شفتيها ابتسامة هازئة. سألته بلهجة حازمة عندما خرج الوصيف من الغرفة: ماذا هناك من جديد؟ لقد ارتكبت أمراً جللاً! ما معنى ذلك؟

سألها بيار: أنا؟ ماذا فعلت؟

ـ هه، أنت قد أصبحت مغواراً في الحروب! ما معنى هذه المبارزة؟ ماذا أردت أن تثبت بها؟ أجبني عندما أحدثك!

استدار بيار بتثاقل فوق الكنبة وفتح فمه لينطق بشيء، لكنه لم يُخرج من حنجرته حرفاً واحداً. تابعت هيلين تقول: حسناً، بما إنك لن تجيب فإنني أنا التي سأتحدث. إنك تصدق كل ما يقولونه لك، ولقد قالوا لك إن دولوخوف... كان «عشيقي».

قالت هذه الكلمة وأرفقتها بضحكة مدوية. كانت تتحدث بالفرنسية بتلك الرنة الوقحة المعروفة في أسلوبها، فأطلقت تلك الكلمة الفجة دون أي ارتباك أو خجل! أردفت:

وأنت، صدقت هذه الأقاويل. ولكن على أي شيء برهنت في هذه المبارزة؟ على أنك «أحمق» فحسب. ثم إن كل الناس كانوا يعرفون عنك ذلك!... والآن تريد أن تجعل مني أضحوكة الموسكوفيين، سيقولون كلهم إنك في ساعة سكرك أخفقت في السيطرة على أعصابك، فتحديت رجلاً كنت تغار منه دون سبب وبارزته...

وأضافت وهي ترفع صوتها أكثر فأكثر: أجل، رجلاً يستأهل كل الالتفات والاحترام أكثر منك...

زمجر پيار وهو يرف بعينيه دون أن ينظر إليها أو أن يقوم بحركة ما: هم! هم!...

ـ ما الذي جعلك تعتقد أنه عشيقي؟... لأنني أجد متعة في رفقته؟ لو أنك كنت أكثر ذكاء لفضلت عشرتك على عشرته بدون شك.

غمغم پيار بصوت أجش: دعيني هادئاً... أرجوك.

ـ ولِمَ إذن؟ إن من حقي أن أتكلم على ما أعرف!... أقول لك بكل صراحة: مع زوج مثلك، أية امرأة ما كانت لتجعل لنفسها عشاقاً؟... ومع ذلك فإنني لم أفعل ذلك.

ودّ پيار أن يقول شيئاً، لكنه اكتفى بأن ألقى عليها نظرة لم تفهم شيئاً مما قصده بها. عاد يجلس على الكنبة وهو فريسة قلق فظيع. كان مبهور الأنفاس يكاد صدره ينفجر، فهو يعرف الوسيلة التي تضع حداً لعذابه، لكنه كان يتراجع أمام هذه النتيجة. وأخيراً ألمح بصوت متقطع: الأفضل لنا أن نفترق.

ـ نفترق؟ يا للغبطة! ولكن شرط أن تعطيني ما أعيش به!... أما ما تبقى، فإنني أسخر به!

قفز پيار عن الكنبة ومشى إليها بخطوات مترنحة.

زمجر كالحيوان الجريح: سأقتلك!

وأطبق بقوة لم يعهدها في نفسه على قطعة الرخام التي تغطي الطاولة ورفعها مهدداً.

تقلص وجه هيلين من الخوف فأطلقت صرخة ثاقبة ورمت بنفسها إلى الوراء. لقد نطق الدم الأبوي في عروق پيار: كان يشعر بلذة غريبة مسكرة

من غضبه. رمى قطعة الرخام فتحطمت واندفع نحوها مطبق القبضتين وزأر بصوت مخيف اهتز له القصر رعباً: اخرجي!

ولو أن هيلين لم تركض في تلك اللحظة، لوقعت أمور لا يعلم مداها إلا الله وحده.

سافر بيار وحيداً بعد ثمانية أيام، في طريق أملاكه في روسيا الكبرى، تلك الأملاك التي كانت تشكل أكثر من نصف ثروته.

الفصل السابع

بعد شهرين على وصول أنباء معركة أوسترليتز إلى ليسيياغوري ـ الجبل الأقرع ـ حيث محل إقامة الأمير العجوز بولكونسكي. وما زال أندريه ابنه في عداد المفقودين رغم الرسائل التي وجهها والده إلى السفارة، وكل التحقيقات التي أجريت والتي لم تسفر عن إيجاد جثة الأمير أندريه وخصوصاً أن اسمه لم يرد في قائمة الأسرى. لم يكن هناك أي أمل في أن تكون جثته قد رفعها السكان بعد المعركة، بل إن هذه النظرية كانت أكثر النظريات إيلاماً لعائلة الفقيد. لأنه في هذه الحالة، يكون وحيداً في مكان ما في طور النزاع أو في دار النقاهة دون أن يكون حوله نصير، ودون أن يستطيع أن يبعث بأخباره. اطلع العجوز بادئ الأمر على أنباء الهزيمة عن طريق الصحف. كانت هذه، كعادتها تعلن بعبارات مقتضبة أن الروس بعد معارك عظيمة أظهروا فيها بسالة فائقة، اضطروا إلى التراجع وأن الانسحاب جرى في جو منظم. فلما قرأ الأمير هذا البلاغ، أدرك أن الروس قد هزموا. ولم تمض ثمانية أيام حتى تلقى رسالة من كوتوزوف يطلعه فيها على مصير ابنه. قال في رسالته:

«سقط ولدكم أمام عينيّ والعلم في يده بينما كان على رأس فيلق، سقوط الأبطال، فكان جديراً بأبيه، وبوطنه. وإننا، لشديد أسفي وأسف الجيش كله، لا ندري إذا كان حياً أو ميتاً. مع ذلك فإننا نستطيع أن نرضي أنفسنا بالقول إنه نجا وإلا، فإن اسمه كان يجب أن يكون في قائمة أسماء الضباط القتلى الذين

اطلعت على نسخة منها بنفسي، بعد أن حصلنا على هذه القائمة عن طريق المفاوضات مع العدو».

وصلت هذه الرسالة إلى الأمير العجوز في ساعة متأخرة من الليل، عندما كان وحيداً في مكتبه. وفي اليوم التالي، قام بنزهته الصباحية وكأن أمراً لم يحدث. لكنه بدا شديد الشراسة مع وكيله وبستانيه ومهندسه. وعلى الرغم من سمات الغضب التي كانت بادية على وجهه، فإنه لم يوجه اللوم إلى أحد.

وعندما دخلت الأميرة ماري لتحيته صباحاً حسب العادة، كان منصرفاً إلى دولابه (دولاب صنع الفخار)، فلم يلتفت إليها.

وفجأة قال لها بصوت مبحوح: آه، ماري!

ألقى بإزميله جانباً، فظلت العجلة تدور بفعل السرعة المكتسبة، واستمر ذلك الصرير الذي أخذ يخفت تدريجاً، عالقاً زمناً طويلاً في ذاكرة ماري مرتبطاً بذكريات تلك الصبحية.

بعد أن اقتربت منه، قرأت على وجهه فكرة جعلتها تتهم عينيها، واضطربت كلياً. لم يكن الوجه حزيناً ولا مرهقاً، ولكن كان منقلباً وكأنه فريسة عراك غير طبيعي، وكان ينبئها بأن مصيبة معلقة من قبل فوق رأسها على وشك أن تسحقها الآن. تلك المصيبة التي كانت أخطر ما مر بها في حياتها، والتي كان يستحيل محو آثارها ويستحيل احتمالها بتجلّد، كانت موت كائن تحبه بقوة.

صرخت الأميرة المكدّرة بصوت خارج عن غير ذاتها وبألم شديد الوقع قائلة: أبي! أندريه!

لم يتمكن الأب من الصمود لنظرتها، فأشاح بوجهه وانتحب. قال بصوت كالنباح بلهجة غاضبة وكأنه يريد أن يطرد ابنته من حضرته: تلقيت

أخباراً تفيد أنه ليس في عداد الجرحى ولا في عداد الموتى... لقد كتب لي كوتوزوف... إذن فهو ميت!

لم يستول الدوار على الأميرة ولم تفقد وعيها، كانت من قبل شاحبة الوجه. لكنها عندما تلقت النبأ، تبدل وجهها ولمعت نظراتها بوميض أضاء عينيها الجميلتين. سيطر على ألمها العميق لون من الذهول الغريب، مترفع عن أفراح هذه الأرض السفلية وأتراحها. نسيت الخوف الذي كان يبعثه أبوها في نفسها فاقتربت منه وأمسكت بيده وأحاطت عنق العجوز المعقد بذراعيها وقالت: أبتاه، لا تبالِ بوجودي. لنبك معاً.

صرخ الأمير وهو يتخلص من ذراعي ابنته: هؤلاء السفلة، لماذا أضاعوا الجيش وقتلوا الرجال؟ اذهبي وأخبري ليز.

تهاوت الأميرة في مقعد وأطلقت لدمعها العنان. رأت بعين الخيال أخاها يودعهم قبل سفره، يودع ليز ويودعها هي، بلهجة ودودة. ورأت نفسها تضع «الأيقونة» الصغيرة حول عنقه وهو يقابل صنيعها بسخرية رقيقة. تساءلت: «هل كان مؤمناً؟ هل تاب عن إلحاده؟ هل هو الآن هناك في السماء، في مقام الراحة الأبدية»؟

سألت أباها خلال دموعها: قل لي يا أبي، كيف وقع ذلك؟

ـ هيا، هيا، لقد قتل في معركة فقدنا فيها إلى جانب مجدنا خيرة الروس. هيا يا أميرة ماري، أخبري ليز وسألحق بك.

عندما عادت ماري من منزل أبيها، كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمام نولها. راحت ترقبها وتتأمل الأمارات التي تدل على القناعة والإشراقة المتيقظة، التي تنفرد بها النساء الحاملات. لم تكن ترى فيها زوجة لأخيها فحسب، بل كانت تنظر في أعماق روحها وتتأمل الحدث السعيد الذي كان يتم في عالم المجهول.

قالت ليز وقد توقفت عن العمل على نولها وتستلقي إلى الوراء: ماري، أعطني يدك.

أخذت «ليز» يد ماري ووضعتها على بطنها. كانت عيناها تضحكان ضحكة الترقب والانتظار، وشفتها ذات الزغب ترتفع لتبقى جامدة في مكانها مضفية على وجهها سعادة الأطفال الأبرياء.

ركعت ماري ودفنت وجهها في ثنيات ثوب زوجة أخيها.

قالت ليز وهي تنظر إلى ماري بعينين مشرقتين: هنا، هنا، أتشعرين؟ إن هذا يبدو لي شديد الغرابة. ثم هل تعلمين؟ لقد أحببته كثيراً.

لم تستطع ماري أن ترفع رأسها. كانت تبكي.

ـ ماذا بك يا ماري؟

ـ لا شيء... أنا أشعر بفائض من الحزن كلما فكرت في أندريه.

وجففت ماري دموعها بثوب زوجة أخيها.

حاولت مراراً أن تهيئها لتقبل الخبر المفجع، لكن دموعها كانت تحبس الكلمات في حنجرتها كل مرة فتصمت وتتراجع. وما كان يمكن لتلك الدموع التي لم تكن ليز تفهم الباعث على ذرفها إلا أن تعذبها وتزعجها مهما بلغ ذكاؤها من ضعف. لم تكن تنبس ببنت شفة، كانت تجيل حولها في الغرفة نظرات مضطربة. وقبل موعد الطعام، رأت الأمير العجوز يدخل إلى غرفتها. وكان يبعث الرهبة في نفسها أبداً. لكنه كان في تلك المرة على غير عادته، تحمل أمارات وجهه طابعاً سيئاً متباهياً. وقد رأته يخرج من غرفتها دون أن يوجه إليها كلمة. راحت تحدجه بنظرة فارغة ثم استغرقت في التفكير وقد ارتسمت على وجهها ظاهرة العناية الموجهة إلى مكنون أحشائها كما يحدث غالباً للنساء الحبالى. وفجأة استسلمت للبكاء.

سألت باكية: هل تلقيتم أنباء عن أندريه؟

ـ كلا، إن الوقت لايزال مبكراً كما تعلمين. لكن أبي شديد القلق من أجله، الأمر الذي يؤلمني جداً.

ـ إذن، أما زالوا لا يعرفون شيئاً؟

فأجابت ماري مؤكدة وهي تنظر إليها بعينيها المشعتين: كلا، لا شيء.

صممت أن تخبئ الحقيقة وأقنعت أباها بوجوب اتخاذ مثل هذا القرار بانتظار قيام «ليز» من الوضع القريب المنتظر. وراح الأب والابنة، كل على طريقته، يسيطر على آلامه ويخبئ حزنه. كان الأمير العجوز لا يتعلق بأي أمل رغم أنه كلف رجلاً موثوقاً به القيام بتحريات في النمسا. كان مقتنعاً بأن ابنه قد قتل، وأعلن نبأ موته لجميع الناس. بل أوصى على نصب يرسل إليه من موسكو ليقيمه في حديقته ذكراً لابنه القتيل. وعلى الرغم من محاولته عدم تبديل شيء من عاداته، فإن قواه كانت تخونه: فقصُر مدى نزهاته وضعفت شهيته للطعام وجفاه النوم. وبالاختصار، كانت حالته تسوء يوماً بعد يوم. أما الأميرة ماري، فكانت بعيدة عن مسالك اليأس، تصلي من أجل أخيها كما تصلي من أجل مخلوق حي تنتظر خبر عودته سالماً بين لحظة وأخرى.

الفصل الثامن

فجأة بعد إفطار يوم ١٩ آذار: قالت الأميرة الصغيرة: يا صديقتي الطيبة، أخشى أن يكون «الفروشتيك»[1]، كما يسميه الطاهي، قد سبب لي بعض الارتباك.

وبشكل آلي، تقوست شفتها المظللة. ولما كان كل ما في ذلك البيت منذ وصول ذلك النبأ المفجع، من ابتسامات وأصوات وحركات يحمل طابع الحداد، فإن ليز نفسها انساقت مع المجموعة دون أن تعرف شيئاً من الموجبات، وسارت مع التيار، فكانت ابتسامتها تزيد في الاكتئاب العام.

صاحت ماري وأسرعت بخطى ثقيلة: ماذا بك يا عزيزتي؟ كم أنت شاحبة!

وألمحت إحدى الوصيفات قائلة: ماذا يا صاحبة السعادة لو أرسلنا في استدعاء ماري بوغدانوفنا؟

وماري بوغدانوفنا هذه، قابلة تسكن في المدينة الصغيرة المجاورة، وقد استقرت في ليسيبيا غوري منذ خمسة عشر يوماً.

قالت ماري موافقة: بدون شك، لعل استدعاءها أصبح ضرورياً. أنا ذاهبة إليها، تشجعي يا ملكي!

وقبل أن تخرج قبلت ليز فصاحت هذه متوسلة وجهها الشاحب

---

(١) طعام الفطور بالألمانية. (المترجم).

المتقلص من الآلام يعكس الفزع الصبياني من العذاب والألم المنتظرين: أوه، كلا! كلا، إنها المعدة... قولي إنها المعدة، قولي، ماري، قولي...

وغرقت في البكاء وهي تلوي ذراعيها كالطفل بحركة لم تخل من التصنع.

ابتسمت ماري وخرجت مسرعة مصحوبة بـ«أوه! أوه! ويا ربي! يا ربي!» التي كانت ليز تواكبها بها.

وفي الطريق، التقت القابلة التي كانت قادمة وهي تفرك يديها البضّتين السمينتين ووجهها المرسوم بالهدوء. قالت ماري وهي تنظر إلى القابلة نظرات حائرة من عينيها المتسعتين من الخوف: يا ماري بوغدانوڤنا، أعتقد أن المخاض قد بدأ.

فقالت ماري بوغدانوڤنا دون أن تسرع الخطى: حمداً لله يا أميرة. لكن هذه الأمور لا يجوز للعذارى معرفتها.

ـ ولكن لمَ لم يصل الطبيب من موسكو؟

وبناء على رغبة ليز وأندريه أوصوا على طبيب مولد من موسكو، ليحضر في الوقت المحدد. وكانوا ينتظرونه بفارغ صبر.

أجابت القابلة: لا بأس يا أميرة، لا حاجة إلى الطبيب سيسير كل شيء على ما يرام.

وبعد خمس دقائق، سمعت ماري، التي كانت قد انسحبت إلى جناحها، صوتاً يدل على أن بعضهم ينقل شيئاً ثقيلاً. واربت الباب، فرأت عدداً من الخدم يحملون بينهم الديوان الجلدي الذي كان يزين مكتب الأمير أندريه، ويدخلونه إلى غرفة ليز. وكان الخدم يؤدون عملهم بتأن.

بقيت ماري في غرفتها بل كانت تصيخ السمع إلى الضجة التي تصدر بين الحين والحين وتوارب الباب بين فترة وأخرى لتراقب الحركة القائمة

في الممشى. كان عدد من النسوة بين داخلات وخارجات، يمشين بخطى هادئة ولكنهن يشحن بأبصارهن عن وجه الأميرة كلما التقت نظراتهن عينيها المتسائلتين. ولم تجرؤ الأميرة على طرح أسئلة عليهن، فكانت تغلق بابها لتجلس على مقعد أو لتأخذ كتاب الصلوات أو لتركع أمام «الأيقونات» مبتهلة. ولشدة دهشتها الأليمة، كانت الصلاة عاجزة عن تخفيف حدة ألمها. وفجأة فُتح باب غرفتها بهدوء وبرز رأس يغطيه منديل، ومن تحته مربيتها العجوز براسكو في ساڤيشنا التي، نزولاً على أوامر الأمير، لم تكن تدخل إلى غرفتها قط تقريباً. قالت المربية: لقد جئت أجالسك يا ماريتي الصغيرة. وها هي يا ملكي شموع زواج والديك سأشعلها أمام قداسة السعيد.

ـ كم تسرني صحبتك أيتها المربية.

ـ إن الله رحيم يا حبيبتي.

أضاءت المربية الشموع الملفوفة بورق مذهب أمام خزانة التمائم المقدسة وعادت تجلس قرب الباب وبين يديها أشغالها. وتناولت ماري كتاباً وأخذت تقرأ، فلم تكونا تتبادلان النظر دون الحديث إلا إذا طرق مسامعهما صخب أو ضجيج أو أصوات خطى. وكانت نظرة ماري قلقة بينما كانت نظرة المربية هادئة.

كان الشعور بالقلق الذي استحوذ على ماري في غرفتها، منتشراً في كل أنحاء المنزل بين كل أهلها. ثمة خرافة قديمة تقول إنه كلما انتقص عدد الأشخاص الذين على معرفة بأمر المرأة التي تعاني المخاض، خفّت آلامها لذلك فقد كان كل من في المنزل يتعمّد الجهل بالأمر متظاهراً بالهدوء، فلا حديث عن الولادة ولا همس.

ولكن كان لون من الاهتمام المشبع بالحنان يظهر خلال ذلك الجمود والحركات الخطيرة المعروفة لدى كل من في خدمة الأمير العجوز. وكان ذلك الاهتمام يتحد مع القناعة بوقوع حدث مجهول لايزال في دور التكامل.

لم تكن أيّ من الخادمات والوصيفات تضحك. أما في الغرف الأخرى فكانت الشموع مضاءة والمسارج مشعلة وكل من في البيت يقظان. وكان الأمير العجوز يذرع غرفته على أطراف قدميه حذر الضجة، فقرر أخيراً أن يرسل تيخون للاستفسار من ماري بوغدانوفْنا عن حالة الأم المنتظرة. قال له: عليك أن تقول لها فقط إن الأمير يسأل عن الحالة. وعد لي بما ستقوله لك. فلما بلغ إلى حيث كانت القابلة قالت له وفي عينيها نظرة حافلة بالمعاني: أخبر الأمير أن المخاض قد رد فيها.

وعاد تيخون يحمل الجواب. فقال الأمير وهو يغلق الباب وراءه: حسناً، حسناً.

لم يسمع تيخون بعد ذلك ضجة ما أو صوتاً صادراً عن مكتب الأمير. وبعد فترة طويلة، دخل إلى المكتب بحجة تنظيف الشموع. فرأى الأمير مستلقياً على الكنبة. راح تيخون يتأمل وجهه المهدم فترة، ثم اقترب منه بهدوء وقبل كتفه وخرج دون أن يفعل شيئاً آخر أو أن يفصح عن رغبته. بينما بقي السر الجليل الذي لا يضاهيه شيء في العالم، يتكامل ويتحقق. وأقبل الليل وراح شعور الانتظار والخشوع أمام المجهول الذي لا يمكن إدراكه، يتزايد باستمرار بدلاً من أن تخبو جذوته.

كانت تلك الليلة من ليالي آذار التي يعود فيها الشتاء فجأة ثائراً ينقض بيأس بجحافله الأخيرة وعواصفه الثلجية. وكان بعض الرجال على جيادهم حاملين المصابيح، يقفون في أماكن معينة على الطريق المتصلة بالشبكة العامة، منتظرين وصول الطبيب الألماني من موسكو ليرافقوه إلى القصر. وكانوا ينتظرون قدومه بين حين وآخر وقد أرسلوا جياداً إلى الطريق العام لاستقباله.

منذ فترة طويلة، تركت ماري كتابها وراحت تتأمل بصمت بعينيها

المشعتين، وجه مربيتها المتغضن الذي ألفت تقاطيعه وعرفتها ابتداء من خصلات شعرها الأشهب الناجية من قماط رأسها وحتى ذلك الجيب الجلدي الحي الذي يتدلى أسفل ذقنها.

وكانت المربية سافيشنا، تقص بصوت منخفض، دون أن تسمع أو تفهم ما تقوله بنفسها، حكاية كررتها أكثر من مائة مرة، موضوعها أن الأميرة المرحومة، وضعت ماري في كيشينيف[١] بمساعدة سيدة مولدافية[٢] فقط. وعقبت: سوف يرحمنا الله. أما «الدوختور» فإنه لا يستطيع شيئاً.

وهبت ريح قوية على إحدى النوافذ التي رُفع حاجزها الخشبي الخارجي، نزولاً عند أوامر الأمير الذي درج على مثل هذه العادة كل عام، حال وصول طير القُبّرة مؤذناً بحلول الربيع، فاهتزت الدقيرة التي لم تكن محكمة الوضع وفتحت النافذة وأزيح الستار الحريري وانطفأت الشمعة. ارتجفت ماري بتأثير تلك النفحة الثلجية الباردة. وقامت المربية فوضعت أشغالها واقتربت من النافذة وراحت تحاول الإمساك بالدرفة الخارجية لإغلاقها وهي تنحني إلى الخارج على قدر المستطاع. والريح العاصفة تحاول انتزاع طرفي قمطتها واختطاف خصلات شعرها الأشهب.

قالت وهي ممسكة بالحاجز الخشبي: يا أميرة، يا ابنتي العزيزة، هناك بعضهم قادم في الممشى، وحوله المصابيح المضاءة. إنه «الدوختور» ولا شك.

صاحت ماري: حمداً لله! يجب أن أسرع لاستقباله، فهو لا يعرف اللغة الروسية.

ألقت شالها على كتفيها وأسرعت تستقبل القادمين. وبينما هي تجتاز

---

(١) مقاطعة سوفياتية كانت تابعة لرومانيا (المترجم).

(٢) مولداڤيا بالرومانية مولدوڤيا. إحدى الجمهوريات السوڤياتية. (المترجم).

الردهة، لمحت خلال النافذة عربة يواكبها حملة المصابيح، تقف أمام المدخل. فنزلت على السلم. وكان على قائمة حاجز السلم شمعة تصارع الريح، تضيء المدخل. رأت فيليب، وهو أحد الخدم، واقفاً بذهول أسفل السلم وفي يده شمعة. وعند مدخل السلم، كانت خطوات حذاء ملبّد ترتفع. وارتفع صوت لم يكن غريباً على ماري. كان الصوت يقول: حمداً لله وشكراً! وأبي؟

فيجيبه رئيس الخدم داميان الذي أسرع إلى الأسفل: لقد نام منذ حين.

ونطق الصوت ببضع كلمات أخرى أجاب عنها داميان، وراحت الخطوات الخفيفة غير المرئية تصعد السلم مقتربة.

تساءلت ماري: «أهو أندريه؟ كلا مستحيل، سيكون ذلك صعب التصديق»!

ورأت على البسطة في اللحظة التي راودتها تلك الفكرة، قرب الخادم الذي كان يحمل الشمعة، ظلاً يظهر ثم وجه الأمير أندريه ثم جسده، وقد غطت الثلوج ياقة معطفه السميك. أجل، لقد كان القادم أندريه بنفسه، لكنه كان شاحباً تصعب معرفته لأول وهلة، لأن عذوبة غريبة كانت تحل محل قسماته القاسية. وعندما بلغ أعلى السلم، ضم أخته بين ذراعيه. وسألها: ألم تتلقوا رسالتي؟

ولم ينتظر الجواب الذي لم يكن ليأتي لأن ماري كانت عاجزة عن الكلام، ونزل ليأتي بالطبيب المولد الذي التقاه عند المرحلة الأخيرة من الطريق. وبعد لحظة، عاد بصحبة الطبيب يصعد السلم بخطوات واسعة، وعاد يعانق شقيقته من جديد.

قال: يا لها من مصادفة غريبة، أليس ذلك يا عزيزتي ماري؟

ونزع معطفه وحذاءه ومضى إلى غرفة زوجته.

الفصل التاسع

كانت آلام الأميرة الصغيرة تترك لها فترات متقطعة من الراحة وهي مستلقية على الوسائد. وكانت خصلات من شعرها الأسود تفلت من غطاء رأسها الأبيض وتسترسل على طول خديها النديين، وكان فمها الوردي ذو الشفة المظللة، منفرج الشفتين قليلاً وكانت تبتسم بمرح. ولما وقف أندريه قرب الكنبة التي كانت ممددة عليها، وقعت عيناها الملتمعتان المذعورتان عليه، ولكنها لم تبدل من تعبيرهما. كانت تلك العينان تقولان: «إنني أحبكم جميعاً، ولم أسئ إلى أحد فلماذا أتألم؟ خففوا آلامي عني»! عرفت زوجها، لكنها لم تعرف معنى ظهوره المفاجئ في تلك اللحظة. دار أندريه حول الكنبة حتى بلغ موضع رأسها فقبلها في جبينها قائلاً: يا روحي العزيزة، إن الله رحيم.

هذه أول مرة يناديها بهذا القول. لكن عينيها امتلأتا بالعتاب أشبه بعيني طفل حرد وكأنها تقول: «كنت أتوقع منك بعض السلوان فإذا بك كالآخرين لا تختلف عنهم في شيء»! لم تكن مدهوشة لرؤيته أمامها لكنها لم تكن تعرف السبب الذي جاء به. لم يكن لوصول زوجها أية علاقة بآلامها. وتجددت الآلام، فرجت ماري بوغدانوفنا الأمير أندريه مغادرة الغرفة.

خرج أندريه، ثم دخل المولّد إلى الغرفة، فالتقى أخته وراح يتحدث معها بصوت خفيض حديثاً تقطعه فترات صمت. كلاهما كان ينتظر مرهفاً سمعه بنفاد صبر.

قالت له ماري: هيا يا صديقي.

انتقل أندريه إلى شقة ليز وأقام في الغرفة الملاصقة لغرفة النوم. وبعد

فترة خرجت امرأة يعلو الذعر وجهها فلما رأت الأمير تضاعف ارتباكها. غطى وجهه بيديه وبقي كذلك دقائق طويلة. كان الأنين يقطع نياط القلوب والعويل الصادر عن غرفة النوم يشبه زمجرة الحيوان، اقترب أندريه من الباب وهمّ بفتحه. لكن صوتاً من الداخل صاح بذعر: مستحيل! مستحيل!

وقاومت يد مجهولة حركته. فرجع إلى غرفته يذرعها بخطى مضطربة، توقف الأنين. بعد ثوان قليلة، انطلقت صرخة مروعة تجاوبت في المنزل، صرخة لا يمكن أن تصدر عن ليز وهي على مثل حالها من الضعف. بينما اندفع نحو الباب من جديد يحاول اقتحام الغرفة، انقطعت الصرخة فجأة وارتفع استهلال طفل وليد.

للوهلة الأولى تساءل أندريه: «لماذا أتوا بطفل إلى هنا؟ طفل؟ أي طفل؟ ماذا يفعل هنا الطفل؟ هل ولد طفل»؟

وفجأة أدرك أن ذلك الاستهلال الذي سمعه يحمل معه فرحاً لوالديه، فخنقته العبرات، وارتمى على مسند النافذة وانخرط في بكاء كطفل صغير. جاء الطبيب، وكان خالعاً «الرودنغوت» الرسمي حاسراً أكمام قميصه، تحرك رعدة عصبية قسمات وجهه الممتقع. لم يجب عن أسئلة الأمير إلا بنظرة تائهة، وتجاوزه إلى مقعد. وهرعت امرأة جمدت في مكانها عندما وقع نظرها على الأمير أندريه وكأنها فقدت حواسها. فقرر هذا دخول غرفة النوم. رأى ليز ممددة كما شاهدها منذ خمس دقائق، وقد فارقتها الحياة.

هذه هي التعابير نفسها التي قرأها على وجهها الناعم الصغير ذي الشفة المظللة بطيف من الزغب، والخدين الشاحبين والنظرة الشاخصة الجامدة.

كان وجهها الميت الفتان يقول: «إنني أحبكم جميعاً حباً جماً. وأنتم ماذا صنعتم بي؟».

وفي ركن من الغرفة كان شيء صغير أحمر يهمهم ويصرخ بين يدي ماري بوغدانوفنا البضتين المرتعشتين.

بعد ساعتين من هذا الحادث، مضى أندريه إلى غرفة أبيه بخطوات صامتة. كان العجوز قد اطلع على كل شيء. وكان واقفاً قرب الباب فلما فتح، أخذ عنق ابنه بيديه الهرمتين الشبيهتين بالكلابات، وراح يبكي كالطفل.

شيع جثمان الأميرة الصغيرة في اليوم الثالث، اقترب الأمير أندريه من النعش ليودع زوجته. كانت قسمات وجهها محتفظة بذلك التعبير الخالد رغم عينيها المغمضتين: «ماذا فعلتم بي»؟ فأحس أندريه كأن شيئاً قد تمزق في صدره وأحسّ أنه مذنب وأن خطيئته لا تغتفر. وخانته الدموع فلم يستطع البكاء. وجاء الأمير العجوز بدوره يقبل اليد الصغيرة الممددة فوق الأخرى باسترسال وهدوء. وكان الوجه، وجه الأميرة يقول له: «ماذا فعلت بي؟ ولماذا»؟ فأشاح الشيخ بعينيه عنها بغضب إزاء ذلك الاستفسار الصامت.

وانقضت خمسة أيام أخرى، فأقيم الاستعداد لتعميد الأمير الطفل نيكولا أندرييڤيتش. كانت المربية تمسك بقمط الذقن بينما كان الكاهن يمسح بالزيت الكفين الصغيرتين وأسفل القدمين بريشة إوز.

كان الجد، وهو عراب الطفل، يخاف أن يفلته من يده فيسقط على الأرض، لذلك فقد حمله حول جرن المعمودية، وكان عبارة عن طست قديم من الحديد الأبيض المبعوج، وأسلمه إلى العرّابة التي لم تكن إلا الأميرة ماري. أما أندريه فكان الخوف يكاد يودي به لشدة قلقه على ابنه خشية أن يغرقوه في الطست أثناء العماد. كان ينتظر في الغرفة المجاورة ينتظر بلهفة نهاية الطقس الديني. ولما جاءته المربية به، راح يتأمله بسرور وأخذ يهز رأسه برضى وارتياح لحديث المرأة، التي أخبرته بأنهم عندما ألقوا في الطست بقطعة الشمع الملصق به خصلة من شعر الوليد، لبثت طافية تسبح على سطح الماء دون أن تنحدر إلى القاع[1]

(١) دليل على أن الطفل سيعيش. (المترجم).

الفصل العاشر

قام الكونت روستوف العجوز بنشاط مضن لكي يجعل المسؤولين يتجاوزون عن اشتراك ابنه في مبارزة دولوخوف ـ بيزوخوف، ونجح في مسعاه. وكان نيكولا ينتظر ذلك. والحق أنه بدلاً من أن تسحب منه رتبته، عُين ضابطاً مساعداً لحاكم موسكو العام. كان بحكم منصبه الجديد، مرغماً على البقاء في العاصمة. وهكذا تخلف عن مرافقة عائلته إلى الريف وقضى الصيف كله في موسكو. وكان دولوخوف قد شفي من جراحه بفضل عناية أمه التي كانت تحبه حباً عميقاً. فازدادت أواصر الصلة بينه وبين نيكولا خلال فترة نقاهته. وكانت أم دولوخوف، العجوز ماري إيـڤانوڤنا متأثرة بهذه الصداقة، فأحبت روستوف وأحلته من نفسها مكاناً لائقاً وراحت تتحدث معه عن عزيزها ڤيديا. كانت تقول:

ـ نعم يا كونت إنه رجل نبيل وروحه سامية لا تتفق والعصر الحاضر الفاسد. ما من أحد يحب الفضيلة اليوم، إنها تزعج كل الناس. خذ مثلاً يا كونت، هل ما قام به بيزوخوف نبيل؟ لقد كان ڤيديا يحبه من أعماق قلبه، وهو حتى هذه الساعة لم يتفوه بكلمة سيئة عنه. تذكرمشاكلهم في پيترسبورغ وقصة ذلك الشرطي. إن الله وحده يعلم حقيقتها. لكنهما كانا مشتركين فيها معاً أليس كذلك؟ مع ذلك، فقد تخلص بيزوخوف من النتائج أما «ڤيدياي» العزيز فقد تحمل كل الوزر. والله يعرف وحده مبلغ الألم الذي قاساه في محنته! ثم أعادوا إليه رتبته؟ إن البواسل والمواطنين المخلصين مثله قليلون

في الجيش!... وهم في حاجة إلى أمثاله... ثم هذه المبارزة؟ إنني أسألك يا كونت، هل حقيقة أن لهؤلاء الناس قلباً وشرفاً؟ إنه يعرف أن ڤيديا ولدي الوحيد، مع ذلك فقد ورطه في تلك المبارزة وأطلق النار عليه دون أن ينذره! ولحسن الحظ، رفق الله بنا. وما هو سبب المبارزة؟ من الذي يخلو في عصرنا هذا من الدسائس؟ فإذا كان يحس بالغيرة على زوجته، لماذا لم يبد له ملاحظاته من قبل بدلاً من أن يحتمل زياراته المتكررة طوال عام كامل؟ وهو إذ تحداه، كان يعتقد أن ڤيديا لن يقبل التحدي لأنه مدين له ببعض المال. يا لها من دناءة، يا لها من خسة! إنني أعرف تماماً يا عزيزي الكونت إنك تفهم «ڤيدياي» جيداً. ولهذا السبب أحبك من كل قلبي. قليلون الذين يفهمونه، فلا بأس! إنه روح سامية؟

وكان دولوخوف نفسه يحدث روستوف بشيء من هذا القبيل، الأمر الذي لم يكن منتظراً منه، كان يقول:

ـ أنا أعرف أنهم يعتبرونني رجلاً خبيثاً. لكنني لا أبالي. إنني لا أريد أن أعرف أحداً إلا أولئك الذين أحبهم. وعندما أحب إنساناً، فإن حبي يبلغ مبلغ افتدائه بدمي. أما الآخرون، فإنني سأسحقهم جميعاً إذا حاولوا الوقوف في طريقي والتصدي لي. إن لي أماً أعبدها ولا أستطيع إيفاءها حقها من التقدير، وثلاثة من الأصدقاء بينهم أنت. أما الباقي، وإنني كما ترى لا أعتبرهم إلا بالقدر الذي أستطيع أن أفيد منهم. ويختلف تقديري لهم باختلاف النفع. وهم جميعاً مضرون كما يبدو وخصوصاً النساء. نعم يا عزيزي، إنني إذا وجدت حقيقة رجالاً نبلاء رفيعي العواطف مهذبين، فإنني في المقابل لم أجد بعد بين النساء، ابتداء من الكونتيسات وحتى الطاهيات، إلا مخلوقات برسم البيع.

لم أعثر بعد ذلك على ذلك الطهر الملائكي والإخلاص الذي أنشده عند المرأة وإذا وقع مثل هذا الاكتشاف، ووجدت المرأة المنشودة فإنني

سأقدم حياتي هبة لها. أما تلك الـ....!، وأشار بيده إشارة احتقار، صدقني إنني شديد التعلق بالحياة، لسبب واحد وهو اكتشاف العصفور النادر ذات يوم، المخلوق السماوي السامي الذي سيطهرني ويرفعني ويسمو بي ويبدل نفسيتي. لكنك لا تفهمني...

فأجاب روستوف وهو شديد الإعجاب بصديقه الجديد. بل أفهمك تماماً.

حلّ فصل الخريف وعاد آل روستوف إلى موسكو. وفي مطلع الشتاء عاد دينيسوف بالمثل ونزل عندهم. كان ذلك الشتاء من عام ١٨٠٦، أول شتاء قضاه نيكولا روستوف في موسكو. وكان أروع شتاء عرفته تلك العائلة. ولقد اجتذب وجود نيكولا عدداً كبيراً من الشباب. وكانت ڤيرا قد بلغت العشرين وأصبحت غاية في الجمال. وسونيا في السادسة عشرة وملؤها اللطف والجمال الذي لما يتفتح بعد. أما ناتاشا فأصبحت نصف طفلة نصف آنسة، تجمع بين عبث الطفلة وفتنة الشابة.

كان منزل آل روستوف في تلك الأثناء، مشبعاً بجو غرامي تنفرد به البيوت الحافلة بالفتيات الجميلات الناضجات. وكان الشبان الذين يدخلون ذلك البيت وتطالعهم تلك الوجوه المشرقة المتقبلة كل أنواع الإيحاء، الباسمة من السعادة ولا شك، ويرون تلك الحركة الدائمة وذلك النشاط المتقد، ويصغون إلى الأغاني والموسيقى وثرثرة نساء في مقتبل العمر يحدوهن الأمل والإرادة الطيبة، تلك الثرثرة الفارغة إلا من تودد وعطف، كان أولئك الشبان يشاطرون شباب آل روستوف ذلك الترقب للحب والسعادة الذي يعيشون فيه.

وبتسهيل من نيكولا، كان دولوخوف، وهو أول الوافدين إلى تلك الدار، يحوم حول كل من في الدار باستثناء ناتاشا التي كادت تتشاجر مع أخيها نيكولا بسببه. كانت ناتاشا تؤكد أن هذا الرجل يحمل وحده كل الخطأ في

مبارزته مع پيار وأنها تنفر منه لأنه متصنع. كانت تصرخ بعناد في وجه أخيها: أنا لا أريد فهمه ولا يهمني ذلك. لنأخذ مثلاً صديقك دينيسوف. إنه فاسق حقاً وكل ما يريد المرء أن يقوله عنه يمكن أن يكون صحيحاً. لكن ذلك لا يمنعني من أن أحبه وبالتالي أن أفهمه. لست أدري كيف أوفق في إفهامك هذا الرأي... إن الآخر، كل شيء عنده قائم على تدبير سابق، وهذا ما يزعجني فيه وينفرني منه، بينما دينيسوف...

فيجيبها نيكولا: إن دينيسوف يختلف اختلافاً كلياً. يجب فهم روح هذا الشاب ومعرفة ذلك القلب الذي يضمه بين جوانحه، وكيف يتصرف حيال أمه!

أراد بهذا القول أن يلمح بأن دينيسوف لا يعتبر شيئاً مذكوراً إذا قيس بدولوخوف. قالت ناتاشا:

ـ أنا أجهل كل هذا. لكنني أشعر بالارتباك في حضرته... هل تعرف أنه مفتون بسونيا؟

ـ يا لها من حماقة!

ـ بل إنني متأكدة وسوف ترى.

والحقيقة أن ناتاشا كانت محقة في تخمينها. أصبح دولوخوف، وهو الذي لم يكن يحب عشرة النساء، ضيفاً مواظباً في دار روستوف، حتى أن كل السكان أدركوا ضمنياً أن تردده لم يكن إلا من أجل سونيا. وسونيا نفسها، رغم أنها لم تجرؤ حتى تلك اللحظة على التفوه بكلمة واحدة من ذلك، كانت تعرف حقيقة نياته ويحمرّ وجهها خجلاً كلما ظهر دولوخوف في قاعة الاستقبال.

عند آل روستوف كان دولوخوف يتناول طعامه غالباً، ولا يتخلف عن أية حفلة تقام حتى حفلات الأحداث الخاصة بهم، التي كان أستاذ الرقص إيوجل يقيمها أحياناً، والتي كانت النسوة من آل روستوف يحضرنها بلا انقطاع. كان

يظهر كثيراً من العناية إزاء سونيا ويغمرها بنظرته التي ما كانت تتذكرها دون أن تندفع الدماء إلى وجهها حياء. بل إن الكونتيسة نفسها وناتاشا أيضاً كانتا تشعران بمثل شعورها حيال تلك النظرة. كان ذلك الرجل القوي الغريب، يتأثر بشدة تأثراً لا يقاوم بفتنة تلك السمراء الصغيرة التي كان قلبها مشغولاً في مكان آخر.

أخيراً، وأدرك نيكولا، دون أن يحدد الغاية الحقيقية من ذلك، أن هناك علاقة ما بين دولوخوف وسونيا. فكان يحدث نفسه وهو يفكر في أخته وابنة عمه: «آه، رباه! إن هاتين الخبيثتين لا تقضيان يوماً دون أن تغرما بأحد!» ولما كان يشعر أنه على غير ما يرام في صحبة دولوخوف وسونيا، فقد راح يقضي معظم وقته خارج الدار.

عاد حديث الحرب إلى الألسن، منذ خريف عام ١٨٠٦، الحرب مع ناپليون، فكان حديثاً أكثر انتشاراً من العام السابق. تقرر إجراء تجنيد يعادل عشرة على كل ألف للجيش العامل وتسعة على كل ألف لبقية الأسلحة الفنية والمهمات الحربية. وفي كل مكان كانت اللعنات الدينية والحرمان الكنسي يسلط على بوناپرت، فلم تكن موسكو لتتحدث إلا عن معاودة القتال القريب ولولا عزيزهم نيكولا، لما علق آل روستوف على تلك الأخبار والاستعدادات إلا أهمية سطحية. لكن الشاب كان يرفض بإلحاح البقاء في موسكو. كان ينتظر انتهاء مأذونية دينيسوف بفارغ الصبر ليعود معه إلى القطعة بعد أعياد الميلاد.

غير أن ذلك الرحيل المنتظر لم يبدل شيئاً من أفراح روستوف وعاداته اليومية. بل إنه كان على العكس يثيره ويشحذ همته. وكان لذلك النبأ رد فعل لطيف. ذلك أن الدعوات انهالت عليه بين حفلات راقصة وولائم، حتى أن ذويه باتوا لا يرونه إلا نادراً.

الفصل الحادي عشر

تناول نيكولا مع أفراد أسرته بصورة استثنائية، الغداء ظهر اليوم الثالث لعيد الميلاد. وكان الغداء بمثابة وليمة الوداع لأن رحيل نيكولا بات مقرراً عقب اليوم الأخير مباشرة. وكانت المائدة تضم عشرين شخصاً بينهم دولوخوف ودينيسوف.

لم يحدث من قبل أن عاش منزل آل دينيسوف مثل ذلك الحب. كان ذلك الجو يوحي للمرء أن: «أطبق على هذه اللحظات من السعادة واحبب ودع الآخرين يحبونك! إن الحب هو الآمر الوحيد ذو الشأن والقيمة وهو وحده الذي يشغلنا لأن كل ما عداه ليس إلا سخفاً».

قبل البدء بالطعام بفترة وجيزة، وصل نيكولا كعادته، بعد أن أنهك جياد عربتين طافتا به على التتالي بين منازل أصدقائه، دون أن يستطيع مع ذلك تلبية كل الدعوات ولقاء كل الراغبين في رؤيته. ولم يكد يدخل غرفة الطعام حتى أحس بالجو العاطفي المخيم على الموجودين ولمس ارتباك بعضهم. وبدت سونيا والكونتيسة وناتاشا وكذلك دولوخوف على شيء كثير من الانفعال، فأدرك أن أمراً ما قد وقع قبل الطعام، وقدر أن يكون ذلك الأمر قد وقع بين سونيا ودولوخوف. ولما كان رقيق القلب فقد سعى إلى تجنبها بكثير من المودة. وكان مقرراً إقامة حفلة راقصة يحييها أستاذ الرقص «إيوجل» ويشترك فيها تلامذته من الجنسين.

قالت له ناتاشا: نيكولا، يا عزيزي، هل تأتي إلى منزل إيوجل؟ إنه يعتمد على مجيئك ثم إن ڤاسيلي دميتريش ـ أي دينيسوف ـ قد وعد بالحضور.

فأجاب دينيسوف الذي جعل من نفسه رفيقاً لناتاشا وهو مطمئن البال: وهل ثمة مكان لا أذهب إليه بناء على أمر الكونتيسة؟ سوف أرقص عن طيبة خاطر «خطوة الشال» لأدخل الفرح إلى نفسها.

فقال نيكولا: سأذهب إذا وجدت لحظة فراغ في وقتي. لقد وعدت آل أرخاروف بحضور حفلتهم... وأنت؟

كان هذا السؤال موجهاً إلى دولوخوف. لكنه أدرك بعد فوات الأوان أنه كان من الأصوب عدم طرح ذلك السؤال.

أجاب دولوخوف بجفاء: نعم من المحتمل أن أحضر.

وانتقلت نظرته إلى سونيا فلمستها برفق ثم عادت تحط على روستوف الذي قرأ فيها مثل ذلك التعبير الذي شاهده من قبل عندما كان دولوخوف يحدق إلى وجه پيار إبان تلك الوليمة المشهودة.

قال نيكولا في نفسه: «لا شك أن أمراً قد وقع!» وتأكدت شكوكه بسرعة عند رؤية دولوخوف ينسحب فور فراغ المدعوين من الطعام. استدعى ناتاشا وسألها عما حدث. قالت له وهي مسرعة إليه:

ـ كنت أبحث عنك في الوقت نفسه. لقد أخطرتك من قبل ولكنك لم تصدقني حينذاك. لقد طلب إلى سونيا أن تتزوجه.

تحدثت ناتاشا بلهجة منتصرة. أما نيكولا وعلى الرغم من قلة اهتمامه بأمر سونيا في المدة الأخيرة، شعر بيد خفية تعصر قلبه لدى سماع هذا النبأ. وكان دولوخوف بالنسبة إلى يتيمة مثل سونيا، «صفقة» ملائمة، بل رابحة من بعض وجهات النظر. ومن المستحيل رفضه في نظر الكونتيسة والآخرين.

وهكذا همّ نيكولا بالقول مدفوعاً بالإحساس الأول: «هيا، ليكن! لتنس وعود الطفولة ولتعرب عن موافقتها!» لكنه لم يجد الوقت للنطق بهذا القول.

أردفت ناتاشا بعد فترة صمت: تصور أنها رفضت: لقد رفضت رفضاً جازماً... بل إنها قالت له بأنها تحب شخصاً آخر.

فقال نيكولا في سره: «لم أكن أتوقع منها غير ذلك!» وأردفت ناتاشا قائلة: ولقد توسلت أمنا إليها أن تقبله ولكن عبثاً. وأنا واثقة بأنها لن تتراجع عن عزمها.

فقال نيكولا منزعجاً: توسلت إليها أمي!

ـ نعم... اصغ يا نيكولا ولا تغضب. إنني أعرف أنك لن تتزوجها... كلا إنك لن تتزوجها وأنا متأكدة من ذلك. إن الله يعرف السبب لكنني واثقة بما أقول.

فاعترض نيكولا بقوله: هذا ما لا يمكنك معرفته... لكن يجب أن أتحدث معها...

وتابع مبتسماً: إنها فاتنة سونيا الصغيرة هذه!

وقفزت ناتاشا إلى عنق أخيها تطوقه وانطلقت راكضة.

دخلت سونيا بعد دقائق وهي مرتبكة خجلى وعلى وجهها علامات المتهم المذعور. اقترب نيكولا منها وقبل يدها. كانت تلك أول مرة يلتقيان فيها منفردين منذ عودة نيكولا، ويتحدثان فيها بصراحة.

بدأ نيكولا يقول بصوت مرتجف ويسترد ثباته رويداً رويداً حتى أصبح جريئاً: صوفي، صوفي، هل يعقل أن ترفضي مثل هذا العرض المغري؟... إنه شاب ممتاز نبيل... ثم إنه صديقي.

فبادرت سونيا تقاطعه: لقد رفضت وانتهى الأمر.

ـ إذا كان رفضك بسببي فإنني أخشى من جانبي أن...

وبادرت مجدداً تقاطعه قائلة وهي تستعطفه بنظرة: نيكولا لا تقل لي هذا.

ـ بل ينبغي أن أقوله لعله نوع من الغرور من جانبي، ولكن يجب أن أقوله. إذا كنت ترفضين دولوخوف من أجلي فإنني أضطر عندئذ إلى مصارحتك بكل الحقيقة. إنني أحبك ولا شك. وأؤمن أن أياً في العالم...

فقالت سونيا محمرة الوجه: وهذا يكفيني.

ـ صحيح لكنني عشقت غير مرة وهذا يتكرر الآن أيضاً رغم أنني لا أشعر بالاطمئنان مثل شعوري به عندما أكون معك. ثم إن أمي لا تريد أن أتزوج وبالاختصار، فأنا لا أتعهد بشيء. وأطلب منك أن تفكري في عرض دولوخوف.

ونطق باسم صديقه بشيء كبير من العناء. فقالت سونيا: لمَ تقول لي هذا؟ إنني لا أطلب شيئاً. أنا أحبك كأخ وسأحبك دائماً: فماذا ينبغي لي أكثر من ذلك؟

إنك ملك طاهر وأنا لست جديراً بك. وكل ما أخشاه هو أن لا أستطيع الإجابة عن طول انتظارك وصبرك.

وقبّل يدها مرة أخرى.

الفصل الثاني عشر

تقام حفلات كثيرة في موسكو لكن أكثرها تسلية هي حفلات إيوجل. هذا ما قالته الأمهات وهن يرقبن أكبادهن يتمرنون على إجادة الخطوات التي تعلموها. وكذلك الصغار أنفسهم، بين بنين وبنات، جميعهم من هذا الرأي، وكانوا يجدون متعة كبيرة في تلك الحفلات. وكان الشباب لا يخالفون هذا الرأي، فيحضرون تلك الحفلات للمسايرة، فيتسلون فيها أكثر من أي مكان آخر. وقد تم عقد زواجين اثنين في تلك الحفلات هذا العام، ذلك أن الأميرتين الجميلتين غورتشاكوف وجدتا هناك زوجين صالحين.

وارتفعت أسهم تلك الحفلات وذاع صيتها حتى بلغ الأوج. كان فيها شيء خاص جذاب لا يتوافر في غير مكان، ذلك أن تلك الحفلات تقام في جو لا يعكره وجود رب أو ربة منزل. لقد كان «إيوجل» طيب القلب هنا وهناك كالريشة الخفيفة، يقدم الانحناءات والاحترامات حسب كل ألوان فنه وقواعده، ويتقبل أساليب مدعويه كلهم وخصوصاً أن كل من كان يجتمع هناك، كان ولوعاً بالرقص شغوفاً بانتهال المسرات البريئة، كما هي حال الفتيات الصغيرات دائماً اللاتي لم يتجاوزن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من أعمارهن، ويرتدين لأول مرة أثواباً طويلة.

كانت الفتيات كلهن، ما عدا استثناءات قليلة، جميلات، بسبب الحماسة والحيوية التي تلتهب في كيانهن، وابتساماتهن المشرقة ووميض عيونهن. وكان خيرة تلاميذه يحاولون أحياناً رقصة خطوة الشال التي كانت شائعة.

كانت ناتاشا أكثر التلاميذ إجادة لهذه الرقصة. لكن الرقصات المقررة تلك الليلة كانت محصورة في: الإيكوسية، والإنكليزية والمازوكا التي بدأت تحتل مكانها في الذوق العام. وكان إيوجل قد استعار إحدى صالات الكونت بيزوخوف لإقامة حفلته فكانت حفلة ناجحة جداً كما شهد الجميع بذلك. كانت الفتيات الجميلات كثيرات تلك الليلة وكانت الآنستان الممتلئتان سعادة ونشاطاً، تعتبران في عداد أجمل الفاتنات وكانت سونيا شديدة الفخار بالطلب الذي تقدم به دولوخوف إليها وبرفضها ذلك الطلب وبتفاهمها مع روستوف بعد ذلك، الأمر الذي كان يغمرها بالسعادة ويجعلها تدور حول نفسها وتتيه في نوع من التسامي الذي لا يشعر بمثله إلا العاشقون، فما كانت تمكّن الوصيفة من وضع القلنسوة على رأسها إلا بعد مزيد من العناء لكثرة حركتها. كانت فرحة جنونية تغمر نفسها وحتى ليقال إنها تبدلت كلياً. أما ناتاشا فإنها لم تكن أقل افتخاراً من سونيا، لأنها كانت سترتدي ثوباً طويلاً لأول مرة في حياتها، وستمضي إلى حفلة راقصة حقيقية. فكانت هي الأخرى تشعر بسعادة جامحة ولا تستقر على حال.

فور دخول ناتاشا القاعة استمالت لميلها الغرامي... كانت لا تميز شخصاً بعينه، بل تعجب بكل الناس معاً. فإذا وقعت عيناها على شخص ما عشقت ذلك الشخص... بانتظار تحول أبصارها إلى آخر وهكذا...

قالت تحدث سونيا كلما التقتا خلال الحفلة. آه! كم هذا بديع!

وكان نيكولا ودينيسوف، يروحان ويجيئان ويمنحان الراقصتين نظرات حانية. قال دينيسوف: إنها فاتنة، سوف تصبح آية في الجمال.

ـ من هي؟

فأجاب هذا بعد صمت: الكونتيسة ناتالي... هي ترقص بمهارة، يا لها من فاتنة!

ـ عمن تتكلم؟

فأجاب دينيسوف بضجر: عن أختك، ألا تفهم!

وابتسم روستوف.

وجاء إيوجل يحدث نيكولا قائلاً: عزيزي الكونت، إنك واحد من خيرة تلاميذي. يجب أن ترقص! أنظر كم من فتاة جميلة في هذه الحفلة!

وتقدم بمثل ذلك الرجاء إلى دينيسوف الذي كان فيما مضى تلميذاً له كذلك فقال هذا:

ـ لا، لا يا عزيزي. سأكون كثير الأخطاء... لم أحسن الانتفاع بدروسك، ألا تذكر؟

فبادر إيوجل قائلاً قصد الترفيه: آه، كلا، لقد كنت شارد الفكر، لكن استعداداتك لم تكن رديئة. نعم، نعم، إن استعداداتك كانت طيبة.

عزفت الموسيقى المازوكا التي كانت حديثة العهد في البلاد. ونزل نيكولا بناء على رغبة إيوجل وإلحاحه فخاصر سونيا. أما دينيسوف فقد مضى يجلس إلى جانب النساء المسنات متكئاً على حسامه، ضابطاً الإيقاع بقدمه، يحدثهن أحاديث ماجنة طريفة وهو لا يفك عن مراقبة الراقصين. وكان إيوجل أول زوج بين المتخاصرين يراقص ناتاشا، التي كانت خير تلميذة عنده ومبعث فخره. كان ينزلق بخفة فوق خفيه، ويندفع خلال القاعة مع راقصته المرتبكة التي كانت رغم ذلك تلاحق خطاه وتنقل خطاها بتيقظ وانتباه. ولم يكن دينيسوف يحول أنظاره عنها. أما عن طريقته في ضبط الإيقاع بحسامه فكانت تدل على أنه كان عازفاً عن الرقص بملء إرادته وليس بسبب جهله كما قد يتبادر إلى الأذهان. وبينما كان الأستاذ يقوم بحركة تصويرية، نادى دينيسوف روستوف الذي كان قريباً منه في تلك اللحظة وقال له: ليس هذا

بالمازوكا البولونية، كلا، ليست هذه المازوكا... على كل حال، إنها ترقص بإبداع.

لا يعرف نيكولا أن دينيسوف يستطيع أن يرقص المازوكا في بولونيا نفسها وأن يستأثر بإعجاب الحاضرين، فقد أسرع إلى ناتاشا وقال لها:

ـ إذهبي إلى دينيسوف واطلبي إليه أن يراقصك. إنه لا يبارى في المازوكا.

ونهضت ناتاشا وراحت تنزلق على حذاءيها الصغيرين المزينين والدم يتصاعد إلى وجنتيها تحت وطأة الأنظار التي كانت تحدق إليها من كل صوب، حتى بلغت زاوية دينيسوف. رآهما نيكولا يتناقشان برهة، إذ كان دينيسوف يرفض بلطف، على ما يبدو، وناتاشا تصر، فأسرع إلى نجدتها. كانت ناتاشا تقول: أرجوك يا ڤاسيلي دميتريش، تعال، أرجوك.

ـ اعفيني يا كونتيسة.

وهنا تدخل نيكولا قائلاً: هه يا ڤاسيا، لمَ لا تجاريها؟

فقال دينيسوف مازحاً: سيقولون إنهم يلاطفون قطهم.

ووعدته ناتاشا: سأغني لك كل الأمسية.

فقال دينيسوف وهو ينزع حسامه من منطقته: آه يا للممالقة! إنها تتصرف بي وفق هواها.

خرج من صفوف المقاعد وأمسك بقوة على يد مراقصته ورفع رأسه ومدّ ساقه بانتظار الإيقاع. لقد كان دينيسوف يستطيع إخفاء عيب قامته في مناسبتين: عندما يكون على صهوة جواده وعندما يرقص المازوكا. ففي هاتين المناسبتين كان يبدو بمظهر الشاب القوي الذي يريد أن يكونه. ولما جاء دوره، بعث إلى مراقصته بنظرة فكهة ومنتصرة معاً، وقام بحركة عنيفة من قدمه وقفز كالكرة المرنة ساحباً معه ناتاشا في غمار الرقصة. كان يجتاز على قدم واحدة نصف مساحة القاعة دون أن تصدر عنه أية ضجة أو أي صوت يذكر ودون أن

يتظاهر برؤية المقاعد المصفوفة قبالته، فكان يُظن أنه سيصطدم بتلك المقاعد لكنه فجأة، كان يتوقف على كعبيه بين رنين مهمازيه وصوت ارتطام كعبيه بالأرض، فيباعد ساقيه ويستعين برشاقة قدميه ليستدير دورة سريعة ويلحق بحلقة الراقصين وقدمه اليمنى تضرب دون هوادة بالقدم اليسرى.

كانت ناتاشا تتابع كل حركة من حركاته وتترقبها وتستسلم لفارسها مسلوبة المشاعر. كان يجعلها تدور حول نفسها تارة ممسكاً بها بيمناه أو يسراه، وطوراً يركع ويجعلها ترسم حلقات حوله ثم ينتصب فجأة ويعود إلى جريه السريع وكأنه يريد اجتياز القاعات كلها دفعة واحدة، ليتوقف فجأة، قبل أن يدرك المتفرج غرضه، فيقوم بحركة تصويرية غير متوقعة. ولما قام بحركته الدائرية الرائعة موصلاً ناتاشا إلى مقعدها الذي كانت جالسة عليه إشارة إلى انتهاء الرقصة، لم يكن لهذه من صفاء الذهن ما يمكنها من الانحناء أمامه لشكره كما يقتضي الأمر، بل كانت تحدق إلى وجهه بعينيها الباسمتين المذهولتين وكأنها تنظر إلى شخص جديد.

غمغمت بدهشة: ما معنى هذا؟

وعلى الرغم من ادعاءات إيوجل بأن هذه ليست المازوكا الحقيقية، فإن رقصة دينيسوف استأثرت بإعجاب كل الحاضرين. وأسرعت الراقصات إليه يطلبن مراقصته بشغف واستعاد الكهول ذكريات شبابهم في بولونيا والوقت الطيب الذي قضوه. أما دينيسوف فقد كان محمرّ الوجه يجفف عرقه بمنديله. وكان يجلس قرب ناتاشا ولم يفارق مجلسها طوال الحفلة.

الفصل الثالث عشر

وبعد تلك الليلة ورغم انقضاء يومين عليها، لم يظهر دولوخوف في منزل آل روستوف. وأخيراً، وبعد ثلاثة أيام، وصلته من دولوخوف الرقعة التالية:

«لما كنت لا أريد الحضور إلى داركم للأسباب التي تعرفها، وكنت سألتحق بالجيش قريباً، لذلك فإنني أقيم حفلة عشاء هذه الليلة لوداع أصدقائي. فتعال إلى فندق إنكلترا».

قصد روستوف، بعد خروجه من الملهى الذي اصطحب عائلته إليه مع دينيسوف، فندق إنكلترا حوالى الساعة العاشرة صباحاً. وهناك اقتاده الخدم إلى أفخم غرفة كان دولخوف يشغلها تلك الليلة. شاهد روستوف حوالى عشرين مدعواً يزدحمون حول طاولة مثقلة بأوراق النقد والقطع الذهبية. وكان دولوخوف جالساً بين شمعتين مضاءتين يوزع ورق اللعب. شعر نيكولا بشيء من الرهبة للمقابلة الأولى التي ستقع بينه وبين صديقه الذي لم يره منذ تلك الليلة التي رفضت فيها سونيا طلبه. تقابلت نظرته ونظرة دولوخوف المتقدة منذ أن وطئت قدماه الغرفة وكأن هذا كان في انتظاره. قال دولوخوف: مضى زمن طويل لم نتقابل خلاله. شكراً على مجيئك. سوف يصل إيليوشا مع مغنيه حال فراغي من هذا «البنك».

فقال روستوف وقد احمرّ وجهه: لقد مررت بدارك مرتين أو ثلاثاً فلم أجدك.

وقال دولوخوف دون أن يلقي بالاً إلى تلك الملاحظة: يمكنك المراهنة إذا شئت.

فجأة، تذكر نيكولا حديثاً مثيراً دار بينه وبين دولوخوف ذات يوم. لقد قال له هذا: «ليس إلا الحمقى الذين يلعبون على السعادة الصغرى».

تابع دولوخوف باسماً وكأنه يقرأ ما في طويته: هل يخيفك أن تقامر معي؟

ومن خلال تلك الابتسامة، ظهرت لعيني روستوف حالة صديقه النفسية التي كانت تسيطر عليه دائماً كلما مرّ به وقت طويل دون تبديل، فتتوق نفسه، كما حدث يوم حفلة النادي الإنكليزي، إلى الخروج من ذلك الجمود بتصرف غريب، كان غالباً شديد القسوة أيضاً.

لم يكن نيكولا منشرح الصدر، فراح يتساءل عن الدعابة التي سيرد بها على صاحبه عندما حدجه هذا في أعماق عينيه وقال وهو يضغط على الألفاظ ليسمع الموجودون حديثه: هل تذكر ما كنا نقوله ذات يوم من أن الحمقى وحدهم هم الذين يلعبون بالسعادة الصغيرة؟ يجب أن يقامر الإنسان بكل شيء وهذا ما سأحاوله الآن.

فتساءل روستوف: «ترى هل أجرب حظي فقط أم أقامر بكل شيء»؟

عقب دولوخوف قائلاً وهو يمزق الورقة المحيطة بورق اللعب: ثم إنك تحسن صنعاً إذا امتنعت عن اللعب... «بنك» أيها السادة!

وبعد أن نثر دراهمه أمامه راح يقطع الورق ويوزعه. جلس روستوف إلى جانبه وامتنع بادئ الأمر عن الرهان. فألقى عليه دولوخوف نظرة وقال: إذن؟ ألا تلعب؟

والغريب في الأمر أن نيكولا شعر وكأنه مرغم على اللعب، فأخذ ورقة ووضع عليها مبلغاً زهيداً. قال شارحاً: لست أحمل مبلغاً.

ـ سأقرضك.

وضع روستوف خمسة روبلات على ورقة فخسرها، فكرر اللعب وخسر أيضاً. وهكذا حطم دولوخوف عشر ورقات متتالية كان روستوف يقامر عليها. وبعد أن استأثر «البنك» فترة قال: أيها السادة، أرجوكم أن تضعوا نقودكم على الورقة بالذات وإلا فإنني قد أخطئ في الحسابات.

فاحتج أحد اللاعبين بقوله: نحن قوم ثقة على ما أعتقد.

فعقب دولوخوف قائلاً: بدون شك، لكنني أخشى أن أخطئ. أرجو إذن أن تضعوا نقودكم على الورقة.

وأردف يحدث روستوف: أما أنت فلا تنزعج، سوف نسوي الأمر بيننا فيما بعد.

استمر اللعب واستمر الخادم يصب الشمبانيا في الكؤوس.

«تحطمت» كل أوراق روستوف فخسرت وارتفع دينه إلى ثمانمائة روبل. أراد أن يغامر بهذا المبلغ على ورقة جديدة، لولا أن أمسك عندما كان الخادم يصب له الشمبانيا وقرر أن يعود إلى مبلغه العادي «عشرين روبلاً» الذي ما زال يقامر به تباعاً.

قال له دولوخوف متظاهراً بأنه لا ينظر إليه: قامر بالمبلغ كله. ألا ترى إنني أخسر مع الجميع إلا أوراقك أنت فإنني «أحطمها» دائماً؟ أتراك تخاف مني مثلاً؟

استسلم روستوف للإيحاء. التقط من الأرض ورقة «السبعة الكبا» من الأوراق الممزقة، وقد ظلت ذكرى تلك الورقة في مخيلته زمناً طويلاً، وكتب على ظهرها رقم «٨٠٠» بأحرف معتدلة وبخط جميل، ثم احتسى كأس الشمبانيا الساخنة التي كانوا يطوفون بها على الضيوف، وابتسم لدولوخوف رداً على جملته وانتظر وعيناه شاخصتان إلى يدي «البانكيه» متأملاً أن يقلب

له «البنك» رقم «٧». لقد كان ربح تلك الورقة «السبعة الكبا» أو خسارتها، يشكل بالنسبة إليه خطورة كبيرة. إذ إن إيليا أندرييتش رغم تقتيره على ولده، طلب منه يوم الأحد المنصرم أن يقتصد في نفقاته وأعطاه ألفي روبل قائلاً إنه لن يستطيع إمداده بمبلغ آخر قبل شهر أيار المقبل لأسباب وجيهة.

وكان نيكولا قد أكد له حينئذ أن ذلك المبلغ سيكفيه لنفقاته حتى الربيع المقبل مهما بلغت تلك النفقات من إفراط، وأقسم له أنه لن يطلب منه شيئاً حتى ذلك التاريخ. وهو الآن بعد أن خسر ثمانمائة روبل، لم يبق له من مجموعة نقوده إلا ألف ومائتا روبل فقط. وكان مصير تلك الروبلات الثمانمائة متوقفاً على تلك السبعة «الكبا» لأنه ما كان سيخسر ألفاً وستمائة روبل فحسب، بل إنه سيخون الوعد الذي قطعه على نفسه. ولهذا، كان قلقه عظيماً وهو يراقب يدي دولوخوف.

راح يحدث نفسه: «هيا، اعطني هذه الورقة وأسرع لأمضي إلى حيث سأتناول الطعام مع دينيسوف وناتاشا وسونيا، وأقسم غير حانث هذه المرة على أنني لن أقرب الورق بعد اليوم أبداً». وفي تلك الأثناء، خطرت على باله أتفه الحوادث التي مرت عليه في حياته العائلية: دعابات پيتيا وتبجحاته، والأحاديث مع سونيا، وثنائي الغناء مع ناتاشا، وموقفه مع أبيه بل تقلباته فوق سريره الوثير؛ وبدت في خياله بهجة تلك السعادة الضائعة التي من الأفضل التمسك بها والإبقاء عليها، بكل قوة. ولم يكن يتقبل أن يكون مصيره الآن مرتبطاً بصدفة سخيفة، تجعل «سبعة» إذا جاءت إلى اليمين أو سقطت إلى اليسار، تعكر عليه صفو حياته وتحرمه ذلك اليمين الذي استعاده في خياله بكل تفاصيله، لتغمره في جحيم الأمواج السيئة المجهولة. كلا، إن ذلك لا يمكن أن يكون... مع ذلك، تابع بقلق كل حركة من حركات يدي دولوخوف الحمراوين الضخمتين اللتين كان الشعر الذي يغطي ساعديهما ظاهراً عند

المعصمين، تضعان الورق على الطاولة لتمسك إحداهما بالغليون والأخرى بالكأس، كأس الشمبانيا.

كرر دولوخوف قوله: إذن لا تخاف من اللعب معي! أليس كذلك؟

وألقى ظهره على كرسيه وكأنه سيقص على الحاضرين قصة ممتعة، وهو مستلق في جلسة مريحة. وغمرت شفتيه ابتسامة بطيئة وقال: نعم أيها السادة، لقد تلفظت مرة بقول مفاده أنني اعتبر غشاشاً في اللعب في موسكو. لذلك فإنني أنصحكم أن تكونوا حذرين.

فأجاب روستوف: هيا، وزع الورق.

فأجاب وهو يعود إلى الورق فيمسك به والابتسامة لا تفارق شفتيه: آه من نساء موسكو العجائز!

ومسّد شعره بيديه. لقد كانت السبعة التي هو في أمسّ الحاجة إليها، أول ورقة من الأوراق وبذلك لم تصل إليه. ومعنى ذلك أنه خسر أكثر مما كان يستطيع أن يدفع.

فقال له دولوخوف وهو يحدجه بطرف عينه: لا تجزع، هه!

وعاد يوزع الورق من جديد.

الفصل الرابع عشر

كان معظم اللاعبين بعد ساعة ونصف الساعة، في غرفة دولوخوف لا يقامرون إلا شكلياً، وقد تركز اللعب كله على روستوف وحده. لقد بلغ دينه عموداً طويلاً من الأرقام مجموعها أكثر من عشرة آلاف روبل بعد أن كان لا يتجاوز الألف والستمائة روبل. بل إن رقم عشرة آلاف كان منذ حين، أما الآن، فقد ارتفع إلى خمسة عشر ألفاً أو أكثر. والحقيقة أن المجموع تجاوز العشرين ألف روبل. توقف دولوخوف عندئذ عن الإصغاء إلى أقوال الآخرين وتوقف أيضاً عن سرد القصص وراح يراقب كل حركة من حركات روستوف ويحصي مجموع الحساب بعينيه.

قرر الاستمرار في اللعب حتى يصل المبلغ إلى ثلاثة وأربعين ألف روبل. وكان روستوف متكئاً على الطاولة ورأسه بين يديه، وأمامه الأرقام تغطي الطاولة الملوثة بالخمر المراقة والمحملة بأوراق اللعب. كان شعور مسيطر طاغ مستولياً عليه: هاتان اليدان الحمراوان الضخمتان اللتان يظهر الشعر عند رسغيهما. هاتان اليدان اللتان كان يحبهما ويمقتهما في الوقت نفسه كانتا تجعلانه تحت رحمتهما.

«ستمائة روبل، آس، مضاعف، تسعة... لم يعد هناك أمل في استعادة الخسارة!... آه! كم كنت أتسلى عندك!... «شاب» على «صفر»! لكن كلا، بالله!... لم يعاملني على هذا النحو»؟

كان إذا أراد المساهمة في مبلغ كبير، تهرّب منه دولوخوف وحدد بنفسه المبلغ الذي يقبل المجازفة به. وكان روستوف يستنجد بالله محاولاً الظهور بمظهر الهادئ، ويشبه ابتهاله ذاك الذي رفعه بخشوع إلى الله عندما كان في معركة أمستيتين. كان يتصور حيناً أن ورقة «كذا»، الأولى من رزمة الأوراق التي كانت توزعها اليدان الحمراوان، قادرة على إنقاذه، وأخرى كان يعد خيوط الخرج على سترته ويقامر على الورقة التي تتساوى مع عددها آملاً أن يستعيد كل خسارته دفعة واحدة. كان تارة يستجدي الإلهام من وجود الآخرين وطوراً يدقق في وجه دولوخوف الذي أصبح جامداً، محاولاً الغوص في أعماقه ومعرفة نياته.

ربّاه! ومع ذلك فهو يعرف معنى هذه الخسارة بالنسبة إليّ. لا يمكن أن يكون يرغب في تدميري. لقد كان صديقي. كنت أحبه... لكن الخطأ ليس خطأه، ما هو ذنبه إذا كان الحظ يحالفه!... وأنا، ما هو ذنبي؟ إنني لم أرتكب فعلاً مؤذياً؛ لم أقتل ولم أحقر إنساناً! فلمَ إذن هذا الحظ السيئ؟ ومتى بدأ هذا النحس؟ منذ لحظات اقتربت من هذه الطاولة لأربح مائة روبل كنت مزمعاً شراء الصندوقة التي سأقدمها لأمي بمناسبة عيدها، على أن أعود بعد ذلك مباشرة إلى المنزل. لقد كنت عظيم السعادة آنذاك شديد الغبطة ممتلئاً بالحرية! لم أكن أفهم سعادتي... فمتى إذن أخلت مكانها ليحل محلها هذا الموقف الجديد الرهيب؟ بأي بادرة وقع هذا التحول العظيم؟ أنا لم أبارح مكاني هذا ولم أتوقف عن أخذ الورقة تلو الورقة واللعب بها، ولن أنفك عن النظر إلى هاتين اليدين الحمراوين البارعتين، فمتى تم ذلك وما هو هذا الشيء على وجه التحديد؟ إنني في صحة جيدة، قوي، لم أتبدل ولم أبدّل مكاني... إن كل هذا ليس إلا حلماً مزعجاً. بدون شك.

كان وجهه محمراً يسبح في العرق رغم أن حرارة الغرفة كانت مقبولة معتدلة. وكان وجهه يخيف ويستدعي الشفقة معاً، بسبب المجهودات الخارقة التي كان يبذلها بمظهر الهادئ.

وأخيراً وصل الحساب إلى الرقم الرهيب: ثلاثة وأربعين ألف روبل! كان روستوف يستعد للمقامرة بالثلاثة آلاف الفائضة التي ربحها على أساس الازدواج عند الربح (Paroli)، عندما ترك دولوخوف الورق من يده بحركة قوية وراح يجمع الأرقام التي يدين له بها. ولما كان يضغط بشدة على قطعة الحكك التي كان يسجل بها الرقم الهائل، فقد تفتتت بين أصابعه. قال:

ـ لقد أزف الوقت أيها السادة، ها قد وصل البوهيميون في الوقت المناسب.

والحقيقة أن عدداً من الرجال والنساء، سمر الوجوه، دخلوا الغرفة في ذلك الوقت حاملين معهم البرد من الخارج، يتحدثون فيما بينهم بلهجة أهل بوهيميا. فهم نيكولا أن كل شيء قد انتهى. فلم ينطق إلا بجملة واحدة وبلهجة من استأثر اللعب بلبه ـ لا الخسارة ـ فانفعل:

ـ كيف! ألا تستمر؟ مع ذلك فقد كنت مهيئاً لك ورقة كنت ستخسر بها ولا شك!

فكر في سرّه: «انتهى كل شيء، لقد ضعت! لم يبق أمامي إلا أن أفرغ غدارتي في رأسي!» فقد كرر بوداعة: نعم، ورقة ممتازة!... هيا، جولة ثانية!

فقال دولوخوف الذي كان قد انتهى من عمليات الجمع: ليكن، سنبدأ من واحد وعشرين روبلاً...

وأشار إلى هذا الرقم الذي كان فائضاً عن الأرقام الكبيرة الأخرى، عن مبلغ ثلاثين وأربعين ألف روبل! طوى جانب ورقته ليسجل عليها رقم ٢١.

فقال روستوف: سيان عندي. كل ما أريد هو معرفة ما إذا كنت ستعطيني عشرة أم أنك ستحطم ورقتي كالعادة.

خلط دولوخوف الورق ووزعه بعناية مركزة. آوه! كم كان روستوف يحقد على تينك اليدين في تلك اللحظة، تينك اليدين الحمراوين بأصابعهما القصيرة، اللتين كان الشعر يظهر فوق معصميهما، واللتين كانتا تجعلانه تحت رحمتهما!...

كسبت العشرة فقال دولوخوف وهو ينهض عن الطاولة ويتمطى بتثاقل: إنك مدين لي بثلاثة وأربعين ألف روبل يا كونت! يا للشيطان كيف يجلس الإنسان كل هذا الوقت دون حراك!

أجاب روستوف: نعم، أنا الآخر ما عدت أستطيع البقاء.

لكن دولوخوف أراد أن ينبهه إلى أن دعابته ليست في حينها، فقاطعه قائلاً: متى ستسدد هذا الدين يا كونت؟

صعد الدم إلى وجه روستوف حتى أصبح بلون الدم، فأمسك بيار دولوخوف وأخذه إلى الغرفة المجاورة. قال معترفاً: لن أستطيع أن أدفع لك مرة واحدة. سأعطيك سنداً بالمبلغ.

فقال دولوخوف وهو ينظر إلى عينيه بنظرته الباردة وابتسامته الجامدة لا تفارق شفتيه: اصغ إليّ يا روستوف. أنت تعرف المثل القائل: «سعيد في الحب تعيس في اللعب». إن ابنة عمك مفتونة بك وأنا أعرف ذلك.

فكرر روستوف في سره «آوه! يا له من عذاب أليم لمن يشعر أنه تحت رحمة هذا الرجل»! كان يعرف ما سيحدثه اعترافه بالخسارة في نفوس أفراد عائلته. آه! يا له من سرور وبهجة لا يوصفان إذا استطاع التخلص من هذا الموقف المخجل! كان دولوخوف يستطيع إنقاذه من هذا الكابوس المخيف، وهو يعرف ذلك، لكنه كان يلعب معه لعبة القط والفأر.

فقال دولوخوف بإلحاح: إن ابنة عمك...

لكن نيكولا قاطعه بقوة قائلاً بغضب ظاهر:

ـ لا علاقة لابنة عمي في هذا الأمر، فدعها بسلام!

ـ إذن متى ستدفع لي؟

فقال روستوف وهو ينسحب وكأن في أعقابه الشيطان: غداً.

الفصل الخامس عشر

من السهل على المرء أن يقول غداً بلغة التأكيد لكن أن يرجع إلى منزله فيقابل الإخوة والأخوات والوالدين ويعترف بالخسارة ويطلب المال أمر مخيف مختلف عن الأول.

أسرع الشباب إلى الـپيانو عقب وصولهم من المسرح ولم يكن أحد في البيت قد نام بعد. فلم يكد روستوڤ يضع قدمه في القاعة الكبيرة، حتى شعر بذلك الجو العاطفي المشبع بالحب والشعر، ذلك الجو الذي بقي هائماً في سماء ذلك البيت طوال الشتاء، والذي تركز في الأيام الأخيرة، بعد تصريح دولوخوڤ وحفلة إيوجل الراقصة، حول سونيا وناتاشا، كما يثقل الهواء قبل العاصفة، يحيط به ويغمره. كانت الفتاتان الشابتان، في ألبستهما الزرقاء التي ارتدتاها قبل الذهاب إلى المسرح، سعيدتين مطمئنتين إلى جمالهما، تبتسمان وهما واقفتان قرب الـپيانو. أما ڤيرا فكانت تلعب الشطرنج مع شينشين في غرفة الاستقبال.

كانت الكونتيسة تتسلى بلعبة الحظ مع سيدة نبيلة عجوز تسكن في منزلهم، بانتظار عودة ابنها وزوجها. وكان دينيسوڤ يجلس إلى الـپيانو مشعث الشعر، براق العينين، دافعاً إحدى ساقيه إلى الوراء قليلاً، يضرب على الـپيانو بأصابعه القصيرة بقوة وحيوية، ويغني بصوته الأجش ولكن غير الموزون، قصيدة من نظمه عنوانها (الفاتنة). وهو يدير حوله عينيه الكبيرتين، ويبحث عمن يشاركه في الغناء.

أيتها الساحرة! آه! يا لها من قوة تدفعني
إلى إيقاظ هذه الأوتار النائمة
وبأية قوة تعانقين قلبي،
وأي هيام تخفق به أصابعي!

وبينما كان يغني هذه الأنشودة العاطفية، كانت عيناه ترسلان إشعاعاتهما باتجاه ناتاشا التي كانت مأخوذة وهي مذعورة.

صاحت دون أن تلاحظ دخول أخيها: إن هذا رائع! غن مقطعاً آخر!

فقال نيكولا في سره: «إن كل شيء إذن يسير في طريقه الهادئ هنا». وألقى نظرة على الغرفة فرأى ڤيرا وأمه والسيدة العجوز.

قالت ناتاشا وقد وقع نظرها عليه فأسرعت إليه:

ـ آه! ها هو ذا نيكولا.

سأل: هل أبي هنا؟

فقالت ناتاشا دون أن تجيبه عن سؤاله:

ـ كم أنا مسرورة لعودتك! نحن نتسلى جداً هنا. هل تعرف أن ڤاسيلي دميتريش قرر البقاء يوماً آخر من أجلي؟

وقالت سونيا: كلا، إن «بابا» لم يعد بعد.

وعلا صوت الكونتيسة يقول: ها أنتذا أخيراً يا كوكو. تعال إليّ يا صديقي!

فاقترب نيكولا من أمه وقبل يدها وجلس بقربها دون أن ينطق بكلمة، مستغرقاً في تأمل أصابعها وهي تصف الورق وترتبه. ومن قاعة الرقص تعالت الضحكات وأصوات مبتهجة تتوسل إلى ناتاشا. كان دينيسوف يقول: لا، لا، لن أقبل أعذاراً. إنك مدينة لي بأغنية. باركارولا، ويجب أن تغنيها لي، أتوسل إليك.

قالت الكونتيسة وهي تلقي على وجه ابنها الصامت نظرة مستفهمة: ماذا حدث لك؟

فأجاب وكأنه مستاء من هذا السؤال الدائم:

ـ لا شيء. هل سيعود أبي مبكراً؟

ـ بلا شك.

وخاطب نيكولا نفسه بقوله: «إن كل شيء يسير في هدوئه المعتاد هنا. إنهم لا يعرفون شيئاً. إلى أين أستطيع اللجوء»؟ وذهب إلى القاعة الكبرى.

كانت سونيا قد بدأت بالتمهيد لمقدمة الباركارولا التي كانت تعجب دينيسوف وكان هذا يفترس ناتاشا بنظراته وهي على وشك الغناء. راح نيكولا يذرع القاعة بانفعال.

كان يحدث نفسه: «يا لها من فكرة تلك التي جعلته يطلب إليها الغناء وكأنها تجيده! ماذا يجدون في هذا من تسلية»؟ بينما كانت تعيد المقدمة وتضبط النغم. عاد يفكر في نفسه: «رباه، رباه! إنني رجل مقضيّ علي!» لقد فقدت شرفي! رصاصة في رأسي، هذا خير جزاء!... إن الأمر يستحق الغناء!... اذهب؟ ولكن إلى أين؟... على كل حال، ليغنوا إذا كان قلبهم يطاوعهم على الغناء!...

واستمر يطوف في القاعة مكتئب الوجه، ملقياً على دينيسوف والفتاتين نظرات شاردة ومتجنباً نظراتهم.

كانت عينا سونيا الشاخصتان إليه تسألانه: «نيكولا، ماذا بك»؟ لقد خمنت من فورها أن أمراً ما قد وقع له. فراح نيكولا يتهرب من ذلك الاستفسار الصامت.

كانت ناتاشا الحساسة هي الأخرى قد أدركت منذ دخول أخيها أنه في حالة نفسية مضطربة. لكنها، في تلك اللحظة، كانت شديدة الفرح، بعيدة عن

الأفكار المزعجة، حتى أنها أبعدت عمداً ذلك الشعور المؤلم الذي خامرها. فكرت في نفسها: «ما فائدة تبديد مثل هذا الجو المرح، لمشاركة الآخرين في ما يزعجهم؟ ثم إنني مخطئة في تصوري. إنه، بدون شك، في مثل حالي من الابتهاج»! وهكذا فإنها لم تخرج في محاكمتها على ما ألفه كل الشباب من مناقشة وتفسير في مثل هذا الموقف.

سألت: هل أنت مستعدة يا سونيا؟

وشمخت برأسها وباعدت بين ذراعيها على طريقة الراقصات، ومضت بخطوات متحمسة تقرع الأرض حتى بلغت منتصف القاعة حيث المجال السمعي أفضل وفجأة توقفت.

بدت في وقفتها تلك كأنها تجيب عن نظرة دينيسوف المعجبة: «كذلك أنا، إنني كما تراني»!

تساءل نيكولا: «ماذا تجد في هذه الحركات المتصنعة من جمال؟ ألن تنتهي؟ إن هذا معيب»!

بدأت ناتاشا بالمقطع الأول من الأغنية، فتمددت حنجرتها وارتفع صدرها واتخذت نظرتها طابعاً جدياً. لم تكن في تلك اللحظة تفكر في شيء خاص. وانبعثت الأصوات خلال شفتيها المقوستين بشبه ابتسامة، أصوات كان كل إنسان قادراً على إخراج مثلها وعلى نسقها وطبقتها، أصوات تجعلنا باردين ألف مرة ولكنها في المرة الواحدة بعد الألف تجعلنا نرتعش ونبكي.

استجابة لإطراء دينيسوف المتحمس لها كانت ناتاشا، قد بدأت تغني خلال فصل الشتاء بشكل جدي. وقد تحرر غناؤها من الطابع المضحك الذي كان يشوهه من قبل، لكنه لم يبلغ حد الكمال. وكان العارفون يقولون: «إنه صوت جميل، لكنه غير متزن بعد، يجب العناية به لصقله». لم يذيعوا رأيهم هذا إلا بعد أن تكون ناتاشا قد انتهت من غنائها منذ وقت ليس بالقصير، أما

خلال الفترة التي كان صوتها (الخام) يرسل أنغامه خلال أنفاسها المبهورة ومحاولاتها الشاقة لإبدال الطبقة، فإن قضاتها القساة ما كانوا يستطيعون البتة التمالك عن مشاطرتها البهجة والطرب والإحساس بالرغبة الملحة في الإصغاء إلى غنائها. كان في صوتها نضرة بتولية، وفيه تنكر لقواه وتأثيراته، ورخامة غير ناضجة بعد، تتناسق مع الأخطاء الفنية بشكل يبدو للسامع معه أن أي تبديل فيه يفسد كل شيء ويبدد كل المتعة.

تساءل نيكولا وقد اتسعت عيناه دهشة: «ما معنى هذا؟ ماذا حدث لها؟ إنها تغني اليوم بشكل رائع غير مألوف»! ثم استغرق روحاً وجسداً في انتظار اللحن وترقب الجملة التالية. وبدا له العالم كله قائماً في الإيقاع الذي يضبط الأغنية! عاش فيها برهة وراح يضبط السلم الموسيقي في نفسه: «واحد، اثنان، ثلاثة... واحد...، اثنان... ثلاثة... واحد... أوه! كم هو سخيف وجودنا! كل هذا، والنحس الذي ركبني، والغضب، والإحراج والشرف، نعم، كل هذا ليس إلا ترهات... هذا هو الحقيقي... تشجعي يا ناتاشا، تشجعي يا صديقتي! ترى هل تستطيع إبراز هذا الـ:«سي»؟... مرحى، لقد أحسنت الأداء»! ودون أن يشعربأنه يغني ليساعدها على إبراز ذلك الـ:«سي»، ارتفع باللحن إلى مرحلته الثالثة (Tirce) في أعلى طبقاته. «رباه، بديع! أصحيح أنني أنا الذي أدى هذه «النوتة» الموسيقية؟ كم كانت ناجحة»!

كم تردّد واهتز ذلك اللحن في الغرفة، وكم تأثر به روستوف في أعماق قلبه! كان في تلك اللحظة يحلق بعيداً عن كل ما له علاقة بالأرض والعالم! «ماذا تهم الخسارة التي منيَ بها في اللعب، وماذا يهمه من دولوخوف والوعد المقطوع!... كل هذه ليست إلا ترهات!... يستطيع المرء أن يسرق وأن يقتل، ومع ذلك، يستطيع في الوقت نفسه أن يتذوق السعادة بكل كيانه».

الفصل السادس عشر

لم تكد ناتاشا تنتهي من الباركارولا حتى عاد إلى روستوف إحساسه بالواقع، فلم يشعر بمثل تلك الرغبة في الاستماع إلى الموسيقى كما أحس بها ذلك اليوم. وخرج دون أن يتفوه بكلمة ومضى إلى غرفته. وبعد ربع ساعة، عاد الكونت العجوز من النادي وهو على أحسن مزاج. سمع نيكولا صوت مجيئه فمضى للقائه.

قال إيليا أندرييتش وهو يبتسم لابنه ابتسامة فخر: هه يا فتاي! هل تسليت؟

أراد نيكولا أن يجيب بنعم لكن قواه خانته واختنق صوته بالعبارات. ولم يلاحظ الكونت حالة ابنه العنيفة لأنه كان يشعل غليونه.

قرر نيكولا أن يخطو الخطوة الرهيبة وقال يحدث نفسه: «يجب أن أحدثه بكل شيء وأن أنتهي من هذا الموضوع»! وفجأة، بدأ يتحدث بطلاقة أخجلته نفسه، وبمثل اللهجة التي يطلب بها عربة للذهاب إلى المدينة، قال لأبيه: على فكرة يا أبي، كنت أود محادثتك لأنني في حاجة إلى المال.

فأجاب الكونت وهو شديد المرح ذلك المساء: آه، رباه! لقد قلت لك إنك ستنفق كل ما معك. هل يلزمك مبلغ كبير؟

أجاب نيكولا بابتسامة ماجنة ظل ضميره يوبخه من أجلها طويلاً، ووجهه محمرّ: نعم، مبلغ كبير. لقد خسرت قليلاً... أعني مبلغاً غير قليل... بل كثيراً أيضاً، ثلاثة وأربعين ألف روبل.

صاح الكونت بعنف بينما تغطى عنقه فجأة بالحمرة الناجمة عن ارتفاع الضغط عند المسنين: ماذا!... مع من؟... إنك تمزح!

فأردف نيكولا: وقد وعدت بتسديد هذا الدين غداً.

فتهاوى الكونت بيأس على إحدى الكنبات وهو يقول: رباه!...

فتابع نيكولا بطلاقة: ما العمل! إن هذا يحدث لكل الناس!

لكنه كان في سرّه يعتبر نفسه دنيئاً لا تكفيه حياته لدفع ثمن جريمته. كان يؤكد لابنه بطيش ورعونة قريبة من الإهانة أن ذلك يقع لكل الناس، في حين أن واجبه كان يقضي عليه أن يقبل يديه وأن يطلب غفرانه وهو راكع!

خفض إيليا أندرييتش عينيه لدى سماعه تلك الإجابة وغمغم مختاراً الكلمات المناسبة: نعم، هذا مؤكد... لن يكون من السهل تدبير هذا المبلغ، أنا أخشى ذلك... نعم ولا شك، لقد وقع مثل هذا لآخرين... لقد وقع لآخرين.

واختلس نظرة سريعة إلى ولده واتجه نحو الباب. كان نيكولا يتوقع رفضاً من أبيه لذلك فوجئ بسلوكه ذاك وأخذ على حين غرة.

وقال بين دموعه وتنهداته: أبي، أبي! اصفح عني!

وأطبق على يد أبيه وألصق شفتيه بها بخشوع وبدأ بالبكاء.

وبينما كان الأب والابن يتفاهمان على ذلك النحو، كانت مناجاة أخرى لا تقل عن هذه خطورة، تدور بين الأم وابنتها. كانت ناتاشا قد أسرعت إلى أمها الكونتيسة مرتبكة قالت: أماه، أماه!... لقد... لقد...

ـ ماذا حدث؟

ـ لقد صرح... لقد صرح بحبه!

لم تصدق الكونتيسة أذنيها. لقد صرح دينيسوف بحبه! ولمن؟ لتلك الطفلة ناتاشا التي كانت إلى زمن قريب تلعب بلعبتها والتي ما زالت تدرس على يد مربية!

قالت الأم آملة أن يكون ذلك محض دعابة: هيا يا ناتاشا، لا تتفوهي بحماقات.

فأجابتها ناتاشا بشيء من الدهشة: حماقات! ولكن ليس ما أقوله حماقة مطلقاً. أنا أتكلم جدياً. لقد جئت أسألك الرأي فتحدثيني بهذا الشكل وتتهميني بقول الحماقات...

هزت الكونتيسة كتفيها وقالت: إذا كان السيد دينيسوف قد طلب يدك فأجيبيه بأنه أحمق، وستغني هذه الكلمة عن مجمل الحديث.

أصرت ناتاشا على موقفها وقالت بلهجة جدية: كلا، يا أمي، إنه ليس أحمق.

فقالت الكونتيسة وعلى شفتيها ضحكة مغتصبة: إذن ماذا تريدين؟ في هذه السن، لا تخلو رأس إحداكن من نوع من الحب... حسناً، إذا كان يعجبك إلى هذا الحدّ، فتزوجيه وليباركك الله الرحيم!

ـ لكن كلا يا أماه، أنا لا أحب دينيسوف، أو أقله، لا أعتقد أنني أحبه.

ـ وإذن؟ قولي له ذلك.

ـ أماه، إنك غاضبة أليس كذلك؟ لا تنزعجي أرجوك، هل هذه خطيئتي؟

فأجابت الكونتيسة باسمة: أنا لست غاضبة أبداً... هيا، هل تريدين مني أن أذهب لأتحدث معه؟

لا، سأكلمه أنا بنفسي. لكنني أريد منك فقط أن تنبئيني بما يجب علي أن أقول.

وأردفت مستجيبة لابتسامة أمها: ألا ترين،إن كل شيء سهل في نظرك. آه! ليتك شاهدته عندما حدثني عن هذا الأمر! ثم إنني أعرف تماماً أنه لم يكن يريد أن يقوله، لكن الكلمات أفلتت من لسانه!

ـ هذا لا يمنعك من أن ترفضي طلبه.

ـ لكن لا، إن ذلك سيؤلمني جداً، إنه فائق اللطف!

أجابت الأم ساخرة: إذن فاقبلي. ألا ترين أن الوقت قد حان لتتزوجي وكاد يفوت!

ـ آه يا أمي! إن ذلك يؤلمني كل الألم، لست أدري كيف أجيبه وماذا أقول له.

فقالت الكونتيسة في شيء من الغضب لأن بعضهم عامل تلك الطفلة معاملة الفتاة الناضجة: لن تتكلمي أنت، أنا سأتكفل بذلك.

ـ كلا! سوف أحدثه بنفسي وستصغين إلى حديثي من وراء الباب.

عادت ناتاشا إلى قاعة الموسيقى حيث كان دينيسوڤ جالساً في مكانه الأول قرب الـپيانو ورأسه بين يديه. انتفض لدى سماعه صوت خطواتها الخفيفة.

قال وهو مسرع للقائها: ناتالي، قرري مصيري، إنه بين يديك.

ـ ڤاسيلي دميترييتش، إنك تزعجني كثيراً!... أنت لطيف جداً... حقاً إن ذلك لا يمكن أن يكون... لكنني سأظل أحبك دائماً.

انحنى دينيسوڤ على يدها وسمعت ناتاشا أصواتاً غريبة غير مفهومة. ألصقت شفتيها بشعرها الأجعد المشعث. وفي تلك اللحظة ارتفع حفيف ثوب عنيف ينبئ بقدوم الكونتيسة.

قالت بصوت منفعل بدا رغم رقته على شيء من القسوة في نظر دينيسوڤ: يا ڤاسيلي دميتريش، شكراً على الشرف الذي تسبغه علينا. لكن ابنتي ما زالت طفلة. ولقد ظننت أنك بوصفك صديقاً لابني، ستبدأ بالاتصال بي أولاً. ولم يكن ذلك، لو فعلته، ليدفعني إلى إجابتك بالرفض.

تمتم دينيسوڤ مطرق الرأس: يا كونتيسة..

ولعله أراد أن يضيف شيئاً إلى كلمته.

ولما رأت ناتاشا مبلغ الانقلاب الذي طرأ عليه، لم تتمالك أعصابها وخرجت عن هدوئها بنوبة صاخبة من البكاء.

وأخيراً تمكن دينيسوف أن يقول بصوت متقطع:

ـ كونتيسة، قد أكون مخطئاً في حقك، ولكن اعرفي تماماً أنني أشعر باحترام لا يوصف نحو ابنتك... ونحو كل أسرتك... لدرجة أنني مستعد لإعطاء حياتي لو كنت أملكها...

توقف فجأة عندما لاحظ أن هيئة الكونتيسة ما زالت موسومة بطابع القسوة. وأخيراً قال فجأة بشيء من العنف: هيا، الوداع.

وقبل يد الكونتيسة وخرج بخطوات سريعة دون أن يلقي نظرة على ناتاشا.

غداة اليوم التالي، ودع نيكولا دينيسوف الذي رفض البقاء يوماً آخر في موسكو. كان كل أصدقائه يحتفلون بسفره لدى البوهيميين لذلك لم يذكر قط كيف حشروه في زحافته وكيف اجتاز المراحل الثلاث.

كان نيكولا مضطراً إلى البقاء في موسكو خمسة عشر يوماً في انتظار أن يجمع الكونت العجوز المبلغ الذي كان يسعى لإيجاده سداداً لدين ولده. ولقد أمضى هذه الأيام حابساً نفسه غالباً في غرفة الفتاتين، متشاغلاً بالتدوين الموسيقي.

أظهرت سونيا نحوه حنواً وإخلاصاً أشد من أية مرة مضت. حاولت أن تُظهر له أن خسارته في القمار تجعله في عينيها أرفع قيمة. لكن نيكولا كان يعتقد جازماً أنه لم يعد جديراً بها.

واستطاع روستوف في نهاية تشرين الثاني، أن يرسل ثلاثة وأربعين ألف روبل إلى دولوخوف وأن يأخذ منه براءة ذمة. وبعد ذلك مباشرة، سافر إلى وحدته دون أن يتقدم إلى أحد من أصدقائه مودعاً. وكانت فرقته معسكرة حينذاك في بولونيا.

الجزء الخامس

الفصل الأول

بعد خصامه مع زوجته سافر پيار إلى پيترسبورغ، وعندما وصل إلى تورغوك، ادعى مدير مركز تبديل الخيل أن ليس لديه خيل مستريحة، فاضطر إلى الانتظار. تمدد بثيابه على كنبة جلدية أمام طاولة مستديرة مدد فوقها ساقيه المحتذيتين والمبطنتين بالفراء، واستغرق في خواطره.

سأل وصيفه: هل أحضر الحقائب؟ هل أعد سريراً وشاياً.

لم يُجب پيار، كان لا يسمع ولا يرى. كانت أفكاره وتصاميمه تدور حول موضوع شديد الخطورة منذ المرحلة الأخيرة، حتى أنه ما كان يعير كل ما يدور حوله أي التفات. لم يكن يهتم بالوصول إلى هدفه عاجلاً أم آجلاً، ولا بأن يجد في هذه المرحلة سريراً أو لا، بل إنه لم يكن يهتم إذا أمضى في هذا المكان ساعات معدودة أو قضى العمر كله، لكثرة الأفكار التي كانت تشغل كل انتباهه.

كان مدير المركز وزوجته ووصيف پيار وبائعة جلود، يتناوبون في المثول بين يدي پيار عارضين عليه خدماتهم. فكان پيار، يتأملهم خلال نظارتيه، دون أن يبدل وضعيته أو أن ينزل ساقيه، غير مدرك ما يريدون ولا كيف استطاعوا أن يعيشوا حتى الآن دون أن يتوصلوا إلى حل المعضلات التي كانت تدمي قلبه. كانت هذه المعضلات هي هي، لم تتبدل منذ أن طرح على نفسه تلك الأسئلة بعد عودته من المبارزة في غابة الفوكونييه، تلك الأسئلة التي ظل يفكر فيها طوال ليلة الأرق الرهيبة التي قضاها آنذاك.

لكن عزلة السفر جعلت تلك الأسئلة أكثر إلحاحاً. فكان كلما حاول أن يفلت منها خلال ثغرة ما، أو أن يزوغ أمامها، عادت إليه تهاجمه وتحدق به دون أن يستطيع إيجاد أجوبة لها وحلول، وكأن المحور الرئيسي في كيانه وحياته قد تركز في رأسه وغُرس فيه. فكان يشعر في ذلك المحور ثابتاً لا يحاول النفاذ إلى أبعد من مكان وجوده، ولكنه لا يحاول الخروج من مكانه كذلك، بل يكتفي بالدوران دون أن يلف حوله ودون أن يتوقف عن الدوران أبداً.

وصل رئيس المركز يرجو سعادته أن يتفضل بالانتظار ساعتين فقط حتى يستطيع بعدها أن يقدم على مسؤولياته الشخصية، خيول عربة البريد لسعادته. كانت تلك كذبة واضحة لأن الرجل «الطيب» كان يحاول أن يسحب من الرجل المسافر الثري أكبر جانب ممكن من المال.

وتساءل پيار «هل يتصرف تصرفاً حسناً أم لا. إنه على حق فيما يتعلق بي. ولكن إذا عامل مسافراً آخر على هذه الصورة فيكون مخطئاً. أما هو، فإنه على صواب لأنه فقير. ولا يستطيع كسب عيشه إلا بهذه الطريقة. لقد ادعى ضابط جاء منذ حين يطلب «بدلاً» لعربته، فلما امتنع، ضربه. فإذا كان حقيقياً، فإن معناه أن الضابط كان على عجلة من أمره. لقد أطلقت النار على دولوخوف لأنني ظننت أنه أهانني، ولويس السادس عشر، ألم يعدموه لأنهم اعتبروه مجرماً؟ وبعد عام أعدموا أولئك الذين حكموا عليه من قبل؛ ولا شك أنه كانت لديهم أعذارهم أيضاً. ما هو السيئ، وما هو الحسن؟ ماذا يجب أن يحب المرء وماذا يجب أن يكره؟ لماذا يجب أن يعيش المرء وما هو «الأنا»؟ ما هي ا لحياة وما هو الموت؟ وما هي القوة التي تسيّر كل هذا؟

لم يجد على كل هذه الأسئلة إلا جواباً واحداً لم يكن جواباً في ذاته.

«ستموت يوماً وتنتهي. ستموت وستعرف كل شيء أو ستكف عن طرح الأسئلة على نفسك». ولكن أن يموت، كان كذلك شيئاً رهيباً.

وبصوتها الثاقب، عرضت البائعة بضاعتها على پيار، وكانت تقدم له أحذية من «الشيـڤرو» جلد الجديان. قال يحدث نفسه «معي مئات من الروبلات لست أدري ماذا أعمل بها، وهذه المرأة بفروتها الممزقة، تسألني بخضوع أن أساعدها. ولكن هل هي في حاجة حقيقية إلى المال؟ هل يستطيع المال أن يشتري (أوقية) من السعادة وراحة الفكر؟ كلا. لا شيء في الدنيا يستطيع أن يجعلها أو يجعلني أقل خضوعاً للسوء أو للموت، ذلك الموت الذي سينهي كل شيء والذي سيأتي اليوم أو غداً، ولا قيمة لذلك لأنه لن يكون إلا لحظة بالقياس على الأبدية». ومجدداً اصطدم بالمحور الذي يدور في الفراغ حول نفسه دون أن يأتي بما يفيد، دورات لا طائل فيها.

جاءه الخادم بكتاب قطعت نصف صفحاته. كان عبارة عن رواية في رسائل لمدام دوسوزا. راح يقرأ قصة الصراع الهائل الصالح الذي قامت به من تدعى إميلي دومانسفلد. راح يتساءل، «لماذا تقاوم ما دامت تحبه؟ إن الله ما كان ليضع في نفسها رغبات ضد رغبته. إن زوجتي السابقة لم تناضل، هي، ولعلها كانت على صواب... لم يُكتشف شيء ولم يُخترع شيء. كل ما نستطيع معرفته هو أننا لا نعرف شيئاً. هذه هي الدرجة القصوى في الحكمة الإنسانية».

بدا كل شيء في نفس پيار وحوله، ارتجاجاً مزعجاً وصخباً غريباً مخالفاً للمألوف. لكن ذلك التناقض كان يتيح له في ثنياته لوناً من المتعة.

قال رئيس المركز وهو يدخل مسافراً، كان افتقار المركز إلى الخيول يرغمه على التريث هو الآخر: هل تتفضل سعادتكم، إذا كان ذلك لا يضايقكم، بإعطاء مكان صغير لهذا السيد؟

كان المسافر عجوزاً قصير القامة، بارز العظام، أصفر الوجه، يبرز حاجباه الأشهبان فيظللان عينين براقتين بلون رمادي.

أنزل پيار رجليه عن الطاولة ومضى يستلقي على السرير الذي أُعد له، ملقياً بين الحين والآخر، نظرة على القادم الجديد الذي لم يكن يعيره انتباهاً، بل كان، كما يبدو مكتئب الوجه، يتخلص بصعوبة من فروته، يساعده على ذلك خادمه. أما ثيابه الداخلية، فكانت عبارة عن جلد خروف مغطى بنسيج قطني أصفر، وحذاءين من اللباد المتين يرتفعان حتى أعلى ساقيه الهزيلتين المعروقتين.

جلس على الكنبة في ذلك التجهيز وكفأ رأسه الكبير الحليق ذا الصدغين العريضين، على مسندها وعندئذ فقط، ألقى على رفيقه نظرة جعلت بيزوخوف يفاجأ ببيانها الصارم، شعر برغبة في الدخول في حديث مع ذلك المسافر، فهم بسؤاله عن حالة الطريق. لكن العجوز أغمض عينيه وعقد يديه الهزيلتين اللتين يزيّن إصبع إحداهما خاتم كبير من المعدن على شكل جمجمة ميت، وبقي جامداً مستغرقاً في بحران عميق كما خُيّل إلى پيار. أخرج خادمه ـ وكان عجوزاً خفيف الحركة، قصير القامة، أجرد الوجه، ذا صفرة متقلصة كوجه سيده تماماً، يرى بوضوح أنه لم يحلقه يوماً ما بل لم يكن يوماً ذا لحية وشاربين ـ أدوات الشاي وجاء «بسماور» يغلي الماء فيه. وعندما انتهى كل شيء، فتح السيد عينيه واقترب من الطاولة حيث أعد لنفسه كأساً من الشاي وقدم أخرى إلى الرجل الأجرد. أحسّ پيار بكآبة غامضة، وبضرورة ملحة تدفعه إلى توجيه الحديث إلى المسافر.

وبعد حين، أعاد الخادم كأسه فارغة ومقلوبة، دلالة على أنه لا يرغب في كأس أخرى، وإلى جانبه قطعة السكر الفائضة عن استهلاكه وسأل سيده عما يريد من خدمات.

فأجابه هذا: كلا، لا شيء، أعطني كتابي.

جاءه الخادم بكتاب اعتقد پيار أنه يبحث في شؤون النسك والتقوى، واستغرق في قراءته. أما پيار الذي كانت عيناه في تلك اللحظة محولتين نحو المسافر العجوز، فقد شاهده فجأة يضع الكتاب من يده ويغلقه ويعود إلى وضعه الأول مغمض العينين منكفئ الرأس على مسند الكنبة. همّ پيار أن يستدير، لكنه لم يجد الوقت الكافي. إذ إن العجوز فتح عينيه فجأة وراح يتفحص وجهه بصرامة.

شعر پيار بالارتباك. كان يحب أن يفلت من تينك العينين البراقتين اللتين كانت لهما جاذبية لا تقاوم.

الفصل الثاني

ـ إن لم أكن مخطئاً، فلي شرف التحدث مع الكونت بيزوخوف أليس كذلك؟ قال المسافر الغريب بصوته القوي المتزن.

لم ينبس پيار بكلمة بل اكتفى بالنظر إليه خلال نظارتيه نظرة مستفسرة.

وتابع المسافر الغريب يقول: لقد سمعتهم يتحدثون عنك يا سيدي وعن المصيبة التي أصابتك.

كانت لهجته وهو ينطق بتلك الجملة تؤيد معنى الكلمات وكأنها تقول: «نعم، إنها مصيبة مهما أطلقت عليها من أسماء أخرى، إنني أعرف أن ما وقع لك في موسكو مصيبة».

وتابع: إنك تراني يا سيدي شديد الغم.

احمر وجه پيار فوضع قدميه على الأرض بسرعة ومال إلى العجوز وعلى شفتيه ابتسامة خجل.

تابع المسافر العجوز قوله: أنا لم أحدثك يا سيدي عن هذا الأمر بمجرد فضول عابر، بل لأسباب أهمّ.

سكت المتحدث دون أن يغفل عن النظر إلى پيار، ثم تحرك في مقعده داعياً إياه في حركته إلى الجلوس بجانبه. شعر پيار بدافع يجبره على إطاعة ذلك النداء الصامت رغم نفوره من الامتثال له. استرسل المسافر: إنك تعس يا سيدي. إنك شاب وأنا عجوز. أريد أن أساعدك في حدود طاقتي.

فأجاب پيار بابتسامة مغتصبة: نعم. سأكون شاكراً لك صنيعك... من أين أتيت؟

استأنف العجوز الكلام: مع ذلك، إذا كنت تجد لسبب أو لآخر أن حديثي يزعجك، فأرجو أن تنبئني بذلك يا سيدي العزيز.

كان وجه هذا الرجل عابساً وصارماً. مع ذلك فإن وجهه وأبحاثه كانا يفرضان جاذبية لا تقاوم على پيار. عندما انتهى من جملته الأخيرة، ابتسم فجأة ابتسامة أبوية غير متوقعة.

أجاب پيار وهو يتفحص عن قرب خاتم صديقه الجديد.

ـ كلا أبداً. بل على العكس، إنني مسرور بالتعرف إليك.

ولما تيقن أن الخاتم يحمل جمجمة ميت، وهي رمز الماسونية قال له:

ـ إسمح لي بسؤال. هل أنت ماسوني.

فقال المسافر وقد ازدادت نظرته غوصاً في أعماق پيار:

ـ نعم، إنني منتسب إلى جمعية الماسونية. وإنني باسمي واسم إخواني أمد لك يدي الأخوية.

أجابه پيار مبتسماً، تتجاذبه عوامل الثقة التي توحيها إليه شخصية ذلك العجوز، وميله إلى الهزء من المعتقدات الماسونية: أخشى كثيراً، أخشى كثيراً أن لا أستطيع... كيف أعبر لك؟... أخشى أن تكون نظرتي إلى العالم ومعتقداتي بعيدة جداً عن معتقداتك حتى ليتعذر التفاهم بيننا.

استأنف الماسوني حديثه:

ـ إنني أعرف أفكارك. ليست خصوصية نابتة من أعماقك. إنها الثمرة العامة للكبرياء والجهل وكسل الذهن. إن السواد الأعظم من الناس يؤمنون بها. أعذرني يا سيدي العزيز، ولكن لو أنني ما كنت أعرف أسلوبك في التفكير لما عقدت معك هذا الحديث. إن آراءك ليست إلا خطيئة محزنة.

اعترض بيار بابتسامة واهنة وقال: أستطيع وصف معتقداتك بمثل هذا الوصف.

قال الماسوني الذي أخذت لهجته الحازمة الواضحة تدهش بيزوخوف أكثر فأكثر: لن أجرؤ أبداً على الادعاء بأنني حاصل على الحقيقة. إن أحداً من المخلوقات لا يستطيع بأضوائه الخاصة أن يصل إلى الحقيقة. إن المعبد الذي سيكون المقام الجدير بالله الكبير، لم يبن إلا حجراً حجراً، بالتعاون بين (الكل) وبفضل ملايين الأجيال التي تعاقبت منذ سلفنا آدم حتى اليوم.

وأغمض العجوز عينيه. فقال بيار وكأنه يخضع آسفاً، لدافع عدم إخفاء شيء، الذي نبت في نفسه: أنا مضطر للاعتراف لك بأنني... أنني لا أؤمن... بالله.

تأمله الماسوني باسماً ابتسامة رجل غني يملك الملايين، جاءه صعلوك فقير يشكو له عجزه عن إيجاد الروبلات الخمسة التي فيها كل سعادته. قال: إن هذا صحيح يا سيدي. إنك لا تعرفه ولا تستطيع أن تعرفه. ولأنك لا تعرفه تشعر بالتعاسة.

أجاب بيار: صحيح إنني تعس. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟

قال الماسوني بصوت قاس ولكن مرتعد:

أنت لا تعرفه يا سيدي العزيز. ولهذا السبب أنت تعس. إنك لا تعرفه وهو هنا. إنه فيّ، في كلماتي. بل إنه فيك أنت (وهنا استعمل صيغة المفرد واستمر يستعملها حتى نهاية الحديث) بل وهو في تلك العبارات الدنسة التي نطقت بها منذ حين!

سكت الماسوني وأطلق زفرة، ولعله كان يحاول استرداد هدوئه. ثم استأنف بلهجة أقل عنفاً من الأولى: لو أنه لم يكن موجوداً يا سيدي لما كان

في هذه اللحظة موضوع جدلنا. عمّ وعمن نتحدث الآن؟... من هو الذي أنكرته؟...

وصاح فجأة بتلك اللهجة الجليلة الآمرة: من الذي اخترعه لو أنه لم يكن موجوداً؟ من أين جاءتك فكرة وجود كائن لا يمكن فهمه وتصوره؟ من أين أتى العالم كله وأنت نفسك بفكرة كائن قويّ أزلي وغير محدود في كل صفاته؟...

توقف وسكت فترة طويلة. فلم يستطع پيار أن يرد وأن يخرق حجاب ذلك الصمت.

تابع الماسوني حديثه وعيناه تنظران أمامه بدلاً من التحديق إلى وجه پيار، بينما كانت يداه المعروقتان تتصفحان كتابه بتأثير اضطرابه وانفعاله:

ـ إنه موجود ولكنهم لا يفهمونه بسهولة. لو أن الأمر كان مقتصراً على رجل تشك في وجوده، لأتيت به إليك ولأمسكت بيده وعرضته على ناظريك. ولكن كيف أستطيع وأنا الفاني الحقير، أن أُريَ جلالته، وأزليته ورحمته التي لا حدود لها، للذي هو أعمى أو مغلق عينيه كي لا يرى بهما ولا يفهمه، للذي لا يرى ولا يفهم بشاعته الشخصية وفساد أخلاقه؟...

وسكت لحظة ثم تحرك في جلسته وتابع بابتسامة ساخرة: من أنت إذن؟ نعم، من أنت؟ إنك تعتقد أنك حكيم لأنك قادر على النطق بهذه الكلمات الدنسة. لكنك في الحقيقة لست إلا أكثر سخفاً من الطفل الذي بعد أن لعب فترة طويلة بأجزاء ساعة متقنة الصنع، يجرؤ على القول إنه، ما دام لم يفهم الغاية من هذه الساعة، فإنه لا يؤمن كذلك بالصانع الذي صنعها. نعم، من الصعب معرفته. لقد عملنا منذ قرون، منذ سلفنا آدم حتى اليوم، في تلك المعرفة، وما زلنا حتى الآن بعيدين جداً عن بلوغ غايتنا. لكن هذا العجز إن دلّ على شيء فإنما يدل على ضعفنا إزاء عظمته.

وحدّق پيار طويلاً إلى وجه الماسوني بعينيه البراقتين وقلبه يكاد يكف عن الخفقان. كان يصغي إلى توكيدات هذا المجهول دون أن يقاطعه أو أن يطرح عليه سؤالاً. وكان يؤمن بدون شك بأقواله. ترى هل يستسلم للمنطق الذي في نقاشه؟ هل يدع نفسه يُقاد كالطفل بحرارة أقوال هذا الرجل والانفعال الذي كان يخالط صوته فيجعله يرتجف حيناً ويتقطع أحياناً؟ هل يخضع لسحر تلك النظرة التي يلتمع فيها نور إيمان مخلص؟ هل كان ذلك الإشراق وتلك الثقة الحوارية[1] تنكده بالقدر الذي كانت تتناقض تماماً مع كآبته الشخصية وفساده الخلقي؟ مهما كان الأمر، فإنه كان راغباً في الإيمان بتلك الأقوال، مؤمناً بها، يشعر بإحساس مجدد يخفف من حدة آلامه ويعيده إلى الحياة.

وأنهى الماسوني كلامه قائلاً: إن الذكاء لا يمكن أن يدركه، لكن الحياة وحدها هي التي تقود إليه!

أحسّ پيار بقلق، بقيام شك في نفسه. ترى هل يجعله ضعف حجج محدثه وغموضها يتنكر للإيمان بمزاعمه؟ ذلك ما كان يخشاه.

قال معترضاً: لست أفهم كيف لا يستطيع الفكر البشري الوصول إلى تلك المعرفة التي تتحدث عنها.

فابتسم العجوز ابتسامته الطيبة وقال: إن الحكمة، الحقيقية المجردة، تشبه سائلاً شديد النقاء نريد ارتشافه. فهل أستطيع الحكم على نقائه إذا صببته في وعاء قذر متسخ؟ إنني لن أستطيع أن أجعل ذلك السائل الثمين يبلغ مرحلة معينة من النقاء إلا إذا عمدت إلى دخيلة نفسي فنقيّتها.

صاح پيار متشجعاً: نعم، نعم، هو كذلك؟

إذن، لا ترتكز الحكمة المطلقة على العقل وحده ولا على العلوم المنافية

---

(١) نسبة إلى الحواريين أصحاب السيد المسيح. (المترجم).

للمناقبية الدينية، كالفيزياء والكيمياء والتاريخ وفروع المعرفة البشرية الأخرى. إن الحكمة البشرية (واحدة) أما الحكمة المطلقة فإن لها علماً واحداً وهو علم (الكل). إنه العلم الذي يفسر كل الخليقة والمكان الذي يحتله الإنسان فيها. ولكي يفسح الإنسان في المجال لهذا العلم في نفسه، لا بد له أن يطهر تلك النفس ويجدد وجوده الداخلي. أي إن عليه قبل أن يعرف، أن يؤمن. ومن أجل مساعدتنا على بلوغ هذه الأهداف، وُضعت في نفوسنا تلك الشعلة الإلهية المسماة بالضمير.

فقال پيار مكتئباً يعترف بواقعه: كلا، إنني أمقت حياتي.

ـ إذا كنت تمقتها، فأبدلها، واستفد منها. وكلما ازددت تطهيراً لنفسك، اشتد قربك من الحكمة. ألق نظرة على حياتك يا سيدي. ماذا فعلت حتى اليوم؟ سلسلة من الفسق والإفراط في المنكر. نلت كل شيء من المجتمع لكنك لم تعط المجتمع شيئاً. جاءت الثروة إليك، فكيف تصرفت فيها؟ ماذا فعلت لآخرتك؟ هل فكرت في عشرات الألوف من عبيدك؟ هل قدمت لهم مساعدة جسدية أو فكرية؟ كلا. لقد استفدت من كدحهم، لتعيش حياة كلها فوضى. هذا ما فعلته. هل بحثت عن بعض الأعمال التي تسمح لك بأن تكون مفيداً لآخرتك؟ كلا. لقد أمضيت عمرك في البطالة. ثم تزوجت، يا سيدي، فوجبت عليك مسؤولية كبرى، وهي توجيه امرأة شابة خلقياً. ولكن ماذا فعلت؟ لقد غمستها في أعماق جحيم الكذب والتعاسة بدلاً من أن تسدد خطاها في طريق الحقيقة. وأهانك رجل فقتلته. وها إنك تقول لي إنك لا تعرف الله وإنك تكره وجودك. ليس في ذلك ما يدهش يا سيدي العزيز.

وعندما بلغ الماسوني هذا الحد، أسند رأسه مرة أخرى إلى مسند الكنبة من التعب، وأغمض عينيه. راح پيار يتأمل ذلك الوجه الصارم الشبيه بوجه

المومياء. حرك شفتيه لتنطقا بجملة: «نعم، لقد عشت حياة بشعة مليئة بالفسق والعطالة». لكنه لم يجرؤ على تبديد الصمت الشامل.

سعل الماسوني سعالاً خشناً ينفرد به الشيوخ واستدعى خادمه: إذن، ماذا جرى للخيول؟

ـ إنهم على وشك إعدادها من أجلك. ولكن ألا تأخذ قسطاً من الراحة؟

ـ كلا، أقطر الخيول إلى العربة.

وتساءل پيار: «هل سيمضي دون أن يحدثني بكل ما كان يريد أن يقوله لي، ودون أن يعدني بمساعدته وعونه»؟ كان في تلك اللحظة يذرع أرض الغرفة مبلبل الخاطر، ويختلس بين الحين والحين نظرات وجلة إلى وجه الماسوني. «نعم، إنني لم أفكر قط في هذا من قبل. أمضيت حياة حقيرة كريهة، لكنها كانت ضد رغبتي. أجل، لقد كنت أمقتها حقاً... إن هذا الرجل يعرف الحقيقة، وهو يستطيع إطلاعي عليها لو أنه وافق على ذلك».

أراد أن يعترف بپيار من صميم قلبه بهذه الأفكار أمام المسافر العجوز، لكن الشجاعة خانته. وفي تلك الأثناء، كان العجوز يركز فروته بعد أن نظم أدوات الشاي بيديه النحيلتين الخبيرتين. وعندما انتهى من عمله، استدار نحو بيزوخوف وقال له بلهجة مهذبة: إلى أين تفكر في الذهاب يا سيدي؟

فأجاب پيار بصوت طفل غير واثق بنفسه:

ـ أنا؟... إلى پيترسبورغ. إنني شاكر لك. إنني موافق على آرائك. ولكن لا تعتقد أنني على كل هذا الفساد في الأخلاق. أنا أتعطش من كل قلبي إلى بلوغ الدرجة التي تريدني أن أبلغها. لكن أحداً لم يأخذ بيدي من قبل... الأمر الذي، على كل حال، لا يخفف من بشاعة سلوكي. ساعدني إذن، وثقّفني ولعلّني عندئذ...

خنق الانفعال صوته فلم يستطع الاسترسال في الحديث، فاستدار ساخطاً.

بدا على الماسوني أنه يفكر. وأخيراً قال بعد فترة صمت طويلة: لا يأتي العون إلا من عند الله. لكن جمعيتنا تستطيع مساعدتك ضمن نطاق إمكانياتها. ولما كنت ذاهباً إلى پيترسبورغ، أرجو أن تسلم هذه إلى الكونت ڤيلارسكي.

وأخرج من حافظته ورقة كبيرة طواها أربعاً بعد أن كتب عليها بضع كلمات، وأعطاها له وقال: اسمح لي بأن أعطيك نصيحة. حالما تصل إلى العاصمة، كرس الأيام الأولى من وصولك للوحدة، فافحص ضميرك ولا ترجع إلى أسلوبك القديم في الحياة.

وعندما رأى خادمه داخلاً قال مختتماً كلامه:

ـ والآن يا سيدي، أتمنى لك سفراً طيباً... وحظاً سعيداً...

ولما تصفح پيار سجل مدير المركز، عرف أن ذلك المسافر لم يكن إلا أوسيب ألكسييـڤيتش بازدييـف. وكان هذا منذ زمن نوڤيكوف[1] واحداً من أكثر المتحمسين لشيعة القديس مارتن وللماسونية. ظل پيار زمناً طويلاً بعد ذهاب المسافر، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً دون أن يفكر في اللجوء إلى سريره أو في طلب خيول لعربته. كان يتمثل الحياة الفاسدة التي عاشها حتى ذلك اليوم، ويتصور، بحماسة المؤمن حديث الإيمان، المستقبل الجميل الذي ينتظره، مستقبلاً مليئاً بالفضيلة والسعادة كان يقدّر أن تحقيقه سهل، وأن فساد أخلاقه من قبل لم يكن إلا نتيجة لصدفة مزعجة. لقد عمي من قبل عن رؤية جمال الفضيلة. أما الآن. فقد تبددت شكوكه، وأصبح مؤمناً بأن رجالاً متحدين فيما بينهم، يستطيعون التعاون للبحث عن الفضيلة، وأن الماسونيين كانوا كذلك!

---

(١) كاتب معروف، من أشدّ المتحمسين للماسونية في روسيا. (المترجم).

الفصل الثالث

أمضى پيار أيامه الأولى، في پيترسبورغ، يقرأ كتاب (القدوة) ولم يعلم أحداً بوصوله، وأضفت عليه القراءة متعة لم يعرفها من قبل: وهي الإيمان بإمكانية البلوغ إلى الكمال وتحقيق الحب الأخوي في هذا العالم السفلي، ذلك الحب الأخوي الفعال الذي أنبأه به أوسيب ألكسييـڤيتش.

دخل الكونت البولوني ڤيلاروسكي بعد وصوله بثمانية أيام، وكان پيار قد صادفه في المجتمعات الپيتروسبورغية في مكتب پيار. وعلى وجهه ذلك الطابع الخطير الذي اتسم به، وشاهد دولوخوڤ عندما تقدم إليه. وبعد أن أغلق الباب، وتأكد من خلو المكتب إلا منهما، قال لـپيار دون أن يجلس:

ـ أنا مكلف مهمة لديك يا كونت. لقد تدخلت شخصية رفيعة المقام في جماعتنا، لتجعل قبولك بيننا قبل المدة المحددة عادة مقبولاً. ولقد كلفت من قبلها أن أكون كفيلك في هذه الخطوة. وإنني أعتبر الامتثال لرغبات تلك الشخصية الرفيعة بمثابة واجب مقدس. فهل ترغب في الانخراط في جماعة الماسونيين على مسؤوليتي؟

دُهش پيار لهذه اللهجة الحازمة التي يتحدث بها هذا الرجل الذي لم يره مرة إلا والابتسامة مشرقة على وجهه في المجتمعات، لطيفاً، مقرباً إلى ألمع النساء وأشدهن فتنة.

قال مجيباً: نعم، إنها رغبتي.

هز ڤيلاروسكي رأسه مؤيداً وأجاب: ثمة سؤال أخير يا كونت، أرجو أن

تجيبني عنه بكل إخلاص، ليس بوصفك ماسونياً مقبلاً بل بوصفك شاباً نبيلاً: هل تنكرت لأفكارك القديمة وبت تؤمن بالله؟

فكر پيار برهة وقال: نعم... نعم إنني أؤمن بالله.

قال ڤيلاروسكي: في هذه الحالة... لكن پيار قاطعه: نعم، إنني أؤمن بالله.

فقال ڤيلاروسكي متمماً: في هذه الحالة، يمكننا الذهاب. إن عربتي قرب الباب وهي في خدمتك.

بقي ڤيلاروسكي ساكتاً طوال الطريق. كان يجيب عن أسئلة پيار حول ما يجب عليه أن يفعل ويقول، إن إخوة أرفع مقاماً منه وأكبر منه شأناً سيختبرونه وإن عليه أن يصدقهم القول.

صعدا سلّماً معتماً، بعد أن ترجلا من العربة تحت رواق البناء الذي يحتله المحفل، ودخلا إلى ردهة صغيرة مضيئة وهناك نزعا فروتيهما دون مساعدة الخدم. ولما دخلا إلى الغرفة التالية، جاء رجل يرتدي زياً غريباً، دخل عليهما من الباب الآخر، فمضى ڤيلاروسكي إلى لقائه وخاطبه بالفرنسية بصوت خفيض ثم اقترب من خزانة شاهد پيار فيها ألبسة لم ير مثلها في حياته. تناول ڤيلاروسكي منديلاً من الخزانة عصب به عيني پيار وربط عقدته وراء رأسه ضاماً بذلك، دون عمد، خصلة من شعر رأسه. ولما انتهى من عمله، جذبه إليه وقبله ثم مضى به ممسكاً بيده. وكانت خصلة الشعر الملفوفة مع عقدة المنديل تؤلمه، فكان يقلص وجهه من الألم ويبتسم مع ذلك ابتسامة خجولة. كان ذلك العملاق ذو الذراعين المباعدتين والوجه المتقلص الباسم، يتبع ڤيلاروسكي بمشية مترددة.

وبعد أن قطع بضع خطوات توقف ڤيلاروسكي وقال له: مهما أصابك، يجب أن تحتمل بشجاعة إذا كنت مصمماً على الدخول في محفلنا.

فهز پيار رأسه إيجاباً. بينما أردف ڤيلاروسكي:

ـ عندما تسمع طرقاً على الباب، يمكنك نزع العصبة عن عينيك. أتمنى لك شجاعة طيبة وحظاً طيباً.

وانسحب بعد أن شدّ على يده مصافحاً.

بقي پيار مبتسماً بعد أن أصبح وحيداً. رفع يده مرتين أو ثلاث مرات محاولاً نزع العصبة وهو يهز كتفيه، لكنه في كل مرة كان ينزل يده قبل أن تصل إلى المنديل. كانت عيناه معصوبتين منذ خمس دقائق. مع ذلك فقد خيل إليه أن تلك الدقائق الخمس كانت ساعة كاملة. شعر بيديه تتخدران وبساقيه تنحطان تحت ثقل جسده، وأحس بموجة من الضعف تستولي عليه. وكان أشد ما يخافه هو أن يخفق في إخفاء خوفه. كانت معرفة ما سيفعلون به وما سيطلعونه عليه تثير في نفسه فضولاً قوياً. وكان فرحه يتزايد كلما شعر أن اللحظة التي ستمهد له السير على طريق التجدد والنشاط الفاضل الذي كان يحلم به منذ لقائه أوسيب ألكسييڤيتش باتت قريبة.

وتجاوبت طرقات عنيفة على الباب فنزع پيار العصابة عن عينيه وراح يجيلهما حوله. استطاع خلال الظلام الدامس الذي كان يغمر المكان، أن يميز قنديلاً في شيء أبيض. فلما اقترب منه، رأى القنديل موضوعاً على طاولة سوداء أمام كتاب كبير مفتوح. كان ذلك الكتاب نسخة من الإنجيل وكان الشيء الأبيض جمجمة ميت. قرأ الكلمات التالية: «في البداية كان الفعل، والفعل كان في الله». وعلى مقربة من الطاولة، رأى صندوقاً مغطّى، يبدو أنه ممتلئ، عرف فيه نعشاً تملأه عظام بشرية. لكن ذلك كله لم يذهله. كان يتوقع أشياء خارقة، أكثر غرابة من التي رآها حتى تلك اللحظة، وكان توقعه هذا يعود إلى رغبته في تدشين حياة جديدة مختلفة تماماً عن حياته السابقة. أما الجمجمة والإنجيل والنعش، فقد كان يؤمن أنه متوقع كل هذه الأشياء وكثيراً

غيرها أيضاً. ولكي يثير في نفسه حمية العبادة، أخذ يلفظ في سره: «الله، موت، حب، أخوة» التي كان يرى فيها مرئيات غامضة تنبعث منها، في تلك اللحظة، فتح الباب ودخل بعضهم.

رأى پيار الذي اعتادت عيناه الظلام، رجلاً قصير القامة يقف متردداً لحظة لدخوله من الضوء إلى الظلام، ثم يمشي بخطوات وئيدة، فيضع فوقها يديه المغيبتين في قفازين من الجلد. كانت صدارة من الجلد الأبيض تغطي صدره وجزءاً من رجليه، وكان يطوق عنقه بشيء يشبه القلادة، وتبرز من ذلك الشيء مشغلة بيضاء تؤطر وجهه المتطاول المضاء من الأسفل.

التفت ذلك الرجل نحو الاتجاه الذي كانت تصدر عنه حركة خفيفة تدل على وجود پيار وسأله: لماذا جئت إلى هنا؟ لماذا جئت إلى هنا، يا من لا تؤمن بالنور الحقيقي ولا ترى ذلك النور؟ ماذا تريد منا: هو الحكمة والفضيلة والعلم؟

منذ اللحظة التي فُتح فيها الباب ليسمح لذلك الغريب بالدخول، شعر پيار باحترام يشبه ذلك الذي كان يسيطر عليه في طفولته كلما ذهب إلى كرسي الاعتراف. لقد كان في تلك اللحظة وجهاً إلى وجه مع رجل لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إليه في الحياة العامة، ولكن الإخاء البشري جعله قريباً جداً منه في تلك اللحظة. كان قلبه يكاد يقفز من صدره أو يتفجر فيه، فاقترب من (الخطيب) ـ هذه هي التسمية التي تطلق في المحافل الماسونية على الأخ المكلف تثقيف المبتدئ ـ وعندما بلغ دائرة الرؤية، عرف فيه المدعو سموليانينوف، وهو أحد معارفه. لكنه طرد ذلك الخاطر وكأنه خاطر مزعج: إن هذا الرجل يجب ألّا يكون له أخ ومدرس فاضل. بقي فترة طويلة لا يجد ما يرد به عن سؤاله حتى إن الخطيب اضطر إلى تكرار السؤال. وأخيراً تمتم پيار.

فقال سموليانينوف مستأنفاً كلامه بلهجة حازمة وسريعة: حسناً. هل

تعرف لمحات عن الأساليب التي تملكها جماعتنا المقدسة والتي تكفل لك الوصول إلى غايتك؟

فأجاب پيار بصوت منفعل مرتجف: إنني أتوقع... أن... أوجه... وأغاث.

لم يكن معتاداً التعبير عن أفكاره باللغة الروسية، خصوصاً إذا كانت أفكاراً مجازية. لذلك لم يكن يجد الكلمات الملائمة.

ـ أية فكرة كونت لنفسك عن الماسونية؟

أجاب پيار وهو شديد الخجل لاستعماله كلمات لا تتفق تماماً مع عظمة الموقف: إنني أرى فيها جمعية أخوية تؤمن بالمساواة في سبيل أهداف نبيلة، إنني أرى فيها...

بادر الخطيب يقول وقد أعجبه الرد كما يبدو: حسناً هل فتشت في الدين عن وسائل تبلغك إلى هذه الغايات؟

ـ كلا. لقد كنت أعتبر الدين خدعة فلم ألاحظ تعاليمه.

قال پيار هذه العبارة بصوت منخفض. حتى أن الخطيب اضطر إلى مطالبته برفع صوته. فقال مفسراً: لقد كنت ملحداً.

سكت الخطيب لحظة. ثم استأنف قائلاً: إنك تبحث عن الحقيقة لتخضع حياتك لتعاليمها، وبالتالي، فأنت تبحث عن الحكمة والفضيلة أليس كذلك؟

فقال پيار مؤكداً: بلى. بلى.

عقد الخطيب يديه المقفزتين على صدره وبعد أن سعل سعالاً خفيفاً، قال:

ـ يجب أن أكشف لك الآن عن الخطة التي يتبعها محفلنا، فإذا وجدتها متفقة مع أهدافك، فإنك ستجد فائدة في مساهمتك معنا في أخوتنا. إن غاية جماعتنا الأولى، أي القاعدة التي ترتكز عليها والتي لا يمكن لقوة بشرية أن

تزعزعها، هي المحافظة على سر معين شديد الخطورة ورفعه وإبلاغه الأجيال الصاعدة... لقد وصل إلينا هذا السر الخطير منذ أكثر القرون قدماً بل منذ خليقة الإنسان الأول، ويتوقف عليه تقريباً مصير الجنس البشري كله ولما كان هذا السر من نوع خاص يجعل من المستحيل على أي كان أن يفيد منه إلا إذا هيأ نفسه طوال فترة طويلة من التطهير النفسي، لذلك فإن عدداً قليلاً جداً من الأشخاص، يستطيعون الاطلاع عليه للوهلة الأولى.

ولهذا السبب فإن مهمتنا الثانية تنحصر في إعداد إخواننا وتنقية قلوبهم وتطهير عقولهم وتنويرها بالطرائق التي نقلها إلينا الرجال الذين جهدوا في البحث عن هذا السر، حتى نجعلهم صالحين وقادرين على الاطلاع عليه. وفي المرحلة الثالثة، نسعى بكل قوانا لصلاح الجنس البشري كله، بتطهيرنا وتهيئتنا تلامذتنا والمتشيعين لنا، حتى نقدمهم له كأمثلة من التقوى والفضيلة. وبهذه الطريقة، نستعمل كل نشاطنا لمحاربة الإثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم... فكر في هذا وسأعود بعد قليل.

وانسحب الخطيب فور انتهائه من هذا الكلام.

كرر پيار قوله: «محاربة الإثم والشر اللذين يسيطران على هذا العالم...» وهو يهيئ نشاطه المقبل للسير في هذا المضمار. راح يتمثل نفسه حيال أشخاص يشبهون ما كان عليه منذ خمسة عشر يوماً، وهو يوجه إليهم فكرياً موعظة مقنعة يساعد الفاسدين بأقواله وأفعاله، ويسعف المساكين البؤساء وينقذ ضحايا المعتدين والطغاة. كان يقدر المبدأ الثالث من المبادئ التي سردها عليه الخطيب وهو: تهذيب الجنس البشري. صحيح أن السر الخطير الذي تحدث عنه ذلك الرجل، أثار فضول پيار، لكنه لم يبد له مهماً جداً. أما الهدف الثاني، التطهير الشخصي، فإنه كان قليل الالتفاف إليه لأنه كان يشعر

في أعماق نفسه بأنه قد أصلح من نفسه تماماً وأن أخطاءه السابقة لم تعد إلا ذكريات وأن عنايته قد صرفت الآن نحو الخير، ولا شيء سواه.

وبعد نصف ساعة عاد الخطيب لينبئ التلميذ بالفضائل السبع التي تقابل درجات معبد سليمان السبع، والتي يجب على كل ماسوني أن ينميها في نفسه. وهذه الفضائل هي: ـ ١ ـ السرية التي تحفظ أسرار الجماعة، ٢ ـ الطاعة لذوي المناصب الرفيعة، ٣ ـ الخصال والعادات الرفيعة، ٤ ـ حب الإنسانية، ٥ ـ الشجاعة، ٦ ـ الكرم، ٧ ـ حب الموت.

وعندما انسحب الخطيب من جديد تاركاً پيار لأفكاره الخاصة، فكر هذا في سره: «نعم، يجب أن يكون الأمر كذلك، يجب أن يكون الأمر كذلك. لكنني ما زلت ضعيفاً لدرجة أنني أحب الحياة التي بدأت الآن أتعمق في فهم جوهرها». أما الفضائل الخمس الأخرى التي راح پيار يراجعها وهو يعدها على أصابعه، فإنه كان يشعر أنها موجودة فعلاً في نفسه: فالشجاعة والكرم والعادات الطيبة وحب الإنسانية وبصورة خاصة الطاعة التي كانت تبدو له سعادة أكثر من كونها فضيلة، كانت متجمعة في نفسه. لقد كان يشعر أن الطاعة سعادة أكثر منها فضيلة لشدة رغبته في التخلص من حكمه الخاص وإسلام إرادته لأولئك الذين يملكون الحقيقة المطلقة التي لا يمكن دحضها. أما الفضيلة السابعة، فقد نسيها پيار، فلم يكن يتوصل إلى تذكيرها.

ظهر الخطيب مجدداً بعد غياب أقصر من الأول. سأل پيار عما إذا كان لا يزال مصمماً على قراره بملء رغبته أن يخضع لكل ما يطلبونه منه. فقال: أنا مستعد لكل شيء.

تابع الخطيب قائلاً:

ـ يجب أن أخطرك كذلك بأن جماعتنا يعلمون مبادئهم ليس بالأقوال فحسب بل بوسائل أخرى أيضاً تفرض على ذلك الذي يبحث عن الحكمة

بإخلاص وعن الفضيلة. ولعل تلك الوسائل أشد تأثيراً من التعليمات الشفهية. إن ما يزين هذه الغرفة، يجب أن يؤثر في قلبك، إذا كان مخلصاً، أكثر من تأثير أي خطاب. إن جماعتنا تحاكي في هذا، المجتمعات العريقة القديمة التي كانت تنشر تعاليمها بواسطة الألغاز، كما كانت عليه الكتابة الهيروغليفية.

توقف ثم تابع متمتماً: إن الهيروغليفية هي رمز شيء لا يقع في مدى الحواس ولكنه مع ذلك يملك صفات تشبه تلك التي يمثلها.

كان پيار يعرف تماماً ما معنى (كلمة) هيروغليف، لكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رأيه. كان يصغي بصمت شاعراً أن الاختبارات على وشك الحدوث.

استأنف الخطيب كلامه وهو يقترب منه قائلاً. إذا كنت مصمماً بحزم، فإن واجبي يجبرني على البدء بإشراكك في جماعتنا. والآن، أرجو أن تعطيني كل ما تملكه من أشياء ثمينة للدلالة على كرمك.

فقال پيار معترضاً معتقداً أنهم يطلبون منه تقديم كل ما يملك من مال وعقار: لكنني لم أحمل معي شيئاً...

ـ ما هو موجود معك هنا: ساعة، نقد، خواتم...

بادر پيار إلى إخراج كيس نقوده وساعته واستغرق وقتاً طويلاً في سحب خاتم زواجه من إصبعه الضخمة. فلما قدم هذه الأشياء قال له الماسوني: والآن أرجو أن تنزع ثيابك للدلالة على طاعتك.

نزع پيار ثوبه وصدارته وحذاءه الأيسر بناء على إشارة الخطيب. وكشف له الماسوني القميص عن الجانب الأيسر من صدره، وانحنى فحسر كمّ سرواله الأيسر حتى فوق الركبة. أراد پيار أن يخلع حذاءه الأيمن حتى يوفر العناء على هذا الرجل الذي لم يكن بالنسبة إليه شيئاً مذكوراً. لكن الماسوني أكد له أن ذلك غير ضروري وقدم له خفاً منزلياً لينتعله في قدمه اليسرى. ارتسمت على

وجه بيار ابتسامة صبيانية، مزيج من الخجل والسخرية. ظل واقفاً وذراعاه وساقاه مباعدة قبالة الخطيب ينتظر أوامر جديدة. قال هذا أخيراً:

ـ والآن، للدلالة على إخلاصك، أرجو أن تعترف لي بالضعف الرئيسي الموجود فيك.

قال بيار:

ـ نقاط ضعفي! إن عندي كثيراً منها!

ـ النقطة التي جعلتك تتعثر على طريق الفضيلة أكثر من سواها.

أخذ يفكر ويزين بميزان عقله كل إثم من آثامه وميل في نفسه: «الخمر؟ رخاء العيش؟ البطالة؟ الكسل؟ الغضب؟ الخبث؟ النساء؟» لم يكن يعرف أي عيب من هذه العيوب يقدم. وأخيراً قال بصوت لا يكاد يسمع: «النساء»!

بقي الماسوني فترة طويلة ساكتاً بعد هذا الجواب، لا يتحرك. وأخيراً، اقترب من بيار وأخذ المنديل عن الطاولة فعصب عينيه من جديد.

للمرة الأخيرة أقول لك: تعمق في نفسك، كبل عواطفك، وابحث عن السعادة في قلبك وليس في شهواتك. إن منبع السعادة الأبدية ليس خارج نفوسنا، بل في نفوسنا عينها...

أحسّ بيار سلفاً أن نبع السعادة الأبدية ذاك أخذ يتفجر في قلبه ويغرقه في الحبور.

الفصل الرابع

جاء أحدهم يصطحب پيار، بعد حين، ولم يكن الخطيب بل ڤيلاروسكي عرّاب پيار في المعمودية. تعرف إليه پيار من صوته. كرر عليه السؤال حول عزمه وتصميمه واستعداده فأجاب پيار: «نعم، نعم، إنني مصمم وموافق». وارتسمت على وجهه ابتسامة الطفل المشعة، وراح يمشي وصدره الضخم مكشوف، وخطواته متعثرة، وفي إحدى قدميه حذاؤه وفي الأخرى الخف. سار پيار وأمامه ڤيلاروسكي وبيده سيف مسدد إلى صدره. اقتيد عبر المماشي المتعرجة حتى بلغ أخيراً باب المحفل. سعل ڤيلاروسكي فأجيب بطرقات موقعة وفتح الباب.

سأل أحدهم پيار بصوت منخفض عن اسمه ومكان ولادته إلخ... ثم عاد إلى السير يقوده دليله وعيناه ما زالتا معصوبتين. كان بعضهم يحدثه خلال سيره بعبارات مجازية عن صعوبات رحلته والصداقة المقدسة ومهندس الكون الأزلي، وعن الشجاعة التي يجب عليه احتمال المتاعب والأخطار من أجلها. ولاحظ پيار أنهم كانوا يسمونه تارة بـ: «الذي يبحث» وأخرى بـ: «الذي يتألم» وثالثة بـ«الذي يسأل» وأنهم يقرعون في كل مرة السيوف قرعاً خاصاً. وبينما كانوا يقودونه نحو شيء معين، لاحظ تردداً على مرافقيه الذين راحوا يتباحثون بصوت منخفض. وسمع أحدهم يلح على أن يمر التلميذ فوق بساط ما. وأخيراً أمسكوا بيمناه ووضعوها على شيء ما، ووضعوا في يسراه

فرجاراً ورجوه أن يضغط به على ثديه الأيسر. ثم طلبوا إليه أن يكرر قسم الإخلاص للمحفل والجماعة طوال تلاوتهم لذلك القسم.

وأخيراً أطفأوا الشموع وأشعلوا كحولاً، كما استنتج پيار من الرائحة التي انبعثت من احتراق الكحول وأخطروه بأنه سيرى الآن النور الأصغر. ثم رفعوا العصابة عن عينيه فشاهد، وكأنه في حلم، على ضوء الشعلة الخافتة، عدداً من الأشخاص واقفين مرتدين صدارات بيضاء تشبه صدارة الخطيب، ومسددين إلى صدره سيوفهم. وكان أحدهم يرتدي قميصاً مخضباً بالدم. فلما وقع نظر پيار على ذلك المشهد، ارتمى على السيوف راغباً في أن تخرق صدره. لكن هذه أبعدت عنه وأسرع بعضهم إلى العصابة يحكم وضعها على عينيه.

قال له صوت: لقد رأيت الآن النور الأصغر.

ثم أشعلت الشموع مجدداً وأخطروه بأنه سيرى بعد قليل النور الأكبر. ثم رفعوا العصابة عن عينيه وسمع اثني عشر صوتاً تردد معاً عبارة: lic transit Gloria mondi (هكذا يمر مجد العالم).

استعاد پيار رباطة جأشه تدريجاً وراح يتفحص الغرفة والأشخاص الموجودين فيها. رأى اثني عشر رجلاً جالسين وراء طاولة مستطيلة مغطاة بقماش أسود، يرتدون الألبسة التي شاهدها من قبل. عرف بعضهم، لكنه لم يستطع معرفة الرئيس، وهو شاب كان عنقه مزيناً بوسام خاص. وكان إلى يمين الرئيس، يجلس الأب الروحي الإيطالي الذي شاهده پيار في العام الماضي عند آنّا پاڤلوڤنا. وكذلك رأى موظفاً كبيراً في الدولة ومدرساً سويسرياً كان صديقاً حميماً لآل كوراغين. كانوا جميعهم صامتين، يصغون إلى أقوال الذي كان ممسكاً بميقعة في يده. وعلى الجدار، شاهد نجماً يتألق، ورأى سجادة صغيرة مزينة بصفات رمزية ممددة عند جانب الطاولة. أما الجانب الآخر، فكان مجاوراً لمذبح أقيم عليه إنجيل وجمجمة بشرية. وكان في الغرفة سبعة

«شمعدانات» كبيرة كالتي توضع في الكنائس، مصفوفة بنظام في أركانها. قاد اثنان من الإخوان «پيار» إلى المذبح وطلبوا إليه الاستلقاء على الأرض بعد أن باعدوا بين ساقيه على شكل مثلث، وفسروا له هذا العمل بأنه خضوع أمام أبواب المعبد.

قال أحدهما بصوت منخفض: يجب أن يتلقى المسيعة أولاً.

فأجاب الآخر: كلا، ذلك عديم الجدوى لا لزوم له.

لم يخضع پيار للأمر، بل أخذ يجيل حوله نظراته التائهة. وفجأة برزت الشكوك في نفسه. «أين أنا؟ ماذا أفعل؟ ألا يسخرون مني؟ ألن أشعر بالخجل مستقبلاً إذا تذكرت كل هذا؟» لم يدم تردده لحظة واحدة. تأمل الوجوه الجدية التي تحيط به، وفكر في كل ما قام به حتى تلك اللحظة، وفهم أن من الصعب النكوص على عقبه بعد أن اجتاز هذه المرحلة الطويلة. رفع شكوكه وأبعدها برعب واستنكار، مستعيداً اندفاعه وحماسته الأولى، واستلقى أمام المعبد. وشعر أن غيرته الدينية قد عادت إليه، وهي أكثر اتقاداً من كل وقت مضى.

بقي في استلقائه فترة معينة وأخيراً رجوه أن ينهض، وعندئذ قدموا إليه صدارة بيضاء مماثلة لصدارتهم وأعطوه مسيعة وثلاثة أزواج من القفازات، ثم وجه إليه المعلم الكبير الكلام. طلب إليه ألّا يلوث بياض هذه الصدارة بشيء لأنها رمز الطهر. أما المسيعة الغامضة فإنها ستفيده في تنظيف قلبه من الأدران، وفي تسوية قلب المجتمع دون خشونة. أما الزوج الأول من القفازات فلن يُكشف له في الوقت الحاضر عن معناه. لكن عليه الاحتفاظ به. أما الثاني فعليه أن يضع يديه فيه في الاجتماعات. وكان الزوج الثالث من تلك القفازات، مصنوعاً للنساء على عكس الزوجين الأولين. قال له المعلم الكبير عنهما: «أيها الأخ العزيز، إن هذه القفازات النسوية مخصصة لك كذلك. ستعطيهما للمرأة التي ستشعر بالاحترام نحوها أكثر من الأخريات.

سوف تبرهن بهديتك هذه على نقاء قلبك وصفائه لتلك التي ستنتخبها لتكون ماسونية جديرة باسمها». وبعد فترة صمت تابع قائلاً: «ولكن حاذر يا أخي العزيز، أن تزين هذه القفازات أيد غير نقية». خيل إلى پيار خلال حديث المعلم الأكبر، أن هذا ليس على ما يرام، فازداد اضطرابه لهذه الفكرة واندفع الدم إلى وجهه فأصبح شديد الاحمرار أشبه بوجوه الأطفال وراح يلقي حوله نظرات قلقة.

تلا ذلك سكوت مربك قطعه أحد الإخوان بعد قليل. قاد ذلك الأخ پيار نحو السجادة وراح يقرأ عليه في دفتر هناك، شروح تلك الرسوم الرمزية التي كانت عليها: الشمس، القمر، الميقعة، الفادم، المسيعة، الحجر الخام والمكعب، العمود، النوافذ الثلاث إلخ... ثم حددوا مكاناً في الاجتماعات وإشارات المحفل المصطلحة وكلمة السر وأخيراً سمحوا له بالجلوس. أخذ الملعم الأكبر يقرأ عليه النظام الذي كان شديد التطويل والذي لم يلق پيار إليه أذناً مستوعبة لشدة ما كان متأثراً بالفرح والارتباك. فلم يحفظ منه إلا المقطع الأخير:

«في معابدنا، لا نعرف درجات أخرى غير التي تفصل الخير عن الشر فاحذر القيام بخلافات تحطم المساواة. أسرع إلى مساعدة أخيك دون تمييز وأعد الذي يتيه وأنهض الذي يسقط ولا تغذ في نفسك أي شعور بالكراهية لأخيك أو الحقد عليه. أيقظ في كل القلوب شعلة الفضيلة واقتسم سعادتك مع المجتمع ولا تدع الحسد والرغبة يزعزعان هذه المتعة النقية الطاهرة اصفح عن عدوك ولا تنتقم منه إلا بعمل الخير له. إنك إذا نفذت القانون الرفيع على هذا النحو، استعدت آثار عظمتك القديمة الضائعة».

وبعد أن انتهت قراءة النظام، وقف المعلم الأكبر وضم پيار وقبّله. حار هذا الأخير في إيجاد التعابير الملائمة للجواب عن التهاني وعبارات الصداقة

التي ارتفعت من كل مكان حوله فراح يجيل نظرات حائرة والدموع تترقرق في عينيه ونسي أولئك الذين كان يعرفهم بين المجتمعين، أخذ ينظر إليهم جميعاً نظرته إلى إخوان له، كان يتحرق شوقاً إلى العمل متعاوناً معهم.

ضرب المعلم الأكبر بمطرقته، كل إلى مجلسه، وعرض أحد الإخوان ضرورة التصاغر والخشوع فكان ذلك الدرس الأخير الذي ألقي على پيار يومئذ.

وعندما أوعز المعلم الأكبر بالقيام بالواجب الأخير، قام الموظف الكبير الذي يشغل منصب الأخ الجابي، وطاف بالموجودين. كان پيار يريد أن يسجل على ورقة التبرعات كل المال الذي كان يحمله، لكنه خاف أن يكون في ذلك دليل على الكبرياء، لذلك وضع رقماً مساوياً لأرقام الآخرين.

انتهت الجلسة. ولما عاد پيار إلى منزله، أحس كأنه رجع تواً من سفر طويل، دام عشرات السنين، تبدل خلاله تبدلاً كلياً وقطع كل علاقة له مع عاداته القديمة.

الفصل الخامس

كان پيار يجلس في منزله في اليوم الثاني لقبوله في المحفل الماسوني، يقرأ محاولاً بكل قواه الفكرية أن يتعمق في معنى المربع الذي يشير أحد أضلاعه رمزياً إلى الله والثاني إلى العالم الفكري، والثالث إلى العالم السفلي والرابع إلى العالمين معاً. كان خلال فترات، يترك الكتاب والمربع، ويطلق لخياله العنان، ويضع في تفكيره أسس حياته الجديدة. أخبروه يوم أمس في المحفل، أن الأمبراطور اطلع على قصة المبارزة، وأنه يتصرف بتعقل إذا ابتعد عن پيترسبورغ لبعض الوقت. فكان ينوي القيام برحلة إلى أملاكه في الجنوب للتفرغ للعناية بفلاحيه هناك. وكانت الأحلام اللذيذة تهدهد خاطره عندما قطع عليه تأملاته فجأة الأمير بازيل الذي دخل الغرفة.

سأله دون مقدمات: ماذا فعلت في موسكو يا صديقي؟ لمَ بحق الشيطان اختصمت مع ليوليا «يا عزيزي»؟ إنك على خطأ فادح. إنني أعرف كل شيء وأستطيع أن أؤكد لك أن ليوليا ليست مخطئة تجاهك إلا بالقدر الذي أخطأ فيه المسيح نحو اليهود.

همّ پيار بالجواب، لكن الأمير بازيل لم يترك له الوقت. تابع حديثه قائلاً: لماذا لم تأت إلي لتطلب مشورتي كصديق؟ أعرف كل شيء وأنا مدرك كل شيء. لقد تصرفت تصرف الرجل الذي يعرف قيمة شرفه، ولكن في شيء من العجلة. مع ذلك، لندع هذا، فكر فقط في أي موقف وضعتنا ـ هي وأنا ـ حيال المجتمع... بل وحيال البلاط.

قال هذه الجملة الأخيرة بصوت منخفض ثم تابع مؤكداً، وقد أمسك على عادته بذراع پيار وأنزلها نحو الأرض:

ـ إنها تسكن في موسكو، وها أنتذا هنا؟ فهيا يا عزيزي، إنه سوء تفاهم لا أكثر. أعتقد أنك لمست ذلك بنفسك. لنكتب لها رسالة، وسوف تسرع على الفور، وسيزول كل الجفاء. وإلا يا عزيزي، فإن هذه المسألة قد تنتهي بما لا يسرك بل يؤسفك. أنا أرغب في إخطارك منذ الآن.

وأردف قائلاً بعد أن ألقى على پيار نظرة حافلة بالمعاني:

ـ أجل، إنني علمت من مصدر موثوق به أن الأمبراطورة المطلقة مهتمة بهذا اهتماماً كلياً، وأنت تعرف محبتها والتفاتاتها نحو هيلين وعطفها عليها.

ومراراً عديدة حاول پيار أن يقاطع المتحدث. لكنه إلى جانب استرسال الأمير في الحديث بحرارة، كان يخشى أن يعلن لحميه بلهجة قاسية، رفضه الجازم الذي كان مصمماً على التمسك به. ثم تذكر في تلك اللحظة أن مقطعاً من النظام الماسوني يأمره أن يكون: «وديعاً». لذلك فقط قطب حاجبيه واحمرّ وجهه، وبدأ يقف ويجلس ويكرر ذلك وهو يجهد نفسه في أشد المواقف إيلاماً، مما لم يسبق له من قبل أن جربه بها. ذلك أنه لم يكن يطيق مجابهة أحد بأشياء مزعجة، وإبلاغ هذا الرجل أمراً لا يتوقعه، كان من أشد المزعجات. لقد اعتاد پيار الاستكانة أمام لهجة الأمير بازيل المستخفة وأساليبه المصطنعة، فكان في تلك اللحظة كذلك لا يجد بنفسه الشجاعة الكافية على مقاومته. مع ذلك فقد كان يعرف أن الكلمات التي سيتفوّه بها ستقرر مصير مستقبله كله. فهل يعود إلى أخطائه السابقة وضلاله، أم يسلك السبيل الجديد الذي أطنب الماسونيون في امتداحه والذي سيقوده دون شك إلى التجدد الذي طالما تاقت نفسه إليه؟

استأنف الأمير بازيل كلامه قائلاً بلهجة فكهة: هيا يا عزيزي قل نعم، وسأكتب لها بنفسي، عندئذ لا يبقى أمامنا إلا أن نحتفل بإزالة سوء التفاهم.

لم يكد ينهي جملته بعد، عندما انتصب پيار ووجهه المتقلص من الغضب يعيد إلى الذاكرة فجأة وجه أبيه، وقال بصوت خفيض دون أن ينظر إليه: لا أعتقد يا أمير بأنني أستدعيك إلى منزلي... فاخرج، أرجوك، اخرج!

واتجه نحو الباب فلما فتحه عاد يكرر وهو لا يصدق نفسه: أخرج، هيا!

شعر بفرح كبير عندما رأى الأمير بازيل تفضح قسمات وجهه فجأة لوناً من التشوش والخوف. قال هذا: ماذا دهاك؟ هل أنت مريض؟

فكرر پيار بصوت مرتجف: قلت لك أخرج!

فاضطر الأمير بازيل إلى الانسحاب دون أن يحظى بتفسير عما جاء من أجله.

وبعد ثمانية أيام، استأذن پيار أصدقائه الجدد وقدم إليهم منحة كبيرة، ومضى لزيارة أملاكه. حمّله الإخوان رسائل إلى الماسونيين في كييڤ وأوديسا ووعدوه بالكتابة إليه وإرشاده في نشاطه الجديد.

الفصل السادس

إن المبارزة بين بيار ودولوخوف لم تلها ذيول مؤسفة على الرغم من القسوة التي كان يبديها الأمبراطور في ذلك العصر حيال المبارزات، واتخاذ تدابير مؤدبة بالنسبة إلى الخصمين والشهود معاً. مع ذلك فإن الإشاعات لم تلبث أن راجت حول أسباب المبارزة ودوافعها، فجاء قطع العلاقات بين بيار وهيلين منشطاً لها حتى بلغت المجتمعات الراقية وأصبحت حديث الساعة. وكان بيار الذي عومل بمراعاة عندما كان يُعتبر ابن سفاح، والذي راحوا يتملقونه عندما أصبح محط الأنظار و«الصفقة» الهائلة الكبرى في المملكة كلها، قد خسر منذ زواجه الشيء الكثير من اعتباره في المجتمعات الراقية، وفقد الاهتمام الشديد الذي كانوا يحيطونه به. فالأمهات اللاتي كن يحلمن بتزويجه بناتهن، والفتيات اللاتي كن ينظرن إلى الفوز به زوجاً، فقدن اهتمامهن به. أما الأندية والمجتمعات، فقد تغاضت كذلك عنه لأنه كان يجهل أسباب الرياء، ولفت الأنظار إليه. وعلى ذلك، راحوا يعتبرونه المسؤول الأوحد عن كل ما حدث، ويصورونه غيوراً سخيفاً خاضعاً كأبيه المرحوم، لنوبات من الغضب الوحشي. فلما عادت هيلين إلى الظهور في الأندية بعد ذهاب بيار من پيترسبورغ، استقبلها معارفها كلهم بود واحترام، بسبب المصيبة التي وقعت لها. فإذا ما دار الحديث حول زوجها، اتخذت هيلين طابع الوقار الذي كان إحساسها الفطري يوحيه لها، دون أن تفهم على الضبط موضوع ذلك الحديث، كان ذلك الطابع يشير إلى أنها مصممة على احتمال مصيبتها

دون تذمر، وأنها تعتبر زوجها صليباً[١] أرسله الله إليها. أما الأمير بازيل، فكان يعرب عن رأيه في صهره بعبارات أكثر دقة فيقول مشيراً بإصبعه إلى جبهته:

ـ إنه أرعن ماجن، وقد قلت دائماً.

وتؤيد أنّا پاڤلوڤنا أقواله جازمة: لقد قلت ذلك دائماً. نعم، لقد أظهرت ذلك منذ البداية قبل كل الناس.

كانت تلح على أسبقيتها في التكهن بفساد پيار وعدم صلاحه.

ـ نعم، لقد قلت قبل كل الناس إن أفكار هذا العصر الفاسدة قد زعزعت عقل هذا الشاب. لقد كان عائداً من الخارج، فكان كل الناس يرفعونه عالياً إلا أنا. لقد حكمت عليه للوهلة الأولى، عندما رأيته ذات مساء عندي، يتحدث وكأنه مارا[٢]، ألا تذكرون؟ ثم كيف انتهى ذلك؟ إنني منذ تلك اللحظة لم أكن أرغب في ذلك الزواج. لقد كنت أتوقع هذه النتائج.

طالما أحيت أنّا پاڤلوڤنا في أيام فراغها، الحفلات التي تنفرد وحدها في فن إقامتها على طريقتها. كانت تجمع، حسب تعبيرها الخاص، زبدة المجتمع الراقي، وزهرة الروح الفكرية الرفيعة الكامنة في مجتمع پيترسبورغ. وإلى جانب هذا الانتقاء الرائع، كانت حفلات أنّا پاڤلوڤنا تعرض شيئين جذابين آخرين: ففي كل منهما، كانت تقدم لضيوفها شخصية جديدة مهمة، وتعطيهم فكرة صحيحة عن الميزان السياسي في الأوساط الحاكمة في البلاط والمدينة، الأمر الذي يتعذر وقوعه في أي مكان آخر بمثل الدقة التي يبدو عليها عندها.

في نهاية عام ١٨٠٦، أقامت حفلة على هذا الطراز، عندما كانت أنباء

---

(١) المقصود بكلمة «صليب» عذاباً من الله. (المترجم)

(٢) جان پول مارا، ثوري سويسري شهير حرّض على مذابح أيلول، اغتالته شارلوت كورداي سنة ١٧٩٣. (المترجم).

انتصار ناپليون الساحق في إيينا[1] وأويرستايدت[2]، واستسلام كل الحصون البروسية تقريباً، قد بلغت إلى العاصمة حديثاً. كانت القطعات الروسية قد دخلت حينذاك بروسيا، وكانت الحملة الثانية ضد ناپليون على وشك القيام.

وكانت «زبدة المجتمع الطيب الحقيقية» ذلك المساء: هيلين الفاتنة التعسة التي هجرها زوجها، ومورتمارت، الذي مر ذكره، والأمير الفتان هيپوليت الذي عاد حديثاً من ڤيينا، وسياسيان، و«ماتانت» وشاب «رفيع الذكاء» لا أكثر، ووصيفة شرف، أنعم عليها بذلك اللقب أخيراً، وأم تلك الوصيفة وأخيراً بعض الشخصيات الأدنى أهمية ومرتبة. أما الباكورة التي كانت آنّا پاڤلوڤنا تقدمها لمدعويها في تلك الحفلة، فكانت بوريس «وپتسكوي» الذي كان عائداً من بروسيا بمهمة رسول. كان الميزان السياسي يشير إلى ما يلي: «يستطيع من يشاء من أمراء وجنرالات أن يتعاهدوا مع بوناپرت ويتفقوا ما شاؤوا معه ليحدثوا «لي» أو «لنا» مضايقات، لكن رأينا في صدده لن يتغير مطلقاً. لن نتوقف أبداً عن التعبير عن رأينا الخاص بهذا الصدد، ولا نستطيع أن نقول لملك بروسيا وللآخرين إلا: أنتم وشأنكم. لقد أردتها بنفسك يا جورج داندان»[3].

وعندما دخل بوريس إلى الغرفة، وهو الذي كان مقرراً أن يتسلى المدعوون على حسابه، كان الضيوف كلهم مجتمعين فيه والحديث الذي كانت آنّا پاڤلوڤنا توجهه على عادتها، يدور حول علاقات روسيا الدبلوماسية مع النمسا والأمل الذي يراود النفوس في الارتباط بحلف مع هذه الأمة. كان

---

(١) مدينة ألمانية انتصر فيها ناپليون على البروسيين عام ١٨٠٦. (المترجم)

(٢) ضاحية من الساكس البروسي انتصر فيها داڤو على البروسيين. وداڤو هو ماريشال من خيرة قادة بوناپرت. (المترجم).

(٣) كوميديا هزلية لموليير تدور حول جنون رجل تزوج سيدة أرفع مقاماً منه. (المترجم).

بوريس مرتدياً ثوباً أنيقاً من أثواب الضباط المساعدين، متورد الوجنتين. ولكن أكثر رجولة من قبل، يمشي مشية رشيقة. قدمت آنّا پاڤلوڤنا إليه يدها الجافة ليقبلها ثم قادته حسب القاعدة لينحني أمام «ماتانت»، وبعد أن أدخلته في الحلقة الرئيسية الكبرى، قدمته إلى عدد من الأشخاص الذين لم يكن يعرفهم، وهي تشير إلى كل واحد منهم وتذكر له اسمه بصوت منخفض:

ـ الأمير هيپوليت كوراغين، شاب فتان. السيد كروغ، القائم بالأعمال في مفوضية كوبنهاغن، وهو عبقري عميق التفكير؛ السيد شيتوڤ، رجل كثير المواهب...

وبفضل مواهب آنّا پاڤلوڤنا وصل بوريس إلى ركز مرموق، وبفضل عقليته المتحفظة أيضاً فقد كان ضابطاً مساعداً لشخصية رفيعة جداً، فاستطاع أن يؤدي مهمة في بروسيا. وضع نصب عينيه ذلك القانون غير الرسمي الذي اطلع عليه في أولموتز فسحر به، ذلك القانون الذي يستطيع بفضله أن يحتل حامل علم بسيط مركزاً أرفع من مركز جنرال في الجيش. قانون لا يدين للترقي في العمل والمجهود والشجاعة والصبر والثبات، بل للموهبة التي تجعل المرء مرموقاً يستحق الترقية. كان نجاحه الشخصي يدهشه حتى أنه كان يتساءل لمَ لا يحذو الآخرون حذوه؟ لقد غيّر ذلك الاكتشاف كل حياته وشخصيته وعلاقاته ومعارفه القدامى وقلب خططه للمستقبل رأساً على عقب. لقد كان، رغم فقره، ينفق آخر قرش لديه ليكون أحسن هنداماً من الآخرين، لقد حرم نفسه متعاً كثيرة كيلا يقطع شوارع پيترسبورغ مرتدياً زياً قديماً ومتنقلاً في عربة قديمة. لم يكن يتصل إلا بشخصيات مرموقة، أرفع منه، كانت تستطيع أن تكون مفيدة له في المستقبل. كان يحب پيترسبورغ ويكره موسكو. كانت ذكرى آل روستوڤ، وغرامياته الصبيانية مع ناتاشا تزعجه، حتى إنه لم يطرق منزلهم منذ أن ذهب إلى الجيش. وكانت دعوته إلى حفلة آنّا پاڤلوڤنا تعتبر

في نظره خطوة كبيرة في طريق مستقبله. وأدرك على الفور الدور الذي عليه أن يقوم به، فترك لمضيفه استثمار الاهتمام الذي كانت تثيره بحضرته، وراح يعاين الموجودين بعناية واهتمام ويزين الفوائد التي قد يجنيها من هؤلاء أو أولئك في المستقبل. وكان جالساً قرب هيلين الجميلة، في المكان الذي عين له، يصغي بانتباه إلى الحديث العام.

كان القائم بالأعمال الدانماركي يقول: إن ڤيينا ترى أن أسس المعاهدة المقترحة بعيدة المنال حتى ليتعذر الوصول إليها ولو بواسطة سلسلة من الانتصارات الأعلى شأناً، وهي تشك في الوسائل التي يمكنها أن توفر لنا كل هذا النجاح. إن هذه الجملة هي التي يتمسك بها المكتب الوزاري في ڤيينا.

تدخلت آنّا پاڤلوڤنا قائلة: إه! يا عزيزي الـڤيكونت، ـ إن إيروبا ـ كانت تعتقد أنها إذا نطقت كلمة أوروبا بالفرنسية محرفة حتى تصبح إيروبا، فإن ذلك يدل على رقة في النطق ولا يعلم إلا الله من أين أتت بهذه البدعة ـ إن إيروبا لن تكون حليفتنا أبداً.

ولكن عدم تدخل بوريس في المناقشة، جعلها تحوّل دفة الحديث؟ فراحت تمتدح شجاعة ملك بروسيا. أما بوريس، فكان يصغي باحترام وصمت إلى الحديث الدائر حوله منتظراً دوره للدخول في سياقه. لكن ذلك لم يكن يمنعه من اختلاس نظرات إلى وجه جارته الحسناء التي قابلت نظراته مراراً مبتسمة لذلك الضابط المساعد الشاب.

بمناسبة الحديث عن بروسيا، رجت آنّا پاڤلوڤنا، «بوريس» بكل بساطة أن يقص عليهم قصة سفره إلى غلوغو[1] وأن يصف لهم حالة الجيش البروسي كما شاهدها. فراح بوريس يقدّم بيانات وتفصيلات دقيقة هامة عن الجيش

(١) مدينة بروسية ألحقت ببولونيا (المترجم).

والبلاط بصوت متزن وبلغة فرنسية سليمة. لكنه حرص على تجنب إبداء رأيه في الأحداث التي نتجت منها وعلى كتمان وجهة نظره الشخصية فيها. سيطر خلال فترة طويلة على الاهتمام العام في ذلك الحفل، واستطاعت آنّا پاڤلوڤنا أن ترى بنفسها مبلغ الاستمتاع الذي نعم به مدعووها بهذه الباكورة التي قدمتها إليهم. وبدا على هيلين أنها اهتمت ببوريس اهتماماً خاصاً فأخذت تطرح عليه عدة أسئلة تتعلق بسفره وبوضع الجيش البروسي الذي خيّل إلى الموجودين أنها تعيره اهتماماً خاصاً. فلما انتهى من تقديم تفصيلاته وأجوبته، استدارت نحوه وقالت له خلال ابتسامتها المعهودة: يجب أن تحضر لرؤيتي يوم الثلاثاء بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة، ولا أقبل الاعتذار.

لقد أوحت لهجتها أن الأسباب التي دعتها إلى طلب مقابلته، والتي كانت مجهولة منه، تجعل زيارته لا بد منها. فوعد بالامتثال لطلبها، وراح يتحدث على انفراد مع هيلين، وعندئذ استدعته آنّا پاڤلوڤنا بحجة أن «ماتانت» تتحرق شوقاً إلى سماعه.

ولما ابتعد معها، قالت له مشيرة إلى هيلين إشارة مشفقة ومغمضة عينيها بعد ذلك.

ـ إنك تعرف زوجها على ما أظن؟ آه! يا لها من سيدة فاتنة وبائسة لا تتحدث عنه أمامها، أتوسل إليك. إن ذلك يؤلمها كثيراً.

الفصل السابع

كان الأمير هيپوليت يتدخل في الحديث الدائر عندما رجع بوريس وآنّا پاڤلوڤنا إلى الحلقة.

صاح وقد مال بجذعه إلى الأمام: ملك بروسيا!

وقهقه ضاحكاً. فاستدار الضيوف نحوه.

فقال، ولكن بلهجة استفهامية هذه المرة: ملك بروسيا؟

وبعد ضحكة جديدة، عاد إلى كرسيّه يغرق فيه بوقار وتأن.

انتظرت پاڤلوڤنا بضع لحظات، وعندما وجدت أن هيپوليت لا يريد متابعة الحديث، وكان هذا هو الواقع، راحت تروي للموجودين أن بوناپرت الزنديق سرق من پوتسدام سيف فريدريك الأكبر. بلغت في حديثها قولها: إنه سيف فريدريك الأكبر الذي... عندما قاطع هيپوليت كلامها.

قال: ملك بروسيا...

ولما راح الموجودون يصوبون نحوه نظراتهم المستفهمة، اعتذر وعاد إلى سكوته.

اتخذت آنّا پاڤلوڤنا موقفاً سلبياً وبدأ مورتمارت صديق هيپوليت بحثه عن الإعراب عما يريد قائلاً: هيا، مع من تتحدث عن ملك بروسيا وما هي هذه النغمة؟

فضحك هيپوليت ضحكة جديدة ولكنها مرتبكة وقال: كلا، لا شيء.

لقد أردت أن أقول فقط... أردت أن أقول فقط إننا مخطئون إذ نحارب من أجل ملك بروسيا.

والحقيقة أنه كان قد تعلم هذه النكتة في ڤيينا، فأمضى تلك الأمسية كلها، يتحين الوقت المناسب ليلقي بها.

قالت آنّا پاڤلوڤنا وهي تهدده بإصبعها الصغيرة: إن لعبة الألفاظ هذه قبيحة جداً، دقيقة جداً ولكن غير حقيقية وليست عادلة. نحن لا نحارب من أجل ملك بروسيا بل من أجل المبادئ السامية الطيبة. آه! يا له من شيطان هذا الأمير هيپوليت!

لم تبرد حدة الحديث طوال السهرة، لقد ارتطم الوقت حول السياسة ولم تزد حدته إلا عندما تطرق بعضهم إلى المكافآت التي وزعت باسم الأمبراطور.

قال الرجل كثير المواهب: لقد تلقى ن.ن. في العام الماضي علبة سعوط ذات صورة محفورة، فلمَ لا يحظى س.س. بواحدة كذلك؟

فتدخل أحد الدبلوماسيين قائلاً: إنني أسألك العفو. لكن علبتي المحلاة بصورة الأمبراطور ليست تمييزاً، بل مكافأة. أو على الأصح هدية.

ـ لقد وقعت حوادث مماثلة من قبل. خذ مثلاً شوارزنبرغ.

فاعترض الآخر قائلاً: ذلك مستحيل.

ـ هل تراهن؟.. الشريط الكبير (وسام) إن أمره يختلف.

وعندما حانت ساعة الانصراف، خرقت هيلين الصمت الذي لاذت به طوال الوقت تقريباً وكررت على بوريس دعوتها اللطيفة الآمرة. قالت له:

ـ إنني في أمسّ الحاجة إلى رؤيتك.

وأخذت عيناها تستدعيان أنا پاڤلوپنا إلى مساعدتها فجاءت هذه تثني

على طلب هيلين وتدعمه بابتسامتها السوداوية التي تضفيها على وجهها عندما تتحدث عن حاميتها النبيلة.

خلال حديث بوريس عن الجيش البروسي، يبدو كأن هيلين قد اكتشفت أسباباً ملحة تدعوها إلى رؤيته مجدداً، فكانت دعوتها إلى يوم الثلاثاء المقبل أشبه بوعد منها حددت فيه اليوم الذي ستقص عليه تلك الأسباب الموجبة فيه. مع ذلك فعندما دخل بوريس قاعة الكونتيسة في اليوم المحدد، انتظر عبثاً أن تقدم له تفسيراً عن سلوكها. كان بعض الناس مجتمعين في القاعة، فلم تحدثه هيلين إلا حديثاً تافهاً. فلما استأذن منصرفاً وهو يقبل يدها، همست له بصوت خفيض دون أن تبتسم، الأمر الذي يثير الفضول، قائلة: تعال غداً... وقت العشاء... يجب أن تحضر... تعال.

وخلال طوال إقامته في بيترسبورغ، أصبح بوريس الصديق الحميم للكونتيسة برزوخوف.

الفصل الثامن

اندلعت الحرب مجدداً وبدأت تقترب من الحدود الروسية. لم يعد يسمع إلا اللعنات تنهال على بوناپرت في كل مكان، بوصفه عدواً للجنس البشري؛ وفي القرى والضواحي، كان التجنيد للجيش العامل والخدمات الفنية قائماً على قدم وساق. وانتشرت إشاعات مختلفة متناقضة تدور على الألسن حول العمليات الحربية. كانت تلك الأخبار خاطئة كالعادة، وبالتالي، فهي تعطي المجال للتفسيرات المختلفة.

دخلت تعديلات كبيرة منذ عام ١٨٠٥ على طراز حياة الأمير العجوز پولكونسكي وأولاده. فقد تم جمع صفوف الخبراء العسكريين المجندين من مختلف أنحاء روسيا في ثمانية فيالق، وأنيطت قيادة أحد هذه الفيالق به عام ١٨٠٦ وعلى الرغم من الانهيار الذي بدا على الأمير العجوز، وخصوصاً خلال الفترة التي اعتقد فيها بموت ابنه في ساحة المعركة، لم يستحسن التصاميم عن النداء الشخصي الذي وجهه الأمبراطور إليه شخصياً. هذا عدا أن ذلك النشاط في مركزه الجديد، أتاح له فرصة استعادة قوته ونشاطه وشجاعته.

وبدون توقف راح يفتش المناطق الثلاث الموضوعة تحت إشرافه، تفتيشاً صارماً، فكان يتصرف حيال مرؤوسيه بخشونة ويقوم بواجباته الشخصية بكل دقة ويتعمق في أصغر التفاصيل. وتوقفت دروس الرياضيات بالنسبة إلى ماري، التي كان عليها أن تدخل إلى غرفة أبيها كل صباح، إذا كان في المنزل،

بصحبة المربية وحفيده نيكولا الصغير كما كان يسميه جده. كان الأمير الصغير نيكولا، يشغل مع مربيته والخادم العجوز سافيشنا، جناح المرحومة جدته. وكانت ماري تقضي معظم أيامها بالقرب منه فتقوم، على قدر طاقتها، بدور الأم لابن أخيها. وكان يبدو على الآنسة بوريين أنها هي الأخرى تحب الطفل حتى العبادة، حتى أن ماري كانت غالباً تتخلى عن مكانها لها، حارمة نفسها متعة ملاطفته، لتحل بوريين محلها، فتناديه «بملكها الصغير» وتلعب معه.

أقيمت قبة صغيرة للأميرة المتوفاة إلى جانب كنيسة «ليسيياغوري» ضمت ضريحها الذي رفعوا فوقه نصباً من الرخام الإيطالي. كان ذلك النصب عبارة عن ملاك باسط جناحيه على وشك التحليق وكانت شفة الملاك العليا المرفوعة قليلاً توحي بالبدء بابتسامة. وذات يوم، بينما كان أندريه وماري خارجين من القبة، اتفقا في الرأي على أن وجه الملاك يشبه إلى حد بعيد وجه الفقيدة نفسها. وكان هناك أمر أشد غرابة من الأول، أمر لم يطلع أندريه أخته ماري عليه. ذلك أن الفنان الذي نحت ذلك الملاك، أعطاه دون أن يدري، الأمارات نفسها التي ارتسمت على وجه المتوفاة، حتى لكأنه ينطق بمثل كلماته العذبة، كلمات اللوم الرقيقة التي قرأها من قبل على وجه زوجته الراحلة: «آه! لمَ عاملتني على هذا النحو»؟

بعد رجوع الأمير الشاب منحه أبوه سلفة على ميراثه، أملاكه الهامة في بوغوتشاروڤو التي تبعد عن ليسييا غوري بأربع مراحل روسية وكانت ليسيياغوري، تحيي في نفس الأمير الشاب ذكريات أليمة، فكان يلجأ إلى أراضيه الجديدة، ابتعاداً عن أبيه وعقليته الصعبة ناشداً الوحدة. لهذه الأسباب كان يرى في بوغوتشاروڤو محط آماله، فأقام فيها الأبنية وأمضى فيها معظم أوقاته.

بعد معركة أوسترليتز، قرر أندريه الانسحاب نهائياً من الحياة العسكرية،

فلما أعلنت الحرب مجدداً واضطر كل مواطن إلى القيام بواجبه، وافق أندريه أن يساعد أباه في تجنيد «الميليشيا» مفضلاً هذه المهمة على الخدمة الفعلية. وبدأت الأدوار تنقلب عكسياً: فالأب الذي شحذ منصبه الجديد همته، بات يتصور الحملة الجديدة على ضوء تفاؤله براقة سهلة، والابن على العكس، كان يراها مؤسية ويأسف في صميم قلبه على وقوعها وينظر إلى الأمور بمنظار أسود.

في السادس والعشرين من شباط عام ١٨٠٧ ذهب الأمير العجوز في جولة تفتيشية، فقرر أندريه، كما كانت عادته أثناء غياب أبيه، البقاء في ليسيياغوري، لأن الأمير نيكولا الصغير، كان معتل الصحة منذ حوالى أربعة أيام. عاد السائقون الذين حملوا الأمير العجوز إلى المدينة، ومعهم بريد أندريه، فلم يجده الوصيف في غرفته. ولما راح يبحث عنه في جناح ماري، أرسلته هذه الأخيرة إلى حيث كان الطفل مع مربيته.

قالت إحدى الوصيفات للأمير أندريه الذي كان جالساً على مقعد صغير من مقاعد الأطفال، مكفهر الوجه مرتجف اليدين مقطب الحاجبين، يصب الدواء من قارورة صغيرة في كأس ملأى إلى نصفها بالماء:

ـ أعذرني يا صاحب السعادة إن بيتروشا بالباب ومعه بعض الأوراق.

سأل أندريه بلهجة غاضبة: ماذا هناك؟

وأدت حركته المنفعلة إلى إهراق نقاط زائدة في الكأس، فألقى محتوياتها على الأرض وطلب ملأها بالماء من جديد. فنفذ الأمر.

كانت الحجرة مؤثثة بسرير صغير وصندوقين وكنبتين ونضد وطاولة أطفال وكرسي صغير، وهو الذي كان الأمير أندريه يستعمله لجلوسه كلما جاء لزيارة ابنه. وكانت الستائر مرفوعة وشمعة واحدة مضاءة ومثبتة على النضد، يحجب نورها عن السرير دفتر موسيقى وضع بجانبها على شكل ستارة.

قالت الأميرة ماري التي كانت تسهر على الأمير المريض: يا صديقي، لننتظر قليلاً، لأن ذلك أجدى...

فغمغم الأمير أندريه راغباً في إحراج أخته وإيلامها:

ـ كلا... تقولين دائماً مثل هذه السخافات. وتطلبين التريث والانتظار دائماً، وهذه هي النتيجة التي حصلنا عليها.

واستأنفت الأخت قائلة بلهجة متوسلة: أؤكد لك يا صديقي أن من الأصوب عدم إيقاظه ما دام مستغرقاً في نومه.

نهض أندريه وفي يده العلاج، واقترب من السرير الصغير على أطراف قدميه وقال مرتبكاً: هل يجب حقاً أن ندعه نائماً؟

فأجابت ماري متمتمة وهي خجلى لرؤية أخيها يأخذ برأيها. كما تشاء... إنني أعتقد حقاً... ولكن كما تشاء...

ونبهت أخاها إلى الوصيفة التي كانت تناديه بصوت منخفض.

تلك ثاني ليلة يقضيانها ساهرين قرب سرير الطفل الذي كان مصاباً بحمى قوية. ولما كانت ثقتهما قليلة بطبيب الأسرة، فقد أرسلا يستدعيان طبيباً آخر من المدينة، بينما كانا يجريان الدواء تلو الدواء عبثاً. كانا محطمين من القلق، فراح كلاهما يلقي متاعبه على الآخر ويتخاصمان ويتبادلان اللوم والتقريع.

بقيت الوصيفة مصرة على موقفها تقول: إن پيتروشا هنا ومعه أوراق من أبيك.

فغمغم الأمير أندريه الذي وافق أخيراً على مقابلة پيتروشا: يا له من وقت مناسب!

وبعد أن سلمه الخادم البريد وتعليمات أبيه الشفهية، عاد أندريه قرب سرير ابنه. وسأل أخته: ماذا إذن؟

فدمدمت ماري وهي تزفر بحرقة: كما هو. انتظر أتوسل إليك. إن كارل إيـڤانيتش كان يقول دائماً يجب احترام النوم.

اقترب أندريه من الطفل وتحسس نبضه. كانت يده ملتهبة من الحرارة فصاح: دعيني أنت وكارل «إيڤانيبتشك» هذا!

وحمل الدواء واقترب من السرير. قالت ماري: دعه، دعه.

فنظر إليها نظرة غاضبة ومتألمة معاً، وانحنى فوق الطفل والكأس في يده. قال: أنا مصرّ على إعطائه الدواء. خذي، اسقيه أنت بيدك.

هزت ماري كتفيها ولكن لم تعترض. استدعت الوصيفة وراحت تحاول بمساعدتها إعطاء الدواء للطفل الذي عاد يتوجع. اكفهر وجه اندريه، وأسرع إلى الغرفة المجاورة ورأسه بين يديه.

هوى على كنبة هناك، ولاحظ أن الرسائل لا تزال في يده. فضها بحركة آلية وراح يقرأ. كان الأمير العجوز يعرفه بخطه الكبير، وبالاصطلاحات الموجزة التي كان يزرعها هنا وهناك في رسالته، بما يلي:

«جاءني رسول يحمل إليّ خبراً لا تضاهى بهجته في الساعة الحاضرة، شريطة أن يكون الخبر موثوقاً به. إنه يقول أن پينيغسن[1] قد انتصر على ناپليون انتصاراً كاملاً في إيلو[2]. وفي پيترسبورغ، كل الناس في فرح شامل، والمكافآت تمطر على الجيش. إن پينيغسن هذا يستحق أن أرفع له قبعتي رغم أنه ألماني، ماذا يستطيع السيد خاندريكوڤ أن يفعل بحق الشيطان، وهو الذي يقود الجيش في كورتشيـڤا؟ لم يرسل لنا بعد لا جنوداً لتعزيز قوتنا ولا ما يلزم من أرزاق. امض إليه سريعاً وأبلغه أنه لن يحتفظ برأسه فوق كتفيه إذا لم يكن كل شيء جاهزاً خلال ثمانية أيام... إن انتصار بروسيخ، لأنني تلقيت رسالة

(١) جنرال روسي هزمه ناپليون في معركة إيلو. (المترجم).

(٢) مدينة ليتوانية هزم فيها ناپليون الروس والبروسيين عام ١٨٠٧. (المترجم).

من پيتنكا «الأمير پاغراسيون»، الذي ساهم في تلك المعركة يؤكد النصر. عندما لا يتدخل أولئك الذين لا يعنيهم الأمر، فإن بوناپرت يُهزم حتى من ألماني. يزعمون أنه في أقصى الفوضى... إذن، أسرع إلى كورتشيـڤا ونفذ أوامري»!

تنهد أندريه وفض الرسالة التالية. وجد فيها ورقتين مكتوبتين بخط دقيق عرف فيه خط بيليبين. طواهما مرة أخرى وعاد إلى رسالة أبيه يعيد قراءتها. وعندما بلغ هذه الكلمات: «أسرع دون تأخر إلى كورتشيڤا ونفذ أوامري» قرر في سره قائلاً: «كلا، وألف معذرة. لن أذهب قبل أن يشفى ولدي المريض». ومضى إلى الباب فأطل منه. كانت ماري لا تزال في مكانها قرب السرير تهدهد الطفل.

قال الأمير أندريه متمثلاً ذكرياته: «تُرى ما هو الخبر المزعج الذي يبعثه إليّ هذه المرة؟ آه نعم! لقد فزنا على بوناپرت وانتصرنا عليه، وأنا بعيد عن الجيش. هيا إن القدر يهزأ بي دائماً... شكراً له وبورك فيه».

ألقى على رسالة بيليبين نظرة سريعة حتى بلغ نصفها دون أن يفهم شيئاً. لم يكن يقرأ في الحقيقة إلا بعضاً من الأفكار الأليمة التي كانت منذ زمن طويل تزعجه.

الفصل التاسع

بصفته ملحقاً سياسياً في الأركان العامة كان بيليبين يصف المعركة باللغة الفرنسية وبالأسلوب والتهكم الفرنسيين. وكان كذلك يكتب بتلك الصراحة التي تسمح للروس، وللروس وحدهم، أن ينتقدوا أنفسهم ويهزأوا بها. اعترف في رسالته أن كتمانه الدبلوماسي كان يزعجه جداً، وأنه سعيد إذ يستطيع أن يفصح عما في نفسه، لصديق موثوق به، يمكنه من كبح غضبه المتراكم في أعماقه، والذي تسببت الأمور التي تقع في الجيش بإشعاله. كانت الرسالة قديمة، أي قبل معركة بروسيخ ـ إيلو. كتب بيليبين:

«منذ انتصارنا الكبير في أوسترليتز، لم أنقطع يوماً واحداً عن القيادة العامة كما تعرف يا عزيزي الأمير. والحقيقة أنني أصبحت ميالاً إلى الحروب، ولقد أحسنت في هذا الميل. إن ما رأيته خلال هذه الأشهر الثلاثة لا يصدق.

«أبدأ من الألف، وهنا أستعمل التعبير اللاتيني (ab ovo) أي من البداية، إن عدو الجنس البشري، كما تعرف، يهاجم البروسيين. والبروسيون هم حلفاؤنا المخلصون الذين لم يخدعونا إلا ثلاث مرات فقط منذ ثلاثة أعوام. لذلك فإننا ننصرهم في قضيتهم. لكن الظاهر أن عدو الجنس البشري لا يلقي بالاً إلى خطاباتنا الوديّة، فهاجم بطريقته الوحشية المفتقرة إلى الآداب البروسيين دون أن يترك لهم الوقت لإنهاء استعراضهم الذي بدأوا به، فشن عليهم معركة شديدة أدمت عظامهم، وراح يستقر في قصر بوتسدام. كل ذلك لم يستغرق إلا لحظة من الوقت.

«وقد كتب ملك بروسيا إلى ناپليون يقول إنني راغب بجديّة في أن تحلّوا جلالتكم في قصري وأن تعاملوا المعاملة التي تروقكم. ولقد باشرت باتخاذ كل الترتيبات التي سمحت لي الظروف بها في هذا الشأن، فعساي وفقت في مسعاي! والجنرالات البروسيون يبدون كل اللياقة والأدب حيال الفرنسيين فيستسلمون ويلقون بأسلحتهم عند أول مناوشة.

«إن رئيس حامية غولغو ومعه عشرة آلاف رجل تحت إمرته، أرسل يسأل ملك بروسيا عما يجب عليه أن يفعل إذا أنذر بالاستسلام... كل هذه التصرفات إيجابية بدون شك!

والخلاصة أننا بعد أن كنا نأمل التأثير في الموقف بمظهرنا العسكري وحده، وجدنا أنفسنا في حرب حقيقية، حرب واقعة على حدودنا، وهو الأدهى، «مع ملك بروسيا ومن أجله». كل شيء على ما يرام ولا ينقصنا إلا شيء صغير واحد، وهو القائد العام. ولما كان مقدراً أن الانتصار الذي أحرزناه في أوسترليتز كان يمكن أن يكون أقل شمولاً لو أن القائد العام كان أكبر سناً، فقد استعرضت أسماء أبناء الثمانين، وأفضل في هذا المضمار كامنسكي على بروزوروڤسكي، بعد المفاضلة بينهما. وأخيراً جاءنا الجنرال دارجاً على طريقة سوڤوروف، فاستقبل بهتافات الفرح.

وصل بريد پيترسبورغ الأول، في الرابع من هذا الشهر، ونقلت الصناديق إلى مكتب الماريشال الذي يحب أن يعمل كل شيء بنفسه. وقد استدعيت للمساعدة في فرز الرسائل لأحمل ما هو مرسل إلينا. وكان الماريشال ينظر إلينا. ونحن نعمل، منتظراً الرزم المرسلة إليه. ولقد بحثنا فلم نجد شيئاً. نفد صبر الماريشال فجاء يبحث بنفسه. وهنا وجد رسائل موجهة من الأمبراطور إلى الكونت «ت». وإلى الأمير «ف. V» وآخرين وعندئذ ثار ثورة فظيعة وانهال بالنار على كل الناس، واستحوذ على الرسائل ففضها وراح يقرأ تلك

التي كتبها الأمبراطور إلى الآخرين. آه! هكذا يعاملونني إذن. ليس لهم ثقة بي! أقاموا عليّ العيون والأرصاد! حسناً. أخرجوا! وكتب الأمر اليومي العتيد التالي للجنرال بينيغسن:

«أنا جريح لا أستطيع ركوب الخيل ولا بالتالي قيادة الجيش. لقد أعدت فيلقك من بولتوسك[1] في حالة فوضى، وهو مكشوف تماماً ومحروم من العلف والحطب. يجب الحذر إذن والتفكير في التراجع على حدودنا. كما أخبرت الكونت بوكزيغْدن بنفسك البارحة، الأمر الذي يجب أن يتم اليوم.

وكتب إلى الأمبراطور يقول: إن احتكاك السرج خلال رحلاتي العديدة سبّب لي خدشاً إذا أضفناه إلى الإنهاك الذي نالني من تنقلاتي السابقة، يمنعني من ركوب الحصان وقيادة جيش يضم مثل هذا العدد الكبير. لذلك سلمت القيادة لأكثر الجنرالات قدماً بعدي، وهو الكونت بوكزيغْدن؛ ولقد نقلت إليه كل صلاحياتي وأوصيته أن يقترب من حدودنا متقهقراً عبر بروسيا إذا نقص منه الخبز. والواقع أنه لم يبق من الخبز إلا ما يكفي يوماً واحداً، بل إن بعض السرايا لا تملك خبز يوم، إذا أخذنا بما أطلعني عليه قادة فيالق أوسترمان وسيد موريبدزكي ولقد التهم ما كان عند القرويين. أما أنا، فإنني بانتظار شفائي، أبقى في مستشفى أوسترولنكا[2]. ولي الشرف أن أقدم لجلالتكم تقريراً عن الأرزاق وأن أخطر جلالتكم بكل خضوع أن الجيش إذا أمضى خمسة عشر يوماً أخرى في معسكراته الحالية، فلن يبقى جندي واحد صالحاً للخدمة في الربيع القادم.

«اسمحوا للعجوز أن ينسحب إلى الريف حاملاً معه العار لأنه أخفق في أداء المهمة المجيدة التي اختير لأدائها. سوف أنتظر في المستشفى هنا، إذنكم

---

(١) مدينة في بولونيا، هزم الفرنسيون فيها الروس عام ١٨٠٦. (المترجم).

(٢) مدينة بولونية هزم الفرنسيون فيها الروس عام ١٨٠٧. (المترجم).

اللطيف، كيلا «ألعب في الجيش» دور «المسجل» بدلاً من دور «الرئيس». إن انسحابي من الجيش لن يحدث من الضجة إلا ما يحدثه انسحاب أعمى منه. إن أشخاصاً مثلي، تحفل روسيا بالألوف منهم».

«وهكذا غضب الماريشال من الأمبراطور فعاقبنا جميعاً، أليس ذلك منطقياً وسديداً؟

«هذه هي العملية الأولى. لننتقل الآن إلى ما بعدها، وهي التي تبلغ فيها المنفعة والسخرية إلى رتبة الحق. ذلك أننا، بعد ذهاب الماريشال، وجدنا أنفسنا على مرأى من العدو، الأمر الذي يلجئنا إلى شن هجوم عليه أو الاشتباك معه في القتال. ولقد أصبح بوكزيغدن قائداً عاماً بحكم الأقدمية، لكن الجنرال بينيغسن ليس من هذا الرأي، وخصوصاً أنه، هو وجيشه، كان أمام العدو وأنه كان يريد انتهاز الفرصة إذا أتيحت له بعد معركة نظيفة كما يقول الألمان. وإذن، فقد شن الهجوم ووقعت معركة پولتوسك، التي اعتبرت نصراً كبيراً والتي هي، في رأيي، ليست كذلك مطلقاً. لقد درجت عادتنا اللعينة جداً، نحن معشر المدنيين، على إحصاء وتقرير الخسارة أو الربح كما تعلم. نحن نقول إن من ينسحب بعد معركة ما، يكن قد خسر تلك المعركة. وعلى هذا الأساس، فإننا خسرنا معركة پولتوسك. والخلاصة، إننا انسحبنا بعد المعركة، لكننا أرسلنا إلى پيترسبورغ بريداً يحمل أنباء النصر، ولم يسلم الجنرال القيادة العامة إلى بوكزيغدن آملاً أن يتلقى من پيترسبورغ لقب قائد أعلى، مكافأة له على انتصاره، وفي أثناء هذه الفترة، فترة خلو منصب القيادة العليا ممن يشغله، بدأنا تنفيذ مناورات في الإغراء والابتكار. لم يكن هدفنا مركزاً على تجنب العدو أو مهاجمته كما كان يجب أن يكون، بل لتجنب الجنرال بوكزيغدن فقط، الذي هو قائدنا بحكم قدمه. تابعنا هدفنا بحماسة ونشاط مرموقين، فكنا إذا اجتزنا نهراً لم يكن سهل العبور، أحرقنا الجسور

لنفترق عن العدو ونباعد بيننا وبينه. أما ذلك العدو الذي كنا نتحاشاه، فإنه لم يكن بوناپرت بل «بوكزيفْدن». وكان الجنرال بوكزويـفْدن أن يُهاجم وأن يُطوَق من قبل قوة عدوة تفوق تعداد جيوشه، بفضل مناوراتنا الرائعة التي كانت تبعدنا عنه. فكان بوكزيفْدن يتبعنا ونحن نفر منه فإذا مر إلى الجانب الذي نكون فيه، عبر النهر ببراعته إلى الجانب الآخر. وأخيراً لحق بنا عدونا بوكزويـفْدن وهاجمنا. و«زعل» الجنرالان، بل إن دعوة إلى المبارزة صدرت من جانب بوكزويـفْدن أجيب عليها بنوبة من نوبات القلب من جانب بينيغسن.

لكن بريد پيترسبورغ وصل في اللحظة الحاسمة. لقد حمل لنا البريد، الذي حملناه نبأ انتصارنا في بولتوسك، نبأ تسمية القائد الأعلى، وبذلك تغلبنا على عدونا الأول بوكزيفْدن! والآن نستطيع أن نفكر في العدو الآخر، في بوناپرت. ولكن في تلك اللحظة قام أمامنا عدو ثالث، وهو الجيش الأورثوذكسي المبجل الذي يطلب الخبز واللحم «والبسكويت» والعلف ولست أدري ماذا، بصيحات عالية وزمجرات مخيفة! لقد فرغت مخازن المؤونة وأصبحت الطرق غير سالكة، بدأ الجيش الأورثوذكسي يقوم بالسلب والنهب، بشكل لا يمكن لما رأيته «أنت» خلال الحملة الماضية، أن يعطيك أية فكرة صحيحة عنه. لقد أصبحت نصف السرايا تؤلف فرقاً حرة تجوب المنطقة وتعيث فيها سلباً وتقتيلاً بفظاعة ووحشية. ونُكب السكان نكبة مريعة ولحقهم الدمار، وامتلأت المستشفيات بالمرضى، وعم القحط كل مكان. لقد هوجمت القيادة العامة نفسها مرتين من السارقين، فاضطر القائد الأعلى أن يطلب لواء كاملاً لطردهم. ولقد حملوا معهم في إحدى غزواتهم، صندوقاً فارغاً ومعطفي المنزلي. إن الأمبراطور يريد إعطاء قادة الفيالق كلهم حق إعدام السارقين. لكنني أخشى أن يؤدي ذلك إلى أن يقتل نصف الجيش النصف الآخر رمياً بالرصاص».

كان الأمير أندريه لا يقرأ إلا بعينيه فقط، لكنه لم يلبث أن شعر بنفسه يتابع رواية بيليبين، التي كانت صحتها تدعو إلى الشك. فلما وصل إلى هذا الحد من القراءة، كوّر الورقة في يديه ورماها بعيداً. لم تغضبه فحوى الرسالة، بل كان غاضباً على نفسه لأن هذه الحوادث البعيدة، التي كانت تبدو له شديدة الغرابة، كانت تحرك كوامن عواطفه. أغمض عينيه ورفع يديه إلى جبينه وكأنه يطرد الأفكار المزعجة التي أيقظتها تلك القراءة، ثم أصاخ السمع إلى ما يدور في الغرفة المجاورة التي ينام الطفل فيها. تراءى له فجأة أنه سمع صوتاً غريباً صادراً عن تلك الغرفة، فراح يتساءل بذعر عما إذا كانت حالة ابنه لم تبلغ حد التفاقم. اقترب من الباب على أطراف قدميه وفتحه.

وبعد اجتيازه المدخل، رأى أن الخادم العجوز تخفي شيئاً وعلى وجهها علامات الارتياع، ورأى أن أخته ليست قرب السرير كما كانت من قبل. سمع صوت ماري وراءه يحدثه قائلاً: يا صديقي...

وأحسّ أن في اللهجة يأساً. واستولى على الأمير خوف لا مبرر له، كما يحدث للمرء غالباً بعد فترة طويلة من القلق. لا شك أن ولده مات، فكل ما كان يراه وكل ما كان يسمعه، كان يؤكد هذا الظن!

قال في سرّه: «إذن، لقد انتهى كل شيء»! غطّى جبينه عرق بارد. فاقترب من السرير الصغير زائغ البصر، متأكداً أنه سيجده فارغاً، وأن الخادم العجوز أخفت منذ حين جثة ولده. أزاح الستائر قليلاً، وبقيت عيناه فترة طويلة، يعميهما الذهول. فلا يرى بهما شيئاً. وأخيراً وجد ابنه. كان الطفل مستلقياً على سريره عكسياً، وردي الوجنتين، مباعداً بين الذراعين، ورأسه بعيد عن الوسادة، يرضع في نومه ويتنفس بانتظام.

هو الذي قدّر أن ابنه قضى، استخفه الفرح لرؤيته حياً، فانحنى على الطفل ووضع شفتيه على جلده ليتحسس حرارته، كما علمته أخته ماري. كان

الجبين الرقيق ندياً. تحسس رأس الطفل بيده، فوجد أنه مبتل حتى الشعر. إذن، فقد حدثت نوبة جعلت الطفل يتعرق بشدة، بذلك عاد إلى الحياة. كان أندريه يتوق إلى الإطباق على هذا المخلوق الصغير الضعيف وضمه إلى قلبه بشدة، لكنه لم يجرؤ على ذلك. ظل ذاهلاً يتأمل الرأس الندي واليدين الصغيرتين، والساقين النحيلتين اللتين تركتا آثارهما على الغطاء. شعر بحفيف بالقرب منه، وانعكس ظل على ستار السرير. لم يحفل بذلك الظل: كانت عيناه شاخصتين إلى الجسم اللدن النائم على السرير، وكان يصغي إلى صوت تنفسه الرتيب. ذلك الظل هو الأميرة ماري التي اقتربت بخطوات مكتومة، فرفعت ستائر السرير وتركتها تنسدل وراءها. عرفها الأمير دون أن يستدير، فمد إليها يده، فأطبقت تشد عليها.

قال أندريه: لقد نضح جسمه عرقاً.

ـ لقد قلت لك ذلك منذ حين.

تحرك الطفل قليلاً، وابتسم في نومه وفرك جبينه الصغير على الوسادة.

نظر أندريه إلى أخته. وفي عتمة غرفة النوم، كانت عينا ماري تبدوان أشد التماعاً من عادتهما، وكانت دموع الفرح تزيد البريق توهجاً. وبينما هي تتسلل قرب أخيها لتعانقه، علقت ستارة السرير. نشدا الهدوء والسكون فتبادلاه، ولبثا فترة في تلك العتمة، يشكلون ثلاثتهم فقط، عالماً خاصاً بهم، كانا يجدان صعوبة في نزع نفسيهما منه. راح الأمير أندريه يخفي شعره في طيات ستارة السرير المصنوعة من «الموسلين»، وأخيراً ابتعد قبل أخته عن السرير وهو يزفر بارتياح:

هيا، هذا كل ما تبقى لي وما سيشغلني بعد الآن.

الفصل العاشر

بعد دخول پيار بزمن قصير في عداد الإخوة الماسونيين زوّدوه تعليمات خطية ليسير بموجبها في أعماله وواجباته الكثيرة التي كانت تدعوه إلى زيارة أراضيه، فسافر إلى مقاطعة كييـف حيث كان السواد الأعظم من فلاحيه يعملون فيها.

عند وصوله إلى مدينة كييـف استدعى پيار، كل وكلائه إلى المكتب الرئيسي حيث شرح لهم رغباته. كان يتطلب منهم اتخاذ تدابير فورية لاستقلال الفلاحين في الأراضي استقلالاً تاماً. وفي انتظار ذلك، لا يجب معاقبة هؤلاء بالعمل، أما العقوبات الجسدية، فيجب أن تُلغى وأن يحل محلها تحذير شفهي. يجب مساعدة الفلاحين وإقامة المستشفيات في كل مقاطعة، وملاجئ، ومدارس؛ ويجب إعفاء النساء والأطفال من السخرات.

كان بعض أولئك المسجلين يصغون إليه بذهول معتقدين أن الكونت، بدلالة محاضرته تلك، غير راض عن إدارتهم وأساليبهم في إلحاق الغبن بالفلاحين. والبعض الآخر، كانوا يجدون، بعد الفترة الأولى من الذهول، أن لثغة سيدهم وتلك الكلمات الجديدة التي يتكلم بها، مسلية جداً. أما الفريق الثالث، فقد كان أفراده يجدون متعة في الإصغاء إليه، ولا شيء غير ذلك. لكن أشدهم ذكاء، وفي طليعتهم رئيس المسجلين استخلصوا من أقواله ومواعظه دلالة ثمينة جداً: أصبحوا يعرفون الآن، السلوك الذي يجب عليهم انتهاجه حيال سيدهم ليصلوا إلى مآربهم الشخصية.

بدأ المسجل العام يعرب عن ميله واستئناسه بمشاريع پيار، لكنه أطلعه على ضرورة تنظيم الأمور التي كانت شديدة التعقيد، قبل البدء بإدخال تلك الإصلاحات.

صحيح أن پيار في تلك الأثناء كان يملك ثروة الكونت بيزوخوف الضخمة التي كانت مواردها السنوية تصل إلى خمسمائة ألف روبل كما كانوا يقولون، إلا أنه كان يشعر أنه كان أكثر غنى من قبل، عندما كان أبوه يعطيه عشرة آلاف روبل في العام لمصروفه الشخصي. وفيما يلي الطريقة العجيبة التي كانت ميزانيته السنوية تقام على أساسها: كان يدفع لمجلس الصيانة عن أملاكه كلها، حوالى ثمانين ألف روبل، وثلاثين ألف روبل لقاء الخدمات والصيانة عن أبنيته في موسكو وبيته الريفي وبيته في المدينة. وهناك نفقات أخرى كانت تستهلك خمسة عشر ألف روبل، ومؤسسات الإحسان والغوث مثلها. وكانت الكونتيسة تنفق مائة وخمسين ألف روبل كل عام على نفسها، وتبلغ فوائد الديون التي تدفع كل عام سبعين ألف روبل تقريباً وقد ارتفعت نفقات بناء كنيسة جديدة إلى عشرة آلاف روبل خلال العامين الأخيرين. أما الباقي ويبلغ مائة ألف روبل تقريباً، فكان ينفق بشكل لا يعرفه پيار ولا يستطيع تحديده، حتى إنه في كل عام، كان يجد نفسه مضطراً إلى الاستدانة. أضف إلى ذلك، أن الوكيل العام، كان يطلعه كل سنة على نبأ احتراق بعض المحصول أو تلف البعض الآخر، أو القحط الذي نزل في مكان كذا، أو الأضرار اللاحقة ببعض الأبنية والمعامل التي تتطلب إصلاحات فورية. فكان على پيار والحالة هذه، أن يشرع قبل كل شيء في العناية بمصالحه ورعايتها، الأمر الذي كان يشعر بعجزه عن القيام به.

وراح يعمل كل يوم في تنظيم شؤونه بمساعدة وكيله العام. لكنه ما لبث أن وجد أن العمل الذي شرع فيه طافح بالأخطاء وأنه لم يكن يقدمه

في طريق التحسن. كان وكيله العام من جهة، يعرض عليه الأمور من أسوأ زواياها، فيمتدح سداد الديون وفرض سخر جديدة على العبيد، الأمر الذي لم يكن پيار يوافق عليه. ومن جهة أخرى، كان هذا يلح على تجهيز ما يجب لإقراض الفلاحين، الأمر الذي كان الوكيل العام لا يراه ممكناً إلا إذا سددت الديون لمجلس الصيانة. كان الوكيل يضيف إلى أقواله أن في الإمكان البدء بإقرار الفلاحين منذ الآن، شريطة أن تباع غابات كوستروما وأراضي الـڤولغا المنخفضة وأرض الكريمي ولكن، لكي تنجز هذه المبيعات، لا بد من إجراءات معقدة جداً، حسب قول الوكيل العام، بين دعاوى وإجراءات نزع اليد، وتراخيص إلخ...، مما كان يجعل پيار يشعر بالدوار، ويلجئه إلى القول: «هو كذلك، اعمل كما تراه مناسباً».

حُرم پيار من الروح العملية والجلد الذي يتيح له أن يتبنى مشاكله بنفسه، لذلك كان ينفر من هذا العمل. لكنه يتظاهر باهتمامه الشديد أمام المسجل العام. أما هذا، فكان يتظاهر بأنه يرى تلك المشاغل شديدة النفع لسيده ومضجرة بالنسبة إليه.

وفي كييـڤ، هذه المدينة الكبيرة، وجد پيار بعض معارفه، بل تعرف إلى أشخاص جدد، كانوا يفخرون بصلتهم بثري كبير مثله حديث العهد في المدينة، مالك أكبر أرض في المقاطعة، فكانوا يدعونه متهافتين ويحيون الحفلات السخية على شرفه. وكانت الإغراءات المتعلقة بضعفه الشخصي الذي اعترف به في المحفل، من القوة حتى استحال عليه الصمود أمامها. وهكذا جرفته حمى الولائم والسهرات والحفلات في دوامة لا راحة فيها خلال أيام كاملة وأسابيع وشهور. وعاد پيار سيرته في پيترسبورغ. لقد انغمس في حياته القديمة بدلاً من أن يبدأ حياة جديدة، مع فرق واحد، وهو أن المظهر كان مختلفاً.

كان مضطراً إلى الاعتراف بأنه لم ينفذ من الواجبات الثلاثة التي فرضتها عليه العقيدة الماسونية، ذلك الذي يطالب كل ماسوني بأن تكون قدوته مثالية، وبأن اثنتين من الفضائل السبع، وهما العادات الحميدة وحب الموت، لم تجدا مكاناً في نفسه. لكنه كان يعزي نفسه بقوله إنه ينفذ مهمة أخرى، وهي تحسين النوع البشري، وأنه يملك فضائل أخرى مثل حب المجتمع وبصورة خاصة: الكرم.

في ربيع عام ١٨٠٧، قرر پيار العودة إلى پيترسبورغ، وأن يزور أملاكه أثناء مروره بها. كان يتمسك بضرورة ملاحظة كيفية الأوامر التي أصدرها ومعرفة الوضع الحالي لذلك الشعب الذي وضعه الله أمانة في عنقه والذي كان يريد أن يكون المحسن إليه.

أما الوكيل العام الذي كان يرى أن مشاريع الكونت الشاب ليست إلا باطلاً يسيء إلى الملاك والفلاحين بقدر ما تسيء إليه نفسه؛ فقد قرر أن يقوم ببعض المنح إرضاء لسيده. لم يكف لحظة واحدة عن التدليل على استحالة تحرير العبيد الفلاحين، لكنه أمر بمناسبة زيارة السيد، أن تقام في كل الأملاك أسس أبنية ضخمة على غرار ما يبنى للمدارس والمستشفيات والمآوي. كان يعرف بعد دراسة عميقة لأخلاق پيار، أن الاستقبالات الحافلة ستزعجه لذلك استعاض عنها باستعدادات لتوزيع الخبز والملح وأعمال البر مرفقة بإهداءات صور مقدسة، قرر أنها ستؤثر في قلب الكونت وتحرك مشاعره.

أحدث ربيع الجنوب والسفر السريع في عربة مريحة من طراز عربات ڤيينا، والوحدة التامة على الطريق، تأثيراً حسناً في نفس پيار. كانت تلك الأملاك التي يزورها للمرة الأولى، تتبارى في الجمال. كان أينما حل، يرى السكان في مظهر من الرخاء يبرهنون له عن إخلاص وتعلق شديد، ويستقبلونه

استقبالاً يملأ نفسه غبطة إلى جانب الخجل والارتباك اللذين كان يشعر بهما كذلك. وفي إحدى ممتلكاته، قدم له الفلاحون مع الخبز والملح، صورة للقديسين بولس وبطرس، وسألوه أن يوافق على إقامة مذبح في الكنيسة على نفقتهم، يكرس لسادته المقدسين، اعترافاً منهم بما تلقوه منه من فضل وإحسان. وفي مكان آخر؛ جاءت النسوة مع رُضّعهن يستقبلنه شاكرات له إعفاءهن من السخرات والأعمال الشاقة بينما جاء الكاهن بنفسه يستقبله في المرحلة الثالثة؛ والصليب في يده، وحوله أطفال كان يعلّمهم الدين ومبادئ اللغة اللاتينية بفضل تدابير الكونت الأخيرة، كان پيار يرى الأبنية تقام حسب مخطط موحد؛ أبنية من الحجر؛ كان وكلاؤه يحملون إليه التقارير المشيرة إلى تخفيف الأعمال عن كاهل الفلاحين والإقلال من السخرات؛ وفي كل مكان كانت وفود الفلاحين في «قفاطينهم» جلابيهم الزرقاء؛ تتراكض إليه لتعبر له عن إخلاصها العميق وشكرها.

لم يكن يعرف بالطبع أن الضاحية التي قدم له فيها الخبز والملح كانت ساحة تجارية يقام فيها معرض ريعه لكنيسة القديس بطرس؛ وأن مذبح القديسين بطرس وبولس كان يشاد منذ بعض الوقت على حساب أثرياء المنطقة، وهم أولئك الذين جاؤوا يستقبلونه، بينما كانت تسعة أعشار الفلاحين في حالة من العوز والجوع الكاملين. لم يكن يعرف أن أولئك الأمهات الشابات اللاتي أعفين من السخرة بناء على أوامره، كن في مقابل ذلك يقمن في بيوتهن بأعمال مسخرة أكثر إجهاداً من أعمالهن السابقة.

كان يجهل أن ذلك الكاهن الذي استقبله والصليب في يده، كان يوقر رعيته بالأعشار ويبهظ كاهل أولئك المساكين الذين ما كانوا يسلمونه أبناءهم إلا وهم يبكون ويدفعون له مبالغ كبيرة أجراً على تثقيفهم. كان يجهل أن

الشروع في تلك الأبنية الحجرية، كان يرهق الفلاحين لأنه قام على نفقتهم وبجهودهم، لأن السخرة قد ضوعفت فعلاً ولم تخفف إلا على الورق، كان يجهل أن فلاناً من الوكلاء الذين كان يخطر أمامه ويتبجح بأنه أنقص، حسب رغبات سيده، الواجبات المقدرة على الفلاحين بمقدار الثلث، مستشهداً بدفاتره وسجلاته، قد ضاعف في مقابل ذلك أعمال السخرة، فأي عجب إذن، إذا كان پيار في تجواله في أملاكه قد انطبع بشعور من الراحة النفسية والغبطة. لقد راح يكتب إلى أخيه الموجه، وهو الاسم الذي كان يطلقه على المعلم الأكبر، وسائل كلها حماسة واندفاع، وقد استفزه الشعور بمحبة البشر الذي امتلأت نفسه به عندما كان في پيترسبورغ.

كان يقول في سرّه: «كم هو سهل، وكم من جهد تافه يقتضيه تحقيق كل هذه الحسنات، وكم نغفل الانشغال في مثل هذه الأمور رغم بساطتها»!

كان سعيداً بالعرفان الذي أُظهر نحوه في كل مكان، رغم أنه لم يكن يتقبل تلك المظاهر إلا بمزيد من الارتباك، لأنها كانت تذكره بأنه قادر على عمل الشيء الكثير في سبيل هؤلاء البسطاء.

وقد كشف الوكيل العام عن حقيقة سيده فعرفها. عرف أن هذا الفتى الذكي ولكن الساذج، يمكن أن يكون ألعوبة بين يديه. فلما رأى أن تدابيره الارتجالية الموقتة قد أحدثت في پيار الأثر المطلوب، راح ذلك الداهية يعلن له بتلاعب لفظي أن إقرار العبيد الفلاحين مستحيل وعديم الجدوى لأنه لن يضيف شيئاً إلى سعادتهم.

وفي أعماق نفسه كان پيار يرى مثل هذا الرأي: يخيل إليه أنه يستحيل إيجاد أشخاص أكثر سعادة من مماليكه، وخصوصاً أن الله يعرف أي مصير ينتظرهم إذا حررهم. مع ذلك ألحّ في طلبه إرضاء لشعور العدالة والحق. فوعد الوكيل العام بأن يعمل كل ما هو ممكن لتنفيذ هذا العمل.

كان يعرف سلفاً أن سيده عاجز عن التحقيق بنفسه إذا كانت التدابير قد اتخذت فعلاً لبيع الغابات والأملاك المقرر بيعها لسداد دين مجلس الرعاية. وإنه، على ذلك، سيبقى دائماً جاهلاً ما إذا كانت تلك الأبنية استعملت في الغاية المتوقعة وإذا كان الفلاحون مستمرين في إعطاء كل ما يعطونه للآخرين، أي كل ما كانوا قادرين على إعطائه سواء أكان بالعمل أم لقاء أجر.

الفصل الحادي عشر

وعندما كان عائداً من الجنوب وهو على أحسن ما يكون من الغبطة والانشراح، انتهز پيار تلك الفرصة للقيام بالزيارة التي طالما أجّلها، زيارة صديقه پولكونسكي الذي لم يره منذ عامين كاملين.

كانت بوغوتشارڤو، المقاطعة التي منحها الأمير العجوز لابنه أندريه، واقعة في ناحية مسطحة موحشة، تتخلل الحقول فيها أدغال الصنوبر والسندر، مبعثرة هنا وكثيفة هناك، وقد بنيت القرية على طول الطريق في خط مستقيم أما المقر الذي ينزل فيه السيد، فكان مشيداً وراء بحيرة حديثة الحفر ممتلئة بالماء، ذات حوافٍ مجردة لم تعبّد بعد، وسط غابة حديثة الغرس، تشمخ فيها بعض شجرات الأرز الهائلة. وكانت دائرة السيد، تشمل إلى جانب البيادر وملحقاتها، الاصطبلات والمغاسل والحمام والمنافع العامة، وجناحاً ملحقاً وبناء كبيراً من الحجر ذا واجهة نصف دائرية لم يستكمل بناؤه بعد.

كانت حديقة حديثة الغرس والإعداد تحيط بالمسكن. أما الحواجز الخشبية والبوابات فكانت جديدة ومتينة، وقريبة من البيت، كانت مضختان لمكافحة الحريق مستقرتين إلى جانب برميل ماء كبير مطلي بلون أخضر. والطرقات مخططة بدقة والجسور متينة محاطة بالحواجز، وكل شيء في ذلك «الحانوت» يدل على النظام وتفهم عميق للحياة الريفية الزراعية والتنظيم القروي. سأل پيار المماليك الخدم عن منزل سيدهم، فأشاروا إلى الجناح الجديد المقام على شاطئ البحيرة؛ فقصد پيار إلى البناء وهناك، ساعده خادم

اسمه أنطوان، كان يرافق الأمير منذ صباه ويعنى بشؤونه، على الترجل من عربته وأخبره بأن سيده موجود وأدخله غرفة صغيرة نظيفة.

يتناقض ذلك المسكن المتواضع كلياً مع المظهر الأنيق الذي شاهد پيار صديقه فيه آخر مرة في پيترسبورغ فأدهشه هذا التحول وبادر إلى دخول القاعة الصغيرة التي لم تكن جدرانها قد غطيت كلها بطبقة الجص، والتي كانت تنبعث منها رائحة خشب الصنوبر. همّ بالدخول إلى الغرفة المجاورة لكن انطوان سبقه على أطراف قدميه فقرع بابها.

سأله صوت أجش من الداخل: ماذا هناك؟

فأجاب أنطوان: زيارة لك.

ـ دعه ينتظر.

ارتفع صوت وتراجع مقعد، فاندفع پيار ليصطدم بالأمير أندريه على عتبة الباب وهو خارج من الغرفة عابساً وبدت على وجهه أمارات الشيخوخة، طوقه بذراعه ونزع نظارتيه ثم قبله في خديه وراح يتأمله عن قرب. قال أندريه: بحق الشيطان لم أكن أنتظر!... إنني مسرور جداً لرؤيتك.

أصيب پيار بالذهول من الانقلاب الواضح على مظهر صديقه، فراح يحدق إليه دون أن ينبس بكلمة. كانت كلمات الأمير مسرحية، لكنه رغم كل رغبته واستعداده، لم يكن يستطيع أن يضيء وميض الفرح في عينيه الذابلتين. كم هزل پولكونسكي وشاخ. لكن پيار لم يكن ليلقي بالاً إلى كل هذا لولا تلك النظرة الميتة، وذلك الأخدود الذي يقطع جبهته دلالة على تركيز التفكير في أمر واحد فترة طويلة. كانت هناك هاتان البادرتان تخيفانه وتجعلان صديقه بعيداً عنه، مما اقتضاه فترة غير قصيرة ليألفهما.

وكما يحدث عادة في الحديث الذي يدور بين صديقين بعد غياب طويل، بقي الحديث متعثراً بينهما فترة حتى استقام. بدآ يبحثان في موضوعات

مختلفة في آن واحد دون أن يولياها العناية التامة رغم أن تلك الموضوعات كانت جديرة بالبحث، كالبحث في ماضيهما وخططهما للمستقبل ورحلة پيار ومشاغله والحرب إلخ... ثم قام التفاهم بينهما رويداً رويداً واتفقا ضمنياً على بحث كل مسألة على حدة. كان الانهماك والتداعي اللذان لاحظهما پيار في نظرة صديقه الأمير أندريه، يبدوان أكثر وضوحاً في الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه، والتي أخذ يستقبل بها الأحاديث التي كان الكونت الشاب يبدأ بها، وبصورة خاصة مشاريعه الحماسية المتعلقة بالمستقبل ورواياته عن الماضي، كانت تلك الأمور رغم كل ما قد تثيره في نفسه من متعة، لا تستأثر باهتمام الأمير.

وكان هذا الإحساس ظاهراً على أندريه، حتى أن پيار لم تفته ملاحظته فأدرك أن حماسته وآماله في السعادة والفضيلة كانت في غير محلها. لذلك فقد عرض أفكاره الماسونية الجديدة في شيء من الارتباك، وخصوصاً ما يتعلق منها برحلته وما أحسّ به بعد تلك الرحلة. أخذ يسيطر على لسانه خشية أن يبدو ساذجاً، لكنه كان يتحرق شوقاً ورغبة في إظهار صديقه على أنه أصبح الآن پيار آخر غير الذي عرفه في پيترسبورغ. قال: لا أستطيع إطلاعك على كل ما حدث في نفسي من تغييرات في الأيام الأخيرة. أنا لا أكاد أعرف نفسي.

فأجابه أندريه: أجل، لقد تبدلنا كثيراً، كثيراً.

سأله پيار: وأنت، ما هي مشاريعك وخططك؟

فأجابه أندريه بلهجة ساخرة: مشاريعي؟

وكرر وكأن معنى تلك الكلمة كان يدهشه: خططي؟ كما ترى. إنني أبني داراً وأتوقع أن أستقر هنا نهائياً في السنة القادمة.

أخذ پيار يدقق في وجه صديقه وقال: أنا لا أتحدث عن هذا. لقد أردت سؤالك عن...

فقاطعه أندريه قائلاً: آه، ما فائدة التحدث عني!... الأفضل أن تقص عليّ رحلتك وكل ما فعلته في أملاكك هناك...

بدأ پيار يتحدث، ساعياً إلى إخفاء دوره في هذا الموضوع، عن التحسينات التي بات مماليكه الفلاحون ينعمون بها. وقد أنجز أندريه، غير مرة، اللوحة الكلامية التي كان يصورها له پيار. لكنه كان واضحاً عليه أنه لم يكن يعطي ذلك الحديث أية أهمية بل كان يبدو خجلاً لمجرد إصغائه إلى تلك الترهات.

أخيراً أحسّ پيار بالضجر فآثر الصمت وبدون شك، أن أندريه كان يحس مثل ذلك الإحساس، لذلك راح يبحث فقط عما يشغل ذلك الضيف الذي كانت آراؤه لا تنسجم في شيء مع آرائه الشخصية. قال له: أنت ترى يا عزيزي أنني أعسكر هنا، ولقد جئت لألقي نظرة على ما تمّ وسأعود بعد حين لألحق بأختي في البيت، سوف أقدمك إليها... لكنك تعرفها على ما أعتقد؟... سوف نذهب بعد العشاء... والآن، هل ترغب في زيارة أرضي؟

حان موعد العشاء وهما يتنزهان ويتحدثان، وكأنهما لا تربط بينهما إلا معرفة سطحية، عن أصدقائهما كليهما وعن الأنباء السياسية. لم تتدفق الحيوية في نفس الأمير أندريه إلا عندما تحدث عن ترتيباته الجديدة. لكنه عاد فقطع الحديث فجأة، بينما كان يتحدث عن التجهيزات المنتظرة، خلال وصف جميل للمسكن المنتظر قال: ثم إن كل هذا لا يثير إلا اهتماماً ضئيلاً... هيا بنا إلى الطاولة قبل أن نمضي إلى القصر.

تحدثا خلال الطعام عن زواج پيار، فقال أندريه: لقد أدهشني النبأ.

فاحمرّ وجه پيار كعادته وتطرق البحث إلى هذه الناحية وقال: سأقص عليك ذات يوم كيف وقع كل هذا. اعلم فقط أن كل شيء قد انتهى وإلى الأبد.

ـ للأبد؟ لا شيء يمكن أن يدوم إلى الأبد.

ـ هل تجهل إذن كيف انتهى الأمر؟ هل سمعت عن المبارزة؟

ـ نعم، إنني أعرف أنك بلغت حتى هذا السبيل!

ـ إن الأمر الوحيد الذي أشكر عليه، هو أنني لم أقتل ذلك الرجل.

ـ ولم الشكر؟ إن قتل كلب مسعور يبدو لي أمراً ممتازاً.

ـ كلا. إن قتل رجل إثم...

ـ غير عادل؟ ولِمَ؟ لا يمكن للإنسان أن يقرر الحق والباطل، الظلم والعدل. هذه هي النقطة التي أخطأ فيها الإنسان أكثر من غيرها؛ وسيخطئ في تقديرها أبداً.

استأنف پيار وقد أسعده أن استثار الحديث اهتمام أندريه، وبدا كأنه يريد أن يفضي إليه بمكنونات نفسه في تلك الآونة: إن كل ما يسيء المجتمع غير عادل!

ـ ومن الذي قال لك ما هو الشيء الذي يسيء إلى المجتمع؟

ـ كيف هذا؟ إننا نعرف جميعاً. ما يسيء إلينا.

فأجاب أندريه، وفي نفسه رغبة في عرض وجهة نظره الجديدة على پيار:

ـ أجل، إننا نعرفه. لكن ذلك الشر الذي أعتبره مسيئاً إليّ شخصياً، لا أستطيع أن أقوم به.

ثم ازداد تحمسه وأضاف بالفرنسية: أنا لا أعرف في الحياة إلا سيئتين: المرض وتبكيت الضمير، ولا شيء أفضل من غيابهما عن النفس والجسد. إن حكمتي الحالية تنحصر في أن أعيش لنفسي وأن أتجنب هذين الشرين.

فاستأنف پيار مناقشاً: وحب المجتمع، وروح التضحية؟... أنا لا أستطيع أن أشاطرك الرأي، أن يعيش المرء لمجرد ابتعاده عن الإساءة تجنباً لتبكيت الضمير، أمر تافه، لقد عشت كذلك، عشت من أجل نفسي فحطمت حياتي والآن، وأنا أعيش للآخرين، وبادر إلى تصحيح جملته بتواضع فقال، أعني

إنني أحاول أقله أن أعيش للآخرين، فإنني على العكس، بدأت أشعر بلذة الحياة وأفهمها. كلا، إنني لست من رأيك، ثم إنك لا تؤمن بما تقوله بالفعل.

كان أندريه يتأمله وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة قال: سوف ترى أختي ماري، وستتفق معها في الرأي.

واستطرد بعد فترة صمت: من الممكن أن تكون على حق في ما يتعلق بك. لكن كل إنسان يعيش كما يرى، وعلى هواه. إنك تزعم بعيشك من أجل نفسك، كما فعلت بادئ الأمر، كدت تفسد وجودك وتحطم حياتك، ولم تتعرف على السعادة إلا عندما بدأت تعيش للآخرين. لقد قمت بالتجربة العكسية. لقد عشت من أجل المجد، والمجد هو حب المجتمع كذلك، والرغبة في تحقيق شيء من أجله، الرغبة في أن أمتدح من قبله. إذن، عشت من أجل الآخرين، فحطمت حياتي كلها نهائياً. إنني منذ أن بدأت أعيش من أجل نفسي، شعرت على العكس، بأكثر قسط من الراحة والهدوء.

فناقشه بيار بحماسة: ولكن كيف يمكن أن يعيش المرء من أجل نفسه فقط؟ وابنك، وأختك ووالدك؟

إنهم يدخلون في الـ«أنا»، إنهم ليسوا الآخرين. إن الآخرين، المجتمع، كما تسميهم أنت وماري، هم السبب الجوهري للخطأ والشر. إن المجتمع هو فلاحو كييف الذين تريد أن تكون صالحاً من أجلهم.

خيل إلى بيار أن نظرته الهازئة تتحداه. فأجابه وقد توقدت حماسته: إنك تمزح بدون شك، كيف يمكن أن تكون رغبتي في عمل الخير خطأً وشراً؟ قد أكون أخطأت في الترتيبات والتنفيذ، لكن نيتي طيبة، وقد قمت ببعض الخير رغم كل شيء، وكل همّي أن أخفف عن فلاحينا التعساء، الذين هم من بني الإنسان مثلنا، والذين يكبرون ويموتون دون أن يعرفوا عن الله والحق إلا تطبيقات غير مجدية وصلوات سخيفة، أقول، أي شر في أن يطلعوا

على ما يخفف عن نفوسهم، فيعرفوا شيئاً عن الحياة الأخرى التي تنتظرهم جزاء لهم على أعمالهم، وتخفيفاً عما في نفوسهم؟ أي شر وأي خطأ في أن نجنب الناس الموت دون غوث مادي، وفي أن نؤمن لهم حاجتهم من الأطباء والمستشفيات والملاجئ مع ما في ذلك من يسر؟ أليس منح بعض الراحة لأولئك التعساء والأمهات الشابات اللواتي يقتلن أنفسهن في العمل المرهق، عملاً طيباً؟...

كان پيار يتحدث بسرعة متمتماً فلما بلغ هذا الحد، أعقب بصوت هادئ وبرزانة قائلاً: هذا ما فعلته، صحيح، كان عملاً ناقصاً ونفذ بشكل غير مرض كلياً، لكنني فعلته على كل حال. أنا لن أصدق أبداً، مهما قلت وأكدت، أنني أسأت صنعاً فحسب، بل لن أصدق كذلك أنك لم تفكر في هذا بالمثل، إن المتعة التي يشعر بها الإنسان بعد عمل الخير هي سعادة الحياة الحقيقية. أنا أعرف ذلك الآن وفي نفسي القناعة الكاملة وهذا هو الشيء الأساسي.

واستأنف الأمير أندريه قائلاً: على هذا الأساس، فإن المسألة تبدو بشكل مختلف تماماً. إنني أشيد داراً أو أغرس شجراً. وأنت، تبني مشافي. لكل منا تسليته، أما ما هو خير وما هو عدل، فدع للذي يعرف كل شيء فرصة تقرير ذلك. إن هذه المسألة ليست شأننا... لكن، أتريد أن نتناقش؟ هيا، ليكن!

ـ حسناً، لنستمر... إنك تقول: مدارس، مواعظ وماذا بعد؟ الخلاصة إنك تريد أن تسحب هذا المخلوق؟ وأشار إلى فلاح كان يمر في تلك اللحظة محيياً، من حالته الحيوانية الحالية لتعطيه ما ينقصه من النواحي الفكرية والخلقية. أما أنا، فأعتقد على العكس، إن سعادته الوحيدة الممكنة كامنة على الدقة في هذه السعادة الحيوانية التي تود سلبها منه. إنني أغبطه في الوقت الذي تريد أنت أن تجعله «أنا» دون أن تعطيه على أية حال واحداً أو أكثر من مصادري... ثم تقول بعدئذ: لنخفف عنه عمله.

لكنني أقدر عكس ذلك أيضاً، أن العمل الجسدي يعتبر ضرورة بالنسبة إليك وإلي. لا تستطيع أبداً أن تتخلى عن التفكير، وأنا لا أنام قبل الساعة الثانية أو بعدها. لأن حشداً كبيراً من الأشياء يتجمع في رأسي، فأتقلب وأتقلب ولا أجد سبيلاً إلى النوم لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً غير التفكير. وعلى ذلك، فإنه لن يستطيع التخلي بدوره عن الحراثة والحصاد وإلا، ذهب إلى الحانات وسقط فريسة للأمراض. إنني لا أستطيع احتمال عمله الجسدي المرعب، لأنه سيقتلني في خلال أسبوع إذا مارسته. كذلك فإن بطالتي ستجعله عظيم السمنة وستقتله... ثالثاً... ماذا كنت تقول؟ آه! لقد تذكرت.

وثنى إصبعه الثالثة وأردف: المستشفيات والمداواة. فهو إذا أصيب بضربة دم مات. أما أنت، فتريد أن تعالجه ليشفى. سيعيش عشر سنين بعد شفائه. لكنه سيكون مقعداً، عاجزاً، عالة على الآخرين ومن الأفضل له أن يموت مرة واحدة. إن غيره يولدون بكثرة، وسيحلون محله باستمرار، وسيكون عددهم أبداً كافياً. فإذا كنت تأسف لخسارة عامل، وإنني أعتبر الأمر كذلك، فليكن! لكن كلا، إنك تريد معالجته حباً به ليس إلا! إنه ليس في حاجة إلى مساعدتك... ثم من الذي شفاه الطب حتى الآن؟ إن الطب لا يعرف إلا القتل!

وبغضب أشاح بوجهه. كان أندريه يتحدث بطلاقة ووضوح الرجل الذي ناقش هذه الأفكار طويلاً، والذي وجد أخيراً مجالاً للتعبير عما يجيش في صدره. فكلما كانت استنتاجاته مظلمة، ازداد بريق عينيه وميضاً.

قال بيار: إن هذا أمر مريع، إنه مريع! كيف يمكن أن يعيش المرء بمثل هذه الآراء! لقد عرفت دقائق من هذا الطراز في موسكو وأثناء سفري... لكنني لم أشعر بسقوطي في مثل هذا الإسفاف، لا أشعر بالحياة، بل إن كل شيء يبدو

لعيني بشعاً، اعتباراً من نفسي... وعندئذ أتوقف عن الطعام والاغتسال... وأنت؟

لمَ إهمال النفس؟ إن ذلك يعتبر قذارة... يجب على العكس أن يجهد المرء ليجعل حياته على أقصى ما يستطيع من درجات الرفاهية. إذا كنت أعيش فليس ذلك خطأي. فلنعش إذن على خير ما نستطيع بانتظار لحظة الموت.

ـ كيف تستطيع مع ذلك أن تتمتع بالحياة وتشعر بلذة العيش؟ عندما يكون المرء في مثل هذه الحالة، من الأفضل أن يدفن نفسه في أحد الأركان مستغرقاً في تأملاته...

ـ ألا ترى، إن الحياة لا تترك لنا مجالاً للراحة. ولولا ذلك، لا يسعدني أن أعيش دون أن أفعل شيئاً. لكن فئة النبلاء في المقاطعة أرادت بادئ الأمر أن تنتخبني قيّماً على مصالحها. ولقد وجدت صعوبات جمّة في إقناع هؤلاء السادة بأنني لم أكن رجلهم المنشود، لأن المنصب يتطلب استعداداً نفسياً ودناءة مستمرة، مما يتوافر فيّ. ثم اضطررت إلى تشييد هذا المنزل لأجد لنفسي ركناً خاصاً أشعر فيه بالراحة. وأخيراً جاء دور «الميليشيا».

ـ لمَ لم تعد إلى الخدمة العسكرية؟

أجاب الأمير بصوت كئيب: بعد أوسترليتز! كلا، مع عظيم الشكر! لقد آليت على نفسي ألّا أعود إلى الخدمة الفعلية، ولسوف أحافظ على وعدي. ولو أن بوناپرت وصل إلى أبواب سمولنسك وبات يهدد ليسيياغوري، فإنني لن أعود إلى الخدمة الفعلية...

ثم تابع بصوت استعاد بعض هدوئه: إنني كما قلت، وجدت أن خير وسيلة للإفلات من الخدمة الفعلية هي أن أعمل ملحقاً لأبي الذي يقود المنطقة الثالثة لإعداد الميليشيا.

ـ إنك إذن في الخدمة أليس كذلك؟

وسكت فترة طويلة. سأله پيار بإلحاح: ولمَ تخدم؟

ـ إليك السبب: إن أبي من أبرز شخصيات عصره وأهمها لكنه أصبح اليوم عجوزاً، وأصبح تصرفه على شيء من العنف دون أن تكون فيه قسوة. والآن قد منحه الأمبراطور سلطة غير محدودة بوضعه على رأس فرق الجيش الفني، إضافة إلى عاداته الآمرة، فقد أصبح خطراً. لقد كاد منذ خمسة عشر يوماً ينفذ حكم الإعدام شنقاً في واحد من المقيدين في إيوخنوف لو تأخرت ساعتين عن الوصول.

وابتسم أندريه وتابع: وإذن إذا كنت أخدم، فلأنه لا يوجد سواي من يستطيع التأثير في عقلية أبي، وإنني من حين إلى آخر أستطيع منعه من القيام ببعض الأعمال التي يمكن أن يأسف عليها فيما بعد.

ـ أرأيت!

ـ نعم، ولكن ليس كما تتصور الأمر. إنني لم أكن أطلب ولن أطلب أي خير لذلك المقيد الذي سرق أحذية الميليشيا، بل إنني كنت سأنظر إليه وهو يشنق بسرور. لكنني أشفقت على أبي وأعني أنني أشفقت على نفسي مرة أخرى.

ازداد انفعال الأمير شيئاً فشيئاً. وبينما كان يجهد في أن يبرهن لـپيار أن أعماله لا تحوي شيئاً من إرادة الخير للآخرين، كانت عيناه تتوقدان بحماسة محمومة. استأنف يقول: إذن، فإنك تنوي تحرير العبيد. إنها نية ممتازة. لكنها لن تكون ذات نفع لك، وأنت الذي لم تأمر بجلدهم قط أو نفيهم إلى سيبيريا كما أعتقد، ولا لهم. بل أعتقد أنهم إذا جلدوا أو أبعدوا، فإن ذلك لن يكون في رأيهم شيئاً. ولو أرسلوا إلى سيبيريا لتابعوا حياتهم الحيوانية هناك وكأن شيئاً لم يحدث. فإذا ما التأمت جروح السياط، فإنهم سيشعرون بمثل سعادتهم السابقة. مع ذلك، فإن التحرير والإقرار ضروريان. ولكن لأولئك الذين

يخنقون في أنفسهم صوت تبكيت الضمير بعد أن فقدوا تدريجاً الإحساس الروحي، فيقسون في عادتهم الرديئة التي يعتبرونها حقاً لهم، وهي إنزال العقاب بعدل أو بغير عدل. هؤلاء هم الذين أشفق عليهم والذين أتمنى أن يصار إلى تحرير الفلاحين العبيد بسببهم. لعلك لا تعرف بعضاً من هؤلاء لكنني رأيت أشخاصاً بارزين نشأوا في تقاليد السلطة المطلقة، فأصبحوا مع السنين، أكثر استجابة للغضب وأشد قسوة ووحشية. وهم يعرفون ذلك عن أنفسهم لكنهم لا يستطيعون السيطرة على رغائبهم فيزدادون تعاسة وحزناً.

كان أندريه يتحدث بحماسة. فكر بيار في سره مرغماً: «لا شك أن هذه الأفكار قد تسربت إلى نفسه من تأثير عقلية ابنه». لم يجب، بينما عقب أندريه قائلاً: نعم «هؤلاء» هم الذين يوحون إليّ بالشفقة: وأعني كرامة الإنسان، وراحة الضمير ونقاء الروح. أما الظهور والرؤوس، ظهور هؤلاء الأشخاص ورؤوسهم، فإنك مهما جلدت وحلقت، فإنها ستبقى أبداً ظهوراً ورؤوساً!

فقال بيار:

ـ لا وألف لا، لن أكون أبداً من رأيك.

الفصل الثاني عشر

وعند حلول الظلام، ركب أندريه ومعه پيار العربة قاصدين ليسيياغوري.

راح أندريه يلقي نظرات مختلسة على پيار ويقطع الصمت من حين إلى آخر ليتحدث في موضوعات مسلية. كان يفسر له وهو يريه الحقول، مختلف التحسينات التي أدخلها على الاستثمار.

وكان پيار يجيبه بكلمات وحيدة المقاطع، دلالة على استغراقه في تأملات قاتمة. كان يفكر في أن صديقه تعس سائر في الطريق الخطأ، جاهل النور الحقيقي، وأن عليه أن يضيء أفكاره. لكنه عندما كان يفكر في أقواله وأسلوبه في الكلام، كان يشعر بأن أندريه قادر على تهديم كل مناقشة بكلمة واحدة. لذلك كان يتردد في البدء بالكلام خشية تعريض قدس أقداسه للهزء والسخرية.

قال بعد حين وقد حنى رأسه أشبه بالثور الذي يتأهب للنطاح: قل لي، من أين لك هذه الأفكار؟ يجب ألّا تفكر على هذا النحو.

سأله الأمير حائراً: أية أفكار؟

ـ أفكارك عن الحياة وهدف الإنسان. لقد كانت لي أفكار مثلها أنا الآخر، لكن أتدري ماذا أنقذني منها؟ الماسونية. آه! لا تبتسم. إنها ليست كما كنت أعتقد مذهباً دينياً. بل هي أجمل تعبير عما في الإنسان من رقي ومن أزلي باق. إنها المعبر الوحيد عن كل هذا.

وراح يعرض شارحاً الماسونية، حسب رأيه، مؤكداً أنها الشريعة

المسيحية المتحررة من قيود الحكومات والأديان، شريعة المساواة والإخاء والحب. قال: إن محفلنا المقدس هو الوحيد الذي يملك معنى الحياة الحقيقي، وكل ما عداه أحلام وأوهام. إن كل شيء خارج نطاق المحفل ليس إلا كذباً وزوراً خارج دائرة المحفل وعقيدته، لا يبقى للرجل الذكي النبيل إلا أن يعيش حتى يموت، جاهداً ألّا يسيء إلى سواه، تماماً كما تفعل أنت، إنني على أتم وفاق معك حول هذا. لكنك إذا اعتنقت مبادئنا الأساسية، إذا دخلت في محفلنا، إذا أسلمت زمامك لنا، إذا تركتنا نوجهك ونرشدك، فستشعر على الفور كما شعرت أنا من قبل، بأنك حلقة في تلك السلسلة الهائلة غير المنظورة، والتي تضيع بدايتها في الأجواء العليا، في السماوات.

كان أندريه يصيخ السمع إلى پيار دون أن يتفوه بكلمة، وعيناه شاخصتان إلى نقطة وهمية أمامه. رجاه غير مرة أن يكرر بعض الكلمات والعبارات التي لم يستوعبها للمرة الأولى بسبب ضجيج العربة. شجع سكوته والبريق الخاص الذي انبعث من عينيه، پيار على الاسترسال، شعر أنه لم يعد يتحدث عبثاً، وأنه لا خوف عليه من مقاطعات صديقه أو سخريته.

وصلا إلى نهر فائض اضطرا إلى اجتيازه على طوف كبير. وبينما راح الخدم ينقلون العربة والخيول إلى العابرة، أخذ الصديقان مكانهما عليها متابعين الحديث، كان أندريه متأكداً على حاجز الطوف، يتأمل المياه الهادرة التي تنعكس عليها آخر إشعاعات الشمس، بصمت ووجوم، سأله پيار: حسناً! ما رأيك في كل هذا؟ لِمَ أنت صامت؟

ـ ما رأيي؟ أنا مصغ إليك. إن كل هذا جميل بدون شك. إنك تقول: ادخل في محفلنا وسندلك على غاية الحياة ومصير الإنسان والقوانين التي تسيّر العالم. لكن من نحن، غير مخلوقات بسيطة فانية؟ كيف حدث أنكم

تعرفون كل شيء؟ كيف حدث أنني وحدي لا أرى ما ترونه على هذه الأرض؟ إنكم ترون على الأرض ملكوت الخير والحق وأنا لا أراه.

قاطعه پيار قائلاً: هل تؤمن بالحياة الآخرة؟

ـ الحياة الآخرة؟

ولما كان پيار يعرف من قبل أن صديقه ملحد، فقد اعتبر استفساره هذا نفياً، فلم يعطه وقتاً للجواب أو التفسير واستأنف قائلاً: أنت تقول إنه يستحيل عليك رؤية ملكوت الحق والخير على الأرض إنني أنا الآخر لا أراه. إذ ليس ممكناً أن نراه إذا اعتبرنا أن نهاية حياتنا هي نهاية كل شيء على الأرض، نعم على هذه الأرض، وأشار إلى السهل، لا يوجد حق. إن كل شيء عليها كذب وشر. ولكن في العالمين، في مجموع الكون، تسود الحقيقة. نحن أبناء الأرض لفترة وجيزة. لكننا في الأزل، أبناء الكون. ألست أشعر في أعماق نفسي بأنني جزء من هذا الكون الهائل المتناسق؟ ألست أشعر في أعماق روحي أنني، في هذه الكمية العظيمة المحدودة من المخلوقات التي تتجلى القدرة فيها أو القوة العليا، كما تشاء، لست إلا حلقة صغيرة، درجة من سلالم الخلق، من أدناها إلى أرفعها؟ بلى، إنني أرى، وأرى بوضوح ذلك السلم الذي يبدأ من النبتة حتى يصل إلى الإنسان. فلمَ إذن أعتقد أنه عندما يصل إليّ ينتهي عندي بدلاً من الإيمان بأنه يمضي بعيداً كذلك إلى أبعد مني؟ إنني أشعر أنني لا يمكن أن أختفي من الوجود لأن لا شيء يختفي فيه. أنا أشعر بأنني كنت من الأزل وسأبقى إلى الأزل. إنني أحسّ بوجود أرواح أخرى غيري وأرفع مني تعيش في الكون معي. وفي هذا الكون، تقيم الحقيقة ويجثم الحق.

قال أندريه: نعم إن هذه عقيدة هيردر[١] لكنها يا عزيزي لن تقنعني أن

(١) كاتب ألماني شهير، صاحب «فلسفة تاريخ الإنسان» (المترجم).

الحياة والموت هما وحدهما يدفعان إلى القناعة والإيمان. إن ما يقنعك، هو أن ترى مخلوقاً كنت شديد التعلق به مذنباً تجاهه، كنت تفكر في التفكير عن أخطائك نحوه، وبدأ صوته يرتجف انفعالاً، فأشاح بوجهه، أقول، أن ترى هذا المخلوق العزيز يتألم فجأة ويحتمل أوجاعاً مريعة، ثم يكف عن الحياة، فلمَ هذا؟ لا يمكن أن يكون هذا السؤال دون جواب، إنني أعتقد أن هناك جواباً على الأقل... إن هذا المقنع، وهذا ما أقنعني.

ـ لكن بلى، بلى. إن هذا ما كنت أقوله لك.

ـ أبداً يا عزيزي. اصغ إلي جيداً: ليست الحياة الآخرة هي الحجج التي تثبت لي ضرورة ذلك، بل إنها الواقعة التالية: يدخل المرء في مضمار الحياة ممسكاً بآخر في يده. وفجأة يختفي هذا الآخر، «هناك في العدم». وعندئذ يقف المرء على حافة الهاوية يتفحصها بعينيه باحثاً... ولقد تفحصتها بنفسي.

ـ حسناً! إنك إذن تعرف أن في الأمر «هناك» و«بعضهم» إن هذه الـ: «هناك» هي الحياة الآخرة، وذلك الـ:«بعضهم» هو الله.

لم يعط أندريه جواباً. كانت العربة قد سحبت من الطوف إلى الشاطئ الآخر وقطرت الخيول إليها، وكادت الشمس تغيب، وجليد المساء يرسم نجوماً من برك المياه الصغيرة المنتثرة على الشاطئ. لكن السيدين ظلا في مكانيهما على الطوف، الأمر الذي أثار دهشة الخدم واستغرابهم. بقي پيار وأندريه يتناقشان دون أن يفكر أحدهما في مغادرة الطوف.

قال پيار وهو يشير إلى السماء.

ـ إذا كان الله موجوداً، والحياة الآخرة موجودة، فإن الحقيقة والفضيلة موجودتان كذلك. والأمنية القصوى والنعيم المقيم، في السعي لمعرفتهما يجب أن يعيش المرء وأن يحب وأن لا يعتقد بأننا نعيش على هذه القطعة من الأرض فحسب، بل إننا عشنا وسنعيش إلى الأبد هناك، في «الكل».

بقي أندريه مصغياً إلى پيار وهو متكئ على حاجز الطوف، لا تفارق عيناه الأمواج الزرقاء الساطعة التي يلقي عليها المغيب سهامه الحمراء. سكت پيار وخيم سكون عميق، لا يقطعه إلا تكسر المياه الهادرة على جوانب الطوف الراسي على الشاطئ منذ حين. خيّل لأندريه أن يسمع في هذه الدمدمة الغامضة، صدى لأقوال پيار: «تلك هي الحقيقة فصدّق». أطلق زفرة وشمل وجه پيار المحمرّ بجلال، بنظرة مشعة حانية. كان وجه پيار رغم وقاره يحمل طابع الخجل إزاء هذا الصديق الذي يعرف أنه متوقف عليه في كل شيء قال أخيراً: نعم، علّ الأمر كذلك! هيا، لنصعد إلى العربة.

ولما جلا عن الطوف، رفع عينيه إلى السماء التي أشار پيار إليها منذ لحظة، فرأى من جديد، للمرة الأولى منذ أوسترليتز، تلك السماء الأزلية المتسامية التي تأملها على ساحة المعركة ولقد كان لذلك المشهد في نفسه تجديد للغبطة والحنان اللذين افتقدهما. وتبدّد كل ذلك فوراً، حالما عاد الأمير أندريه إلى واقعه المألوف في الحياة. لكنه كان يعرف أن ذلك الشعور الذي لم يغذه وينشئه في روحه، باق في أعماقه. وعلى الرغم من أن مظهر أندريه لم ينم عن شيء مما في نفسه، فإن ذلك الحديث الذي دار بينه وبين پيار، أشرق في أعماقه فجراً جديداً غير مألوف لديه.

الفصل الثالث عشر

توقفت العربة أمام الطنف الكبير في ليسيياغوري بعد حلول الظلام. نبّه أندريه صديقه إلى الذعر الذي أحدثه وصولهما إلى مدخل باب الخدم. كانت هناك عجوز محنية الظهر، جرابها على كتفها، يصحبها رجل قصير القامة، طويل الشعر، مرتدياً ألبسة سوداء، يسرعان إلى الباب العمومي هاربين، وفي أعقابهما امرأتان ركضتا تحاولان اللحاق بهما. فلما اجتمع أربعتهم، ألقوا نظرة ذعر على العربة واندفعوا إلى سلم الخدم.

قال أندريه: هؤلاء هم «رجال الله» عند أختي ماري. لقد اعتقدوا أن ماري تستقبلهم دائماً، رغم أن أبي كان يطردهم دون هوادة. هذا هو الأمر الوحيد الذي تخالفه ماري من أوامر أبي.

سأل پيار: ولكن، ما معنى رجال الله، ومن هم هؤلاء؟

لم يجد أندريه متسعاً للإجابة، فقد أسرع الخدم لاستقبالهم، فسألهم عن أبيه. أنبأوه أن الأمير العجوز لا يزال في المدينة، لكنهم ينتظرونه بين لحظة وأخرى.

اصطحب أندريه صديقه پيار إلى غرفه المعدة للاستقبال، حيث تركه ليستطلع أنباء ابنه ويراه. ولما عاد إليه قال له وهو يتقدمه: والآن، هلمّ بنا إلى أختي. لم ألمحها، إنها محتجبة في غرفتها مع محميها. سوف نفاجئها، وسيغمرها الخجل. لكنك سترى رجال الله. إنهم يثيرون التطلع.

سأل پيار مرة أخرى: ما معنى رجال الله؟

ـ سوف ترى بنفسك.

لدى دخول الأميرة ماري إلى غرفتها الجميلة اعتراها الخجل حيث القناديل مضاءة بجلال قرب خزانة التمائم المقدسة، وعلت وجهها بقع حمراء، كانت جالسة على كنبة تحتسي الشاي بصحبة فتى طويل الأنف والشعر مرتدياً مسوح راهب. وكانت امرأة عجوز هزيلة، ذات وجه يشبه وجوه الأطفال، تشغل مقعداً وثيراً بجانبهما.

قالت ماري في رنة لوم خفيفة: لِمَ لم تخطرني بقدومك يا أندريه؟

وأسرعت تقف بينه وبين حجاجها، كالدجاجة التي تحمي صغارها، وأردفت: إني سعيدة جداً لرؤيتك يا كونت.

وقبلت يد پيار. كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة. والآن، فإن صداقته التي كانت تربطه إلى أندريه ومصائبه الزوجية، وعلى الخصوص وجهه الصريح، كل هذه الأشياء كانت تحمل ماري على الميل إليه. استمرت تحدق إلى وجهه بعينيها المتوقدتين وكأن نظرتها تقول: «إنني أحبك كثيراً ولكن... لا تسخر من جماعتي»!

تبادلا التحية والتمنيات المألوفة وجلسوا جميعاً. قال أندريه شافعاً كلامه بابتسامة موجهة إلى الحاج الشاب: هه! ها إن إيڤانوشكا هنا أيضاً!

فقالت ماري بلهجة متوسلة: أندريه!

فقال هذا لـپيار: يجب أن تعلم أنه امرأة لا رجل كما تظن.

كررت ماري توسلها: أندريه، نشدتك الله.

كان من الواضح أن مشاكسات أندريه للحجاج، واحتجاجات ماري غير المثمرة لحمايتهم، كانت متأصلة في أعماق الأخ والأخت، أصيلة في عاداتهما. قال أندريه: ولكن يا صديقتي الطيبة، يجب أن تشكري لي ما أحتمله من عناء في شرح علاقتك الأليفة بهذا الفتى!

قال پيار وهو يتفحص وجه الحاج خلال نظارتيه بفضول خطير، كانت ماري شاكرة سلوكه الجدي: صحيح؟

وأدرك إيڤانوشكا أنهم يتحدثون عنه فراح يجيل حوله نظرة ماكرة.

كانت ماري على خطأ في دفاعها عن «جماعتها» لأنهم لم يكونوا مرتبكين مطلقاً إزاء تلك النظرات المتطفلة. كانت العجوز ذات العينين المطرقتين التي كانت تختلس بين حين وآخر نظرة دائرية إلى وجهي القادمين، قد قلبت فنجانها على الصفحة ووضعت بجانبه قطعة السكر التي قضمت نصفها، منتظرة أن يقدم لها الشاي من جديد، وهي جامدة في مقعدها. أما إيڤانوشكا، فقد كان يراقب القادمين بعينيه الماكرتين الشبيهتين بعيني الامرأة، وهو يتجرع محتويات فنجانه بتمهل وسكون.

سأل أندريه المرأة العجوز: من أين جئت؟ أمن كييـف؟ لا شك.

فأجابت العجوز وقد أسعدها أن تحل عقال لسانها: لقد ذهبت إلى كييـف يا أبي وقد أسعدت، في يوم عيد الميلاد المقدس، بتلقي «المناولة» المقدسة قرب ضريح الصالحين... أما الآن، فأنا قادمة من كوليازين[1] يا أبي. لقد حدثت فيها معجزة كبرى.

ـ وهل يصحبك إيڤانوشكا؟

فأجاب هذا ساعياً إلى النطق بصوت خفيض: كلا يا أبي. إنني أمضي في سبيلي. إنني لم ألتق: بيلاغويوشكا إلا في ايوخنوف...

لكن العجوز لم تتركه يسترسل. كانت تتحرق شوقاً إلى رواية ما شاهدته: لقد تبدت معجزة كبيرة في كوليازين يا أبي.

سأل أندريه: ماذا حدث؟ أهي بقايا أجساد مقدسة اكتشفت؟

---

(١) دير شهير (سانت ترينيتي) الثالوث المقدس، يتوافد الحجاج إليه يوم الجمعة بعد عيد الفصح. (المترجم).

فقالت ماري: أرجوك يا أندريه. لا تقصِ شيئاً يا بيلاغويوشكا.

ـ ولمَ لا يا أمي؟ إنني أحبه كثيراً. إنه مصطفى من الرب، وهو طيب القلب. أعطاني ذات يوم، عشرة روبلات ما زلت أذكرها حتماً.. وإذن، بينما كنت في كييـف، قابلت صدفة كيروشا البريء، وهو من رجال الله المقدسين يمشي حافي القدمين في الصيف وفي الشتاء، قال لي: «ماذا جئت تفعلين هنا، ليس مكانك هنا، إذهبي إلى كوليازين، فهناك صورة عجيبة، إن أمنا العذراء شديدة القدسية قد تجلت». هكذا قال لي، وعندئذ ودعت الأولياء الصالحين وسرت في الطريق.

كانوا جميعاً صامتين، وعيونهم متعلقة بشفتي التقيّة التي كانت تروي قصصها بصوت متزن، تقطعه تنفساتها العميقة: ولما وصلت، قال لي كل الناس: «إن نعمة ربانية قد ظهرت، إن البلسم المقدس يقطر من وجنة أمنا العذراء شديدة الطهر».

قالت ماري: هيا، كفى. ستقصين هذه الحكاية مرة أخرى.

فتدخل پيار قائلاً:

ـ اسمحي لي أن ألقي عليها سؤالاً. هل رأيت ذلك بنفسك؟

ـ لا شك يا أبي، لقد حصل لي هذا الشرف العظيم. كان وجه أمنا الطيبة يلمع بنور سماوي والبلسم الشافي يقطر من وجنتها قطرة قطرة.

فصاح پيار بسذاجة بعد أن أصغى باهتمام إلى مزاعم العجوز: لكن هذه خرافة!

فقالت هذه مذعورة تناشد الأميرة ماري الحماية بنظرة: ما هذا الذي تقوله يا أبي!

كرر پيار بإلحاح: هكذا يخدعون الشعب.

هتفت التائهة وهي ترسم على صدرها إشارة الصليب: يا سيدي يسوع!

أوه! لا تتحدث هكذا يا أبي! كان هناك جنرال لم يشأ تصديق المعجزة. قال: «إنها خدعة من الكهنة» لكنه أصيب فوراً بالعمى. وقد حلم في نومه أن أمنا المقدسة في كريبت جاءت إليه وقالت له «آمن به وسأشفيك» وعندئذ راح يتوسل ضارعاً: «خذوني إليها، خذوني إليها»! إن ما أقوله لك هو الحقيقة. لقد رأيته، لقد رأيته بعينيّ هاتين. وعندئذ أخذوا الأعمى إليها مباشرة فتهالك على ركبتيه وهو يقول: «اشفيني وسأعطيك ما منحنيه القيصر». إنه صحيح يا أبي، إذ إنني رأيت نجمته، وتقصد رتبة الجنرالية، معلقة في الصورة المقدسة. وأعادت إليه النظر الأم الطيبة!... إنها خطيئة أن تتحدث هكذا. إن الله سيعاقبك.

سأل پيار غير مبال بلهجتها الصارمة: كيف وجدت النجمة معلقة فجأة في الصورة؟

وقال أندريه ضاحكاً: وهل منحوا الأم الطيبة رتبة جنرال؟

شحب وجه الحاجة بيلاغويوشكا وضربت كفاً بكف وصاحت بعد أن زايلها امتقاع لونها فأصبح وجهها أحمر قانياً:

ـ يا للخطيئة! يا للخطيئة! اصمت يا أبي، إن لك ولداً... ماذا قلت؟ ماذا قلت!

وراحت تضرع إلى الله وهي ترسم إشارة الصليب:

ـ ليغفر لك الله! ربي اغفر له... آه، يا أمي، ما معنى هذا؟

وجهت هذه الجملة إلى ماري وهي تلتفت إليها، ثم وقفت وهي على وشك البكاء وراحت تجمع جرابها. كان يُرى على وجهها أنها كانت خجلة لقبولها الضيافة في بيت يتحدثون فيه أمثال هذا الحديث. لكنه كان يبدو عليها كذلك أنها تأسف على اضطرارها في المستقبل إلى العزوف عن هذه الضيافة.

قالت ماري: ماذا دهاكما؟ أية متعة تجدانها في هذا القول... كان يمكنكما ألاّ تحضرا أبداً...

فأجاب پيار: لقد أردت أن أمزح فقط يا بيلاغويوشكا. أيتها الأميرة، أقسم بشرفي إنني ما أردت جرح كرامتها ولا إهانتها. لقد تحدثت في غير مكر. لا تظني بي السوء، لقد أردت المزاح...

وتابع ملحاً وهو يبتسم ابتسامة خجلى: وهو كذلك كان يمزح.

كان واضحاً أنه راغب في إزالة خطأه وكان وجهه يعبر عن ندم مخلص. أما أندريه فراح يلقي نظرات شديدة الحنو على پيار تارة وعلى العجوز التائهة تارة أخرى، حتى أن هذه، بعد أن كانت قليلة الميل إلى تصديق توبته، اقتنعت بصحتها.

الفصل الرابع عشر

رجعت الحاجة تتحدّث بحماسة بعد أن اطمأنت، وبقيت فترة طويلة تتحدث عن مواهب أحد الآباء المدعو أمفيلوك الذي لشدة زهده وتقشفه راحت يداه تتضوعان برائحة البخور. ثم بدأت تشرح تفاصيل قصة مقامها الأول في كييـف. قالت إن بعض معارفها من الرهبان أعطوها مفاتيح الأقبية، فبقيت فيها ثماني وأربعين ساعة في صحبة الصالحين لا تأكل إلا البسكويت. «وبعد أن أصلي صلاة طويلة أمام أحد الضرائح، كنت أنتقل للتبرك بآخر والصلاة أمامه. ثم نمت فترة قصيرة وعدت أقبل الضرائح المقدسة. لقد كان السكون عميقاً والنعيم العلوي يدخل في نفسي حتى أنني لم أكن أرغب في الخروج لرؤية ضياء الله الكريم».

كان پيار يصغي إليها بانتباه. لكن ماري لم تدعه يستقر طويلاً، لأن أندريه كان قد انسحب. فتركت رجال الله يتمون احتساء شايهم وقادت پيار إلى القاعة الكبيرة. قالت له: كم أنت طيب القلب!

ـ آه! حقاً إنني لم أفكر في إهانتها مطلقاً. إنني أفهم هذه المشاعر وأقدرها.

تأملته ماري فترة وهي صامتة وعلى شفتيها ابتسامة حانية. وأخيراً قالت: إنني أعرفك منذ زمن طويل وأحبك كأخ لي.

ثم تابعت دون أن تترك له المجال للإجابة عن كلماتها الرقيقة: كيف وجدت أندريه؟ إنه يقلقني جداً. لقد كان أحسن حالاً هذا الشتاء. لكن جرحه نكئ في الربيع فأوصى له الطبيب معالجة خارج البلاد. ثم إن حالته الفكرية

تقلقني أيضاً. إنه ليس من طبيعة مثل طبيعتنا نحن معشر النساء، تمكنه من استهلاك أحزانه بالدموع والمظاهر الخارجية. إنه يطوي آلامه في حناياه. وإذا تظاهر اليوم بالانشراح فما ذلك إلا بسبب وجودك الذي كان له هذا الأثر. من النادر أن يكون على مثل هذه الحال من الانشراح. ليتك تقنعه بالسفر إلى مكان ما! إنه في حاجة إلى النشاط. إن هذه الحياة الساكنة تقتله. والآخرون لا يلاحظون هذا، أما أنا، فإنني أراه بكل وضوح.

تجاوزت الساعة التاسعة، فارتفعت ضجة في الخارج. كان الأمير العجوز عائداً من المدينة. أسرع الخدم إلى الطنف وتبعهم پيار وأندريه. فلما نزل الأمير من عربته شاهد پيار فسأل: من هذا؟...

ولما عرف الكونت الشاب صاح: آه! أهلاً بك! قبلني هنا.

كان على أفضل مزاج فعامل پيار بشيء كثير من المجاملة وقاده إلى مكتبه. فلما جاء أندريه يلحق بهما ساعة العشاء، وجدهما غارقين في نقاش حاد. كان پيار يصر على القول إن وقتاً سيحين، تبطل فيه الحروب. أما الأمير فكان يسفه هذا الرأي ولكن في غير جفاء وخشونة.

قال الأمير وهو يربت بلطف كتف پيار:

ـ الوسيلة الوحيدة لمنع الحروب هي أن تفصد العروق وتملأها بالماء بدلاً من الدم. إن هذه ترهات وأحلام نساء!

ثم اقترب من الطاولة حيث كان أندريه يتصفح أوراق أبيه التي أتى بها من المدينة عازفاً عن الاشتراك في النقاش. راح يحدثه عن الأعمال. قال: لم يستطع الكونت روستوف، بوصفه رئيس منطقة، أن يقدم لنا نصف الرجال المستنفرين... ثم تصور بعد ذلك أنه جاء إلى المدينة يدعوني إلى تناول العشاء عنده! لقد أرسلته وعشاءه إلى...! هل رأيت مثل هذا... تأمل.

تابع، وهو يضرب كتف پيار متودداً: وبهذه المناسبة يا عزيزي، هل تعلم أن صديقك يعجبني؟ إنه فتى باسل يملأني حماسة وفخراً. إن أياً كان مثله يبحث في مواضيع حساسة لكنها تثير اشمئزاز المرء فلا يلذ له الإصغاء إليها. أما هذا، فإنه ينطق بحماقات، لكنه مع ذلك يثيرني رغم تقدّم سني.. حسناً، إنني لا أستبقيكما. اذهبا فتناولا طعامكما. لعلني أنضم إليكما. قد أجيء لمشاكستك من جديد...

فلما خرجا، قال الأمير العجوز متمماً: حاول أن تنظر بعين العطف إلى ابنتي الحمقاء ماري.

خلال إقامته القصيرة في ليسياغوري تذوق پيار كل متعة الصداقة، تلك الصداقة التي كانت تربطه إلى پولكونسكي. ولم تكن تلك المتعة قاصرة على علاقاتهما الشخصية بل تعدتها إلى الصلات التي جمعت بينه وبين أفراد أسرة پولكونسكي ومعارفهم. فعلى الرغم من أنه لم يكد يتعرف إلى الأمير العنيد وماري الأميرة الخجول كما يجب، فإنه شعر في أعماقه براحة قصوى في مجالستها أكثر مما يشعر به مع أصدقاء قدامى.

ثم إنهم جميعاً سرعان ما أحبوه بدورهم. فماري، أعجبتها طريقته اللطيفة وأساليبه الرقيقة في معاملة حجّاجها، فراحت تلقي عليه نظراتها الأكثر إشراقاً وتوقداً، ونيكولا الصغير نفسه، ذلك الطفل الذي لم يتجاوز عامه الأول الذي كان جده يدعوه بالأمير الصغير، تقبل دعابة پيار ورضي بحمله هذا بين ذراعيه. أما ميخائيل إيڤانوڤيتش والآنسة بوريين فكانا يبتسمان ابتسامة صادرة من أعماقهما كلما وقع نظرهما عليه أو شاهداه يتحدث إلى الأمير العجوز وكأنه أليفه وصديقه القديم، حتى أن هذا بدأ يحضر طعام العشاء مع الآكلين تكريماً لضيفه الشاب. والخلاصة إن پيار خلال اليومين اللذين قضاهما في

ليسبياغوري، تلقى من عطف الأمير العجوز الشيء الكثير حتى أن هذا دعاه بإلحاح إلى زيارته مرة أخرى.

عندما بارح بيار آل بولكونسكي، واجتمعت الأسرة، أعطى كل فرد من أفرادها رأيه في الضيف الراحل كما هي العادة بعد ذهاب شخص دخل في نطاق الأسرة من جديد. والعجيب في الأمر، أن كل واحد منهم كان مجمعاً مع الآخرين على امتداح الضيف المرتحل.

الفصل الخامس عشر

أدرك روستوف للمرة الأولى، عند عودته من إجازته، أنه متعلق جداً بدينيسوف وبالفيلق كله، إذ خلقت عودته إلى المعسكر مشاعر مثل التي أحسّ بها عند دخوله منزله الأبوي بعد غياب طويل. شعر عندما رأى أحد الفرسان ببزته مفكك الأزرار، ثم ديمانتييف الأشقر والخيول الصهباء، وعندما سمع لاڤروشكا يصيح بمرح معلناً لسيده: «ها هو الكونت قد وصل»! ورأى دينيسوف يسرع إليه من منزله أشعث الشعر وقد غادر فراشه تواً، ليحييه التحية الودية المعروفة بينما شرع الضباط الآخرون يحتفلون بوصول «العائد»، عندما شاهد كل هذه المظاهر، أحسّ روستوف بمثل الشعور الذي خالجه عندما كانت أمه تلاطفه وأبوه يداعبه وإخوته يستقبلونه. كانت القطعة بالنسبة إليه منزلاً عزيزاً جذاباً كمنزله الأبوي.

عندما تقدم روستوف إلى الكولونيل معلناً وصوله، أعاده هذا إلى كوكبته السابقة، فانصرف إلى مشاغله اليومية الكثيرة التي تقتضيها طبيعة الخدمة. شعر من النهج الوتير اليومي في حياة الجندية والحرمان من الحرية والارتباط بملاك القطعة ارتباطاً وثيقاً، بمثل الدعة والسكون اللذين شعر بهما في بيته حيث كان مدعوماً من قبل أسرته دعماً معنوياً ومادياً. كان يشعر أنه هنا أيضاً في بيته وفي مكانه اللائق. حيث لا تصل الحياة الاجتماعية التي تحمل المرء في تيارها الجارف فلا يعرف أين يستقر وبأي شيء يتشبث، ولا توجد سونيا التي يُخشى تقديم المبررات والتفسيرات لها، ويتبدد التردد في إشغال

الوقت، وتنعدم نهائياً تلك الأيام الطويلة التي تستمر أربعاً وعشرين ساعة دون توقف، والتي تغري المرء فيها مئات من المشاغل وتستدعيه، وتختفي تلك الجماعات من الناس الذين لا يرتبط المرء بهم بأية صلة والذين يشعر مع ذلك أنه ليس غريباً عنهم تماماً وليسوا عنه ببعيدين.

هنا تنتهي العلاقات المالية مع أبيه التي لم تكن صريحة تماماً وتتبخر ذكرى خسارته في الميسر! إن كل شيء هنا في القطعة، بسيط ومحدود. لقد كان العالم كله منقسماً إلى قسمين غير متساويين، القسم الأول يشمل «فيلقنا پاڤلوغراد» والآخر، كل ما تبقى من العالم. وهذا الذي «يتبقى» يبدو للمرء بدون أهمية. كانوا يعرفون هنا من هو الملازم ومن هو الرئيس، من هو الشجاع ومن الرديء، وعلى الخصوص من الذي يجب اتخاذه صديقاً. هنا، يقدم لك بائع المعسكر حاجتك ديناً ويستوفي رصيده على دفعات، فلا حاجة بك إلى التفكير ولا إلى الانتقاء. يكفيك أن تتنزه عن كل ما هو معروف بسوئه في فيلق پاڤلوغراد. فإذا أوكلوا إليك مهمة، عليك بتنفيذها حسب ما جاء في التعليمات الصريحة المتعلقة بها، وعندئذ تسير كل الأمور على أفضل حال.

أحسّ روستوف بعد أن استعاد تلك العادات النظامية التي تنفرد بها الحياة العسكرية، بعزاء وانفراج ونشاط، كالتي يشعر بها الرجل المتعب عندما يستسلم للراحة. كان ذلك اللون من الحياة يبهجه خلال الوقت الذي استغرقته الحملة، حتى أنه صمم منذ خسارته في الميسر، تلك الخطيئة التي لم يكن يغفر لنفسه وقوعه فيها رغم كل ما تقدم به والداه إليه من عزاء على أن يخدم في الكوكبة ليس كما كان يخدم من قبل، بل بشكل يساعده على محو خطأه. كان يتوقع أن يصبح زميلاً حقيقياً وضابطاً مثالياً. وبالاختصار كان يريد أن يصبح رجلاً كاملاً، الأمر الذي كان يبدو له صعب التحقيق «في العالم»، شديد السهولة هنا في القطعة.

كان يزمع أيضاً على تسديد القرض الذي اضطر ذووه إليه، خلال فترة خمس سنين. قرر أن يكتفي بألفي روبل في العام بدلاً من عشرة آلاف، جرايته المقررة في كل عام، وبذلك يعيد إلى أبويه من هذا الفرق المبلغ الكبير الذي خسره ودفعوه عنه.

بعد حركات عسكرية عديدة ومناورات كثيرة، وبعد معارك پولتوسك وپروسيخ ـ إيلو، تركز الجيش الروسي في بارتنشتن حيث كان ينتظر وصول الأمبراطور واستئناف العمليات.

مرات عديدة، اشترك فرسان پاڤلوغراد في مناوشات مع العدو، ففاز ببعض الأسرى واغتصب مرة قوافل المؤن وعربات الذخيرة التابعة للماريشال أودينو[1]. كان فيلق پاڤلوغراد تابعاً لإحدى وحدات الجيش الذي حارب عام ١٨٠٥ وقد عاد إلى روسيا لاستكمال ملاكه الناقص. لذلك لم يساهم في العمليات الأولى. فعندما عاد إلى ساحة المعركة، أصبح يشكل وحدة من فيلق پلاتوف الذي كان يعمل بصورة مستقلة عن بقية الجيش.

عسكر فيلق پاڤلوغراد في ضواحي قرية ألمانية مدمرة كلياً وبقي في مكانه بضعة أسابيع قبل شهر نيسان. وفي نيسان كان الطقس بارداً بسبب ذوبان الثلوج والأنهار فائضة والطرق غير سالكة، فانقطع التموين عن الجنود والعلف عن الخيول أياماً. ولما أصبح سير القوافل متعذراً بل مستحيلاً انتشر الجنود في القرى المهجورة يفتشون عن البطاطا التي أصبحت بدورها نادرة. لقد التهم كل شيء وفر معظم السكان. أما الذين مكثوا في دورهم المخربة، فقد كانوا أكثر تعاسة من المتسولين. لم يكونوا يملكون شيئاً يسلب منهم.

---

(١) ماريشال فرنسا، قدّمه ناپليون بوصفه پيار وهو عند الفرنسيين كخالد بن الوليد عند العرب. أظهر براعة في أوسترليتز وأوسترولنكا وفي يدلاند وپوتزن... (المترجم).

بل إن الجنود، وهم من طينة قليلة الإشفاق، كانوا رغم ذلك يقاسمون هؤلاء التعساء آخر لقمة في يدهم.

إن فيلق پاڤلوغراد الذي لم يخسر أكثر من رجلين في المعارك، خسر أكثر من نصف عدده بسبب المجاعة. كان الموت مؤكداً في المستشفيات، حتى أن الجنود المرضى بالحمى أو الالتهابات بسبب سوء التغذية كانوا يفضلون الاستمرار في أعمال السخرة على الذهاب إلى المستشفى، ولما حل الربيع، اكتشف الجنود نبتة تخرج من الأرض، تشبه الهليون، أطلقوا عليها، والله أعلم بالسبب، اسم «جذر ماري الحلو»، فراحوا يتوزعون في الحقول لجمع تلك النبتة التي كانت مرة المذاق جداً، فينبشون بسيوفهم الأرض بحثاً عنها ويأكلونها رغم الأوامر المحذرة الصادرة إليهم. فانتشر مرض جديد بسبب ذلك وعلاماته تورم اليدين والأرجل والوجه، عزاه الأطباء إلى تلك العشبة السامة التي يأكلها الجنود.

أما كوكبة دينيسوف، فظلت مثابرة على توزيع بقايا المأكولات على الجنود بمعدل ربع كيلو غرام يومياً من البسكويت للرجل الواحد. أما البطاطا التي وصلت أخيراً، فكانت مصابة بالصقيع وفاسدة. وقد مضى على الخيول خمسة عشر يوماً، كان علفها خلالها القش الذي تغطى به سقوف الأكواخ. وكانت أجسادها الهزيلة الضعيفة تحمل شعرها الشتوي الذي لم يسقط بعد كتلاً متلبدة.

بقي الجنود والضباط، على الرغم من هذه الضائقات كلها، يعيشون حياتهم العادية. فالفرسان يواظبون على التفقد وتفتيش النظافة وتمطير الخيول وتنظيف الأحذية والأعتدة وتلميعها وعلى سخرة جمع العلف الذي أصبح جمع القش، بل على الانتظام بانتظار الطعام الذي كانوا يعودون منه جياعاً كما ذهبوا. لكنهم كانوا رغم ذلك يتندرون بجراياتهم الهزيلة ويخسرون

من بطونهم الخاوية. ظلوا كعادتهم كلما فرغوا من العمل، يشعلون النيران ويصطلون بها وهم عراة الأجساد يدخنون، أو يجنون البطاطا الفاسدة أو ينضجونها، وهم يصغون إلى حكاياتهم الشعبية أو يقصون بعضهم على بعض مآثر پوتمكين وسوڤوروڤ ومغامرات أليوشا الداهية (أشبه بحكاية الشاطر حسن) أو ميكولكا عتيل الراهب، وهي من القصص الشعبي الروسي. أما الضباط فقد ظلوا من جانبهم يعيشون مثنى وثلاث في بيوت نصف مهدمة مفتوحة للرياح.

كان كبار الضباط منصرفين بكليتهم إلى توفير التبن والبطاطا، لأن غذاء رجالهم كان شغلهم الشاغل. وبقي مرؤوسوهم كعادتهم، يلعبون الورق لأن المال كان متوافراً رغم فقدان الأرزاق، أو يتسلون بألعاب بريئة كلعبة الأسطوانات ولعبة الـ:«شعايكا» وهي عبارة عن وتد مغروز في الأرض يحاول اللاعبون إحاطته بحلقة يلقونها عليه من مسافة معينة. أما سير العمليات الحربية العام، فلم يكن أحد يتحدث عنه لسببين: الأول أنهم ما كانوا يعرفون عنها شيئاً إيجابياً، والثاني أنهم كانوا يشعرون شعوراً مبهماً بأنها ليست على ما يرام.

وكما في الماضي، كان روستوڤ يشاطر دينيسوڤ منزله. ولقد أصبحت صداقتهما منذ إجازتهما الأخيرة أكثر وثوقاً. لم يكن دينيسوڤ يتكلم عن أسرة روستوڤ، لكن الود الذي كان القائد يظهره لضابطه المساعد، كان يوحي إليه بجلاء بأن غرام الفارس العجوز بناتاشا لم يكن غريباً عن هذا الإفراط في المعاملات الطيبة. كان واضحاً أن دينيسوڤ يجنب نيكولا المهام الخطرة فلا يرسله إلى المخاطر إلا نادراً، حتى إذا أرسله ورآه عائداً سليماً، أو وقع اشتباك مع العدو ونجا منه نيكولا كان دينيسوڤ لا يستطيع كتم فرحه وابتهاجه بسلامة الضابط الشاب. وقد اكتشف روستوڤ، خلال إحدى مهامه إلى قرية

مهجورة ظُن أن فيها أرزاقاً وعلفاً، وبولونياً عجوزاً وابنته التي كانت ترعى ولدها الرضيع. كانت تلك العائلة البائسة جائعة فقادها إلى معسكره وآواها في منزله وظل أسابيع طويلة يقوم على إطعامها انتظاراً لشفاء العجوز المريض.

وذات مرة، كان أحد زملاء نيكولا يزوره، فدار الحديث حول النساء. وهنا راح الزميل يمزح معه متهماً إياه بأنه أخفى عن أصدقائه بمكر ودهاء البولونية الحسناء التي أنقذها. ولم ترق الدعابة روستوف، فانفصل وثار وحمل على الضابط الزميل حملة بلغت من العنف أن دينيسوف وجد صعوبة كبيرة في حل المسألة ومنع الضابطين من التقاتل. ولما رحل الضابط المزاح، أنّب دينيسوف نيكولا على انفعاله وخصوصاً أنه شخصياً لم يكن يعرف عن علاقة الضابط الشاب بالبولونية الحسناء شيئاً. فأجاب روستوف: ولكن... أنا أنظر إليها نظرتي إلى أخت ولا يمكنني أن أفصح لك إلى أي مدى شعرت بإيلام حديثه... لأنني... لأن...

ربت دينيسوف كتفه بإخاء وراح يذرع الغرفة دون أن ينظر إليه، كعادته كلما كان منفعلاً. وأخيراً همهم قائلاً: إنكم جميعاً بلهاء في أسرتكم!

لكن روستوف لاحظ أن عينيْ دينيسوف كانتا مبللتين بالدموع.

الفصل السادس عشر

عندما رجع الأمبراطور في شهر نيسان عادت الحياة إلى وحدات الجيش. لم يتمكن روستوف من حضور العرض الذي أقيم احتفاءً بالملك في بارتنتشتن لأن خيّالة پاڤلوغراد كانوا معسكرين عند الخطوط الأمامية. وكان روستوف ودينيسوڤ يسكنان كوخاً حُفر في الأرض، وغطي بالأغصان والحشائش، وفيما يلي الطريقة التي أصبحت شائعة في إقامة مثل هذه الأكواخ. كانوا يحفرون خندقاً عرضه متر وعمقه متر ونصف المتر وطوله متران ونصف المتر. وفي أحد الجانبين، يحفرون درجات متناسقة لتكون مدخلاً للغرفة التي هي الخندق نفسه. وكان المجددون من الضباط، كقائد الكوكبة مثلاً، يتمتعون بلوح من الخشب قائم على ركيزتين، ليقوم مقام الطاولة. وعلى جانبي الخندق وعلى عمق ستين سنتيمتراً، كانت الأرض تحفر، وبذلك يتهيأ للساكنين السرير والكنبات، وكان السقف يسمح لشاغل الغرفة بالوقوف في منتصفها بل في الجلوس على السرير، وذلك في الجزء القريب من الطاولة. وبما أنّ فرسان دينيسوڤ يحبونه، فإنهم بفضل ذلك التعلق منحوه شيئاً من الترف في كوخه، إذ أقاموا له في مقدمة السقف قطعة من الخشب مزينة بقطعة زجاج للإنارة. صحيح أن الزجاج كان محطماً، ولكن أجزاءه كانت ملصقة بعضها إلى بعض بوسيلة ما. وإلى جانب ذلك، فإن جنوده كانوا يأتونه، كلما اشتد البرد، بقطعة من الصفيح يضعونها على الدرجات التي كان دينيسوڤ يدعوها: غرفة الاستقبال، ويملأون تلك القطعة من الصفيح بجمر متقد،

يجمعونه من نيران المهاجع، وبذلك كان الجو رائعاً في كوخ الزميلين حتى أن الضباط كانوا يجتمعون بوفرة في مسكنهما المترف ويخلعون ستراتهم أحياناً بسبب رداءة جوه.

عاد روستوف من الحراسة بعد ليلة بيضاء، حوالى الساعة الثامنة صباحاً، فأمر أن يأتوه بالجمر لأنّ ثيابه كانت مبتلة. أبدل ثيابه وأدى صلاته واحتسى الشاي وتدفأ ثم سوى أمتعته وأخلى ما كان على الطاولة، واستلقى على ظهره بعد أن خلع سترته، ووضع ذراعيه تحت رأسه. كان وجهه ملتهباً من الريح. أخذ يفكر بسرور في أن مهمته الاستطلاعية الأخيرة المثمرة سترقيه رتبة. وكان ينتظر زميله دينيسوف بفارغ الصبر ليثرثر معه. وفجأة دوى صوت دينيسوف الغاضب وراء الكوخ، فزحف روستوف إلى النافذة ليرى الشخص الذي يحدثه القائد. فتعرف إلى صف الضابط توبتشييانكو. كان دينيسوف يصيح به قائلاً: لقد أعطيت متعمداً الأمر بمنعهم من التهام جذر ماري ذاك! وها إنني أرى لازارتشوك يحمل هذه النبتة الخبيثة من الحقول!

فأجاب صف الضابط: لقد أصدرت إليهم الأوامر الصارمة يا صاحب النبالة لكنهم لا يصغون إليّ.

رجع روستوف واستلقى وهو يحدث نفسه: «ليجهد نفسه بدوره، لقد أنهيت خدمتي وليس علي الآن إلا أن أنام، هذا هو خير»! لكن صوت صف الضابط أخذ يختلط في تلك اللحظة بصوت آخر، عرف فيه روستوف صوت الخبيث لافروشكا، تابع دينيسوف. كان ذلك الفتى يزعم أنه رأى أثناء ذهابه إلى توزيع الأرزاق، قوافل محملة بلحم البقر والبسكويت.

وأعقب ذلك صوت دينيسوف المدوي وهو يصيح آمراً: «المفرزة الثانية، أسرجوا الخيول»!.

تساءل روستوف: إلى أين يمضون؟

دخل دينيسوف إلى الكوخ بعد خمس دقائق، فزحف بحذاءيه الموحلين على السرير حيث دخن ملء غليونه وهو غاضب، ثم قلب أمتعته رأساً على عقب وأخذ سوطه وسيفه وهمّ بالخروج. ولما سأله روستوف عما ينوي، أجابه بلهجة غامضة ولكن حانقة أن عليه عملاً يريد أداءه. وأسرع خارجاً وهو يقول: ليحاكمني الله والأمبراطور العظيم!

تناهى إلى سمع روستوف وقع حوافر خيل وراء الكوخ تتخبط في الوحول. لكنه لم يحزن أو يحاول الاستيضاح لمعرفة المكان الذي كان صديقه يقصده. ولما كان الركن الذي انحشر فيه دافئاً، فقد نام ملء جفونه ولم يخرج من الكوخ إلا عند المساء. ولم يكن دينيسوف قد عاد بعد من رحلته. بدأ الجو يتحسن. رأى روستوف قرب الكوخ المجاور، ضابطين مع زميل لهما يلعبون وهم يغرسون في الوحل أوتاداً ويضحكون. فانضم إليهم. وبينما هم يلعبون، شاهدوا عربات تقترب يتبعها خمسة عشر فارساً على خيول هزيلة. أخذت القافلة والموكب المحيط بها يقتربان من مرابط الخيل، وهب حشد من الفرسان يحيط بالعربات. صاح روستوف: ها هي الأرزاق قد وصلت. مع ذلك فإن دينيسوف لم يكن يكف عن التبرم!

فقال الضابط: كم سيفرح الجنود الآن!

كان دينيسوف يتبع القافلة بين ضابطين من ضباط المشاة على جيادهم. وكان يتحدث معهما، فأسرع روستوف إلى لقائه. كان أحد الضابطين، وهو نحيل الجسم بادي الغضب، يقول: إنني أنذرك يا كابتن...

فيجيبه دينيسوف: لن أعيد شيئاً.

ـ هل تدري ما تفعل يا كابتن! إن اغتصاب أرزاق إخوان في السلاح يعتبر تمرداً!... إن رجالي لم يتناولوا طعاماً منذ يومين!

ـ أما رجالي، فمنذ خمسة عشر يوماً!

فقال ضابط المشاة بصوت مرتفع: لكن هذه لصوصية يا سيدي، ولسوف تسأل عنها.

فصاح دينيسوف وقد نفد صبره: هلا كففت عن مضايقتي وإزعاجي!... سأسأل؟ حسناً. ليكن، لكنك لن تكون أنت المسؤول؟... فاجهد في الصمت أو حذار، حذار لنفسك!... أغرب عن وجهي!

فقال ضابط المشاة دون أن يرتبك: حسناً! هذه لصوصية وإني...

فزمجر دينيسوف ودفع جواده نحو المتكلم وصاح: إذهب إلى الشيطان، ولكن بأسرع من هذا الخطو!

كرر الضابط بلهجة متوعدة: حسناً، حسناً!

ولوى عنان جواده وابتعد خبباً يهتز على صهوة الجواد.

صاح دينيسوف متعمداً سماع الضابط المرتحل: كلب على دائرة من الأوتاد!

وهذه العبارة، هي الجملة الشائعة التي يستعملها الفرسان للسخرية من جنود المشاة الذين يمتطون صهوات الجياد. اقترب من روستوف وانفجر ضاحكاً وهو يقول: لقد انتزعت منهم مؤونتهم بالقوة، يا لقارعي الحصى! لا أستطيع ترك رجالي يموتون جوعاً.

كانت المؤن التي أحضرها دينيسوف لفرسانه، مرسلة إلى فيلق من المشاة.

غير أن لاڤروشكا الداهية أبلغ دينيسوف أنها لم تكن محروسة من قبل الجنود.

فاغتنم هذه الفرصة وأخذ مفرزة من فرسانه وانتزع الأرزاق من الضابطين بالقوة. وُزع البسكويت توزيعاً عادلاً وأعطي منه إلى الكوكبات الأخرى.

وفي اليوم التالي استدعى الزعيم «دينيسوف» وقال له وهو يغمض عينيه بأصابعه:

ـ إليك الطريقة التي سأرى بها هذا الموضوع: أنا لا أعرف شيئاً ولا أتدخل في شيء. لكنني أوصيك بالذهاب إلى الأركان العامة، دائرة التموين وهناك حاول أن تتدبّر الأمر وأن توقع على تسلم كمية كذا وكذا من الأرزاق، فالمسألة ستدخل في نطاق جدي وقد تنتهي نهاية سيئة.

فور خروجه من لدن الزعيم مضى دينيسوف إلى الأركان العامة وهو يتوق بكل إخلاص إلى الأخذ بنصيحة رئيسه. ولم يعد إلا مساء وهو يلهث لشدّة الغضب. لم يكن روستوف قد رآه من قبل على مثل هذه الحال، لذلك راح يسأله عما به عبثاً. كان دينيسوف يكتفي بإرسال الشتائم بصوت أجش ويشفعها بالتهديد والوعيد. ذعر روستوف فقام إلى صديقه يخلع عنه ثيابه ويعطيه ما يشربه، وأرسل يستدعي الطبيب فصاح دينيسوف أخيراً:

ـ يحاكمونني بتهمة السلب، أنا... أعطني مزيداً من الماء... حسناً ليحاكموني! ذلك لن يمنعني من سحق هؤلاء الأوباش!... سوف أتحدث إلى الأمبراطور بهذا الشأن... أعطني قطعة ثلج...

قال الطبيب إنه يجب فصد دينيسوف، فلمّا استقطروا من ذراعه المغطاة بالشعر ملء صفحة من الدم الأسود، استطاع أخيراً أن يروي لهم ما وقع له. قال:

ـ وصلت إلى هناك فسألت: «حسناً، أين رئيسكم؟» فدلوني عليه وقال بعضهم: ـ انتظر قليلاً. فقلت: «لديّ عملي، ولقد قطعت ثماني مراحل، فأعلمه بقدومي» حسناً، ها إن رئيس اللصوص قد بدا وراح حضرته يلقي عليّ درساً قال إنها لصوصية! فقلت له: «اللص ليس الذي يستحوذ على الأرزاق لإطعام جنوده، بل الذي يحتكرها لمصلحة جيوبه!» فأمرني بالصمت. حسناً جداً،

أخيراً قال: ـ اذهب ووقّع على إفادتك لدى مفوض الأرزاق وستتبع قضيتك الطريق القانوني. ذهبت إلى هناك وعرفت في شخصي حضرة المفوض... خمّن من الذي يجعلنا نموت جوعاً؟

وضرب على الطاولة بقبضة يده المتوجعة بعنف حتى أن الطاولة كادت تنقلب، بينما ارتطمت الأقداح بعضها ببعض، وقال:

ـ أتدري من؟ تيليانين! قلت له: «هه، أهو أنت الذي تتركنا نتضوّر جوعاً وننفق من القحط؟» و، طا... طا... على وجهه المنتفخ السمين! «أيها الوحش القذر!» وطا... طا!...

وصاح بصوت أقرب إلى الصراخ وهو يكشف بضحكته الوحشية عن أسنانه البيضاء أسفل شاربيه الأسودين: لقد فتأت غضبي وفقرت عيني وطابت نفسي. ولو لم ينتزعوه من بين يدي لقتلته.

قال له روستوف: هيا، لا تصرخ هكذا، هدئ روعك. ها هو الدم قد عاد ينزف مجدداً. ابقَ هادئاً ريثما أعيد تضميد جرحك.

جرى تضميد ذراع دينيسوف وأودع السرير. وفي اليوم التالي استفاق وقد هدأت نفسه. ولكن حوالى الظهر، وصل الضابط المرافق ووجهه مكتئب يحمل طابع الجد والحزن، فدخل كوخ الزميلين وسلم إلى الماجور دينيسوف ورقة رسمية من قبل الكولونيل، ورقة تحمل أسئلة حول مسألة الأمس. قال الضابط المساعد: إن المسألة تدخل الآن في مرحلة سيئة للغاية وقد تشكلت لجنة التحقيق، وإن أقل ما ينتظر دينيسوف من عقاب هو نزع رتبته عملاً شكلياً بالأنظمة الجديدة المتعلقة بأعمال السلب والعصيان.

زعم المشتكون أن دينيسوف بعد اغتصابه الأرزاق، جاء إلى مفوض الإعاشة العام، وهو في حالة سكر دون أن يستدعيه أحد وهناك هدد المفوض

واتهمه باللصوصية. عندما طرد، اندفع إلى أحد المكاتب فانهال على موظفين ضرباً وخلع ذراع أحدهما.

وسأل روستوف زميله فاعترف هذا ضاحكاً بأن شخصاً آخر تدخّل في العراك. زعم أن كل هذه الأمور عديمة الجدوى وكان يستخف بكل المحاكم ويقول إنه إذا تجرأ هؤلاء اللصوص على منازلته فإنه سيتصرف حيالهم تصرفاً يجعلهم يحتفظون بذكراه زمناً طويلاً.

وبالرغم من أن دينيسوف كان يتظاهر باللامبالاة، فإن روستوف كان يعرفه تماماً ويدرك أنه كان في أعماق نفسه متهيباً نتائج فعلته رغم كل محاولاته إخفاء شعوره عن زميله. استمرت أوراق التحقيق ترد كل يوم ليجيب دينيسوف عنها حتى مطلع شهر أيار، حيث تلقى أمراً رسمياً بإسناد قيادة الكوكبة إلى أقدم ضابط بعده، وأن يمثل أمام قيادة الفيلق الذي يتبعه للإجابة عما قام به في دائرة التموين.

وكان پلاثوف قد قام بالأمس بعملية استطلاع مع سريتين من الخيالة القوقازيين وكوكبتين من الفرسان. فاندفع دينيسوف كعادته إلى الخطوط الأمامية وهناك أصيب برصاصة، انطلقت من الجانب الفرنسي، في ربلة ساقه. وانتهز دينيسوف تلك الفرصة، وهو الذي لم يكن ليغادر السرية من أجل جرح بسيط كهذا، فرفض المثول أمام قيادة فيلقه وطلب إرساله إلى المستشفى لمعالجته.

الفصل السابع عشر

وفي حزيران، اندلعت معركة فريدلاند، تلك التي لم يساهم فيها خيالة پاڤلوغراد، وتلت تلك المعركة هدنة بين الجانبين، فاستغل روستوڤ الفرصة طالباً الإذن بزيارة صديقه دينيسوڤ الذي كان يشعر بفراغ عميق لغيابه. كان قد حرم من كل الأخبار حول صحة صديقه، لذلك كان يشعر بقلق شديد عليه خصوصاً فيما يتعلق بنهاية قضيته.

دُمّر المستشفى الواقع في بروسي مرتين من قبل الفرنسيين والروس على السواء. كانت تلك المدينة الصغيرة بمبانيها المتهدمة ودوائرها المتداعية وشوارعها المليئة بالأقذار، والتي كان سكانها يهيمون على وجوههم بأطمارهم، مختلطين بالجنود بين ثمل ومريض، تتناقض في مظهرها البائس مع صفاء الصيف وروعته المتفجرة في كل مكان من السهول المحيطة بها، وتعطي لوناً قاتماً تنقبض له القلوب.

كان بيت من الحجر بنوافذه المحطمة إلا بعضها، يستخدم كمستشفى للجنود الجرحى والمرضى. وفي فناء ذلك البيت، بين حطام من الركام، كان بعض الجنود، شاحبي الوجوهِ هزيلين، يروحون ويغدون وهم في ضماداتهم القذرة ويستريحون تحت أشعة الشمس.

لم يكد روستوڤ يجتاز العتبة، حتى اندفعت إلى صدره رائحة العفن والأدوية فغصت بها حنجرته. والتقى على السلّم طبيباً روسياً يضع سيجاراً بين شفتيه، كان الطبيب يقول لمساعده الذي كان يصحبه: لا أستطيع أن أنقسم إلى أربعة، تعالى هذا المساء عند ماكير أليكسييـڤيتش سأكون هناك.

عرض عليه مساعده سؤالاً آخر فأجابه: اعمل ما تراه مناسباً! على أن يعود ذلك عليهم بالخير!

وفي تلك الأثناء شاهد الطبيب روستوف فسأله:

ـ ماذا جئت تعمل هنا، نبالتك؟ ألأن المقذوفات النارية قد أخطأتك جئت تنشد إصابة بالتيفوس؟ هنا يا عزيزي بؤرة مرض حقيقية.

ـ كيف ذلك؟ ذلك لأن التيفوس منتشر يا سيدي العزيز. الموت مصير كل من يدخل إلى هنا. لم يبق إلا أنا، ماكييف وأنا ـ وأشار إلى الممرض ـ وقد بقينا بعيدين عن التلف. لقد مات خمسة من زملائي هنا.

وأردف برضى واضح: عندما يأتي شخص جديد، فإن ثمانية أيام تكفي ليأخذ نصيبه. لقد طلبنا عدداً من الأطباء الروس. لكن حلفاءنا الطيبين سدوا آذانهم عن سماع أصواتنا.

أبلغه روستوف أنه يرغب في رؤية ضابط الخيالة دينيسوف فقال الطبيب: دينيسوف؟ لا أعرفه؟ إن سبب ذلك يا عزيزي أنني مسؤول وحدي عن ثلاثة مستشفيات تضم أكثر من أربعمائة مريض! لكننا سعداء بعض الشيء لأن سيدات روسيات من ذوات الروح المحسنة، يرسلن إلينا قهوة ونسيلاً[1] بمقدار ليبرتين شهرياً ولولا ذلك لضعنا.

استطرد الطبيب ضاحكاً: أجل يا عزيزي، أربعمائة مريض، ثم يرسلون إليّ كل يوم مرضى جدداً. أليس لدينا أربعمائة مريض وأكثر؟ همْ؟

لكن مساعد الطبيب الذي وجه إليه الطبيب السؤال الأخير كان يبدو متعباً، غير منكّد من ثرثرة رئيسه إلا بمقدار. عاد روستوف يقول:

ـ إنه الماجور دينيسوف الذي جرح في مولوتان.

ـ أعتقد أنه مات. أليس كذلك يا ماكييف؟

---

(١) نوع من القطن المعقّم. (المترجم).

كان الطبيب يتحدث بلا مبالاة. فلما لم يؤيد مساعده ذلك الزعم، التفت إلى روستوف وسأله: ألم يكن طويلاً أحمر؟

أعطاه روستوف أوصاف صاحبه فقال الطبيب وهو مبتهج: نعم، نعم. لقد كان لدي واحد مثله. لكنني أعتقد أنه مات. على كل حال سأعيد فحص قوائم الأسماء. هل هي عندك يا ماكييڤ؟

فأجاب المساعد: إنها عند ماكير أليكسييـڤيتش.

ثم تابع محدثاً روستوف: أدخل إلى قاعة الضباط وسترى بنفسك.

لكن الطبيب اعترض قائلاً: لا تذهب إلى هناك يا عزيزي خشية أن تضطر إلى البقاء أبداً.

لكن روستوف أجابه بتحية قصيرة وطلب إلى المساعد أن يقوده إليها. فصاح الطبيب من أسفل السلم مشيعاً: لا تلمني أقله بعد ذلك.

انطلق روستوف ودليله في دهليز معتم. وكانت الرائحة شديدة فيه حتى إن روستوف اضطر إلى سد منخريه والتوقف فترة ليستعيد نشاطه. فُتح باب إلى اليمين وبدا في فتحته رجل معتمداً على عكازين وهو هزيل أصفر الوجه، حافي القدمين، في ثياب النوم. كان متكئاً على إطار الباب ينظر إلى القادمين بعينين ملتهبتين ملؤهما الرغبة والحسد. ألقى روستوف نظرة إلى الداخل فرأى الجرحى والمرضى نائمين على الأرض فوق المعاطف أو أكوام من التبن. سأل دليله: هل أستطيع إلقاء نظرة؟

فأجاب المساعد وهو عازف عن الدخول: لا يوجد شيء يستحق المشاهدة.

لكن نفوره دفع روستوف، على عكس ما كان يتوقع، إلى دخول الغرفة، كانت الرائحة التي اعتاد روستوف استنشاقها أخيراً، أشد نفاذاً في تلك الغرفة، رغم أنها كانت مختلفة بعض الشيء عن رائحة الدهليز. وكان واضحاً أن تلك الغرفة كانت مبعث الرائحة المنتشرة في الخارج.

أشعة الشمس تضيء تلك الغرفة الطويلة إضاءة نافذة إليها خلال نوافذ مرتفعة. وكان المرضى مستلقين في صفين ـ بينهما ممرّ ـ على الأرض ورؤوسهم لصق الجدار. وكان معظمهم في النزع الأخير، لذلك فإن دخول روستوف ودليله لم يثر في النفوس أي رد فعل. أما أولئك الذين كانوا محتفظين بوعيهم، فقد تناهضوا لينظروا إلى روستوف أو اطلعوا عليه بوجوههم المصفرة الهزيلة، يلتهمونه بعيونهم بنظرة تكاد تكون متشابهة في كل العيون، نظرة اختلط فيها الأمل في نيل غوث عاجل، بالحسد على الصحة التي يتمتع بها الزائر، اجتاز روستوف الغرفة ووقف في منتصفها وهناك أتيح له أن يرى خلال الأبواب الأخرى المفتوحة، مشاهد مماثلة في الغرف المجاورة.

أذهله ذلك المشهد الذي لم يكن متوقعاً، فوقف صامتاً يجيل نظره فيما حوله. كان أحد المرضى مسجى على الأرض قرب قدميه، ممدود الساقين والذراعين. يبدو عليه أنه قوقازي، بدلالة شعره المحلوق على الطريقة الروسية. كان ذلك الرجل مصطبغ الوجه بحمرة الأقحوان، لا يبدو من عينيه الغاربتين إلا بياضهما وكانت العضلات متصلبة على أطرافه العارية أشبه بالحبال المشدودة. قرع الأرض بمؤخرة رأسه وأطلق نداء بصوت أجش راح يكرره بإلحاح. فأصغى روستوف إلى ندائه وتبين أنه يقول: «ماء، اسقوني ماء» فأخذ يبحث بعينيه عمن يمكنه أن يعيد المريض إلى مكانه ويسقيه جرعة ماء. سأل المساعد: من المكلف هنا العناية بالمرضى؟

دخل خادم القاعة، في تلك اللحظة، وهو جندي من صفوف الجيش، قادماً من غرفة مجاورة، جاء بخطوات متزنة حتى وصل إلى حيث كان روستوف، وهناك ضرب الأرض واتخذ وضعية الاستعداد.

صاح وهو يظن أن روستوف هو أحد الرؤساء في المستشفى، فحدّق إلى وجهه بإلحاح.

ـ صحة جيدة لنبالتكم السامية!

فقال له روستوف وهو يشير إلى المريض: أعد هذا إلى مكانه واسقه ماء.

أجاب الجندي بحماسة وسرور واضح وقد اتسعت عيناه: كما تأمرون نبالتكم.

إلا أنه بقي واقفاً في وضعية التأهب لا يتحرك. فخفض روستوف عينيه وخاطب نفسه في سره: «لا شك أنه ليس هناك ما يعمل!» ولما همّ بالخروج، شعر إلى يمينه بنظرة ملحة عنيدة تتفحصه. فالتفت إلى تلك الناحية كان الرجل الذي يتفحصه، جندياً عجوزاً ذا لحية شهباء ووجه صارم أشبه بوجوه الموتى، وكان جالساً على معطفه في آخر الصف تقريباً. وكان أحد زملائه القريبين منه يهمس في أذنه وهو يشير إلى روستوف. أدرك روستوف أن العجوز يرغب في أن يقول له شيئاً فاقترب منه ورأى أنه قد فقد إحدى ساقيه من فوق الركبة، أما الأخرى فكانت مثنية تحته. وبالقرب منه رأى جسد جندي شاب، مسجى على الأرض، مائل الرأس إلى الوراء ذي أنف أفطس وعينين غاربتين ووجه شمعي ملطخ ببقع الدم. فحص روستوف الجندي سرت عندئذ قشعريرة في عموده الفقري. قال للمساعد: أعتقد أن هذا...

فقاطعه الجندي العجوز وقد سقط فكه من الانفعال: للمرة العشرون نطلب إليهم فيها ذلك يا صاحب النبالة. لقد مات منذ الصباح. إننا رغم كل شيء، لسنا كلاباً...

فقال مساعد الطبيب مسرعاً: فوراً، فوراً. سوف أنقله من هنا... ولو تتفضلون نبالتكم وتتبعونني...

فغمغم روستوف مبادراً: هيا، لنذهب، لنذهب.

وخفض رأسه محاولاً أن يمر دون أن تلتقي عيناه تلك النيران المتقاطعة التي تنبعث من العيون الطافحة بالرغبة واللوم. وأسرع روستوف يغادر القاعة.

الفصل الثامن عشر

أدخل المساعد روستوف إلى قاعة الضباط في آخر الممشى، تتألف القاعة من غرف ثلاث مفتوحة الأبواب مطلة بعضها على بعض. وعلى الأسرّة جلس أو استلقى عليها الضباط المرضى أو الجرحى. كان بعضهم يرتدي معاطف المستشفى، يروح ويجيء على طول القاعة متنزهاً. كان أول شخص وقعت عينا روستوف عليه، رجلاً قصير القامة، نحيل البنية، أبتر الذراع، يرتدي معطفاً وقلنسوة من القطن، ويعض بين أسنانه غليوناً قصيراً، يذرع الغرفة. تذكر روستوف بشكل غامض أنه رأى ذلك الوجه في مكان ما. قال الرجل القصير: آه! كيف التقينا! توشين، ألا تذكر توشين الذي أعادك إلى شوينغرابن؟... إنك ترى أنهم اقتطعوا مني قطعة صغيرة...

وأشار إلى كم معطفه الخاوي مبتسماً.

أطلعه روستوف على غايته من زيارة المستشفى فقال هذا:

ـ ڤاسيلي ديمترينـڤتيش دينيسوف؟ بالطبع إنه هنا. تعال، تعال...

واصطحبه توشين إلى غرفة مجاورة كانت تنبعث الضحكات منها عالية.

قال روستوف في نفسه: «كيف، أيضحكون! وأنا الذي كنت أتساءل كيف يمكن لهم أن يعيشوا في مثل هذا الجو!» كانت رائحة الجثة تلاحقه، والحاجز المزدوج من النظرات المشعة بالرغبة واللوم تطارده ووجه الجندي الشاحب ذي العينين الغاربتين لا يزال ماثلاً في خاطره.

التحف دينيسوف، وهو نائم، بأغطيته والتفّ بها رغم أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة.

صاح بمثل صوته الذي عُرف به في السرية: صاح روستوف! مرحباً مرحباً!

لاحظ روستوف بصعوبة أن شعوراً بالمرارة يطفو على ذلك المظهر المرح ويطبع وجه دينيسوف بطابعه الأليم ويظهر حتى في لهجته، رغم طلاقته الطبيعية في الكلام.

رغم بساطة الجرح وبعد انقضاء ستة أسابيع، لم يلتئم هذا الجرح. وكان وجهه منتفخاً ككل الموجودين في المستشفى. لكن ما زاد في دهشة روستوف كان مظهر صديقه وهيئته. كان يبدو قليل المرح بمشاهدته يبتسم غصباً عنه. لم يسأله عن أحوال الفيلق ولا عن سير الأمور العام، ولما حاول روستوف طرق هذه الموضوعات، تظاهر دينيسوف بعدم الإصغاء.

كذلك لاحظ روستوف أن كل تلميح إلى الحياة الوديعة التي يحيونها خارج جدران المستشفى كان يؤلمه. كان يبدو بلا ريب راغباً في نسيان حياته السابقة، فلا يشغله إلا ما وقع له مع جماعة مفوضية التموين والإعاشة ولما سأله روستوف عما وصلت إليه تلك القضية، أخرج من تحت وسادته ورقة تلقاها أخيراً من الهيئة وأطلعه على مسودة جوابه عليها. اتقد انفعالاً وهو يقرأ له الرد الذي أبرز فيه النقاط والطعنات التي كان يوجهها إلى أعدائه. وما إن بدأ القراءة، حتى تفرق زملاؤه الذين كانوا قد التفوا حول روستوف في شبه حلقة محكمة حين مجيئه يدفعهم حب استطلاع ما في جعبة القادم الجديد. قرأ روستوف على وجوههم ما يشير إلى أن رؤوسهم كانت متصدعة من هذه المسألة بالذات، فلم يبق من يصغي إليه إلا زميل له على سرير مجاور، وهو

رمّاح ضخم الجثة كان يمضغ قصبة غليونه بوجه عابس مكفهر، وتوشين الأبتر كان يعلن استنكاره بهزات من رأسه.

قال الرماح الضخم قاطعاً على دينيسوف قراءته فجأة: في رأيي إن ما يجب عمله هو التماس رحمة الأمبراطور مباشرة، لقد سمعت أن مكافآت كثيرة ستوزع، إذن فإن العفو ليس ببعيد...

قال دينيسوف بلهجة حاول أن يودعها كل حيويته القديمة، لكنها بدت أشبه بالعويل اليائس! التماس الصفح من الأمبراطور! ولمَ ذلك؟ لو أنني كنت لصاً لطلبت الغفران. لكنهم إذا كانوا يلاحقونني، فما ذلك إلا لأنني كشفت النقاب عن هؤلاء الأنذال. ليحاكموني، فلست أخشى أحداً. لقد خدمت دائماً القيصر والوطن بكل شرف. أنا لست لصاً... ثم إنهم يحاولون نزع رتبتي بينما... اسمع. إنني أقول لهم بكل صراحة: «لو أنني كنت مخالفاً واجباتي...».

فتدخل توشين قائلاً: إنها ليست عبارة رديئة ولا شك. لكن الأمر يتعلق بهذا...

وتابع مستشهداً بروستوف: يجب على المرء أن يخضع بينما ڤاسيلي دميتريتش يرفض ذلك، لقد أخطرك أمين لجنة التحقيق بأن مسألتك سيئة.

ـ ليكن! لست أبالي...

فألح توشين وتابع وهو يشير إلى روستوف:

ـ لقد كتب لك ملتمساً فيجب أن توقعه وأن ترسله بواسطة هذا السيد. إن لديه ولا شك بعض المعارف في الأركان. لن تجد مناسبة أفضل من هذه.

فأجاب دينيسوف وهو يعود إلى تلاوته: لقد أعلنت من قبل: لن أنحني وأتوسل.

شعر روستوف غريزياً أن السبيل الذي أشار به توشين والآخرون كان

أفضل وأكثر سلامة. وكان يسعده أن يؤدي خدمة لصديقه لكنه كان يعرف استقامته المخيفة وإرادته التي لا تتزعزع. لذلك، لم يجرؤ على التدخل لإقناعه.

وعندما انتهى دينيسوف، بعد ساعة طويلة من قراءة المطاعنة، لم يجد روستوف بداً من السكوت. قضى بقية يومه في صحبة زملاء دينيسوف الذين عادوا يتجمهرون حوله. فقص عليهم ما كان يعرفه عن الموقف وأصغى بدوره إلى أقاصيصهم بينما كان دينيسوف محتفظاً بصمت مطبق.

وفي نهاية السهرة، استعد روستوف لمغادرة المستشفى. سأل صديقه عن أية خدمة يرغب إليه أداءها. فأجاب دينيسوف: بلى، انتظر.

وبعد أن ألقى نظرة على الضباط المجتمعين، أخرج من تحت وسادته أوراقاً وذهب إلى النافذة حيث كانت محبرته ليكتب. وبعد فترة عاد يقول وهو يسلم إلى روستوف مغلفاً كبيراً: إن الأدوية الكبيرة توصف للأدواء الوبيلة!

كان الملتمس الذي كتبه له أمين لجنة التحقيق، والذي لم يُذكر فيه شيء عن مساوئ مفوضية التموين، بل توسع إلى الأمبراطورية فيه أن يصفح عنه فقط، هو ما أودعه دينيسوف المغلف الكبير قال: ابعث بهذا ما دام ذلك...

لكنه لم يكمل جملته بل تقلصت قسمات وجهه بتأثير ضحكة مغتصبة.

الفصل التاسع عشر

سافر روستوف إلى تيلسيت[1] بعد أن أطلع الكولونيل قائد الفيلق على نتيجة مسألة دينيسوف، حاملاً الملتمس العتيد.

وفي الثالث عشر من حزيران، التقى الأمبراطوران في هذه المدينة الصغيرة فطلب بوريس دروبتسكوي من رئيسه المتنفذ أن يتبعه ذلك اليوم بحاشية جلالته، قال مبرراً طلبه: أود من صميم قلبي أن أرى الرجل الكبير.

وكان يعني نابليون الذي كان يُطلق عليه حتى ذلك اليوم اسم بيونابرت استهزاء كما كان يفعل الآخرون.

سأل الجنرال مبتسماً: هل تتحدث عن بيونابرت؟

ألقى بوريس نظرة على رئيسه أدرك بعدها على الفور أنه كان يمازحه وأنه يريد اختباره فحسب فأجابه: يا أميري، إنني أتحدث عن الأمبراطور نابليون.

قال الجنرال وهو يربت كتفه بود: سوف تصعد بعيداً على سلم الترقي...

وصحبه معه. وبذلك كان بوريس من القليلين الذين حضروا محادثة تييمن[2]. شاهد اللوحات مزينة بأحرف اسمي الأمبراطورين متداخلة بخط جميل، «ونابليون» على الضفة المقابلة يستعرض حرسه بينما كان ألكسندر

---

(١) اسمها اليوم سوفيتك مدينة ليتوانية فيها عقد بونابرت معاهدة مع الأمبراطور ألكسندر الأول. (المترجم).

(٢) نهر في ليتوانيا يصب في بحر البلطيق طوله ٨٣٠ كلم أُطلق اسمه على المحادثات التي جرت بين نابليون وقيصر روسيا. (المترجم).

صامتاً ينتظر في مبنى على شاطئ النهر. رأى العاهلين ينزلان في زورقيهما «ونابوليون»، وقد وصل الرمث قبل ألكسندر، يقترب من ألكسندر بخطوات سريعة ويمد له يده. ثم رأى الأمبراطورين يختفيان تحت الرواق.

كان بوريس منذ أن تسلل بين المتنفذين في المجتمع، قد اعتاد مراقبة كل شيء بدقة وتسجيل كل ما يدور حوله. وجه عنايته خلال مقابلة تيلسيت إلى الأشخاص الذين كانوا يرافقون «نابوليون» واستعلم عن أسمائهم ومزايا أزيائهم العسكرية والتقط بكل عناية كل ما كان يتفوه به المتنفذون الكبار. استشار ساعته في اللحظة التي دخل العاهلان تحت الرواق ولم ينس أن يعيد النظر إليها عندما خرج ألكسندر. تبين له أن المقابلة دامت ساعة وثلاثاً وخمسين دقيقة فسجل هذا التفصيل ذلك المساء بالذات بين عدد من التفاصيل الدقيقة الأخرى التي كان يشعر أنها ذات أهمية تاريخية.

ولما كان ألكسندر لم يصطحب معه إلا حاشية قليلة العدد، فإن وجود بوريس في عداد تلك الحاشية في تيلسيت كان في ذاته حدثاً هاماً وخطوة جيدة في طريق مستقبله، مستقبل شاب طموح كبوريس. لمس بنفسه عقب ذلك أن مكانته ازدادت قوة. فلم يعد معروفاً فحسب بل كان كذلك قبلة الأنظار. وقد كُلف مرتين مهمات لدى الأمبراطور حتى أن هذا بات يعرفه للنظرة الأولى، وبات أفراد الحاشية يدهشون إذا انقطع عن الظهور بينهم على عكس ما كانت عليه الحال من قبل عندما كانوا يتجنبون النظر إلى ذلك الوجه الجديد.

يسكن بوريس مع أحد زملائه الكونت جيلينسكي. كان ذلك البولوني الفني الذي نشأ في باريس، شديد التعلق بالفرنسيين. وبذلك فإن ضباط الحرس وكبار ضباط الأركان العامة الفرنسيين، ظلوا طوال مدة إقامتهم في تيلسيت يُدعون كل يوم تقريباً إلى تناول الطعام ظهراً ومساء لدى الضابطين المساعدين.

أولم الكونت جيلينسكي، في الرابع والعشرين من حزيران، حفلة عشاء لأصدقائه الفرنسيين. وكان في الوليمة مدعو على جانب من الخطورة، وهو مساعد الميدان لناپليون، وعدد من ضباط الحرس وشاب من أسرة فرنسية قديمة كان وصيفاً للأمبراطور. وفي ذلك المساء، انتهز روستوف فرصة الظلام الدامس، وتسلل إلى تيلسيت في ثياب مدنية وتوجه إلى مسكن بوريس.

لم يبدل الجيش، الذي جاء منه روستوف، عواطفه تجاه الفرنسيين الذين تحوّلوا فجأة من أعداء إلى أصدقاء، لأن ذلك التحول لم يحدث إلا في القيادة العامة. أما الجيش، فقد بقي أفراده يشعرون نحو بوناپرت وأتباعه بذلك الشعور بالذات، الذي كان مزيجاً من الغضب والاحتقار والخوف. ومنذ فترة قصيرة كان روستوف يتناقش مع ضابط من قوقازيي فيلق بلا خوف وكان يؤكد أنه إذا وقع ناپليون أسيراً فإنهم لن يعاملوه معاملة أمبراطور بل معاملة مجرم. بل إنه منذ أمد جد قصير، التقى روستوف زعيماً فرنسياً جريحاً، فأفهمه عامداً أن من العبث قيام صلح بين عاهل شرعي كالقيصر وذلك المجرم بوناپرت. لذلك فقد دُهش عندما رأى في منزل بوريس عسكريين كان يتوقع أن يراهم في كل مناسبة في الخطوط الأمامية ليس هنا، فلما وقع نظره على ضابط فرنسي ظهر على عتبة الباب، شعر فجأة بالكراهية العسكرية تتفجر في أعماق نفسه، تلك الكراهية التي تستحوذ على كل كيانه عند رؤيته العدو. توقف قبالته وسأله باللغة الروسية عما إذا كان دروپتسكوي يسكن هنا. سمع روستوف صوتاً غريباً يخرج للقائه. فلما عرف روستوف، لم يستطع كتمان انزعاجه. لكنه مع ذلك اقترب منه مبتسماً وقال:

ـ آه! هذا أنت؟ أهلاً، أهلاً. سرتني رؤيتك.

أجاب روستوف ببرودة لأن البادرة الأولى التي ارتسمت على وجه

صديقه لم تفته: يبدو لي أنني أزعجك، أليس كذلك؟ لم أكن أرغب في المجيء لكن هناك مسألة اضطرتني...

ـ أبداً، أبداً! إنك لا تزعجني، لكنني دهشت عندما وجدتك بعيداً عن قطعتك.

وأجاب على صوت كان يناديه من الداخل: بعد لحظة أعود لأكون في تصرفكم.

كرر روستوف قوله: أنا أرى بوضوح أنني أزعجك.

تبددت آثار الانزعاج التي ارتسمت على وجه بوريس للوهلة الأولى. لقد استعاد هدوءه بعد أن أتيح له وقت للتفكير، فتوصل إلى القرار اللازم. أمسك بيدي نيكولا بهدوء وقاده إلى غرفة مجاورة. أخذ ينظر إليه بسكون حتى خيل إلى روستوف أن صديقه بدأ يستعمل القناع المعروف عند الأشخاص الذين يشقون طريقهم في المجتمع الراقي، قناع الحياة الزائفة. قال بوريس مجيباً: أبداً، إنك لا تزعجني. ما هذا القول؟ هل يمكن أن تسبب لي أنت أي إزعاج؟

واصطحبه بوريس إلى القاعة التي كان المدعوون منتظمين فيها بانتظار الطعام، فقدمه إليهم وبيّن لهم أنه ليس مذنباً بل ضابطاً من سلاح الفرسان، وصديقاً قديماً له. ثم قدم إليه الموجودين: الكونت جيلنسكي، الكونت ن.ن. الرئيس س.س. إلخ...

ألقى روستوف نظرة شرسة على الفرنسيين وحياهم بقساوة ثم لزم الصمت.

استقبل جيلنسكي هذا الدخيل في شيء من الحفاوة فلم يوجه إليه أية كلمة! أما بوريس، فتظاهر بأنه لم يشعر بالارتباك الذي أحدثه وصول روستوف، وراح شأن رجال المجتمع الراقي، يحاول إثارة الحديث بين الموجودين لإزالة الأثر الذي علق في النفوس. ورأى أحد الفرنسيين أن

روستوف لا يتكلم، فقال بالأدب المعروف عن بني قومه إنه يعتقد بأنه جاء إلى تيلسيت ليرى الأمبراطور. فأجابه روستوف بإيجاز: كلا، بل جئت بصدد قضية.

ساء مزاج نيكولا منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها بوادر التبرم على وجه بوريس فأخذ يتصور، كما هي الحالة في مثل هذه المواقف، أن كل الموجودين، والحقيقة أنه كان يزعجهم. لقد كان وحده بعيداً عن دائرة الحديث العام. فبدت الأنظار كلها كأنها تقول: «ماذا جاء يفعل هنا»؟ فنهض واقترب من بوريس وقال له بصوت منخفض: أشعر بأنني أزعجك. هيا بنا نتحدث قليلاً عن الموضوع الذي من أجله جئت وسأنسحب بعدئذ.

فأجابه بوريس: أنا لا أشعر بأي إزعاج. مع ذلك، إذا كنت تعباً، فهيا بنا إلى الغرفة المجاورة حيث يمكنك أن تستريح قليلاً.

ـ ذلك خير...

انسحبا إلى الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بوريس فلما دخلاها، بدأ روستوف دون أن يجلس، وكأن بوريس أساء إليه في شيء ما، يتحدث بصوت خشن، عارضاً عليه الأمر الذي دعاه إلى اللجوء إليه. سأله عما إذا كان يستطيع أو يريد التدخّل في هذا الموضوع بواسطة الجنرال الذي كان يشغل منصب الضابط المساعد عنده، ليرفع الملتمس عن طريقه إلى الأمبراطور؟ اقتنع نيكولا لأول مرة خلال تلك المقابلة الخاصة أنه لا يجرؤ على النظر إلى وجه بوريس نظرة صريحة. كان هذا جالساً، واضعاً ساقاً على ساق، يفرك يديه ويصغي إلى نيكولا وكأنه جنرال يصغي إلى تقرير أحد مرؤوسيه ونظرته تشرد تارة في أحد الأركان وطوراً تنصبّ بوقاحة على روستوف وكلما شعر هذا الأخير بتلك النظرة المحجوبة بستار الرسميات «والبروتوكول» تنحط عليه، كان يشيح بنظره. قال بوريس: لقد سمعت قصصاً من هذا القبيل وأعرف أن

الأمبراطور يظهر قسوة في مثل هذه الأمور. وفي رأيي أن من الأفضل عدم اللجوء إلى جلالته في هذه المسألة بل التوجه بها مباشرة إلى قائد الفيلق... ثم إنني أعتقد...

قال نيكولا دون أن يرفع نظره إلى بوريس:

ـ إذا كنت لا تريد المساهمة في هذا الأمر فقل ذلك بكل صراحة!

فأجاب هذا مبتسماً: بل على العكس، سأعمل كل ما أستطيعه. لكن رأيي...

وارتفع صوت جيلينسكي، في تلك اللحظة يدعو «بوريس» من وراء الباب. فقال نيكولا: هيا، إذهب، إذهب...

رفع مشاركة الضيوف في طعامهم. ولما أصبح وحده، راح يذرع الغرفة الصغيرة بعصبية، بينما كانت الضحكات المرحة، وأصوات الفرنسيين ترتفع من القاعة المجاورة.

الفصل العشرون

لم يستطع روستوف مقابلة الجنرال آمر الخدمة، إذ أخطأ في اختيار اللحظة المناسبة للمجيء إلى تيلسيت وكان في لباس مدني وقد غيب عن قطعته دون إجازة رسمية. أما بوريس، فإنه على فرض وجود النية الطيبة لديه ورغبته في أداء هذه الخدمة، ما كان يستطيع الشروع في تنفيذها غداة اليوم التالي لوصول صديقه القديم. والواقع أن في ذلك اليوم، السابع والعشرين من حزيران، جرى توقيع البنود التمهيدية للصلح، وتبادل الأمبراطوران أرفع أوسمتهما فتلقى ألكسندر الوشاح الأكبر لجوقة الشرف، وتقلد ناپليون وشاح سان أندريه الرفيع. بعد ذلك كان عليهما حضور حفلة كبرى يقيمها لواء من الحرس الأمبراطوري الفرنسي للواء من فيلق بريوبراجنسكي.

كان روستوف مرتبكاً في حضرة بوريس حتى أنه تظاهر بالنوم عندما رجع هذا إليه بعد العشاء. وفي صباح الغد اختفى في ساعة مبكرة دون أن يودعه. تاه في المدينة وهو في ثيابه المدنية يعتمر قبعة مستديرة، وراح يتأمل الفرنسيين في ألبستهم العسكرية ويتفحص الشوارع والبيوت التي ينزل فيها الأمبراطوران. وفي ساحة المدينة، لاحظ أن عدداً من الطاولات قد جهزت استعداداً لحفلة كبيرة. رأى الشوارع مزدانة بالأعلام الفرنسية والروسية، والحرفين الأولين «أ» و«ن» اللذين يرمزان إلى اسمي الأمبراطورين، مرفوعين في كل مكان على النوافذ، فلم تكن العين لترى أكثر من الأعلام والأحرف.

فكّر نيكولا في سره: «لا يريد بوريس أن يفعل شيئاً. ثم إنني لست متمسكاً بفكرة الركون إليه. لقد انتهى كل شيء بيننا. لكنني لن أرتحل من هنا

قبل أن أحاول المستحيل من أجل دينيسوف، وخصوصاً قبل أن أوصل رسالته إلى الأمبراطور... الأمبراطور؟ لكنه هنا!...».

ورغماً عنه، اقترب من الدار التي ينزل فيها ألكسندر وقد كانت بعض الخيول المسرجة، خيول الركوب، تزدحم قرب الباب وكان نفر من ضباط الحاشية يتقاطر حول المكان، فأيقن أن الأمير على وشك الخروج.

فكر روستوف: «إنني أستطيع أن أراه في كل لحظة. ليتني فقط أتمكن من تسليمه الملتمس يداً بيد، لأشرح له المسألة!... لكنني في ثياب مدنية، ولعلهم سيوقفونني من أجل ذلك! ولكن كلا، لن يحدث ذلك... إن الأمبراطور سيعرف جهة الحق فيدعمها. إنه يفهم كل شيء ويعرف كل شيء. من الذي يستطيع أن يكون أكثر عدالة أو كرماً منه؟... وبفرض أنهم أوقفوني لأنني هنا، ماذا يهم ذلك!...».

عندما رأى الضباط يدخلون إلى المقرّ الأمبراطوري دون عوائق قال لنفسه: «إه، لكنهم يدخلون بكل سهولة... هيا تشجع يا رجل! سوف أسلم الملتمس إلى الأمبراطور بنفسي. الحق على دروپتسكوي الذي أوصلني إلى اتخاذ مثل هذا التدبير».

وفجأة، وبعزم لم يعهده في نفسه، توجه روستوف مباشرة إلى مدخل المسكن وهو يلمس الملتمس في جيبه.

قال محدثاً نفسه: «لن أدع الفرصة تفوتني هذه المرة كما حدث في أوسترليتز!» كان يتوقع أن يرى نفسه بعد كل خطوة وجهاً إلى وجه مع الأمبراطور. وإزاء تلك الفكرة، كان الدم يقفز من كل أطرافه ليطفح به قلبه «سألقي بنفسي على قدميه مسترحماً، فيرفعني ويصغي إليّ، بل إنه سيشكرني كذلك». وأخذ خياله يسمع أذنه صوت الأمبراطور يقول له: «إنني سعيد إذ أستطيع فعل خير، وإن رفع الظلم عن بعضهم هو غاية سعادتي».

اجتاز الممشى تحت وابل من نظرات الضباط الفضولية وهناك، انتصب أمامه سلم عريض يقود إلى الطبقة الأولى مباشرة. وكان إلى اليمين باب مغلق. وفي أسفل السلم، باب آخر يطل على البناء الأرضي. سأله بعضهم:

ـ ماذا ترغب؟

فأجاب نيكولا وفي صوته رعدة:

ـ رفع ملتمس إلى جلالة الأمبراطور.

ـ ملتمس؟ إذهب إلى ضابط الخدمة. من هنا من فضلك. وأشار له إلى الباب الذي في أسفل السلم، لكنه لن يستقبلك.

عندما سمع روستوف ذلك الصوت الواضح، شعر بفداحة عمله. كانت فكرة استقبال الأمبراطور، ترعبه لدرجة أنه كان يفضل الفرار من هذا المأزق لولا أن فتح له الضابط المنوب باب غرفة ضابط الخدمة فاضطر إلى الدخول.

رأى رجلاً ضخماً في العقد الثالث من عمره، يرتدي سراويل بيضاء وينتعل حذاءي الفرسان طويلي الساق، واقفاً في منتصف الغرفة. كان قد انتهى من ارتداء قميص رقيق من «الباتيستا» الفاخرة وكان وصيفه يضع له حمالات السراول الجديدة الموشاة بالحرير. وكان يتحدث مع شخص آخر في غرفة مجاورة. وقد لفتت هذه الملاحظة انتباه روستوف. كان الرجل الضخم يقول: جيدة التكوين وبجمال الشيطان...

لكنه لما وقع نظره على روستوف، قطب حاجبيه وقطع حديثه وقال له: ماذا تريد؟... ملتمس؟...

وسمع الصوت الآخر يقول من داخل الغرفة: ما هذا؟

فأجابه الرجل ذو الحمالات الجديدة: إنه مستدع جديد.

ـ قل له أن يعود مرة أخرى. إنه على وشك الخروج يجب أن نمتطي خيولنا الآن.

دار روستوف على أعقابه وهم بالخروج عندما استوقفه الرجل الضخم سائلاً: من أنت؟ ومن طرف من الملتمس؟

ـ من طرف الماجور دينيسوف.

ـ وأنت من تكون؟ ضابط؟

ـ الملازم الكونت روستوف.

ـ يا للجرأة! أرسل الطلب عن طريق التسلسل. هيا، إذهب وأسرع، أسرع...

وارتدى ثوبه الذي جاء به الوصيف في تلك اللحظة.

عاد روستوف إلى الممشى فرأى عدداً كبيراً من الجنرالات والضباط في ثياب الحفلات مجتمعين عند باب البيت، فكان عليه أن يمر بينهم.

لعن جرأته، وخارت قواه لمجرد تفكيره في أنه سيغمر بالخجل ويوقف ويسجن في حضرة الأمبراطور. أدرك سوء تصرفه في تلك اللحظة فراح يتسلل مطأطئ الرأس خارجاً من ذلك البيت وعدد من الأتباع المرموقين محدقين إليه. وفجأة استوقفته يد أحدهم. سمع صوتاً منخفض الطبقة خشناً يقول له: هه أيها الباسل! ماذا تعمل هنا وفي ألبسة مدنية؟

عرف صاحب الصوت. كان قائد فيلقه القديم، وهو جنرال استطاع خلال الحملة الأخيرة أن يحظى بعطف الأمبراطور وتقديره. ارتبك روستوف لأول وهلة وهمّ بتبرير موقفه أمام الجنرال. لكنه اطمأن عندما رأى أمارات الطيبة مرتسمة على وجه هذا الأخير، فانتحى به جانباً وعرض عليه المسألة كلها وتوسل إليه أن يتدخل لمصلحة صديقه. وكان الجنرال يعرف دينيسوف جيداً، فهز رأسه بقلق وقال: إنها نهاية محزنة بالنسبة إلى هذا الباسل. أعطني الملتمس.

لم يكد روستوف يسلمه الرسالة حتى علا قرع المهاميز الدالة على

حركة الأقدام على السلم، فتركه الجنرال ليعود إلى مركزه. كان القادمون أفراد الحاشية وقد أسرعوا إلى خيولهم يمتطونها. وجاء أينو، وهو نفسه الذي كان في أوسترليتز، يقود جواد الأمبراطور. ارتفع وقع خطوات على السلم فلم يجد روستوف عناء في معرفة صاحبها نسي الخطر الذي ينتظره إذا اكتشف أمره فاقترب واختلط بين عدد من الفضوليين حتى وصل إلى الباب. استطاع أن يرى، بعد فترة عامين طويلين، تلك القسمات المعبودة، وتلك النظرة المعروفة والمشية إياها، ذلك المزيج من الجلال والحلم... استسلم مجدداً، كانت تتسلط عليه من قبل. كان ألكسندر يرتدي سراويل بيضاء وينتعل حذاءي الفرسان، وقد بدا في زي فيلق بريوبراجنسكي وعلى صدره وسام كان روستوف يجهل نوعه وكان وسام جوقة الشرف. كان يغطي يديه في قفازيه واضعاً قبعته ذات الزاويتين تحت إبطه. توقف عند المدخل وألقى نظرة حوله، نظرة أضاءت كل ما حوله. توجه بحديثه إلى بعض الجنرالات وتعرف فوراً إلى قائد فيلق روستوف السابق، فابتسم له وأشار إليه أن يقترب.

ابتعد كل أفراد الحاشية. فرأى روستوف ذلك الجنرال يتحدث فترة غير قصيرة مع الأمبراطور الذي أجابه ببعض كلمات واقترب خطوة نحو جواده. ومن جديد اقترب الفريقان، فريق الحاشية وفريق الفضوليين الذي كان روستوف في عدادهم. ولما وصل الأمبراطور إلى حيث كان جواده، وضع يده على السرج واستدار نحو الجنرال وقال له بصوت مرتفع، ساعياً أن يبلغ قوله مسامع المتجمهرين: لا أستطيع يا جنرال لأن القانون أرفع مني مقاماً.

ووضع قدمه في الركاب فانحنى للجنرال باحترام. امتطى الأمبراطور جواده ومضى. وبلغت الحماسة بروستوف مبلغ الهذيان فاندفع مع الجمهور في أعقاب ألكسندر.

الفصل الحادي والعشرون

كان لواءان يقفان متقابلين في الساحة التي ذهب إليها الأمبراطور، الأول إلى اليمين، لواء من فيلق بريوبراجينسكي، والثاني إلى اليسار لواء من الحرس المهاجم ذوي القبعات المصنوعة من الشعر.

وعندما وصل ألكسندر إلى أحد الجانبين اللذين يمثلان كل أقسام أسلحة الجيش كانت كوكبة من الخيالة تهدب نحو الجانب الآخر. عرف روستوف بغريزته أن السائر على رأس تلك الكوكبة الأخرى لم يكن إلا «ناپليون» ولا يمكن أن يكون أحد غيره. كانت قبعته الصغيرة على رأسه، وعلى صدره وشاح سان أندريه فوق ثوبه الأزرق الغامق الذي كان يكشف عند العنق عن صدارة بيبضاء وهو يمتطي صهوة جواد عربي رائع الجمال، تحلي ثوبه الرمادي، لبادة حمراء موشاة بالذهب. فلما أصبح بمحاذاة ألكسندر رفع قبعته. استطاعت عين الفارس روستوف أن تستشف، استناداً إلى تلك الحركة، أن «ناپليون» لم يكن خالياً من الارتباك والانفعال. ارتفعت الهتافات من حناجر جنود الألوية: هورّا! يعيش الأمبراطور! حدث نابليون «ألكسندر» بضع كلمات وترجل كلاهما وتصافحا. كان ناپليون يبتسم ابتسامة باهتة. أما ألكسندر فقد توجه إليه يحدثه ببشاشة.

كان يحفظ النظام بين الجماهير رجال من الدرك الفرنسيين رغم عدم استقرار جيادهم. راقب روستوف كل حركة من حركات الأمبراطورين لكن ما زاده دهشة، هو أن «ألكسندر» كان يعامل ناپليون معاملة الند للند. أما

بوناپرت، فكان من جانبه يبدو وكأن علاقته وتآلفه مع ألكسندر أمر طبيعي جداً يعود إلى زمن بعيد.

اقترب ناپليون وألكسندر وأتباعهما المتعددون نحو لواء بريوبراجنسكي على الجانب الأيمن وهما يمشيان في خط مستقيم نحو الجموع المحتشدة. اقترب الأمبراطوران وأتباعهما من المتجمهرين بعد، أن خشي روستوڤ ـ وكان في الصفوف الأولى ـ أن يُكتشف أمره.

ارتفع صوت حازم يبرز كل حرف من أحرف الكلمات بوضوح قائلاً: يا صاحب الجلالة، أطلب إليكم السماح بتقليد أشجع جندي من جنودكم وسام جوقة الشرف.

كان بوناپرت هو الذي يتكلم محدقاً إلى عيني ألكسندر من أعلى قامته القصيرة. فأصغى ألكسندر إلى كلماته بانتباه وأيدها بهزة من رأسه وابتسم ملاطفاً.

تابع ناپوليون محدداً عرضه وهو يقرع كل مقطع من مقاطع كلماته، بينما كانت عيناه تتصفحان صفوف الجنود الروس بهدوء واعتداد ثارت لهما نفس روستوڤ، في حين كان هؤلاء هادئين يقدمون التحية بالسلاح وعيونهم شاخصة إلى أمبراطورهم وحده:

ـ إلى ذلك الذي تصرف بأكثر بسالة خلال هذه الحرب الأخيرة.

فقال ألكسندر: هل تسمح لي جلالتكم باستشارة الكولونيل وأخذ رأيه؟

واتجه مسرعاً ببضع خطوات نحو الأمير كوزولوڤسكي الذي كان آمر اللواء. وفي تلك اللحظة نزع بوناپرت يده الصغيرة البيضاء من قفازها، فتمزق القفاز فألقاه جانباً. فأسرع أحد أفراد الحاشية يلتقطه.

سأل ألكسندر بصوته المنخفض الأمير كوزولوڤسكي:

ـ لمن نعطي الوسام؟

ـ إلى ذلك الذي تتفضلون جلالتكم باختياره.

قطب ألكسندر حاجبيه دلالة على عدم الرضى وقال وهو يلقي نظرة إلى الوراء: يجب إعطاءه الجواب رغم ذلك.

اعتزم كوزولوڤسكي أمراً، فطاف بالصفوف بنظرة بلغت مكان روستوڤ نفسه حتى أن هذا غمغم يحدث نفسه: أأكون أنا؟ ولم يلبث أن صاح بصوت شرس: لا زاريـڤ!

فتقدم الجندي الأول من الصف بخطوات عسكرية منسقة.

صاحت بعض الأصوات تحدث ذلك الجندي الباسل الذي لم يكن يدري أين يمضي:

ـ إلى أين تذهب؟ قف في مكانك!

فتوقف لازاريـڤ وهو يختلس نظرة مذعورة إلى وجه الكولونيل، كان وجهه متقلصاً بعصبية شأن كل جندي يستدعى في عرض عسكري شامل.

التفت نابليون التفاتة خفيفة من رأسه وحرك يده البيضاء كأنه يتناول شيئاً. فأسرع رجال الحاشية وقد أدركوا غايته من تلك الحركة، وماجت صفوفهم وهمسوا شيئاً تناقلته الشفاه إلى الآذان. وعندئذ أسرع تابع خاص، وهو الذي شاهد روستوڤ بالأمس عند بوريس، إلى حيث وقف سيده، فانحنى أمامه باحترام ووضع في اليد الممدودة وساماً ذا شريط أحمر. فضغط نابوليون بإصبعيه على الوسام دون أن ينظر إليه أو إلى قدمه واقترب من لازاريڤ الذي كان شاخص النظر إلى أمبراطوره بعينين جاحظتين فيهما عناد وإصرار ثم ألقى نظرة على ألكسندر وكأنه يقول إن ما يقوم به الآن، إنما هو من أجل حليفه لا أكثر. ارتفعت اليد البيضاء حاملة الوسام فاحتكت بثوب الجندي الروسي لازاريـڤ. كان نابليون يعتقد بلا شك أنه لكي يجعل هذا الجندي سعيداً إلى الأبد، ولكي يجعل منه مخلوقاً مغرقاً في الرعاية والإحسان، خلافاً لكل

مخلوقات العالم الآخر، يكفي أن تتنازل يده، هو ناپليون، بلمس صدره لمساً، لذلك اكتفى بأن ضغط صليب الوسام على صدر لازاريـف وسحب يده على الفور والتفت إلى ألكسندر كما لو كان واثقاً بأن الصليب سيبقى عالقاً في مكانه هناك. والواقع أنه بقي في مكانه معلقاً على صدر الجندي. ذلك أن يداً متلهفة فرنسية وروسية، تناولت الوسام على الفور وثبتته على صدر الجندي.

أثناء ذلك، نظر لازاريـف إلى الرجل القصير ذي اليدين البيضاوين، الذي قام بتلك الحركة، نظرة كئيبة، وهو مستمر في تقديم سلاحه بالتحية، ثم أشاح بنظره إلى ألكسندر وكأنه يسأل عما إذا كان يجب أن يبقى في مكانه أو يبتعد أو أن يفعل أي شيء آخر. ولما لم يتلق أي أمر، فقد ظل فترة طويلة منتصباً في مكانه ذاك في وضعيته.

اعتلى الأمبراطوران صهوتي جواديهما وابتعدا. فتفرقت صفوف لواء بريوبراجنسكي واختلط أفراده بجنود الحرس الفرنسيين الذين أقيمت الحفلة على شرفهم، وجلسوا إلى الطاولات.

احتلّ لازاريـف مكان الشرف. وكان ضباط من الفرنسيين والروس يهنئونه ويصافحونه بحرارة، وكان المدنيون والعسكريون على السواء يتدافعون ليحظوا بنظرة إلى وجهه. كانت الساحة كلها مدوية بأصداء الأحاديث والضحكات المرحة. مر ضابطان سعيدان، تشرب وجهاهما بحمرة النشوة، أمام روستوف. كان أحدهما يقول: يا له من احتفال يا عزيزي! لقد أخرجوا الأطباق الفضية ونثروها على الطاولات... هل رأيت لازاريـف؟

ـ نعم.

ـ سوف يقيم لواء بريوبراجنسكي حفلة على شرف الفرنسيين يوم غد على ما نُمي إليّ.

ـ يا له من محظوظ لازاريـف هذا! تصور أنه نال بذلك مائتي فرنك جراية سنوية.

وصاح أحد الجنود الروس، في تلك اللحظة، وهو يضع على رأسه قلنسوة أحد جنود الحرس: أنظروا إلى هذه القلنسوة يا أولاد! عاينوها!

ـ إنها جميلة جداً!

وقال أحد ضباط بريوبراجنسكي لزميل له: هل تعرف كلمة السر؟ لقد كانت أول أمس: «ناپوليون، فرنسا، شجاعة» وأمس: «ألكسندر، روسيا، عظمة». إن أمبراطورنا يعطي كلمة السر ثم يعطيها ناپوليون في اليوم التالي، سوف يعطي جلالته صليب سان جورج غداً إلى أشجع جنود الحرس الفرنسيين. يستحيل بغير ذلك أن نعيد إليهم بادرتهم المهذبة.

وصل بوريس وصديقه جيلنسكي يعاينان الوليمة بدورهما. وبينما هو يلتفت عفوياً، شاهد روستوف واقفاً عند زاوية أحد المنازل. قال له:

ـ مرحباً يا روسوف! لم نكد نقابل بعضنا بعضاً.

ولما رأى سحنته المكفهرة لم يتمالك من سؤاله عن السبب فقال روستوف: لا شيء، لا يوجد شيء.

ـ ألا تمر بي لتزورني.

ـ كيف لا، بلى.

بقي فترة طويلة واقفاً في زاويته يتأمل الحفل الصاخب. كان يشعر في أعماق نفسه بصراع عنيف لا يستطيع الوصول به إلى نتيجة مرضية. كانت شكوك مخيفة تسيطر على نفسه. فتارة يتذكر دينيسوف، وتعابير وجهه غير المألوفة وخضوعه غير المتوقع، فيرى ذلك في المستشفى القذر بمرضاه ورائحته التي تشبه رائحة جثث الموتى، فتلاحقه تلك الرائحة وتزكم منخريه حتى أنه كان يستدير ليرى مصدر تلك الرائحة الكريهة. وطوراً يتمثل بوناپرت،

ذلك الرجل الرضي ذا اليد البيضاء، الذي أصبح الآن معترفاً به كأمبراطور، والذي كان ألكسندر يظهر حياله احتراماً وتودداً. وإذن لمَ هؤلاء الموتى وأولئك الذين فقدوا أطرافهم؟ وكان أحياناً يفكر في لازاريـف والمكافأة التي منحت له، وفي دينيسوف وعقوبته التي لا يُنتظر الصفح عنها. لقد راودته أفكار غريبة جداً حتى أنه شعر بخوف منها.

فاحت رائحة الوليمة فأثارت شهيته إلى الطعام وأخرجته من أحلامه. كان مضطراً إلى تناول بعض الطعام قبل أن يعود إلى كوكبته. ذهب إلى فندق مر به ذلك الصباح فوجد فيه جمعاً غفيراً من الناس ومن الضباط في ثياب مدنية مثله، حتى أنه وجد صعوبة كثيرة في الحصول على الطعام. انضم إليه ضابطان من فيلقه ودار الحديث حول الصلح طبعاً. كان أولئك السادة، أسوة بعدد كبير من مؤيديهم في الجيش، يستنكرون ذلك الصلح بعد معركة فريدلاند. كانوا يزعمون أن الجيش الروسي لو قاوم مدة أخرى لقضي على ناپليون، وأن جنوده لم يعودوا يملكون ذخيرة وعتاداً ومؤونة كافية. كان نيكولا يتناول طعامه ويكثر من الشراب دون أن ينبس بكلمة. ارتشف وحده زجاجتين من الخمر. كان لا يزال فريسة لذلك الصراع الداخلي المرير، يخشى الاستسلام لتفكيره وتأملاته دون أن يستطيع مع ذلك التخلص منها. وفجأة، وبعد أن قال أحد محدثيه إنه مخجل أن يرى المرء نفسه قبالة الفرنسيين، تصاعد الدم إلى وجه روستوف وصاح بحرارة لم يكن يبررها ذلك القول، مما أثار دهشة المتكلم والضباط كلهم:

ـ كيف يمكنك أن تعرف الأفضل؟ هل أنت الذي تحكم على تصرف الأمبراطور؟ من الذي يعطينا الحق في مناقشة ذلك؟ إننا لا نستطيع أن نعرف خططه وتصرفاته ولا أن نفهمها.

فأجاب الضابط معترضاً وهو يعزو اندفاع صديقه الفجائي إلى عامل الخمر: لكنني لم أتفوه بكلمة واحدة عن جلالته.

لكن روستوف لم يلق بالاً على أقوال الضابط، بل استمر يقول بأشد حماسة:

ـ نحن لسنا سياسيين بل جنود ليس إلا. فإذا أمرنا أن نموت فما علينا إلا أن نموت. وإذا عوقبنا فما ذلك إلا لأننا مذنبون. ليس من حقنا أن نناقش. وإذا راق جلالته الاعتراف ببونابرت كأمبراطور وعقد حلفاً معه، فإن معنى ذلك أنه ضرورة. فإذا رحنا نتدخل في الأمور ونناقشها، كان معنى ذلك انعدام كل شيء مقدس.

وازداد انفعالاً فضرب الطاولة بقبضة يده وصاح متمماً:

ـ... وإلا بإمكاننا أن نقول إذن بأن الله غير موجود وأنه لا يوجد شيء في الدنيا! إن دورنا في الحياة هو القيام بواجبنا دون التفكير في شيء!

كان واضحاً أن ذلك اللوم العنيف، رغم ما بدا عليه في نظر المستمعين من أنه في غير محله، يشغل ركناً متيناً في سياق أفكار روستوف. فلما انتهى من حديثه بتلك الجملة، بادر أحد الضباط معقباً لتلافي كل نزاع أو قيام مشادة غير مرغوب فيها:

ـ وأن نشرب!

فأيده نيكولا قائلاً: نعم، وأن نشرب.

وصاح بالنادل آمراً:

ـ يا من هناك! زجاجة أخرى.

المحتويات

... راح يفكر: «إن الإنسان يجب أن يقول شيئاً في مثل هذه المناسبات». لكنه لم يتذكر كلمة واحدة من ذلك الشيء الذي يجب أن يقال. حدق إلى وجهها، فاقتربت منه محمرّة الوجه. قالت وهي تشير إلى نظارتيه: آه! إرفع هذه الـ... هذه الـ...

فأطاعها بيار ونزع نظارتيه فبدت عيناه مروعتين مستفسرتين إلى جانب التعبيرات الأخرى التي كانت مرتسمة فيهما، تلك التعبيرات المألوفة عند الذين درجوا على استعمال النظارات عندما ينزعونها. أراد أن ينحني ليقبل يدها، لكن هيلين، بحركة عنيفة من رأسها، سريعة غير متوقعة، قربت شفتيها من شفتيه وضغطت بهما عليهما. انقلبت سحنتها بشكل غريب حتى أن بيار شُده لذلك التحول.

(اقرأ وأعيد قراءة هذه الصفحات الأزلية. فلا تأمل أن تجد ما يوازيها في مكان آخر). (آلان)



ISBN 978-614-432-522-3
9 786144 325223